محققة عن نسخة خطية كاملة، وعن مطبوعة الشعب وأكثر من عشر نسخ خطية أخرى يستوعب مجموعها التفسير كله.

# تفسير القرآن العظيم


للحافظ

أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي

(٧٠٠ - ٧٧٤هـ)


تحقيق

سامي بن محمد السلامة

الجزء الرابع

الأنفال - النحل


دار طيبة للنشر والتوزيع

بسم اللہ الرحمن الرحیم

## تفسير سورة الأنفال

وهي مدنية[١]، آياتها سبعون وست آيات[٢]، كلماتها ألف كلمة، وستمائة كلمة، وإحدى[٣] وثلاثون كلمة، حروفها خمسة آلاف ومائتان، وأربعة وتسعون [٤]حرفا، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١) ﴾.

قال البخاري: قال ابن عباس: الأنفال: الغنائم: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا سعيد بن سليمان، أخبرنا هُشَيْم، أخبرنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر.

أما ما عَلَّقَه عن ابن عباس، فكذلك رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أنه قال: «الأنفال»: الغنائم، كانت لرسول الله ﷺ خالصة، ليس لأحد منها [٥]شيء. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، والضحاك، وقتادة، وعطاء الخراساني، ومقاتل بن حَيَّان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد أنها الغنائم[٦].

وقال الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس أنه قال: الأنفال: الغنائم، قال فيها لَبِيدٌ:

إنّ تَقْوى رَبّنا خيرُ نَفَلْ ... وبإذْنِ الله رَيْثي وَعَجَلْ[٧]

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني مالك بن أنس، عن ابن شهاب، عن القاسم بن محمد قال: سمعت رجلا يسأل ابن عباس عن «الأنفال»، فقال ابن عباس، رضي الله عنهما: الفرس من النَّفَل، والسلبَ من النفل. ثم عاد لمسألته، فقال ابن عباس ذلك أيضا. ثم قال الرجل: الأنفال التي قال الله في كتابه، ما هي؟ قال القاسم: فلم يزل يسأله حتى كاد يُحرجه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مثل هذا، مثل صَبِيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب[٨].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، عن القاسم بن محمد قال: قال ابن عباس: كان

---

(١) في د: «مكية».
(٢) في د، م: «ستة وأربعون»، وفي أ: «أربعون وست آيات».
(٣) في د: «واحد».
(٤) في د: «سبعون».
(٥) في د: «فيها».
(٦) في د، ك، م: «المغانم».
(٧) البيت في تفسير الطبري (١٣/ ٣٦٦) ولسان العرب مادة (نفل).
(٨) تفسير الطبري (١٣/ ٣٦٤).

عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إذا سئل عن شيء قال: لا آمرك ولا أنهاك. ثم قال ابن عباس: والله ما بعث الله نبيه ﷺ إلا زاجرا آمرا محلا محرما. قال القاسم: فَسُلِّطَ على ابن عباس رجل يسأله[١] عن الأنفال، فقال ابن عباس: كان الرجل ينفل فرس الرجل وسلاحه. فأعاد عليه الرجل، فقال له مثل ذلك، ثم أعاد عليه حتى أغضبه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مثل هذا؟ مثل صَبِيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب، حتى سالت الدماء على عقبيه ـ أو على: رجليه ـ فقال الرجل: أما أنت فقد انتقم الله لعمر منك[٢].

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس: أنه فسر النفل بما ينفله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه، بعد قسم أصل المغنم، وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل، والله أعلم.

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: إنهم سألوا رسول الله ﷺ عن الخمس بعد الأربعة الأخماس، فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ﴾ [٣].

وقال ابن مسعود ومسروق: لا نفل يوم الزحف، إنما النفل قبل التقاء الصفوف. رواه ابن أبي حاتم عنهما.

وقال ابن المبارك وغير واحد، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ﴾ ، قال: يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين في غير قتال، من دابة أو عبد أو أمة أو متاع، فهو نفل للنبي ﷺ يصنع به ما يشاء.

وهذا يقتضي أنه فسر الأنفال بالفيء، وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: هي أنفال السرايا، حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا علي ابن صالح بن حي قال: بلغني في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ﴾ قال: السرايا.

ويعني[٤] هذا: ما ينفله الإمام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش، وقد صرح بذلك الشعبي، واختار ابن جرير أنها الزيادات على القسم، ويشهد لذلك ما ورد في سبب نزول الآية، وهو ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا أبو إسحاق الشيباني، عن محمد ابن عبد الله[٥] الثقفي، عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان يوم بدر، وقتل أخي عُمَيْر، وقتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه، وكان يسمى «ذا الكتيفة»، فأتيت به نبي الله ﷺ، فقال: «اذهب فاطرحه في القبض». قال: فرجعت وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلبي. قال: فما جاوزت إلا يسيرا حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله ﷺ: «اذهب فخذ سيفك»[٦].

---

(١) في د، ك، م: «فسأله» وفي أ: «سأله».

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٣١) وصبيغ هو «ابن عسل» ويقال: «ابن سهل» التميمي. انظر قصته في: الإصابة (٢/ ١٩٨).

(٣) رواه الطبري في تفسيره (١٣/ ٣٦٥).

(٤) في د: «ومعنى».

(٥) في أ: «عبيد الله».

(٦) المسند (١/ ١٨٠).

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا أسود بن عامر، أخبرنا أبو بكر، عن عاصم بن أبي النَّجود، عن مصعب بن سعد، عن سعد بن مالك قال: قال: يا رسول الله، قد شفاني الله اليوم من المشركين، فهب لي هذا السيف. فقال: «إن هذا السيف لا لك ولا لي، ضعه» قال: فوضعته، ثم رجعت، قلت: عسى أن يعطى هذا السيف اليوم من لا يبلي بلائي! قال: رجل[1] يدعوني من ورائي، قال: قلت: قد أنزل الله في شيئا؟ قال: «كنت سألتني السيف، وليس هو لي وإنه قد وهب لي، فهو لك» قال: وأنزل الله هذه الآية: ﴿يَسأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ .

ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي من طرق، عن أبي [بكر][2] بن عياش، به[3]. وقال الترمذي: حسن صحيح.

وهكذا رواه أبو داود الطيالسي: أخبرنا شعبة، أخبرنا سماك بن حرب، قال: سمعت مصعب بن سعد، يحدث عن سعد قال: نزلت فيّ أربع آيات: أصبت سيفا يوم بدر، فأتيت النبي ﷺ فقلت: نَفِّلْنيه. فقال: «ضعه من حيث أخذته.» مرتين، ثم عاودته فقال النبي ﷺ: «ضعه من حيث أخذته.»، فنزلت هذه الآية: ﴿يَسأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ﴾[4].

وتمام الحديث في نزول: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا[5]﴾ [العنكبوت: ٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾[المائدة: ٩٠]، وآية الوصية. وقد رواه مسلم في صحيحه، من حدث شعبة، به[6].

وقال محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر، عن بعض بني ساعدة قال: سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة يقول: أصبت سيف ابن عائذ يوم بدر، وكان السيف يدعى بالمرزبان، فلما أمر رسول الله ﷺ الناس أن يردوا ما في أيديهم من النفل، أقبلت به فألقيته في النفل، وكان رسول الله ﷺ لا يمنع شيئا يسأله، فرآه الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، فسأله رسول الله [ﷺ][7]، فأعطاه إياه[8].

ورواه ابن جرير من وجه آخر:

**[سبب آخر في نزول الآية]:**

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن سلمة، عن ابن إسحاق، عن عبد الرحمن، عن[9] سليمان ابن موسى، عن مكحول، عن أبي أمامة قال: سألت عبادة عن الأنفال، فقال: فينا ـ أصحاب بدر ـ

---

(١) في أ: «إنا رجل». (٢) زيادة من ك، م، أ .

(٣) المسند (١/ ١٧٨) وسنن أبي داود برقم (٢٧٤٠) وسنن الترمذي برقم (٣٠٧٩) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١١٩٦).

(٤) مسند الطيالسي برقم (٢٠٨) . (٥) في أ: «إحسانا».

(٦) صحيح مسلم برقم (١٧٤٨) .

(٧) زيادة من ك، أ.

(٨) رواه الطبري في تفسيره (١٣/ ٣٧٤) من طريق ابن إسحاق به.

(٩) في د: «بن» .

نزلت، حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا، وجعله إلى رسول الله ﷺ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء ـ يقول: عن سواء[١].

وقال أحمد أيضا: حدثنا معاوية بن عمرو، أخبرنا أبو[٢] إسحاق، عن عبد الرحمن بن الحارث ابن عبد الله بن عياش[٣] بن أبي ربيعة، عن سليمان بن موسى، عن أبي سلام، عن أبي أمامة، عن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع النبي ﷺ، فشهدت معه بدرا، فالتقى الناس، فهزم الله [تعالى][٤] العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأكبت[٥] طائفة على العسكر يحوونه ويجمعونه. وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لايصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها، فليس لأحد فيها نصيب. وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق به منا، نحن منعنا[٦] عنها[٧] العدو وهزمناهم. وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق منا، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ، وخفنا أن يصيب العدو منه غرة، فاشتغلنا به، فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين ـ وكان رسول الله إذا غار في أرض العدو نفل الربع، فإذا أقبل وكل الناس راجعا، نفل الثلث، وكان يكره الأنفال ويقول: «ليرد قوي المؤمنين على ضعيفهم».

ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث سفيان الثوري، عن عبد الرحمن بن الحارث به نحوه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن. ورواه ابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه من حديث عبد الرحمن بن الحارث[٨]، وقال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه.

وروى أبو داود والنسائي، وابن جرير، وابن مردويه ـ واللفظ له ـ وابن حبان، والحاكم من طرق، عن داود ابن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا». فتسارع[٩] في ذلك شبان الرجال، وبقي الشيوخ تحت الرايات، فلما كانت المغانم، جاؤوا يطلبون الذي جعل لهم، فقال الشيوخ: لا تستأثروا علينا، فإنا كنا ردءا لكم، لو انكشفتم لفئتم[١٠] إلينا. فتنازعوا فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[١١].

وقال الثوري، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله

---

(١) المسند (٥/ ٣٢٢).

(٢) في م، د: «ابن». (٣) في أ: «عباس». (٤) زيادة من د، م.

(٥) في د: «وأقبلت». (٦) في د، ك، م، أ: «نفينا». (٧) في د: «عنه».

(٨) المسند (٥/ ٣٢٤) وسنن الترمذي برقم (١٥٦١) وسنن ابن ماجة برقم (٢٨٥٢) وصحيح ابن حبان برقم (١٦٩٣) «موارد». والمستدرك (٢/ ١٣٦).

(٩) في جميع النسخ: «فتنازع»، والمثبت من الطبري. (١٠) في د: «لفئتم».

(١١) سنن أبي داود برقم (٢٧٣٧) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١١٩٧) وتفسير الطبري (١٣/ ٣٦٨) والمستدرك (٢/ ٣٢٦).

ﷺ: «من قتل قتيلا فله كذا وكذا، ومن أتى بأسير فله كذا وكذا» . فجاء أبو اليَسَر بأسيرين، فقال: يا رسول الله،[١] وعدتنا، فقام سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله، إن أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء، وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة في الأجر، ولا جبن عن العدو، وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك، نخاف أن يأتوك من ورائك، فتشاجروا، ونزل القرآن: ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول﴾ قال: ونزل القرآن: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه [وللرسول][٢]﴾ إلى آخر الآية [الأنفال: ٤١][٣].

وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام، رحمه الله، في كتاب «الأموال الشرعية وبيان جهاتها ومصاريفها»: أما الأنفال: فهي المغانم، وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب، فكانت الأنفال الأولى إلى النبي ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول﴾ فقسمها يوم بدر على ما أراده الله من غير أن يخمسها على ما ذكرناه في حديث سعد، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس، فنسخت الأولى[٤].

قلت: هكذا روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، سواء. وبه قال مجاهد، وعكرمة والسُّدِّي.

وقال ابن زيد: ليست منسوخة، بل هي محكمة.

قال أبو عبيد: وفي ذلك آثار، والأنفال أصلها جمع[٥] الغنائم، إلا أن الخمس منها مخصوص لأهله على ما نزل به الكتاب، وجرت به السنة. ومعنى الأنفال في كلام العرب: كل إحسان فعله فاعل تفضلا من غير أن يجب ذلك عليه، فذلك النفل الذي أحله الله للمؤمنين من أموال عدوهم وإنما هو شيء خصه الله به تطولا منه عليهم بعد أن كانت المغانم محرمة على الأمم قبلهم، فنفلها الله هذه الأمة فهذا أصل النفل.

قلت: شاهد هذا في الصحيحين عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي» فذكر الحديث، إلى أن قال: «وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي»، وذكر تمام الحديث[٦].

ثم قال أبو عبيد: ولهذا سمي ما جعل الإمام للمقاتلة نفلا، وهو تفضيله بعض الجيش على بعض بشيء سوى سهامهم، يفعل ذلك بهم على قدر الغناء عن الإسلام والنكاية في العدو. وفي النفل الذي ينفله الإمام سنن أربع، لكل واحدة منهن موضع غير موضع الأخرى:

---

(١) في أ: «يا رسول الله إنك». (٢) زيادة من أ.

(٣) رواه عبد الرزاق في المصنف برقم (٩٤٨٣) عن الثوري به.

(٤) الأموال (ص٤٢٦).

(٥) في د، ك، أ: «جمع».

(٦) انظر، تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية: ٤٣ من سورة النساء.

**فإحداهن:** في النفل لا خمس فيه، وذلك السلب.

**والثانية:** في النفل الذى يكون من الغنيمة بعد إخراج الخمس، وهو أن يوجه الإمام السرايا في أرض الحرب، فتأتى بالغنائم فيكون للسرية مما جاءت به الربع أو الثلث بعد الخمس.

**والثالثة:** في النفل من الخمس نفسه، وهو أن تحاز الغنيمة كلها، ثم تخمس، فإذا صار الخمس في يدى الإمام نفل منه على قدر ما يرى.

**والرابعة:** في النفل في جملة الغنيمة قبل إن يخمس منها شيء، وهو أن يعطى الأدلاء ورعاة الماشية والسُّوَّاق لها، وفي كل ذلك اختلاف.

قال الربيع: قال الشافعي: الأنفال: ألا يخرج من رأس الغنيمة قبل الخمس شيء غير السلب.

قال أبو عبيد: والوجه الثانى من النفل هو شيء زيدوه غير الذى كان لهم، وذلك من خمس النبي ﷺ؛ فإن له خمس الخمس من كل غنيمة، فينبغى للإمام أن يجتهد ، فإذا كثر العدو واشتدت شوكتهم، وقل من بإزائه من المسلمين، نفل منه اتباعا لسنة رسول الله ﷺ، وإذا لم يكن ذلك لم ينفل.

والوجه الثالث من النفل: إذا بعث الإمام سرية أو جيشًا، فقال لهم قبل اللقاء: من غنم شيئًا فله بعد الخمس، فذلك لهم على ما شرط الإمام؛ لأنهم على ذلك غزوا، وبه رضوا. انتهى كلامه[(١)].

وفيم تقدم من كلامه وهو قوله: «إن غنائم بدر لم تخمس»، نظر. ويرد عليه حديث على بن أبى طالب في شارفيه اللذين حصلا له من الخمس يوم بدر، وقد بينت ذلك في كتاب السيرة بيانًا شافيا[(٢)]، ولله الحمد [والمنة][(٣)].

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ اى: اتقوا الله في أموركم، وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا؛ فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: في قسمه بينكم على ما أراده الله، فإنه قسمه[(٤)] كما أمره الله من العدل والإنصاف.

وقال ابن عباس: هذا تحريج من الله على المؤمنين أن يتقوا [الله][(٥)] ويصلحوا ذات بينهم. وكذا قال مجاهد.

وقال السدى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أى: لا تستبوا. ونذكر هاهنا حديثا أورده الحافظ أبو يعلى أحمد بن على بن المثنى الموصلى، رحمه الله، في مسنده، فإنه قال: حدثنا مجاهد

---

(١) الأموال (ص٤٣١).

(٢) السيرة لابن كثير (٢/٤٦٦).

(٣) زيادة من أ. (٤) في أ: «يقسمه». (٥) زيادة من أ.

ابن موسى، حدثنا عبد الله بن بكر[١]، حدثنا عباد بن شيبة الحبطى[٢]، عن سعيد بن أنس، عن أنس، رضى الله عنه، قال: بينا رسول الله ﷺ جالس، إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه، فقال عمر: ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ فقال: «رجلان جثيا من أمتي بين يدى رب العزة، تبارك وتعالى، فقال أحدهما: يا رب، خذ لي مظلمتي من أخي. قال الله تعالى: أعط أخاك مظلمتك. قال: يا رب، لم يبق من حسناتي شيء. قال: رب، فليحمل عنى من أوزاري» قال: قال: وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء، ثم قال: «إن ذلك[٣] ليوم عظيم، يوم يحتاج الناس إلى من يتحمل عنهم من أوزارهم، فقال الله تعالى للطالب: ارفع بصرك فانظر في الجنان، فرفع رأسه فقال: يا رب، أرى مدائن من فضة وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ، لأى نبى هذا؟ لأى صديق هذا؟ لأى شهيد هذا؟ قال: هذا لمن أعطى الثمن. قال: يا رب، ومن يملك ذلك؟ قال: أنت تملكه. قال: ماذا يا رب؟ قال: تعفو عن أخيك. قال: يا رب، فإنى قد عفوت عنه. قال الله تعالى: خذ بيد أخيك فأدخله الجنة». ثم قال رسول الله ﷺ: «فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، فإن الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة»[٤].

**﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)﴾.**

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فأدوا فرائضه. ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ يقول: تصديقًا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يقول: لا يرجون غيره.

وقال مجاهد: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فرقت، أى: فزعت وخافت. وكذا قال السدى وغير واحد.

وهذه صفة المؤمن حق المؤمن، الذى إذا ذكر الله وجل قلبه، أى: خاف منه، ففعل أوامره، وترك زواجره. كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] ولهذا قال سفيان الثورى: سمعت السدى يقول فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ

---

(١) في أ: «كثير». (٢) في د، أ: «الحنظلي». (٣) في د، م: «وذلك».

(٤) ورواه الحاكم في المستدرك (٤/٥٧٦) من طريق عبد الله بن بكر السهمي به. وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبي فقال: «عباد بن شيبة الحبطي، عن سعيد، والأول ضعيف، وشيخه لا يعرف».

﴿قُلُوبُهُمْ﴾ قال: هو الرجل يريد أن يظلم ـ أو قال: يهم بمعصية ـ فيقال له: اتق الله فَيَجِل[1] قلبه.

وقال الثوري أيضاً: عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قالت: الوجل في القلب إحراق[2] السعفة، أما تجد لها قشعريرة؟ قال: بلى. قالت لي: إذا وجدت ذلك فادع الله عند ذلك، فإن الدعاء يذهب ذلك.

وقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا [وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ]﴾[3]، كقوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها، على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة، كالشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبي عبيد، كما بينا ذلك مستقصى في أول الشرح[4] البخاري، ولله الحمد والمنة.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك، وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب؛ ولهذا قال سعيد ابن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، ينبه بذلك على أعمالهم، بعد ما ذكر اعتقادهم، وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، وهو إقامة الصلاة، وهو حق الله تعالى.

وقال قتادة: إقامة الصلاة: المحافظة على مواقيتها[5]، ووضوئها، وركوعها، وسجودها.

وقال مقاتل بن حيان: إقامتها: المحافظة على مواقتها، وإسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبي ﷺ، هذا إقامتها.

والإنفاق مما رزقهم الله يشمل خراج[6] الزكاة، وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب، والخلق كلهم عيال الله، فأحبهم[7] إلى الله أنفعهم لخلقه.

قال قتادة في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾: فأنفقوا مما أعطاكم الله، فإنما هذه الأموال عواري وودائع عندك يا ابن آدم، أو شكت أن تفارقها.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي: المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان.

---

(١) في م: «فيوجل». (٢) في أ: «كإحراق». (٣) زيادة من ك.
(٤) في أ: «شرح». (٥) في م: «أوقاتها». (٦) في ك، م: «إخراج».
(٧) في د: «أحبكم».

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثنا ابن لَهِيعَة، عن خالد بن يزيد[١] السَّكْسَكِيّ، عن سعيد بن أبي هلال، عن محمد بن أبي الجهم، عن الحارث بن مالك الأنصاري، أنه مر برسول الله ﷺ فقال له: «كيف أصبحت يا حارث؟» قال: أصبحت مؤمنا حقا. قال: «انظر ماذا[٢] تقول، فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟» فقال: عَزَفَت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يَتَضاغَوْنَ فيها، فقال: «يا حارث، عرفت فالزم» ثلاثا[٣].

وقال عمرو بن مُرَّة في قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾: إنما أُنزِلَ[٤] القرآن بلسان العرب، كقولك: فلان سيد حقا، وفي القوم سادة، وفلان تاجر حقا، وفي القوم تجار، وفلان شاعر حقا، وفي القوم شعراء.

وقوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: منازل ومقامات ودرجات في الجنات، كما قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[آل عمران: ١٦٣].

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: يغفر لهم السيئات، ويشكر لهم الحسنات.

وقال الضحاك في قوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه، ولا يرى الذي هو أسفلُ أنه فُضِّل عليه أحد.

ولهذا جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل علّيين ليراهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء»، قالوا[٥]: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا ينالها غيرهم؟ فقال: «بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين»[٦].

وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد [و][٧] أهل السنن من حديث عَطِية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الدرجات العلى كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعمَا»[٨].

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى

---

(١) في د، م: «زيد».     (٢) في م، أ: «ما».

(٣) المعجم الكبير (٣/٢٦٦) قال الهيثمي في المجمع (١/٥٧): «فيه ابن لهيعة وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه».

(٤) في د، ك، م: «نزل».     (٥) في أ: «فقالوا».

(٦) صحيح البخاري برقم (٣٢٥٦) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣١) من حديث أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه.

(٧) زيادة من د، ك، م، أ.

(٨) المسند (٣/٦١) وسنن أبي داود برقم (٣٩٨٧) وسنن الترمذي برقم(٣٦٥٨) وسنن ابن ماجة برقم (٩٦).

الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

قال الإمام أبو جعفر الطبري: اختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه «الكاف» في قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾، فقال بعضهم: شبَّه به في الصلاح للمؤمنين، اتقاؤهم ربهم، وإصلاحهم ذات بينهم، وطاعتهم الله ورسوله.

ثم روى عن عكرمة نحو هذا.

ومعنى هذا أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم في المغانم وتشاححتم فيها فانتزعها الله منكم، وجعلها إلى قَسْمه وقَسْم رسوله ﷺ[١]، فقسمها على العدل والتسوية، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة ـ وهم[٢] النفير الذين خرجوا لنصر دينهم، وإحراز عيرهم ـ فكان عاقبة، كراهتكم للقتال ـ بأن قدَّره لكم، وجَمَع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد ـ رَشَدًا وهدى، ونصرا وفتحا، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

قال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ على كره من فريق من المؤمنين، كذلك هم كارهون للقتال، فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم، ثم روى نحوه عن مجاهد أنه قال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ قال: كذلك يجادلونك في الحق.

وقال السُّدِّي: أنزل الله في خروجه[٣] إلى بدر ومجادلتهم إياه فقال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ لطلب المشركين ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾.

وقال بعضهم: يسألونك عن الأنفال مجادلة، كما جادلوك يوم بدر فقالوا: أخرجتنا للعير، ولم تعلمنا قتالا فنستعدَّ له.

قلت: رسول الله ﷺ إنما خرج من المدينة طالبا لعير أبي سفيان، التي بلغه خبرها أنها صادرة من الشام، فيها أموال جزيلة لقريش، فاستنهض رسول الله ﷺ المسلمين من خَفَّ منهم، فخرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، وطلب نحو الساحل من على طريق بدر، وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ في طلبه، فبعث ضَمْضَم بن عمرو نذيرا إلى مكة، فنهضوا في قريب من ألف مُقَنَّع، ما بين التسعمائة إلى الألف، وتيامن أبو سفيان بالعير إلى سيف البحر فَنَجا، وجاء النفير فوردوا ماء بدر، وجمع الله المسلمين والكافرين على غير ميعاد، لما يريد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين

---

(١) في ك، م، أ: «صلوات الله وسلامه عليه».
(٢) في د: «وهو».
(٣) في د: «خروجهم».

ونصرهم على عدوهم، والتفرقة[1] بين الحق والباطل، كما سيأتى بيانه.

والغرض: أنَّ رسول الله ﷺ لما بلغه خروج النفير، أوحى الله إليه يَعِدهُ إحدى الطائفتين: إما العير وإما النَّفير، ورغب كثير من المسلمين إلى العير؛ لأنه كسب بلا قتال، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾.

قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه فى تفسيره: حدثنا سليمان بن أحمد الطبرانى، حدثنا بكر بن سهل، حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا ابن لَهِيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، عن أسلم أبى عمران حدثه أنه سمع أبا أيوب الأنصارى يقول: قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة: «إنى أخبرت عن عير أبى سفيان أنها مقبلة فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله يُغْنِمناها؟» فقلنا: نعم، فخرج وخرجنا، فلما سرنا يوما أو يومين قال لنا: «ما ترون فى قتال القوم؛ فإنهم قد أخبروا بمخرجكم؟» فقلنا: لا، والله ما لنا طاقة بقتال العدو، ولكنا أردنا العير، ثم قال: «ما ترون فى قتال القوم؟» فقلنا مثل ذلك فقال المقداد بن عمرو: إذاً لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، قال: فتمنينا ـ معشر الأنصار ـ أن لو قلنا كما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم، قال: فأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ وذكر تمام الحديث[2].

ورواه ابن أبى حاتم، من حديث ابن لهيعة، بنحوه.

ورواه ابن مَرْدُويه أيضاً من حديث محمد بن عمرو بن عَلْقَمة بن وقاص الليثى، عن أبيه، عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بدر، حتى إذا كان بالرَّوْحاء، خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله، بلغنا أنهم بمكان كذا وكذا. قال: ثم خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال عمر مثل قول أبو بكر. ثم خطب الناس فقال: «كيف تَرَوْن؟» فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله إيانا تريد؟ فو الذى أكرمك [بالحق][3] وأنزل عليك الكتاب، ماسلكتها قَط ولا لى بها علم، ولئن سرت [بنا][4] حتى تأتى «بَرْكَ الغماد» من ذى يمن لنسيرن معك، ولانكون كالذين قالوا لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم متبعون، ولعلك أن تكون خرجت لأمر، وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذى أحدث الله إليك، فامض له، فَصِلْ حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وعاد من شئت، وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، فنزل القرآن على قول سعد: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ الآيات.

وقال العَوْفى، عن ابن عباس: لما شاور النبى ﷺ فى لقاء العدو، وقال له سعد بن عبادة ما قال

(١) فى د: «التفريق».

(٢) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٤/ ١٧٤).

(٣) زيادة من م. (٤) زيادة من أ.

وذلك يوم بدر، أمر الناس فعبئوا للقتال، وأمرهم بالشوكة، فكره ذلك أهل الإيمان، فأنزل الله: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون . يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾.

وقال مجاهد: يجادلونك في الحق: في القتال. وقال محمد بن إسحاق: ﴿يجادلونك في الحق [بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون][1]﴾ أي: كراهية للقاء المشركين، وإنكار لمسير قريش حين ذكروا لهم.

وقال السدي: ﴿يجادلونك في الحق بعد ما تبين﴾ أي: بعد ما تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك الله به.

قال ابن جرير: وقال آخرون: عنى بذلك المشركين.

حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾ قال: هؤلاء المشركون، جادلوه في الحق ﴿كأنما يساقون إلى الموت﴾ حين يدعون إلى الإسلام ﴿وهم ينظرون﴾ قال: وليس هذا من صفة الآخرين، هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر.

ثم قال ابن جرير: ولا معنى لما قاله؛ لأن الذي قبل قوله: ﴿يجادلونك في الحق﴾ خبر عن أهل الإيمان، والذي يتلوه خبر عنهم، والصواب قول ابن عباس وابن إسحاق أنه خبر عن المؤمنين.

وهذا الذي نصره ابن جرير هو الحق، وهو الذي يدل عليه سياق الكلام، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا يحيى بن أبي بكير وعبد الرزاق قالا: حدثنا إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالعير ليس دونها شيء فناداه العباس بن عبد المطلب ـ قال عبد الرزاق: وهو أسير في وثاقه ـ ثم اتفقا: إنه لا يصلح لك، قال: ولم؟ قال: لأن الله عز وجل إنما وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك ما وعدك[2].

إسناد جيد، ولم يخرجه[3].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾ أي: يحبون أن الطائفة التي لا حد لها ولا منعة ولا قتال، تكون لهم وهي العير ﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته﴾ أي: هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال، ليظفركم بهم ويظهركم عليهم، ويظهر دينه، ويرفع كلمة الإسلام، ويجعله غالبا على الأديان، وهو أعلم بعواقب الأمور، وهو الذي دبركم

---

(١) زيادة من أ.

(٢) المسند (١/٢٢٩) من رواية يحيى بن أبي بكير و(١/٣١٤) من رواية عبد الرزاق.

(٣) في ك، م، أ: «يخرجوه».

بحسن تدبيره، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ [ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ][1]﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال محمد بن إسحاق، رحمه الله: حدثني محمد بن مسلم الزهري، وعاصم بن عمر بن قتادة، وعبد الله بن أبي بكر، ويزيد بن رومان، عن عُرْوَة بن الزبير وغيرهم من علمائنا، عن عبد الله بن عباس ـ كل قد حدثني بعض هذا الحديث، فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر ـ قالوا: لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلا من الشام نَدَب المسلمين إليهم، وقال: « هذه عيرُ قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن يُنَفِّلَكُمُوها. » فانتدب الناسُ، فخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يَلْقى حربا، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان، تخوفا على أمر الناس، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان: أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحَذِرَ عند ذلك، فاستأجر ضَمْضَم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى أهل مكة، وأمره أن يأتي قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة، وخَرَج رسول الله ﷺ في أصحابه حتى بلغ واديا يقال له «ذَفِرَان»، فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل، وأتاه الخبر عن قُرَيش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم فاستشار النبي ﷺ الناس، وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر، رضي الله عنه، فقال فأحسن، ثم قام عمر، رضي الله عنه، فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أمرك الله به، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما[2] مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى «بَرْك الغماد» ـ يعني مدينة الحبشة ـ لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيرا، ودعا له بخير، ثم قال رسول الله ﷺ: « أشيروا علي أيها الناس » ـ وإنما يريد الأنصار ـ وذلك أنهم كانوا عَدَد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله، إنا برآء من ذِمَامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذِمَّمنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة، من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، فلما قال رسول الله ﷺ ذلك، قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: « أجل ». قال: فقال: فقد آمنا بك، وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت. فوالذي بعثك بالحق، إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصُبُر عند الحرب، صُدُق عند اللقاء، ولعل الله [أن][3] يريك منا ما تَقَرّ به عينك، فَسِرْ بنا على بركة الله. فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونَشَّطه

---

(١) زيادة من م، أ. (٢) في د، ك، م: « معكم ». (٣) زيادة من م.

ذلك، ثم قال: «سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم.»[١].

وروى العَوْفي عن ابن عباس نحو هذا، وكذلك قال السدي، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد من علماء السلف والخلف، اختصرنا أقوالهم اكتفاء بسياق محمد بن إسحاق.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠)﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو نوح قُرَاد، حدثنا عكرمة بن عمّار، حدثنا سماك الحنفي أبو زُميل، حدثني ابن عباس[٢]، حدثني عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: لما كان يوم بدر نظر النبي[٣] ﷺ إلى أصحابه، وهم ثلاثمائة ونيّف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة، ثم مد يديه، وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: «اللهم أين ما وعدتني، اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبدا»، قال: فما زال يستغيث ربه [عز وجل][٤] ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا رسول الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله، عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾، فلما كان يومئذ والتقوا، فهزم الله المشركين، فقُتِل منهم سبعون رجلا، وأسر منهم سبعون رجلا، واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعلياً وعمر[٥]، فقال أبو بكر: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه منهم قُوّةً لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عَضُدًا، فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» قال: قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تُمَكّنني من فلان ـ قريب لعمر ـ فأضربَ عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضربَ عنقه، وتمكن حمزة من فلان ـ أخيه ـ فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس[٦] في قلوبنا هوادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم، فَهَوِيَ رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، وأخذ منهم الفداء، فلما كان من الغد ـ قال عمر ـ غدوت إلى النبي ﷺ وأبي بكر وهما يبكيان، فقلت: يا رسول الله، [أخبرني][٧] ما[٨] يبكيك أنت وصاحبك، فإن وجدتُ بكاء بكَيتُ، وإن لم أجد بكاء تَبَاكيتُ لبكائكما! قال النبي ﷺ: «للذي عَرَض على أصحابك من أخذهم الفداء، قد عرض عليَّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة ـ لشجرة قريبة»، وأنزل الله [عز وجل][٩]: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٣/٣٩٩).
(٢) في ك: «ابن عباس».
(٣) في أ: «رسول الله».
(٤) زيادة من أ.
(٥) في م: «أبا بكر وعمر وعليا».
(٦) في ك: «ليست» وفي أ: «أنه ليست».
(٧) زيادة من أ.
(٨) في أ: «ماذا».
(٩) زيادة من د، ك، م، أ.

أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ إلى قوله: ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم﴾[الأنفال: ٦٧، ٦٨] من الفداء، ثم أحل لهم الغنائم، فلما كان يوم أحد من العام المقبل، عوقبوا مما صنعوا يوم بدر، من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون، وفر أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله [عز وجل][١]: ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير﴾[آل عمران: ١٦٥]، بأخذكم الفداء.

ورواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن جرير، وابن مردويه، من طرق عن عكرمة بن عمار، به. وصححه علي بن المديني والترمذي، وقالا: لا يعرف إلا من حديث عكرمة بن عمار اليماني[٢].

وهكذا روى علي بن أبي طلحة والعوفي، عن ابن عباس: أن هذه الآية الكريمة قوله: ﴿إذ تستغيثون ربكم [فاستجاب لكم][٣]﴾ أنها في دعاء النبي ﷺ وكذا قال يزيد[٤] بن يثيع، والسدي، وابن جريج.

وقال أبو بكر بن عياش، عن أبي حصين، عن أبي صالح قال: لما كان يوم بدر، جعل النبي ﷺ يناشد ربه أشد النشدة يدعو، فأتاه عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، بعض[٥] نشدتك، فوالله ليفين الله لك بما وعدك[٦].

وقال البخاري في «كتاب المغازي»، باب قول الله عز وجل: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم﴾ إلى قوله: ﴿فإن الله شديد العقاب﴾: حدثنا أبو نعيم، حدثنا إسرائيل، عن مخارق، عن طارق بن شهاب قال: سمعت ابن مسعود يقول: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به: أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول[٧] كما قال قوم موسى لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره ـ يعني قوله[٨].

وحدثنا محمد بن عبد الله بن حوشب، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا خالد الحذاء، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد»، فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك! فخرج وهو يقول: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ [القمر: ٤٥].

ورواه النسائي عن بندار، عن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي[٩].

---

(١) زيادة من أ.

(٢) المسند (١/ ٣٠) وصحيح مسلم برقم (١٧٦٣) وسنن أبي داود برقم (٢٦٩٠) وسنن الترمذي برقم (٣٠٨١) وتفسير الطبري (١٣/ ٩-٤).

(٣) زيادة من أ.

(٤) في د، م: «زيد».

(٥) في أ: «يا رسول الله، تدعو بعض».

(٦) رواه الطبري في تفسيره (١٣/ ٤١١).

(٧) في أ: «لا نقول لك».

(٨) صحيح البخاري برقم (٣٩٥٢).

(٩) صحيح البخاري برقم (٣٩٥٣) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٥٥٧).

وقوله تعالى: ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ أي: يُرْدِفُ بعضهم بعضا، كما قال هارون بن عنترة[١]، عن ابن عباس: ﴿مُرْدِفِينَ﴾: متتابعين.

ويحتمل أن [يكون][٢] المراد ﴿مُرْدِفِينَ﴾ لكم، أي: نجدة لكم، كما قال العَوْفي، عن ابن عباس: ﴿مُرْدِفِينَ﴾، يقول: المدَدَ، كما تقول: ائت الرجل فزدة كذا وكذا.

وهكذا قال مجاهد، وابن كثير القارئ، وابن زيد: ﴿مُرْدِفِينَ﴾: مُمِدِّين.

وقال أبو كُدَيْنَة، عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ قال: وراء كل مَلَك ملك.

وفي رواية بهذا الإسناد: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ قال: بعضهم على أثر بعض. وكذا قال أبو ظَبْيان، والضحاك، وقتادة.

وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا يعقوب بن محمد الزهري، حدثني عبد العزيز بن عمران، عن الزَّمْعي، عن أبي الحويرث، عن محمد بن جُبَير، عن علي، رضي الله عنه، قال: نزل جبريل في ألف من الملائكة عن ميمنة النبي ﷺ وفيها أبو بكر، ونزل ميكائيل في ألف من الملائكة عن ميسرة النبي ﷺ، وأنا في الميسرة.

وهذا يقتضي ـ لو صح إسناده ـ أن الألف مردفة بمثلها؛ ولهذا قرأ بعضهم: «مُرْدَفِين» بفتح الدال، فالله أعلم.

والمشهور ما رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مُجَنِّبة، وميكائيل في خمسمائة مُجَنِّبة.

وروى الإمام أبو جعفر بن جَرير، ومسلم، من حديث عكرمة بن عمار، عن أبي زُمَيل سمَاك ابن وليد الحَنَفي، عن ابن عباس، عن عمر، الحديث المتقدم. ثم قال أبو زُميل [٣]: حدثني[٤] ابن عباس قال: بينا رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوتَ الفارس يقول: «أقدم حَيْزُوم[٥]» إذ نظر إلى المشرك أمامه، فخر مستلقيا قال: فنظر إليه، فإذا هو قد خُطِم أنفه، وشُقَّ وجهه كضربة السَّوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «صدقتَ، ذلك[٦] من مَدَد السماء الثالثة.»، فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين.

وقال البخاري «باب شهود الملائكة بدرا»: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا جرير، عن يحيى ابن سعيد، عن معاذ بن رِفاعة بن رافع الزُّرَقي، عن أبيه ـ وكان أبوه من أهل بدر ـ قال: جاء جبريل

---

(١) في أ: «هبيرة».
(٢) زيادة من أ.
(٣) في م: «أبو زميل سماك بن الوليد الحنفي».
(٤) في م: «عن».
(٥) في م: «حزوم».
(٦) في د، ك، م: «ذاك».

إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين» ـ أو كلمة نحوها ـ قال: وكذلك من شهد بدرا من الملائكة.

انفرد بإخراجه البخاري[١]، وقد رواه الطبراني في المعجم الكبير من حديث رافع بن خَديج، وهو خطأ[٢]، والصواب رواية البخاري، والله [تعالى][٣] أعلم.

وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال لعمر لما شاوره في قتل حاطب بن أبي بَلْتَعَة: «إنه قد شهد بدرا، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد[٤] غفرت لكم»[٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى [وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ][٦]﴾ الآية أي: وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بُشرى، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾؛ وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم بدون ذلك، ولهذا قال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ. سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ. وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ـ ٦]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠، ١٤١]، فهذه حكم شَرْع الله جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها، وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمة المكذبة، كما أهلك قوم نوح بالطوفان، وعاداً الأولى بالدَّبور، وثمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل[٧]، وقوم شعيب بيوم الظلة، فلما بعث الله تعالى موسى [عليه السلام][٨] وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق في اليم، ثم أنزل[٩] على موسى التوراة، شرع فيها قتال الكفار، واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ [لِلنَّاسِ][١٠]﴾ [القصص: ٤٣]، وقَتْلُ المؤمنين الكافرين أشد إهانة للكافرين، وأشفى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ. [وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ][١١]﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]؛ ولهذا كان قَتْلُ صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم، أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان. فَقَتْلُ أبي جهل في معركة القتال وحومة الوغى، أشد إهانة له من أن

---

(١) صحيح البخاري برقم (٣٩٩٢).

(٢) المعجم الكبير (٤/ ٢٧٧).

(٣) زيادة من م.

(٤) في د: «قد».

(٥) صحيح البخاري برقم (٣٩٨٣) وصحيح مسلم برقم (٢٤٩٤).

(٦) زيادة من د، ك، م.

(٧) في ك، أ: «السجين».

(٨) زيادة من أ.

(٩) في ك: «أنزل الله».

(١٠) زيادة من م.

(١١) زيادة من أ.

يموت على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك، كما مات أبو لهب ـ لعنه الله ـ بالعَدَسة[١] بحيث لم يقربه أحد من أقاربه، وإنما غسلوه بالماء قذفًا من بعيد، ورجموه حتى دفنوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: له العزة ولرسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ. [يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ][٢]﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرعه من قتال الكفار، مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم، بحوله وقوته، سبحانه وتعالى.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤)﴾.

يذكرهم الله [٣] بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم، أمانًا من خوفهم الذى حصل لهم من كثرة عَدُوِّهم وقلة عَدَدهم، وكذلك فَعَل تعالى بهم يوم أُحُد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قال أبو طلحة[٤]: كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد، ولقد سقط السيف من يدى مرارًا يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه، ولقد نظرت إليهم يميدون وهم تحت الحَجَف.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زُهَيْر، حدثنا ابن مَهْدِى، عن شعبة، عن أبى إسحاق، عن حارثة ابن مُضَرِّب، عن علي، رضى الله عنه، قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتُنا وما فينا إلا نائم إلا رسولُ الله ﷺ، يصلى تحت شجرة ويبكى حتى أصبح[٥].

وقال سفيان الثورى، عن عاصم عن أبى رَزين، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، أنه قال: النعاس فى القتال أمنة من الله، وفى الصلاة من الشيطان.

وقال قتادة: النعاس فى الرأس، والنوم فى القلب.

قلت: أما النعاس فقد أصابهم يوم أحد، وأمر ذلك مشهور جدًا، وأما يوم بدر فى هذه الآية الشريفة[٦] إنما هى فى سياق قصة بدر، وهى دالة على وقوع ذلك أيضا وكأن ذلك كان سجية

(١) قال ابن الأثير فى النهاية (٣/ ١٩٠) فى حديث أبى رافع: «أن أبا لهب رماه الله بالعدسة» وهى بثرة تشبه العدسة تخرج فى مواضع من الجسد، من جنس الطاعون، تقتل صاحبها غالبا».
(٢) زيادة من أ. (٣) فى ك، م: «تعالى».
(٤) فى أ: «قال على بن أبى طلحة».
(٥) مسند أبى يعلى (١/ ٢٤٢) ورواه أحمد فى مسنده (١/ ١٢٥) من طريق عبد الرحمن بن مهدى بهذا الإسناد.
(٦) فى ك، م: «الكريمة».

للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله. وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمه عليهم، وكما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]؛ ولهذا [جاء][1] في الصحيح[2]: أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق، رضي الله عنه، وهما يدعوان، أخذت رسول الله سنة من النوم، ثم استيقظ متبسما فقال: «أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل على ثناياه النقع» ثم خرج من باب العريش، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥].

وقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: نزل النبي ﷺ ـ يعني: حين سار إلى بدر ـ والمسلمون[3] بينهم وبين الماء رملة دعصة[4]، فأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ، يوسوس بينهم: تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلون مجنبين! فأمطر الله عليهم مطرا شديدا، فشرب المسلمون وتطهروا، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وانشف[5] الرمل حين أصابه المطر ومشى الناس عليه والدواب، فساروا إلى القوم وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمسمائة مُجَنِّبة، وميكائيل في خمسمائة مُجَنِّبة.

وكذا قال العوفي عن ابن عباس: إن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير وليقاتلوا[6] عنها، نزلوا على الماء يوم بدر، فغلبوا المؤمنين عليه. فأصاب المؤمنين الظمأ، فجعلوا يصلون مجنبين محدثين، حتى تعاظموا ذلك في صدورهم، فأنزل الله من السماء ماء حتى سال الوادي، فشرب المؤمنون، وملؤوا الأسقية، وسقوا الركاب[7]، واغتسلوا من الجنابة، فجعل الله في ذلك طهورا، وثبت الأقدام. وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة، فبعث الله المطر عليها، فضربها حتى اشتدت، وثبت عليها الأقدام.

ونحو ذلك رُوي عن قتادة، والضحاك، والسدي.

وقد روي عن سعيد بن المسيب، والشعبي، والزهري، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أنه طش[8] أصابهم يوم بدر.

والمعروف أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر، نزل على أدنى ماء هناك أي: أول ماء وجده، فتقدم إليه الحباب بن المنذر فقال: يا رسول الله، هذا المنزل الذي نزلته منزل أنزلكه الله فليس لنا أن نجاوزه، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة؟ فقال: «بل منزل نزلته للحرب والمكيدة». فقال: يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل، ولكن سر بنا حتى ننزل على أدنى ماء يلي القوم ونغور ما وراءه من القُلُب،

---

(١) زيادة من م.
(٢) في أ: «الصحيحين».
(٣) في ك، م، أ: «المشركون».
(٤) في أ: «وعصة».
(٥) في ك: «وانكشف».
(٦) في ك، م: «ويقاتلوا».
(٧) في م: «الركائب».
(٨) في ك، م: «طس».

ونستقي الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء. فسار رسول الله ﷺ ففعل كذلك[١].

وفي مغازي «الأموي» أن الحباب لما قال ذلك نزل ملك من السماء وجبريل جالس عند رسول الله ﷺ، فقال ذلك الملك: يا محمد، إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن الرأي ما أشار به «الحباب بن المنذر»[٢]. فالتفت رسول الله [ﷺ][٣] إلى جبريل، عليه[٤] السلام، فقال: هل تعرف هذا؟ فنظر إليه فقال: ما كل الملائكة أعرفهم، وإنه ملك وليس بشيطان.

وأحسن ما في هذا ما رواه الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب «المغازي»، رحمه الله: حدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قال: بعث الله السماء ـ وكان الوادي دهسا ـ فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم من المسير، وأصاب قريشا ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه[٥].

وقال مجاهد: أنزل الله عليهم المطر قبل النعاس، فأطفأ بالمطر الغبار، وتلبدت به الأرض، وطابت نفوسهم[٦]، وثبتت به أقدامهم.

وقال ابن جرير: حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا مصعب بن المقدام، حدثنا إسرائيل، حدثنا أبو إسحاق، عن حارثة، عن علي، رضي الله عنه، قال: أصابنا من الليل طش[٧] من المطر ـ يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر ـ فانطلقنا تحت الشجر والحَجَف نستظل تحتها من المطر. وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض»! فلما أن طلع الفجر، نادى: «الصلاة، عباد الله»، فجاء الناس من تحت الشجر والحَجَف، فصلى بنا رسول الله ﷺ، وحرض على القتال.

وقوله: ﴿لِيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ أي: من حدث أصغر أو أكبر، وهو تطهير[٨] الظاهر ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: من وسوسة أو[٩] خاطر سيئ، وهو تطهير الباطن، كما قال تعالى في حق أهل الجنة: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾، فهذا زينة الظاهر ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] أي: مطهراً لما كان من غل أو حسد أو تباغض، وهو زينة الباطن وطهارته.

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أي: بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء، وهو شجاعة الباطن، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾، وهو شجاعة الظاهر، والله أعلم.

---

(١) في م: «قلك».

(٢) ورواه الواقدي في المغازي (١/ ٥٤) إلى هذا الموضع. فقال: «حدثني ابن أبي حبيبة، عن رواد بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: نزل جبريل... فذكره».

(٣) زيادة من ك، م، أ.

(٤) في ك: «عليهما».

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٦٢٠).

(٦) في ك، م: «طابت به أنفسهم».

(٧) في ك، م: «طش».

(٨) في م: «طهارة».

(٩) في م: «و».

وقوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم، ليشكروه عليها، وهو[1] أنه ـ تعالى وتقدس وتبارك وتمجد ـ أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين، يوحي إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا.

قال ابن إسحاق: وازروهم. وقال غيره: قاتلوا معهم. وقيل: كثروا سوادهم. وقيل: كان ذلك بأن الملك كان يأتي الرجل من أصحاب النبي ﷺ يقول: سمعت هؤلاء القوم ـ يعني المشركين ـ يقولون: «والله لئن حملوا علينا لننكشفن»، فيحدث المسلمون بعضهم بعضا بذلك، فتقوى أنفسهم[2]. حكاه ابن جرير، وهذا لفظه بحروفه.

وقوله: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ أي: ثبتوا أنتم المسلمين[3] وقووا أنفسهم على أعدائهم، عن أمري لكم بذلك، سألقي الرعب والمذلة والصغار على من خالف أمري، وكذب رسولي[4]. ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي: اضربوا الهام ففلقوها، واحتزوا الرقاب فقطعوها، وقطعوا الأطراف منهم، وهي أيديهم وأرجلهم.

وقد اختلف المفسرون في معنى: ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ فقيل: معناه اضربوا الرؤوس. قاله عكرمة.

وقيل: معناه: ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أي: على الأعناق، وهي الرقاب. قاله الضحاك، وعطية العوفي.

ويشهد لهذا المعنى أن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى هذا في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤].

وقال وكيع، عن المسعودي، عن القاسم قال: قال رسول الله[5] ﷺ: «إني لم أبعث لأعذب بعذاب الله، إنما بعثت بضرب الرقاب وشد الوثاق»[6].

واختار ابن جرير أنها قد تدل على ضرب الرقاب وفلق الهام.

قلت: وفي مغازي «الأموي» أن رسول الله ﷺ جعل يمر بين القتلى يوم بدر فيقول:

«نُفَلِّقُ هاما...».

فيقول أبو بكر:

من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما[7]

---

(١) في ك: «وهي».
(٢) في م: «أنفسهم بذلك».
(٣) في ك، م، أ: «المؤمنين».
(٤) في أ: «رسلي».
(٥) في م: «النبي».
(٦) رواه الطبري في تفسيره (١٣/ ٤٢٩) وابن أبي شيبة في المصنف (١٢/ ٣٩٠) من طريق وكيع بهذا الإسناد.
(٧) البيت للحصين بن الهمام المري، وهو في «الشعر والشعراء» لابن قتيبة (٢/ ٦٤٨).

فيبتدئ رسول الله ﷺ بأول البيت، ويستطعم أبا بكر، رضي الله عنه، إنشاد آخره؛ لأنه كان لا يحسن إنشاد الشعر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩].

وقال الربيع بن أنس: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوا هم بضرب فوق الأعناق، وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به.

وقوله: ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال ابن جرير: معناه: واضربوا أيها المؤمنون من عدوكم كل طرف ومَفْصِل من أطراف أيديهم وأرجلهم. و «البنان»: جمع بنانة، كما قال الشاعر[(١)]:

ألا لَيْتني قَطَّعْتُ مني بَنَانَةً وَلاقَيْتُه في البَيْت يَقْظَانَ حَاذِرَا

وقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ يعني بالبنان: الأطراف. وكذا قال الضحاك وابن جريج.

وقال السدي: البنان: الأطراف، ويقال: كل مَفْصِل.

وقال عكرمة، وعطية العوفي والضحاك ـ في رواية أخرى ـ: كل مفصل.

وقال الأوزاعي في قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال: اضرب منه الوجه والعين، وارمه بشهاب من نار، فإذا أخذته حرم ذلك كله عليك.

وقال العوفي، عن ابن عباس ـ فذكر قصة بدر إلى أن قال ـ: فقال أبو جهل: لا تقتلوهم قتلا، ولكن خذوهم أخذا، حتى تعرفوهم الذي صنعوا من طعنهم في دينكم، ورغبتهم عن اللات والعزى. فأوحى الله إلى الملائكة: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ فقتل أبو جهل لعنه الله، في تسعة وستين رجلا، وأسر عقبة بن أبي مُعَيْط فقتل صبرا، فوفى ذلك سبعين ـ يعني: قتيلا.

ولذلك قال [الله][(٢)] تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: خالفوهما فساروا في شق، وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه في شق ـ وهو مأخوذ أيضا من شق العصا، وهو جعلها فرقتين ـ ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: هو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه، لا يفوته شيء، ولا يقوم لغضبه شيء، تبارك وتعالى، لا إله غيره، ولا رب سواه.

﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾: هذا خطاب للكفار أي: ذوقوا هذا العذاب والنكال في الدنيا، واعلموا أيضًا أن للكافرين عذاب النار في الآخرة.

---

(١) هو العباس بن مرداس السلمي، والبيت في تفسير الطبري (١٣/٤٣١) ولسان العرب مادة (بنن).

(٢) زيادة من ك، م، أ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾.

يقول تعالى متوعدا على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا﴾ أي: تقاربتم منهم ودنوتم إليهم، ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ أي: تفروا وتتركوا أصحابكم، ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ أي: يفر بين يدى قرنه مكيدة؛ ليريه أنه [قد][1] خاف منه فيتبعه، ثم يكر عليه فيقتله، فلا بأس عليه في ذلك. نص عليه سعيد بن جبير، والسدى.

وقال الضحاك: أن يتقدم عن أصحابه ليرى غرة من العدو فيصيبها.

﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أي: فر من هاهنا إلى فئة أخرى من المسلمين، يعاونهم ويعاونوه[2]، فيجوز له ذلك، حتى [و][3] لو كان في سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم، دخل في هذه الرخصة.

قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا زُهَيْر، حدثنا يزيد بن أبي زياد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، قال: كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ، فحاص الناس حيصة ـ وكنت فيمن حاص ـ فقلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة فبتنا؟ ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ، فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا؟ فأتيناه قبل صلاة الغداة، فخرج فقال: «من القوم؟» فقلنا: نحن الفرارون. فقال: «لا، بل أنتم العكّارون، أنا فئتكم، وأنا فئة المسلمين» قال: فأتيناه حتى قَبَّلنا يده.

وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من طرق عن يزيد بن أبي زياد[4]، وقال الترمذي: حسن لا نعرفه إلا من حديثه.

ورواه ابن أبي حاتم، من حديث يزيد بن أبي زياد به. وزاد في آخره: وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾.

قال أهل العلم: معنى قوله: «العكّارون» أي: العطافون. وكذلك قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في أبي عبيد لما قتل على الجسر بأرض فارس، لكثرة الجيش من ناحية المجوس، فقال عمر: لو انحاز إليّ كنت له فئة. هكذا رواه محمد بن سيرين، عن عمر[5].

وفي رواية أبي عثمان النهدي، عن عمر قال: لما قتل أبو عبيد قال عمر: يا أيها الناس، أنا فئتكم.

---

(١) زيادة من آ. (٢) في ك، م: «يعاونونه».

(٣) زيادة من ك، م.

(٤) المسند (٢/ ٧٠) وسنن أبي داود برقم (٢٦٤٧) وسنن الترمذي برقم (١٧١٦) وسنن ابن ماجة برقم (٣٧٠٤).

(٥) رواه الطبري في تفسيره (١٣/ ٤٣٩).

وقال مجاهد: قال عمر: أنا فئة كل مسلم.

وقال عبد الملك بن عُمَيْر، عن عمر: أيها الناس، لا تغرنكم هذه الآية، فإنما كانت يوم بدر، وأنا[١] فئة لكل مسلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حسان بن عبد الله المصري، حدثنا خلاد بن سليمان الحضرمي، حدثنا نافع: أنه سأل ابن عمر قلت: إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا، ولا ندري من الفئة: إمامنا أو عسكرنا؟ فقال: إن الفئة رسول الله ﷺ. فقلت: إن الله يقول: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا [فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ][٢]﴾، فقال: إنما نزلت هذه الآية في يوم بدر، لا قبلها ولا بعدها.

وقال الضحاك في قوله: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾: المتحيز: الفار إلى النبي وأصحابه، وكذلك من فر اليوم إلى أميره أو أصحابه.

فأما إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب، فإنه حرام وكبيرة من الكبائر، لما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات». قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتَّوَلِّي يوم الزَّحْفِ، وقَذْفُ المحصنات الغافلات المؤمنات»[٣].

ولهذا الحديث شواهد من وجوه أخر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ بَاءَ﴾ أي: رجع ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ﴾ أي: مصيره ومنقلبه يوم ميعاده: ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا زكريا بن عَدِيّ، حدثنا عبيد الله بن عمرو الرَّقِّي، عن زيد بن أبي أُنَيْسَة، حدثنا جبلة بن سُحَيْم، عن أبي المثنى العبدي، سمعت السدوسي ـ يعني ابن الخصاصية، وهو بشير بن معبد ـ قال: أتيت النبي ﷺ لأبايعه، فاشترط علي: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمد عبده ورسوله، وأن أقيم الصلاة، وأن أؤدي الزكاة، وأن أحج حَجَّةَ الإسلام، وأن أصوم شهر رمضان، وأن أجاهد في سبيل الله». فقلت: يا رسول الله، أما اثنتان فوالله لا أطيقهما: الجهاد، فإنهم زعموا أنه من ولى الدُّبُر فقد باء بغضب من الله، فأخاف إن حضرت ذلك خشعت نفسي وكرهت الموت. والصدقة، فوالله ما لي إلا غُنَيْمَةٌ وعشر ذَوْدٍ هُنَّ رَسَل أهلي وحَمُولتهم. فقبض رسول الله ﷺ يده، ثم حرك يده، ثم قال: «فلا جهاد ولا صدقة، فيم تدخل الجنة إذا؟» فقلت: يا رسول الله، أنا أبايعك. فبايعته عليهن كلهنَّ.

هذا حديث[٤] غريب[٥] من هذا الوجه[٦]، ولم يخرجوه في الكتب الستة.

---

(١) في م: «وإنه». (٢) زيادة من ك، د، م، أ، وفي هـ: «الآية».

(٣) صحيح البخاري برقم (٢٧٦٦) وصحيح مسلم برقم (٨٩).

(٤) في م: «الحديث». (٥) في أ: «عزيز».

(٦) المسند (٥/ ٢٢٤)

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة، حدثنا إسحاق بن إبراهيم أبو النضر، حدثنا يزيد بن ربيعة، حدثنا أبو الأشعث، عن ثوبان، عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا ينفع معهن عمل: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف»[(١)].

وهذا أيضا حديث غريب جدا.

وقال الطبراني أيضا: حدثنا العباس بن الفضل الأسْفَاطِيّ، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حفص بن عمر الشَّنّي، حدثني عمرو بن مرة قال: سمعت بلال بن يسار بن زيد ـ مولى رسول الله ﷺ ـ قال: سمعت أبي حدث عن جدي قال: قال رسول الله: «من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو وأتوب إليه، غفر له وإن كان قد فر من الزحف».

وهكذا رواه أبو داود عن موسى بن إسماعيل، به. وأخرجه الترمذي، عن البخاري، عن موسى ابن إسماعيل به. وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه[(٢)].

قلت: ولا يعرف لزيد مولى النبي ﷺ، عنه سواه.

وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حراما على الصحابة؛ لأنه ـ يعني الجهاد ـ كان فرض عين عليهم. وقيل: على الأنصار خاصة؛ لأنهم بايعوا على السمع والطاعة في المنشط والمكره. وقيل: [إنما][(٣)] المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة، يروى هذا عن عمر، وابن عمر، وابن عباس، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وأبي نضرة، ونافع مولى ابن عمر، وسعيد بن جبير، والحسن البصري، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وغيرهم.

وحجتهم في هذا: أنه لم تكن عصابة لها شوكة يفيؤون إليها سوى عصابتهم تلك، كما قال النبي ﷺ: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض»؛ ولهذا قال عبد الله بن المبارك، عن مبارك ابن فضالة، عن الحسن في قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾ قال: ذلك يوم بدر، فأما اليوم: فإن انحاز إلى فئة أو مصر ـ أحسبه قال: فلا بأس عليه.

وقال ابن المبارك أيضا، عن ابن لَهيعة: حدثني يزيد بن أبي حبيب قال: أوجب الله تعالى لمن فر يوم بدر النار، قال: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾، فلما كان يوم أُحُد بعد ذلك قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ [إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ][(٤)]﴾ ، ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، ثم كان يوم حُنَيْن بعد ذلك بسبع سنين، قال: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[التوبة: ٢٥]، ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ [التوبة: ٢٧].

---

(١) المعجم الكبير (٢/ ٩٥) قال الهيثمي في المجمع (١/ ١٠٤): «فيه يزيد بن ربيعة ضعيف».

(٢) المعجم الكبير (٥/ ٨٩) وسنن أبي داود برقم (١٥١٧) وسنن الترمذي برقم (٣٥٧٧).

(٣) زيادة من ك، م، أ. (٤) زيادة من ك، م، أ، وفي هـ «إلى قوله».

وفى سنن أبى داود، والنسائى، ومستدرك الحاكم، وتفسير ابن جرير، وابن مَرْدُويه، من حديث داود بن أبى هند، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد أنه قال فى هذه الآية: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾: إنما[1] أنزلت فى أهل بدر[2]. وهذا كله لا ينفى أن يكون الفرار من الزحف حراما على غير أهل بدر، وإن كان سبب النزول فيهم، كما دل عليه حديث أبى هريرة المتقدم، من أن الفرار من الزحف من الموبقات، كما هو مذهب الجماهير، والله [تعالى][3] أعلم.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨)﴾.

يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد، وأنه المحمود على جميع ما صدر عنهم من خير؛ لأنه هو الذى وفقهم لذلك وأعانهم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ أى: ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعدائكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم، أى: بل هو الذى أظفركم [بهم ونصركم][4] عليهم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ [فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ][5]﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]، يعلم - تبارك وتعالى - أن النصر ليس عن كثرة العدد، ولا بلبس اللأمة والعدد، وإنما النصر من عند الله تعالى[6]، كما قال: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ثم قال لنبيه ﷺ أيضا فى شأن القبضة من التراب، التى حصب بها وجوه المشركين[7] يوم بدر، حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته، فرماهم بها، وقال: «شاهت الوجوه». ثم أمر الصحابة أن يصدقوا الحملة إثرها، ففعلوا، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين، فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله؛ ولهذا قال [تعالى][8]: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ أى: هو الذى بلغ ذلك إليهم، وكبتهم بها لا أنت.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: رفع رسول الله ﷺ يديه - يعنى يوم بدر - فقال: «يا رب، إن تهلك هذه العصابة، فلن تعبد فى الأرض أبدا». فقال له جبريل: «خذ قبضة من التراب، فارم بها فى وجوههم» فأخذ قبضة من التراب، فرمى بها فى وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين.

وقال السُّدِّى: قال رسول الله ﷺ لعلى، رضى الله عنه، يوم بدر: «أعطنى حصبا من الأرض».

(١) فى م: «أنها».

(٢) سنن أبى داود برقم (٢٦٤٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٢٠٣) والمستدرك (٢/ ٣٢٧) وتفسير الطبرى (١٣/ ٤٣٧).

(٣) زيادة من م.

(٤) زيادة من ك، م.

(٥) زيادة من ك، م، أ، وفى هـ: «الآية».

(٦) فى م: «عنده تعالى».

(٧) فى أ: «القوم».

(٨) زيادة من أ.

فناوله حصبا[١] عليه تراب، فرمى به في وجوه القوم، فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه من ذلك التراب شيء، ثم ردفهم المؤمنون[٢] يقتلونهم ويأسرونهم، وأنزل الله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾.

وقال أبو معشر المدني، عن محمد بن قَيْس ومحمد بن كعب القُرَظي قالا: لما دنا القوم بعضهم من بعض، أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب، فرمى بها في وجوه القوم، وقال: «شاهت الوجوه». فدخلت في أعينهم كلهم، وأقبل أصحاب رسول الله [ﷺ][٣] يقتلونهم ويأسرونهم، وكانت هزيمتهم في رَمْيَة رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: في قوله [تعالى][٤]: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ قال: هذا يوم بدر، أخذ رسول الله ﷺ ثلاث حصيات فرمى بحصاة [في][٥] مَيْمَنَة القوم، وحصاة في مَيْسَرَة القوم، وحصاة بين أظهرهم، وقال: «شاهت الوجوه»، فانهزموا.

وقد روي في هذه القصة [٦] عن عُرْوَة بن الزبير، ومُجَاهد وعِكْرِمة، وقتادة وغير واحد من الأئمة: أنها نزلت في رمية النبي ﷺ يوم بدر، وإن كان قد فعل ذلك يوم حنين أيضا.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا يعقوب بن محمد، حدثنا عبد العزيز ابن عمران، حدثنا موسى بن يعقوب بن عبد الله بن زمعة، عن يزيد بن عبد الله، عن أبي بكر بن سليمان بن أبي حَثْمَة، عن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم بدر، سمعنا صوتا وقع من السماء، كأنه صوت حصاة وقعت في طست، ورمى رسول الله ﷺ تلك الرمية، فانهزمنا[٧].

غريب من هذا الوجه. وهاهنا قولان آخران غريبان جدا:

أحدهما: قال ابن جرير: حدثني محمد بن عوف الطائي، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان بن عمرو، حدثنا عبد الرحمن بن جبير؛ أن رسول الله ﷺ يوم ابن أبي الحقيق بخيبر، دعا بقوس، فأتي بقوس طويلة، وقال: «جيئوني غيرها». فجاؤوا بقوس كبداء، فرمى النبي ﷺ الحصن، فأقبل السهم يهوي حتى قتل ابن أبي الحقيق، وهو في فراشه، فأنزل الله، عز وجل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[٨].

وهذا غريب، وإسناده جيد إلى عبد الرحمن بن جبير بن نفير، ولعله اشتبه عليه، أو أنه أراد أن الآية تعم هذا كله، وإلا فسياق الآية في سورة الأنفال في قصة بدر لا محالة، وهذا مما لا يخفى على أئمة العلم، والله أعلم.

---

(١) في م: «حصباء».
(٢) في م: «المسلمون».
(٣) زيادة من م، ك، أ.
(٤) زيادة من م.
(٥) في ك، م، أ: «فرمى في».
(٦) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ٤٤٣ ـ ٤٤٥).
(٧) تفسير الطبري (١٣/ ٤٤٣).
(٨) سقط هذا الأثر والذي يليه من نص الطبري وأثبته المحقق في الهامش (١٣/ ٤٤٦).

والثاني: روى ابن جرير أيضا، والحاكم في مستدركه، بإسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب والزهري أنهما قالا: أنزلت[١] في رمية رسول الله ﷺ يوم أحد أُبي بن خلف بالحربة وهو في لأمته، فخدشه في ترقوته، فجعل يتدأدأ عن فرسه مرارا، حتى كانت وفاته [بها][٢] بعد أيام، قاسى فيها العذاب الأليم، موصولا بعذاب البرزخ، المتصل بعذاب الآخرة[٣].

وهذا القول عن هذين الإمامين غريب أيضا جدا، ولعلهما أرادا أن الآية تتناوله بعمومها، لا أنها نزلت فيه خاصة كما تقدم، والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عُرْوَة بن الزبير في قوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ أي: ليُعَرِّف المؤمنين من نعمته عليهم، من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم، وقلة عددهم، ليعرفوا بذلك حقه، ويشكروا بذلك نعمته.

وهكذا فسر[٤] ذلك ابن جرير أيضا. وفي الحديث: «وكل بلاء حسن أبلانا».

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميع الدعاء، عليم بمن يستحق النصر والغلب.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر: أنه أعلمهم تعالى بأنه مُضْعِفُ كيد الكافرين فيما يستقبل، مصغرًا أمرهم، وأنهم كل ما لهم في تبار[٥] ودمار، ولله الحمد والمنة.

**﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)﴾.**

يقول تعالى للكفار: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا﴾ أي: تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين، فقد جاءكم ما سألتم، كما قال محمد بن إسحاق وغيره، عن الزهري، عن عبد الله بن ثعلبة بن صُعَيْر؛ أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أَقْطَعُنَا للرحم وآتانا بما لا نعرف[٦]، فأحنه الغداة ـ وكان ذلك استفتاحا منه ـ فنزلت: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ إلى آخر الآية.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد ـ يعني ابن هارون ـ أخبرنا محمد بن إسحاق، حدثني الزهري، عن عبد الله بن ثعلبة: أن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم، أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف، فأحنه الغداة، فكان المستفتح.

وأخرجه النسائي في التفسير من حديث، صالح بن كيسان، عن الزهري، به. وكذا رواه الحاكم

---

(١) في م: «نزلت».
(٢) زيادة من أ.
(٣) المستدرك (٢/ ٣٢٧).
(٤) في د: «فسره».
(٥) في م: «ضلال».
(٦) في ك، م: «بما لم يعرف».

في مستدركه من طريق الزهري، به[1]. وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وروى [نحو][2] هذا عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، ويزيد بن رُومَان، وغير واحد.

وقال السُّدِّي: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بَدْر، أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين، وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين. فقال الله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾، يقول: قد نصرت ما قلتم، وهو محمد ﷺ.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو قوله تعالى إخبارا عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ [فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ][3]﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقوله: ﴿وَإِن تَنتَهُوا﴾ أي: عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: في الدنيا والآخرة. [وقوله][4]: ﴿وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ﴾ كقوله[5]: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨] معناه: وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة، نعد لكم بمثل هذه الواقعة.

وقال السدي: ﴿وَإِن تَعُودُوا﴾ أي: إلى الاستفتاح ﴿نَعُدْ﴾ إلى الفتح لمحمد ﷺ، والنصر له، وتظفيره على أعدائه، والأول أقوى.

﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي: ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا، فإن من كان الله معه فلا غالب له، فإن الله مع المؤمنين، وهم الحزب النبوي، والجناب المصطفوي.

**﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) ﴾.**

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي: تتركوا طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره، ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي: بعد ما علمتم ما دعاكم إليه.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ قيل: المراد: المشركون. واختاره ابن جرير.

وقال ابن إسحاق: هم المنافقون؛ فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا، وليسو كذلك.

ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم شر[6] الخلق والخليقة، فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ

---

(١) المسند (٥/ ٤٣١) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٢٠١) والمستدرك (٢/ ٣٢٨).
(٢) زيادة من د، وفي ك، م، أ: «في هذا».
(٣) زيادة من ك، م، أ، وفي هـ: «الآية».
(٤) زيادة من د.
(٥) في ك، م: «أي كقوله».
(٦) في ك، م، أ: «سين».

﴿الصُّمُّ﴾ أي: عن سماع الحق ﴿الْبُكْمُ﴾ عن فهمه، ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾، فهؤلاء شر البرية؛ لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله [عز وجل][1] فيما خلقها له، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا؛ ولهذا شبههم بالأنعام في قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً [صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ][2]﴾ [البقرة: ١٧١]، وقال في الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقيل[3]: المراد بهؤلاء المذكورين نفرٌ من بني عبد الدار من قريش. روي عن ابن عباس ومجاهد، واختاره ابن جرير، وقال محمد بن إسحاق: هم المنافقون.

قلت: ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا؛ لأن كل منهم مسلوب الفهم الصحيح، والقصد إلى العمل الصالح.

ثم أخبر تعالى بأنهم لافهم لهم صحيح، ولا قصد لهم صحيح، لو فرض أن لهم فهما، فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ﴾ أي: لأفهمهم، وتقدير الكلام: ولكن لا خير فيهم فلم يفهمهم؛ لأنه يعلم أنه ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ أي: أفهمهم ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ عن ذلك قصدا وعنادا بعد فهمهم ذلك، ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عنه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)﴾.

قال البخاري: ﴿اسْتَجِيبُوا﴾: أجيبوا، ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾: لما يصلحكم. حدثنا إسحاق، حدثنا روح، حدثنا شعبة، عن خبيب[4] بن عبد الرحمن قال: سمعت حفص بن عاصم يحدث عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلي، فمر بي رسول الله ﷺ، فدعاني فلم آته حتى صليت، ثم أتيته فقال: «ما منعك أن تأتيني؟ ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ثم قال: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج»، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج، فذكرت له ـ وقال معاذ: حدثنا شعبة، عن خُبَيْب[5] بن عبد الرحمن، سمع حفص بن عاصم، سمع أبا سعيد رجلا من أصحاب النبي ﷺ بهذا ـ وقال: «هي ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، السبع المثاني»[6].

هذا لفظه بحروفه، وقد تقدم الكلام على هذا الحديث بذكر طرقه في أول تفسير الفاتحة.

وقال مجاهد في قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال: الحق.

---

(١) زيادة من م.
(٢) زيادة من ك، م، أ، وفي هـ: «الآية».
(٣) في د، م: «ثم قيل».
(٤، ٥) في أ: «حبيب».
(٦) صحيح البخاري برقم (٤٦٤٧).

وقال قتادة: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾قال: هو هذا القرآن، فيه النجاة والتقاة[١] والحياة.

وقال السُّدِّي: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ : ففي الإسلام إحياؤهم بعد موتهم بالكفر.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عُرْوَةَ بن الزبير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي: للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل، وقواكم بها بعد الضعف، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم.

وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ قال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان.

رواه الحاكم في مستدركه موقوفا، وقال: صحيح ولم يخرجاه[٢]. ورواه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعا[٣]، ولا يصح لضعف إسناده، والموقوف أصح. وكذا قال مجاهد، وسعيد، وعكرمة، والضحاك، وأبو صالح، وعطية، ومُقَاتِل بن حيَّان، والسُّدِّي.

وفي رواية عن مجاهد في قوله: ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾حتى تركه لا يعقل.

وقال السدي: يحول بين الإنسان وقلبه، فلا يستطع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه.

وقال قتادة هو كقوله: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

وقد وردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بما يناسب هذه الآية.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك». قال: فقلنا: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال[٤]: «نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها».

وهكذا رواه الترمذي في «كتاب القدر» من جامعه، عن هناد بن السري، عن أبي معاوية محمد ابن حازم الضرير، عن الأعمش ـ واسمه سليمان بن مهران ـ عن أبي سفيان ـ واسمه طلحة بن نافع ـ عن أنس[٥]، ثم قال: حسن. وهكذا روى عن غير واحد عن الأعمش، ورواه بعضهم عنه، عن أبي سفيان، عن جابر، عن النبي ﷺ، وحديث أبي سفيان عن أنس أصح[٦]

حديث آخر: قال عبد بن حميد[٧] في مسنده: حدثنا عبد الملك بن عمرو، حدثنا شعبة، عن الحكم، عن ابن أبي ليلى، عن بلال، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كان يدعو: «يا مُقَلِّب القلوب

---

(١) في ك، م: «البقاء».
(٢) المستدرك (٢/٣٢٨).
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/٤٥).
(٤) في أ: «فقال».
(٥) المسند (٣/١١٢) وسنن الترمذي برقم (٢١٤٠).
(٦) رواه الحاكم في المستدرك (٢/٢٨٨) من طريق الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، رضي الله عنه.
(٧) في ك، م، أ: «قال الإمام عبد بن حميد».

ثَبِّت قلبي على دينك». هذا حديث جيد الإسناد إلا أن فيه انقطاعا. وهو ـ مع ذلك ـ على شرط أهل السنن ولم يخرجوه[1].

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم قال: سمعت ابن جابر يقول: حدثني بسر بن عبد الله[2] الحضرمي: أنه سمع أبا إدريس الخولاني يقول: سمعت النواس بن سَمْعان الكلابي، رضي الله عنه، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن رب العالمين، إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه». وكان يقول: «يا مقلب القلوب، ثبت قلوبنا[3] على دينك». قال: «والميزان بيد الرحمن يخفضه ويرفعه».

وهكذا رواه النسائي وابن ماجه، من حديث عبد الرحمن بن يزيد[4] بن جابر[5]، فذكر مثله.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا حماد بن زيد، عن المعلى بن زياد، عن الحسن؛ أن عائشة قالت: دعوات كان رسول الله ﷺ يدعو بها: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك». قالت: فقلت: يا رسول الله، إنك تكثر[6] تدعوا بهذا الدعاء. فقال: «إن قلب الآدمي بين أصبعين[7] من أصابع الله، فإذا شاء أزاغه[8]، وإذا شاء أقامه[9]»[10].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا عبد الحميد، حدثني شهر، سمعت أم سلمة تحدث: أن رسول الله ﷺ كان يكثر في دعائه يقول: «اللهم يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك». قالت: فقلت[11]: يا رسول الله، أو إن القلوب لتقلب[12]؟ قال: «نعم، ما[13] خلق الله من بشر من بني آدم إلا أن قلبه بين إصبعين من أصابع الله، عز وجل، فإن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه. فنسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب». قالت: قلت: يا رسول الله، ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال: «بلى، قولي: اللهم رب النبي محمد، اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن ما أحييتني»[14].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حيوة، أخبرني أبو هانئ، أنه سمع أبا عبد الرحمن الحُبُلي[15] أنه سمع عبد الله بن عمرو، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يُصَرِّف[16] كيف شاء[17]». ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مُصَرِّف القلوب، صَرِّف قلوبنا إلى طاعتك».

---

(١) المنتخب برقم (٣٥٩). (٢) في د، ك، م: «عبيد الله». (٣) في د، ك، م: «قلبي».

(٤) في أ: «زيد».

(٥) المسند (٤/ ١٨٢) وسنن النسائي الكبرى برقم (٧٧٣٨) وسنن ابن ماجة برقم (١٩٩).

(٦) في أ: «تكثر أن». (٧) في د: «الأصبعين». (٨) في أ: «أزاغه أزاغه».

(٩) في أ: «أقامه أقامه».

(١٠) المسند (٦/ ٩١).

(١١) في ك، أ: «قلت». (١٢) في أ: «وإن القلب ليتقلب». (١٣) في أ: «ما من».

(١٤) المسند (٦/ ٣٠١) ورواه الترمذي في السنن برقم (٣٥٢٢) من طريق شهر بن حوشب به. قال الترمذي: «هذا حديث حسن».

(١٥) في أ: «الجبلي». (١٦) في د: «يصرفها». (١٧) في د، م: «يشاء».

انفرد بإخراجه مسلم عن البخاري، فرواه مع النسائي من حديث حَيْوَة بن شُرَيْح المصري، به[١].

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) ﴾.

يحذر تعالى عباده المؤمنين ﴿فِتْنَةً﴾أي: اختبارًا ومحنة، يعم بها المسيء وغيره، لا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب، بل يعمهما، حيث لم تدفع وترفع. كما قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا شَدَّاد بن سعيد، حدثنا غَيْلان بن جرير، عن مُطَرِّف قال: قلنا للزبير: يا أبا عبد الله، ما جاء بكم؟ ضيعتم الخليفة الذي قتل، ثم جئتم تطلبون بدمه؟ فقال الزبير، رضي الله عنه: إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، رضي الله عنهم: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾، لم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت[٢].

وقد رواه البزار[٣] من حديث مطرف، عن الزبير، وقال: لا نعرف مطرفا روى عن الزبير غير هذا الحديث[٤].

وقد روى النسائي من حديث جرير بن حازم، عن الحسن، عن الزبير نحو هذا[٥].

وروى ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا مبارك بن فَضَالة، عن الحسن قال: قال الزبير: لقد خوفنا بها، يعني قوله [تعالى][٦]: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾، ونحن مع رسول الله ﷺ، وما ظننا أنا خصصنا بها خاصة.

وكذا رواه حُمَيْد، عن الحسن، عن الزبير، رضي الله عنه[٧].

وقال داود بن أبي هِنْد، عن الحسن في هذه الآية قال: نزلت في علي، وعثمان[٨]، وطلحة والزبير، رضي الله عنهم.

وقال سفيان الثوري عن الصَّلْت بن دينار، عن عقبة بن صُهْبان، سمعت الزبير يقول: لقد قرأت هذه الآية زمانا وما أرانا من أهلها فإذ[٩] نحن المعنيون بها: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

وقد روي من غير وجه، عن الزبير بن العوام.

وقال السُّدِّي: نزلت في أهل بدر خاصة، فأصابتهم يوم الجمل، فاقتتلوا.

---

(١) المسند (٢/١٦٨) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٤) وسنن النسائي الكبرى برقم (٧٨٦١).
(٢) المسند (٤/١٦٥).
(٣) في أ: «الترمذي».
(٤) مسند البزار برقم (٩٧٦).
(٥) وسنن النسائي الكبرى برقم (٦-١١٢).
(٦) زيادة من ك.
(٧) تفسير الطبري (١٣/٤٧٤).
(٨) في د، ك، م، أ: «عمار».
(٩) في د، ك، م: «فإذا».

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ يعني: أصحاب النبي ﷺ خاصة.

وقال في رواية له، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين ظهرانيهم إليهم فيعمهم الله بالعذاب.

وهذا تفسير حسن جداً؛ ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾: هي أيضاً لكم، وكذا قال الضحاك، ويزيد بن أبي حبيب، وغير واحد.

وقال ابن مسعود: ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، فأيكم استعاذ فليستعذ بالله من مُضِلاَّت الفتن. رواه ابن جرير.

والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم ـ وإن كان الخطاب معهم ـ هو الصحيح، ويدل على ذلك الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن، ولذلك كتاب مستقل يوضح فيه إن شاء الله تعالى، كما فعله الأئمة وأفردوه بالتصنيف، ومن أخص ما يذكر هاهنا ما رواه الإمام أحمد حيث قال:

حدثنا أحمد بن الحجاج، أخبرنا عبد الله ـ يعني ابن المبارك ـ أنبأنا سيف بن أبي سليمان، سمعت عَدِيّ بن عَدِيّ الكندي يقول: حدثني مولى لنا أنه سمع جدي ـ يعني عديّ بن عميرة ـ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله، عز وجل، لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظَهْرانَيْهم، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عَذَّب الله الخاصة والعامة»[١].

فيه رجل مبهم، ولم يخرجوه في الكتب الستة، ولا واحد منهم، والله أعلم.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان الهاشمي، حدثنا إسماعيل ـ يعني ابن جعفر ـ أخبرني عمرو بن أبي عمرو، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهل، عن حُذَيفة بن اليمان؛ أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عِقابا من عنده، ثم لتَدعنَّه فلا يستجيب لكم»[٢].

ورواه عن أبي سعيد، عن إسماعيل بن جعفر، وقال: «أو ليبعثن الله عليكم قوما ثم تدعونه فلا يستجيب لكم»[٣].

وقال أحمد: حدثنا عبد الله بن نُمَيْر، حدثنا رَزِين بن حبيب الجُهَني، حدثني أبو الرُّقَاد قال: خرجت مع مولاي، فدفعت إلى حذيفة وهو يقول: إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير منافقا، وإني لأسمعها من أحدكم في المقعد الواحد أربع مرات؛ لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولَتَحَاضُّنّ على الخير، أو لَيُسْحِتَنَّكم الله جميعا بعذاب، أو ليؤمرَنّ عليكم

(١) المسند (٤/ ١٩٢).
(٢) المسند (٥/ ٣٨٨).
(٣) في المسند (٥/ ٣٨٨) «أبو سعيد مولى بني هاشم عن سليمان بن بلال» ثم راجعت أطراف المسند للحافظ ابن حجر (٢/ ٢٦٣) فوجدته كما هو في المسند.

شراركم، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم[١].

**حديث آخر:** قال الإمام أحمد أيضا: حدثني يحيى بن سعيد، عن زكريا، حدثنا عامر، قال: سمعت النعمان بن بشير، رضي الله عنه، يخطب يقول ـ وأومأ بأصبعيه[٢] إلى أذنيه ـ يقول: مثل القائم على حدود الله والواقع فيها ـ أو[٣] المدْهِن فيها ـ كمثل قوم ركبوا سفينة، فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها، وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مَرّوا على من فوقهم فآذوهم، فقالوا: لو خَرَقْنا في نصيبنا خَرْقًا، فاستقينا منه، ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وأمرهم هَلَكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا جميعا.

انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم، فرواه في «الشركة» و «الشهادات»، والترمذي في الفتن من غير وجه، عن سليمان بن مِهْران الأعمش، عن عامر بن شَرَاحيل الشعبي، به[٤].

**حديث آخر:** قال الإمام أحمد: حدثنا حسين، حدثنا خَلَف بن خليفة، عن لَيْث، عن عَلْقَمَة بن مَرْثد، عن المعرور بن سُوَيْد، عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا ظهرت المعاصي في أمتي، عَمَّهم الله بعذاب من عنده». فقلت: يا رسول الله، أما فيهم أناس صالحون؟ قال: «بلى»، قالت: فكيف يصنع أولئك؟ قال: «يصيبهم ما أصاب الناس، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان»[٥].

**حديث آخر:** قال الإمام أحمد: حدثنا حَجَّاج بن محمد، أخبرنا شريك، عن أبي إسحاق، عن المنذر بن جرير، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يعملون بالمعاصي، وفيهم رجل أعزّ منهم وأمنع لا يغيرون، إلا عمهم الله بعقاب[٦] ـ أو: أصابهم العقاب».

ورواه أبو داود، عن مُسَدَّد، عن أبي الأحْوَص، عن أبي إسحاق، به[٧].

وقال أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت أبا إسحاق يحدث، عن عُبَيد الله ابن جرير، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم يُعْمَل فيهم بالمعاصي، هم أعزّ وأكثر ممن يعمله، لم يغيروه، إلا عمهم الله بعقاب»[٨].

ثم رواه أيضاً عن وَكِيع، عن إسرائيل ـ وعن عبد الرزاق، عن مَعْمَر ـ وعن أسود، عن شريك ويونس ـ كلهم عن أبي إسحاق السَّبِيعي، به.

وأخرجه ابن ماجه، عن علي بن محمد، عن وكيع، به[٩].

---

(١) المسند (٥/ ٣٩٠).

(٢) في د، ك: «بأصبعه». (٣) في ك، م: «و».

(٤) المسند (٤/ ٢٦٩) وصحيح البخاري برقم (٢٤٩٣)، (٢٦٨٦) وسنن الترمذي برقم (٢١٧٣).

(٥) المسند (٦/ ٣٠٤).

(٦) في د: «بعذاب».

(٧) المسند (٤/ ٣٦٦) وسنن أبي داود برقم (٤٣٣٩).

(٨) المسند (٤/ ٣٦٤).

(٩) سنن ابن ماجة برقم (٤٠٠٩).

[حديث آخر][١]: وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا جامع بن أبي راشد، عن مُنْذر، عن حسن بن محمد، عن امرأته، عن عائشة تبلغ به النبي ﷺ: «إذا ظهر السوء في الأرض، أنزل الله بأهل الأرض بأسه». قالت: وفيهم أهل طاعة الله؟ قال: «نعم، ثم يصيرون إلى رحمة الله»[٢].

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)﴾.

ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثَّرهم، ومستضعفين خائفين فقوَّاهم ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات، واستشكرهم[٣] فأطاعوه، وامتثلوا جميع ما أمرهم. وهذا[٤] كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستخفين مضطرين[٥]، يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله، من مشرك ومجوسي ورومي، كلهم أعداء لهم[٦] لقلتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن لهم في الهجرة إلى المدينة، فآواهم إليها، وقيَّض لهم أهلها، آووا ونصروا يوم بدر وغيره وآسَوا بأموالهم، وبذلوا مُهَجهم في طاعة الله وطاعة رسوله.

قال قتادة بن دعامة السَّدوسي، رحمه الله، في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذُلا، وأشقاه عَيْشًا، وأجوعه بطونًا، وأعراه جلودا، وأبينه ضلالا، مكعومين على رأس حجر، بين الأسدين فارس والروم، ولا والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يحسدون عليه، من عاش منهم عاش شقيا، ومن مات منهم رُدّيَ في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قَبِيلا من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلا منهم، حتى جاء الله بالإسلام فمكن به في البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلهم به ملوكا على رقاب الناس. وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا لله نعمه، فإن ربكم مُنْعِم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله [تعالى][٧] [٨].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)﴾.

قال عبد الله بن أبي قتادة والزهري: أنزلت في أبي لُبابة بن عبد المنذر، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قُرَيْظة لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فاستشاروه في ذلك، فأشار عليهم بذلك ـ وأشار بيده إلى حلقه ـ أي: إنه الذبح، ثم فطن أبو لبابة، ورأى أنه قد خان الله ورسوله، فحلف لا يذوق ذواقا حتى يموت أو يتوب الله عليه، وانطلق إلى مسجد المدينة، فربط نفسه في سارية منه، فمكث

(١) زيادة من م.
(٢) المسند (٦/ ٤١).
(٣) في أ: «واستكثرهم».
(٤) في د: «وهكذا».
(٥) في د، ك، م، أ: «مضطهدين».
(٦) في م: «أعدائهم».
(٧) زيادة من أ.
(٨) رواه الطبري في تفسيره (١٣/ ٤٧٨) وهذا كلام عظيم من إمام جليل يبين أن لا عز إلا بالإسلام وقد جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فمتى ابتغينا بغير الإسلام أذلنا الله».

كذلك تسعة أيام، حتى كان يخر مغيشا عليه من الجهد، حتى أنزل الله توبته على رسوله. فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا أن يحلوه من السارية، فحلف لا يحله منها إلا رسول الله صلى الله عليه [وسلم][١] بيده، فحله، فقال: يا رسول الله، إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة، فقال[٢]: «يجزيك الثلث أن تصدق به»[٣].

وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا يونس بن الحارث الطائفي، حدثنا محمد بن عبيد الله أبو عون الثقفي، عن المغيرة بن شعبة قال: نزلت هذه الآية في قتل عثمان، رضي الله عنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ الآية.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا القاسم بن بِشْر بن معروف، حدثنا شَبَابة بن سَوَّار، حدثنا محمد ابن المحرم قال: لقيت عطاء بن أبي رباح فحدثني قال: حدثني جابر بن عبد الله؛ أن أبا سفيان خرج من مكة، فأتى جبريل رسول الله ﷺ فقال: إن أبا سفيان في كذا وكذا. فقال النبي[٤] ﷺ لأصحابه: «إن أبا سفيان في موضع[٥] كذا وكذا، فاخرجوا إليه واكتموا» فكتب رجل من المنافقين إليه: إن محمداً يريدكم، فخذوا حذركم، فأنزل الله [عز وجل][٦]: ﴿لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ الآية[٧].

هذا حديث غريب جداً، وفي سنده وسياقه نظر.

وفي الصحيحين قصة «حاطب بن أبي بَلْتَعَة» أنه كتب إلى قريش يعلمهم بقصد رسول الله ﷺ إياهم عام الفتح، فأطلع الله رسوله على ذلك، فبعث في إثر الكتاب فاسترجعه، واستحضر حاطبا فأقر بما صنع، فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين؟ فقال: «دعه، فإنه قد شهد بدرا، ما[٨] يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[٩].

قلت: والصحيح أن الآية عامة، وإن صح أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء، والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾: الأمانة الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد ـ يعني الفريضة يقول: لا تخونوا: لا تنقضُوها.

وقال في رواية: ﴿لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ يقول: بترك سنته وارتكاب معصيته.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عُرْوَة بن الزبير في هذه الآية،

---

(١) زيادة من د، ك، م، أ.

(٢) في أ: «فقال له».

(٣) رواه الطبري في تفسيره (١٣/ ٤٨١).

(٤) في أ: «رسول الله».

(٥) في أ: «بمكان».

(٦) زيادة من د، ك، م.

(٧) تفسير الطبري (١٣/ ٤٨٠).

(٨) في ك، م: «وما».

(٩) انظر: تخريجه عند تفسير الآية: ٩ من هذه السورة.

أي: لا تظهروا لله[1] من الحق ما يرضى به منكم، ثم تخالفوه في السر إلى غيره، فإن ذلك هلاك لأماناتكم، وخيانة لأنفسكم.

وقال السُّدِّي: إذا خانوا الله والرسول، فقد خانوا أماناتهم.

وقال أيضا: كانوا يسمعون من النبي ﷺ الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين.

وقال عبد الرحمن بن زيد [بن أسلم][2]: نهاكم أن تخونوا الله والرسول، كما صنع المنافقون.

وقوله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أي: اختبار وامتحان منه لكم؛ إذ أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه[3] فيها، أو تشتغلون بها عنه، وتعتاضون بها منه؟ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٥]، وقال: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ الآية [التغابن: ١٤].

وقوله: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أي: ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد، فإنه قد يوجد منهم عدو، وأكثرهم لا يغني عنك شيئاً، والله، سبحانه، هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة.

وفي الأثر يقول [الله][4] تعالى: «ابن آدم، اطلبني تَجدني، فإن وَجَدْتَني وجَدْتَ كل شيء، وإن فُتُّك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء».

وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ [أنه قال][5]: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان أن يلقى في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ[6] أنقذه الله منه»[7].

بل حب رسوله مقدم على الأولاد والأموال والنفوس، كما ثبت في الصحيح أنه، عليه السلام، قال: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله والناس أجمعين»[8].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) ﴾.

قال ابن عباس، والسُّدِّي، ومُجاهِد، وعِكْرِمة، والضحاك، وقَتَادة، ومُقَاتِل بن حَيَّان: ﴿ فُرْقَانًا ﴾:

---

(١) في د، ك، م: «لا تظهروا له».
(٢) زيادة من أ.
(٣) في د، ك، م: «أتشكرونه عليها وتطيعونه».
(٤) زيادة من د، ك، م، أ.
(٥) زيادة من أ.
(٦) في د، ك، م، أ: «أن».
(٧) رواه مسلم في صحيحه برقم (٤٣) من حديث أنس بن مالك، رضي الله عنه.
(٨) صحيح البخاري برقم (١٤).

مخرجًا. زاد مجاهد: في الدنيا والآخرة.

وفي رواية عن ابن عباس: ﴿فُرْقَانًا﴾: نجاة. وفي رواية عنه: نصرًا.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿فُرْقَانًا﴾ أي: فصلا بين الحق والباطل.

وهذا التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدم وقد يستلزم ذلك كله؛ فإن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره، وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره[1] ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا، وسعادته يوم القيامة، وتكفير ذنوبه ـ وهو محوها ـ وغفرها: سترها عن الناس ـ سببًا لنيل ثواب الله الجزيل، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ [أي][2]: ليقيدوك.

وقال عطاء، وابن زيد: ليحبسوك.

وقال السُّدِّي: «الإثبات»: هو الحبس والوثاق.

وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء، وهو مجمع الأقوال[3]، وهو الغالب من صنيع من أراد غيره بسوء.

وقال سُنَيْد، عن حجاج، عن ابن جُرَيْج، قال عطاء: سمعت عُبَيْد بن عُمَيْر يقول: لما ائتمروا بالنبي ﷺ ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه؛ قال له عمه أبو طالب: هل تدري ما ائتمروا بك؟ قال: «يريدون أن يسحروني[4] أو يقتلوني أو يخرجوني»، فقال: من أخبرك[5] بهذا؟ قال: «ربي»، قال: نعم الرب ربك، استوص به خيرًا فقال: «أنا أستوصي به؟! بل هو يستوصي بي»[6].

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني محمد بن إسماعيل البصري، المعروف بالوساوسي، أخبرنا عبد الحميد بن أبي روَّاد[7]، عن ابن جريج، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن المطلب بن أبي وداعة، أن أبا طالب قال لرسول الله ﷺ: ما يأتمر بك قومك؟ قال: «يريدون أن يسحروني[8] أو يقتلوني أو يخرجوني». فقال: من أخبرك بهذا؟ قال: «ربي»، قال: نعم الرب ربك، فاستوص به خيرًا. «قال: أنا أستوصي به؟! بل هو يستوصي بي». قال: فنزلت: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ الآية[9].

---

(١) في أ: «نصرته». (٢) زيادة من ك.

(٣) في د: «وهذا يجمع الأقوال»، وفي ك، م: «وهو يجمع الأقوال».

(٤) في د: «يسجنوني»، وفي أ: «يسحروني».

(٥) في ك، م، أ: «خبرك».

(٦) رواه الطبري في تفسيره (١٣/ ٤٩٣).

(٧) في د، م: «داود».

(٨) في د: «يسجنوني»، وفي أ: «يسحروني».

(٩) تفسير الطبري (١٣/ ٤٩٢).

وذكر أبي طالب في هذا، غريب جدا، بل منكر؛ لأن هذه الآية مدنية، ثم إن هذه القصة واجتماع قريش على هذا الائتمار والمشاورة على الإثبات أو النفي أو القتل، إنما كان ليلة الهجرة سواء، وكان ذلك بعد موت أبي طالب بنحو من ثلاث سنين لما تمكنوا منه واجترؤوا عليه بعد موت عمه أبي طالب، الذي كان يحوطه وينصره ويقوم بأعبائه. والدليل على صحة ما قلنا: ما رواه الإمام محمد بن إسحاق بن يَسَار صاحب «المغازي» عن عبد الله بن أبي نَجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: وحدثني الكلبي، عن باذان مولى أم هانئ، عن ابن عباس؛ أن نفرا من قريش من أشراف كل قبيلة، اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة، فاعترضهم[١] إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال: شيخ من نَجْد، سمعت أنكم اجتمعتم، فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم رأيي ونصحي. قالوا: أجل، ادخل فدخل معهم فقال: انظروا في شأن هذا الرجل، والله ليوشكن أن يواثبكم في أمركم بأمره. قال: فقال قائل منهم: احبسوه في وثاق، ثم تربصوا به ريب المنون، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء: زهير والنابغة، إنما هو كأحدهم، قال: فصرخ عدو الله الشيخ النجدي فقال: والله ما هذا لكم برأي، والله ليخرجنه ربه من محبسه[٢] إلى أصحابه، فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيدكم، فيمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم قال: فانظروا في غير هذا.

قال: فقال قائل منهم: أخرجوه من بين أظهركم تستريحوا منه، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع، إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم، وكان أمره في غيركم، فقال الشيخ النجدي: والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حلاوة [قوله][٣] وطلاوة لسانه، وأخذ القلوب ما تسمع[٤] من حديثه؟ والله لئن فعلتم، ثم استعرض العرب، ليجتمعن عليكم[٥]، ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم. قالوا: صدق والله، فانظروا بابا غير هذا.

قال: فقال أبو جهل، لعنه الله: والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم تصرمونه[٦] بعد، ما أرى غيره. قالوا: وما هو؟ قال: نأخذ من كل قبيلة غلاما شابا وسيطا نهدا، ثم يعطى كل غلام منهم سيفا صارما، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل [كلها][٧]، فلا أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها. فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العَقْل، واسترحنا وقطعنا عنا أذاه.

قال: فقال الشيخ النجدي: هذا والله الرأي. القول ما قال الفتى لا رأي غيره، قال: فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له[٨].

فأتى جبريل النبي ﷺ، فأمره ألا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، وأخبره بمكر القوم.

---

(١) في د: «واعترضهم». (٢) في أ: «من حبسه». (٣) زيادة من آ.
(٤) في أ: «ما تسمع». (٥) في د، ك، م: «عليه». (٦) في أ: «تصرموها».
(٧) زيادة من د، ك، م، آ. (٨) زيادة من د، ك، م.

فلم يبت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة، وأذن الله له عند ذلك بالخروج، وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة «الأنفال» يذكر نعمه[1] عليه وبلاءه عنده: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، وأنزل [الله][2] في قولهم: «تربصوا به ريب المنون، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء»، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، وكان ذلك اليوم يسمى «يوم الزحمة»[3]، للذى اجتمعوا عليه من الرأى[4].

وعن السُّدِّى نحو هذا السياق، وأنزل الله فى إرادتهم إخراجه قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦].

وكذا روى العَوْفى، عن ابن عباس. وروى عن مجاهد، وعُرْوَة بن الزبير، وموسى بن عُقْبَة، وقتادة، ومِقْسَم، وغير واحد، نحو ذلك.

وقال يونس بن بُكَيْر، عن ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ ينتظر أمر الله، حتى إذا اجتمعت قريش فمكرت به، وأرادوا به ما أرادوا، أتاه جبريل، عليه السلام، فأمره ألا يبيت فى مكانه الذى كان يبيت فيه[5]، فدعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب، فأمره أن يبيت على فراشه وأن يتسجى ببُرد له أخضر، ففعل. ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابه، وخَرَج معه بحفنة من تراب، فجعل يذرها على رؤوسهم، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه محمد ﷺ وهو يقرأ: ﴿يس . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ١ـ ٩].

قال الحافظ أبو بكر البيهقى: وروى عن عكرمة ما يؤكد هذا[6].

وقد روى [أبو حاتم][7] ابن حِبَّان فى صحيحه، والحاكم فى مستدركه، من حديث عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: دخلت فاطمةُ على رسول الله ﷺ وهى تبكى، فقال: «ما يبكيك يا بُنَيَّة؟» قالت: يا أبت، [و][8] ما لى لا أبكى، وهؤلاء الملأ من قريش فى الحِجْر يتعاقدون باللات والعُزَّى ومناة الثالثة الأخرى، لو قد رأوك لقاموا إليك فيقتلوك، وليس منهم إلا من قد عَرَف نصيبه من دمك. فقال: «يا بنية، ائتنى بوَضُوء». فتوضأ رسولَ الله ﷺ، ثم خرج إلى المسجد. فلما رأوه قالوا: إنما هو ذا[9]. فطأطؤوا رؤوسهم، وسقطت أذقانهم بين أيديهم، فلم يرفعوا أبصارهم. فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب فحصبهم بها، وقال: «شاهت الوجوه». فما أصاب رجلا منهم حَصَاة من حصياته إلا قُتل يوم بدر كافرا.

ثم قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ولا أعرف له علة[10].

---

(١) فى ك، م: «نعمته».
(٢) زيادة من د، ك، أ.
(٣) فى د، ك، م، أ: «الرحمة».
(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ٤٩٤) من طريق ابن إسحاق به.
(٥) فى د، ك، م: «أبدا».
(٦) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٤٦٩، ٤٧٠).
(٧) زيادة من ك، م.
(٨) زيادة من د.
(٩) فى د، ك، م: «ها هو ذا».
(١٠) صحيح ابن حبان برقم (١٦٩١) «موارد» والمستدرك (٣/ ١٥٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، أخبرني عثمان الجَزَرَى، عن مِقْسَم مولى ابن عباس أخبره عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾. قال: تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق ـ يريدون النبي ﷺ ـ وقال بعضهم: بل اقتلوه. وقال بعضهم: بل أخرجوه. فأطلع الله نبيه على ذلك، فبات علي، رضي الله عنه، على فراش رسول الله ﷺ، وخرج رسول الله[1] ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوا علياً ردَّ الله تعالى مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري. فاقتصا[2] أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا في الجبل فمرّوا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هاهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاث ليال[3].

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عُرْوَة بن الزبير في قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أي: فمكرت بهم بكيدي المتين، حتى خلصتك منهم.

**﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾.**

يخبر تعالى عن كفر قريش وعُتُوّهم وتمرّدهم وعنادهم، ودعواهم الباطل عند سماع آياته حين تتلى عليهم أنهم يقولون: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾. وهذا منهم قول لا فعل، وإلا فقد تحدّوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلا. وإنما هذا قول منهم يَغُرّون به أنفسهم ومن اتبعهم على باطلهم.

وقد قيل: إن القائل لذلك هو النضر بن الحارث ـ لعنه الله ـ كما قد نص على ذلك سعيد بن جُبير، والسدي، وابن جُرَيج وغيرهم؛ فإنه ـ لعنه الله ـ كان قد ذهب إلى بلاد فارس، وتعلم من أخبار ملوكهم رُسْتم واسفنديار، ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله، وهو يتلو على الناس القرآن، فكان إذا قام ﷺ[4] من مجلس، جلس فيه النضر فيحدثهم من أخبار أولئك، ثم يقول: بالله أيهما أحسن قصصاً؟ أنا أو محمد؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر ووقع في الأسارى، أمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبته صبرا بين يديه، ففُعل ذلك، ولله الحمد. وكان الذي أسره المقداد بن

---

(١) في ك، م: «النبي».  (٢) في د، ك، م: «فاقتصوا».

(٣) المسند (١/ ٣٤٨) قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٧): «فيه عثمان بن عمرو الجزري وثقه ابن حبان وضعفه غيره، وبقية رجاله رجال الصحيح».

(٤) في ك، د: «عليه السلام».

الأسود، رضي الله عنه، كما قال ابن جرير:

حدثنا محمد بن بَشَّار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شُعْبَة، عن أبي بِشْر، عن سعيد بن جُبَير قال: قَتَل النبي ﷺ يوم بدر صبرا عُقْبَةَ بن أبي مُعَيْط وطُعَيمة بن عَدِيّ، والنضر بن الحارث. وكان المقداد أسر النضر، فلما أمر بقتله، قال المقداد: يا رسول الله، أسيري. فقال رسول الله ﷺ: «إنه كان يقول في كتاب الله، عز وجل، ما يقول». فأمر رسول الله[1] ﷺ بقتله، فقال المقداد: يا رسول الله، أسيري. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اغْنِ المقداد من فضلك». فقال المقداد: هذا الذي أردت. قال: وفيه أنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[2].

وكذا رواه هُشَيْم، عن أبي بشر جعفر بن أبي وَحْشِيَّة، عن سعيد بن جبير؛ أنه قال: «المطعم بن عدي» «بدل طعيمة»[3]. وهو غلط؛ لأن المطعم بن عدي لم يكن حيا يوم بدر؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ يومئذ: «لو كان المطعم[4] حيا، ثم سألني[5] في هؤلاء النَّتْنَى[6]، لوهبتهم له»[7] ـ يعني: الأسارى ـ لأنه كان قد أجار رسول الله ﷺ ويوم رجع من الطائف.

ومعنى: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، وهو جمع أسطورة، أي: كتبهم اقتبسها، فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس. وهذا هو الكذب البحت، كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى. ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا. قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٥، ٦] أي: لمن تاب إليه وأناب؛ فإنه يتقبل منه ويصفح عنه.

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: هذا من كثرة جهلهم وعُتُوّهم وعنادهم وشدة تكذيبهم، وهذا مما عيبوا به، وكان الأولى لهم أن يقولوا: «اللهم، إن كان هذا هو الحق من عندك، فاهدنا له، ووفقنا لاتباعه». ولكن استفتحوا على أنفسهم، واستعجلوا العذاب، وتقديم العقوبة كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣]، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]، ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ. لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ. مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ [المعارج: ١ ـ ٣]، وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة، كما قال قوم شعيب له: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، وقال هؤلاء: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

---

(١) في د، ك، م، أ: «النبي».

(٢) تفسير الطبري (١٣/ ٥٠٤).

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٥٠٤).

(٤) في د، ك، م، أ: «المطعم بن عدي». (٥) في ك، د: «سألني». (٦) في أ: «النتني».

(٧) رواه البخاري في صحيحه برقم (٣١٣٩) من حديث جبير بن مطعم، رضي الله عنه.

قال شُعْبَة، عن عبد الحميد، صاحب الزِّيَادي، عن أنس بن مالك قال: هو أبو جهل بن هشام قال: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الآية.

رواه البخاري عن أحمد ومحمد بن النضر، كلاهما عن عُبَيد الله بن مُعَاذ، عن أبيه، عن شعبة، به[1].

وأحمد هذا هو: أحمد بن النضر بن عبد الوهاب. قاله الحاكم أبو أحمد، والحاكم أبو عبد الله النيسابوري، والله أعلم.

وقال الأعمش، عن رجل، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قال: هو النضر بن الحارث بن كَلَدَة، قال: فأنزل الله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ. لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾[المعارج: ١، ٢]، وكذا قال مجاهد، وعطاء، وسعيد بن جُبير، والسدي: إنه النضر بن الحارث ـ زاد عطاء: فقال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] وقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقال: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ. لِّلْكَافِرِينَ﴾[المعارج: ١، ٢]، قال عطاء: ولقد أنزل فيه بضع عشرة آية من كتاب الله، عز وجل.

وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن إبراهيم، حدثنا الحسن بن أحمد بن الليث، حدثنا أبو غسان حدثنا أبو تُمَيلة، حدثنا الحسين، عن ابن بُرَيدة، عن أبيه قال: رأيت عمرو بن العاص واقفا يوم أُحُد على فرس، وهو يقول: اللهم، إن كان ما يقول محمد حقا، فاخْسِف بي وبفرسي».

وقال قتادة في قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية، قال: قال ذلك سَفَهة هذه الأمة وَجَهلتها[2]، فعاد الله بعائدته ورحمته على سَفَهة هذه الأمة وجهلتها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو حذيفة موسى بن مسعود، حدثنا عِكْرِمة بن عمار، عن أبي زُمَيل سِمَاك الحنفي، عن ابن عباس قال: كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك[3]. فيقول النبي ﷺ: «قَدْ قَدْ»! ويقولون: لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك. ويقولون: غفرانك، غفرانك، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، قال ابن عباس: كان فيهم أمانان: النبي ﷺ، والاستغفار، فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار[4].

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٦٤٨، ٤٦٤٩).

(٢) في ك: «وجهلها».  (٣) في أ: «لك لبيك».

(٤) ورواه الطبري في تفسيره (١٣/ ٥١١) من طريق أبي حذيفة موسى بن مسعود به.

وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا أبو مَعْشَر، عن يزيد بن رُومَان ومحمد بن قيس قالا: قالت قريش بعضها لبعض: محمد أكرمه الله من بيننا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فلما أمسوا ندموا على ما قالوا، فقالوا: غفرانك اللهم! فأنزل الله، عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ [لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ][1] مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ يقول: ما كان الله ليعذب قوما وأنبياؤهم بين أظهرهم حتى يخرجهم، ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يقول: وفيهم من قد سبق له من الله الدخولُ في الإيمان، وهو الاستغفار ـ يستغفرون، يعني: يصلون ـ يعني بهذا أهل مكة.

وروى عن مجاهد، وعكرمة، وعطية العَوْفي، وسعيد بن جُبَيْر، والسُّدِّي نحو ذلك.

وقال الضحاك وأبو مالك: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يعني: المؤمنين الذين كانوا بمكة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الغفار بن داود، حدثنا النضر بن عَرَبي [قال][2] قال ابن عباس: إن الله جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ما داما بين أظهرهم: فأمان قَبَضه الله إليه، وأمان بقي فيكم، قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

قال[3] أبو صالح عبد الغفار: حدثني بعض أصحابنا، أن النضر بن عربي حدثه هذا الحديث، عن مجاهد، عن ابن عباس.

وروى ابن مَرْدُوَيه وابن جرير، عن أبي موسى الأشعري نحواً من هذا[4]، وكذا رُوي عن قتادة وأبي العلاء النحوي المقرئ.

وقال الترمذي: حدثنا سفيان بن وَكِيع، حدثنا ابن نُمَيْر، عن إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر، عن عَبّاد بن يوسف، عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل الله علي أمانين لأمتي: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، فإذا مضيت، تركتُ فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة»[5].

ويشهد لهذا[6] ما رواه الإمام أحمد في مسنده، والحاكم في مستدركه، من حديث عبد الله بن وهب: أخبرني عمرو بن الحارث، عن دَرّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، أن رسول الله ﷺ

---

(١) زيادة من م. (٢) زيادة من د، ك، م، أ. (٣) في ك: «وقال».
(٤) تفسير الطبري (١٣/ ٥١٣).
(٥) سنن الترمذي برقم (٣٠٨٢) وقال الترمذي: «هذا حديث غريب، وإسماعيل بن مهاجر يضعف في الحديث».
(٦) في أ: «لصحة هذا».

قال: «إن الشيطان قال: وعزتك يا رب، لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال الرب: وعزتي وجلالي، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني».

ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا رِشْدِين ـ هو ابن سعد ـ حدثني معاوية بن سعد التُّجِيبى، عمن حدثه، عن فَضَالة بن عُبَيد، عن النبي ﷺ أنه قال: «العبد آمن من عذاب الله ما استغفر الله، عز وجل»(٢).

﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥)﴾.

يخبر تعالى أنهم أهل لأن يعذبهم، ولكن لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام رسول الله ﷺ بين أظهرهم؛ ولهذا لما خرج من بين أظهرهم، أوقع الله بهم بأسه يوم بدر، فقُتِل صناديدهم وأسرت سَرَاتهم. وأرشدهم تعالى إلى الاستغفار من الذنوب، التي هم متلبسون بها من الشرك والفساد.

قال قتادة والسُّدِّي وغيرهما: لم يكن القوم يستغفرون، ولو كانوا يستغفرون ما عذبوا.

واختاره ابن جرير، فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين، لأوقع بهم البأس الذي لا يرد، ولكن دفع عنهم بسبب أولئك، كما قال تعالى في يوم الحديبية: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

قال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيْد، حدثنا يعقوب، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن ابن أَبْزَى قال: كان النبي ﷺ بمكة، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ قال: فخرج النبي ﷺ إلى المدينة، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال: وكان أولئك البقية من المؤمنين(٣) الذين بقوا فيها يستغفرون ـ يعني بمكة ـ فلما خرجوا، أنزل الله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ قال: فأذن الله في فتح مكة، فهو العذاب الذي وعدهم.

وروي عن ابن عباس، وأبي مالك، والضحاك، وغير واحد نحو هذا.

وقد قيل: إن هذه الآية ناسخة لقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، على أن يكون المراد صدور الاستغفار منهم أنفسهم.

---

(١) المسند (٣/ ٢٩) والمستدرك (٤/ ٢٦١) وهذا سياق الحاكم. وأما سياق أحمد في المسند من طريق ابن لهيعة عن دراج به.
(٢) المسند (٦/ ٢٠).
(٣) في د، ك، م: «المسلمين».

قال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيْد، حدثنا يحيى بن واضح، عن الحسين بن واقد، عن يزيد النحوي، عن عكرمة والحسن البصري قالا: قال في «الأنفال»: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، فنسختها الآية التي تليها: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾إلى قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، فقُوتلوا بمكة، فأصابهم فيها الجوع والضر.

وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث أبي[1] تُمَيْلة يحيى بن واضح[2].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج بن محمد، عن ابن جُرَيْج وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، ثم استثنى أهل الشرك فقال [تعالى][3]: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام أي الذي بمكة، يصدون المؤمنين الذين هم أهله عن الصلاة عنده والطواف به؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي: هم ليسوا أهل المسجد الحرام، وإنما أهله النبي ﷺ وأصحابه، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ. إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ [وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ][4]﴾ الآية [البقرة: ٢١٧].

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوَيه في تفسير هذه الآية: حدثنا سليمان بن أحمد ـ هو الطبراني ـ حدثنا جعفر بن إلياس بن صدقة المصري، حدثنا نُعَيم بن حماد، حدثنا نوح بن أبي مريم، عن يحيى ابن سعيد الأنصاري، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: سئل رسول الله ﷺ من آلُك؟ قال[5]: «كل تقي»، وتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾[6].

وقال الحاكم في مستدركه: حدثنا أبو بكر الشافعي، حدثنا إسحاق بن الحسن، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم[7]، عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعة، عن أبيه، عن جده قال: جمع رسول الله ﷺ قريشا فقال: «هل فيكم من غيركم؟» قالوا: فينا ابن أختنا[8]، وفينا حليفنا، وفينا مولانا. فقال: «حليفنا منا، وابن أختنا منا، ومولانا منا، إن أوليائي منكم المتقون».

ثم قال: هذا [حديث][9] صحيح، ولم يخرجاه[10].

(١) في أ: «ابن».
(٢) في ك: «وضاح».
(٣، ٤) زيادة من أ.
(٥) في أ: «فقال».
(٦) رواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٥٠٠٢) «مجمع البحرين» وقال: «لم يروه عن يحيى إلا نوح تفرد به نعيم». وقال الهيثمي في المجمع (٢٦٩/١٠): «فيه نوح بن أبي مريم وهو ضعيف».
(٧) في أ: «خيثم».
(٨) في د، ك، م: «أختنا».
(٩) زيادة من أ.
(١٠) المستدرك (٣٢٨/٢).

وقال عُرْوَة، والسُّدِّي، ومحمد بن إسحاق في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلا الْمُتَّقُونَ﴾ قال: هم محمد ﷺ وأصحابه، رضي الله عنهم.

وقال مجاهد: هم المجاهدون، من كانوا، وحيث كانوا.

ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام، وما كانوا يعاملونه به، فقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾: قال عبد الله[١] بن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبو رجاء العطاردي، ومحمد بن كعب القرظي، وحُجْر بن عَنْبَس، ونُبَيط بن شُرَيط، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو الصفير ـ وزاد مجاهد: وكانوا يدخلون أصابعهم في أفواههم.

وقال السدي: المُكَاء: الصفير على نحو طير أبيض يقال له: «المُكَاء»، ويكون بأرض الحجاز. والتصدية: التصفيق.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو خَلاَّد سليمان بن خلاد، حدثنا يونس بن محمد المؤدب، حدثنا يعقوب ـ يعني ابن عبد الله الأشعري ـ حدثنا جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ قال: كانت قريش تطوف بالكعبة[٢] عراة تصفر وتصفق. والمكاء: الصفير، وإنما شبهوا بصفير الطير وتصدية التصفيق.

وهكذا روى علي بن أبي طلحة والعَوْفي، عن ابن عباس. وكذا روى عن ابن عمر، ومجاهد، ومحمد بن كعب، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، والضحاك، وقتادة، وعطية العوفي، وحُجْر بن عَنْبَس، وابن أبزَى نحو هذا.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا أبو عمر، حدثنا قُرَّة، عن عطية، عن ابن عمر في قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ قال: المكاء: الصفير. والتصدية: التصفيق. قال قرة: وحكَى لنا عطية فعل ابن عمر، فصفر ابن عمر، وأمال خده، وصفق بيديه.

وعن ابن عمر أيضاً أنه قال: كانوا يضعون خدودهم على الأرض ويُصَفِّقون ويُصَفِّرون. رواه ابن أبي حاتم في تفسيره بسنده عنه.

وقال عكرمة: كانوا يطوفون بالبيت على الشمال.

قال مجاهد: وإنما كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبي ﷺ صلاته.

وقال الزهري: يستهزئون بالمؤمنين.

وعن سعيد بن جُبَيْر وعبد الرحمن بن زيد: ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ قال: صدُّهم الناس عن سبيل الله، عز وجل.

---

(١) في أ: «عبد الرزاق».　　(٢) في ك، د «البيت».

قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قال الضحاك، وابن جُرَيْج، ومحمد بن إسحاق: هو ما أصابهم يوم بَدْر من القتل والسَّبي. واختاره ابن جرير، ولم يحك غيره.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد قال: عذاب أهل الإقرار بالسيف، وعذاب أهل التكذيب بالصيحة والزلزلة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧)﴾.

قال محمد بن إسحاق: حدثني الزهري، ومحمد بن يحيى بن حبَّان، وعاصم بن عمر بن قتادة، والحُصَيْن بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، قالوا: لما أصيبت قريش يوم بدر، ورجع فَلُّهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بِعِيرِه، مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان ابن أمية، في رجال من قريش أصيب آباؤهم، وأبناؤهم وإخوانهم ببدر، فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك[1] العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش، إن محمدا قد وَتَرَكم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا! ففعلوا. قال: ففيهم ـ كما ذكر عن ابن عباس ـ أنزل الله، عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ [لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ][2]﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾[3].

وهكذا روى عن مجاهد، وسعيد بن جُبَيْر، والحَكَم بن عتيبة، وقتادة، والسدي، وابن أبزَى: أنها نزلت[4] في أبي سفيان ونفقته الأموال في أُحُد لقتال رسول الله ﷺ.

وقال الضحاك: نزلت في أهل بدر.

وعلى كل تقدير، فهي عامة. وإن كان سبب نزولها خاصا، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق، فسيفعلون ذلك، ثم تذهب أموالهم، ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي: ندامة؛ حيث لم تُجْدِ شيئاً؛ لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق، والله متم نوره ولو كره الكافرون، وناصر دينه، ومُعْلِن كلمته، ومظهر دينه على كل دين. فهذا الخزي لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار، فمن عاش منهم، رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوؤه، ومن قُتل منهم أو مات، فإلى الخزي الأبدي والعذاب السرمدي؛ ولهذا قال: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ

---

(١) في م: «ذلك».
(٢) زيادة من م.
(٣) ورواه الطبري في تفسيره (١٣/ ٥٣٢).
(٤) في م: «أنزلت».

**تكُونُ عليهمْ حسْرةً ثُمَّ يُغْلبُونَ والَّذِينَ كفرُوا إلىٰ جهنَّم يُحْشرُونَ﴾.**

وقوله تعالى: ﴿**لِيمِيزَ اللَّهُ الْخبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿**لِيمِيزَ اللَّهُ الْخبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**﴾: فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء[1]، وقال السدي: يميز المؤمن من الكافر. وهذا يحتمل أن يكون هذا التمييز في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿**ثُمَّ نقُولُ لِلَّذِين أشْركُوا مكانكُمْ أنتُمْ وشُركاؤُكُمْ فزيَّلْنا بيْنهُمْ**﴾ [يونس: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿**ويوْم تقُومُ السَّاعةُ يوْمئِذٍ يتفرَّقُون**﴾ [الروم: ١٤]، وقال في الآية الأخرى: ﴿**يوْمئِذٍ يصَّدَّعُون**﴾ [الروم: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿**وامْتازُوا الْيوْم أيُّها الْمُجْرِمُون**﴾ [يس: ٥٩].

ويحتمل أن يكون هذا التمييز في الدنيا، بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين، وتكون «اللام» معللة لما جعل الله للكفار من مال ينفقون في الصد عن سبيل الله، أي: إنما أقدرناهم على ذلك؛ ﴿**لِيمِيزَ اللَّهُ الْخبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**﴾ أي: من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين، أو يعصيه بالنكول عن ذلك كما قال تعالى: ﴿ **وما أصابكُمْ يوْم الْتقى الْجمْعانِ فبِإِذْنِ اللَّهِ ولِيعْلم الْمُؤْمِنِين. ولِيعْلم الَّذِين نافقُوا وقِيل لهُمْ تعالوْا قاتِلُوا فِي سبِيلِ اللَّهِ أوِ ادْفعُوا قالُوا لوْ نعْلمُ قِتالاً لاتَّبعْناكُمْ**﴾ الآية [آل عمران: ١٦٦، ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿**ما كان اللَّهُ لِيذر الْمُؤْمِنِين علىٰ ما أنتُمْ عليْهِ حتَّىٰ يمِيز الْخبِيث مِن الطَّيِّبِ وما كان اللَّهُ لِيُطْلِعكُمْ على الْغيْبِ**﴾ الآية [آل عمران: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿**أمْ حسِبْتُمْ أن تدْخُلُوا الْجنَّة ولمَّا يعْلمِ اللَّهُ الَّذِين جاهدُوا مِنكُمْ ويعْلم الصَّابِرِين**﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ونظيرتها في براءة أيضًا.

فمعنى الآية على هذا: إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم، وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها في ذلك؛ ليتميز[2] الخبيث من الطيب، فيجعل الخبيث بعضه على بعض، ﴿**فيرْكُمهُ**﴾ أي: يجمعه كله، وهو جمع الشيء بعضه على بعض، كما قال تعالى في السحاب: ﴿**ثُمَّ يجْعلُهُ رُكامًا**﴾ [النور: ٤٣] أي: متراكمًا متراكبًا، ﴿**فيجْعلهُ فِي جهنَّم أُوْلئِك هُمُ الْخاسِرُون**﴾ أي: هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

﴿ **قُل لِّلَّذِين كفرُوا إِن ينتهُوا يُغْفرْ لهُم مَّا قدْ سلف وإِن يعُودُوا فقدْ مضتْ سُنَّتُ الأوَّلِين (٣٨) وقاتِلُوهُمْ حتَّىٰ لا تكُون فِتْنةٌ ويكُون الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فإِنِ انتهوْا فإِنَّ اللَّه بِما يعْملُون بصِيرٌ (٣٩) وإِن تولَّوْا فاعْلمُوا أنَّ اللَّه موْلاكُمْ نِعْم الْموْلىٰ ونِعْم النَّصِيرُ (٤٠)** ﴾.

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿**قُل لِّلَّذِين كفرُوا إِن ينتهُوا**﴾ أي: عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد، ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة، يغفر لهم ما قد سلف، أي: من كفرهم، وذنوبهم وخطاياهم، كما جاء في الصحيح، من حديث أبي وائل عن ابن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من أحسن في الإسلام، لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام، أخذ بالأول

---

(١) في أ: «الشقاوة».　　(٢) في د، م: «ليميز الله».

والآخر»[1].

وفي الصحيح أيضاً: أن رسول الله ﷺ قال: «الإسلام يَجُبّ ما قبله[2]، والتوبة تجب ما كان قبلها».

وقوله: ﴿وَإِن يَعُودُوا﴾ أي: يستمروا على ما هم فيه، ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ﴾ أي: فقد مضت سنتنا في الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا عل عنادهم، أنا نعاجلهم بالعذاب والعقوبة.

وقوله: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ﴾ أي: في قريش يوم بدر وغيرها من الأمم. وقال السدي ومحمد بن إسحاق: أي: يوم بدر.

وقوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾: قال البخاري: حدثنا الحسن بن عبد العزيز، حدثنا عبد الله بن يحيى، حدثنا حَيْوة بن شُرَيح، عن بكر بن عمرو، عن بُكَير، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رجلا جاءه فقال: يا أبا عبد الرحمن، ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ الآية [الحجرات:٩]، فما يمنعك ألا تقاتل كما ذكر الله في كتابه؟ فقال: يا ابن أخي، أُعَيَّر بهذه الآية ولا أقاتل، أحب إلي من أن أعيَّر بالآية التي يقول الله، عز وجل: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ إلى آخر[3] الآية [النساء:٩٣]، قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ قال ابن عمر: قد فعلنا على عهد النبي ﷺ إذ كان الإسلام قليلا، وكان الرجل يُفتن في دينه: إما أن يقتلوه، وإما أن يوثقوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد، قال: فما قولك في علي وعثمان؟ قال ابن عمر: ما قولي في علي وعثمان؟ أما عثمان فكان الله قد عفا عنه، وكرهتم أن يعفو عنه، وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وخَتَنُه ـ وأشار بيده ـ وهذه ابنته ـ أو: بنته ـ حيث ترون.

وحدثنا أحمد بن يونس، حدثنا زُهَير، حدثنا بَيَان أن وَبَرَة حدثه قال: حدثني سعيد بن جُبَير قال: خرج علينا ـ أو: إلينا ـ ابن عمر، رضي الله عنهما، فقال رجل: كيف ترى في قتال الفتنة؟ فقال: وهل تدري ما الفتنة؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين، وكان الدخول عليهم فتنة، وليس بقتالكم على الملك.

هذا كله سياق البخاري، رحمه الله[4].

وقال عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر؛ أنه أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس قد صنعوا ما ترى، وأنت ابن عمر بن الخطاب، وأنت صاحب رسول الله ﷺ، فما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعني أن الله حرم عليَّ دم أخي المسلم. قالوا: أو لم يقل الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ

---

(١) صحيح البخاري برقم (٦٩٢١) وصحيح مسلم برقم (١٢٠).

(٢) في ك، م: «ما كان قبله». (٣) في ك، م: «آخرها».

(٤) صحيح البخاري برقم (٤٦٥٠، ٤٦٥١).

﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾؟ قال: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين كله الله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله.

وكذا رواه حَمَّاد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أيوب بن عبد الله اللخمي قال: كنت عند عبد الله بن عمر[1]، رضي الله عنهما، فأتاه رجل فقال: إن الله يقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ فقال[2] ابن عمر: قاتلت أنا وأصحابي حتى كان الدين كله لله، وذهب الشرك ولم تكن فتنة، ولكنك وأصحابك تقاتلون حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله. رواهما ابن مَرْدُوَيه.

وقال أبو عَوَانة، عن الأعمش، عن إبراهيم التَّيْمي، عن أبيه قال: قال ذو البطين ـ يعني أسامة ابن زيد ـ لا أقاتل رجلا يقول: لا إله إلا الله أبدا. قال: فقال سعد بن مالك: وأنا والله لا أقاتل رجلا يقول: لا إله إلا الله أبدا. فقال رجل: ألم يقل الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾؟ فقالا: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين كله لله. رواه ابن مردويه.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ يعني: [حتى][3] لا يكون شرك، وكذا قال أبو العالية، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حَيَّان، وزيد بن أسلم.

وقال محمد بن إسحاق: بلغني عن الزهري، عن عُرْوَة بن الزبير وغيره من علمائنا: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾: حتى لا يفتن مسلم عن دينه.

وقوله: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس في هذه الآية، قال: يخلص التوحيد لله.

وقال الحسن وقتادة، وابن جُرَيج: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾: أن يقال: لا إله إلا الله.

وقال محمد بن إسحاق: ويكون التوحيد خالصا لله، ليس فيه شرك، ويخلع ما دونه من الأنداد.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾: لا يكون مع دينكم كفر.

ويشهد له[4] ما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله، عز وجل»[5]. وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: سُئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حَمِيَّة، ويقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله، عز وجل؟ فقال: «من قاتل لتكون

---

(١) في أ: «عمرو». (٢) في أ: «قال». (٣) زيادة من م.
(٤) في أ: «لهذا».
(٥) رواه البخاري في صحيحه برقم (٢٥) ومسلم في صحيحه برقم (٢٢) من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب، رضي الله عنهما.

كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله، عز وجل»[1].

وقوله: ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ أي: بقتالكم عما هم فيه من الكفر، فكفوا عنه[2]، وإن لم تعلموا[3] بواطنهم، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ[4] بَصِيرٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]، وفي الآية الأخرى: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

وقال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣] وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأسامة ـ لما علا ذلك الرجل بالسيف. فقال: «لا إله إلا الله»، فضربه فقتله، فذكر ذلك لرسول الله ـ فقال لأسامة: «أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال: يا رسول الله، إنما قالها تعوذا. قال: «هلا شققت عن قلبه؟»، وجعل يقول ويكرر عليه: «من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال أسامة: حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا ذلك اليوم[5] [6].

وقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ أي: وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾: سيدكم وناصركم على أعدائكم، فنعم المولى ونعم النصير.

وقال محمد بن جرير: حدثني عبد الوارث بن عبد الصمد، حدثنا أبي، حدثنا أبان العطار، حدثنا هشام بن عُروة، عن عروة: أن عبد الملك بن مروان كتب إليه يسأله عن أشياء، فكتب إليه عروة: «سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإنك كتبت إلي تسألني عن مخرج رسول الله ﷺ من مكة، وسأخبرك[7] به، ولا حول ولا قوة إلا بالله. كان من شأن مخرج رسول الله ﷺ من مكة، أن الله أعطاه النبوة، فنِعْم النَّبيُّ، ونعم السيد، ونعم العشيرة، فجزاه الله خيرا، وعرّفنا وجهه في الجنة، وأحيانا على ملته، وأماتنا عليها، وبعثنا عليه وإنه لما دعا قومه لما بعثه الله له من الهدى والنور الذي أنزل عليه، لم يبعدوا منه أول ما دعاهم إليه، وكادوا يسمعون منه، حتى ذكر طواغيتهم، وقدم ناس من الطائف من قريش، لهم أموال، أنكر ذلك عليه الناس واشتدوا عليه وكرهوا ما قال، وأغروا به من أطاعهم، فانصفق عنه عامة الناس. فتركوه إلا من حفظه الله منهم، وهم قليل. فمكث بذلك ما قدر الله أن يمكث، ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من اتبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم، وقبائلهم، فكانت فتنة شديدة الزلزال، فافتُتن من افتتن، وعصم الله من شاء منهم، فلما فُعل ذلك بالمسلمين، أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة. وكان

---

(١) صحيح البخاري برقم (٢٨١٠) وصحيح مسلم برقم (١٩٠٤).

(٢) في ك، م: «عنهم». (٣) في ك، م: «إن كنتم لا تعلمون».

(٤) في ك، م: «تعملون». (٥) في ك، م: «يومئذ».

(٦) صحيح البخاري برقم (٤٢٦٩) وصحيح مسلم برقم (٩٦).

(٧) في م: «وسأحدثك».

بالحبشة ملك صالح يقال له: «النجاشي»، لا يظلم أحد بأرضه، وكان يُثْنَى عليه مع ذلك، وكانت أرض الحبشة متجرا لقريش، يتجرون فيها، وكانت مَسْكَنا لتجارهم، يجدون فيها رفاغا من الرزق وأمنا ومتجرا حسنا، فأمرهم بها النبي ﷺ، فذهب إليها عامتهم لما قهروا بمكة، وخاف[١] عليهم الفتن. ومكث هو فلم يبرح. فمكث بذلك سنوات يشتدون على من أسلم منهم. ثم إنه فشا الإسلام فيها، ودخل فيه رجال من أشرافهم ومنعتهم. فلما رأوا ذلك. استرخوا استرخاءة عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه، وكانت الفتنة الأولى هي أخرجت من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ قبل أرض الحبشة مخافتها، وفرارا مما كانوا فيه من الفتن والزلزال، فلما استرخى عنهم ودخل في الإسلام من دخل منهم، تحدث باسترخائهم عنهم، فبلغ ذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ: أنه: قد استرخى عمن كان منهم بمكة، وأنهم لا يفتنون، فرجعوا إلى مكة، وكادوا يأمنون بها، وجعلوا يزدادون ويكثرون. وأنه أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير، وفشا بالمدينة الإسلام، وطفق أهل المدينة يأتون رسول الله ﷺ بمكة، فلما رأت قريش ذلك، تآمرت على أن يفتنوهم ويشتدوا، فأخذوهم، فحرصوا على أن يفتنوهم، فأصابهم جهد شديد، فكانت[٢] الفتنة الآخرة، فكانت فتنتان: فتنة أخرجت من خرج منهم إلى أرض الحبشة، حين أمرهم النبي ﷺ بها، وأذن لهم في الخروج إليها ـ وفتنة لما رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة. ثم إنه جاء رسول الله ﷺ من المدينة سبعون نقيبًا، رؤوس الذين أسلموا، فوافوه بالحج، فبايعوه بالعقبة، وأعطوه عهودهم على أنا منك وأنت منا، وعلى أن[٣] من جاء من أصحابك أو جئتنا، فإنا[٤] نمنعك مما نمنع منه أنفسنا، فاشتدت عليهم قريش عند ذلك، فأمر ﷺ أصحابه أن يخرجوا إلى المدينة، وهي الفتنة الآخرة التي أخرج فيها رسول الله ﷺ أصحابه، وخرج هو، وهي التي أنزل الله، عز وجل، فيها: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [٥].

ثم رواه عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن عبد الرحمن بن أبي الزِّنَاد، عن أبيه، عن عروة بن الزبير: أنه كتب إلى الوليد ـ يعني ابن عبد الملك بن مروان ـ بهذا، فذكر مثله[٦]. وهذا صحيح إلى عروة، رحمه الله.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١)﴾.

---

(١) في أ: «وخافوا». (٢) في م، أ: «وكانت». (٣) في ك، م: «أنه».
(٤) في أ: «فإنما».
(٥) تفسير الطبري (١٣/٥٣٩).
(٦) تفسير الطبري (١٣/٥٤٢).

يبين تعالى تفصيل ما شرعه مخصصا لهذه الأمة الشريفة، من بين سائر الأمم المتقدمة، من إحلال المغانم. و«الغنيمة»: هي المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب. و«الفيء»: ما أخذ منهم بغير ذلك، كالأموال التي يصالحون عليها، أو يتوفون عنها ولا وارث لهم، والجزية والخراج ونحو ذلك. هذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء السلف[١] والخلف.

ومن العلماء من يطلق الفيء على ما تطلق[٢] عليه الغنيمة، والغنيمة على الفيء أيضا؛ ولهذا ذهب قتادة إلى أن هذه الآية ناسخة لآية «الحشر»: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ الآية [الحشر: ٧]، قال: فنسخت آية «الأنفال» تلك، وجعلت الغنائم: أربعة أخماسها[٣] للمجاهدين، وخمساً منها لهؤلاء المذكورين. وهذا الذي قاله بعيد؛ لأن هذه الآية نزلت بعد وقعة بَدْر، وتلك نزلت في بني النَّضير، ولا خلاف بين علماء السير والمغازي قاطبة أن بني النضير بعد بدر. هذا أمر لا يشك فيه ولا يرتاب، فمن يفرق بين معنى الفيء والغنيمة يقول: تلك نزلت في أموال الفيء وهذه في المغانم. ومن يجعل أمر المغانم والفيء راجعا[٤] إلى رأي الإمام يقول: لا منافاة بين آية الحشر وبين التخميس إذا رآه الإمام، والله أعلم.

وقوله[٥] تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾: توكيدا لتخميس كل قليل وكثير حتى الخيط[٦] والمخيط، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١].

وقوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾: اختلف المفسرون هاهنا، فقال بعضهم: لله نصيب من الخمس يجعل في الكعبة.

قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع، عن أبي العالية الرِّياحي قال: كان رسول الله ﷺ يؤتى بالغنيمة فيقسمها على خمسة، تكون أربعة أخماس لمن شهدها، ثم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه، فيأخذ منه الذي قبض كفه، فيجعله للكعبة[٧]، وهو سهم الله. ثم يقسم ما بقي على خمسة أسهم، فيكون سهم للرسول، وسهم لذوي القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل[٨].

وقال آخرون: ذكر الله هاهنا استفتاح كلام للتبرك، وسهم[٩] لرسوله عليه السلام[١٠].

---

(١) في أ: «علماء من السلف».
(٢) في م: «ما يطلق».
(٣) في د: «الأربعة الأخماس»، وفي ك: «أربعة أخماس».
(٤) في ك: «راجع».
(٥) في ك: «ويقول»، وفي م: «فقوله».
(٦) في ك، م: «الخيوط».
(٧) في د: «في الكعبة».
(٨) رواه الطبري في تفسيره (١٣/ ٥٥٠).
(٩) في م: «وسهمه».
(١٠) في أ: «ﷺ».

قال الضحاك، عن ابن عباس، رضي الله عنهما: كان رسول الله ﷺ إذا بعث سَرِيَّة فغنموا، خَمَّس الغنيمة، فضرب ذلك الخمس في خمسة. ثم قرأ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾، [قال: وقوله][1]: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ مفتاح كلام، لله ما في السموات وما في الأرض، فجعل سهم الله وسهم الرسول واحداً.

وهكذا قال إبراهيم النَّخَعي، والحسن بن محمد بن الحنفية. والحسن البصري، والشعبي، وعَطاء ابن أبي رباح، وعبد الله بن بريدة[2]، وقتادة، ومغيرة، وغير واحد: أن سهم الله ورسوله واحد.

ويؤيد هذا ما رواه الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي بإسناد صحيح، عن عبد الله بن شقيق، عن رجل من بلقين قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو بوادي القُرَى، وهو يعرض فرساً، فقلت: يا رسول الله، ما تقول في الغنيمة؟ فقال: «لله خمسها، وأربعة أخماس للجيش». قلت: فما أحد أولى به من أحد؟ قال: «لا، ولا السهم تستخرجه من جنبك، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم»[3].

وقال ابن جرير: حدثنا عمران بن موسى، حدثنا عبد الوارث، حدثنا أبان، عن الحسن قال: أوصى أبو بكر بالخمس[4] من ماله، وقال: ألا أرضى من مالي بما رضي الله لنفسه[5].

ثم اختلف قائلو هذا القول، فروى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: كانت الغنيمة تقسم[6] على خمسة أخماس، فأربعة منها بين من قاتل عليها، وخمس واحد يقسم على أربعة[7]: فربع لله وللرسول ولذي القربى ـ يعني: قرابة النبي ﷺ. فما كان لله وللرسول فهو لقرابة رسول الله ﷺ، ولم يأخذ النبي ﷺ من الخمس شيئاً، [والربع الثاني لليتامى، والربع الثالث للمساكين، والربع الرابع لابن السبيل][8].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو مَعْمَر المِنْقَري، حدثنا عبد الوارث بن سعيد، عن حسين المعلم، عن عبد الله بن بُرَيْدَة في قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ قال: الذي لله فلنبيه، والذي للرسول لأزواجه.

وقال عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح قال: خمس الله والرسول[9] واحد، يحمل منه ويصنع فيه ما شاء ـ يعني: النبي ﷺ.

---

(١) زيادة من تفسير الطبري.

(٢) في ك، م، أ: «عبد الله بن أبي بريدة».

(٣) السنن الكبرى (٦/ ٣٢٤).

(٤) في جميع النسخ: «أوصى الحسن بالخمس» والمثبت من الطبري.

(٥) تفسير الطبري (١٣/ ٥٥٠).

(٦) في د: «تخمس».

(٧) في د، ك، م، أ: «أربعة أخماس».

(٨) ما بين المعقوفين عن تفسير الطبري.

(٩) في د: «خمس الله وخمس الرسول».

وهذا أعم وأشمل، وهو أن الرسول[١] ﷺ[٢] يتصرف في الخمس الذي جعله الله له بما شاء، ويرده في أمته كيف شاء ـ ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد حيث قال:

حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم، عن أبي سلام الأعرج، عن المقدام بن معد يكرب الكندي: أنه جلس مع عبادة بن الصامت، وأبي الدرداء، والحارث بن معاوية الكندي، رضي الله عنهم، فتذاكروا حديث رسول الله ﷺ، فقال أبو الدرداء لعبادة: يا عبادة، كلمات رسول الله ﷺ في غزوة كذا وكذا في شأن الأخماس؟ فقال عبادة: إن رسول الله ﷺ صلى بهم في غزوة إلى بعير من المغنم، فلما سلم قام[٣] رسول الله ﷺ فتناول وبَرة بين أنملتيه فقال: «إن هذه من غنائمكم، وإنه ليس لي فيها إلا نصيبي معكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخيط والمخيط، وأكبر[٤] من ذلك وأصغر، ولا تغلوا، فإن الغلول نار وعار على أصحابه في الدنيا والآخرة، وجاهدوا الناس في الله[٥] القريب والبعيد، ولا تبالوا في الله لومة لائم، وأقيموا حدود الله في الحضر والسفر، وجاهدوا في [سبيل][٦] الله، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة [عظيم][٧]، ينجي به الله من الهم والغم»[٨].

هذا حديث حسن عظيم، ولم أره في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه. ولكن روى الإمام أحمد أيضاً، وأبو داود، والنسائي، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عمرو، عن[٩] رسول الله ﷺ نحوه في قصة الخمس والنهي عن الغلول[١٠].

وعن عمرو بن عَبَسَة أن رسول الله ﷺ صلى بهم إلى بعير من المغنم، فلما سلم أخذ وبرة[١١] من ذلك البعير ثم قال: «ولا يحل لي من غنائمكم مثل هذه، إلا الخمس، والخمس مردود فيكم». رواه أبو داود والنسائي[١٢].

وقد كان للنبي ﷺ من المغانم[١٣] شيء يصطفيه لنفسه عبداً أو أمة أو فرساً أو سيفاً أو نحو ذلك، كما نص على ذلك محمد بن سيرين وعامر الشعبي، وتبعهما على ذلك أكثر العلماء.

وروى الإمام أحمد، والترمذي ـ وحسنه ـ عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ تنفل سيفه ذا[١٤]

---

(١) في د: «وهو أنه». (٢) في أ: «صلوات الله وسلامه عليه». (٣) في ؟: «قال».
(٤) في أ: «وأكثر». (٥) في م: «في سبيل الله». (٦، ٧) زيادة من ك، م، أ، ومسند أحمد.
(٨) المسند (٥/ ٣١٦).
(٩) في أ: «أن».
(١٠) المسند (٢/ ١٨٤) وسنن أبي داود برقم (٢٦٩٤).
(١١) في د: «أخذ منه وبرة».
(١٢) سنن أبي داود برقم (٢٧٥٥).
(١٣) في د، ك، م: «الغنيمة». (١٤) في أ: «ذو».

الفَقَار يوم بدر، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد[١].

وعن عائشة، رضي الله عنها، قالت: كانت صفية من الصَّفي. رواه أبو داود في سننه[٢].

وروى أيضاً بإسناده، والنسائي أيضاً عن يزيد بن عبد الله قال: كنا بالمِرْبَد إذ دخل رجل معه قطعة أديم، فقرأناها فإذا فيها: «من محمد رسول الله إلى بني زهير بن أقيش، إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأديتم الخمس من المغنم، وسهم النبي وسهم الصَّفي، أنتم آمنون بأمان الله ورسوله». فقلنا: من كتب لك هذا؟ فقال: رسول الله ﷺ[٣].

فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرر هذا وثبوته؛ ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه.

وقال آخرون: إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين، كما يتصرف في مال الفيء.

وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية، رحمه الله: وهذا قول مالك وأكثر السلف، وهو أصح الأقوال.

فإذا ثبت هذا وعلم، فقد اختلف أيضاً في الذي كان يناله عليه السلام[٤] من الخمس، ماذا يُصنع به من بعده؟ فقال قائلون: يكون لمن يلي الأمر من بعده. روي هذا عن أبي بكر وعلي وقتادة وجماعة، وجاء فيه حديث مرفوع[٥].

وقال آخرون: يصرف في مصالح المسلمين.

وقال آخرون: بل هو مردود على بقية الأصناف: ذوي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، اختاره ابن جرير

وقال آخرون: بل سهم النبي ﷺ وسهم ذوي القربى مردودان على اليتامى والمساكين وابن السبيل.

قال ابن جرير: وذلك قول جماعة من أهل العراق.

وقيل: إن الخمس جميعه لذوي القربى كما رواه ابن جرير.

---

(١) المسند (١/٢٧١) وسنن الترمذي برقم (١٥٦١).

(٢، ٣) سنن أبي داود برقم (٢٩٩٤).

(٤) في أ: «ﷺ».

(٥) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٦/٣٠٣) من طريق الوليد بن جميع عن أبي الطفيل: لما سألت فاطمة أبا بكر عن الخمس فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أطعم الله نبياً طعمة ثم قبضه كانت للذي يلي بعده» فلما وليت رأيت أن أرده على المسلمين.

حدثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا عبد الغفار، حدثنا المِنْهال بن عمرو، وسألت عبد الله ابن محمد بن علي، وعلي بن الحسين، عن الخمس فقالا: هو لنا. فقلت لعلي: فإن الله يقول: ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، فقالا: يتامانا ومساكيننا.

وقال سفين الثوري، وأبو نُعَيم، وأبو أسامة، عن قيس بن مسلم: سألت الحسن بن محمد بن الحنفية، رحمه الله تعالى، عن قول الله[1] تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ قال[2]: هذا مفتاح كلام، لله[3] الدنيا والآخرة. ثم اختلف الناس في هذين السهمين بعد وفاة رسول الله ﷺ، فقال قائلون: سهم النبي ﷺ تسليم للخليفة من بعده. وقال قائلون: لقرابة النبي ﷺ. وقال قائلون: سهم القرابة لقرابة الخليفة. فاجتمع قولهم[4] على أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعُدة في سبيل الله، فكانا على ذلك في خلافة أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما[5].

قال[6] الأعمش، عن إبراهيم[7]: كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبي ﷺ في الكُراع والسلاح، فقلت لإبراهيم: ما كان علي يقول فيه؟ قال: كان [علي][8] أشدهم فيه.

وهذا قول طائفة كثيرة من العلماء، رحمهم الله.

وأما سهم ذوي القربى فإنه يصرف إلى بني هاشم وبني المطلب؛ لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية [وفي أول الإسلام][9]، ودخلوا معهم في الشعب غضبا لرسول الله ﷺ وحماية له: مسلمهم طاعة لله ولرسوله، وكافرهم حَمِيَّة للعشيرة وأنفة وطاعة لأبي طالب عم رسول الله. وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل ـ وإن كانوا أبناء عمهم ـ فلم يوافقوهم على ذلك، بل حاربوهم ونابذوهم، ومالؤوا بطون قريش على حرب الرسول؛ ولهذا كان ذَمُّ أبي طالب لهم في قصيدته اللامية أشدَّ من غيرهم، لشدة قربهم. ولهذا يقول في أثناء قصيدته[10]:

جَزَى الله عنَّا عبدَ شمس ونوفلا ... عُقُوبة شرٍّ عاجل غير آجل

بميزان قسْط لا يَخيس شَعيرة ... لهُ شاهدٌ منْ نَفْسه غير عائل

لقد سَفُهت أحلامُ قوم تَبَدَّلُوا ... بني خَلَف قَيْضا بنا والغَيَاطل

ونحنُ الصَّميم من ذؤابة هاشم ... وآل قُصَي في الخُطُوب الأوائل[11]

---

(١) في د: «عن قوله».
(٢) في د: «فقال».
(٣) في ك: «كلام الله».
(٤) في ك، م: «رأيهم».
(٥) في ك: «رضي الله عنهما وأرضاهما».
(٦) في م: «وقال».
(٧) في م: «إبراهيم قال».
(٨) زيادة من الطبري.
(٩) زيادة من د، ك، م.
(١٠) في ك: «قصيدته اللامية».
(١١) الأبيات في السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٧٧).

وقال جبير بن مطعم بن عدي [بن نوفل][١]: مشيت أنا وعثمان بن عفان ـ يعني ابن أبي العاص ابن أمية بن عبد شمس ـ إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: يا رسول الله، أعطيت بني المطلب من خمس خيبر وتركتنا، ونحن وهم منك بمنزلة واحدة، فقال: «إنما بنو هاشم وبنو عبد المطلب شيء واحد».

رواه مسلم[٢]. وفي بعض روايات هذا الحديث: «إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام»[٣].

وهذا قول جمهور العلماء أنهم بنو هاشم وبنو المطلب.

قال ابن جرير: وقال آخرون: هم بنو هاشم. ثم روى عن خُصَيْف، عن مجاهد قال: علم الله أن في بني هاشم فقراء، فجعل لهم الخمس مكان الصدقة.

وفي رواية عنه قال: هم قرابة رسول الله ﷺ الذين لا تحل لهم الصدقة.

ثم روى عن علي بن الحسين نحو ذلك.

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل هم قريش كلها.

حدثني يونس بن عبد الأعلى، حدثني عبد الله بن نافع، عن أبي مَعْشَر، عن سعيد المقبُري قال: كتب نَجْدَة إلى عبد الله بن عباس يسأله عن «ذي القربى»، فكتب إليه ابن عباس: كنا نقول: إنا هم فأبى ذلك علينا قومنا، وقالوا: قريش كلها ذوو قربى[٤] [٥].

وهذا الحديث في صحيح مسلم، وأبي داود، والترمذي، والنسائي من حديث سعيد المقبري عن يزيد بن هرمُز أن نجدة كتب إلى ابن عباس يسأله عن ذوي القربى فذكره إلى قوله: «فأبى ذلك علينا قومنا»[٦] والزيادة من أفراد أبي معشر نَجِيح بن عبد الرحمن المدني، وفيه ضعف.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن مهدي المصيصي، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن حَنَش، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رغبت لكم عن غُسَالة الأيدي؛ لأن لكم من خُمُس الخمس ما يغنيكم أو يكفيكم».

هذا حديث حسن الإسناد، وإبراهيم بن مهدي هذا وثّقه أبو حاتم، وقال يحيى بن معين[٧]:

---

(١) زيادة من د، ك، م.

(٢) لم أجده في صحيح مسلم ولا عزاه المزي له في تحفة الأشراف، ولم أجزم بوهم الحافظ هنا؛ لأن الزيلعي عزاه للصحيحين في تخريج الكشاف (٢/ ٣٠)، ورواه البخاري في صحيحه برقم (٣١٤٠) من طريق سعيد بن المسيب عن جبير بن مطعم، رضي الله عنه، بنحوه.

(٣) الرواية في سنن النسائي (٧/ ١٣٠).

(٤) في أ: «قرابة».

(٥) تفسير الطبري (١٣/ ٥٥٥).

(٦) صحيح مسلم برقم (١٨١٢) وسنن أبي داود برقم (٢٩٨٢) وسنن الترمذي برقم (١٥٥٦) وسنن النسائي (٧/ ١٢٨)، وهو عند أبي داود والنسائي من حديث الزهري عن يزيد.

(٧) في د: «سعيد».

يأتي بمناكير[١]، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالْيَتَامَى﴾ أي: يتامى المسلمين. واختلف العلماء: هل يختص بالأيتام الفقراء، أو يعم الأغنياء والفقراء؟ على قولين.

و﴿الْمَسَاكِين﴾: هم المحاويج الذين لا يجدون ما يسد خلتهم ومسكنتهم.

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾: هو المسافر، أو المريد للسفر إلى مسافة تقصر فيها الصلاة، وليس له ما ينفقه في سفره ذلك. وسيأتي تفسير ذلك في آية الصدقات في سورة «براءة»، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة، وعليه التكلان.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي: امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس في الغنائم، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وما أنزل على رسوله؛ ولهذا جاء في الصحيحين، من حديث عبد الله بن عباس، في حديث وفد عبد القيس: أن رسول الله ﷺ قال لهم: «وآمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: آمركم بالإيمان بالله ثم قال: هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادةُ أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا الخمس من المغنم..» الحديث بطوله[٢]، فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان، وقد بوَّب البخاري على ذلك في «كتاب الإيمان» من صحيحه فقال: (باب أداء الخمس من الإيمان)، ثم أورد حديث ابن عباس هذا، وقد بسطنا الكلام عليه في «شرح البخاري» ولله الحمد والمنة[٣].

وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ أي: في القسمة، وقوله: ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ينبه تعالى على نعمته[٤] وإحسانه إلى خلقه بما فَرَّق به بين الحق والباطل ببدر ويسمى «الفرقان»؛ لأن الله تعالى أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل، وأظهر دينه ونصر نبيه وحزبه.

قال علي بن أبي طالب والعَوْفي، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾: يوم بدر، فَرَّق الله فيه بين الحق والباطل. رواه الحاكم.

وكذا قال مجاهد، ومِقْسَم وعبيد الله بن عبد الله، والضحاك، وقتادة، ومُقَاتِل بن حيان، وغير واحد: أنه يوم بدر.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهري، عن عُرْوَة بن الزبير في قوله: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾: يوم

---

(١) انظر: ميزان الاعتدال للذهبي (١/ ٦٨).

(٢) صحيح البخاري برقم (٥٣) وصحيح مسلم برقم (١٧).

(٣) وانظر كلام الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١/ ١٢٩ - ١٣٥).

(٤) في أ: «نعمه».

فرق الله [فيه][1] بين الحق والباطل، وهو يوم بدر، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ. وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة، فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة ـ أو: سبع عشرة ـ مضت من رمضان، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ثلثمائة وبضعة عشر رجلا، والمشركون ما بين الألف والتسعمائة. فهزم الله المشركين، وقتل منهم زيادة على السبعين، وأسر منهم مثل ذلك.

وقد روى الحاكم في مستدركه، من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن ابن مسعود، قال في ليلة القدر: تحروها لإحدى عشرة يبقين[2] فإن صبيحتها[3] يوم بدر. وقال: على شرطهما[4].

وروى مثله عن عبد الله بن الزبير أيضا، من حديث جعفر بن بُرْقَان، عن رجل، عنه.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا يحيى بن يعقوب أبو طالب، عن ابن عَوْن محمد بن عبيد الله الثقفي[5]، عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: قال الحسن بن علي: كانت ليلة «الفرقان يوم التقى الجمعان» لسبع عشرة من رمضان[6]. إسناد جيد قوي.

ورواه ابن مَرْدُويه، عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب، عن علي قال: كانت ليلة الفرقان، ليلة التقى الجمعان، في صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان.

وهو الصحيح عند أهل المغازي والسير.

وقال يزيد بن أبي حبيب إمام أهل الديار المصرية في زمانه: كان يوم بدر يوم الإثنين ولم يتابع على هذا، وقول الجمهور مقدم عليه، والله أعلم.

**﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)﴾.**

يقول تعالى [مخبرا][7] عن يوم الفرقان: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ أي: إذ أنتم نُزُول بعدوة الوادي الدنيا القريبة إلى المدينة، ﴿وَهُم﴾ أي: المشركون نزول ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ أي: البعيدة التي من ناحية مكة، ﴿وَالرَّكْبُ﴾ أي: العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي: مما يلي سيف البحر ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أي: أنتم والمشركون إلى مكان ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾.

---

(١) زيادة من د، ك. (٢) في ك: "يبقين". (٣) في ك: "فإن في صبيحتها".

(٤) المستدرك (٣/ ٢٠). (٥) في جميع النسخ: "عن ابن عون: عن محمد بن عبد الله الثقفي"، والمثبت من الطبري.

(٦) تفسير الطبري (١٣/ ٥٦٢).

(٧) زيادة من أ.

قال محمد بن إسحاق: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه في هذه الآية قال: ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم، ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم، ما لقيتموهم، ﴿وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: ليقضي الله ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله، عن غير ملأ منكم، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه.

وفي حديث كعب بن مالك قال: إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عِيَر قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد[١].

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن ابن عون، عن عمير بن إسحاق قال: أقبل أبو سفيان في الركب من الشام، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله ﷺ وأصحابه، فالتقوا ببدر، لا يشعر هؤلاء بهؤلاء، ولا هؤلاء بهؤلاء، حتى التقت السقاة، ونَهَدَ الناسُ بعضهم لبعض[٢].

وقال محمد بن إسحاق في السيرة: ومضى رسول الله ﷺ على وجهه ذلك حتى إذا كان قريباً من «الصفراء» بعث بَسْبَس بن عمرو، وعدي بن أبي الزَّغباء الجُهَنيين، يلتمسان الخبر عن أبي سفيان، فانطلقا حتى إذا وردا بدراً فأناخا بعيريهما إلى تل من البطحاء، فاستقيا في شَنٍّ لهما من الماء، فسمعا جاريتين يختصمان، تقول إحداهما لصاحبتها: اقضيني حقي. وتقول الأخرى: إنما تأتي العير غدا أو بعد غد، فأقضيك حقك. فَخَلَّص بينهما مَجْدي بن عمرو، وقال: صَدَقت، فسمع ذلك[٣] بَسْبَسُ وعَدي، فجلسا على بعيريهما، حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه الخبر. وأقبل أبو سفيان حين وليا وقد حَذِر، فتقدم أمام عيره وقال لمجدي بن عمرو: هل أحسست على هذا الماء من أحد تنكره؟ فقال: لا والله، إلا أني قد رأيت راكبين أناخا إلى هذا التل، فاستقيا في شَنٍّ لهما، ثم انطلقا. فجاء أبو سفيان إلى مُنَاخ بعيريهما، فأخذ من أبعارهما، فَفَتَّه، فإذا فيه النوى، فقال: هذه والله علائف يثرب. ثم رجع سريعاً فضرب وجه عيره، فانطلق بها فَسَاحَل حتى إذا رأى أن قد أحرز عيره بعث إلى قريش فقال: إن الله قد نجى عيركم وأموالكم ورجالكم، فارجعوا.

فقال أبو جهل: والله[٤] لا نرجع حتى نأتي بدرا ـ وكانت بدرٌ سوقا من أسواق العرب ـ فنقيم بها ثلاثا، فنُطْعِمُ بها الطعام، وننحرُ بها الجُزُر[٥]، ونُسقَى بها الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبسيرنا، فلا يزالون يهابوننا بعدها أبدا.

فقال الأخنس بن شُرَيق: يا معشر بني زُهْرة، إن الله قد نَجَّى أموالكم، ونَجَّى صاحبكم، فارجعوا. فأطاعوه، فرجعت بنو زهرة، فلم يشهدوها ولا بنو عدي[٦].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم (٣٩٥١).

(٢) تفسير الطبري (١٣/ ٥٦٧).

(٣) في م: «بذلك». (٤) في م: «لا والله». (٥) في أ: «الجزور».

(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٦١٧).

قال محمد بن إسحاق: وحدثني يزيد بن رُومان، عن عُرْوَة بن الزبير قال: وبعث رسول الله ﷺ ـ حين دنا من بدر ـ عليَّ بن أبي طالب، وسعدَ بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، في نفر من أصحابه، يتجسسون له الخبر فأصابوا سُقَاةً لقريش: غلاما لبني[1] سعيد بن العاص، وغلاما لبني الحجاج، فأتوا بهما رسول الله ﷺ، فوجدوه يصلي، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يسألونهما: لمن أنتما؟[2] فيقولان: نحن سُقاة لقريش، بعثونا نسقيهم من الماء. فكره القوم خبرهما، ورجَوا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما فلما ذلقوهما قالا: نحن لأبي سفيان. فتركوهما، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتين، ثم سلم وقال: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما. صَدقا، والله إنهما لقريش، أخبراني عن قريش». قالا: هم وراء هذا الكَثيب الذي تَرى بالعدوة القصوى ـ والكثيب: العَقَنْقَل ـ فقال لهما رسول الله ﷺ: «كم القوم؟» قالا: كثير. قال: «ما عدَّتهم؟» قالا: ما ندري. قال: «كم ينحَرُون كلَّ يوم؟» قالا: يوما تسعاً، ويوما عشراً، قال رسول الله ﷺ: «القوم ما بين التسعمائة إلى الألف». ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشراف قريش؟» قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختَري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطُعَيمة بن عدي بن [نوفل، والنضر بن الحارث، وزَمَعَة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية][3] بن خلف، ونُبَيه ومُنَبِّه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود. فأقبل رسول الله ﷺ وسلم على الناس فقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»[4].

قال محمد بن إسحاق، رحمه الله تعالى: وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم: أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ، لما التقى الناس يوم بدر: يا رسول الله، ألا نبني لك عَرِيشاً تكون فيه، ونُنيخ إليك ركائبك، ونلقى عدونا، فإن أظهرنا الله عليهم وأعزنا فذاك ما تحب، وإن تكن الأخرى فتجلسَ على ركائبك، وتلحق بمن وراءنا من قومنا، فقد ـ والله ـ تخلف عنك أقوام ما نحن بأشدَّ لك حبا منهم، لو علموا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك، ويوادونك وينصرونك. فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له به. فبُني له عريش، فكان فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر، ما معهما غيرهما[5].

قال ابن إسحاق: وارتحلت قريش حين أصبحت، فلما أقبلت ورآها رسول الله ﷺ تُصَوِّب من العَقَنْقَل ـ وهو الكثيب ـ الذي جاؤوا منه إلى الوادي قال: «اللهم هذه[6] قريش قد أقبلت بفخرها وخيلائها تُحَادُّك وتكذب رسولك، اللهم أحنهم الغداة»[7].

وقوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾: قال محمد بن إسحاق: أي ليكفر من

---

(١) في أ: «لابن».
(٢) في د، ك، م: «أنتم».
(٣) زيادة من د، ك، م، أ، وابن هشام.
(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٦١٦).
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٦٢٠).
(٦) في أ: «اللهم إن هذه».
(٧) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٦٢١).

كفر بعد الحجة؛ لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك.

وهذا تفسير جيد، وبسطُ ذلك أنه[١] تعالى يقول: إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد، لينصركم عليهم، ويرفع كلمة الحق على الباطل، ليصير الأمر ظاهراً، والحجة قاطعة، والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، فحينئذ ﴿ليهلك من هلك﴾ أي: يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره أنه مبطل، لقيام الحجة عليه، ﴿ويحيى من حي﴾ أي: يؤمن من آمن ﴿عن بينة﴾ أي: حجة وبصيرة. والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: ﴿أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقالت عائشة في قصة الإفك: فهلك من هلك أي: قال فيها ما قال من الكذب والبهتان والإفك.

وقوله: ﴿وإن الله لسميع﴾ أي: لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به ﴿عليم﴾ أي: بكم وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٤٤)﴾.

قال مجاهد: أراه الله إياهم في منامه[٢] قليلا، فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك، فكان تثبيتا لهم.

وكذا قال ابن إسحاق وغير واحد. وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه رآهم بعينه التي ينام بها.

وقد روى ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يوسف بن موسى المدبر، حدثنا أبو قتيبة، عن سهل السراج، عن الحسن في قوله: ﴿إذ يريكهم الله في منامك قليلا﴾ قال: بعينك.

وهذا القول غريب، وقد صرح بالمنام هاهنا، فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه[٣].

وقوله: ﴿ولو أراكهم كثيرا لفشلتم﴾ أي: لجبنتم عنهم واختلفتم فيما بينكم. ﴿ولكن الله سلم﴾ أي: من ذلك: بأن أراكهم قليلا. ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي: بما تجنه الضمائر، وتنطوي عليه الأحشاء، فيعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وقوله: ﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا﴾: وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياهم قليلا في رأي العين، فيجرؤهم عليهم، ويطمعهم فيهم.

---

(١) في أ: «أن الله».

(٢) في جميع النسخ: «أراهم الله في منامه» والمثبت من الطبري.

(٣) في أ: «له».

قال أبو إسحق السَّبيعي، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: لقد قُلِّلُوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلت لرجل إلى جانبي: تراهم سبعين؟ قال: لا، بل [هم][1] مائة، حتى أخذنا رجلا منهم فسألناه، قال[2]: كنا ألفا. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير[3].

وقوله: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾: قال ابن أبي حاتم: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن الزبير بن الخِرِّيت[4]، عن[5] عكرمة: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ قال: حضض بعضهم على بعض.

إسناد صحيح.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه في قوله تعالى: ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً﴾ أي: ليلقي بينهم الحرب، للنقمة ممن أراد الانتقام منه، والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته.

ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلا من الفريقين بالآخر، وقلله في عينه ليطمع فيه، وذلك عند المواجهة. فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣]، وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين، فإن كلا منها[6] حق وصدق، ولله الحمد والمنة.

**﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦)﴾.**

هذا تعليم الله[7] عباده المؤمنين آداب اللقاء، وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء. [فقال][8]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾.

ثبت في الصحيحين، عن عبد الله بن أبي أوفى، عن رسول الله ﷺ أنه انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: «يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا[9]، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف». ثم قام النبي ﷺ وقال: «اللهم، مُنزل الكتاب، ومُجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم»[10].

---

(١) زيادة من د، م. (٢) في د: «فقال».
(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٥٧٢).
(٤) في د: «الحارث». (٥) في د: «عن». (٦) في د، م، أ: «منهما».
(٧) في د، ك، م: «تعليم من الله». (٨) زيادة من د. (٩) في أ: «فاثبتوا».
(١٠) صحيح البخاري برقم (٢٨١٨) وصحيح مسلم برقم (١٧٤٢).

وقال عبد الرزاق، عن سفيان الثوري، عن عبد الرحمن بن زياد، عن عبد الله بن يزيد، عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا واذكروا الله، فإن أجلبوا [١] وَضَجّوا [٢] فعليكم بالصمت»[٣].

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا إبراهيم بن هاشم البغوي، حدثنا أمية بن بِسْطام، حدثنا معتمر بن سليمان، حدثنا ثابت بن زيد، عن رجل، عن زيد بن أرقم، عن النبي ﷺ قال: «إن الله يحب الصمت عند ثلاث: عند تلاوة القرآن، وعند الزَّحْف، وعند الجنازة»[٤].

وفي الحديث الآخر المرفوع يقول الله تعالى: «إن عبدي كلَّ عبدي الذي يذكرني وهو مناجز قرنه»[٥] أي: لا يشغله ذلك الحال عن ذكري ودعائي واستعانتي.

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة في هذه الآية، قال: افترض[٦] الله ذكره عند أشغل ما تكونون[٧]، عند الضراب بالسيوف.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبدة بن سليمان، حدثنا ابن المبارك، عن ابن جرُيج، عن عطاء قال: وجب الإنصات والذكر عند الزحف، ثم تلا هذه الآية، قلت: يجهرون بالذكر؟ قال: نعم.

وقال أيضاً: قُرئ على يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، أخبرني عبد الله بن عياش[٨]، عن يزيد بن قوذر، عن كعب الأحبار قال: ما من شيء أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن والذكر، ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال، ألا ترون أنه أمر الناس بالذكر عند القتال، فقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

قال الشاعر:

ذكرتك والخَطي يخطرُ بيننا ... وَقَدْ نَهِلَتْ فينا المُثَقَّفَةُ السُّمْرُ

وقال عنتر[٩]:

ولَقَدْ ذَكَرْتُكِ والرماحُ شَوَاجِرٌ ... فينا وبيضُ الهند تَقْطرُ منْ دَمي

---

(١) في د، م، أ: «جلبوا». (٢) في أ: «وصيحوا».

(٣) مصنف عبد الرزاق برقم (٩٥١٨) ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٥٣) من طريق ابن وهب، وابن أبي شيبة في المصنف (١٢/ ٤٦٣) من طريق عبد بن سليمان، كلاهما عن عبد الرحمن بن زياد به.

(٤) المعجم الكبير (٥/ ٢١٣) وفيه راو لم يسم.

(٥) رواه الترمذي في السنن برقم (٣٥٨٠) من طريق عفير بن معدان عن أبي دوس اليحصبي عن ابن عائذ عن عمارة بن زعكرة مرفوعاً، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ليس إسناده بالقوي، ولا نعرف لعمارة بن زعكرة عن النبي ﷺ إلا هذا الحديث الواحد».

(٦) في د: «فرض». (٧) في أ: «ما يكون».

(٨) في أ: «عباس». (٩) في م: «آخر».

[فوددت تقبيل السيوف لأنها      لمعت كبارق ثغرك المتبسم][(١)]

فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه بل يستعينوا [(٢)]به ويتكلوا عليه، ويسألوه النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك. فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزجروا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا فيكون سبباً لتخاذلهم وفشلهم.

﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: قوتكم وحدتكم وما كنتم فيه من الإقبال، ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

وقد كان للصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في باب الشجاعة والائتمار بأمر [(٣)] الله، وامتثال ما أرشدهم إليه ـ ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم؛ فإنهم ببركة الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، وطاعته فيما أمرهم، فتحوا القلوب [(٤)]والأقاليم شرقا وغربا في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحُبُوش وأصناف السودان والقِبْط، وطوائف بني آدم، قهروا الجميع حتى علَتْ كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت [(٥)] الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وحشرنا في زمرتهم، إنه كريم وهاب.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله وكثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم ﴿بَطَرًا﴾ أي: دفعا للحق، ﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾، وهو: المفاخرة والتكبر عليهم، كما قال أبو جهل ـ لما قيل له: إن العير قد نجا فارجعوا ـ فقال: لا، والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر، وننحر الجُزُر، ونشرب الخمر، وتعزف [(٦)] علينا القيان، وتتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبدا، فانعكس ذلك عليه أجمع؛ لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحمام، ورُمُوا في أطواء بدر مهانين أذلاء، صغرة أشقياء في عذاب سرمدي أبدي؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي: عالم بما جاؤوا به وله، ولهذا جازاهم على ذلك شر الجزاء لهم.

---

(١) زيادة من م.     (٢) في د: «يستعينوا».     (٣) في د، ك، م: «بأوامر».
(٤) في م: «الثغور».     (٥) في د: «واشتهرت».     (٦) في ك: «وتضرب».

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدى فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ قالوا: هم المشركون، الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر.

وقال محمد بن كعب: لما خرجت قريش من مكة إلى بدر، خرجوا بالقيان والدفوف، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

وقوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ الآية: حسَّن لهم ـ لعنه الله ـ ما جاؤوا له وما هموا به، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا فى ديارهم من عدوهم بنى بكر فقال: أنا جار لكم، وذلك أنه تبدى لهم فى صورة سُراقة بن مالك بن جُعْشُم، سيد بني مُدْلِج، كبير تلك الناحية، وكل ذلك منه، كما قال [الله] [1] تعالى عنه: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

قال ابن جريج[2]: قال ابن عباس فى هذه الآية: لما كان يوم بدر سار إبليس برايته وجنوده مع المشركين، وألقى فى قلوب المشركين: أن أحدا لن يغلبكم، وإنى جار لكم. فلما التقوا، ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة، ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ قال: رجع مدبرا، وقال: ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ الآية.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قال: جاء إبليس يوم بدر فى جند من الشياطين، معه رايته، فى صورة رجل من بنى مدلج، والشيطان فى صورة سراقة بن مالك[3] بن جعشم، فقال الشيطان للمشركين: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾. فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوه المشركين، فولوا مدبرين وأقبل جبريل، عليه السلام، إلى إبليس، فلما رآه ـ وكانت يده فى يد رجل من المشركين ـ انتزع يده ثم ولى مدبرا هو وشيعته، فقال الرجل: ياسراقة، أتزعم أنك لنا جار؟ فقال: ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وذلك حين رأى الملائكة.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس؛ أن إبليس خرج مع قريش فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فلما حضر القتال ورأى الملائكة، نكص على عقبيه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ﴾، فتشبث[4] الحارث بن هشام فنخر فى وجهه، فخر صعقا، فقيل له: ويلك يا سراقة، على هذه الحال تخذلنا وتبرأ منا. فقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

وقال محمد بن عمر الواقدى: أخبرنى عُمَرُ بن عقبة، عن شعبة ـ مولى ابن عباس ـ عن ابن

---

(١) زيادة من م. (٢) فى ك: «جرير».
(٣) فى ك: «مالك المدلجى». (٤) فى ك: «فتشبث به».

عباس قال: لما تواقف الناس أغمي على رسول الله ﷺ ساعة ثم كشف عنه، فبشر الناس بجبريل في جند من الملائكة ميمنة الناس، وميكائيل في جند آخر ميسرة الناس، وإسرافيل في جند آخر ألف. وإبليس قد تصور في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي، يدبر المشركين ويخبرهم أنه لا غالب لهم[1] اليوم من الناس. فلما أبصر عدوُّ الله الملائكة، نكص على عقبيه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾، فتشبث به الحارث بن هشام، وهو يرى أنه سراقة لما سمع من كلامه، فضرب في صدر الحارث. فسقط الحارث، وانطلق إبليس[2] لا يرى حتى سقط في البحر، ورفع ثوبه وقال: يارب، موعدك الذي وعدتني[3].

وفي الطبراني عن رفاعة بن رافع قريب من هذا السياق وأبسط منه[4]. ذكرناه في السيرة.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قال: لما أجمعت[5] قريش المسير[6]، ذكرت الذي بينها وبين بني بكر من الحرب، فكاد ذلك أن يثنيهم، فتبدى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي ـ وكان من أشراف بني كنانة ـ فقال: أنا جار لكم أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه، فخرجوا سراعا.

قال محمد بن إسحاق: فذكر لي أنهم كانوا يرونه في كل منزل في صورة سراقة بن مالك[7] لا ينكرونه، حتى إذا كان يوم بدر والتقى الجمعان، كان الذي رآه حين نكص الحارث بن هشام ـ أو: عمير بن وهب ـ فقال: أين، أي سراق؟[8] ومثل عدو الله فذهب ـ قال: فأوردهم ثم أسلمهم ـ قال: ونظر عدو الله إلى جنود الله، قد أيد الله بهم رسوله[9] والمؤمنين فانتكص[10] على عقبيه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾، وصدق عدو الله، وقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ[11] وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وهكذا روي عن السدي، والضحاك، والحسن البصري، ومحمد بن كعب القرظي، وغيرهم، رحمهم الله.

وقال قتادة: وذكر لنا أنه رأى جبريل، عليه السلام، تنزل معه[12] الملائكة، فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة فقال: ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾، وكذب عدو الله، والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مسلم، وتبرأ منهم عند ذلك.

قلت: يعني بعادته لمن أطاعه قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ [الحشر: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ

---

(١) في م: «لكم». (٢) في أ: «إبليس هاربا».

(٣) المغازي للواقدي (١/ ٧٠). (٤) المعجم الكبير (٥/ ٤٢) من طريق عبد العزيز بن عمران عن رفاعة بن يحيى بن معاذ بن رفاعة عن رفاعة بن رافع، رضي الله عنه. وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٨٢): «وفيه عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف».

(٥) في د، ك، أ: «اجتمعت». (٦) في د: «المسير». (٧) في ك: «مالك المدلجي، وكان من أشراف بني كنانة».

(٨) في د، أ: «إلى أين يا سراقة»، وفي ك، م: «إلى أين سراقة».

(٩) في أ: «رسله». (١٠) في د، ك، م، أ: «فنكص».

(١١) في ك، م، أ: «إني أخاف عقاب الله» وهو خطأ. (١٢) في د: «نزول معه».

وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقال يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، عن بعض بني ساعدة قال: سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة بعدما أصيب بصره يقول: لو كنت معكم الآن ببدر ومعي بصري، لأخبرتكم بالشعب الذي خرجت منه الملائكة لا أشك ولا أتمارى[1].

فلما نزلت الملائكة رآها إبليس، وأوحى الله إليهم: أني معكم فثبتوا الذين آمنوا، وتثبيتهم أن الملائكة كانت تأتي الرجل في صورة الرجل يعرفه، فيقول له: أبشر فإنهم ليسوا بشيء، والله معكم، كروا عليهم. فلما رأى إبليس الملائكة نكص على عقبيه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾، وهو في صورة سراقة، وأقبل أبو جهل يحضض أصحابه ويقول: لا يهولنكم خذلان سراقة إياكم، فإنه كان على موعد من محمد وأصحابه. ثم قال: واللات والعزى لا نرجع حتى نقرن محمدا وأصحابه في الحبال، فلا تقتلوهم وخذوهم أخذا. وهذا من أبي جهل لعنه الله كقول فرعون للسحرة لما أسلموا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ [الأعراف: ١٢٣]، وكقوله: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١]، وهو من باب البهت والافتراء، ولهذا كان أبو جهل فرعون هذه الأمة.

وقال مالك بن أنس، عن إبراهيم بن أبي عبلة[2]، عن طلحة بن عبيد الله بن كريز؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ما رؤي إبليس في يوم هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ منه في يوم عرفة وذلك مما يرى من تنزل الرحمة والعفو عن الذنوب إلا ما رأى يوم بدر». قالوا: يارسول الله، وما رأى يوم بدر؟ قال: «أما إنه رأى جبريل، عليه السلام، يزع الملائكة»[3].

هذا مرسل من هذا الوجه.

وقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية قال: لما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين في أعين المشركين، وقلل المشركين في أعين المسلمين فقال المشركون: ﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ وإنما قالوا ذلك من قلتهم في أعينهم، فظنوا[4] أنهم سيهزمونهم، لا يشكون في ذلك، فقال الله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وقال قتادة: رأوا عصابة من المؤمنين تشددت لأمر الله، وذكر لنا أن أبا جهل عدو الله لما أشرف على محمد ﷺ وأصحابه قال: والله لا يعبدوا الله بعد اليوم، قسوة وعتوا.

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٦٣٣). (٢) في ك: «علية».

(٣) الموطأ (١/ ٤٢٢) وانظر كلام الإمام ابن عبد البر عن هذا الحديث في: التمهيد (١/ ١١٥).

(٤) في أ: «وظنوا».

وقال ابن جُرَيْج في قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: هم قوم كانوا من المنافقين بمكة، قالوه يوم بدر.

وقال عامر الشعبي: كان ناس من أهل مكة قد تكلموا بالإسلام، فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا: ﴿غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ﴾.

وقال مجاهد في قوله، عز وجل: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ﴾ قال: فئة من قريش: [أبو][1] قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه بن الحجاج، خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب فحبسهم ارتيابهم، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ، قالوا: ﴿غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ﴾، حتى قدموا على ما قدموا عليه، مع قلة عددهم وكثرة عدوهم.

وهكذا قال محمد بن إسحاق بن يَسَار، سواء.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن مَعْمَر، عن الحسن في هذه الآية، قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر، فسموا منافقين ـ قال معمر: وقال بعضهم: هم قوم كانوا أقروا بالإسلام، وهم بمكة فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا: ﴿غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ﴾[2].

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: يعتمد على جنابه، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: لا يُضام من التجأ إليه، فإن الله عزيز منيع الجناب، عظيم السلطان، حكيم في أفعاله، لايضعها إلا في مواضعها، فينصر من يستحق النصر، ويخذل من هو أهل لذلك.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٥١)﴾.

يقول تعالى: ولو عاينت يا محمد حال توفي الملائكة أرواح الكفار، لرأيت أمرا عظيما هائلا فظيعا منكرا؛ إذ يضربون وجوههم وأدبارهم، ويقولون لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

قال ابن جُرَيْج، عن مجاهد: ﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾: استاههم، قال: يوم بدر.

قال ابن جريج، قال ابن عباس: إذا أقبل المشركون [3] بوجوههم إلى المسلمين، ضربوا وجوههم بالسيوف، وإذا ولوا أدركتهم الملائكة فضربوا أدبارهم.

قال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد قوله: ﴿إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ

---

(١) زيادة من «ك»، أ، وابن هشام والطبري.

(٢) تفسير الطبري (١٤/ ١٣).

(٣) في ك: «المشركين» وهو خطأ.

وأدبارهم﴾: يوم بدر.

وقال وكيع، عن سفيان الثوري، عن أبي هاشم إسماعيل بن كثير، عن مجاهد، عن شعبة، عن يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جبير: ﴿يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ قال: وأستاههم[1]، ولكن الله يكني.

وكذا قال عمر مولى غُفْرة[2].

وعن الحسن البصري قال: قال رجل: يا رسول الله، إني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشراك[3] قال ماذاك؟ قال: «ضرب[4] الملائكة».

رواه ابن جرير[5]، وهو مرسل.

وهذا السياق ـ وإن كان سببه وقعة بدر ـ ولكنه عام في حق كل كافر؛ ولهذا لم يخصصه تعالى بأهل بدر، بل قال تعالى: ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ وفي سورة القتال مثلها[6]، وتقدم في سورة الأنعام [عند][7] قوله: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم﴾ [الأنعام: ٩٣]. أي: باسطو أيديهم بالضرب فيهم، يأمرونهم إذا استصعبت أنفسهم، وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرج قهراً. وذلك إذ بشروهم بالعذاب والغضب من الله، كما [جاء][8] في حديث البراء: إن ملك الموت ـ إذا جاء الكافر عند احتضاره في تلك الصورة المنكرة ـ يقول: اخرجي أيتها النفس الخبيثة إلى سَمُوم وحميم، وظل من يحموم، فتتفرق في بدنه، فيستخرجونها من جسده، كما يخرج السفود من الصوف المبلول فتخرج معها العروق والعصب؛ ولهذا أخبر[9] تعالى أن الملائكة تقول لهم: ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾.

وقوله تعالى: ذلك: ﴿بما قدمت أيديكم﴾ أي: هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا، جزاكم الله بها هذا الجزاء، ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ أي: لا يظلم أحدا من خلقه، بل هو الحكم العدل، الذي لا يجور، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه الغني الحميد؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح عند مسلم، رحمه الله، من رواية أبي ذر، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا. يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[10] ولهذا قال تعالى:

---

(١) في د، ك: «وأستاههم». (٢) في ك: «عفرة». (٣) في د، ك: «الشوك».

(٤) في د، ك: «ذاك ضرب».

(٥) تفسير الطبري (١٤/١٦).

(٦) يشير ابن كثير ـ رحمه الله ـ إلى الآية: ٢٧ من سورة محمد. (٧) زيادة من م. (٨) زيادة من أ.

(٩) في أ: «قال».

(١٠) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧).

﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ﴾.

يقول تعالى: فعل هؤلاء المشركون المكذبون [١] بما أرسلت به يا محمد، كما فعل الأمم المكذبة قبلهم، ففعلنا بهم ما هو دأبنا، أي: عادتنا وسنتنا في أمثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسل، الكافرين بآيات الله. ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [أي: بسبب ذنوبهم أهلكهم، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر] [٢]، ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤) ﴾.

يخبر تعالى عن تمام عدله، وقسطه في حكمه، بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد [٣] إلا بسبب ذنب ارتكبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]، وقوله: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: كصنعه [٤] بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته، أهلكم بسبب ذنوبهم، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات وعيون، وزروع وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك، بل [٥] كانوا هم الظالمين.

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) ﴾.

أخبر تعالى أن شر ما دب على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لايؤمنون، الذين كلما عاهدوا عهدًا نقضوه، وكلما أكدوه بالأيمان نكثوه، ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ أي: لا يخافون من الله في شيء ارتكبوه من الآثام.

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ ﴾ أي: تغلبهم وتظفر بهم في حرب، ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي: نكل بهم، قاله: ابن عباس، والحسن البصري، والضحاك، والسُّدِّي، وعطاء الخُرَاساني، وابن عُيَيْنَة،

(١) في م: «المشركين المكذبين».
(٢) زيادة من د، ك، م.
(٣) في أ: «قوم».
(٤) في د، ك: «كصنيعهم».
(٥) في أ: «ولكن».

ومعناه: غَلِّظ عقوبتهم وأثخنهم قتلا، ليخاف من سواهم من الأعداء، من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة ﴿لعلَّهُمْ يذَّكَّرُونَ﴾.

وقال السدي: يقول: لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيُصنع[1] بهم مثل ذلك.

﴿ وإمَّا تخافَنَّ مِن قوْمٍ خِيانةً فانبِذْ إليْهِمْ علَىٰ سواءٍ إنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ (٥٨) ﴾.

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه[2]: ﴿وإمَّا تخافَنَّ مِن قوْمٍ﴾ قد عاهدتهم ﴿خِيانةً﴾ أي: نقضا لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود، ﴿فانبِذْ إليْهِمْ﴾ أي: عهدهم ﴿علَىٰ سواءٍ﴾ أي: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي: تستوي أنت وهم في ذلك، قال الراجز:

فَاضْرِبْ وُجُوهَ الغُدُرِ [الأعْداء][3] حتى يجيبوكَ إلى السواء[4]

وعن الوليد بن مسلم أنه قال في قوله: ﴿فانبِذْ إليْهِمْ علَىٰ سواءٍ﴾ أي: على مهل، ﴿إنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ﴾ أي: حتى ولو في حق الكافرين، لا يحبها أيضا.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة[5]، عن أبي الفيض، عن سليم بن عامر، قال: كان معاوية يسير في أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر [الله أكبر][6]، وفاء لا غدرا، إن رسول الله ﷺ قال: «ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلَّنَّ عقدة ولا يشدها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء» قال: فبلغ ذلك معاوية، فرجع، وإذا الشيخ عمرو بن عبسة، رضي الله عنه.

وهذا الحديث رواه أبو داود الطيالسي، عن شعبة وأخرجه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن حبان في صحيحه من طرق عن شعبة، به[7]. وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا محمد بن عبد الله الزبيري، حدثنا إسرائيل، عن عطاء بن السائب، عن أبي البختري عن سلمان ـ يعني الفارسي ـ رضي الله عنه: أنه انتهى إلى حصن ـ أو: مدينة ـ فقال لأصحابه: دعوني أدعوهم كما رأيت رسول الله[8] ﷺ يدعوهم، فقال: إنما كنت رجلا منهم[9]، فهداني الله، عز وجل للإسلام، فإذا أسلمتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أبيتم فأدوا

---

(١) في ك: «فتصنع». (٢) في أ: ﷺ. (٣) زيادة من د، م، أ، والطبري.

(٤) الرجز في تفسير الطبري (١٤/ ٢٧).

(٥) في إ: «سعيد». (٦) زيادة من د، ك، م، والمسند.

(٧) مسند أحمد (٤/ ١١١) ومسند الطيالسي برقم (١١٥٥) وسنن أبي داود برقم (٢٧٥٩) وسنن الترمذي برقم (١٥٨٠) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٨٧٣٢).

(٨) في د، ك: «النبي». (٩) في د، ك، م: «منكم».

الجزية وأنتم صاغرون، فإن أبيتم نابذناكم على سواء، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾، يفعل بهم ذلك ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها بعون الله[١].

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠)﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ يا محمد ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ أي: فاتونا فلا نقدر عليهم، بل هم تحت قهر قدرتنا وفي قبضة مشيئتنا فلا يعجزوننا، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤] أي: يظنون، وقال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [النور: ٥٧]، وقال تعالى[٢]: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم﴾ أي: مهما امكنكم، ﴿مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ابن وَهْب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن أبي علي ثُمَامة بن شُفَيّ، أنه سمع عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: «﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»[٣].

رواه مسلم، عن هارون بن معروف، وأبو داود عن سعيد بن منصور، وابن ماجة عن يونس بن عبد الأعلى، ثلاثتهم عن عبد الله بن وهب، به[٤].

ولهذا الحديث طرق أخر، عن عقبة بن عامر، منها ما رواه الترمذي، من حديث صالح بن كَيْسان، عن رجل، عنه[٥].

وروى الإمام أحمد وأهل السنن، عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ارموا واركبوا، وأن ترموا خير من أن تركبوا»[٦].

---

(١) المسند (٥/ ٤٤٠) ورواه الترمذي في السنن برقم (١٥٤٨) من طريق أبي عوانة، عن عطاء بن السائب، عن أبي البختري به نحوه، وقال: «حديث سلمان حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث عطاء بن السائب، وسمعت محمداً يقول: أبو البختري لم يدرك سلمان؛ لأنه لم يدرك عليا، وسلمان مات قبل علي».

(٢) في د: «وقوله».

(٣) في م ذكرت جملة «ألا إن القوة الرمي» ثلاث مرات.

(٤) المسند (٤/ ١٥٦) وصحيح مسلم برقم (١٩١٧) وسنن أبي داود برقم (٢٥١٤) وسنن ابن ماجة برقم (٢٨١٣).

(٥) سنن الترمذي برقم (٣٠٨٣) وقال: «صالح بن كيسان لم يدرك عقبة بن عامر، وقد أدرك ابن عمر».

(٦) المسند (٤/ ١٤٤).

وقال الإمام مالك، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح السمان، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر؛ فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله، فأطال لها في مرج ـ أو: روضة ـ فما أصابت في طيلها ذلك من المرج ـ أو: الروضة ـ كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفا أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه، ولم يرد أن يسقي به، كان ذلك حسنات له؛ فهي لذلك الرجل أجر. ورجل ربطها تغنيًا وتعففا، ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها، فهي له ستر، ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء فهي على ذلك وزر». وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر فقال: «ما أنزل الله علي فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾» [الزلزلة: ٧، ٨].

رواه البخاري ـ وهذا لفظه ـ ومسلم، كلاهما من حديث مالك[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، أخبرنا شريك، عن الرُّكَيْن بن الربيع[٢]، عن القاسم بن حسان؛ عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «الخيل ثلاثة: ففرس للرحمن، وفرس للشيطان، وفرس للإنسان، فأما فرس الرحمن فالذي يربط في سبيل الله، فعلفه وروثه وبوله، وذكر ما شاء الله. وأما فرس الشيطان فالذي يقامر أو يراهن عليه، وأما فرس الإنسان فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنها، فهي ستر من فقر»[٣].

وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن الرمي أفضل من ركوب الخيل، وذهب الإمام مالك إلى أن الركوب أفضل من الرمي، وقول الجمهور أقوى للحديث، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج وهشام[٤] قالا: حدثنا ليث، حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن ابن شماسة: أن معاوية بن حديج[٥] مر على أبي ذر وهو قائم عند فرس له، فسأله ما تعالج من فرسك هذا؟ فقال: إني أظن أن هذا الفرس قد استجيب له دعوته! قال: وما دعاء بهيمة من البهائم؟ قال: والذي نفسي بيده، ما من فرس إلا وهو يدعو كل سحر فيقول: اللهم، أنت خولتني عبدا من عبادك، وجعلت رزقي بيده، فاجعلني أحب إليه من أهله وماله وولده[٦].

قال: وحدثنا يحيى بن سعيد، عن عبد الحميد بن جعفر؛ حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن سُوَيْد ابن قيس؛ عن معاوية بن حديج[٧]؛ عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه

(١) الموطأ (٢/ ٤٤٤) ومن طريقه، رواه البخاري في صحيحه برقم (٢٣٧١) وأما مسلم فرواه من طريق حفص بن ميسرة عن زيد بن أسلم عن أبي صالح به برقم (٩٨٧).
(٢) في ت: «الربيع بن الركين».
(٣) المسند (١/ ٣٩٥).
(٤) في ك، أ: «هاشم».
(٥) في أ: «حديج».
(٦) المسند (٥/ ١٦٢).
(٧) في أ: «خديج».

ليس من فرس عربي إلا يؤذن له مع كل فجر، يدعو بدعوتين، يقول: اللهم، إنك خولتني من خولتني من بني آدم، فاجعلني من أحب أهله وماله إليه» أو «أحب أهله وماله إليه».

رواه النسائي، عن عمرو بن علي الفلاس، عن يحيى القطَّان، به[1].

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا الحسين بن إسحاق التُّسْتَرِيّ، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا يحيى بن حمزة، حدثنا المطعم بن المقدام الصنعاني، عن الحسن بن أبي الحسن أنه قال لابن الحنظلية ـ يعني: سهلا ـ : حَدِّثنا حديثا سمعته من رسول الله ﷺ. فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها، ومن ربط فرساً في سبيل الله كانت النفقة عليه، كالماد يده بالصدقة لا يقبضها»[2].

والأحاديث الواردة في فضل ارتباط الخيل كثيرة، وفي صحيح البخاري، عن عُرْوَة بن أبي الجعد البارقي[3]: أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والمغنم»[4].

وقوله: «ترهبون» أي: تخوفون ﴿بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أي: من الكفار ﴿وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ قال مجاهد: يعني: قريظة، قال السدي: فارس، وقال سفيان الثوري: قال ابن يمان: هم الشياطين التي في الدور. وقد ورد حديث بمثل ذلك، قال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبو عتبة أحمد بن الفرج الحِمْصي، حدثنا أبو حيوة ـ يعني: شريح بن يزيد المقرئ ـ حدثنا سعيد بن سنان، عن ابن عريب ـ يعني: يزيد بن عبد الله بن عريب ـ عن أبيه، عن جده أن رسول الله ﷺ كان يقول في قوله: ﴿وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾، قال: «هم الجن»[5].

ورواه الطبراني، عن إبراهيم بن دُحَيْم؛ عن أبيه، عن محمد بن شعيب؛ عن سعيد بن سنان[6]، عن يزيد بن عبد الله بن عريب، به، وزاد: قال رسول الله ﷺ: «لا يخبل بيت فيه عتيق من الخيل»[7].

وهذا الحديث منكر، لا يصح إسناده ولا متنه.

وقال مقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المنافقون.

---

(١) المسند (٥/ ١٧٠) وسنن النسائي (٦/ ٢٢٣).

(٢) المعجم الكبير (٦/ ٩٨).

(٣) في م: «المبارك».

(٤) صحيح البخاري برقم (٢٨٥٠).

(٥) ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده برقم (٦٥٠) «بغية الباحث» حدثنا داود بن رشيد عن أبي حيوة به.

(٦) في جميع النسخ: «سنان بن سعيد بن سنان» والتصويب من المعجم الكبير.

(٧) المعجم الكبير (١٧/ ١٨٨) ورواه أبو الشيخ في العظمة برقم (١٠٨٩): حدثنا ابن أبي عاصم عن دحيم به نحوه.

وهذا أشبه الأقوال، ويشهد له قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١].

وقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي: مهما أنفقتم في الجهاد، فإنه يوفى إليكم على التمام [1] والكمال، ولهذا جاء في حديث [2] رواه أبو داود: أن الدرهم يضاعف ثوابه في سبيل الله إلى سبعمائة ضعف [3]، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدشتكي، حدثنا أبي، عن أبيه، حدثنا الأشعث بن إسحاق، عن جعفر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه كان يأمر ألا يتصدق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين.

وهذا أيضا غريب.

﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)﴾.

يقول تعالى: إذا خفت من قوم خيانة فانبذ إليهم عهدهم على سواء، فإن استمروا على حربك ومنابذتك فقاتلهم، ﴿وَإِن جَنَحُوا﴾ أي: مالوا ﴿لِلسَّلْمِ﴾ أي: المسالمة والمصالحة والمهادنة، ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ أي: فمل إليها، واقبل منهم ذلك؛ ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين؛ أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا فضيل بن سليمان ـ يعني: النميري ـ حدثنا محمد بن أبي يحيى، عن إياس بن عمرو الأسلمي، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه سيكون بعدي اختلاف ـ أو: أمر ـ فإن استطعت أن يكون السلم، فافعل» [4].

وقال مجاهد: نزلت في بني قريظة.

---

(١) في ت: «إليكم وأنتم لا تظلمون على التمام». (٢) في د: «في الحديث الذي».

(٣) سنن أبي داود برقم (٢٤٩٨) ولفظه: «إن الصلاة والصيام والذكر تضاعف على النفقة في سبيل الله بسبعمائة ضعف» وقد تقدم نحو هذا اللفظ عند تفسير الآية: ٢٦١ من سورة البقرة من حديث عمران بن حصين.

(٤) زوائد المسند (١/ ٩٠) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٣٤): «رجاله ثقات».

وهذا فيه نظر؛ لأن السياق كله في وقعة بدر، وذكرها مكتنف لهذا كله.

وقول ابن عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، وعكرمة، والحسن، وقتادة: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف في «براءة»: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الآية [التوبة: ٢٩] فيه نظر أيضا؛ لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إذا كان العدو كثيفاً، فإنه تجوز مهادنتهم، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: صالحهم وتوكل على الله، فإن الله كافيك وناصرك، ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليتقووا ويستعدوا، ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ أي: كافيك وحده.

ثم ذكر نعمته عليه بما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ. وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: جمعها على الإيمان بك، وعلى طاعتك ومناصرتك وموازرتك ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: لما كان بينهم من العداوة والبغضاء فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، بين الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التسلسل في الشر، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار في شأن غنائم حنين قال لهم: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي» كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمَنّ[١].

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عزيز الجناب، فلا يخيب رجاء من توكل عليه، حكيم في أفعاله وأحكامه.

قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا علي بن بشر الصيرفي القزويني في منزلنا، أنبأنا أبو عبد الله محمد بن الحسن[٢] القنديلي الاسترابادي، حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن النعمان الصفار، حدثنا ميمون بن الحكم، حدثنا بكر بن الشرود، عن محمد بن مسلم الطائفي، عن إبراهيم بن ميسرة، عن طاوس، عن ابن عباس قال: قرابة الرحم تقطع، ومنة النعمة تكفر، ولم ير مثل تقارب القلوب؛ يقول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، وذلك موجود في الشعر:

إذا مَتَّ ذو القربى إليك برحمه ... فَغَشَّك واستغنى فليس بذي رحم

ولكن ذا القربى الذي إن دعوته ... أجاب ومن يرمي العدو الذي ترمي

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٣٣٠) وصحيح مسلم برقم (١٠٦١) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم، رضي الله عنه.

(٢) في جميع النسخ «الحسين» والتصويب من الشعب والميزان.

قال: ومن ذلك قول القائل:

ولقد صحبت الناس ثم سبرتهم ... وبلوت ما وصلوا من الأسباب

فإذا القرابة لا تُقَرِّبُ قاطعا ... وإذا المودة أقربُ الأسبَاب

قال البيهقي: لا أدرى هذا موصول بكلام ابن عباس، أو هو من قول من دونه من الرواة؟[١].

وقال أبو إسحاق السَّبيعي، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، سمعته يقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية، قال: هم المتحابون في الله، وفي رواية: نزلت في المتحابين في الله.

رواه النسائي والحاكم في مستدركه، وقال: صحيح[٢].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: إن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتكفر، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شيء، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾.

رواه الحاكم أيضاً.

وقال أبو عمرو الأوزاعي: حدثني عبدة بن أبي لُبابة، عن مجاهد ـ ولقيته فأخذ بيدي فقال: إذا تراءى المتحابان في الله، فأخذ أحدهما بيد صاحبه، وضحك إليه، تحاتت خطاياهما كما يتحات ورق الشجر. قال عبدة: فقلت له: إن هذا ليسير! فقال: لا تقل ذلك؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ !. قال عبدة: فعرفت أنه أفقه مني[٣].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن يمان[٤]، عن إبراهيم الخوزي[٥]، عن الوليد بن أبي مغيث، عن مجاهد قال: إذا التقى المسلمان فتصافحا غفر لهما، قال: قلت لمجاهد: بمصافحة يغفر لهما؟ فقال مجاهد: أما سمعته يقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾؟ فقال الوليد لمجاهد: أنت أعلم مني.

وكذا روى طلحة بن مُصَرِّف، عن مجاهد.

وقال ابن عون، عن عمير بن إسحاق قال: كنا نحدث[٦] أن أول ما يرفع من الناس ـ [أو قال: عن الناس][٧] ـ الألفة.

وقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، رحمه الله: حدثنا الحسين بن إسحاق

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي برقم (٩٠٣٤).

(٢) النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٢١٠) والمستدرك (٣٢٩/٢).

(٣) رواه الطبري في تفسيره (٤٦/١٤).

(٤) في هـ: «حدثنا أبو يمان» والتصويب من د، ك، م، والطبري.

(٥) في د، ك: «الجزري». (٦) في د، ك: «نتحدث». (٧) زيادة من الطبري.

التستري، حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري، حدثنا سالم بن غيلان، سمعت جعدا أبا عثمان، حدثني أبو عثمان النهدي، عن سلمان الفارسي: أن رسول الله ﷺ قال: «إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم، فأخذ بيده، تحاتت عنهما ذنوبهما، كما يتحات الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف، وإلا غفر لهما ولو كانت ذنوبهما مثل زبد البحار[1]»[2].

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)﴾.

يحرض تعالى نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران، ويخبرهم أنه حسبهم، أي: كافيهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم، حدثنا عبيد الله بن موسى، أنبأنا سفيان، عن شوذب[3]، عن الشعبي في قوله: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: حسبك الله، وحسب من شهد معك.

قال: وروي عن عطاء الخراساني، وعبد الرحمن بن زيد [ابن أسلم][4]، مثله.

ولهذا قال: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أي: حثهم وذمر[5]عليه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرض على القتال عند صفهم ومواجهة العدو، كما قال لأصحابه يوم بدر، حين أقبل المشركون في عَدَدهم وعُدَدهم: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» فقال عمير بن الحُمام: عرضها السموات والأرض؟! فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فقال: بخ بخ، فقال: «ما يحملك على قولك بخ بخ؟» قال[6]: رجاء أن أكون من أهلها! قال: «فإنك من أهلها» فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيتهن من يده، وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة! ثم تقدم فقاتل حتى قتل، رضي الله عنه[7].

---

(١) في د، ك، أ: «البحر».

(٢) المعجم الكبير (٦/ ٢٥٦) وفيه: «مثل زبد البحر» وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٣٧): «رجاله رجال الصحيح غير سالم بن غيلان وهو ثقة».

(٣) في هـ، ك: «عن ابن شوذب» والمثبت من م، أ، والطبري. (٤) زيادة من أ. (٥) في أ: «وذمرهم».

(٦) في ك: «فقال».

(٧) رواه مسلم في صحيحه برقم (١٩٠١) من حديث أنس، رضي الله عنه.

وقد روى عن سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير: أن هذه الآية نزلت حين أسلم عمر بن الخطاب، وكمل به الأربعون.

وفي هذا نظر؛ لأن هذه الآية مدنية، وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة إلى أرض الحبشة وقبل الهجرة إلى المدينة، والله أعلم.

ثم قال تعالى مُبَشّرا للمؤمنين وآمرا: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، كل واحد بعشرة [١]. ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة.

قال عبد الله بن المبارك: حدثنا جرير بن حازم، حدثني الزبير بن الخِرِّيت [٢]، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾، شق ذلك على المسلمين حين فرض الله عليهم ألا يفر واحد من عشرة، ثم جاء التخفيف، فقال: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾، قال: خفف الله عنهم من العدة، ونقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم.

وروى البخاري من حديث ابن المبارك، نحوه [٣].

وقال سعيد بن منصور: حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس في هذه الآية قال: كتب عليهم ألا يفر عشرون من مائتين، ثم خفف الله عنهم، فقال: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾، فلا ينبغي لمائة أن يفروا من مائتين.

وروى البخاري، عن علي بن عبد الله، عن سفيان، به ونحوه [٤].

وقال محمد بن إسحاق: حدثني ابن أبي نجيح، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية ثقلت على المسلمين، وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين، ومائة ألفا، فخفف الله عنهم فنسخها بالآية الأخرى فقال: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ الآية، فكانوا إذا كانوا على الشطر من عدو لهم [٥] لم ينبغ لهم أن يفروا من عدوهم، وإذا كانوا دون ذلك، لم يجب عليهم قتالهم، وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم.

وروى علي بن أبي طلحة والعوفي، عن ابن عباس، نحو ذلك. قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، والضحاك نحو ذلك.

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه، من حديث المسيب بن شريك، عن ابن عون، عن نافع، عن ابن عمر، رضي الله عنهما: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ قال: نزلت فينا أصحاب محمد ﷺ.

---

(١) في ك: «العشرة».

(٢) في هـ: «الزبير بن الحارث» والمثبت من د، ك، م والطبري.

(٣) صحيح البخاري برقم (٤٦٥٣).

(٤) صحيح البخاري برقم (٤٦٥٢).

(٥) في د، ك: «عدوهم».

وروى الحاكم فى مستدركه، من حديث أبى عمرو بن العلاء، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضُعْفًا﴾ رفع، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه[1].

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٩) ﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا على بن عاصم، عن حميد، عن أنس، رضى الله عنه، قال: استشار رسول الله ﷺ الناس فى الأسارى يوم بدر، فقال: «إن الله قد أمكنكم منهم» فقام عمر بن الخطاب فقال: يارسول الله، اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبى ﷺ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس، إن الله قد أمكنكم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأمس». فقام عمر فقال: يارسول الله، اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبى ﷺ، ثم عاد النبى ﷺ فقال للناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، فقال: يارسول الله، نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء. قال: فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم، فعفا عنهم، وقبل منهم الفداء. قال: وأنزل الله، عز وجل: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ الآية[2].

وقد سبق فى أول السورة حديث ابن عباس فى صحيح مسلم بنحو ذلك.

وقال الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبى عبيدة، عن عبد الله قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «ما تقولون فى هؤلاء[3] الأسارى؟» قال: فقال أبو بكر: يارسول الله، قومك وأهلك، استبقهم واستتبهم، لعل الله أن يتوب عليهم. قال: وقال عمر: يارسول الله، أخرجوك، وكذبوك، فقدمهم فاضرب أعناقهم. قال: وقال عبد الله بن رواحة: يارسول الله، أنت فى واد كثير الحطب، فأضرم الوادى عليهم ناراً، ثم ألقهم فيه. [قال: فقال العباس: قطعت رحمك][4] قال: فسكت رسول الله ﷺ فلم يرد عليهم شيئاً، ثم قام فدخل فقال ناس: يأخذ بقول أبى بكر. وقال ناس: يأخذ بقول عمر. وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة. ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم، عليه السلام، قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى، عليه السلام، قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، وإن مثلك يا عمر مثل موسى

---

(١) المستدرك (٢/ ٢٣٩).

(٢) المسند (٣/ ٢٤٣).

(٣) فى أ: «هذه».

(٤) زيادة من د، ك م، والمسند والطبرى.

عليه السلام، قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، وإن مثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام، قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، أنتم عالة فلا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق». قال ابن مسعود: قلت: يارسول الله، إلا سهيل بن بيضاء، فإنه يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع على حجارة من السماء مني في ذلك اليوم، حتى قال رسول الله ﷺ: «إلا سهيل بن بيضاء» فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ﴾ إلى آخر الآية.

رواه الإمام أحمد والترمذي، من حديث أبي معاوية، عن الأعمش، والحاكم في مستدركه، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه[1] وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه، عن عبد الله بن عمر، وأبي هريرة، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ نحوه[2]، وفي الباب عن أبي أيوب الأنصاري.

وروى ابن مردويه أيضاً ـ واللفظ له ـ والحاكم في مستدركه، من حديث عبيد الله بن موسى: حدثنا إسرائيل، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: لما أُسر الأسارى يوم بدر، أسر العباس فيمن أسر، أسره رجل من الأنصار، قال: وقد أوعدته الأنصار أن يقتلوه. فبلغ ذلك للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أنم الليلة من أجل عمي العباس، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه» فقال له عمر: فآتيهم؟ قال: «نعم» فأتى عمر الأنصار فقال لهم: أرسلوا العباس فقالوا: لا، والله لا نرسله. فقال لهم عمر: فإن كان لرسول الله ﷺ رضى؟ قالوا: فإن كان لرسول الله ﷺ رضى فخذه. فأخذه عمر فلما صار في يده قال له: يا عباس، أسلم، فوالله لأن تسلم أحب إلي من أن يسلم الخطاب، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك، قال: فاستشار رسول الله ﷺ أبا بكر، فقال أبو بكر: عشيرتك. فأرسلهم، فاستشار عمر، فقال: اقتلهم، ففاداهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ[3] لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية.

قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه[4].

وقال سفيان الثوري، عن هشام ـ هو ابن حسان ـ عن محمد بن سيرين، عن عبيدة، عن علي، رضي الله عنه، قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ يوم بدر فقال: خيِّر أصحابك في الأسارى: إن شاؤوا الفداء، وإن شاؤوا القتل على أن يقتل منهم مقبلا مثلهم. قالوا: الفداء ويقتل منا.

رواه الترمذي، والنسائي، وابن حبان في صحيحه من حديث الثوري، به[5] وهذا حديث غريب

(١) المسند (١/ ٣٨٣) وسنن الترمذي برقم (٣٠٨٤) والمستدرك (٣/ ٢١) وقال الترمذي: «هذا حديث حسن وأبو عبيدة بن عبد الله لم يسمع من أبيه».

(٢) ذكرهما السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١٠٤، ١٠٧).

(٣) في ك: «تكون».

(٤) المستدرك (٢/ ٣٢٩) وقال الذهبي: «على شرط مسلم».

(٥) سنن الترمذي برقم (١٥٦٧) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٨٦٦٢) وقال الترمذي: «هذا حديث غريب من حديث الثوري لانعرفه إلا من حديث ابن أبي زائدة».

جدا.

وقال ابن عون [عن محمد بن سيرين][١] عن عبيدة، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ في أسارى يوم بدر: «إن شئتم قتلتموهم، وإن شئتم فاديتموهم واستمتعتم بالفداء، واستشهد منكم بعدتهم». قال: فكان آخر السبعين ثابت بن قيس، قتل يوم اليمامة، رضي الله عنه[٢].

ومنهم من روى هذا الحديث عن عبيدة مرسلا [٣]، فالله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق، عن ابن أبي نجيح، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال: غنائم بدر، قبل أن يحلها لهم، يقول: لولا أني لا أعذب من عصاني حتى أتقدم إليه، لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم.

وكذا روى ابن أبي نجيح، عن مجاهد.

وقال الأعمش: سبق منه ألا يعذب أحدا شهد بدرا. وروي نحوه عن سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن جبير، وعطاء.

وقال شعبة، عن أبي هاشم[٤]، عن مجاهد: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ أي: لهم بالمغفرة ونحوه عن سفيان الثوري، رحمه الله.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ يعني: في أم الكتاب الأول أن المغانم والأسارى حلال لكم، ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من الأسارى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ الآية. وكذا روى العوفي، عن ابن عباس. وروي مثله عن أبي هريرة، وابن مسعود، وسعيد بن جبير، وعطاء، والحسن البصري، وقتادة والأعمش أيضا: أن المراد ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ لهذه الأمة بإحلال الغنائم وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله.

ويستشهد لهذا القول بما أخرجاه في الصحيحين، عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا، لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة»[٥].

وقال الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لم

---

(١) زيادة من المستدرك ودلائل النبوة.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ١٤٠) والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ١٣٩) من طريق إبراهيم بن عرعرة قال: أخبرنا أزهر، عن ابن عون، عن محمد عن عبيدة، عن علي به، وقال ابن عرعرة: «رددت هذا على أزهر فأبى إلا أن يقول: عبيدة عن علي» وصححه الحاكم وقال: «على شرط الشيخين».

(٣) رواه الطبري في تفسيره (١٤/ ٦٧) من طريق ابن علية عن ابن عون عن ابن سيرين عن عبيدة به مرسلا.

(٤) في د: «هشام».

(٥) صحيح البخاري برقم (٣٣٥) وصحيح مسلم برقم (٥٢١)

تحل الغنائم لسود الرؤوس غيرنا»[1].

ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء.

وقد روى الإمام أبو داود في سننه: حدثنا عبد الرحمن بن المبارك العيشي، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا شعبة، عن أبي العنبس، عن أبي الشعثاء، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة[2].

وقد استقر الحكم في الأسرى[3] عند جمهور العلماء: أن الإمام مخير فيهم: إن شاء قتل ـ كما فعل ببني قريظة ـ وإن شاء فادى بمال ـ كما فعل بأسرى بدر ـ أو بمن أسر من المسلمين ـ كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع، حيث ردهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين، وإن شاء استرق من أسر. هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء، وفي المسألة خلاف آخر بين الأئمة مقرر في موضعه من كتب الفقه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٠) وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)﴾.

قال محمد بن إسحاق: حدثني العباس بن عبد الله بن معقل، عن بعض أهله، عن عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: «إني قد عرفت أن أناسا من بني هاشم وغيرهم، قد أخرجوا كرها، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي[4] منكم أحدا منهم ـ أي: من بني هاشم ـ فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكرها». فقال أبو حذيفة بن عتبة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشائرنا ونترك العباس؟! والله لئن لقيته لألجمنه بالسيف؟ فبلغت رسول الله ﷺ، فقال لعمر بن الخطاب: «يا أبا حفص» ـ قال عمر: والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله ﷺ ـ «أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟» فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لي فأضرب عنقه، فوالله لقد نافق. فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك: والله ما آمن من تلك الكلمة التي قلت، ولا أزال منها خائفا، إلا أن يكفرها الله عني بشهادة. فقتل يوم اليمامة شهيدا، رضي الله عنه.

---

(١) رواه الترمذي في السنن برقم (٣٠٨٥) من طريق معاوية بن عمرو عن زائدة، عن الأعمش به نحوه، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث الأعمش».

(٢) سنن أبي داود برقم (٢٦٩١).

(٣) في د، ك، أ: «الأسارى».

(٤) في أ: «شهد».

وبه، عن ابن عباس قال: لما أمسى رسول الله ﷺ يوم بدر، والأسارى محبوسون بالوثاق، بات رسولُ الله ﷺ ساهراً أول الليل، فقال له أصحابه: يا رسول الله، ما لك لا تنام؟ ـ وقد أسر العباس رجل من الأنصار ـ فقال رسول الله ﷺ: «سمعت أنين عمي العباس في وثاقه» فأطلقوه، فسكت، فنام رسول الله ﷺ.

قال محمد بن إسحاق: وكان أكثر الأسارى يوم بدر فداء العباس بن عبد المطلب، وذلك أنه كان رجلا موسرا فافتدى نفسه بمائة أوقية ذهبا[١].

وفي صحيح البخاري، من حديث موسى بن عقبة، قال ابن شهاب: حدثني أنس بن مالك أن رجالا من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: ائذنَ لنا فلْنترُكْ لابن أختنا عباس فداءه. قال[٢]: «لا، والله لا تَذَرون منه درهما»[٣].

وقال يونس بن بُكَيْر، عن محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رُومان، عن عُرْوَة ـ وعن الزهري، عن جماعة سماهم قالوا: بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم، ففدى[٤] كل قوم أسيرهم بما رضوا، وقال العباس: يا رسول الله، قد كنت مسلما! فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك، وأما ظاهرك فقد كان علينا، فافتد نفسك وابنيْ أخيك: نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعَقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن عمرو أخي بني الحارث بن فهر» قال: ما ذاك عندي يا رسول الله! قال: «فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل؟ فقلت[٥] لها: أن أصبتُ في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبَنِيَّ: الفضل، وعبد الله، وقُثَم». قال: والله يا رسول الله، إني لأعلم أنك رسول الله، إن هذا لشيء ما علمه أحد[٦] غيري وغيرُ أم الفضل، فاحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني: عشرين أوقية من مال كان معي؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك». ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه، وأنزل الله، عز وجل فيه: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسَارَى[٧] إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. قال العباس: فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الإسلام عشرين عبدا، كلهم في يده مال يضرب به، مع ما أرجو من مغفرة الله، عز وجل.

وقد روى ابن إسحاق أيضا، عن ابن أبي نَجيح، عن عطاء، عن ابن عباس في هذه الآية بنحو مما تقدم.

---

(١) في د، ك: «ذهبا».

(٢) في ك: «فقال».

(٣) صحيح البخاري برقم (٤٠٢٦).

(٤) في ك: «يفادي».

(٥) في د: «فقال».

(٦) في أ: «بشر».

(٧) في د: «الأسرى».

وقال[١] أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا ابن إدريس [عن ابن إسحاق][٢] عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال العباس: فيَّ نزلت: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾، فأخبرت النبيَّ ﷺ بإسلامي، وسألته أن يحاسبني بالعشرين الأوقية التي أخذ[٣] مني، فأبى، فأبدلني الله بها عشرين عبدا، كلهم تاجر، مالي في يده.

وقال ابن إسحاق أيضا: حدثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله ابن رئاب قال: كان العباس بن عبد المطلب يقول: فيَّ نزلت ـ والله ـ حين ذكرت لرسول الله ﷺ إسلامي ـ ثم ذكر نحو الحديث كالذي قبله.

وقال ابن جُريج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ﴾: عباس وأصحابه. قال: قالوا للنبي ﷺ: آمنا بما جئت به، ونشهد أنك رسول الله، لننصحن لك على قومنا. فأنزل الله: ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾، إيمانا وتصديقا، يخلف[٤] لكم خيرا مما أخذ منكم ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ الشرك الذي كنتم عليه. قال: فكان العباس يقول: ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا، وأن لي الدنيا، لقد قال: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾، فقد أعطاني خيرا مما أخذ مني مائة ضعف، وقال: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾، وأرجو أن يكون[٥] غفر لي.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: كان العباس أسر يوم بدر، فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب، فقال العباس حين قرئت هذه الآية: لقد أعطانا[٦] الله، عز وجل، خَصلتين، ما أحب أن لي بهما الدنيا، إني أسرت يوم بدر فَفَدَيْت نفسي بأربعين أوقية. فآتاني أربعين عبدا، وأن أرجو المغفرة التي وعدنا الله، جل ثناؤه.

وقال قتادة في تفسير هذه الآية: ذُكر لنا أن رسول[٧] الله ﷺ لما قدم عليه مال البحرين ثمانون ألفا، وقد توضأ لصلاة الظهر، فما أعطى يومئذ ساكتا ولا حرم سائلا، وما صلى يومئذ حتى فرقه، فأمر العباس أن يأخذ منه ويحتثي، فأخذ. قال: فكان العباس يقول: هذا خير مما أخذ منا، وأرجو المغفرة.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال قال: بعث ابن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ من البحرين ثمانين ألفا، ما أتاه مال أكثر منه لا قبلُ ولا بعدُ. قال: فنثرت على حصير ونودي بالصلاة. قال: وجاء رسول الله ﷺ، فمثل قائما على المال،

---

(١) في ك: «وقال أيضا».
(٢) زيادة من د، ك، م، والطبري.
(٣) في أ: «أخذت».
(٤) في ك: «تخلف».
(٥) في ك، أ: «يكون قد».
(٦) في أ: «أعطى».
(٧) في ك: «نبي».

وجاء أهل المسجد فما كان يومئذ عَدَدٌ ولا وَزْنٌ، ما كان إلا قَبْضاً، [قال][1]: وجاء العباس بن عبدالمطلب يحثى فى خَميصة عليه، وذهب يقوم فلم يستطع، قال: فرفع رأسه إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ارفع على. قال: فتبسم رسول الله ﷺ حتى خرج ضاحكه ـ أو: نابه ـ وقال له: «أعدْ من المال طائفة، وقم بما تطيق». قال: ففعل، وجعل العباس يقول ـ وهو منطلق ـ : أمَّا إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزنا، وما ندرى ما يصنع فى الأخرى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسَارَى[2]﴾ الآية، ثم قال: هذا خير مما أخذ منا، ولا أدرى ما يصنع الله فى الأخرى[3]، فما زال رسول الله ﷺ مائلاً على ذلك المال، حتى ما بقى منهم درهم، وما بعث إلى أهله بدرهم، ثم أتى الصلاة فصلى[4].

**حديث آخر في ذلك:** قال الحافظ أبو بكر البيهقى: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنى أبو الطيب محمد بن محمد بن عبد الله السعيدى، حدثنا مَحْمش بن عصام، حدثنا حفص بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن طَهْمان، عن عبد العزيز بن صهيب، عن أنس بن مالك قال: أتى رسول الله ﷺ بمال من البحرين، فقال: «انثروه فى المسجد».

قال: وكان أكثر مال أتى به رسول الله ﷺ، فخرج إلى الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه. فما كان يرى أحداً إلا أعطاه، إذ جاء العباس فقال: يا رسول الله، أعطنى فإنى فاديت نفسى، وفاديت عَقيلا. فقال له رسول الله ﷺ: «خذ». فحثا فى ثوبه، ثم ذهب يُقلّه فلم يستطع، فقال: مُرْ بعضهم يرفعه إلىَّ. قال: «لا». قال: فارفعه أنت علىَّ. قال: «لا». فنثر منه ثم احتمله على كاهله، ثم انطلق، فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره حتى خَفِىَ عنه، عَجَباً من حِرْصه، فما قام رسول الله ﷺ وثَمَّ منها درهم[5].

وقد رواه البخارى فى مواضع من صحيحه تعليقاً بصيغة الجزم، يقول: «وقال إبراهيم بن طَهْمان» ويسوقه، وفى بعض السياقات أتم من هذا[6].

وقوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ أى: فيما أظهروا لك من الأقوال، ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ أى: من قبل بدر بالكفر به، ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أى: بالإسار يوم بدر، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى: عليم بما يفعله، حكيم فيه.

قال قتادة: نزلت فى عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح الكاتب حين ارتد، ولحق بالمشركين.

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى د: «الأسرى». (٣) فى ك: «الآخرة».

(٤) ورواه الحاكم فى المستدرك (٣/٣٢٩) من طريق هاشم بن القاسم عن سليمان بن المغيرة به نحوه، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه».

(٥) السنن الكبرى (٦/٣٥٦) ووقع فيه «محمد بن محمد بن عبد الله الشعيرى».

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٢١، ٣٠٤٩، ٣١٦٥).

وقال ابن جُرَيج، عن عطاء الخُرَاساني، عن ابن عباس: نزلت في عباس وأصحابه، حين قالوا: لننصحن لك على قومنا.

وفسرها السُّدِّي على العموم، وهو أشمل وأظهر، والله أعلم.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) ﴾.

ذكر تعالى أصناف المؤمنين، وقسمهم إلى مهاجرين، خرجوا من ديارهم وأموالهم، وجاؤوا لنصر الله ورسوله، وإقامة دينه، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك. وإلى أنصار، وهم: المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك، آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم، وواسوهم في أموالهم، ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم، فهؤلاء بعضهم أولى ببعض[1]، أي: كل منهم أحق بالآخر من كل أحد؛ ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، كل اثنين أخوان، فكانوا يتوارثون بذلك إرثاً مقدماً على القرابة، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث، ثبت ذلك في صحيح البخاري، عن ابن عباس[2]، ورواه العَوْفي، وعلي بن أبي طلحة، عنه[3]. وقال[4] مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، وغيرهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن شريك، عن عاصم، عن أبي وائل، عن جَرير ـ هو ابن عبد الله البجلي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «المهاجرون والأنصار أولياء بعضهم لبعض، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة» تفرد به أحمد[5].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا شيبان[6]، حدثنا عِكْرِمة ـ يعني ابن إبراهيم الأزدي ـ حدثنا عاصم، عن شَقيق، عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المهاجرون والأنصار، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف، بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة». هكذا رواه في مسند عبد الله بن مسعود[7].

---

(١) في د، ك، م، أ: «بعضهم أولياء بعض».

(٢) صحيح البخاري برقم (٦٧٤٧).

(٣) رواه الطبري في تفسيره (١٤/ ٧٨).

(٤) في أ: «وقاله».

(٥) المسند (٤/ ٣٦٣).

(٦) في د: «سفيان».

(٧) مسند أبي يعلى (٨/ ٤٤٦) وفيه عكرمة بن إبراهيم، ضعيف.

وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار في غير ما آية في[1] كتابه، فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠]، وقال: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ الآية [التوبة: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ. وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الآية [الحشر: ٨، ٩].

وأحسن ما قيل في قوله: ﴿وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ أي: لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم، فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، لا يختلفون في ذلك، ولهذا قال الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده: حدثنا محمد بن مَعْمَر، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي ابن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن حذيفة قال: خيَّرني رسولُ الله ﷺ بين الهجرة والنصرة، فاخترت الهجرة[2].

ثم قال: لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم﴾: [قرأ حمزة: «ولايتهم» بالكسر، والباقون بالفتح، وهما واحد كالدَّلالة والدِّلالة][3] ﴿مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾، هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا، بل أقاموا في بَوَاديهم، فهؤلاء ليس لهم في المغانم نَصيبٌ، ولا في خُمسها إلا ما حضروا فيه القتال، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا وَكِيع، حدثنا سفيان، عن علقمة بن مَرْثَد، عن سليمان بن بُرَيدة، عن أبيه: بُرَيدة بن الحُصَيب الأسلمي، رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش، أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، وقال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال ـ أو: خلال ـ فأيتهن ما أجابوك[4] إليها فاقبل منهم، وكُفَّ عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين، وأن عليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب

---

(١) في د، أ: «من».

(٢) مسند البزار برقم (٢٧١٨) «كشف الأستار» وفيه علي بن زيد، ضعيف.

(٣) زيادة من د، م، أ.

(٤) في أ: «ما أجابوا».

المسلمين، يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين، ولا يكون لهم فى الفيء والغنيمة نصيب، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله ثم قاتلهم».

انفرد به[1] مسلم، وعنده زيادات أخر[2].

وقوله: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: يقول تعالى: وإن استنصروكم هؤلاء الأعراب، الذين لم يهاجروا فى قتال دينى، على عدو لهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم؛ لأنهم إخوانكم فى الدين، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ أى: مهادنة إلى مدة، فلا تخفروا ذمتكم، ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم. وهذا مروى عن ابن عباس، رضى الله عنه.

﴿وَالَّذينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣)﴾.

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، قطع الموالاة بينهم وبين الكفار، كما قال الحاكم فى مستدركه:

حدثنا محمد بن صالح بن هانئ، حدثنا أبو سعد[3] يحيى بن منصور الهروى، حدثنا محمد بن أبان، حدثنا محمد بن يزيد وسفيان بن حسين، عن الزهرى، عن على بن الحسين، عن عمرو بن عثمان، عن أسامة، عن النبى ﷺ قال: «لا يتوارث أهل ملتين، ولا يرث مسلم كافراً، ولا كافر مسلما»، ثم قرأ: ﴿وَالَّذينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه[4].

قلت: الحديث فى الصحيحين من رواية أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم»[5]، وفى المسند والسنن، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين شتى»[6]، وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا محمد، [عن محمد بن ثور][7]، عن مَعْمَر، عن الزهرى: أن

---

(١) فى أ: «انفرد بإخراجه».

(٢) المسند (٥/٣٥٢) وصحيح مسلم برقم (١٧٣١).

(٣) فى جميع النسخ: «أبو سعيد» والتصويب من كتب الرجال.

(٤) المستدرك (٢/ ٢٤٠).

(٥) صحيح البخارى برقم (٦٧٦٤) وصحيح مسلم برقم (١٦١٤).

(٦) المسند (٢/ ١٩٥) وسنن أبى داود برقم (٢٩١١) ولم أقع عليه فى سنن الترمذى، وإنما أشار إليه عند حديث أسامة بن زيد، والله أعلم.

(٧) زيادة من م، أ، والطبرى.

رسول الله ﷺ أخذ على رجل دخل في الإسلام فقال: «تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحج البيت، وتصوم رمضان، وأنك لا ترى نار مشرك إلا وأنت له حرب»[١].

وهذا مرسل من هذا الوجه، وقد روى متصلا من وجه آخر، عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «أنا بريء من كل مسلم بين ظهراني المشركين»، ثم قال: «لايتراءى ناراهما»[٢].

وقال أبو داود في آخر كتاب الجهاد: حدثنا محمد بن داود بن سفيان، أخبرني يحيى بن حسان، أنبأنا سليمان بن موسى أبو داود، حدثنا جعفر بن سعد بن سَمُرَة بن جُنْدُب [حدثني خبيب بن سليمان، عن أبيه سليمان بن سمرة][٣] عن سمرة بن جندب: أما بعد، قال رسول الله ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله»[٤].

وقد ذكر الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه، من حديث حاتم بن إسماعيل، عن عبد الله بن هرمز، عن محمد وسعيد ابني عبيد، عن أبي حاتم[٥] المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتاكم من تَرْضَون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوا[٦] تكن فتنة في الأرض وفساد عريض». قالوا: يا رسول الله، وإن كان؟ قال: «إذا أتاكم من تَرْضَون دينه وخلقه فأنكحوه» ثلاث مرات.

وأخرجه أبو داود والترمذي، من حديث حاتم بن إسماعيل، به بنحوه[٧].

ثم رُوِيَ من حديث عبد الحميد بن سليمان، عن ابن[٨] عَجْلان، عن ابن وَثِيمَةَ النَّصْري[٩]، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه، إلا تفعلوا[١٠] تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»[١١].

ومعنى قوله تعالى: ﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أي: إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت الفتنة في الناس، وهو التباس الأمر، واختلاط المؤمن بالكافر، فيقع بين الناس فساد منتشر طويل عريض.

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ٨٢).

(٢) رواه أبو داود في السنن برقم (٢٦٤٥) والترمذي في السنن برقم (١٦٠٤) والنسائي في السنن (٨/ ٣٦) من حديث جرير بن عبد الله، رضي الله عنه.

(٣) زيادة من د، ك، م، وأبي داود.

(٤) سنن أبي داود برقم (٢٧٨٧).

(٥) في أ: «حازم». (٦) في ك: «تفعلوه».

(٧) رواه أبوداود في المراسيل برقم(٢٢١) والترمذي في السنن برقم (١٠٨٥).

(٨) في أ: «أبي». (٩) في أ: «ابن أبي وثيمة النصري». (١٠) في ك: «تفعلوه».

(١١) ورواه الترمذي في السنن برقم (١٠٨٤) من طريق عبد الحميد بن سليمان به، وقال: «حديث أبي هريرة قد خولف عبد الحميد ابن سليمان في هذا الحديث، ورواه الليث بن سعد عن ابن عجلان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ مرسلاً ثم قال: وحديث الليث أشبه، ولم يعد حديث عبد الحميد محفوظا».

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)﴾.

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا، عطف بذكر ما لهم في الآخرة، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان، كما تقدم في أول السورة، وأنه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن ذنوب إن كانت، وبالرزق الكريم، وهو الحسن الكثير الطيب الشريف، دائم مستمر أبدا لا ينقطع ولا ينقضي، ولا يُسأم ولا يُمَلُّ لحسنه وتنوعه.

ثم ذكر أن الأتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة كما قال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] وفي الحديث المتفق عليه، بل المتواتر من طرق صحيحة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المرء مع من أحب»، وفي الحديث الآخر: «من أحب قوما حُشر معهم»[1].

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن شريك، عن عاصم، عن أبي وائل، عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ: «المهاجرون والأنصار أولياء بعضهم لبعض، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة». قال شريك: فحدثنا الأعمش، عن تميم بن سلمة، عن عبد الرحمن بن هلال، عن جرير، عن النبي ﷺ مثله.

تفرد به أحمد من هذين الوجهين[2].

وأما قوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في حكم الله، وليس المراد بقوله: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ﴾ خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة، الذين لا فرض لهم ولا هم عصبة، بل يدلون بوارث، كالخالة، والخال، والعمة، وأولاد البنات، وأولاد الأخوات، ونحوهم، كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية، ويعتقد ذلك صريحا في المسألة، بل الحق أن الآية

---

(١) جاء من حديث أبي قرصافة وجابر، أما حديث جابر فرواه الطبراني في المعجم الكبير (١٩/٣) من طريق زياد عن عزة بنت عياض عن أبي قرصافة مرفوعاً بلفظ: «من أحب قوماً حشره الله في زمرتهم». وفي إسناده من لا يعرف. ورواه الخطيب في تاريخه (١٩٦/٥) من طريق إسماعيل بن يحيى عن سفيان عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر مرفوعاً بلفظ: «من أحب قوماً على أعمالهم، حشر يوم القيامة في زمرتهم، فحوسب بحسابهم وإن لم يعمل أعمالهم» وإسماعيل بن يحيى، ضعيف.

(٢) المسند (٤/ ٣٤٣).

عامة تشمل جميع القرابات. كما نص ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة وغير واحد: على أنها ناسخة للإرث بالحلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولا، وعلى هذا فتشمل ذوى الأرحام بالاسم الخاص. ومن لم يورثهم يحتج بأدلة من أقواها حديث: «إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه، فلا وصيةَ لوارث»، قالوا: فلو كان ذا حق لكان له فرض فى كتاب الله مسمى، فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثا، والله أعلم.

آخر [تفسير][1] سورة «الأنفال»، ولله الحمد والمنة، وعليه[2]

[الثقة و][3] التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى أ: «وبه». (٣) زيادة من أ.

## [بسم الله الرحمن الرحيم، وبه أستعين وهو حسبي ونعم الوكيل][١]
## تفسير سورة التوبة[٢]

[مدنية][٣].

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢)﴾.

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ، كما قال البخاري.

حدثنا [أبو][٤] الوليد، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]، وآخر سورة نزلت براءة[٥].

وإنما لا يبسمل[٦] في أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الإمام، والاقتداء في ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه وأرضاه، كما قال الترمذي:

حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعد، ومحمد بن جعفر[٧]، وابن أبي عَدِيّ، وسَهْل بن يوسف قالوا: حدثنا عوف بن أبي جَميلة[٨]، أخبرني يزيد الفارسي، أخبرني ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال، وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم[٩] بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، ووضعتموها[١٠] في السبع الطُّوَل، ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو يُنزل[١١] عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيءُ دعا بعض من كان يكتب، فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يُذكرُ فيها كذا وكذا، فإذا نزلت[١٢] عليه الآية فيقول: «ضعوا هذه[١٣] في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا»، وكانت الأنفال من أول ما نزل[١٤] بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها[١٥]، وحَسِبْتُ أنها منها، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، فوضعتها في السبع الطول[١٦].

---

(١) زيادة من ك. (٢) في ك: «براءة». (٣) زيادة من ك.
(٤) زيادة من د، ك، م، والبخاري.
(٥) صحيح البخاري برقم (٤٦٥٤).
(٦) في ك: «لا تبسمل». (٧) في د، ك: «محمد بن أبي جعفر». (٨) في ت: «حملة».
(٩) في د: «وقرنتم». (١٠) في د: «ووضعتموهما». (١١) في ت: «تنزل».
(١٢) في ت: «أنزلت». (١٣) في ك، أ: «هذه الآية». (١٤) في ت، أ: «نزلت».
(١٥) في ت: «بعضها».
(١٦) سنن الترمذي برقم (٣٠٨٦).

وكذا رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، من طرق أخر، عن عوف الأعرابي، به[١]. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ، لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج، ثم ذُكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك، وأنهم يطوفون بالبيت عراة فكره مخالطتهم، فبعث أبا بكر الصديق، رضي الله عنه، أميراً على الحج هذه السنة، ليقيم للناس مناسكهم، ويعلم المشركين ألا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن ينادي في الناس ببراءة، فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ، لكونه عَصَبة له، كما سيأتي بيانه.

فقوله: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: هذه براءة، أي: تبرؤ من الله ورسوله ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾.

اختلف المفسرون ها هنا اختلافا كثيرا، فقال قائلون: هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة، أو من له عهد دون أربعة أشهر، فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقَّت فأجله إلى مدته، مهما كان؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]. ولما سيأتي في الحديث: «ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته». وهذا أحسن الأقوال وأقواها، وقد اختاره ابن جرير، رحمه الله، ورُوي عن الكلبي ومحمد بن كعب القُرظي، وغير واحد.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ. فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ قال: حد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر، يسيحون في الأرض حيثما شاؤوا، وأجَّل أجَل من ليس له عهد، انسلاخَ الأشهر الحرم، [من يوم النحر إلى انسلاخ المحرم، فذلك خمسون ليلة، فإذا انسلخ الأشهر الحرم][٢] أمره بأن يضع السيف فيمن لا عهد له.

وكذا رواه العوفي، عن ابن عباس.

وقال [الضحاك][٣] بعد قوله: فذلك خمسون ليلة: فأمر الله نبيه إذا انسلخ المحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد، يقتلهم حتى يدخلوا في الإسلام. وأمر ممن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلَون من ربيع الآخر، أن يضع فيهم السيف[٤]، حتى يدخلوا في الإسلام.

وقال أبو معشر المدني: حدثنا محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الموسم سنة تسع، وبعث علي بن أبي طالب بثلاثين آية أو أربعين آية من «براءة» فقرأها

---

(١) المسند (١/ ٥٧) وسنن أبي داود برقم (٧٨٦) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٨٠٠٧) والمستدرك (٢/ ٣٣).

(٢، ٣) زيادة من ت، د، هـ.

(٤) في ت: «السيف أيضا».

على الناس، يؤجل المشركين أربعة أشهر يسيحون في الأرض، فقرأها عليهم يوم عرفة، أجّل المشركين عشرين من ذى الحجة، والمحرم، وصفر، وشهر ربيع الأول، وعشرا من ربيع الآخر، وقرأها عليهم في منازلهم، وقال: لا يحجن بعد عامنا هذا مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان.

وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إلى أهل العهد: خزاعة، ومُدْلج، ومن كان له عهد أو غيرهم. أقبل[1] رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ، فأراد رسول الله ﷺ الحج، ثم قال: «إنما يحضر المشركون فيطوفون عُرَاة، فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك». فأرسل أبا بكر وعلياً، رضي الله عنهما، فطافا بالناس في ذي المجاز وبأمكنتهم التي كانوا يتبايعون بها بالمواسم كلها، فآذنوا أصحاب العهد بأن يأمنوا أربعة أشهر، فهي الأشهر المتواليات: عشرون من ذى الحجة إلى عشر يخلون من ربيع الآخر، ثم لا عهد لهم، وآذن الناس كلَّهم بالقتال إلا أن يؤمنوا.

وهكذا روى عن السدى، وقتادة.

وقال الزهرى: كان ابتداء التأجيل من شوال وآخره سلخ المحرم.

وهذا القول غريب، وكيف يحاسبون بمدة لم يبلغهم حكمها، وإنما ظهر لهم أمرها يوم النحر، حين نادى أصحاب رسول الله ﷺ بذلك، ولهذا قال تعالى:

﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣)﴾.

يقول تعالى: وإعلام ﴿مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وتَقَدُّم وإنذار إلى الناس، ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾: وهو يوم النحر الذى هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكثرها جمعا[2]، ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ أي: بريء منهم أيضا.

ثم دعاهم إلى التوبة إليه فقال: ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ أي: مما أنتم فيه من الشرك والضلال ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: استمررتم على ما أنتم عليه﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾، بل هو قادر، وأنتم في قبضته، وتحت قهره ومشيئته، ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: في الدنيا بالخزى والنَّكال، وفي الآخرة بالمقامع والأغلال.

قال البخارى، رحمه الله: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليث، حدثنى عقَيل، عن ابن شهاب قال: أخبرني حُمَيد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: بعثنى أبو بكر، رضي الله عنه، في

---

(١) في ت، ك: «إقبال»، وفي د: «فقدم».

(٢) في د: «وأكبرها جميعا».

تلك الحَجّة في المُؤذِّنين، بعثهم يوم[١] النحر، يُؤذِّنون بمنى: ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف[٢] بالبيت عريان. قال حميد: ثم أردف النبيُّ ﷺ بعلي بن أبي طالب، فأمره أن يُؤذِّن ببراءة. قال أبوهريرة: فأذَّن معنا عليٌّ في أهل منى يوم النحر ببراءة وألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان[٣].

ورواه البخاري أيضا: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شُعَيب، عن الزهري، أخبرني حميد بن عبدالرحمن أن أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر فيمن يُؤذِّن يوم النحر بمنى: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف[٤] بالبيت عُريان، ويوم الحج الأكبر يوم النحر، وإنما قيل: «الأكبر»، من أجل قول الناس: «الحج الأصغر»، فَنَبَذَ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه رسول الله ﷺ مشرك.

وهذا لفظ البخاري في كتاب «الجهاد»[٥].

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهري، عن ابن المسيب، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، في قوله: ﴿براءةٌ مِنَ اللهِ ورسولِه﴾ قال: لما كان النبي ﷺ زمن حنين، اعتمر من الجِعرَّانة، ثم أمرَ أبا بكر على تلك الحجة ـ قال معمر: قال الزهري: وكان أبو هريرة يحدِّث أن أبا بكر أمرَ أبا هريرة أن يؤذن ببراءة في حجة أبي بكر[٦]. قال أبو هريرة: ثم أتبعنا النبيُّ ﷺ علياً، وأمرَه أن يؤذن ببراءة، وأبو بكر على الموسم كما هو، أو قال: على هيئته[٧].

وهذا السياق فيه غرابة، من جهة أن أمير[٨] الحج كان سنة عمرة الجِعرَّانة إنما هو عَتَّاب بن أسيد، فأما أبو بكر إنما كان أميراً سنة تسع.

وقال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن مغيرة، عن الشعبي، عن مُحرَّر بن أبي هريرة، عن أبيه قال: كنت مع علي بن أبي طالب، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة بـ«براءة»، فقال: ما كنتم تنادون؟ قال: كنا ننادي: ألا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله[٩] ـ أو أمَدَه ـ إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله بريء من المشركين ورسوله، ولا يحج هذا البيت بعد العام مشرك. قال: فكنت[١٠] أنادي حتى صَحِل صوتي[١١].

---

(١) في ك: «بعثهم في يوم».
(٢) في ك. أ: «يطوفن».
(٣) صحيح البخاري برقم (٤٦٥٥).
(٤) في أ: «ولا يطوفن».
(٥) صحيح البخاري برقم (٣١٧٧).
(٦) في أ: «في حجة أبي بكر بمكة».
(٧) الذي في تفسير عبد الرزاق هو ما جاء في الصحيح ولعله رواه في المصنف.
(٨) في ت: «أمره».
(٩) في أ: «فأجله».
(١٠) في ت: «وكنت».
(١١) المسند (٢/٢٩٩).

وقال الشعبي: حدثني مُحَرَّر بن أبي هريرة، عن أبيه قال: كنت مع ابن أبي طالب[١]، رضي الله عنه، حين بعثه رسول الله ﷺ ينادي، فكان إذا صَحِل ناديتُ. قلت: بأي شيء كنتم تنادون؟ قال: بأربع: لا يطوف[٢] بالكعبة عريان، ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يحج بعد عامنا مشرك.

رواه ابن جرير من غير ما وجه، عن الشعبي. ورواه شعبة، عن مغيرة، عن الشعبي، به إلا أنه قال: ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فعهده إلى أربعة أشهر. وذكر تمام الحديث[٣] [٤].

قال ابن جرير: وأخشى أن يكون وهما من بعض نقلته؛ لأن الأخبار متظاهرة في الأجل بخلافه[٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن سماك، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ بعث بـ «براءة» مع أبي بكر، فلما بلغ ذا الحليفة قال: «لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي». فبعث بها مع علي بن أبي طالب، رضي الله عنه[٦].

ورواه الترمذي في التفسير، عن بُنْدار، عن عفان وعبد الصمد، كلاهما عن حماد بن سلمة به[٧]، ثم قال: حسن غريب من حديث أنس، رضي الله عنه.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: حدثنا محمد بن سليمان ـ لُوَين[٨] ـ حدثنا محمد بن جابر، عن سماك، عن حَنَش، عن علي، رضي الله عنه، قال: لما نزلت عشر آيات من «براءة» على النبي ﷺ، دعا النبي ﷺ أبا بكر، فبعثه بها ليقرأها على أهل مكة، ثم دعاني فقال[٩]: «أدرك أبا بكر، فحيثما لحقته فخذ الكتاب منه، فاذهب إلى أهل مكة فاقرأه عليهم». فلحقته بالجُحْفَة، فأخذت الكتاب منه، ورجع أبو بكر إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، نزل في شيء؟ فقال: «لا، ولكن جبريل جاءني فقال: لن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك»[١٠].

هذا إسناد فيه ضعف.

وليس المراد أن أبا بكر، رضي الله عنه، رجع من فوره، بل بعد قضائه المناسك التي أمره عليها رسول الله ﷺ، كما جاء مبينا في الرواية الأخرى.

وقال عبد الله أيضا: حدثني أبو بكر، حدثنا عمرو بن حماد، عن أسباط بن نصر، عن سماك،

---

(١) في ت، أ: «كنت مع علي». (٢) في أ: «لا يطف». (٣) في ت: «تمامه».

(٤) تفسير الطبري (١٤/ ١٠٣ ـ ١٠٥).

(٥) تفسير الطبري (١٤/ ١٠٥).

(٦) المسند (٣/ ٢٨٣).

(٧) سنن الترمذي برقم (٣٠٩٠).

(٨) في ك: «ابن لوين». (٩) في ت: «فقلت».

(١٠) زوائد المسند (١/ ١٥١).

عن حنش، عن علي، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ حين بعثه بـ «براءة» قال: يا نبي الله، إني لست باللسن ولا بالخطيب. قال: «ما بدٌّ لي أن أذهب بها أنا أو تذهب بها أنت». قال: فإن كان ولابدَّ فسأذهب أنا. قال: «انطلق[1]، فإن الله يثبت لسانك ويهدي قلبك». قال: ثم وضع يده على فيه[2].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن زيد بن يُثَيع ـ رجل من هَمْدان ـ: سألنا عليا: بأي شيء بُعثت؟ يعني: يوم بعثه النبي ﷺ مع أبي بكر في الحجة، قال: بعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فعهده[3] إلى مدته، ولا يحج المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا.

ورواه الترمذي عن قِلابة، عن سفيان بن عيينة، به[4]، وقال: حسن صحيح.

كذا قال، ورواه شعبة، عن أبي إسحاق فقال: عن زيد بن يُثَيع[5]، وهم فيه. ورواه الثوري، عن أبي إسحاق، عن بعض أصحابه، عن علي، رضي الله عنه.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وَكِيع، حدثنا أبو أسامة، عن زكريا، عن أبي إسحاق، عن زيد بن يُثَيع، عن علي قال: بعثني رسول الله ﷺ حين أنزلت «براءة» بأربع: ألا يطوف بالبيت عريان، ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامهم هذا، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة[6].

ثم رواه ابن جرير، عن محمد بن عبد الأعلى، عن أبي ثور، عن مَعْمَر، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي قال: أمرت بأربع. فذكره[7].

وقال إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن زيد بن يُثَيع قال: نزلت براءة فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر، ثم أرسل عليا، فأخذها منه، فلما رجع أبو بكر قال: نزل[8] في شيء؟ قال: «لا، ولكن أمرت أن أبلغها أنا أو رجل من أهل بيتي». فانطلق إلى أهل مكة، فقام فيهم بأربع: لا يدخل مكة مشرك بعد عامه هذا، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فعهده إلى مدته[9] [10].

---

(١) في أ: «فانطلق».

(٢) زوائد المسند (١/ ١٥٠) وفي إسناده أسباط بن نصر وحنش بن المعتمر متكلم فيهما.

(٣) في د: «فعهدته».

(٤) المسند (١/ ٧٩) وسنن الترمذي برقم (٣٠٩٢).

(٥) في أ: «أثيل».

(٦) تفسير الطبري (١٤/ ١٠٦).

(٧) تفسير الطبري (١٤/ ١٠٥).

(٨) في ت: «هل نزل».

(٩) في ك: «إلى مدته هذه».

(١٠) رواه الطبري في تفسيره (١٤/ ١٠٧) من طريق إسرائيل به.

وقال محمد بن إسحاق، عن حكيم[١] بن حكيم بن عباد بن حُنَيْف، عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي قال: لما نزلت «براءة» على رسول الله ﷺ، وقد كان[٢] بعث أبا بكر ليقيم الحج للناس، فقيل: يا رسول الله، لو بعثتَ إلى أبي بكر. فقال: «لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي». ثم دعا عليا فقال: «اخرج بهذه القصة[٣] من صدر براءة، وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى: أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يَطُف[٤] بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته». فخرج علي[٥]، رضي الله عنه، على ناقة رسول الله ﷺ العضباء، حتى أدرك أبا بكر في الطريق[٦]، فلما رآه أبو بكر قال: أمير أو مأمور؟ قال[٧]: بل مأمور، ثم مضيا[٨]، فأقام أبو بكر للناس الحج، [والعرب][٩] إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية حتى إذا كان يوم النحر، قام علي بن أبي طالب فأذن في الناس بالذي أمره رسول الله ﷺ، فقال: يأيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام، ولا يَطُف[١٠] بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مدته. فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان، ثم قدما على رسول الله ﷺ. فكان هذا من «براءة» فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام، وأهل المدة إلى الأجل المسمى.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أخبرنا أبو زُرعة وهب الله بن راشد، أخبرنا حَيْوَة بن شُرَيح: أخبرنا أبو[١١] صخر: أنه سمع أبا معاوية البجلي من أهل الكوفة يقول: سمعت أبا الصهباء البكري وهو يقول: سألت علي بن أبي طالب[١٢] عن «يوم الحج الأكبر» فقال: إن رسول ﷺ بعث أبا بكر بن أبي قُحافة يقيم للناس الحج، وبعثني معه بأربعين آية من «براءة»، حتى أتى عرفة فخطب الناس يوم عرفة، فلما قضى خطبته التفت إليَّ فقال: قم، يا علي، فأدِّ رسالة رسول الله ﷺ، فقمت فقرأت عليهم أربعين آية من «براءة»، ثم صَدَرنا فأتينا منى، فرميت الجمرة ونحرتُ البدنة، ثم حلقت رأسي، وعلمت أن أهل الجمع لم يكونوا حضروا كلهم خطبة أبي بكر يوم عرفة، فطفقت أتتبع بها الفساطيط أقرؤها عليهم، فمن ثَمّ إخال حسبتم أنه يوم النحر [ألا وهو يوم النحر][١٣]، ألا وهو[١٤] يوم عرفة[١٥].

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن أبي إسحاق: سألت أبا جُحَيفة عن يوم الحج الأكبر، قال:

---

(١) في ك: «الحكم».
(٢) في ت: «وكان قد».
(٣) في ت: «اخرج من هذه القصة».
(٤) في د، ك: «يطوف».
(٥) في ت: «علي بن أبي طالب».
(٦) في ت: «بالطريق».
(٧) في ت: «فقال».
(٨) في أ: «مضينا».
(٩) زيادة من الطبري.
(١٠) في ك: «يطوف».
(١١) في أ: «ابن».
(١٢) في د: «سألت عليا».
(١٣) زيادة من د.
(١٤) في ك: «أهو».
(١٥) تفسير الطبري (١٤/ ١١٣).

يوم عرفة. فقلت: أمنْ عندك أم من أصحاب محمد ﷺ؟ قال: كل في ذلك[١].

وقال عبد الرزاق أيضا، عن جُرَيج، عن عطاء قال: يوم الحج الاكبر، يوم عرفة.

وقال عُمَر بن الوليد الشَّنِّي: حدثنا شهاب بن عباد العَصَرِيّ، عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: هذا يوم عرفة، هذا يوم الحج الاكبر، فلا يصومنه أحد. قال: فحججت بعد أبى فأتيت المدينة، فسألت عن أفضل أهلها، فقالوا: سعيد بن المسيب، فأتيته فقلت: إنى سألت عن أفضل أهل المدينة فقالوا: سعيد بن المسيب، فأخبرنى عن صوم يوم عرفة؟ فقال: أخبرك عمن هو أفضل منى مائة ضعف عمر ـ أو: ابن عمر ـ كان ينهى عن صومه، ويقول[٢]: هو يوم الحج الأكبر.

رواه ابن جرير وابن أبى حاتم[٣]، وهكذا روي عن ابن عباس، وعبد الله بن الزبير، ومجاهد، وعكرمة، وطاوس: أنهم قالوا: يوم عرفة هو يوم الحج الاكبر.

وقد ورد فيه حديث مرسل رواه ابن جُرَيْج: أخبرت عن محمد بن قيس بن مَخْرمة أن رسول الله ﷺ خطب يوم عرفة، فقال: «هذا يوم الحج الاكبر»[٤].

وروى من وجه آخر عن ابن جريج، عن محمد بن قيس، عن المِسْوَر بن مخرمة، عن رسول الله ﷺ، أنه خطبهم بعرفات فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإن هذا يوم الحج الاكبر».

والقول الثانى: أنه يوم النحر.

قال هُشَيْم، عن إسماعيل بن أبى خالد، عن الشعبى، عن على، رضى الله عنه، قال: يوم الحج الاكبر يوم النحر.

وقال أبو إسحاق السَّبِيعى، عن الحارث الاعور، سألت عليا، رضى الله عنه، عن يوم الحج الاكبر، فقال: [هو] [٥] يوم النحر.

وقال شعبة، عن الحكم: سمعت يحيى بن الجزار يحدث عن على، رضى الله عنه، أنه خرج يوم النحر على بغلة بيضاء يريد الجبانة، فجاء رجل فأخذ بلجام دابته، فسأله عن الحج الاكبر، فقال: هو يومك هذا، خَلِّ سبيلها.

وقال عبد الرزاق، عن سفيان وشعبة[٦]، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الله بن أبى أوفى أنه قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر.

---

(١) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٤١).

(٢) فى أ: «وهو يقول».

(٣) تفسير الطبرى (١٤/ ١١٤).

(٤) تفسير الطبرى (١٤/ ١١٦).

(٥) زيادة من ت.  (٦) في د: «عن شعبة».

وروى شعبة وغيره، عن عبد الملك بن عمير، به نحوه. وهكذا [١] رواه هشيم وغيره، عن الشيباني عن عبد الله بن أبي أوفى.

وقال الأعمش، عن عبد الله بن سنان قال: خطبنا المغيرة بن شعبة يوم الأضحى على بعير فقال: هذا يوم الأضحى، وهذا يوم النحر، وهذا يوم الحج الأكبر.

وقال حماد بن سلمة، عن سِماك، عن عِكْرمة، عن ابن عباس أنه قال: الحج الأكبر، يوم النحر.

وكذا روي عن أبي جُحَيْفة، وسعيد بن جُبَير، وعبد الله بن شداد بن الهاد، ونافع بن جبير بن مطعم، والشعبي، وإبراهيم النَّخَعي، ومجاهد، وعكرمة، وأبي جعفر الباقر، والزهري، وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم أنهم قالوا: يوم الحج الأكبر هو يوم النحر. واختاره ابن جرير. وقد تقدم الحديث عن أبي هريرة في صحيح البخاري: أن أبا بكر بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى، وقد ورد في ذلك أحاديث أخر، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثني سهل بن محمد السجستاني، حدثنا أبو جابر الحرمي، حدثنا هشام بن الغاز الجُرَشي ـ عن نافع، عن ابن عمر قال: وقف رسول الله ﷺ يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع، فقال: «هذا يوم الحج الأكبر»[٢].

وهكذا رواه ابن أبي حاتم، وابن مَرْدُويه من حديث أبي جابر ـ واسمه محمد بن عبد الملك، به، ورواه ابن مردويه أيضاً من حديث الوليد بن مسلم، عن هشام بن الغاز، به. ثم رواه من حديث سعيد بن عبد العزيز، عن نافع، به.

وقال شعبة، عن عمرو بن مُرَّة عن مرة الهَمْداني، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ على ناقة حمراء مخضرمة، فقال: «أتدرون أي يوم يومكم هذا؟» قالوا: يوم النحر. قال: «صدقتم، يوم الحج الأكبر»[٣].

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن المقدام، حدثنا يزيد بن زُرَيع، حدثنا ابن عون، عن محمد بن سيرين، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه قال: لما كان ذلك اليوم، قعد رسول الله ﷺ على بعير له، وأخذ الناس بخطامه ـ أو: زمامه ـ فقال: «أي يوم هذا؟» قال: فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه، فقال: «أليس هذا يوم الحج الأكبر»[٤].

وهذا إسناد صحيح، وأصله مخرج في الصحيح.

وقال أبو الأحوص، عن شَبِيب بن غَرْقَدَة، عن سليمان بن عمرو بن الأحوص، عن أبيه قال:

---

(١) في ت، أ: «وكذا».

(٢) تفسير الطبري (١٤/ ١٢٤).

(٣) رواه الطبري في تفسيره (١٤/ ١٢٥).

(٤) تفسير الطبري (١٤/ ١٢٣) وأصله في صحيح البخاري برقم (٤٤٠٦) وصحيح مسلم برقم (١٦٧٩).

سمعت رسول الله ﷺ في حجة الوداع، فقال: «أي يوم هذا؟» فقالوا: اليوم الحج الأكبر[١].

وعن سعيد بن المسيب أنه قال: يوم الحج الأكبر اليوم الثاني من يوم النحر. رواه ابن أبي حاتم.

وقال مجاهد أيضاً: يوم الحج الأكبر أيام الحج كلها.

وكذا قال أبو عبيد، قال سفيان: «يوم الحج»، و«يوم الجمل»، «ويوم صفين» أي: أيامه كلها.

وقال سهل السراج: سئل الحسن البصري عن يوم الحج الأكبر، فقال: ما لكم وللحج الأكبر، ذاك عام حج فيه أبو بكر، الذي استخلفه رسول الله ﷺ فحج بالناس. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو أسامة، عن ابن عون: سألت محمداً ـ يعني ابن سيرين ـ عن يوم الحج الأكبر فقال: كان يوما وافق فيه حج رسول الله ﷺ حج أهل الوبر[٢].

**﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) ﴾.**

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر، لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت، فأجله، أربعة أشهر، يسيح في الأرض، يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت، فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها، وقد تقدمت الأحاديث: «ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته» وذلك بشرط ألا ينقض المعاهد عهده، ولم يظاهر على المسلمين أحداً، أي: يمالئ عليهم من سواهم، فهذا الذي يوفى له بذمته وعهده[٣] إلى مدته؛ ولهذا حرض[٤] الله تعالى على الوفاء بذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: الموفين بعهدهم.

**﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) ﴾.**

اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم هاهنا، ما هي؟ فذهب ابن جرير إلى أنها [الأربعة][٥] المذكورة في قوله تعالى: ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ الآية [التوبة:٣٦]، قاله أبو جعفر الباقر. لكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم في حقهم المحرم وهذا الذي ذهب إليه حكاه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وإليه ذهب الضحاك أيضاً، وفيه نظر،

---

(١) رواه الترمذي في السنن برقم (٢١٥٩) عن هناد عن أبي الأحوص به بأطول منه، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) تفسير الطبري (١٤/ ١٢١).

(٣) في ت: «بعهده وذمته».

(٤) في ت: «فرض».

(٥) زيادة من ت، أ.

والذى يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس فى رواية العوفى عنه، وبه قال مجاهد، وعمرو ابن شعيب، ومحمد بن إسحاق، وقتادة، والسدى، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها فى قوله: ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢]، ثم قال: ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ ﴾ أى: إذا انقضت الأشهر الأربعة التى حرمنا عليكم فيها قتالهم، وأجلناهم فيها، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم؛ لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر؛ ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتى بيان حكمها فى آية أخرى بعد فى هذه السورة الكريمة.

وقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ أى: من الأرض. وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال فى الحرم بقوله: ﴿وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١].

وقوله: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أى: وأسروهم، إن شئتم قتلا، وإن شئتم أسرا.

وقوله: ﴿وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أى: لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم بالحصار فى معاقلهم وحصونهم، والرصد فى طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع، وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ولهذا اعتمد الصديق، رضى الله عنه، فى قتال مانعى الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال، وهى الدخول فى الإسلام، والقيام بأداء واجباته. ونبه بأعلاها على أدناها، فإن أشرف الأركان بعد الشهادة الصلاة، التى هى حق الله، عز وجل، وبعدها أداء الزكاة التى هى نفع متعد إلى الفقراء والمحاويج، وهى أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين؛ ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة، وقد جاء فى الصحيحين[1]، عن ابن عمر، رضى الله عنهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا [2] أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة» الحديث.

وقال أبو إسحاق، عن أبى عبيدة، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، قال: أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ومن لم يزك فلا صلاة له.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة، وقال: يرحم الله أبا بكر، ما كان أفقهه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا على بن إسحاق، أنبأنا عبد الله بن المبارك، أنبأنا حميد الطويل، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً

---

(١) فى ت، أ: «الصحيح».

(٢) فى ت: «يقولوا».

رسول الله، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، واستقبلوا قبلتنا، وأكلوا ذبيحتنا، وصلوا صلاتنا، فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم».

ورواه البخاري في صحيحه وأهل السنن إلا ابن ماجه، من حديث عبد الله بن المبارك، به[١].

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا عبد الأعلى بن واصل الأسدي، حدثنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس [ عن أنس] [٢] قال: قال رسول الله ﷺ: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده، وعبادته لا يشرك به شيئاً، فارقها والله عنه راض» ـ قال: وقال أنس: هو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم، قبل هرج الأحاديث، واختلاف الأهواء، وتصديق ذلك في كتاب الله في آخر ما أنزل، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ ـ قال: توبتهم خلع الأوثان، وعبادة ربهم، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ثم قال في آية أخرى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾[٣] [التوبة: ١١].

ورواه ابن مردويه.

ورواه محمد بن نصر المروزي في كتاب «الصلاة» له: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أنبأنا حكّام بن سلم[٤]، حدثنا أبو جعفر الرازي، به سواء[٥].

وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مُزاحم: إنها نسخت كل عهد بين النبي [٦] ﷺ وبين أحد من المشركين، وكل عهد، وكل مدة.

وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة، منذ نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم، ومدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل [٧] أربعة أشهر، من يوم أذن ببراءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في الآية، قال: أمره الله تعالى أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا في الإسلام، ونقض ما كان سمي لهم من العهد والميثاق، وأذهب الشرط الأول.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إسحاق بن موسى الأنصاري قال: قال سفيان[٨]: قال

---

(١) المسند (٣/١٩٩) وصحيح البخاري برقم (٣٩٢) وسنن أبي داود برقم (٢٦٤١) وسنن الترمذي برقم (٢٦٠٨) وسنن النسائي (٨/١٠٩).

(٢) زيادة من ت، أ، والطبري.

(٣) تفسير الطبري (١٤/١٣٥) ورواه ابن ماجة في السنن برقم (٧٠) من طريق عبيد الله بن موسى بنحوه، وقال البوصيري في الزوائد (١/٥٦): «هذا إسناد ضعيف، الربيع بن أنس ضعيف هنا».

(٤) في ك: «سلمة».

(٥) تعظيم قدر الصلاة برقم (١).

(٦) في أ: «رسول الله». (٧) في ت، ك، أ: «تنزل براءة». (٨) في ت، ك، أ: «سفيان بن عيينة».

علي بن أبي طالب: بعث النبي ﷺ بأربعة أسياف: سيف في المشركين من العرب[1]، قال الله: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم [وخذوهم][2]﴾.

هكذا رواه مختصراً، وأظن أن السيف الثاني هو قتال أهل الكتاب في قوله: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ [التوبة: ٢٩]، والسيف الثالث: قتال المنافقين في قوله: ﴿يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين [واغلظ عليهم][3]﴾[التوبة: ٧٣، التحريم: ٩]، والرابع: قتال الباغين في قوله: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾ [الحجرات: ٩].

ثم اختلف المفسرون في آية السيف هذه، فقال الضحاك والسدي: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فإما منا بعد وإما فداء﴾ [محمد: ٤]، وقال قتادة بالعكس.

﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون(٦)﴾.

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وإن أحد من المشركين﴾ الذين أمرتك بقتالهم، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم، ﴿استجارك﴾ أي: استأمنك، فأجبه إلى طلبته ﴿حتى يسمع كلام الله﴾ أي: [القرآن][4] تقرؤه عليه وتذكر له شيئاً من [أمر][5] الدين تقيم عليه به حجة الله، ﴿ثم أبلغه مأمنه﴾ أي: وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه، ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾ أي: إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله، وتنتشر دعوة الله في عباده.

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد، في تفسير هذه الآية، قال: إنسان يأتيك يسمع ما تقول وما أنزل عليك، فهو آمن حتى يأتيك فيسمع كلام الله، وحتى يبلغ مأمنه، حيث جاء.

ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه، مسترشداً أو في رسالة، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم: عروة بن مسعود، ومكرز بن حفص، وسهيل بن عمرو، وغيرهم واحداً بعد واحد، يترددون في القضية بينه وبين المشركين، فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم.

---

(١) في ت، د: «سيف في المشركين وسيف في العرب».

(٢، ٣) زيادة من أ.　　(٤، ٥) زيادة من ت، د، ك، أ.

ولهذا أيضاً لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له: «أتشهد [١] أن مسيلمة رسول الله؟» قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: «لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقك» [٢]. وقد قيض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة، وكان يقال له: ابن النواحة، ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له: إنك الآن لست في رسالة، وأمر به فضربت عنقه، لا رحمه الله ولعنه.

والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة، أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية، أو نحو ذلك من الأسباب، فطلب من الإمام أو نائبه أماناً، أعطي أماناً ما دام متردداً في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه. لكن قال العلماء: لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك فيما [٣] زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان، عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء، رحمهم الله.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝٧﴾.

يبين تعالى [٤] حكمته في البراءة من المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ثقفوا، فقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ وأمان ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون [٥] به وبرسوله، ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، يعني يوم الحديبية، كما قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ الآية [الفتح: ٢٥]، ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أي: مهما [٦] تمسكوا بما عاقدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾، وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست، إلى أن نقضت قريش العهد ومالؤوا حلفاءهم بني بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، فقتلوهم معهم في الحرم أيضاً، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان، ففتح الله عليه البلد الحرام، ومكنه من نواصيهم، ولله الحمد والمنة، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم، فسموا الطلقاء، وكانوا قريبا من ألفين، ومن استمر على كفره وفر من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر، يذهب حيث شاء: منهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله.

---

(١) في ك: «أما تشهد».

(٢) رواه أحمد في المسند (٣/ ٤٨٧) وأبو داود في السنن برقم (٢٧٦١) من طريق سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق عن سعد بن طارق عن سلمة بن نعيم عن أبيه قال: كنت عند النبي ﷺ حين جاءه رسل مسيلمة، فذكر نحوه.

(٣) في ت: «ما».

(٤) في ت: «يبين تعالى أن».

(٥) في ت، ك: «كافرين» وهو خطأ.

(٦) في د: «فهم».

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) ﴾.

يقول تعالى محرضا للمؤمنين على معاداة المشركين والتبرى منهم، ومبينا أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله وكفرهم برسول الله[1]، ولو أنهم إذ ظهروا[2] على المسلمين وأديلوا عليهم، لم يبقوا ولم يذروا، ولا راقبوا فيهم إلا ولا ذمة.

قال على بن أبى طلحة، وعكرمة، والعوفى عن ابن عباس: «الإل»: القرابة، «والذمة»: العهد. وكذا قال الضحاك والسدى، كما قال تميم بن مُقْبِل:

أفسد الناس خُلُوفٌ خلفوا ... قطعوا الإلَّ وأعراقَ الرحم[3]

وقال حسان بن ثابت، رضى الله عنه:

وجدناهُمْ كاذباً إلّـهُمْ ... وذو الإلِّ والعهد لا يكذب[4]

وقال ابن أبى نجيح، عن مجاهد: ﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ﴾ قال: الله. وفى رواية: لا يرقبون الله ولا غيره.

وقال ابن جرير: حدثنى يعقوب، حدثنا ابن علية، عن سليمان، عن أبى مجلز فى قوله تعالى: ﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً﴾: مثل قوله: «جبرائيل»، «ميكائيل»، «إسرافيل»، [كأنه يقول: يضيف «جبر»، و«ميكا»، و«إسراف»، إلى «إيل»، يقول عبد الله: ﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ﴾][5] كأنه يقول: لا يرقبون الله.

والقول الأول أشهر وأظهر، وعليه الأكثر.

وعن مجاهد أيضا: «الإل»: العهد. وقال قتادة: «الإل»: الحلف.

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ

---

(١) فى د: «برسوله ﷺ». (٢) فى ت: «ظاهروا».

(٣) البيت فى تفسير الطبرى (١٤/ ١٤٨).

(٤) قال المعلق على طبعة الشعب: هكذا نسبه ابن كثير إلى حسان بن ثابت، ولم نجده فى ديوانه. والبيت فى تفسير الطبرى غير منسوب ١٥/ ١٤٨ وأما بيت حسان الذى استشهد به الطبرى فهو:

لعمرك إن إلك من قريش ... كإل السقب من رأل النعام

وهذا البيت فى ديوان حسان ص ٣٢٦، واللسان، مادة «أل».

(٥) زيادة من الطبرى (١٤/ ١٤٦).

فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١)﴾.

يقول تعالى ذما للمشركين وحثا للمؤمنين على قتالهم: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعني: أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة، ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ أي: منعوا المؤمنين من اتباع الحق، ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً﴾ تقدم تفسيره، وكذا الآية التي بعدها: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ إلى آخرها، تقدمت.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا يحيى بن أبي بكر، حدثنا أبو جعفر الرازي، حدثنا الربيع بن أنس قال: سمعت أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته، لا يشرك[1] به، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، فارقها والله عنه راض، وهو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم، قبل هَرْج الأحاديث واختلاف الأهواء». وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿فَإِن تَابُوا﴾ يقول: فإن خلعوا الأوثان وعبادتها ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾.

ثم قال البزار: آخر الحديث عندي والله أعلم: «فارقها وهو عنه راض»، وباقيه عندي من كلام الربيع بن أنس[2].

﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢)﴾.

يقول تعالى: وإن نكث هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة أيمانهم، أي: عهودهم ومواثيقهم، ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أي: عابوه وانتقصوه. ومن هاهنا أخذ قتل من سب الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، أو من طعن في دين الإسلام أو ذكره بتنقص؛ ولهذا قال: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ أي: يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال.

وقد قال قتادة وغيره: أئمة الكفر كأبي جهل، وعتبة، وشيبة، وأمية بن خلف، وعدد رجالا.

وعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال: مر سعد برجل من الخوارج، فقال الخارجي: هذا من أئمة الكفر. فقال سعد: كذبت، بل أنا قاتلت أئمة الكفر. رواه ابن مردويه.

وقال الأعمش، عن زيد بن وهب، عن حذيفة أنه قال: ما قوتل أهل هذه الآية بعد.

---

(١) في ت، ك: «لا شريك».

(٢) ورواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٣١) من طريق أحمد بن مهران عن عبيد الله بن موسى بنحوه، ولم يفرق بين المرفوع والموقوف، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد» وتعقبه الذهبي قلت: «صدر الحديث مرفوع وسائره مدرج فيما أرى».

وروى عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، مثله.

والصحيح أن الآية عامة، وإن كان سبب نزولها مشركى قريش فهى عامة لهم ولغيرهم، والله أعلم.

وقال الوليد بن مسلم: حدثنا صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير: أنه كان فى عهد أبى بكر، رضى الله عنه، إلى الناس حين وجههم إلى الشام، قال: إنكم ستجدون قوما مُحَوَّقة رؤوسهم، فاضربوا معاقد الشيطان منهم بالسيوف، فوالله لأن أقتل رجلا منهم أحب إلى من أن أقتل سبعين من غيرهم، وذلك بأن الله يقول: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ رواه ابن أبى حاتم.

﴿أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥)﴾.

وهذا أيضا تهييج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين لأيمانهم، الذين هموا بإخراج الرسول من مكة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ [إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي][(١)]﴾ الآية [الممتحنة: ١]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٦].

وقوله: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: قيل: المراد بذلك يوم بدر، حين خرجوا لنصر عيرهم[(٢)]، فلما نجت وعلموا بذلك استمروا على وجوههم[(٣)] طلبا للقتال، بغيا وتكبرا، كما تقدم بسط ذلك.

وقيل: المراد نقضهم العهد وقتالهم[(٤)] مع حلفائهم بنى بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، حتى[(٥)] سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح، وكان ما كان، ولله الحمد.

وقوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ[(٦)] فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: يقول تعالى: لا تخشوهم واخشون، فأنا أهل أن يخشى العباد من سطوتى وعقوبتى، فبيدى الأمر، وما شئت كان، وما لم أشأ لم يكن.

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى د: «خرجوا لعيرهم». (٣) فى ت، ك: «وجههم».
(٤) فى ت: «وقتالهم». (٥) فى ت: «حين». (٦) فى ك: «أتخشوهم» وهو خطأ.

ثم قال تعالى عزيمة على المؤمنين، وبيانا لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ وهذا عام في المؤمنين كلهم.

وقال مجاهد، وعكرمة، والسدي في هذه الآية: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني: خزاعة. وأعاد[1] الضمير في قوله: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ عليهم أيضا.

وقد ذكر ابن عساكر في ترجمة مؤذن لعمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، عن مسلم بن يسار، عن عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ كان إذا غضبت أخذ بأنفها، وقال: «يا عويش، قولي: اللهم، رب النبي محمد[2]، اغفر ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن».

ساقه من طريق أبي أحمد الحاكم، عن الباغندي، عن هشام بن عمار، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الجون، عنه[3].

﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ أي: من عباده، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: بما يصلح عباده، ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية، فيفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وهو العادل الحاكم الذي لا يجور أبدا، ولا يضيع مثقال ذرة من خير وشر، بل يجازي عليه في الدنيا والآخرة.

**﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦)﴾.**

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أيها المؤمنون أن نترككم مهملين، لا نختبركم بأمور يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب؟ ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أي: بطانة ودخيلة[4]، بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله، فاكتفى بأحد القسمين عن الآخر، كما قال الشاعر:

وما أدري إذا يممت أرضاً ... أريد الخير أيهما يليني

وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿[الم][5]. أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٢]،

---

(١) في ت، د، ك: «وأعادوا».
(٢) في ك: «محمداً».
(٣) تاريخ دمشق (١٩/ ٣٣٥ «المخطوط») ورواه ابن السني في عمل اليوم والليلة من طريق أبي العميس عن القاسم بن محمد بن أبي بكر عن عائشة ومن طريق سلمة بن علي عن هشام بن عروة عن عائشة.
(٤) في ت: «دخيلة».
(٥) زيادة من ت، أ.

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾[آل عمران: ١٧٩].

والحاصل أنه تعالى لما شرع الجهاد لعباده، بين أن له فيه حكمة، وهو اختبار [١] عبيده: من يطيعه ممن يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؟ فيعلم الشيء قبل كونه، ومع كونه على ما هو عليه، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، ولا راد لما قدره وأمضاه.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾.

يقول تعالى: ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمروا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له. ومن قرأ: «مسجد الله» فأراد به المسجد الحرام، أشرف المساجد في الأرض، الذي بني من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له. وأسسه خليل الرحمن هذا، وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر، أي: بحالهم وقالهم، كما قال السُّدِّي: لو سألت النصراني: ما دينك؟ لقال: نصراني، واليهودي: ما دينك؟ لقال يهودي، والصابئي، لقال: صابئ، والمشرك، لقال: مشرك.

﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: بشركهم، ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، فشهد تعالى بالإيمان لعمار المساجد، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا سريج[٢]، حدثنا ابن وهب، عن عمرو بن الحارث؛ أن دراجاً أبا السمح حدثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد[٣]، فاشهدوا له بالإيمان؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾».

ورواه الترمذي، وابن مردويه، والحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن وهب، به[٤].

وقال [٥] عبد بن حميد في مسنده: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا صالح المري، عن ثابت البناني، عن ميمون بن سياه، وجعفر بن زيد، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما عمار المساجد هم أهل الله»[٦].

---

(١) في ت، ك: «إخبار». (٢) في ك، أ: «شريح». (٣) في ت، أ: «المساجد».

(٤) المسند (٣/٦٨) وسنن الترمذي برقم (٣٠٩٣) والمستدرك (٢/٣٣٢) ودراج عن أبي الهيثم ضعيف.

(٥) في د: «وروى».

(٦) فيه صالح المري وهو ضعيف، وقد اختلف عليه فيه كما سيأتي في رواية البزار.

ورواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عبد الواحد بن غياث، عن صالح بن بشير المري، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما [١] عمار المساجد هم أهل الله» ثم قال: لا نعلم رواه عن ثابت غير صالح[٢].

وقد روى الدارقطني في الأفراد من طريق حكامة بنت عثمان بن دينار، عن أبيها، عن أخيه مالك بن دينار، عن أنس مرفوعا: «إذا أراد الله بقوم عاهة، نظر إلى أهل المساجد، فصرف عنهم». ثم قال: غريب[٣].

وروى الحافظ البهاء في المستقصى، عن أبيه بسنده إلى أبي أمية الطرسوسي: حدثنا منصور بن صقير، حدثنا صالح المري، عن ثابت، عن أنس مرفوعا: «يقول الله: وعزتي وجلالي، إني لأهم بأهل الأرض عذابا، فإذا نظرت إلى عمار بيوتي وإلى المتحابين في، وإلى المستغفرين بالأسحار، صرفت ذلك عنهم». ثم قال ابن عساكر: حديث غريب[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا سعيد، عن قتادة، حدثنا العلاء بن زياد، عن معاذ بن جبل؛ أن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان ذئب الإنسان، كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية، فإياكم والشعاب، وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد»[٥].

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون الأودي قال: أدركت أصحاب النبي ﷺ وهم يقولون: إن المساجد بيوت الله في الأرض، وإنه حق على الله أن يكرم من زاره فيها[٦].

وقال المسعودي، عن حبيب بن أبي ثابت وعدي بن ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: من سمع النداء بالصلاة ثم لم يجب ويأتي المسجد ويصلي، فلا صلاة له، وقد عصى الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية رواه ابن مردويه.

وقد روي مرفوعا من وجه آخر، وله شواهد من وجوه أخر ليس هذا موضع بسطها.

---

(١) في ت، ك: «إن».

(٢) مسند البزار برقم (٤٣٣) «كشف الأستار» ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٦٦) من طريق هاشم بن القاسم عن صالح المري به، وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٢٣): «فيه صالح المري وهو ضعيف».

(٣) لم أعثر عليه في الأطراف لابن القيسراني.

(٤) وفيه منصور بن صقير، قال أبو حاتم: ليس بالقوي. وقال العقيلي: في حديثه بعض الوهم، ورواه ابن عدي في الكامل (٤/ ٦١) من طريق سعيد بن أشعث عن صالح المري به نحوه، ورواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٩٠٥١) من طريق عبدان عن معاذ بن خالد بن شقيق عن صالح المري به نحوه، وصالح المري ضعيف.

(٥) المسند (٥/ ٢٣٢) وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٢٣): «العلاء بن زياد لم يسمع من معاذ».

(٦) ورواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٩٠٥٢) من طريق أحمد بن منصور عن عبد الرزاق عن معمر عن رجل من قريش رفع الحديث، فذكر نحوه، وهو معضل.

وقوله: ﴿ وَأَقَامَ الصَّلاةَ ﴾ أي: التي هي أكبر عبادات البدن، ﴿ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾ أي: التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق، ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ ﴾ أي: ولم يخف إلا من الله تعالى، ولم يخش سواه، ﴿ فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾، يقول: من وحد الله، وآمن باليوم الآخر يقول: من آمن بما أنزل الله، ﴿ وَأَقَامَ الصَّلاةَ ﴾ يعني: الصلوات الخمس، ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ ﴾ يقول: لم يعبد إلا الله ـ ثم قال: ﴿ فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ [أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ][1] ﴾، يقول: إن أولئك هم المفلحون، كقوله لنبيه ﷺ: ﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩] يقول: إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً وهي الشفاعة، وكل «عسى» في القرآن فهي واجبة.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار، رحمه الله: و«عسى» من الله حق.

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) ﴾.

قال العوفي في تفسيره، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية، قال: إن المشركين قالوا: عمارة بيت الله، وقيام على السقاية، خير ممن آمن وجاهد، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماره، فذكر الله استكبارهم وإعراضهم، فقال لأهل الحرم من المشركين: ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ. مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٦، ٦٧] يعني: أنهم كانوا يستكبرون بالحرم قال: ﴿ بِهِ سَامِرًا ﴾، كانوا يسمرون به، ويهجرون القرآن والنبي ﷺ فخير الله الإيمان والجهاد مع نبي الله ﷺ، على عمارة المشركين البيت وقيامهم على السقاية ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به أن كانوا يعمرون بيته ويخدمونه[2].

قال الله: ﴿ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ يعني: الذين زعموا أنهم أهل العمارة، فسماهم الله «ظالمين» بشركهم، فلم تغن عنهم العمارة شيئاً.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية، قال: نزلت في العباس بن

---

(١) زيادة من د. (٢) في أ: «ويحرمونه».

عبد المطلب حين أسر يوم بدر[١]، قال: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونسقى [الحاج] [٢]ونفك العانى، قال الله عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعنى: أن ذلك كان فى الشرك، ولا أقبل ما كان فى الشرك.

وقال الضحاك بن مزاحم: أقبل المسلمون على العباس وأصحابه، الذين أسروا يوم بدر، يعيرونهم بالشرك، فقال العباس: أما والله لقد كنا نعمرُ المسجد الحرام، ونفك العانى، ونحجب البيت، ونسقى الحاج، فأنزل الله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ [وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ][٣]﴾ الآية.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة، عن إسماعيل، عن الشعبى قال: نزلت فى على، والعباس، رضى الله عنهما، تكلما فى ذلك.

وقال ابن جرير: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرت عن أبى صخر [٤]قال: سمعت محمد ابن كعب القرظى يقول: افتخر طلحة بن شيبة من بنى عبد الدار، وعباس بن عبد المطلب، وعلى بن أبى طالب، فقال طلحة: أنا صاحب البيت، معى مفتاحه، ولو أشاء بت فيه. وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، ولو أشاء بت فى المسجد. فقال على، رضى الله عنه: ما أدرى ما تقولان، لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد، فأنزل الله، عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾؟ الآية كلها[٥].

وهكذا قال السدى، إلا أنه قال: افتخر على، والعباس، وشيبة بن عثمان، وذكر نحوه.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن عمرو، عن الحسن قال: نزلت فى على، وعباس[٦]، وعثمان، وشيبة، تكلموا فى ذلك، فقال العباس: ما أرانى إلا تارك سقايتنا. فقال رسول الله ﷺ: «أقيموا على سقايتكم، فإن لكم فيها خيراً»[٧].

ورواه محمد بن ثور، عن مَعْمَر، عن الحسن فذكر نحوه.

وقد ورد فى تفسير هذه الآية حديث مرفوع، فلابد من ذكره هاهنا، قال عبد الرزاق:

أخبرنا معمر، عن يحيى بن أبى كثير[٨]، [عن رجل] [٩] عن النعمان بن بشير، رضى الله عنه، أن رجلا قال: ما أبالى ألا أعمل عملا بعد الإسلام، إلا أن أسقى الحاج. وقال آخر: ما أبالى ألا أعمل بعد الإسلام، إلا أن أعمر المسجد الحرام. وقال آخر: الجهاد فى سبيل الله أفضل مما قلتم.

---

(١) فى أ: «بعد بدر». (٢، ٣) زيادة من أ.

(٤) فى ت، ك، أ: «أخبرنا ابن وهب أخبرنى ابن لهيعة عن أبى صخر»

(٥) تفسير الطبرى (١٤/ ١٧١)

(٦) فى أ: «العباس».

(٧) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٤٣).

(٨) فى أ: «بكر». (٩) زيادة من تفسير عبد الرزاق.

فزجرهم عمر، رضي الله عنه، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ ـ وذلك يوم الجمعة ـ ولكن إذا صليت الجمعة دخلنا عليه. فنزلت: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام﴾ إلى قوله: ﴿لا يستوون عند الله﴾[1].

**طريق أخرى:** قال الوليد بن مسلم: حدثني معاوية بن سلام، عن جده أبي سلام الأسود، عن النعمان بن بشير الأنصاري قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالي ألا أعمل لله عملا بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام. وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم. فزجرهم عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ ـ وذلك[2] يوم الجمعة ـ ولكن إذا صليتُ الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه. قال: ففعل. فأنزل الله، عز وجل: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام﴾ إلى قوله: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾.

رواه مسلم في صحيحه، وأبو داود ـ وابن جرير وهذا لفظه ـ وابن مردويه، وابن أبي حاتم في تفاسيرهم وابن حبان في صحيحه[3].

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)﴾.

أمر تعالى بمباينة الكفار به، وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن موالاتهم إذا ﴿استحبوا﴾ أي: اختاروا الكفر على الإيمان، وتوعد على ذلك كما قال تعالى: ﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ الآية [المجادلة: ٢٢].

وروى الحافظ [أبو بكر][4] البيهقي من حديث عبد الله بن شوذب قال: جعل أبو أبي عبيدة بن

---

(١) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٤٣).

(٢) في ت، ك، أ: "يوم".

(٣) صحيح مسلم برقم (١٨٧٩) وتفسير الطبري (١٤/ ١٦٩) ولم أجده في سنن أبي داود، ولم يعزه المزي له في تحفة الأشراف.

(٤) زيادة من ت، ك، أ.

الجراح ينعت له الآلهة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله، فأنزل الله فيه هذه الآية: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الآية [المجادلة: ٢٢][١].

ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر[٢] أهله وقرابته وعشيرته على الله وعلى رسوله وجهاد في سبيله، فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾أي: اكتسبتموها وحصلتموها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ أي: تحبونها لطيبها وحسنها، أي: إن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾أي: فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ابن لَهِيعَة، عن زُهْرَة بن مَعْبَد، عن جده قال: كنا مع رسول الله ﷺ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال: والله لأنت يارسول الله أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي فقال رسول الله[٣] ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه». فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي. فقال رسول الله: «الآن ياعمر»[٤].

انفرد بإخراجه[٥] البخاري، فرواه عن يحيى بن سليمان، عن ابن وهب، عن حَيْوَة بن شُرَيْح، عن أبي عُقَيل زهرة بن مَعْبد، أنه سمع جده عبد الله بن هشام، عن النبي ﷺ بهذا[٦].

وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده، لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[٧].

وروى الإمام أحمد، وأبو داود ـ واللفظ له ـ من حديث أبي عبد الرحمن الخراساني، عن عطاء الخراساني، عن نافع، عن ابن عمر قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا تبايعتم بالعِينَة، وأخذتم بأذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذُلاً لاينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[٨].

وروى الإمام أحمد أيضا عن يزيد بن هارون، عن أبي جناب، عن شهر بن حوشب أنه سمع عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ بنحو ذلك[٩]، وهذا شاهد للذي قبله، والله أعلم.

---

(١) سنن البيهقي الكبرى (٩/ ٢٧) من طريق الربيع بن سليمان عن أسد بن موسى عن ضمرة بن ربيعة عن عبد الله بن شوذب، وقال البيهقي: «هذا منقطع».

(٢) في ت، د: «أحب».

(٣) في ت، ك: «النبي».

(٤) المسند (٤/ ٣٣٦).

(٥) في د: «انفرد به».

(٦) صحيح البخاري برقم (٦٦٣٢).

(٧) صحيح البخاري برقم (١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٨) المسند (٢/ ٤٢) وسنن أبي داود برقم (٣٤٦٢).

(٩) المسند (٢/ ٨٤).

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٧)﴾.

قال ابن جُرَيج، عن مجاهد: هذه أول آية نزلت من [سورة][1] «براءة».

يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم فى نصره إياهم فى مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله[2]، وأن ذلك من عنده تعالى، وبتأييده وتقديره، لا بعَددهم ولا بعُددهم ونبههم على أن النصر من عنده، سواء قل الجمع أو كثر، فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئا فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ. ثم أنزل [الله] [3] نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه، كما سنبينه إن شاء الله تعالى مفصلا، ليعلمهم [4] أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده وإن قل الجمع، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وهب بن جرير، حدثنا أبى، سمعت يونس يحدث عن الزهرى، عن عبيد الله، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن تغلب اثنا عشر ألفا من قلة».

وهكذا رواه أبو داود، والترمذى[5]، ثم قال[6]: هذا حديث حسن غريب، لايسنده كبير أحد غير جرير بن حازم، وإنما روى عن الزهرى، عن النبى ﷺ مرسلا.

وقد رواه ابن ماجه والبيهقى وغيره، عن أكثم بن الجَوْن، عن رسول الله ﷺ، بنحوه[7]. والله أعلم.

وقد كانت وقعة: «حُنين» بعد فتح مكة فى شوال سنة ثمان من الهجرة، وذلك لما فرغ عليه السلام [8] من فتح مكة، وتمهدت أمورها، وأسلم عامة أهلها، وأطلقهم رسول الله ﷺ، فبلغه أن

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت: «رسول الله ﷺ».

(٣) زيادة من ت، أ. (٤) فى د: «ليعلم».

(٥) المسند (١/ ٢٩٤) وسنن أبى داود برقم (٢٦١١) وسنن الترمذى برقم (١٥٥٥).

(٦) فى د: «وقال».

(٧) سنن ابن ماجه برقم (٢٨٢٧) وسنن البيهقى الكبرى (٩/ ٢٦٢) من طريق أبى سلمة العاملى عن الزهرى عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لأكثم بن الجون، فذكر نحو حديث ابن عباس. وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ٤١٢): «هذا إسناد ضعيف؛ لضعف أبى سلمة العاملى الأزدى وعبد الملك بن محمد الصنعانى».

(٨) فى أ: «رسول الله ﷺ».

هوازن جمعوا له ليقاتلوه، وأن أميرهم مالك بن عوف النَّضْري، ومعه ثقيف بكمالها، وبنو جُشَم وبنو سعد بن بكر، وأوزاع من بني هلال، وهم قليل، وناس من بني عمرو بن عامر، وعوف بن عامر، وقد أقبلوا معهم النساء والولدان والشاء والنَّعَم، وجاؤوا بِقَضِّهم وقَضِيضِهم فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء[1] معه للفتح، وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة، وهم الطلقاء في ألفين أيضا، فسار بهم إلى العدو، فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له «حنين»، فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح، انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد ثاوروهم[2]، ورشقوا بالنبال، وأصلتوا السيوف، وحملوا حملة رجل واحد، كما أمرهم ملكهم. فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين، كما قال الله، عز وجل[3]، وثبت رسول الله ﷺ، وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو، والعباس عمه آخذ بركابها الأيمن، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر، يثقلانها لئلا تسرع السير، وهو ينوه باسمه، عليه الصلاة والسلام، ويدعو المسلمين إلى الرجعة [ويقول][4]: «أين ياعباد الله؟ إليَّ أنا رسول الله»، ويقول في تلك الحال:

أنا النبي لا كذب      أنا بن عبد المطلب

وثبت معه من أصحابه قريب من مائة، ومنهم من قال: ثمانون، فمنهم: أبو بكر، وعمر، رضي الله عنهما، والعباس وعلي، والفضل بن عباس، وأبو سفيان بن الحارث، وأيمن بن أم أيمن، وأسامة بن زيد، وغيرهم، رضي الله عنهم ثم أمر ﷺ عمه العباس ـ وكان جهير الصوت ـ أن ينادي بأعلى صوته: يا أصحاب الشجرة ـ يعني شجرة بيعة الرضوان، التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها، على ألا يفروا عنه ـ فجعل ينادي بهم: يا أصحاب السمرة[5]، ويقول تارة: يا أصحاب سورة البقرة، فجعلوا يقولون: يالبيك، يالبيك، وانعطف الناس فجعلوا يتراجعون إلى رسول الله ﷺ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع، لبس درعه، ثم انحدر عنه، وأرسله، ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ. فلما رجعت[6] شرذمة منهم، أمرهم، عليه السلام[7]، أن يصدقوا الحملة، وأخذ قبضة من التراب بعدما دعا ربه واستنصره، وقال: «اللهم أنجز لي ما وعدتني» ثم رمى القوم بها، فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينه وفمه ما شغله عن القتال، ثم انهزموا، فاتبع[8] المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون، وما تراجع بقية الناس إلا والأسارى مجدلة بين يدي رسول الله ﷺ.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا يعلى بن عطاء، عن عبد الله بن يسار أبي همام، عن أبي عبد الرحمن الفهري ـ واسمه يزيد بن أسيد، ويقال: يزيد بن أنيس،

---

(١) في ت، أ: «الذي جاؤوا»، وفي د: «الذين جاؤوا».

(٢) في ت: «بادروهم». (٣) في ت: «الله تعالى». (٤) زيادة من ت، أ.

(٥) في ت: «الشجرة». (٦) في د: «اجتمعت». (٧) في أ: ﷺ.

(٨) في ت، د: «واتبع».

ويقال: كُرْز ـ قال: كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة حنين، فسرنا في يوم قائظ شديد الحر، فنزلنا تحت ظلال الشجر، فلما زالت الشمس لبست لأمتي وركبت فرسي، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ وهو في فسطاطه، فقلت: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله، حان الرواح؟ فقال: «أجل». فقال: «يا بلال» فثار من تحت سمرة [(١)] كأن ظله ظل طائر، فقال: لبيك وسعديك، وأنا فداؤك[(٢)]، فقال: «أسرج لي فرسي». فأخرج سرجا دفّتاه من ليف، ليس فيهما أشرٌ ولا بَطَر.

قال: فأسرج، فركب وركبنا، فصافقناهم عشيتنا وليلتنا، فتشامت الخيلان، فولى المسلمون مدبرين، كما قال الله، عز وجل: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾. فقال رسول الله ﷺ: «ياعباد الله، أنا عبد الله ورسوله»، ثم قال: «يا معشر المهاجرين، أنا عبد الله ورسوله». قال: ثم اقتحم رسول الله ﷺ عن فرسه[(٣)]، فأخذ كفا من تراب، فأخبرني الذي كان أدنى إليه مني: أنه ضرب به وجوههم، وقال: «شاهت الوجوه». فهزمهم الله عز وجل. قال يعلى بن عطاء: فحدثني أبناؤهم، عن آبائهم، أنهم قالوا: لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه ترابا، وسمعنا صلصلة بين السماء والأرض، كإمرار الحديد على الطَّست [(٤)] الجديد.

وهكذا رواه الحافظ البيهقي في «دلائل النبوة» من حديث أبي داود الطيالسي، عن حماد بن سلمة، به[(٥)].

وقال محمد بن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن بن جابر، عن أبيه جابر بن عبد الله قال: فخرج مالك بن عوف بمن معه إلى حنين، فسبق رسول الله ﷺ إليه، فأعدوا وتهيؤوا في مضايق الوادي وأحنائه، وأقبل رسول الله ﷺ وأصحابه، حتى انحط بهم الوادي في عماية الصبح، فلما انحط الناس ثارت في وجوههم الخيل، فاشتدت عليهم، وانكفأ الناس منهزمين، لا يُقْبِل أحد عن أحد، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين يقول: «أيها الناس[(٦)]، هلموا إليَّ أنا رسول الله، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله» فلا شيء، وركبت الإبل بعضها بعضا[(٧)]، فلما رأى رسول الله ﷺ أمْرَ الناس قال: «يا عباس، اصرخ: يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة». فأجابوه: لبيك، لبيك، فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيره، فلا يقدر على ذلك، فيقذف درعه في عنقه، ويأخذ سيفه وقوسه، ثم يؤُمّ الصوت، حتى اجتمع إلى رسول الله ﷺ منهم مائة، فاستعرض الناسُ فاقتتلوا، وكانت الدعوة أول ما كانت بالأنصار، ثم جعلت آخراً بالخزرج[(٨)]، وكانوا صُبُراً عند الحرب، وأشرف رسول الله ﷺ في ركابه[(٩)]، فنظر إلى مُجتَلَد القوم، فقال: «الآن حمي الوَطيس»: قال: فوالله ما راجعه الناس إلا والأسارى عند رسول الله ﷺ ملقون، فقَتَل الله منهم من قتل،

---

(١) في ت: «شجرة». (٢) في ك: «فداك».

(٣) في ت: «قرب». (٤) في ت: «الطشت».

(٥) المسند (٥/٢٨٦) ودلائل النبوة (٥/١٤١).

(٦) في ت: «يأيها الناس». (٧) في ك: «بعض». (٨) في ت: «بالخزرج».

(٩) في ك، أ: «ركابه».

وانهزم منهم من انهزم، وأفاء الله على رسوله أموالهم وأبناءهم.

وفي الصحيحين من حديث شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب، رضي الله عنهما، أنه قال له رجل: يا أبا عمارة، أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين، فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفرّ، إن هوازن كانوا قوماً رُماة، فلما لقيناهم وحَمَلنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام، فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، وهو يقول:

أنا النبي لا كذب  أنا ابن عبد المطلب[١]

قلت: وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، إنه في مثل هذا اليوم في حَومة الوَغَى، وقد انكشف عنه جيشه، هو مع ذلك[٢] على بغلة وليست سريعة الجرى، ولا تصلح لكرٍّ ولا لفرٍّ ولا لهرب، وهو مع هذا[٣] أيضاً يركضها إلى وجوههم وينوِّه باسمه ليعرفه من لم يعرفه، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، وما هذا كله إلا ثقة بالله، وتوكلاً عليه، وعلماً منه بأنه سينصره، ويتم ما أرسله به، ويظهر دينه على سائر الأديان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ أي: طمأنينته وثباته على رسوله، ﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الذين معه، ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير:

[حدثنا القاسم قال][٤] حدثني الحسن بن عرفة قال: حدثني المعتمر بن سليمان، عن عوف ـ هو ابن أبي جميلة الأعرابي ـ قال: سمعت عبد الرحمن مولى ابن بُرْثُن، حدثني رجل كان من المشركين يوم حنين قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين[٥]، لم يقوموا لنا حَلَب شاة ـ قال: فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم، حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء، فإذا هو رسول الله ﷺ ـ قال: فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه، فقالوا لنا: شاهت الوجوه، ارجعوا. قال: فانهزمنا، وركبوا أكتافنا، فكانت إياها.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، حدثني محمد بن أحمد بن بَالُويَه، حدثنا إسحاق بن الحسن الحربي[٦]، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الحارث بن حَصِيرة، حدثنا القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه قال: قال ابن مسعود، رضي الله عنه: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حُنين، فولى عنه الناس، وبقيتُ معه في ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار، قدمنا ولم نولهم الدبر، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة. قال: ورسول الله ﷺ على بغلته يمضي قُدُماً، فحادَت بغلته، فمال عن السرج، فقلت: ارتفع رفعك الله. قال: «ناولني كفاً من التراب». فناولته، قال: فضرب به وجوههم، فامتلأت أعينهم تراباً، قال: «أين

---

(١) صحيح البخاري برقم (٢٨٦٤)، وصحيح مسلم برقم (١٧٧٦).

(٢) في ت، د، ك: «وهو مع هذا». (٣) في ت، د، ك: «ذلك».

(٤) زيادة من ت، أ، والطبري. (٥) في ت: «يوم حنين في آثارهم». (٦) في ك: «الجرمي».

المهاجرون[١] والأنصار؟» قلت: هم هناك. قال: «اهتف بهم». فهتفت بهم، فجاؤوا وسيوفهم بأيمانهم، كأنها[٢] الشهب، وولى المشركون أدبارهم.

ورواه الإمام أحمد في مسنده عن عفان، به نحوه[٣].

وقال الوليد بن مسلم: حدثني عبد الله بن المبارك، عن أبي بكر الهُذلي، عن عِكْرِمة مولى ابن عباس، عن شيبة بن عثمان قال: لما رأيت رسول الله ﷺ يوم حنين قد عَرِي، ذكرت أبي وعمي وقتل علي وحمزة إياهما، فقلت: اليوم أدرك ثأري منه ـ قال: فذهبت لأجيئه عن يمينه، فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائماً، عليه درع بيضاء كأنها فضة، يكشف عنها العجاج، فقلت: عَمُّهُ ولن يخذله ـ قال: فجئته[٤] عن يساره، فإذا أنا بأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، فقلت: ابنُ عمه ولن يخذله. فجئته من خلفه، فلم يبق إلا أن أُسَوِّرَهُ سورة بالسيف، إذ رفع لي شُوَاظ من نار بيني وبينه، كأنه برق، فخفت أن تَمْحَشَني، فوضعت يدي على بصري ومشيت القهقرى، فالتفت رسول الله ﷺ وقال: «يا شيبَ، يا شيب[٥]، ادن مني[٦]، اللهم أذهب عنه الشيطان». قال: فرفعت إليه بصري، ولهو أحب إلي من سمعي وبصري، فقال: «يا شيب[٧]، قاتل الكفار».

رواه البيهقي من حديث الوليد، فذكره[٨]، ثم روى من حديث أيوب بن جابر، عن صدقة بن سعيد، عن مصعب بن شيبة عن أبيه قال: خرجت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، والله ما أخرجني إسلام ولا معرفة به، ولكني أبيت أن تظهر هوازن على قريش، فقلت وأنا واقف معه: يا رسول الله، إني أرى خيلا بُلْقا، فقال: «يا شيبة، إنه لا يراها إلا كافر». فضرب بيده في[٩] صدري، ثم قال: «اللهم، اهد شيبة»، ثم ضربها الثانية، ثم قال: «اللهم، اهد شيبة»، ثم ضربها الثالثة ثم قال: «اللهم اهد شيبة». قال: فوالله ما رفع يده من صدري في الثالثة حتى ما كان أحد من خلق الله أحب إليَّ منه، وذكر تمام الحديث، في التقاء الناس وانهزام المسلمين ونداء العباس واستنصار رسول الله ﷺ حتى هزم الله المشركين[١٠].

قال محمد بن إسحاق: حدثني والدي إسحاق بن يَسَار، عمن حدثه، عن جُبير بن مطعم، رضي الله عنه، قال: إنا لمع رسول الله ﷺ يوم حنين، والناس يقتتلون، إذ نظرت إلى مثل البِجَاد الأسود يهوي من السماء، حتى وقع بيننا وبين القوم، فإذا نمل منثور قد ملأ الوادي، فلم يكن إلا هزيمة القوم، فما كنا نشك أنها الملائكة.

---

(١) في ت: «المهاجرين» وهو خطأ. (٢) في ت: «كأنهم».
(٣) دلائل النبوة (٥/ ١٤٢) والمسند (١/ ٤٥٤).
(٤) في أ: «ثم جئته». (٥) في أ: «يا شييب يا شييب». (٦) في د: «ادن مني يا شيب».
(٧) في أ: «يا شييب».
(٨) دلائل النبوة للبيهقي (٥/ ١٤٥).
(٩) في ت، د، ك، أ: «بيده على».
(١٠) دلائل النبوة للبيهقي (٥/ ١٤٦).

وقال سعيد بن السائب بن يسار، عن أبيه قال: سمعت يزيد بن عامر السُّوائي ـ وكان شهد حنينا مع المشركين ثم أسلم بعد ـ فكنا نسأله عن الرعب الذي ألقى الله في قلوب المشركين يوم حنين، فكان يأخذ الحصاة فيرمي بها في الطَّسْت[1] فيطن، فيقول[2]: كنا نجد في أجوافنا مثل هذا.

وقد تقدم له شاهد من حديث يزيد بن أبي أسيد[3]، فالله أعلم.

وفي صحيح مسلم: عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق أنبأنا مَعْمَر، عن هَمَّام قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالرعب، وأوتيت جوامع الكلم»[4].

ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ[5] اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: قد تاب الله على بقية هوازن، وأسلموا وقدموا عليه مسلمين، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوما، فعند ذلك خيَّرهم بين سبيهم وبين أموالهم، فاختاروا سبيهم، وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة، فرده عليهم، وقسم أموالهم بين الغانمين، ونفل أناسا من الطلقاء ليتألف قلوبهم على الإسلام، فأعطاهم مائة مائة من الإبل، وكان من جملة من أعطى مائة مالك بن عوف النَّصْري، واستعمله على قومه كما كان، فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها:

| | |
|---|---|
| مَــا إنْ رَأيـتُ ولا سَمعـتُ بمثْلِه | فـي النَّاس كُلِّهـم بمثـل مُحَمَّـد |
| أوْفَى وَأعطَى للجزيل إذا اجتُدِي | ومتى تَشَأْ يُخْبِرْكَ عمَّا في غَـدِ |
| وإذَا الكتيبــة عــرَّدَتْ أنيابُهـــا | بالسَّمْهريِّ وضــرْب كُلِّ مُهنَّــد |
| فَكَأنَّــه لَيـث علـى أشْبَـالـه | وسْطَ الهبَاءَة[6] خَادِر في مَرْصَد |

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)﴾.

أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين دينا وذاتا بنفي المشركين، الذين هم نَجَس دينا، عن المسجد

---

(١) في ت: «الطشت».   (٢) في ت: «ثم يقول».   (٣) في ت: «أسد».

(٤) صحيح مسلم برقم (٥٢٣).

(٥) في ك، أ: «فأنزل» وهو خطأ.   (٦) في ت، د: «الهباءة»، وفي أ: «الهباة».

الحرام، وألا يقربوه بعد نزول هذه الآية. وكان نزولها في سنة تسع؛ ولهذا بعث رسول الله ﷺ عليًا صُحبة أبي بكر، رضي الله عنهما، عامئذ، وأمره أن ينادي في المشركين: ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف[1] بالبيت عريان. فأتم الله ذلك، وحكم به شرعا وقدراً.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جُرَيج، أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾: إلا أن يكون عبداً، أو أحدا من أهل الذمة[2].

وقد روى مرفوعا من وجه آخر، فقال الإمام أحمد: حدثنا حُسَين[3]، حدثنا شريك، عن الأشعث ـ يعني: ابن سَوَّار ـ عن الحسن، عن جابر قال: قال النبي ﷺ: «لا يدخل مسجدنا بعد عامنا هذا مشرك، إلا أهل العهد وخدمهم[4]»[5].

تفرد به أحمد مرفوعا، والموقوف أصح إسنادا.

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي: كتب عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه: أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين، وأتبع نهيه قول الله: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾.

وقال عطاء: الحرم كله مسجد، لقوله تعالى: ﴿فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾.

ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما دلت [على طهارة المؤمن، ولما][6] ورد في [الحديث][7] الصحيح: «المؤمن لا ينجس»[8]. وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات؛ لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم.

وقال أشعث، عن الحسن: من صافحهم فليتوضأ. رواه ابن جرير.

وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: قال ابن إسحاق: وذلك أن الناس قالوا: لتنقطعَنَّ عنا الأسواق، ولتهلكن[9] التجارة وليذهبن ما كنا نصيب فيها من المرافق، فنزلت[10]: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من وجه غير ذلك ـ ﴿إِنْ شَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي: إن هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق، فعوضهم الله بما قطع عنهم من أمر الشرك، ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب، من الجزية.

---

(١) في ت، أ: «يطوفن».

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٤٥).

(٣) في أ: «حسن».

(٤) في ت، أ: «وخدمكم».

(٥) المسند (٣/ ٣٩٢) وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ١٠): «فيه أشعث بن سوار وفيه ضعف وقد وثق».

(٦، ٧) زيادة من ك، أ.

(٨) صحيح البخاري برقم (٢٨٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «إن المسلم لا ينجس».

(٩) في ت: «وليهلكن».

(١٠) في ك، أ: «فنزل».

وهكذا رُوى عن ابن عباس، ومجاهد، وعِكْرِمة، وسعيد بن جُبَير، وقتادة والضحاك، وغيرهم.

﴿إنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ أي: بما يصلحكم، ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: فيما يأمر به وينهى عنه؛ لأنه الكامل في أفعاله وأقواله، العادل في خلقه وأمره، تبارك وتعالى؛ ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة، فقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ[١] لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل، ولا بما جاؤوا به، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه، لا لأنه شرع الله ودينه؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيمانا صحيحا لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد، صلوات الله عليه، لأن جميع الأنبياء [الأقدمين][٢] بشروا به، وأمروا باتباعه، فلما جاء وكفروا[٣] به، وهو أشرف الرسل، عُلِم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله، بل لحظوظهم وأهوائهم، فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء، وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم؛ ولهذا قال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾. وهذه الآية الكريمة [نزلت][٤] أول الأمر بقتال أهل الكتاب، بعد ما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجا، فلما استقامت[٥] جزيرة العرب أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى، وكان ذلك في سنة تسع؛ ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك، وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم، فأوْعَبوا معه، واجتمع من المقاتلة[٦] نحو [من][٧] ثلاثين ألفا، وتخلف بعضُ الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم، وكان ذلك في عام جَدْب، ووقت قَيْظ وحر، وخرج، عليه السلام، يريد الشام لقتال الروم، فبلغ تبوك، فنزل بها وأقام على مائها[٨] قريباً من عشرين يوماً، ثم استخار الله في الرجوع، فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس، كما سيأتي بيانه بعد إن شاء الله.

وقد استدلَّ بهذه الآية الكريمة مَن يرى انه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب، أو من أشبههم كالمجوس، لما[٩] صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر[١٠]. وهذا مذهب الشافعي، وأحمد ـ في المشهور عنه ـ وقال أبو حنيفة، رحمه الله: بل تؤخذ من جميع الأعاجم، سواء كانوا[١١] من أهل الكتاب أو من المشركين، ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب.

وقال الإمام مالك: بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابيٍّ، ومجوسي، ووثني،

---

(١) في ك: «صلوات الله وسلامه عليه». (٢) زيادة من أ. (٣) في أ: «فلما جاؤوا كفروا».
(٤) زيادة من ت، أ. (٥) في جميع النسخ: «واستقامت»، وصوبناه ليستقيم النص.
(٦) في ك: «المقابلة». (٧) زيادة من ت، ك، أ. (٨) في د: «وأقام بها قريباً».
(٩) في ت، د، ك: «كما». (١٠) في هـ: «من هجر»، وفي أ: «من يهود هجر» والمثبت من ت، ك، أ.
(١١) في ك: «سواء أن كانوا».

وغير ذلك، ولمأخذ هذه المذاهب وذكر أدلتها مكان غير هذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ أي: إن لم يسلموا، ﴿عَن يَدٍ﴾ أي: عن قهر لهم وغلبة، ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي: ذليلون حقيرون مهانون. فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين، بل هم أذلاء صَغَرَة أشقياء، كما جاء في صحيح مسلم، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه»[1].

ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، تلك الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ، من رواية[2] عبد الرحمن بن غَنْم الأشعري قال: كتبت لعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، حين صالح نصارى من أهل الشام:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا[3]، وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا ألا نُحدثَ في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة، ولا قلاية ولا صَوْمَعة راهب، ولا نجدد ما خرب منها، ولا نحيي منها ما كان خطط[4] المسلمين، وألا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، وأن ينزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم، ولا نؤوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً، ولا نكتم غشاً للمسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شركا، ولا ندعو إليه أحداً؛ ولا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه، وأن نوقر المسلمين، وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم، في قلنسوة، ولا عمامة، ولا نعلين، ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتني بكُنَاهم، ولا نركب السروج، ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئا من السلاح، ولا نحمله معنا، ولا ننقش خواتيمنا بالعربية، ولا نبيع الخمور، وأن نجز مقاديم رؤوسنا، وأن نلزم زِينا حيثما كنا، وأن نشد الزنانير على أوساطنا، وألا نظهر الصليب على كنائسنا، وألا نظهر صلبنا ولا كتبنا[5] في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضربا خفيا، وألا[6] نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين، ولا نخرج شعانين ولا باعوثاً، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، وأن نرشد المسلمين، ولا نطلع عليهم في منازلهم.

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢١٦٧).

(٢) في ت، ك، أ: «حديث».    (٣) في ت، أ: «وذريتنا».    (٤) في ت، أ: «ما كان في خطط».

(٥) في أ: «صليباً ولا كتابا».    (٦) في ت: «ولا».

قال: فلما أتيت عمر بالكتاب، زاد فيه: ولا نضرب أحداً من المسلمين، شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا، وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم وَوَظَّفْنا على أنفسنا، فلا ذمة لنا، وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق.

**﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) ﴾.**

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال المشركين الكفار من اليهود والنصارى، لمقالتهم هذه المقالة الشنيعة، والفِرْية على الله تعالى، فأما اليهود فقالوا في العُزَير: «إنه ابن الله»، تعالى [الله][1] عن ذلك علوا كبيرا. وذكر السدى وغيره أن الشبهة التي حصلت لهم في ذلك، أن العمالقة لما غلبت على بني إسرائيل، فقتلوا علماءهم وسبّوا كبارهم، بقي العزير يبكي على بني إسرائيل وذهاب العلم منهم، حتى سقطت جفون عينيه، فبينا هو ذات يوم إذ مَرّ على جبانة، وإذ[2] امرأة تبكي عند قبر وهي تقول: وامطعماه! واكاسياه! [فقال لها ويحك][3] من كان يطعمك قبل هذا؟ قالت: الله. قال: فإن الله حي لا يموت! قالت: يا عزير فمن كان يُعلم العلماء قبل بني إسرائيل؟ قال: الله. قالت: فلم تبكي عليهم؟ فعرف أنه شيء قد وُعظ به. ثم قيل له: اذهب إلى نهر كذا فاغتسل منه، وصَلّ هناك ركعتين، فإنك ستلقى هناك شيخا، فما أطعمك فكله. فذهب ففعل ما أمر به، فإذا شيخ فقال له: افتح فمك. ففتح فمه. فألقى فيه شيئاً كهيئة الجمرة العظيمة، ثلاث مرات، فرجع عُزَير وهو من أعلم الناس بالتوراة، فقال: يا بني إسرائل، قد جئتكم بالتوراة. فقالوا: يا عُزَير، ما كنت كذّابا. فعمد فربط على أصبع من أصابعه قلما، وكتب التوراة بأصبعه كلها، فلما تراجع الناس من عَدُوّهم ورجع العلماء، وأخبروا بشأن عُزَير، فاستخرجوا النسخ التي كانوا أودعوها في الجبال، وقابلوها[4] بها، فوجدوا ما جاء به صحيحا، فقال بعض جهلتهم: إنما صنع هذا لأنه ابن الله.

وأما ضَلاَل النصارى في المسيح فظاهر؛ ولهذا كذَّب الله سبحانه الطائفتين فقال: **﴿ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾** أي: لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افترائهم واختلاقهم، **﴿يُضَاهِئُونَ﴾** أي: يشابهون **﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾** أي: من قبلهم من الأمم، ضلوا كما ضل هؤلاء، **﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾**. قال ابن عباس: لعنهم الله، **﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾** ؟ أي: كيف يضلون عن الحق، وهو ظاهر، ويعدلون إلى الباطل؟

---

(١) زيادة من ت، ك.
(٢) في ت، د: «وإذا».
(٣) زيادة من ت، د، أ.
(٤) في ت، د، ك: «وقابلوا».

[وقوله][1]: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾: روى الإمام أحمد، والترمذي، وابن جرير من طرق، عن عدي بن حاتم، رضي الله عنه، أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فَرَّ إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم مَنَّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها، فرجعت إلى أخيها، ورَغَّبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عَدِيّ المدينة، وكان رئيسا في قومه طيئ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدَّث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عَدِيّ صليب من فضة، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾. قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم. فقال: «بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا[2] لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم». وقال[3] رسول الله ﷺ: «يا عدي، ما تقول؟ أيُفِرُّكَ[4] أن يقال: الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ ما يُفِرُّك؟ أيفرّك أن يقال[5]: لا إله إلا الله؟ فهل تعلم من إله إلا الله»؟ ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم، وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيتُ وجهه استبشر ثم قال: «إن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون»[6].

وهكذا قال حذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس، وغيرهما في تفسير: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾: إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا.

وقال السدي: استنصحوا الرجال، وتركوا[7] كتاب الله وراء ظهورهم.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ أي: الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام، وما حلله حلَّ، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ.

﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

**﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾.**

---

(١) زيادة من أ. (٢) في ت، د، ك: «وحللوا». (٣) في ت، د، ك: «وقال له».

(٤) في أ: «أيسرك». (٥) في أ: «ما تقول أيسرك».

(٦) سنن الترمذي برقم (٣٠٩٥) وتفسير الطبري (١٤/ ٢٠٩ ـ ٢١١) من طريق عبد السلام بن حرب عن غطيف بن أعين عن مصعب ابن سعد عن عدي بن حاتم رضي الله عنه، وقال الترمذي: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث».

(٧) في د: «ونبذوا».

يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿أَن يُطْفِئُوا﴾[(١)] ﴿نُورَ اللَّهِ﴾ أي: ما بعث به رسوله من الهدى ودين الحق، بمجرد جدالهم وافترائهم، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس، أو نور القمر بنفخه، وهذا لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل الله به رسوله لا بد أن يتم ويظهر؛ ولهذا قال تعالى مقابلا لهم فيما راموه وأرادوه: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

والكافر: هو الذي يستر الشيء ويغطيه، ومنه سمي الليل «كافرا»؛ لأنه يستر الأشياء، والزارع كافرا؛ لأنه يغطي الحَبَّ في الأرض كما قال: ﴿أَعْجَبَ﴾[(٢)] ﴿الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد: ٢٠].

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾: فالهدى: هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة، والإيمان الصحيح، والعلم النافع ـ ودين الحق: هي الأعمال [الصالحة][(٣)] الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة.

﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله زَوَى لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زُوِي لي منها»[(٤)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن محمد بن أبي يعقوب: سمعت شقيق بن حيان يحدث عن مسعود بن قَبِيصة ـ أو: قبيصة بن مسعود ـ يقول: صلى هذا الحي من «مُحَارِب» الصبح، فلما صلوا قال شاب منهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها، وإن عمالها في النار، إلا من اتقى الله وأدى الأمانة»[(٥)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثنا سليم بن عامر، عن تميم الداري، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغن هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهار، ولا يترك الله بيت مَدَر ولا وَبَر إلا أدخله هذا الدين، بعزّ عَزِيز، أو بِذُلّ ذليل، عزا يعز الله به الإسلام، وذلا يذل الله به الكفر»، فكان تميم الداري يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخيرَ والشرفَ والعزَّ، ولقد أصاب من كان منهم كافرا الذل والصغار والجزية[(٦)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثني ابن جابر، سمعت سليم بن عامر قال: سمعت المقداد بن الأسود يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على وجه الأرض بيت مَدَر ولا وَبَر، إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعزّ عزيز، أو بذلّ ذليل، إما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها، وإما يذلهم فيدينون لها»[(٧)].

---

(١) في ت، أ: «ليطفئوا» وهو خطأ.　　(٢) في جميع النسخ: «يعجب» والصواب ما أثبتناه.　　(٣) زيادة من ك.

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٨٨٩) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٥) المسند (٥/ ٣٦٦).

(٦) المسند (٤/ ١٠٣) وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٤): «رجال أحمد رجال الصحيح».

(٧) المسند (٦/ ٤) ورواه ابن حبان في صحيحه برقم (١٦٣١) «موارد» من طريق عبد الرحمن بن إبراهيم عن الوليد بن مسلم به.

وفي المسند أيضا: حدثنا محمد بن أبي عَدِيّ، عن ابن عون، عن ابن سيرين، عن أبي حذيفة، عن عدي بن حاتم سمعه[1] يقول: دخلت على رسول الله ﷺ فقال: «يا عدي، أسلم تسلم». فقلت: إني من أهل دين. قال: «أنا أعلم بدينك منك». فقلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: «نعم، ألست من الركُوسيَّة، وأنت تأكل مرباع قومك؟». قلت: بلى. قال: «فإن هذا لا يحل لك في دينك». قال: فلم يَعْدُ أن قالها فتواضعت لها، قال: «أما إني أعلم ما الذي يمنعك من الإسلام، تقول: إنما اتبعه ضَعَفَةُ الناس ومن لا قوة له، وقد رَمَتْهُم العرب، أتعرف الحيرة؟» قلت: لم أرها، وقد سمعت بها. قال: «فوالذي نفسي بيده، ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظَّعينة من الحيرة، حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولتفتحن[2] كنوز كسرى بن هرمز». قلت: كسرى بن هرمز؟. قال: «نعم، كسرى بن هرمز، وليُبْذَلَنَّ المال حتى لا يقبله أحد». قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة، فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده، لتكونن الثالثة؛ لأن رسول الله ﷺ قد قالها[3].

وقال مسلم: حدثنا أبو معن زيد بن يزيد الرَّقَاشِيّ، حدثنا خالد بن الحارث، حدثنا عبد الحميد ابن جعفر، عن الأسود بن العلاء، عن أبي سلمة، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تُعْبَد اللاتُ والعُزّى». فقلت: يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أنزل الله، عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾، إلى قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ أن ذلك تام، قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، عز وجل، ثم يبعث الله ريحا طيبة [فيتوفى كلّ من كان في قلبه مثقال حبَّة خردل من إيمان][4] فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم»[5].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)﴾.

قال السدي: الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى.

وهو كما قال، فإن الأحبار هم علماء اليهود، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن

---

(١) في ت، أ: «سمعته». (٢) في ت، أ: «وليفتحن».

(٣) المسند (٤/ ٣٧٧، ٣٧٨) وكان الحافظ اختصره هنا.

(٤) زيادة من ت، ك، أ، ومسلم.

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٩٠٧).

قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ [المائدة: ٦٣]، والرهبان: عباد النصارى، والقسيسون: علماؤهم، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

والمقصود: التحذير من علماء السوء وعُبَّاد الضلال[١]، كما قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا كان فيه شبه من النصارى. وفي الحديث الصحيح: «لتركبنّ سَنَن من كان قبلكم حَذْو القُذَّة بالقُذَّة». قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟». وفي رواية: فارس والروم؟ قال: «ومَن[٢] الناس إلا هؤلاء؟»[٣].

والحاصل التحذير من التشبه بهم في أحوالهم وأقوالهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾، وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم في الناس، يأكلون أموالهم بذلك، كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف، ولهم عندهم خَرْج وهدايا وضرائب تجيء إليهم، فلما بعث الله رسوله، صلوات الله وسلامه عليه[٤]، استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم، طمعا منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات، فأطفأها الله بنور النبوة، وسلبهم إياها، وعوضهم بالذلة والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله.

وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق، ويَلْبِسون الحق بالباطل، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير، وليسوا كما يزعمون، بل هم دعاة إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس، فإن الناس عالة على العلماء، وعلى العُبَّاد، وعلى أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال هؤلاء، فسدت أحوال الناس، كما قال بعضهم[٥]:

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلاَّ المُلُوكُ وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا؟

وأما الكنز فقال مالك، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أنه قال: هو المال الذي لا تؤدى منه الزكاة.

وروى الثوري وغيره عن عُبَيد الله[٦]، عن نافع، عن ابن عمر قال: ما أُدِّي زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وما[٧] كان ظاهرا لا تؤدى زكاته فهو كنز[٨]. وقد رُوي هذا عن ابن

---

(١) في ت، د، ك، أ: «الضلالة».
(٢) في ت، د، أ: «فمن».
(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم (٣٤٥٦) ومسلم في صحيحه برقم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
(٤) في د: «ﷺ».
(٥) هو عبد الله بن المبارك رحمه الله.
(٦) في أ: «عبد الله».
(٧) في ت، أ: «وإن».
(٨) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٤/٨٢) من طريق سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر مرفوعاً وقال: «ليس هذا بمحفوظ، وإنما المشهور عن سفيان عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر موقوفاً».

عباس، وجابر، وأبي هريرة موقوفا ومرفوعا[١]، وعمر بن الخطاب، نحوه، رضي الله عنهم: "أيما مال أديت زكاته فليس بكنز، وإن كان مدفونا في الأرض، وأيما مال لم تؤد زكاته فهو كنز يكوى به صاحبه وإن كان على وجه الأرض".

وروى البخاري من حديث الزهري، عن خالد بن أسلم قال: خرجنا مع عبد الله بن عمر، فقال: هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما نزلت جعلها الله طُهراً للأموال[٢].

وكذا قال عمر بن عبد العزيز، وعِراك بن مالك: نسخها قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقال سعيد بن محمد بن زياد، عن أبي أمامة أنه قال: حلية السيوف من الكنز، ما أحدثكم إلا ما سمعت.

وقال الثوري، عن أبي حصين، عن أبي الضُّحَى، عن جَعْدَة بن هُبَيْرَة، عن علي، رضي الله عنه، قال: أربعة آلاف فما دونها نفقة، فما كان أكثر منه[٣] فهو كنز.

وهذا غريب. وقد جاء في مدح التقلل من الذهب والفضة وذم التكثر[٤] منهما، أحاديث كثيرة؛ ولنورد منها هنا طرفا يدل على الباقي، فقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، أخبرني أبو حصين، عن أبي الضحى، عن جَعْدة بن هبيرة، عن علي، رضي الله عنه، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال النبي ﷺ: "تبًا للذهب، تبًا للفضة" يقولها ثلاثا، قال: فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: فأيّ مال نتخذ؟ فقال: عمر، رضي الله عنه: أنا أعلم لكم ذلك فقال: يا رسول الله، إن أصحابك قد شق عليهم [و][٥] قالوا: فأيَّ مال نتخذ؟ قال: "لسانا ذاكرا، وقلبا شاكرا[٦]، وزوجة تعين أحدكم على دينه"[٧].

**حديث آخر:** قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، حدثني سالم، حدثني عبد الله بن أبي الهُذَيل، حدثني صاحب لي أن رسول الله ﷺ قال: "تبا للذهب والفضة". قال: فحدثني صاحبي أنه انطلق مع عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، قولك: "تبا للذهب والفضة"، ماذا ندخر؟. قال رسول الله ﷺ: "لسانا ذاكرا، وقلبا شاكرا، وزوجة تُعين على الآخرة"[٨].

---

(١) أما حديث ابن عباس، فرواه الطبري في تفسيره (١٤/ ٢٢٥) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس موقوفا، وأما حديث جابر، فرواه ابن عدي في الكامل (٧/ ١٨٩) من طريق يحيى بن أبي أنيسة عن أبي الزبير عن جابر مرفوعا، ورواه الخطيب في تاريخ بغداد (٨/ ٤٢) من طريق خصيف عن أبي الزبير عن جابر مرفوعا، وأما حديث أبي هريرة، فرواه الترمذي في السنن برقم (٦١٨) قال العراقي: "إسناده جيد".

(٢) صحيح البخاري برقم (١٤٠٤).

(٣) في ت، ك، أ: "أكثر من ذلك".

(٤) في ت: "التكثير".

(٥) زيادة من ت، ك، أ.

(٦) في أ: "ذكرا".

(٧) ذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٧١) وعزاه لعبد الرزاق في تفسيره بعد أن ذكر من حديث ثوبان وعمر، ثم قال: "والحاصل أنه حديث ضعيف لما فيه من الاضطراب".

(٨) المسند (٥/ ٣٦٦).

حديث آخر: قال[1] الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا عبد الله بن عمرو بن مرة، عن أبيه، عن سالم بن أبي الجعد، عن ثوبان قال: لما نزل في الفضة والذهب[2] ما نزل قالوا: فأي المال نتخذ؟ قال [عمر: أنا أعلم ذلك لكم فأوضع[3] على بعير فأدركه، وأنا في أثره، فقال: يا رسول الله، أي المال نتخذ؟ قال][4]: «ليتخذ أحدكم قلبا شاكرا ولسانا ذاكرا وزوجة تعين أحدكم في[5] أمر الآخرة».

ورواه الترمذي، وابن ماجة، من غير وجه، عن سالم بن أبي الجعد[6]. وقال الترمذي: حسن، وحكي عن البخاري أن سالما لم يسمعه من ثوبان.

قلت: ولهذا رواه بعضهم عنه مرسلا، والله أعلم.

حديث آخر: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حميد بن مالك، حدثنا يحيى بن يعلى المحاربي، حدثنا أبي، حدثنا غَيْلان بن جامع المحاربي، عن عثمان أبي اليقظان، عن جعفر بن إياس، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ الآية، كَبُر ذلك على المسلمين، وقالوا: ما يستطيع أحد منا أن يترك لولده ما لا يبقى بعده. فقال عمر: أنا أفرِّج عنكم. فانطلق عمر واتبعه ثوبان، فأتى النبيَّ ﷺ فقال: يا نبي الله، إنه قد كَبُر على أصحابك هذه الآية. فقال نبيُّ الله ﷺ: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم، وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم». قال: فكبَّر عمر، ثم قال له النبي ﷺ: «ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته».

ورواه أبو داود، والحاكم في مستدركه، وابن مردويه من حديث يحيى بن يعلى، به[7]. وقال الحاكم: صحيح على شرطهما، ولم يخرجاه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا الأوزاعي، عن حسان بن عطية قال: كان شداد بن أوس، رضي الله عنه، في سفر، فنزل منزلا، فقال لغلامه: ائتنا بالشَّفْرَة نَعْبَث بها. فأنكرت عليه، فقال: ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخْطِمُها وأزمُّها غير كلمتي هذه، فلا تحفظونها[8] علي، واحفظوا ما أقول لكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا هؤلاء الكلمات: اللهم، إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وأسألك حسن عبادتك، وأسألك قلبا سليما، وأسألك لسانا صادقا، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب»[9].

---

(١) في ت، ك: «وقال».
(٢) في ت، ك: «في الذهب والفضة».
(٣) في ت، ك: «أعلم لكم ذلك قال: فأوضع».
(٤) زيادة من ت، د، ك، أ والمسند.
(٥) في ت، د، ك، أ: «على».
(٦) المسند (٥/ ٢٨٢) وسنن الترمذي برقم (٣٠٩٤) وسنن ابن ماجه برقم (١٨٥٦).
(٧) سنن أبي داود برقم (١٦٦٤) والمستدرك (٢/ ٣٣٣) قال الذهبي: «وعثمان لا أعرفه والخبر عجيب».
(٨) في ت، د، ك، أ: «تحفظوها».
(٩) المسند (٤/ ١٢٣).

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أى: يقال لهم هذا الكلام تبكيتا وتقريعا وتهكما، كما فى قوله: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ. ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٨، ٤٩] أى: هذا بذاك، وهو[١] الذى كنتم تكنزون لأنفسكم؛ ولهذا يقال: من أحب شيئاً وقدمه على طاعة الله، عُذب به. وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم، عذبوا بها، كما كان أبو لهب، لعنه الله، جاهدًا فى عداوة الرسول، صلوات الله [وسلامه][٢] عليه[٣]، وامرأته تعينه فى ذلك، كانت يوم القيامة عونًا على عذابه أيضا ﴿فِي جِيدِهَا﴾ أى: [فى][٤] عنقها ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ٥] أى: تجمع من الحطب فى النار وتلقى عليه، ليكون ذلك أبلغ فى عذابه ممن هو أشفق عليه ـ كان ـ فى الدنيا، كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأشياء على أربابها، كانت أضر الأشياء عليهم فى الدار الآخرة، فيحمى عليها فى نار جهنم، وناهيك بحرها، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم.

قال سفيان، عن الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود: والله الذى لا إله غيره، لا يكوى عبد بكنز، فيمس دينار ديناراً، ولا درهم درهما، ولكن يوسَّع جلده، فيوضع كل دينار ودرهم على حدته[٥] [٦].

وقد رواه ابن مردُويه، عن أبى هريرة مرفوعا، ولا يصح رفعه، والله أعلم.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن ابن طاوس، عن أبيه قال: بلغنى أن الكنز يتحول يوم القيامة شجاعا يتبع صاحبه، وهو يفر منه ويقول: أنا كنزك! لا يدرك منه شيئا إلا أخذه.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن سالم ابن أبى الجَعْد، عن مَعْدَان بن أبى طلحة، عن ثَوْبان أن نبى[٧] الله ﷺ كان يقول: «من ترك بعده كنزا مَثَل له يوم القيامة شُجاعاً أقرع له زبيبتَان، يتبعه، يقول: ويلك ما أنت؟ فيقول: أنا كنزك الذى تركته[٨] بعدك! ولا يزال يتبعه حتى يُلقمه يده فَيُقَصْقِصَهَا[٩] ثم يتبعه سائر جسده».

ورواه ابن حبان فى صحيحه، من حديث يزيد، عن سعيد به[١٠]. وأصل هذا الحديث فى الصحيحين من رواية أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة رضى، الله عنه[١١].

---

(١) فى ت، د، ك: «وهذا». (٢) زيادة من أ. (٣) فى د، ك: «ﷺ».
(٤) زيادة من ك. (٥) فى أ: «جلده».
(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/ ٢٢٣) من طريق سفيان به.
(٧) فى د: «رسول». (٨) فى أ: «كنزته». (٩) فى د، أ: «فيقضمها».
(١٠) تفسير الطبرى (١٤/ ٢٣٢) وصحيح ابن حبان برقم (٣٠٨) «موارد» ورواه ابن خزيمة فى صحيحه برقم (٢٢٥٥) من طريق بشر ابن معاذ به.
(١١) صحيح البخارى برقم (٤٦٥٩) ولم أعثر عليه فى صحيح مسلم من هذا الطريق.

وفي صحيح مسلم، من حديث سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل[1] يوم القيامة صفائح من نار يكوى[2] بها جنبه وجبهته وظهره، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضي بين الناس، ثم يُرَى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» وذكر تمام الحديث[3].

وقال البخاري في تفسير هذه الآية: حدثنا قتيبة، حدثنا جرير، عن حُصَيْن، عن زيد بن وهب قال: مررت على أبي ذر بالرَّبَذة، فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض، قال[4]: كنا بالشام، فقرأت: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فقال معاوية: ما هذه فينا[5]، ما هذه إلا في أهل الكتاب. قال: قلت: إنها لفينا وفيهم[6].

ورواه ابن جرير من حديث عبثر بن القاسم، عن حصين، عن زيد بن وهب، عن أبي ذر، رضي الله عنه، فذكره وزاد: فارتفع في ذلك بيني وبينه القول، فكتب إلى عثمان يشكوني، فكتب إليَّ عثمان أن أقبل إليه، قال: فأقبلت، فلما قدمت المدينة ركبني[7] الناس كأنهم لم يروني قبل يومئذ، فشكوت ذلك إلى عثمان، فقال لي: تَنَحَّ قريبا. قلت: والله لن أدع ما كنت أقول[8].

قلت: كان من مذهب أبي ذر، رضي الله عنه، تحريم ادخار ما زاد على نفقة العيال، وكان يفتي [الناس][9] بذلك، ويحثهم عليه، ويأمرهم به، ويغلظ في خلافه. فنهاه معاوية فلم ينته، فخشي أن يضر بالناس في هذا، فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان، وأن يأخذه إليه، فاستقدمه عثمان إلى المدينة، وأنزله بالربذة وحده، وبها مات، رضي الله عنه، في خلافة عثمان. وقد اختبره معاوية، رضي الله عنه[10]، وهو عنده، هل يوافق عمله قوله؟ فبعث إليه بألف دينار، ففرقها من يومه، ثم بعث إليه الذي أتاه بها فقال: إن معاوية إنما بعثني إلى غيرك فأخطأت، فهات الذهب! فقال: ويحك! إنها خرجت، ولكن إذا جاء مالي حاسبناك[11] به.

وهكذا روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أنها عامة.

وقال السدي: هي في أهل القبلة.

وقال الأحنف بن قيس: قدمت المدينة، فبينا أنا في حلقة فيها مَلأ من قريش، إذ جاء رجل أخشن الثياب، أخشن الجسَد، أخشن الوجه، فقام عليهم فقال: بشر الكانزين برَضْف يحمى عليه في

---

(١) في د: «جعل له».　　(٢) في ت: «فتكوى»، وفي د، أ: «فيكوى».

(٣) صحيح مسلم برقم (٩٨٧).

(٤) في ت، د، ك، أ: «فقال».　　(٥) في ت، د، ك: «ما هذا».

(٦) صحيح البخاري برقم (٤٦٦٠).

(٧) في ت: «ولقيني».

(٨) تفسير الطبري (١٤/ ٢٢٧).

(٩) زيادة من أ.　　(١٠) زيادة من أ: «فتهماه».　　(١١) في ت، أ: «حاسبناه».

نار جهنم، فيوضع على حَلَمة ثَدْى أحدهم حتى يخرج من نُغْضِ كتفه، ويوضع على نُغْضِ كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه يتزلزل ـ قال: فوضع القوم رؤوسهم، فما رأيت أحدا منهم رَجَعَ إليه شيئا ـ قال: وأدبر فاتبعته حتى جلس إلى سارية، فقلت: ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم. فقال: إن هؤلاء لا يعلمون شيئا.

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر: «ما يسرني أن عندي مثل أحد ذهبا يمر عليه ثالثة وعندي منه شيء، إلا دينار أرصده لدين»[١].

فهذا ـ والله أعلم ـ هو الذي حدا أبا ذر على القول بهذا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن سعيد بن أبي الحسن، عن عبد الله بن الصامت، رضي الله عنه، أنه كان مع أبي ذَرّ، فخرج عطاؤه ومعه جارية له، فجعلت تقضي حوائجه، ففضلت معها سبعة، فأمرها أن تشترى به فلوسا. قال: قلت: لو ادخرته للحاجة تَنُوبك وللضيف ينزل بك! قال: إن خليلي عهد إليَّ أنْ أيما ذهب أو فضة أوكِي[٢] عليه، فهو جمر على صاحبه، حتى يفرغه في سبيل الله، عز وجل[٣].

ورواه عن يزيد، عن همام، به وزاد: إفراغا[٤].

وقال الحافظ ابن عساكر بسنده إلى أبي بكر الشبلي في ترجمته، عن محمد بن مهدي: حدثنا عمرو بن أبي سلمة، عن صدقة بن عبد الله، عن طلحة بن زيد، عن أبي فَرْوَة الرّهاوي، عن عطاء، عن أبي سعيد، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الق الله فقيراً ولا تلقه غنيا». قال: يارسول الله، كيف لي بذلك؟ قال: «ماسئِلتَ فلا تمنع، وما رُزِقْت فلا تَخْبَأ»، قال: يارسول الله، كيف لي بذلك؟ قال رسول الله ﷺ: «هو ذاك وإلا فالنار» [٥]، إسناده ضعيف.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا عتيبة، عن بريد بن أصرم[٦] قال: سمعت علياً، رضي الله عنه، يقول: مات رجل من أهل الصُّفَّة، وترك دينارين ـ أو: درهمين ـ فقال رسول الله ﷺ: «كيَّتان، صلوا على صاحبكم»[٧].

---

(١) صحيح البخاري برقم (٦٤٤٤).

(٢) في أ: «أيما ذهباً وفضة أوكى».

(٣) المسند (٥/١٥٦).

(٤) المسند (٥/١٧٥) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/٢٤٠): «رجاله رجال الصحيح».

(٥) انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٨/١٦٨) ورواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٤/٣٩٠) في ترجمة الشبلي من طريق محمد بن مهدي المصري به.

(٦) في جميع النسخ: «عيينة عن يزيد بن الصرم» والتصويب من المسند.

(٧) المسند (١/١٠١).

وقد روى هذا من طرف آخر[١].

وقال قتادة، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن أبي أمامة صُدَى بن عَجْلان قال: مات رجل من أهل الصُّفَّة، فوجد في مئزره دينار، فقال رسول الله ﷺ: «كية». ثم تُوفي رجل آخر فوجد في مئزره ديناران، فقال رسول الله ﷺ: «كيتان»[٢].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم الفراديسي، حدثنا معاوية ابن يحيى الأطرابلسي، حدثني أرطاة، حدثني أبو عامر الهَوْزَني، سمعت ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: ما من رجل يموت وعنده أحمر أو أبيض، إلا جعل الله بكل قيراط صفحة من نار يكوى بها من قدمه إلى ذقنه.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمود بن خِدَاش، حدثنا سيف بن محمد الثوري، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يوضع الدينار على الدينار، ولا الدرهم على الدرهم، ولكن يُوَسَّع جلده فيكوى[٣] بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون»[٤]. سيف ـ هذا ـ كذاب، متروك.

**﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) ﴾.**

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، أخبرنا أيوب، أخبرنا محمد بن سيرين، عن أبي بكْرة، أن النبي ﷺ خطب في حجته، فقال: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة [حرم، ثلاثة][٥] متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مُضَر الذي بين جُمَادى وشعبان». ثم قال: «أي يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى. ثم قال: «أي شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى. ثم قال: «أي بلد هذا؟». قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه،

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١/ ١٣٧، ١٣٨) من طريق قطن بن نسير ومحمد بن عبيد وحبان بن هلال كلهم عن جعفر بن سليمان به نحوه، وجاء من حديث عبد الله بن مسعود رواه أحمد في مسنده (١/ ٤١٢)، وجاء من حديث سلمة بن الأكوع رواه أحمد في مسنده (٤/ ٤٧) من حديث طويل، وجاء من حديث أبي هريرة رواه أحمد في مسنده (٢/ ٤٢٩).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٥/ ٢٥٣) والطبري في تفسيره (١٤/ ٢٢٢) من طريق قتادة به.

(٣) في ت: «فتكوى».

(٤) ورواه ابن مردويه كما في الدر المنثور للسيوطي (٤/ ١٧٩).

(٥) زيادة من ت، ك، أ، والمسند.

قال: «أليست البلدة؟» قلنا: بلى. قال: «فإن دماءكم وأموالكم ـ قال: وأحسبه قال: وأعراضكم ـ عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم،ألا لا ترجعوا بعدى ضُلاَّلا يضرب بعضكم رقاب بعض،، ألا هل بلغت؟ ألا ليبلغ الشاهدُ الغائب منكم، فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من يسمعه[(١)]»[(٢)].

ورواه البخارى فى التفسير وغيره، ومسلم من حديث أيوب، عن محمد ـ وهو ابن سيرين ـ عن عبد الرحمن ابن أبى بكْرَة، عن أبيه، به[(٣)].

وقد قال ابن جرير: حدثنا محمد بن مَعْمَر، حدثنا روح، حدثنا أشعث، عن محمد بن سيرين، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات، ورجب مضر بين جمادى وشعبان»[(٤)].

ورواه البزَّار، عن محمد بن معمر، به[(٥)]. ثم قال: لا يروى عن أبى هريرة إلا من هذا الوجه، وقد رواه ابن عَوْن وقُرَّة، عن ابن سيرين، عن عبد الرحمن بن أبى بكرة، عن أبيه، به.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنى موسى بن عبد الرحمن المسروقى، حدثنا زيد بن حُبَاب، حدثنا موسى بن عبيدة الربذَى، حدثنى صدقة بن يسار، عن ابن عمر قال: خطب رسول الله ﷺ فى حجة الوداع بمنى فى أوسط أيام التشريق فقال: «أيها الناس، إن الزمان قد استدار، فهو اليوم كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، أولهن رَجَبُ مضر بين جمادى وشعبان، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم»[(٦)].

وروى ابن مَرْدُويه من حديث موسى بن عُبَيْدَة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمرو، مثله أو نحوه.

وقال حماد بن سلمة: حدثنى على بن زيد، عن أبى حُرَّة[(٧)]: حدثنى الرَّقاشى، عن عمه ـ وكانت له صحبة ـ قال: كنت آخذاً بزمام ناقة رسول الله ﷺ فى أوسط أيام التشريق، أذود الناس عنه، فقال رسول الله ﷺ: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم فلا

---

(١) فى ت، د، أ: «سمعه».

(٢) المسند (٥/ ٣٧).

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٦٢) وبرقم (٣١٩٧، ٤٤٠٦، ٧٤٤٧، ٥٥٥٠) وصحيح مسلم برقم (١٦٧٩).

(٤) تفسير الطبرى (١٤/ ٢٣٥).

(٥) فى ب، أ: «معاوية».

(٦) تفسير الطبرى (١٤/ ٢٣٤) وموسى بن عبيدة ضعيف.

(٧) فى ك، أ: «حمزة».

تظلموا فيهن أنفسكم»[1].

وقال سعيد بن منصور: حدثنا أبو معاوية، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ قال: محرم، ورجب، وذو القعدة، وذو الحجة.

وقوله ﷺ في الحديث: «إن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والارض»، تقرير منه، صلّوات الله وسلامه عليه، وتثبيت للأمر على ما جعله الله تعالى في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقص، ولا نسيء ولا تبديل، كما قال في تحريم مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة»، وهكذا قال ها هنا: «إن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض» أي: الأمر اليوم شرعاً كما ابتدأ الله ذلك في كتابه يوم خلق السموات والأرض.

وقد قال بعض المفسرين والمتكلمين على هذا الحديث: إن المراد بقوله: «قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»، أنه اتفق أن حج رسول الله ﷺ في تلك السنة في ذي الحجة، وأن العرب قد كانت نسأت النسيء، يحجون في كثير من السنين، بل أكثرها، في غير ذي الحجة، وزعموا أن حجة الصديق في سنة تسع كانت في ذي القعدة، وفي هذا نظر، كما سنبينه إذا تكلمنا على النسيء.

وأغرب منه ما رواه الطبراني، عن بعض السلف، في جملة حديث: أنه اتفق حج المسلمين واليهود والنصارى في يوم واحد، وهو يوم النحر، عام حجة الوداع، والله أعلم.

## [حاشية فصل][2]

ذكر الشيخ علم الدين السّخاوي في جزء جمعه سماه «المشهور في أسماء الأيام والشهور»: أن المحرم سمي بذلك لكونه شهراً محرماً، وعندي أنه سمي بذلك تأكيداً لتحريمه؛ لأن العرب كانت تتَقَلب به، فتحله عاماً وتحرمه عاماً. قال: ويجمع على محرمات، ومحارم، ومحاريم.

صفر: سمي بذلك لخلو بيوتهم منه، حين يخرجون للقتال والأسفار، يقال: «صَفِرَ المكان»: إذا خلا، ويجمع على أصفار كجمل وأجمال.

شهر ربيع أول: سمي بذلك لارتباعهم فيه. والارتباع الإقامة في عمارة الرَّبع، ويجمع على أربعاء كنصيب وأنصباء، وعلى أربعة، كرغيف وأرغفة.

ربيع الآخر: كالأول.

جُمادي: سمي بذلك لجمود الماء فيه. قال: وكانت الشهور في حسابهم لا تدور. وفي هذا

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٥/ ٧٢، ٧٣) من طريق حماد بن سلمة بأطول منه.

(٢) زيادة من ك، أ.

نظر؛ إذ كانت شهورهم منوطة بالأهلة، ولابد من دورانها، فلعلهم سموه بذلك، أول ما سمي عند جمود الماء في البرد، كما قال الشاعر:

وَلَيلَةٍ مِــنْ جُمَــادَى ذَاتِ أَنْدِيَــةٍ لا يُبْصِرُ العبدُ في ظَلمائهـا الطُّنُبَا

لا يَنبَحُ الكلبُ فيهـا غَيـر وَاحِدَةٍ حَتّى يَلُفَّ عَلَــى خُرْطومِــه الذَّنَبَا

ويُجمع على جُمَاديات، كحبارى وحُبَاريات، وقد يذكر ويؤنث، فيقال: جمادى الأولى والأول، وجمادى الآخر والآخرة.

رجب: من الترجيب، وهو التعظيم، ويجمع على أرجاب، ورِجَاب، ورَجَبات.

شعبان: من تشعب القبائل وتفرقها للغارة ويجمع على شَعَابين وشَعبانات[1].

رمضان: من شدة الرمضاء، وهو الحر، يقال: «رمضَت الفصال»: إذا عطشت، ويجمع على رَمَضَانات ورَمَاضين وأرْمَضة قال: وقول من قال: «إنه اسم من أسماء الله»؛ خطأ لايعرج عليه، ولا يلتفت إليه.

قلت: قد ورد فيه حديث؛ ولكنه ضعيف، وبينته في أول كتاب الصيام.

شوال: من شالت الإبل بأذنابها للطِّراق، قال: ويجمع على شواول وشَوَاويل وشوَّالات.

القعدة: بفتح القاف ـ قلت: وكسرها ـ لقعودهم فيه عن القتال والترحال، ويجمع على ذوات القعدة.

الحجة: بكسر الحاء ـ قلت: وفتحها ـ سمي بذلك لإيقاعهم الحج فيه، ويجمع على ذوات الحجة.

أسماء الأيام: أولها الأحد، ويجمع على آحاد، وأُحاد ووحود. ثم يوم الإثنين، ويجمع على أثانين. الثلاثاء: يمد، ويُذَكَّر ويؤنث، ويجمع على ثلاثاوات وأثالث. ثم الأربعاء بالمد، ويجمع على أربعاوات وأرابيع. والخميس: يجمع على أخمسة وأخامس، ثم الجمعة ـ بضم الميم، وإسكانها، وفتحها أيضا ـ ويجمع على جُمَعَ وجُمُعات.

السبت: مأخوذ من السَّبْت، وهو القطع؛ لانتهاء العدد عنده. وكانت العرب تسمي الأيام أول، ثم أهون، ثم جُبَار، ثم دبار، ثم مؤنس، ثم العروبة، ثم شيار، قال الشاعر ـ من العرب العرباء العاربة المتقدمين ـ:

أُرَجّي أن أعيشَ وأنّ يَومي بأوَلَ أو بأهــون أو جُبَار

أو التالـي دُبَار فـإن أفُتْـهُ فمؤنس أو عروبةَ أو شيَار

---

(١) في ن: «وشعابات».

وقوله تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾: فهذا مما كانت العرب أيضا فى الجاهلية[1] تحرمه، وهو الذى كان عليه جمهورهم، إلا طائفة منهم يقال لهم: «البَسْل»، كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر، تعمقا وتشديداً.

وأما قوله: «ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان»، [فإنما أضافه إلى مضر، ليبين صحة قولهم فى رجب أنه الشهر الذى بين جمادى وشعبان][2]، لا كما كانت تظنه ربيعة من أنَّ رجب المحرم هو الشهر الذى بين شعبان وشوال، وهو رمضان اليوم، فبين، عليه [الصلاة و][3] السلام، أنه رجب مضر لا رجب ربيعة. وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة، ثلاثة سَرْدٌ وواحد فرد؛ لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، فحرم قبل شهر الحج شهر، وهو ذو القعدة؛ لأنهم يقعدون فيه عن القتال، وحُرِّم شهر ذى الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون فيه بأداء المناسك، وحرم بعده شهر آخر، وهو المحرم؛ ليرجعوا فيه إلى نائى أقصى بلادهم آمنين، وحرم رجب فى وسط الحول، لأجل زيارة البيت والاعتمار به، لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب، فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمنا.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أى: هذا هو الشرع المستقيم، من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم، والحَذْو بها على ما سبق فى كتاب الله الأول.

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾أى: فى هذه الأشهر المحرمة؛ لأنه آكد وأبلغ فى الإثم من غيرها، كما أن المعاصى فى البلد الحرام تضاعف، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام؛ ولهذا تغلظ فيه الدية فى مذهب الشافعى، وطائفة كثيرة من العلماء، وكذا فى حَقِّ من قتل فى الحرم أو قتل ذا محرم.

وقال حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن يوسف بن مِهْرَان، عن ابن عباس، فى قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ قال: فى الشهور كلها.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ الآية: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾: فى كلهن، ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حراما، وعَظَّم حُرُماتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم.

وقال قتادة فى قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾: إن الظلم فى الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزرًا، من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيما، ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء. قال: إن الله اصطفى صَفَايا من خلقه، اصطفى من الملائكة رسلا، ومن الناس رسلا، واصطفى من الكلام ذكْرَه، واصطفى من الأرض المساجد، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم،

---

(١) فى ت، ك، أ: «جاهليتها».

(٢، ٣) زيادة من ت، أ.

واصطفى من الأيام يوم الجمعة، واصطفى من الليالى ليلة القدر، فَعَظِّموا ما عظم الله، فإنما تُعَظَّم الأمور [١] بما عظمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل.

وقال الثورى، عن قيس بن مسلم، عن الحسن بن محمد بن الحنفية: بألا تحرموهن كحرمتهن[٢].

وقال محمد بن إسحاق: ﴿فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أى: لا تجعلوا حرامها حلالا ولا حلالها حراما، كما فعل أهل الشرك، فإنما النسيء الذى كانوا يصنعون من ذلك، زيادة فى الكفر﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [التوبة: ٣٧].

وهذا القول اختيار ابن جرير.

وقوله: وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ أى: جميعكم[٣]، ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ أى: جميعهم، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقد اختلف العلماء فى تحريم ابتداء القتال فى الشهر الحرام: هل هو منسوخ أو محكم؟ على قولين:

أحدهما ـ وهو الأشهر: انه منسوخ؛ لأنه تعالى قال هاهنا: ﴿فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾، وأمر بقتال المشركين وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمراً عاما، فلو كان محرما ما فى الشهر الحرام لأوشك أن يقيده بانسلاخها؛ ولأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف فى شهر حرام ـ وهو ذو القعدة ـ كما ثبت فى الصحيحين: أنه خرج إلى هوازن فى شوال، فلما كسرهم واستفاء أموالهم، ورجع فَلُّهم، فلجؤوا إلى الطائف ـ عَمَد إلى الطائف فحاصرها أربعين يوما، وانصرف ولم يفتتحها[٤] فثبت أنه حاصر فى الشهر الحرام.

والقول الآخر: أن ابتداء القتال فى الشهر الحرام حرام، وأنه لم ينسخ تحريم الحرام، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [الآية][٥][المائدة: ٢]، وقال: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ الآية [البقرة: ١٩٤]، وقال: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [الآية][٦] [التوبة: ٥٠].

وقد تقدم أنها الأربعة المقررة فى كل سنة، لا أشهر التسيير على أحد القولين.

وأما قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ فيحتمل أنه منقطع عما قبله، وأنه حكم مستأنف، ويكون من باب التهييج والتحضيض، أى: كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم فاجتمعوا أنتم أيضا لهم إذا حاربتموهم، وقاتلوهم بنظير ما يفعلون، ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال

---

(١) فى ت، أ: «يعظم من الأمور». (٢) فى ت: «الحرمتهن». (٣) فى ت: «جميعهم».
(٤) فى ت: «يفتحها». (٥، ٦) زيادة من ت، ك، أ.

المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم، كما قال تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾[البقرة: ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ الآية[البقرة: ١٩١]، وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف، واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام، فإنه من [(١)] تتمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف، فإنهم هم الذين ابتدؤوا القتال، وجمعوا الرجال، ودعوا إلى الحرب والنزال، فعندها قصدهم رسول الله ﷺ كما تقدم، فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم، فنالوا من المسلمين، وقتلوا جماعة، واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريبا من أربعين يوما. وكان ابتداؤه في شهر حلال، ودخل الشهر الحرام، فاستمر فيه أياما، ثم قفل عنهم لأنه يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء، وهذا هو أمر مقرر، وله نظائر كثيرة، والله أعلم. ولنذكر الأحاديث الواردة في ذلك[(٢)] وقد حررنا ذلك في السيرة، والله أعلم[(٣)].

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)﴾.

هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله، فإنهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم وتأخيره إلى صفر، فيحلون الشهر الحرام، ويحرمون الشهر الحلال، ليواطئوا عدة الأشهر الأربعة[(٤)]، كما قال شاعرهم ـ وهو عمير بن قيس المعروف ـ بجذل الطعان:

| | |
|---|---|
| لَقَـدْ عَلِمَـتْ مَعَـدٌ أَنَّ قَوْمِـي | كِـرَامُ النَّاسِ انَّ لَهُـمْ كِراما |
| أَلَسْنَـا النَّاسِئِينَ عَلَـى مَعَـدٍ | شُهُورَ الحِلِ نَجْعَلُهَـا حَـرَامَا |
| فأيُّ النَّـاسِ لَـمْ نُدْرِكْ بِوِتْـرٍ؟ | وأيُّ النَّاسِ لم نُعْلِكْ لِجَـامَا؟[(٥)] |

---

(١) في ت، أ: «في».

(٢) كذا ولم أجد شيئا من ذلك، ووقع في هـ، ك فراغ قدر أربعة أسطر، ووصل الكلام في باقي النسخ.

(٣) في ك: «والحمد لله».

(٤) في ك، أ: «ليواطئوا عدة ما حرم الله الأشهر الأربعة».

(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٤٥).

قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس فى قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ قال: النسيء أنَّ جُنَادة بن عوف بن أمية الكناني، كان يوافى الموسم فى كل عام، وكان يكنى «أبا ثُمَامة»، فينادى: ألا إن أبا ثمامة لا يُحاب ولا يُعاب، إلا وإن صفر العام الأول حلال. فيحله للناس، فيحرم صفرا عاما، ويحرم المحرم عاما، فذلك قول الله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [إلى قوله: ﴿الْكَافِرِينَ﴾ . وقوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾] [1]، يقول: يتركون المحرم عاما، وعاما يحرمونه.

وروى العوفى عن ابن عباس نحوه.

وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، كان رجل من بنى كنانة يأتى كل عام إلى الموسم على حمار له، فيقول: يأيها الناس، إنى لا أعاب ولا أحاب، ولا مَرَدَّ لما أقول، إنا قد حَرَّمنا المحرم، وأخرنا صفر. ثم يجيء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته، ويقول: إنا قد حرمنا صفر، وأخرنا المحرم. فهو قوله: ﴿لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾، قال: يعنى الاربعة ﴿فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾، لتأخير هذا الشهر الحرام.

وروى عن أبى وائل، والضحاك، وقتادة نحو هذا.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ الآية، قال: هذا رجل من بنى كنانة يقال له: «القَلَمَّس»، وكان فى الجاهلية، وكانوا فى الجاهلية لا يُغير بعضهم على بعض فى الشهر الحرام، يلقى الرجل قاتل أبيه ولا يَمُدُّ إليه يده، فلما كان هو، قال: اخرجوا بنا. قالوا له: هذا المحرم! قال: ننسئه العام، هما العام صفران، فإذا كان العام القابل قضينا جعلناهما مُحرَّمين. قال: ففعل ذلك، فلما كان عام قابل قال: لا تغزُوا فى صفر، حرموه مع المحرم، هما محرمان.

فهذه صفة غريبة فى النسيء، وفيها نظر؛ لأنهم فى عام إنما يحرمون على هذا ثلاثة أشهر فقط، وفى العام الذى يليه يحرمون خمسة أشهر، فأين هذا من قوله تعالى: ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾؟.

وقد روى عن مجاهد صفة أخرى غريبة أيضا، فقال عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن ابن أبى نَجيح، عن مجاهد فى قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ الآية، قال: فرض الله، عز وجل، الحج فى ذى الحجة. قال: وكان المشركون يسمون الأشهر ذا الحجة، والمحرم، وصفر، وربيع، وربيع، وجمادى، وجمادى، ورجب، وشعبان، ورمضان، وشوالا[2]، وذا القعدة. وذو الحجة يحجون فيه مرة أخرى ثم يسكتون عن المحرم ولا يذكرونه، ثم يعودون فيسمون صفر صفر، ثم يسمون رجب جمادى الآخرة، ثم يسمون شعبان رمضان، ثم يسمون شوالا رمضان، ثم يسمون ذا القعدة شوالا،

---

(١) زيادة من ت، ك، أ، والطبرى. (٢) فى ، أ: «وشوال».

ثم يسمون ذا الحجة ذا القعدة، ثم يسمون المحرم ذا الحجة، فيحجون فيه، واسمه عندهم ذو[١] الحجة، ثم عادوا بمثل هذه القصة فكانوا يحجون فى كل شهر عامين، حتى وافق حجة أبى بكر الآخر من العامين فى القعدة[٢]، ثم حج النبى ﷺ حجته التى حج، فوافق ذا الحجة، فذلك حين يقول النبى ﷺ فى خطبته: «إن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض».

وهذا الذى قال مجاهد فيه نظر أيضا، وكيف تصح حجة أبى بكر وقد وقعت فى ذى القعدة، وأنى هذا؟ وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ الآية [التوبة: ٣]، وإنما نودى بذلك فى حجة أبى بكر، فلو لم تكن فى ذى الحجة لما قال تعالى: ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾، ولا يلزم من فعلهم النسىء هذا الذى ذكره، من دوران السنة عليهم، وحجهم فى كل شهر عامين؛ فإن النسىء حاصل بدون هذا، فإنهم لما كانوا يحلون شهر المحرم عاما يحرمون عوضه صفر، وبعده ربيع وربيع إلى آخر [السنة والسنة بحالها على نظامها وعدتها وأسماء شهورها ثم فى العام القابل يحرمون المحرم ويتركونه على تحريمه، وبعده صفر، وربيع وربيع إلى آخرها][٣] فيحلونه عاما ويحرمونه عاما؛ ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله، أى: فى تحريم أربعة أشهر من السنة، إلا أنهم تارة يقدمون تحريم الشهر الثالث من الثلاثة المتوالية وهو المحرم، وتارة ينسئونه إلى صفر، أى: يؤخرونه. وقد قدمنا الكلام على قوله ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر»، أى: أن الأمر فى عدة[٤] الشهور وتحريم ما هو محرم منها، على ما سبق فى كتاب الله من العدد والتوالى، لا كما يعتمده جهلة العرب، من فصلهم تحريم بعضها بالنسىء عن بعض، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا صالح بن بشر بن سلمة الطبرانى، حدثنا مكى بن إبراهيم، حدثنا موسى بن عبيدة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أنه قال: وقف رسول الله ﷺ بالعقبة، فاجتمع إليه من شاء الله من المسلمين، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل[٥]، ثم قال: «وإنما النسىء من الشيطان، زيادة فى الكفر، يضل به الذين كفروا، يحلونه عاما ويحرمونه عاما». فكانوا يحرمون المحرم عاما، ويستحلون صفر[٦]، ويستحلون المحرم، وهو النسىء[٧].

وقد تكلم الإمام محمد بن إسحاق على هذا فى كتاب «السيرة» كلامًا جيداً ومفيداً حسنا، فقال: كان أول من نسأ الشهور على العرب، فأحل منها ما حرم الله، وحرم منها ما أحل الله، عز وجل، «القَلَمَّس»، وهو: حذيفة بن عبد مُدْرِكة فُقَيم[٨] بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن

---

(١) فى ك: «ذا».
(٢) فى ك، أ: «ذى القعدة».
(٣) زيادة من ت، ك، أ.
(٤) فى ت: «عقد».
(٥) فى ت، أ: «بما هو أهله».
(٦) فى ت، ك، أ: «صفر منه».
(٧) ورواه أبو الشيخ الأصبهانى كما فى الدر المنثور (٥/ ١٨٨).
(٨) فى ت، ك، أ: «عبد بن فقيم».

كنانة بن خُزَيْمة بن مَدْرِكة بن إلياس بن مُضَر بن نزار بن مَعَدّ بن عدنان، ثم قام بعده على ذلك ابنه عَبَّاد ثم من بعد عباد ابنه قَلَعَ بن عباد، ثم ابنه أمية بن قلع، ثم ابنه عوف بن أمية، ثم ابنه أبوثمامة جُنَادة بن عوف، وكان آخرهم، وعليه قام الإسلام. فكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه، فقام فيهم خطيباً، فحرم رجبا، وذا القعدة، وذا الحجة، ويحل المحرم عاما، ويجعل مكانه صفر، ويحرمه عاما ليواطئ عدة ما حرم الله، فيحل ما حرم الله، يعنى: ويحرم ما أحل الله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)﴾.

هذا شروع فى عتاب من تخلَّف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، حين طابت الثمار والظلال فى شدة الحر وحَمَارَّة [(١)] القيظ، فقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى: إذا دعيتم إلى الجهاد فى سبيل الله ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾ أى: تكاسلتم وملتم إلى المقام فى الدعة والخفض وطيب الثمار، ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ﴾ أى: ما لكم فعلتم [(٢)] هكذا أرضاً منكم بالدنيا بدلا من الآخرة؟

ثم زهد تبارك وتعالى فى الدنيا، ورغب فى الآخرة، فقال: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾، كما قال الإمام أحمد.

حدثنا وَكيع ويحيى بن سعيد قالا: حدثنا إسماعيل بن أبى خالد، عن قيس، عن المستَوْرِد أخى بنى فِهْر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أصبعه هذه فى اليم، فلينظر بم ترجع؟[(٣)]». وأشار بالسبابة.

انفرد بإخراجه مسلم [(٤)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا بشر بن مسلم بن [(٥)] عبد الحميد الحِمْصى، حدثنا الربيع بن رَوْح، حدثنا محمد بن خالد الوهبى، حدثنا زياد ـ يعنى الجصاص ـ عن أبى عثمان قال: قلت: يا أبا هريرة، سمعت من إخوانى بالبصرة أنك تقول: سمعت نبى الله يقول: «إن الله يجزى بالحسنة ألف ألف حسنة» قال أبو هريرة: بل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يجزى بالحسنة ألفى ألف

---

(١) فى أ: «وحمارة». (٢) فى ت، ك، أ: «صنعتم».

(٣) فى أ: «يرجع».

(٤) المسند (٤/٢٢٨) وصحيح مسلم برقم (٢٨٥٨).

(٥) فى أ: «عن».

حسنة»، ثم تلا هذه الآية: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ [١] الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾[٢].

فالدنيا ما مضى منها وما بقى منها عند الله قليل.

وقال [سفيان] [٣] الثورى، عن الأعمش فى الآية: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ قال: كزاد الراكب.

وقال عبد العزيز بن أبى حازم[٤]، عن أبيه: لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاةُ قال: ائتونى بكفنى الذى أكفن فيه، أنظر إليه[٥]. فلما وضع بين يديه نَظَر إليه فقال: أمَالى من كَبير [٦]ما أخلّف من الدنيا إلا هذا؟ ثم ولى ظهره فبكى وهو يقول أفٍّ لك من دار. إن كان كثيرُك لقليل، وإن كان قليلك لقصير، وإن كنا منك لفى غرور.

ثم توعد تعالى على ترك الجهاد فقال: ﴿إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، قال ابن عباس: استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب، فتثاقلوا عنه، فأمسك الله عنهم القَطْر فكان عذابهم.

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أى: لنصرة نبيه وإقامة دينه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

﴿وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ أى: ولا تضروا الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد، ونكُولكم وتثاقلكم عنه، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾أى: قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم.

وقد قيل: إن هذه الآية، وقوله: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً﴾، وقوله: ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠] إنهن منسوخات بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٢]، روى هذا عن ابن عباس، وعكْرمة، والحسن، وزيد بن أسلم. ورده [٧]ابن جرير وقال: إنما هذا فيمن دعاهم رسول الله ﷺ إلى الجهاد، فتعين عليهم ذلك، فلو تركوه لعوقبوا عليه.

وهذا له اتجاه، والله [سبحانه و][٨] تعالى أعلم [بالصواب][٩].

﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ

(١) فى ت، ك، أ: «ما الحياة» وهو خطأ.

(٢) ورواه عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد، وابن مردويه فى تفسيره كما فى الدر المنثور (٥/ ١٩٣).

(٣) زيادة من ت، ك، أ.

(٤) فى أ: «حاتم».

(٥) فى ت: «فيه».

(٦) فى ت، ك، أ: «كثير».

(٧) فى أ: «ورواه».

(٨، ٩) زيادة من ت، أ.

الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ ﴾ أي: تنصروا رسوله، فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه، كما تولى نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ [إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ][1]﴾ أي: عام الهجرة، لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه، فخرج منهم هارباً صحبة صدِّيقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطَّلَبُ الذين خرجوا في آثارهم، ثم يسيرا نحو المدينة، فجعل أبوبكر، رضي الله عنه، يجزع أن يَطَّلع عليهم أحد، فيخلص إلى الرسول، عليه السلام[2]، منهم أذى، فجعل النبي ﷺ يُسكِّنه ويُثبِّتُهُ ويقول: «يا أبا بكر، ماظنك باثنين الله ثالثهما»، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا عفان، حدثنا همام، أنبأنا ثابت، عن أنس أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي ﷺ، ونحن في الغار: لو أن أحدهم [3] نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. قال: فقال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما»

أخرجاه في الصحيحين[4].

ولهذا قال تعالى: ﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾ أي: تأييده ونصره عليه، أي: على الرسول في أشهر القولين: وقيل: على أبي بكر، وروُي عن ابن عباس وغيره، قالوا: لأن الرسول لم تزل معه سكينة، وهذا لا ينافي تجدد سكينة خاصة بتلك الحال؛ ولهذا قال: ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ أي: الملائكة، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾.

قال ابن عباس: يعني ﴿كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: الشرك و﴿كَلِمَةُ اللَّهِ﴾ هي: لا إله إلا الله.

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حَمِيَّة، ويقاتل رياء، أيّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[5].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: في انتقامه وانتصاره، منيع الجناب، لا يُضام من لاذ ببابه، واحتمى بالتمسك بخطابه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله.

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) ﴾.

قال سفيان الثوري، عن أبيه، عن أبي الضحى مسلم بن صَبيح: هذه الآية: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً﴾

---

(١) زيادة من ك. (٢) في ك: «رسول الله ﷺ». (٣) في ت: «أحداً».

(٤) المسند (١/٤) وصحيح البخاري برقم (٣٦٥٣) وصحيح مسلم برقم (٢٣٨١).

(٥) صحيح البخاري برقم (٢٨١٠) وصحيح مسلم برقم (١٩٠٤).

أول ما نزل من سورة براءة.

وقال معتمر بن سليمان، عن أبيه قال: زعم حَضْرَمى أنه ذكر له أن ناساً كانوا عسى أن يكون أحدهم عليلا أو كبيراً، فيقول: إنى لا آثم، فأنزل الله: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا﴾ الآية.

أمر الله تعالى بالنفير العام مع الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، عام غزوة تبوك، لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وحتّم على المؤمنين فى الخروج معه على كل حال فى المَنْشَط والمَكْرَه والعسر واليسر، فقال: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا﴾.

وقال على بن زيد، عن أنس، عن أبى طلحة: كهولا وشبابا[1]، ما أسمع الله عَذَر أحداً، ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قُتل.

وفى رواية: قرأ[2] أبو طلحة سورة براءة، فأتى على هذه الآية: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فقال: أرى ربنا يستنفرنا شيوخاً وشبابا[3]، جهزونى يا بنىَّ. فقال بنوه: يرحمك الله، قد غزوت مع رسول الله حتى مات، ومع أبى بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك. فأبى، فركب البحر فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفنوه فيها إلا بعد تسعة أيام، فلم يتغير، فدفنوه بها[4].

وهكذا روى عن ابن عباس، وعِكْرِمة وأبى صالح، والحسن البصرى، وشَمْر بن عطية، ومقاتل ابن حيَّان، والشعبى وزيد بن أسلم: أنهم قالوا فى تفسير هذه الآية: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا﴾ قالوا: كهولا وشبابا[5]. وكذا قال عكرمة والضحاك، ومقاتل بن حيان، وغير واحد.

وقال مجاهد: شبابا [6] وشيوخا، وأغنياء ومساكين. كذا قال أبو صالح، وغيره.

وقال الحكم بن عُتيبة: مشاغيل وغير مشاغيل.

وقال العوفى، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا﴾ يقول: انفروا نشاطا وغير نشاط. وكذا قال قتادة.

وقال ابن أبى نَجيح، عن مُجاهد: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا﴾ قالوا: فإن فينا الثقيل، وذا الحاجة، والضيعة [7]والشغل، والمتيسر به أمر، فأنزل الله وأبى أن يعذرهم دون أن ينفروا خفافا وثقالا وعلى ما كان منهم.

---

(١) فى أ: «وشبابا».
(٢) فى ت، أ: «وهو فى رواية أنه قال: ».
(٣) فى أ: «وشبابا».
(٤) فى ت، ك: «فيها».
(٥) فى ت، ك، أ: «وشبابا».
(٦) فى أ: «شبابا».
(٧) فى ت: «والصنعة».

وقال الحسن بن أبي الحسن البصري أيضاً: في العسر واليسر. وهذا كله من مقتضيات العموم في الآية، وهذا اختيار ابن جرير.

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي: إذا كان النفير إلى دُروب الروم نفرَ الناس إليها خفافا وركبانا، وإذا كان النفير إلى هذه السواحل نفروا إليها خفافا وثقالا، ركبانا ومشاة. وهذا تفصيل في المسألة.

وقد روي عن ابن عباس، ومحمد بن كعب، وعطاء الخراساني وغيرهم أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله.

وقال السدي قوله: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً﴾ يقول: غنيا وفقيرا، وقويا وضعيفاً فجاءه رجل يومئذ، زعموا أنه المقداد، وكان عظيما سميناً، فشكا إليه وسأله أن يأذن له، فأبى فنزلت يومئذ[1]: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً﴾، فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس شأنها فنسخها الله، فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١].

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا أيوب، عن محمد قال: شهد أبو أيوب مع رسول الله ﷺ بدرا ثم لم يتخلف عن غَزاة للمسلمين إلا وهو في آخرين إلا عاما واحداً قال: وكان أبو أيوب يقول: قال الله: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً﴾، فلا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلا[2].

وقال ابن جرير: حدثني سعيد بن عمرو السَّكُوني، حدثنا بَقِيَّة، حدثنا حَرِيز، حدثني عبدالرحمن بن ميسرة، حدثني أبو راشد الحُبْراني قال: وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله ﷺ جالسا على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص، وقد فضل عنها من عظَمه، يريد الغزو، فقلت له: لقد أعذر الله إليك فقال: أتت علينا سورة «البحوث[3]»: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً﴾[4].

وبه قال حريز: حدثني حبان بن زيد الشَّرْعَبِي قال: نَفَرنا مع صفوان بن عمرو، وكان والياً على حمص قِبَلَ الأفسُوس، إلى الجراجمة فلقيت شيخاً كَبِيرًا هِمًّا، وقد سقط حاجباه على عينيه، من أهل دمشق، على راحلته، فيمن أغار. فأقبلت إليه[5] فقلت: يا عم، لقد أعذر الله إليك. قال: فرفع حاجبيه[6] فقال: يا بن أخي، استنفرنا الله خفافا وثقالا، إنه من يحبه الله يبتليه، ثم يعيده الله فيبقيه[7]. وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر، ولم يعبد إلا الله، عز وجل[8].

---

(١) في أ: «فنزلت هذه الآية».

(٢) تفسير الطبري (١٤/ ٢٦٧).

(٣) في هـ، ت، د: «البعوث» والمثبت من الطبري.

(٤) تفسير الطبري (١٤/ ٢٦٨).

(٥) في ت، أ: «عليه». (٦) في ت: «حاجبه». (٧) في أ: «فيقتنيه».

(٨) رواه الطبري في تفسيره (١٤/ ٢٦٤).

ثم رغب تعالى فى النفقة فى سبيله، وبذل المهج فى مرضاته ومرضاة رسوله، فقال: ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى: هذا خير لكم فى الدنيا والآخرة، ولأنكم تغرمون فى النفقة قليلا، فيغنيكم الله أموال عدوكم فى الدنيا، مع ما يدخر لكم من الكرامة فى الآخرة، كما قال النبى ﷺ: «وتكفَّل الله للمجاهد [١] فى سبيله إن [٢] توفاه أن يدخله الجنة، أو يرده إلى منزله نائلا ما نال من أجر أو غنيمة»[٣].

ولهذا قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ومن هذا القبيل ما رواه الإمام أحمد:

حدثنا محمد ابن أبى عَدِىّ، عن حميد، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «أسلم». قال: أجدنى كارهاً. قال: «أسلم وإن كنت كارهاً»[٤].

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) ﴾.

يقول تعالى موبّخاً للذين تخلفوا عن النبى[٥] ﷺ فى غزوة تبوك، وقعدوا عن النبى ﷺ بعد ما استأذنوه فى ذلك، مظهرين أنهم ذوو أعذار، ولم يكونوا كذلك، فقال: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ قال ابن عباس: غنيمة قريبة، ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أى: قريباً أيضاً، ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ أى: لكانوا جاؤوا معك لذلك، ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ أى: المسافة إلى الشام، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ أى: لكم إذا رجعتم إليهم ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أى: لو لم تكن لنا أعذار لخرجنا معكم، قال الله تعالى: ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) ﴾.

---

(١) فى ت: «للمجاهدين». (٢) فى ت: «بأن».

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٤٦٣) ومسلم فى صحيحه برقم (١٨٧٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٤) المسند (٣/١٠٩).

(٥) فى أ: «رسول الله».

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو حصين بن [يحيى بن][1] سليمان الرازي[2]، حدثنا سفيان بن عيينة، عن مسعَر[3]، عن عون قال: هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ بَدأ بالعفو قبل المعاتبة فقال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾. وكذا قال مُوَرِّق العجلي وغيره.

وقال قتادة: عاتبه كما تسمعون، ثم أنزل التي في سورة النور، فرخّص له في أن يأذن لهم إن شاء: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢]. وكذا رُوي عن عطاء الخراساني.

وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذنُوا رسول الله فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا.

ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أي: في إبداء الأعذار، ﴿وَتَعْلَمَ[4] الْكَاذِبِينَ﴾ يقول تعالى: هلا تركتهم لما استأذنوك، فلم تأذن لأحد منهم في القعود، لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو [وإن لم تأذن لهم فيه. ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو][5] أحد يؤمن بالله ورسوله، فقال: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ أي: في القعود عن الغزو ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾؛ لأن أولئك يرون الجهاد قربة، ولما ندبهم إليه بادروا وامتثلوا. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ. إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ أي: في القعود ممن لا عذر له ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم، ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: شكت في صحة ماجئتهم به، ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي: يتحيرون، يُقَدِّمون رجلا ويؤخرون أخرى، وليست لهم قدم ثابته في شيء، فهم قوم حَيارى هَلْكى، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا.

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ أي: معك إلى الغزو ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ أي: لكانوا تأهبوا له، ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ أي: أبغض أن يخرجوا معك[6] قدراً، ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي: أخرهم، ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أي: قدراً.

---

(١) زيادة من الجرح والتعديل ٤/ ٢/ ٣٦٤. مستفاداً من هامش ط. الشعب.

(٢) في أ: «الداري». (٣) في أ: «مشرف». (٤) في ت: «ويعلم».

(٥) زيادة من ت، ك، أ. (٦) في ت، ك: «معكم».

ثم بين [الله تعالى][1] وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: لأنهم جبناء مخذولون، ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي: ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة، ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم، يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدي هذا إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير.

وقال مجاهد، وزيد بن أسلم، وابن جرير: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم.

وهذا لا يبقى له اختصاص لخروجهم معهم، بل هذا عام في جميع الأحوال، والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين.

وقال محمد بن إسحاق: كان فيما بلغني ـ من استأذن ـ من ذوي الشرف منهم: عبد الله بن أبي ابن سلول والجدُّ بن قيس، وكانوا أشرافاً في قومهم، فثبطهم الله، لعلمه بهم: أن يخرجوا معه[2]، فيفسدوا عليه جنده. وكان في جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه، لشرفهم فيهم، فقال: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾[3].

ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، فأخبر بأنه [يعلم][4] ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾، فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومع هذا ما خرجوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا . وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا . وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦ ـ ٦٨]، والآيات في هذا كثيرة.

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨)﴾.

يقول تعالى محرضاً لنبيه عليه السلام على المنافقين: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أي: لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماله مدة طويلة،

---

(١) زيادة من ك. (٢) في ت: «معهم».

(٣) رواه الطبري في تفسيره (١٤/ ٢٨١).

(٤) زيادة من ت، ك.

وذلك أول مقدم النبي ﷺ المدينة رمته العرب عن قوس واحدة، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته، قال عبد الله بن أبي وأصحابه: هذا أمر قد توجَّه. فدخلوا في الإسلام ظاهراً، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم[1] ذلك وساءهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

**﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩)﴾.**

يقول تعالى: ومن المنافقين من يقول لك يا محمد: ﴿ائْذَن لِّي﴾ في القعود ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ بالخروج معك، بسبب الجواري من نساء الروم، قال الله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي: قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا. كما قال محمد بن إسحاق، عن الزهري، ويزيد بن رُومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم قالوا: قال رسول الله ﷺ ذات يوم، وهو في جهازه، للجَدِّ ابن قيس أخي بني سلمة: «هل لك يا جَدُّ العامَ في جلاد بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر لا أصبر عنهن. فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنت لك». ففي الجد بن قيس نزلت هذه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ الآية، أي: إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه، أعظم[2].

وهكذا روى عن ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: أنها نزلت في الجَدِّ بن قيس. وقد كان الجد ابن قيس هذا من أشراف بني سلمة، وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لهم: «من سيدكم يا بني سلمة؟» قالوا: الجد بن قيس، على أنا نُبَخِّله[3]. فقال رسول الله ﷺ: «وأيّ داء أدوأ من البخل، ولكن سيِّدكم الفتى الأبيض الجَعْد بشرُ بن البراء بن مَعْرُور».

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي: لا مَحيد لهم عنها، ولا مَحيص، ولا مَهرَب.

**﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١)﴾.**

يعلم تبارك وتعالى نبيه بعداوة هؤلاء له؛ لأنه مهما أصابه من ﴿حَسَنَةٌ﴾ أي: فتح ونصر وظفر

---

(١) في ت: «أغاظهم».

(٢) رواه عنهم الطبري في تفسيره (١٤/ ٢٨٧).

(٣) في ت: «نبخله».

على الأعداء، مما يسره ويسر أصحابه، ساءهم ذلك، ﴿وإن تُصبْكَ مُصيبةٌ يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبلُ﴾ أي: قد احترزنا من متابعته من قبل هذا، ﴿ويتولوا وهم فرحون﴾. فأرشد الله تعالى رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة، فقال: ﴿قل﴾ أي: لهم ﴿لن يُصيبنا إلاَّ ما كَتَبَ اللهُ لنا﴾ أي: نحن تحت مشيئة الله، وقدره، ﴿هو مولانا﴾ أي: سيدنا وملجؤنا ﴿وعلى الله فليتوكَّلِ المؤمنون﴾ أي: ونحن متوكلون عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

﴿قلْ هل تربَّصُونَ بنا إلاَّ إحدى الحُسْنيين ونحنُ نتربَّصُ بكُمْ أن يُصيبكُمُ اللهُ بعذابٍ مِنْ عنده أوْ بأيدينا فتربَّصُوا إنَّا معكُم مُتربِّصُون (٥٢) قلْ أنفقُوا طوْعًا أوْ كرْهًا لن يُتقبَّل منكُمْ إنَّكُمْ كُنتُمْ قوْمًا فاسقين (٥٣) وما منعهُمْ أن تُقْبَل منهُمْ نفقاتُهُمْ إلاَّ أنَّهُمْ كفرُوا بالله وبرسُوله ولا يأتُون الصَّلاة إلاَّ وهُمْ كُسالى ولا يُنفقُون إلاَّ وهُمْ كارهُون (٥٤)﴾.

يقول تعالى: ﴿قل﴾ لهم يا محمد: ﴿هل تربَّصُون بنا﴾؟ أي: تنتظرون بنا ﴿إلاَّ إحدى الحُسنيين﴾: شهادة أو ظفرٌ بكم. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم. ﴿ونحنُ نتربَّصُ بكُمْ أن يُصيبكُمُ اللهُ بعذابٍ من عنده أو بأيدينا﴾، أي: ننتظر بكم هذا أو هذا، إما أن يصيبكم الله بقارعة من عنده أو بأيدينا، بسبي أو بقتل، ﴿فتربَّصُوا إنَّا معكُم مُتربِّصُون﴾.

وقوله: ﴿قلْ أنفقُوا طوْعًا أوْ كرْهًا﴾ أي: مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين ﴿لن يُتقبَّل منكُمْ إنَّكُمْ كُنتُمْ قوْمًا فاسقين﴾.

ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك، وهو أنهم لا يتقبل منهم، ﴿لأنَّهُمْ كفرُوا بالله وبرسُوله﴾ أي: [قد كفروا][1]، والأعمال إنما تصح بالإيمان، ﴿ولا يأتُون الصَّلاة إلاَّ وهُمْ كُسالى﴾ أي: ليس لهم قصد صحيح، ولا همة في العمل، ﴿ولا يُنفقُون﴾ نفقة ﴿إلاَّ وهُمْ كارهُون﴾.

وقد أخبر الصادق المصدوق أن الله لا يمل حتى تملوا، وأنه طيب لا يقبل إلا طيباً؛ فلهذا لا يتقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملاً، لأنه إنما يتقبل من المتقين.

﴿فلا تُعْجبْكَ أمْوالُهُمْ ولا أوْلادُهُمْ إنَّما يُريدُ اللهُ ليُعذِّبهُم بها في الحياة الدُّنْيا وتزْهق أنفُسُهُمْ وهُمْ كافرُون (٥٥)﴾.

يقول تعالى لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿فلا تُعجبك أموالُهم ولا أولادُهُم﴾، كما قال تعالى: ﴿ولا تمُدَّنَّ عينيك إلى ما متَّعنا به أزْواجًا منْهُم زهْرة الحياة الدُّنْيا لنفْتنهُمْ فيه ورزْقُ ربِّك خيرٌ

---

(١) زيادة من أ

وأبقى﴾ [طه: ١٣١]، وقال: ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

وقوله: ﴿إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾: قال الحسن البصري: بزكاتها، والنفقة منها في سبيل الله.

وقال قتادة: هذا من المقدم والمؤخر، تقديره: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم، [في الحياة الدنيا][1] إنما يريد الله ليعذبهم بها [في الآخرة][2].

واختار ابن جرير قول الحسن، وهو القول القوي الحسن.

وقوله: ﴿وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ أي: ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر، ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم، عياذاً بالله من ذلك، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه.

﴿ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون (٥٦) لو يجدون ملجئا أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون (٥٧) ﴾.

يخبر تعالى نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، عن جزعهم وفزعهم وفرقهم وهلعهم أنهم ﴿يحلفون بالله إنهم لمنكم﴾ يميناً مؤكدة، ﴿وما هم منكم﴾ أي: في نفس الأمر، ﴿ولكنهم قوم يفرقون﴾ أي: فهو الذي حملهم على الحلف. ﴿لو يجدون ملجئا﴾ أي: حصنا يتحصنون به، وحرزا يحترزون به، ﴿أو مغارات﴾ وهي التي في الجبال، ﴿أو مدخلا﴾ وهو السَّرَب في الأرض والنفَق. قال ذلك في الثلاثة ابنُ عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿لولوا إليه وهم يجمحون﴾ أي: يسرعون في ذهابهم عنكم، لأنهم إنما يخالطونكم كرها لا محبة، وودوا أنهم لا يخالطونكم، ولكن للضرورة أحكام؛ ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغمّ؛ لأن الإسلام وأهله لا يزال في عزّ ونصر ورفعة؛ فلهذا كلما سرّ المؤمنون ساءهم ذلك، فهم يودون ألا يخالطوا المؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿ لو يجدون ملجئا أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون ﴾.

﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون (٥٨) ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون (٥٩) ﴾.

(١، ٢) زيادة من ت، ك، أ.

يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُم﴾ أي ومن المنافقين ﴿مَّن يَلْمِزُكَ﴾ أي: يعيب عليك ﴿فِي﴾ قَسْم ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ إذا فرقتها، ويتهمك في ذلك، وهم المتهمون[١] المأبونون، وهم مع هذا لا ينكرون للدين، وإنما ينكرون لحظ أنفسهم؛ ولهذا إن ﴿أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ أي: يغضبون لأنفسهم.

قال ابن جُرَيْج: أخبرني داود بن أبي عاصم قال: أتي النبي ﷺ بصدقة، فقسمها ها هنا وها هنا حتى ذهبت. قال: ووراءه رجل من الأنصار فقال: ما هذا بالعدل؟ فنزلت هذه الآية.

وقال قتادة في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ يقول: ومنهم من يطعن عليك في الصدقات. وذُكر لنا أن رجلاً من [أهل][٢] البادية حديثَ عهد بأعرابية، أتى رسول[٣] الله ﷺ وهو يقسم ذهبا وفضة، فقال: يا محمد، والله لئن كان الله أمرك أن تعدل، ما عدلت. فقال نبي الله ﷺ: «ويلك. فمن ذا يعدل عليك بعدي». ثم قال نبي الله: «احذروا هذا وأشباهه، فإن في أمتي أشباه هذا، يقرؤون القرآن لا يجاوز[٤] تَرَاقيَهم، فإذا خرجوا فاقتلوهم، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم». وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «والذي نفسي بيده، ما أعطيكم شيئا ولا أمنعكموه، إنما أنا خازن».

وهذا الذي ذكره قتادة شبيه بما رواه الشيخان من حديث الزهري، عن أبي سلمة[٥]، عن أبي سعيد في قصة ذي الخُوَيْصرة ـ واسمه حُرْقوص ـ لما اعترض على النبي ﷺ حين قسم غنائم حنين، فقال له: اعدل، فإنك لم تعدل. فقال: «لقد خِبتُ وخسرتُ إن لم أكن أعدل». ثم قال رسول الله ﷺ وقد رآه مقفيا[٦]: «إنه يخرج من ضِئْضِئِ هذا قوم يحقرُ أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين مُرُوق السهم من الرَّمِيَّة، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء» وذكر بقية الحديث[٧].

ثم قال تعالى مُنَبّها لهم على ما هو خير من ذلك لهم، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ ، فتضمنت هذه الآية الكريمة أدبا عظيما وسرا شريفا، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده، وهو قوله: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾. وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول وامتثال أوامره، وترك زواجره، وتصديق أخباره، والاقتفاء بآثاره.

---

(١) في ت: «المبهمون».
(٢) زيادة من ت، ك، أ.
(٣) في أ: «نبي».
(٤) في ت: «لا يتجاوز».
(٥) في ت، أ: «أبي سالم».
(٦) في ت، أ: «مقتفيا».
(٧) صحيح البخاري برقم (٣٦١٠) وصحيح مسلم برقم (١٠٦٤).

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾.

لما ذكر [الله][1] تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبى ﷺ ولمزهم إياه فى قَسْم الصدقات، بين تعالى أنه هو الذى قسمها وبين حكمها، وتولى أمرها بنفسه، ولم يكلْ قَسْمها إلى أحد غيره، فجزأها لهؤلاء المذكورين، كما رواه الإمام أبو داود فى سننه من حديث عبدالرحمن بن زياد بن أنعم ـ وفيه ضعف ـ عن زياد بن نعيم، عن زياد بن الحارث الصُّدَائى، رضى الله عنه، قال: أتيت النبى ﷺ فبايعته، فأتى رجل فقال: اعطنى من الصدقة فقال له: «إن الله لم يرض بحكم نبى ولا غيره فى الصدقات حتى حكم فيها هو، فجزأها ثمانية أصناف، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك»[2].

وقد اختلف العلماء فى هذه الأصناف الثمانية: هل يجب استيعاب الدفع إليها أو إلى ما أمكن منها؟ على قولين:

أحدهما: أنه يجب ذلك، وهو قول الشافعى وجماعة.

والثانى: أنه لا يجب استيعابها، بل يجوز الدفع إلى واحد منها، ويعطى جميعَ الصدقة مع وجود الباقين. وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف، منهم: عمر، وحذيفة، وابن عباس، وأبو العالية، وسعيد بن جُبَيْر، وميمون بن مِهْرَان.

قال ابن جرير: وهو قول عامة أهل العلم، وعلى هذا فإنما ذكرت الأصناف ها هنا لبيان المصرف لا لوجوب استيعاب الإعطاء.

ولوجوه الحجاج والمآخذ مكان غير هذا، والله أعلم.

وإنما قدم الفقراء ها هنا لأنهم أحوج من البقية على المشهور، لشدة فاقتهم وحاجتهم، وعند أبى حنيفة أن المسكين أسوأ حالا من الفقير، وهو كما قال، قال ابن جرير: حدثنى يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، أنبأنا ابن عَوْن، عن محمد قال: قال عمر، رضى الله عنه: الفقير ليس بالذى لا مال له، ولكن الفقير الأخلق الكسب. قال ابن علية: الأخلق: المحارَفُ عندنا[3].

والجمهور على خلافه. ورُوى عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن البصرى، وابن زيد. واختار ابن جرير وغير واحد أن الفقير: هو المتعفف الذى لا يسأل الناس شيئا، والمسكين: هو الذى يسأل ويطوف ويتبع الناس.

وقال قتادة: الفقير: من به زمانة، والمسكين: الصحيح الجسم.

---

(١) زيادة من ت.

(٢) سنن أبى داود برقم (١٦٣٠).

(٣) تفسير الطبرى (١٤/ ٣٠٨).

وقال الثوري، عن منصور، عن إبراهيم: هم فقراء المهاجرين. قال سفيان الثوري: يعني: ولا يُعطَى الأعرابُ منها شيئا.

وكذا روى عن سعيد بن جبير، وسعيد بن عبد الرحمن بن أَبْزَى.

وقال عِكْرِمة: لا تقولوا لفقراء المسلمين مساكين، وإنما المساكين مساكين أهل الكتاب.

ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية.

فأما «الفقراء»، فعن ابن عمرو[١] قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَحل الصدقة لغنيٍّ ولا لذي مِرَّة سَوِيّ». رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي[٢].

ولأحمد أيضا، والنسائي، وابن ماجه عن أبي هريرة، مثله[٣].

وعن عبيد الله بن عَدِيّ بن الخيار: أن رجلين أخبراه: أنهما أتيا النبي ﷺ يسألانه من الصدقة، فقلب إليهما البصر، فرآهما جَلْدين، فقال: «إن شئتما أعطيتكما، ولا حَظّ فيها لغني ولا لقوي مكتسب».

رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي[٤] بإسناد جيد قوي.

وقال ابن أبي حاتم في كتاب الجرح [والتعديل: أبو بكر العبسي قال: قرأ عمر، رضي الله عنه: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾، قال: هم أهل الكتاب][٥]. روى عنه عمر بن نافع، سمعت أبي يقول ذلك[٦].

قلت: وهذا قول غريب جدا بتقدير صحة الإسناد، فإن أبا بكر هذا، وإن لم ينص أبو حاتم على جهالته، لكنه في حكم المجهول.

وأما المساكين: فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس، فترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان». قالوا: فما المسكين[٧] يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يجدُ غنًى يغنيه، ولا يُفْطَنُ له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئا».

رواه الشيخان: البخاري ومسلم[٨].

---

(١) في ت، ك، أ. «ابن عمر».

(٢) المسند (٢/ ١٦٤) وسنن أبي داود برقم (١٦٣٤) وسنن الترمذي برقم (٦٥٢).

(٣) المسند (٢/ ٣٧٧) وسنن النسائي (٥/ ٩٩) وسنن ابن ماجه برقم (١٨٣٩).

(٤) المسند (٤/ ٢٢٤) وسنن أبي داود برقم (١٦٣٣) وسنن النسائي (٥/ ٩٩).

(٥) زيادة من ت، ك، أ.

(٦) الجرح والتعديل (٩/ ٣٤١) وقد وقع سقط هناك.

(٧) في آ: «المساكين».

(٨) صحيح البخاري برقم (١٤٧٩) وصحيح مسلم برقم (١٠٣٩)

وأما العاملون عليها: فهم الجباة والسعاة يستحقون منها قسطا على ذلك، ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة، لما ثبت في صحيح مسلم عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث: أنه انطلق هو والفضل بن عباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة، فقال: «إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس»[١].

وأما المؤلفة قلوبهم: فأقسام: منهم من يعطى ليُسلم، كما أعطى النبي ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين، وقد كان شهدها مشركا. قال: فلم يزل يعطيني حتى صار أحبَّ الناس إليَّ بعد أن كان أبغض الناس إلي، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا زكريا بن عدي، أنا[٢] ابن المبارك، عن يونس، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن صفوان بن أمية قال: أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين، وإنه لأبغض الناس إلي، فما زال يعطيني حتى صار وإنه لأحب الناس إلي.

ورواه مسلم والترمذي، من حديث يونس، عن الزهري، به[٣].

ومنهم من يُعطَى ليحسُن إسلامه، ويثبت قلبه، كما أعطى يوم حنين أيضا جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم: مائة من الإبل، مائة من الإبل وقال: «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه، مخافة أن يكُبّه الله على وجهه في نار جهنم»[٤].

وفي الصحيحين عن أبي سعيد: أن عليا بعث إلى النبي ﷺ بذُهَيبة في تربتها من اليمن فقسمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعُيَينة بن بدر، وعلقمة بن عُلاثة، وزيد الخير، وقال: «أتألفهم»[٥].

ومنهم من يُعطَى لما يرجى من إسلام نظرائه. ومنهم من يُعطَى ليجبي الصدقات ممن يليه، أو ليدفع عن حَوزة المسلمين الضرر من[٦] أطراف البلاد. ومحل تفصيل هذا في كتب الفروع، والله أعلم.

وهل تعطى المؤلفة على الإسلام بعد النبي ﷺ؟ فيه خلاف، فرُوي عن عمر، وعامر الشَّعبي وجماعة: أنهم لا يُعطَون بعده؛ لأن الله قد أعز الإسلام وأهله، ومكَّن لهم في البلاد، وأذل لهم رقاب العباد.

وقال آخرون: بل يُعطَون؛ لأنه عليه الصلاة والسلام[٧] قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هَوازن،

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٠٧٢).

(٢) في ك: «أخبرنا».

(٣) المسند (٦/٤٦٥) وصحيح مسلم برقم (٢٣١٣) وسنن الترمذي برقم (٦٦٦).

(٤) صحيح البخاري برقم (١٤٧٨) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٥) صحيح البخاري برقم (٣٣٤٤) وصحيح مسلم برقم (١٠٦٤)

(٦) في أ: «في». (٧) في أ: «ﷺ».

وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم.

وأما الرقاب: فرُوي عن الحسن البصري، ومقاتل بن حيان، وعمر بن عبد العزيز، وسعيد بن جُبَير، والنَّخعي، والزهري، وابن زيد: أنهم المكاتَبون، وروي عن أبي موسى الأشعري نحوه، وهو قول الشافعي والليث.

وقال ابن عباس، والحسن: لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ومالك، وإسحاق، أي: إن الرقاب أعم من أن يعطي المكاتب، أو يشتري رقبة فيعتقها استقلالا. وقد ورد في ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة، وأن الله يعتق بكل عضو منها عضواً من مُعتقها حتى الفَرْج بالفرج، وما ذاك إلا لأن[1] الجزاء من جنس العمل، ﴿وما تُجْزَوْنَ إلا ما كُنْتُم تعملون﴾ [الصافات: ٣٩].

وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة حق على الله عونهُم: الغازي في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف».

رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا أبا داود[2].

وفي المسند عن البراء بن عازب قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، دلَّني على عمل يقربني من الجنة ويباعدني عن النار. فقال: «أعتق النَّسَمة وفك الرقبة». فقال: يا رسول الله، أو ليسا واحدا؟ قال: «لا، عتق النسمة أن تُفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها»[3].

وأما الغارمون: فهم أقسام: فمنهم من تحمَّل حمالة أو ضمن دينا فلزمه فأجحف بماله، أو غرم في أداء دينه أو في معصية ثم تاب، فهؤلاء يدفع إليهم. والأصل في هذا الباب حديث قَبِيصة بن مخارق الهلالي قال: تحملت حمالة فأتيت رسول الله[4] ﷺ أسأله فيها، فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة، فنأمر لك بها». قال: ثم قال: «يا قَبِيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمَّل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها، ثم يمسك. ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش، أو قال: سدادا من عيش ـ ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه، فيقولون: لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة، حتى يصيب قواما من عيش ـ أو قال سداداً من عيش ـ فما سواهن من المسألة سحت، يأكلها صاحبها سحتا». رواه مسلم[5].

---

(١) في ت: «أن».

(٢) المسند (٢/ ٢٥١) وسنن الترمذي برقم (١٦٥٥) وسنن النسائي (٦/ ٦١) وسنن ابن ماجه برقم (٢٥١٨) وقال الترمذي: «هذا حديث حسن».

(٣) المسند (٤/ ٢٩٩).

(٤) في ت: «النبي».

(٥) صحيح مسلم برقم (١٠٤٤).

وعن أبي سعيد قال: أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها، فكثر دينه، فقال النبي ﷺ[١]: «تصدقوا عليه». فتصدق الناس[٢]، فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال النبي ﷺ لغرمائه: «خذوا ما وجدتم، وليس لكم إلا ذلك». رواه مسلم[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، أنبأنا صدقة بن موسى، عن أبي عمران الجَوْني، عن قيس بن زيد عن قاضي المصرين[٤]، عن عبد الرحمن بن أبي بكر قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعو الله بصاحب الدين يوم القيامة حتى يوقف بين يديه، فيقول: يا ابن آدم، فيم أخذت هذا الدين؟ وفيم ضيعت حقوق الناس؟ فيقول: يا رب، إنك تعلم أني أخذته فلم آكل ولم أشرب ولم أضيع، ولكن أتى على يدي إما حَرَق وإما سرق وإما وضيعة. فيقول الله: صدق عبدي، أنا أحق من قضى عنك اليوم. فيدعو الله بشيء فيضعه في كفة ميزانه، فترجح حسناته على سيئاته، فيدخل الجنة بفضل الله ورحمته»[٥].

وأما في سبيل الله: فمنهم الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان، وعند الإمام أحمد، والحسن، وإسحاق: والحج من سبيل الله، للحديث.

وكذلك ابن السبيل: وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره، فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال. وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء، فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه. والدليل على ذلك الآية، وما رواه الإمام أبو داود وابن ماجه من حديث مَعْمَر، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يَسَار، عن أبي سعيد، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغنيّ إلا لخمسة: العامل عليها، أو رجل اشتراها بماله، أو غارم، أو غاز في سبيل الله، أو مسكين تصدق عليه منها فأهدى لغني»[٦].

وقد رواه السفيانان، عن زيد بن أسلم، عن عطاء مرسلا. ولأبي داود في عطية العَوفي، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني إلا في سبيل الله، وابن السبيل، أو جار فقير فيُهدي لك أو يدعوك»[٧].

وقوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾: أي حكما مقدراً بتقدير الله وفَرْضه وقَسْمه[٨]، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله ويقوله ويشرعه ويحكم به،

---

(١) في آ: «فقال ﷺ لغرمائه». (٢) في أ: «الناس عليه».

(٣) صحيح مسلم برقم (١٥٥٦).

(٤) في أ: «المصريين».

(٥) المسند (١/ ١٩٧، ١٩٨).

(٦) سنن أبي داود برقم (١٦٣٥) وسنن ابن ماجه برقم (١٨٤١).

(٧) سنن أبي داود برقم (١٦٣٧) وعطية العوفي ضعيف.

(٨) في ت، أ: «وقسمته».

لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١)﴾.

يقول تعالى: ومن المنافقين قوم يؤذون رسولَ الله ﷺ بالكلام فيه ويقولون: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أي: من قال له شيئا صدقه، ومن حدثه فينا صدقه، فإذا جئنا وحلفنا له صدقنا. روى معناه عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي: هو أذن خير، يعرف الصادق من الكاذب، ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ويصدق المؤمنين، ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: وهو حجة على الكافرين؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣)﴾.

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ الآية، قال: ذُكر لنا أن رجلا من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، وإن كان ما يقول محمد حقا، لهم شر من الحمير. قال: فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد لحق، ولأنت أشر من الحمار. قال: فسعى بها الرجل إلى النبي[1] ﷺ فأخبره، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: «ما حملك على الذي قلت؟» فجعل يلتعن، ويحلف بالله ما قال ذلك. وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدّق الصادق وكذب الكاذب. فأنزل الله، عز وجل: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا[2] أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾ أي: ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حاد[3] الله، أي: شاقه وحاربه وخالفه، وكان في حَدٍّ والله ورسوله في حدٍّ ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾، أي: مهانا معذبا، ﴿ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ أي: وهذا هو الذل العظيم، والشقاء الكبير.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤)﴾.

قال مجاهد: يقولون القول بينهم، ثم يقولون: عسى الله ألا يفشي علينا سرنا هذا.

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا

---

(١) في أ: «نبي الله». (٢) في ت: «تعلموا». (٣) في أ: «يحاده».

يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨]. وقال فى هذه الآية: ﴿قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أى: إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به، ويبين له[١] أمركم كما قال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ[٢]﴾ [محمد: ٢٩، ٣٠]؛ ولهذا قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة «الفاضحة»، فاضحة المنافقين.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)﴾.

قال أبو معشر المدينى[٣]، عن محمد بن كعب القُرَظى وغيره قالوا: قال رجل من المنافقين: ما أرى قُرّاءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونا، وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند اللقاء. فرُفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، فجاء إلى رسول الله وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب. فقال: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ إلى قوله: ﴿مُجْرِمِينَ﴾، وإن رجليه لتنسفان[٤] الحجارة وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ، وهو متعلق بِنسْعَة رسول الله ﷺ.

وقال عبد الله بن وهب: أخبرنى هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عبد الله بن عمر قال: قال رجل فى غزوة تبوك فى مجلس[٥]: ما رأيت مثل قُرائنا هؤلاء، أرغبَ بطونا، ولا أكذبَ ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء. فقال رجل فى المسجد: كذبتَ، ولكنك منافق. لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن. قال عبد الله بن عمر: وأنا رأيته متعلقا بحَقَب ناقة رسول الله ﷺ تَنكُبُه[٦]. الحجارة[٧]، وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب. ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ. لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

وقد رواه الليث، عن هشام بن سعد، بنحو من هذا[٨].

وقال ابن إسحاق: وقد كان جماعة من المنافقين منهم وَدِيعة بن ثابت، أخو بنى أمية بن زيد، من بنى عمرو بن عوف، ورجل من أشجع حليف لبنى سلمة يقال له: مُخَشِّن[٩] بن حُمَيِّر يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جِلاَد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا؟ والله لكأنا بكم غداً مُقَرَّنين فى الحبال، إرجافا وترهيبا للمؤمنين، فقال مُخَشِّن[١٠]

---

(١) فى أ: «الكم». (٢) فى أ: «إسرارهم» وهو خطأ. (٣) فى أ: «المدنى».

(٤) فى هـ: «ليسفعان»، وفى أ: «ليشفعان» والمثبت من الطبرى.

(٥) فى ت، أ: «مجلس يوما». (٦) فى ت، أ: «يركبه». (٧) فى ت: «بالحجارة».

(٨) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/ ٣٣٣، ٣٣٤).

(٩، ١٠) فى أ: «مخشى».

ابن حُمَيّر: والله لوَددتُ أني أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة، وإنا نَنْفَلتُ أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه. وقال رسول الله ﷺ ـ فيما بلغني ـ لعمار بن ياسر: «أدرك القوم، فإنهم قد احترقوا، فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى، قلتم كذا وكذا». فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت، ورسول الله ﷺ واقف على راحلته، فجعل يقول وهو آخذ بحقَبها: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، [فأنزل الله، عز وجل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾](1). فقال مُخَشّن(2) بن حُمَيّر: يا رسول الله، قعد بي اسمي واسم أبي. فكان الذي عفى عنه في هذه الآية مخشّن(3) بن حُمَيّر، فتسمى(4) عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل(5) شهيدا لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة، فلم يوجد له أثر(6).

وقال قتادة: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ قال: فبينما النبي ﷺ في غزوة تبوك، وركب من المنافقين يسيرون بين يديه، فقالوا: يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها. هيهات هيهات. فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فقال: «علَيّ بهؤلاء النفر». فدعاهم، فقال: «قلتم كذا وكذا». فحلفوا ما كنا إلا نخوض ونلعب.

وقال عِكْرِمة في تفسير هذه الآية: كان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول: اللهم، إني أسمع آية أنا أعنَى بها، تقشعر منها الجلود، وتجيب منها القلوب، اللهم، فاجعل وفاتي قتلا في سبيلك، لا يقول أحد: أنا غسّلت، أنا كفنت، أنا دفنت. قال: فأصيب يوم اليمامة، فما أحد من المسلمين إلا وقد وجد غيره(7).

وقوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي: بهذا المقال الذي استهزأتم به ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ أي: لا يُعفَى عن جميعكم، ولابد من عذاب بعضكم، ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي: مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨)﴾.

يقول تعالى منكرا على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنون(8) يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، كان هؤلاء ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: عن الإنفاق في سبيل الله، ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي: نسوا ذكر الله، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: عاملهم

(1) زيادة من ت، أ، وسيرة ابن هشام.
(2، 3) في أ: «مخشي».
(4) في أ: «فسمي».
(5) في أ: «أن يقتله».
(6) السيرة النبوية لابن هشام (2/ 524).
(7) في أ: «غيره».
(8) في ك: «المؤمنين» وهو خطأ.

معاملة من نسيهم، كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ[1] نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجاثية: ٣٤]، ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طريق الحق، الداخلون فى طريق الضلالة.

وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾أي: على هذا الصنيع الذى ذكر عنهم، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها مخلدين، هم والكفار، ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أي: كفايتهم فى العذاب، ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾، أي: طردهم وأبعدهم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾.

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩)﴾.

يقول تعالى: أصاب هؤلاء من عذاب الله فى الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم، وقد كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولاداً، ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ﴾: قال الحسن البصرى: بدينهم، ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أي: فى الكذب والباطل، ﴿أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: بطلت مساعيهم، فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة ﴿فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب.

قال ابن جُرَيْج عن عُمَر بن عطاء، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الآية، قال ابن عباس: ما أشبه الليلة بالبارحة، ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ هؤلاء بنو إسرائيل، شبهنا بهم، لا أعلم إلا أنه قال: «والذى نفسى بيده، لتتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم جُحر ضَبٍّ لدخلتموه».

قال ابن جُرَيْج: وأخبرنى زياد بن سعد، عن محمد بن زيد[2] بن مهاجر، عن سعيد بن أبى سعيد المقبُرى، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، لتتبعن سَنَن الذين من قبلكم، شبرا بشبر، وذراعا بذراع، وباعا بباع، حتى لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لدخلتموه». قالوا: ومن هم يارسول الله؟ أهل الكتاب؟ قال: «فمَه»[3].

وهكذا رواه أبو مَعْشَر، عن سعيد المقبرى، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، فذكره وزاد: قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم القرآن: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ﴾ قال أبو هريرة: الخلاق: الدين. ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ قالوا: يارسول الله، كما صنعت فارس والروم؟ قال: «فهل الناس إلا هم»[4].

---

(١) فى ت، ك، أ: «فاليوم» وهو خطأ. (٢) فى ت: «زيادة».

(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/٣٤٢).

(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/٣٤١).

وهذا الحديث له شاهد في الصحيح[١].

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠)﴾.

يقول تعالى واعظا لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسل: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: ألم تُخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسل ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾، وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض، إلا من آمن بعبده ورسوله نوح، عليه السلام، ﴿وَعَادٍ﴾ كيف أهلكوا بالريح العقيم، لما كذبوا هودا، عليه السلام، ﴿وَثَمُودَ﴾ كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحا، عليه السلام، وعقروا الناقة، ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم، وأهلك ملكهم النمروذ بن كنعان بن كوش الكنعاني لعنه الله، ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ وهم قوم شعيب، عليه السلام، وكيف أصابتهم[٢] الرجفة والصيحة وعذاب يوم[٣] الظلة، ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ قوم لوط، وقد كانوا يسكنون في مدائن، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾[النجم: ٥٣]، أي: الأمة المؤتفكة، وقيل: أم قراهم، وهي «سدوم». والغرض: أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطا، عليه السلام، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين.

﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج والدلائل القاطعات، ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾أي: بإهلاكه إياهم؛ لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١)﴾.

لما ذكر [الله][٤] تعالى صفات المنافقين الذميمة، عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة، فقال: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾أي: يتناصرون ويتعاضدون، كما جاء في الصحيح: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه[٥] بعضا» وشبك بين أصابعه[٦]. وفي الصحيح أيضا: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[٧].

(١) في صحيح البخاري برقم (٧٣١٩) من طريق محمد بن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) في ت، أ: «أصابهم». (٣) في ت، أ: «تلك».
(٤) زيادة من ك. (٥) في ت: «بعضهم».
(٦) صحيح البخاري برقم (٤٨١) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
(٧) صحيح البخاري برقم (٦٠١١) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

وقوله: ﴿يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾، كما قال تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة﴾ أي: يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه، ﴿ويطيعون الله ورسوله﴾ أي: فيما أمر، وترك ما عنه زجر، ﴿أولئك سيرحمهم الله﴾ أي: سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات، ﴿إن الله عزيز حكيم﴾ أي: عزيز، من أطاعه أعزه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ﴿حكيم﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء، وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة، فإن له الحكمة في جميع ما يفعله، تبارك وتعالى.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)﴾.

يخبر تعالى بما أعده للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم في ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ أي: ماكثين فيها أبدا، ﴿ومساكن طيبة﴾ أي: حسنة البناء، طيبة القرار، كما جاء في الصحيحين من حديث أبي عمران الجوني، عن أبي بكر بن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[1].

وبه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها ستون ميلاً في السماء، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم، لا يرى بعضهم بعضا» أخرجاه[2].

وفي الصحيحين أيضا، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة وصام رمضان، فإن [3] حقا على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها». قالوا: يارسول الله، أفلا نخبر الناس؟ قال: «إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»[4].

وعند الطبراني والترمذي وابن ماجه، من رواية زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن معاذ بن جبل، رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول... فذكر مثله [5].

وللترمذي، عن عبادة بن الصامت، مثله[6].

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٨٧٨) وصحيح مسلم برقم (١٨٠).

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٨٧٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٨)

(٣) في ت، ك، أ: «كان».

(٤) صحيح البخاري برقم (٧٤٢٣) من طريق فليح عن هلال، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) المعجم الكبير (٢٠/١٥٨) وسنن الترمذي برقم (٢٥٣٠) وعند ابن ماجه القطعة الثانية منه برقم (٤٣٣١)، وقد أشار الحافظ إلى الاختلاف على عطاء بن يسار.

(٦) سنن الترمذي برقم (٢٥٣١).

وعن أبي حازم، عن سهل بن سعد [١] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءون الغُرفة في الجنة، كما تراؤون الكوكب في السماء». أخرجاه في الصحيحين[٢].

ثم ليعلم [٣] أن أعلى منزلة في الجنة مكانٌ يقال له: «الوسيلة» لقربه من العرش، وهو مسكن رسول الله ﷺ من الجنة، كما قال الإمام أحمد [ابن حنبل][٤]:

حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن لَيْث، عن كعب، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صليتم عليَّ فسلوا الله لي الوسيلة» قيل: يا رسول الله، وما الوسيلة؟ قال: «أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكون أنا هو»[٥].

وفي صحيح مسلم، من حديث كعب بن علقمة، عن عبد الرحمن بن جُبَيْر، عن عبد الله بن عمرو بن العاص؛ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليَّ، فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشرا، ثم سلوا لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أني أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلَّت عليه الشفاعة يوم القيامة»[٦].

[وفي صحيح البخاري، من حديث محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة»][٧].

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن علي الأبار، حدثنا الوليد بن عبد الملك الحراني، حدثنا موسى بن أعين، عن ابن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله لي الوسيلة، فإنه لم يسألها لي عبد في الدنيا إلا كنت له شهيدا ـ أو شفيعا ـ يوم القيامة»[٨].

وفي مسند الإمام أحمد، من حديث سعد [٩] أبي مجاهد الطائي، عن أبي المدلّه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قلنا: يارسول الله، حدثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «لبنة ذهب، ولبنة فضة، وملاطها المسك، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم لا ييأس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه»[١٠].

وروى عن بن عمر مرفوعا، نحوه[١١].

(١) في ت: «سعيد».
(٢) صحيح البخاري برقم (٦٥٥٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٠).
(٣) في ت: «تعلم». (٤) زيادة من ت، أ.
(٥) المسند (٢/٢٥٦).
(٦) صحيح مسلم برقم (١٣٨٤).
(٧) زيادة من ت، ك، أ. وهو في صحيح البخاري برقم (٦١٤).
(٨) المعجم الأوسط برقم (٦٣٩) «مجمع البحرين».
(٩) في أ: «عن سعد».
(١٠) المسند (٢/٣٠٤).
(١١) رواه أبو نعيم في صفة الجنة برقم (٩٦) من طريق عمر بن ربيعة عن الحسن البصري عن ابن عمر رضي الله عنه مرفوعًا نحوه=

وعند الترمذي من حديث عبد الرحمن بن إسحاق، عن النعمان بن سعد، عن علي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغُرفا يرى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها». فقام أعرابي فقال: يارسول الله، لمن هي؟ فقال: «لمن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام»[1].

ثم قال: حديث غريب.

ورواه الطبراني، من حديث عبد الله بن عمرو وأبي مالك الأشعري، كل منهما عن النبي ﷺ، بنحوه[2]، وكل من الإسنادين جيد حسن، وعنده[3] أن السائل هو «أبو مالك»، فالله أعلم.

وعن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا هل مُشَمِّرٌ إلى الجنة؟ فإن الجنة لا خَطَر لها، هي ـ ورب الكعبة ـ نور يتلألأ، وريحانة تَهتَزُّ، وقصر مَشيدٌ، ونهر مُطَّرِد، وثمرة نَضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحُلَل كثيرة، ومقام في[4] أبد، في دار سليمة، وفاكهة وخضرة وحبرة ونعمة في محلة عالية بهية». قالوا: نعم يا رسول الله، نحن المشمرون لها، قال: «قولوا: إن شاء الله». فقال القوم: إن شاء الله. رواه ابن ماجه[5].

وقوله تعالى: ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أي: رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم، كما قال الإمام مالك، رحمه الله، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخُدْري، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله، عز وجل، يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ياربنا وسعديك، والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يارب، وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحدا من خلقك. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يارب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا» أخرجاه من حديث مالك[6].

وقال أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملي: حدثنا الفضل الرُّخامي، حدثنا الفِرْيابي، عن سفيان، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله، عز وجل: هل تشتهون شيئا فأزيدكم؟ قالوا: يا ربنا، ما خير مما أعطيتنا؟ قال: رضواني أكبر».

---

* حديث أبي هريرة

(١) سنن الترمذي برقم (٢٥٢٧).

(٢) أما حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، فرواه أيضا الإمام أحمد في مسنده (٢/١٧٣) من طريق حيي بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. وأما حديث أبي مالك الأشعري فهو في المعجم الكبير (٣/١٠١-٣) وسيأتي عند تفسير الآية: ٢٠ من سورة الزمر.

(٣) في أ: «وعنده». (٤) في ت: «ومقام به في».

(٥) سنن ابن ماجه برقم (٤٣٣٢) من طريق الضحاك المعافري، عن سليمان بن موسى، عن كريب، عن أسامة بن زيد به.

وقال البوصيري في الزوائد (٣/٣٢٥): «هذا إسناد فيه مقال».

(٦) صحيح البخاري برقم (٦٥٤٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٩).

ورواه البزار في مسنده، من حديث الثورى[1]، وقال الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «صفة الجنة»: هذا عندى على شرط الصحيح، والله أعلم.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٧٤) ﴾.

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار فى الدار الآخرة. وقد تقدم عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب أنه قال: بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف، سيف للمشركين: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]، وسيف للكفار أهل الكتاب: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، وسيف للمنافقين: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩]، وسيف للبغاة: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

وهذا يقتضى أنهم يجاهدون بالسيوف[2] إذا أظهروا النفاق، وهو اختيار ابن جرير.

وقال ابن مسعود فى قوله تعالى: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ قال: بيده، [فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه][3] فإن لم يستطع فليكفهر فى وجهه.

وقال ابن عباس: أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان، وأذهب الرفق عنهم.

وقال الضحاك: جاهد الكفار بالسيف، واغلظ على المنافقين بالكلام، وهو مجاهدتهم. وعن مقاتل، والربيع مثله.

وقال الحسن وقتادة: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم.

وقد يقال: إنه لا منافاة بين هذه الأقوال، لأنه تارة يؤاخذهم بهذا، وتارة بهذا بحسب الأحوال، والله أعلم.

وقوله: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾: قال قتادة: نزلت فى عبد الله بن أبيّ، وذلك أنه اقتتل رجلان: جُهَنى وأنصارى، فعلا الجهنى على الأنصارى، فقال عبد

---

(١) ورواه أبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٢٨٣) والحاكم فى المستدرك (١/ ٨٢) من طريق محمد بن يوسف الفريابى به نحوه، وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

(٢) فى أ: «بالسيف». (٣) زيادة من ت، ك، أ، والطبرى.

الله للأنصار: ألا تنصروا أخاكم؟ والله [(١)]ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: «سمِّن كلبك يأكلك». وقال: ﴿لئن رَّجعنا إلى المدينة ليُخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ﴾ [المنافقون: ٨]. فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ، فأرسل إليه فسأله، فجعل يحلف بالله ما قاله، فأنزل الله فيه هذه الآية[(٢)].

وروى إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة، عن عمه موسى بن عقبة قال: فحدثنا عبد الله بن الفضل، أنه سمع أنس بن مالك، رضي الله عنه، يقول: حزنت على من أصيب بالحَرَّة من قومي، فكتب إلى زيد بن أرقم، وبلغه شدة حزني، يذكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «اللهم، اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار» ـ وشك ابن الفضل في أبناء أبناء الأنصار ـ قال ابن الفضل: فسأل أنساً بعض من كان عنده زيد بن أرقم، فقال: هو الذي يقول له رسول الله ﷺ: «أوفى الله له بأذنه» وذلك حين سمع رجلا من المنافقين يقول ـ ورسول الله ﷺ يخطب ـ: لئن كان هذا صادقا فنحن [(٣)] شر من الحمير، فقال زيد ابن أرقم: فهو والله صادق، ولأنت شر من الحمار. ثم رُفع ذلك إلى رسول الله، فجحده القائل، فأنزل الله هذه الآية تصديقاً لزيد ـ يعني قوله: ﴿يحلفون بالله ما قالوا﴾ الآية.

رواه البخاري في صحيحه، عن إسماعيل بن أبي أويس، عن إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة. إلى قوله: «هذا الذي أوفى الله له بأذنه»[(٤)]. ولعل ما بعده من قول موسى بن عقبة، وقد رواه محمد بن فُلَيح، عن موسى بن عقبة بإسناده ثم قال: قال ابن شهاب. فذكر ما بعده عن موسى، عن ابن شهاب.

والمشهور في هذه القصة أنها كانت في غزوة بني المصطلق، فلعل الراوي وَهَم في ذكر الآية، وأراد أن يذكر غيرها فذكرها، والله أعلم.

[حاشية][(٥)]

قال «الأموي» في مغازيه: حدثنا محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن جده قال: لما قدم رسول الله ﷺ، أخذني قومي فقالوا: إنك امرؤ شاعر، فإن شئت أن تعتذر إلى رسول الله ﷺ ببعض العلة، ثم يكون ذنبا تستغفر الله منه.. وذكر الحديث بطوله، إلى أن قال: وكان ممن تخلف من المنافقين، ونزل فيه القرآن منهم، ممن كان مع النبي ﷺ: الجُلاس بن سُوَيد بن الصامت، وكان على أم عُمَير بن سعد، وكان عمير في حجره، فلما نزل القرآن وذكرهم الله بما ذكر مما أنزل في المنافقين، قال الجلاس: والله لئن كان هذا الرجل صادقا فيما يقول لنحن شر من الحمير[قال][(٦)]: فسمعها عُمَير بن سعد فقال: والله ـ يا جلاس ـ إنك لأحب

(١) في ت: «فوالله».

(٢) رواه الطبري في تفسيره (١٤/ ٣٦٤).

(٣) في ك: «لنحن».

(٤) صحيح البخاري برقم (٤٩٠٦).

(٥) زيادة من ك.

(٦) زيادة من ك.

الناس إلي، وأحسنهم عندي بلاء، وأعزهم علي أن يصله [١] شيء يكرهه، ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحنك ولئن كتمتها لتهلكني، ولإحداهما أهون علي من الأخرى. فمشى إلى رسول الله ﷺ، فذكر له ما قال الجلاس. فلما بلغ ذلك الجلاس خرج حتى يأتي النبي ﷺ، فحلف بالله ما قال ما قال عمير بن سعد، ولقد كذب علي. فأنزل الله، عز وجل، فيه: ﴿**يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ**﴾ إلى آخر الآية. فوقفه رسول الله ﷺ عليها. فزعموا أن الجلاس تاب فحسنت توبته، ونزع فأحسن النزوع [٢]. هكذا جاء هذا «مدرجا» في الحديث متصلا به، وكأنه والله أعلم من كلام ابن إسحاق نفسه، لا من كلام كعب بن مالك.

وقال عروة بن الزبير: نزلت هذه الآية في الجُلاس بن سويد بن الصامت، أقبل هو وابن امرأته مُصعب من قُباء، فقال الجلاس: إن كان ما جاء به محمد حقا فنحن أشر من حُمُرنا هذه التي نحن عليها. فقال مُصعب: أما والله ـ يا عدو الله ـ لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت: فأتيت النبي ﷺ، وخفت أن ينزل في القرآن[٣]، أو تصيبني قارعة، أو أن أخلط [٤] بخطيئته، فقلت: يا رسول الله، أقبلت أنا والجلاس من قباء، فقال كذا وكذا، ولولا مخافة أن أخلط [٥] بخطيئة أو تصيبني قارعة ما أخبرتك. قال: فدعا الجلاس فقال: «يا جلاس، أقلت الذي قاله مصعب؟» فحلف، فأنزل الله: ﴿**يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ**﴾ الآية.

وقال محمد بن إسحاق: كان الذي قال تلك المقالة ـ فيما بلغني ـ الجُلاس بن سويد بن الصامت، فرفعها عليه رجل كان في حجره، يقال له: عمير بن سعيد، فأنكرها، فحلف بالله ما قالها. فلما نزل فيه القرآن تاب ونزع وحسنت توبته، فيما بلغني.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثني أيوب بن إسحاق بن إبراهيم، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا إسرائيل، عن سِمَاك، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالسا في ظل شجرة فقال: «إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني الشيطان، فإذا جاء فلا تكلموه». فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «علام تشتمني أنت وأصحابك؟» فانطلق الرجل فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، حتى تجاوز عنهم، فأنزل [٦] الله، عز وجل: ﴿**يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا**﴾ الآية[٧].

وذلك بَيِّنٌ فيما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب «دلائل النبوة» من حديث محمد بن إسحاق، عن الأعمش عن عمرو بن مُرة، عن [أبي] [٨] البَخْتري، عن حذيفة بن اليمان، رضي الله

---

(١) في ك: «يصله إليه».

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥١٩).

(٣) في ك: «قرآن».

(٤) في ": «أحنط».

(٥) في ت: أ: «أحنط».

(٦) في ت، ك: «وأنزل».

(٧) تفسير الطبري (١٤/ ٣٦٣).

(٨) زيادة من ت، أ، والدلائل.

عنه، قال: كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به، وعمار يسوق الناقة ـ أو أنا: أسوقه، وعمار يقوده ـ حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثني عشر راكبا قد اعترضوه فيها، قال: فأنبهت رسول الله ﷺ [بهم][١] فصرخ بهم فولوا مدبرين، فقال لنا رسول الله ﷺ: «هل عرفتم القوم؟» قلنا: لا، يا رسول الله، قد كانوا متلثمين، ولكنا قد عرفنا الركاب. قال: «هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة، وهل تدرون[٢] ما أرادوا؟»قلنا: لا. قال: «أرادوا أن يزحموا [٣] رسول الله في العقبة، فيلقوه منها». قلنا: يا رسول الله، أوَلاَ تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال: «لا، أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمدا قاتل بقوم حتى [إذا] [٤] أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم»، ثم قال: «اللهم ارمهم بالدبيلة». قلنا: يارسول الله، وما الدبيلة؟ قال: «شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك»[٥].

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا يزيد، أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جميع، عن أبي الطفيل قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، أمر مناديا فنادى: إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد. فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عمار، إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل فغشوا عمارا وهو يسوق برسول الله، وأقبل عمار، رضي الله عنه، يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله [٦]ﷺ لحذيفة: «قد، قد» حتى هبط رسول الله ﷺ، [فلما هبط] [٧] نزل ورجع عمار، فقال: «ياعمار، هل عرفت القوم؟» فقال: قد عرفت عامة الرواحل، والقوم متلثمون. قال: «هل تدري ما أرادوا؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ فيطرحوه». قال: فسار عمار رجلا من أصحاب النبي ﷺ فقال: نشدتك [٨] بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة؟ قال: أربعة عشر. فقال: إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر. قال: فعذر [٩]رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا: والله ما سمعنا منادي رسول الله، وما علمنا ما أراد القوم. فقال عمار: أشهد أن الاثني عشر الباقين حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد[١٠].

وهكذا روى ابن لَهيعة، عن أبي الأسود، عن عُرْوَة بن الزبير نحو هذا، وأن رسول الله ﷺ أمر أن يمشي الناس في بطن الوادي، وصعد هو وحذيفة وعمار العقبة، فتبعهم هؤلاء النفر الأرذلون، وهم متلثمون، فأرادوا سلوك العقبة، فأطلع الله على مرادهم رسول الله [١١] ﷺ، فأمر حذيفة فرجع

---

(١) زيادة من ت، أ، والدلائل.

(٢) في أ: «تورون». (٣) في ك: «يزاحموا».

(٤) زيادة من ت، ك، أ، والدلائل.

(٥) دلائل النبوة (٥/ ٢٦٠).

(٦) في ت، ك: «النبي».

(٧) زيادة من ت، ك، أ، والمسند.

(٨) في أ: «أنشدك». (٩) في أ: «فعده».

(١٠) المسند (٥/ ٤٥٣) وقال الهيثمي في المجمع(٦/ ١٩٥): «رجاله رجال الصحيح».

(١١) في ت، ك، أ: «رسوله».

إليهم، فضرب وجوه رواحلهم، ففزعوا ورجعوا مقبوحين، وأعلم رسول الله ﷺ حذيفة وعمارا بأسمائهم، وما كانوا هموا به من الفتك [١] به، صلوات الله وسلامه عليه، وأمرهما أن يكتما عليهم [٢].

وكذلك روى يونس بن بُكَيْر، عن ابن إسحاق، إلا أنه سَمّى جماعة منهم، فالله أعلم [٣].

وكذا قد حكى [٤] في معجم الطبراني، قاله البيهقي. ويشهد لهذه القصة بالصحة، ما رواه مسلم:

حدثنا زهير بن حرب، حدثنا أبو أحمد الكوفي، حدثنا الوليد بن جُمَيْع، حدثنا أبو الطفيل قال: كان [بين] [٥] رجل من أهل العقبة [وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس، فقال: أنشدك بالله، كم كان أصحاب العقبة] [٦]. قال: فقال له القوم: أخبره إذ سألك. قال: كنا نخبر أنهم أربعة عشر، فإن كنت منهم فقد كان القوم [٧] خمسة عشر. وأشهد بالله أن اثنى عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وعذر ثلاثة قالوا: ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ، ولا علمنا بما أراد القوم. وقد كان في حرة فمشى، فقال: «إن الماء قليل. فلا يسبقني إليه أحد»، فوجد قوما قد سبقوه، فلعنهم [٨] يومئذ [٩].

وما رواه مسلم أيضا، من حديث قتادة، عن أبي نَضْرَة، عن قيس بن عباد، عن عمار بن ياسر قال: أخبرني حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال: «في أصحابي اثنا عشر منافقا، لا يدخلون الجنة، ولا يجدون ريحها حتى يلج [الجمل] [١٠] في سم الخياط: ثمانية تكفيكهم الدُّبَيْلة: سراج من نار يظهر بين أكتافه حتى ينجم من صدورهم» [١١].

ولهذا كان حذيفة يقال له: «صاحب السر، الذي لا يعلمه غيره» أي: من تعيين جماعة من المنافقين، وهم هؤلاء، قد أطلعه عليهم رسول الله ﷺ دون غيره، والله أعلم.

وقد ترجم الطبراني في مسند حذيفة تسمية أصحاب العقبة، ثم روى عن علي بن عبد العزيز، عن الزبير بن بكار أنه قال: هم مُعَتِّب بن قشير، ووديعة بن ثابت، وجد بن عبد الله بن نَبْتَل بن الحارث من بني عمرو بن عوف، والحارث بن يزيد الطائي، وأوس بن قَيْظِي، والحارث بن سوَيْد،

---

(١) في ت: «القتل».

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٢٥٦).

(٣) دلائل النبوة للبيهقي (٥/ ٢٥٧).

(٤) في ت، أ: «وقع».

(٥، ٦) زيادة من ت، ك، أ، ومسلم.

(٧) في ك: «فقد كانوا». (٨) في أ: «فلعنوه».

(٩) صحيح مسلم برقم (٢٧٧٩).

(١٠) زيادة من ت، ك، أ، ومسلم.

(١١) صحيح مسلم برقم (٢٧٧٩).

وسعد بن زُرَارة[١]، وقيس بن فهد، وسويد وداعس من بني الحبلى، وقيس بن عمرو بن سهل، وزيد بن اللصيت، وسلالة بن الحمام، وهما من بني قينقاع أظهرا الإسلام[٢].

وقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ أي: وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويمن سفارته، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به، كما قال، عليه السلام[٣]، للأنصار: «ألم أجدكم ضُلّالا فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمَنُّ.

وهذه الصيغة تقال حيث لاذنب كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]، وكما قال، عليه السلام[٤]: «ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيرا فأغناه الله».

ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال: ﴿فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ أي: وإن يستمروا على طريقهم ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا﴾ أي: بالقتل والهم والغم، ﴿وَالآخِرَةِ﴾ أي: بالعذاب والنكال والهوان والصغار، ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ أي: وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم، ولا يحصل لهم خيرا، ولا يدفع عنهم شراً.

**﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٧٨) ﴾.**

يقول تعالى: ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه: لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله، وليكونن من الصالحين. فما وفى بما قال، ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقا سكن فى قلوبهم إلى يوم يلقَوْن[٥] الله، عز وجل، يوم القيامة، عياذاً بالله من ذلك.

وقد ذكر كثير من المفسرين، منهم ابن عباس، والحسن البصرى: أن سبب نزول هذه الآية الكريمة فى «ثعلبة بن حاطب الأنصارى».

وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير هاهنا وابن أبى حاتم، من حديث مُعَان[٦] بن رِفَاعة، عن على بن يزيد، عن أبى عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن، مولى عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية، عن أبى أمامة الباهلى، عن ثعلبة بن حاطب الأنصارى، أنه قال لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يرزقنى

---

(١) فى ك: «وابرة».

(٢) المعجم الكبير (٣/ ١٦٥ـ١٦٧).

(٣، ٤) فى أ: «ﷺ».

(٥) فى ت، ك، أ،هـ: «إلى يوم يلقوا» وهو خطأ، والصواب: فى جميع النسخ: «يلقوا» والصواب ما أثبتناه «إلى يوم يلقون»؛ لأن الفعل المضارع لم يسبق بناصب ولا بجازم.

(٦) فى ت: «معاذ».

مالا. فقال رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه». قال: ثم قال مرة أخرى، فقال: «أما ترضى أن تكون مثل نبي الله، فوالذى نفسى بيده، لو شئت أن تسير معى الجبال ذهبا وفضة لسارت». قال: والذى بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقنى مالا لأعطين كل ذى حق حقه. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة مالا». قال: فاتخذ غنما، فنمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة، فتنحى عنها، فنزل واديا من أوديتها، حتى جعل يصلى الظهر والعصر فى جماعة، ويترك ما سواهما. ثم نمت وكثُرت، فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة، وهي تنمو كما ينمو الدود، حتى ترك الجمعة. فطفق يتلقى الركبان [1] يوم الجمعة، يسألهم عن الأخبار. فقال رسول الله ﷺ: «ما فعل ثعلبة؟» فقالوا: يارسول الله، اتخذ غنما فضاقت عليه المدينة. فأخبروه بأمره فقال: «يا ويح ثعلبة، ياويح ثعلبة، ياويح ثعلبة». وأنزل الله جل ثناؤه: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ الآية [التوبة: ١٠٣] قال: ونزلت عليه فرائض الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة: رجلا من جُهَيْنَة، ورجلا من سليم، وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين، وقال لهما: «مُرا بثعلبة، وبفلان ـ رجل من بنى سليم ـ فخذا صدقاتهما». فخرجا حتى أتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة، وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جزية. ما هذه إلا أخت الجزية. ما أدرى ماهذا انطلقا حتى تفرُغا ثم عُودا إلي. فانطلقا وسمع بهما السلمى، فنظر إلى خيار أسنان إبله، فعزلها للصدقة، ثم استقبلهما [2] بها فلما رأوها قالوا: ما يجب عليك هذا، وما نريد أن نأخذ هذا منك. قال: بلى، فخذوها، فإن نفسى بذلك طيبة، وإنما هى له. فأخذوها منه. فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتى مرا بثعلبة، فقال: أرونى كتابكما فنظر فيه، فقال: ما هذه إلا أخت الجزية. انطلقا حتى أرى رأيى. فانطلقا حتى أتيا النبى [3] ﷺ، فلما رآهما قال: «يا ويح ثعلبة» قبل أن يكلمهما، ودعا للسلمي بالبركة، فأخبراه بالذى صنع ثعلبة والذى صنع السلمى، فأنزل الله، عز وجل: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ قال: وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة، فسمع ذلك، فخرج حتى أتاه فقال: ويحك يا ثعلبة. قد أنزل الله فيك كذا وكذا. فخرج ثعلبة حتى أتى النبى ﷺ، فسأله أن يقبل منه صدقته، فقال: «إن الله منعنى أن أقبل منك صدقتك». فجعل يحثو على رأسه التراب، فقال له رسول الله ﷺ: «[هذا] [4] عملك، قد أمرتك فلم تطعنى». فلما أبى أن يقبض رسول الله ﷺ رجع إلى منزله، فقُبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئاً. ثم أتى أبا بكر، رضى الله عنه، حين استخلف، فقال: قد علمت منزلتى من رسول الله، وموضعى من الأنصار، فاقبل صدقتى. فقال أبو بكر: لم يقبلها منك رسول الله ﷺ، وأبى أن يقبلها، فقبض أبو بكر ولم يقبلها. فلما ولِىَ عمر، رضى الله عنه، أتاه فقال: يا أمير المؤمنين، اقبل صدقتى. فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر، وأنا [5] أقبلها منك! فقبض ولم يقبلها؛ ثم ولي عثمان، رضى الله عنه، [فأتاه] [6] فسأله أن يقبل صدقته، فقال: لم يقبلها

---

(١) فى ت، أ: «الركاب».

(٢) فى ت، ك، أ: «استقبلهم».

(٣) فى ت: «رسول الله».

(٤) زيادة من ت، ك، أ، والطبرى.

(٥) فى ت، ك: «فأنا».

(٦) زيادة من ت، ك، أ، والطبرى.

رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر، وأنا أقبلها منك! فلم يقبلها منه، وهلك ثعلبة في خلافة عثمان[(١)].

وقوله تعالى: ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ أي: أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم، كما جاء في الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[(٢)]. وله شواهد كثيرة، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾: يخبرهم تعالى أنه يعلم السر وأخفى، وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها، فإنه أعلم بهم من أنفسهم؛ لأنه تعالى علام الغيوب، أي: يعلم كل غيب وشهادة، وكل سر ونجوى، ويعلم ما ظهر وما بطن.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩)﴾.

وهذه أيضا من صفات المنافقين: لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم في جميع الأحوال، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا: هذا مراء، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا. كما قال البخاري:

حدثنا عبيد الله بن سعيد، حدثنا أبو النعمان البصري، حدثنا شعبة، عن سليمان، عن أبي وائل، عن أبي مسعود قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مرائي. وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا. فنزلت ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ الآية.

وقد رواه مسلم أيضا في صحيحه، من حديث شعبة به[(٣)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا الجريري، عن أبي السليل قال: وقف علينا رجل في

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ٣٧٠) وقد أنكر العلماء هذه القصة وقالوا ببطلانها، فمن قال بذلك الإمام ابن حزم، قال في المحلى (١١/ ٢٠٧، ٢٠٨): «على أنه قد روينا أثرًا لا يصح وأنها نزلت في ثعلبة بن حاطب، وهذا باطل؛ لأن ثعلبة بدري معروف،ثم ساق الحديث بإسناده من طريق معان بن رفاعة عن علي بن يزيد عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة وقال: «وهذا باطل لاشك؛ لأن الله أمر بقبض زكوات أموال المسلمين، وأمر عليه السلام عند موته ألا يبقى في جزيرة العرب دينان فلا يخلو ثعلبة من أن يكون مسلماً ففرض على أبي بكر وعمر قبض زكاته ولابد ولافسحة في ذلك، وإن كان كافراً ففرض ألا يبقى في جزيرة العرب فسقط هذا الأثر بلا شك، وفي رواته معان بن رفاعة، والقاسم بن عبد الرحمن وعلي بن يزيد ـ هو ابن عبد الملك ـ وكلهم ضعفاء. وللفاضل عداب الحمش رسالة في نقد هذه القصة جمع فيها أقوال أهل العلم فيها سماها «ثعلبة بن حاطب الصحابي المفترى عليه».

(٢) صحيح البخاري برقم (٣٣) وصحيح مسلم برقم (٥٩) من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

(٣) صحيح البخاري برقم (١٤١٥) وصحيح مسلم برقم (١٠١٨).

مجلسنا بالبقيع فقال: حدثني أبي ـ أو: عمي أنه رأى رسول الله ﷺ بالبقيع، وهو يقول: «من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيامة»؟ قال: فحللت من عمامتي لوثا أو لوثين، وأنا أريد أن أتصدق بهما، فأدركني ما يدرك ابن آدم، فعقدت على عمامتي. فجاء رجل لم أر بالبقيع رجلا أشد سوادا [ولا][1] أصغر منه، ولا أدمَّ ببعير[2] ساقه، لم أر بالبقيع ناقة أحسن منها، فقال: يارسول الله، أصدقة؟ قال: «نعم» فقال: دونك هذه الناقة. قال: فلمزه رجل فقال: هذا يتصدق بهذه فوالله لهي خير منه. قال: فسمعها رسول الله ﷺ فقال: «كذبت بل هو خير منك ومنها» ثلاث مرات، ثم قال: «ويل لأصحاب المئين من الإبل» ثلاثا. قالوا: إلا من يا رسول الله؟ قال: «إلا من قال بالمال هكذا وهكذا»، وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماله، ثم قال: «قد أفلح المزهد المجهد» ثلاثا: المزهد في العيش، المجهد في العبادة[3].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية، وقال: جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله ﷺ وجاءه رجل من الأنصار بصاع من طعام، فقال بعض المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء. وقالوا: إن كان الله ورسوله لغنيين عن هذا الصاع[4].

وقال العوفي، عن ابن عباس: إن رسول الله ﷺ خرج إلى الناس يوما فنادى فيهم: أن اجمعوا صدقاتكم. فجمع الناس صدقاتهم، ثم جاء رجل من آخرهم بصاع من تمر، فقال: يا رسول الله، هذا صاع من تمر بت ليلتي أجر بالجرير الماء، حتى نلت صاعين من تمر، فأمسكت أحدهما، وأتيتك بالآخر. فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقات. فسخر منه رجال، وقالوا: إن الله ورسوله لغنيان عن هذا. وما يصنعان[5] بصاعك من شيء. ثم إن عبد الرحمن بن عوف قال لرسول الله ﷺ: هل بقي أحد من أهل الصدقات؟ فقال «لا»[6]. فقال له عبد الرحمن بن عوف: فإن عندي مائة أوقية من ذهب في الصدقات. فقال له عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: أمجنون أنت؟ قال: ليس بي جنون. قال: فعلت[7] ما فعلت؟ قال: نعم، مالي ثمانية آلاف، أما أربعة آلاف فأقرضها ربي، وأما أربعة آلاف فلي. فقال له رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت». ولمزه المنافقون فقالوا: والله ما أعطى عبد الرحمن عطيته إلا رياء. وهم كاذبون، إنما كان به متطوعا، فأنزل الله، عز وجل، عذره وعذر صاحبه المسكين الذي جاء بالصاع من التمر، فقال تعالى في كتابه: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ الآية.

وكذا روى عن مجاهد، وغير واحد.

وقال ابن إسحاق: كان المطوعون من المؤمنين في الصدقات: عبد الرحمن بن عوف، تصدق

---

(١) زيادة من أ، والمسند. (٢) في ت، ك، أ: «ببعير».

(٣) المسند (٥/ ٣٤).

(٤) رواه الطبري في تفسيره (١٤/ ٣٨٢).

(٥) في ت، ك، أ: «يصنعون». (٦) في ت، ك: «لا لم يبق أحد غيرك». (٧) في ت، أ: «فقال أفعلت».

بأربعة آلاف درهم، وعاصم بن عدى أخا بنى العجلان، وذلك أن رسول الله ﷺ رغب فى الصدقات، وحض عليها، فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف، وقام عاصم فتصدق بمائة وسق من تمر، فلمزوهما وقالوا: ما هذا إلا رياء. وكان الذى تصدق بجهده: أبو عقيل أخو بنى أنيف الإراشى حليف بنى عمرو بن عوف، أتى بصاع من تمر فأفرغه فى الصدقة، فتضاحكوا به وقالوا: إن الله لغنى عن صاع أبى عَقيل.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا طالوت بن عباد، حدثنا أبو عَوَانة، عن عمر[1] بن أبى سلمة، عن أبيه، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تصدقوا فإنى أريد أن أبعث بعثا». قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال: يا رسول الله، عندى أربعة آلاف، ألفين أقرضهما ربى، وألفين لعيالى. فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت[2]، وبارك لك فيما أمسكت». وبات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر، فقال: يا رسول الله، أصبت صاعين من تمر: صاع أقرضه[3] لربى، وصاع لعيالى. قال: فلمزه المنافقون وقالوا: ما أعطى الذى أعطى ابن عوف إلا رياءً! وقالوا: ألم يكن الله ورسوله غنيَّين عن صاع هذا؟ فأنزل الله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ [سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ][4]﴾ الآية[5].

ثم رواه عن أبى كامل، عن أبى عوانة، عن عمر بن أبى سلمة، عن أبيه مرسلا[6]. قال: ولم يسنده أحد إلا طالوت.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا زيد بن الحُبَاب، عن موسى بن عبيدة، حدثنى خالد بن يَسَار، عن ابن أبى عقيل، عن أبيه قال: بت أجرُّ الجرير على ظهرى، على صاعين من تمر، فانقلبت بأحدهما إلى أهلى يتبلَّغون به، وجئت بالآخر أتقرب [به][7] إلى رسول الله ﷺ فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «انثره فى الصدقة». قال: فسخر القوم وقالوا: لقد كان الله غنيا عن صدقة هذا المسكين. فأنزل الله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ الآيتين[8].

---

(١) فى أ: «عمرو». (٢) فى ك: «أعطيته». (٣) فى ت: «أقرضه».

(٤) زيادة من ت، ك، أ.

(٥) مسند البزار برقم (٢٢١٦) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٣٢): «وفيه عمرو بن أبى سلمة، وثقه العجلى، وأبو خيثمة وابن حبان وضعفه شعبة وغيره، وبقية رجالهما ثقات».

(٦) مسند البزار برقم (٢٢١٦) «كشف الأستار» قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٨/ ٣٣٢) بعد أن ساق هذه الرواية المرسلة: «وكذلك أخرجه عبد بن حميد عن يونس بن محمد عن أبى عوانة، وأخرجه ابن أبى حاتم والطبرى وابن مردويه من طرق أخرى عن أبى عوانة مرسلاً».

(٧) زيادة من ت، أ، والطبرى.

(٨) تفسير الطبرى (١٤/ ٣٨٨).

وكذا رواه الطبراني من حديث زيد بن الحباب[1]، به. وقال: اسم أبي عقيل: حباب. ويقال: عبد الرحمن بن عبد الله بن ثعلبة.

وقوله: ﴿فيسخرون منهم سخر الله منهم﴾: وهذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من سخر بهم، انتصارا للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً.

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠)﴾.

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلا للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم، ولو سبعين مرة فإن الله لا يغفر لهم.

وقد قيل: إن السبعين إنما ذكرت حسما لمادة الاستغفار لهم؛ لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها.

وقيل: بل لها مفهوم، كما روى العوفي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «أسمع ربي قد رخص لي فيهم، فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة، لعل الله أن يغفر لهم! فقال الله من شدة غضبه عليهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦].

وقال الشعبي: لما ثقل عبد الله بن أبي، انطلق ابنه إلى النبي ﷺ فقال: إن أبي قد احتضر، فأحب أن تشهده وتصلي عليه. فقال النبي ﷺ: «ما اسمك». قال الحباب بن عبد الله. قال: «بل أنت عبد الله بن عبد الله، إن الحباب اسم شيطان». قال: فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وهو عرق، وصلى عليه، فقيل له: أتصلي عليه [وهو منافق][2]؟ قال: «إن الله قال: ﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة﴾، ولأستغفرن له سبعين وسبعين وسبعين».

وكذا روي عن عروة بن الزبير ومجاهد بن جبير، وقتادة بن دعامة. رواها ابن جرير بأسانيده.

---

(١) المعجم الكبير (٤/ ٤٥) وقد وقع فيه: «عن زيد بن الحباب عن خالد بن يسار» فأسقط موسى بن عبيدة في روايته؛ ولذا قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٣): «رجاله ثقات إلا أن خالد بن يسار لم أجد من وثقه ولا جرحه» لكن الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٨٨) عزاه للطبراني في معجمه من طريق موسى بن عبيدة عن خالد بن يسار، فلعله سقط من نسخ الطبراني أو توهم فيه الزيلعي.

تنبيه: كذا وقع هنا وعند الطبراني: «اسم أبي عقيل حباب»، قال الحافظ ابن حجر في الإصابة (١/ ٣٨٩): «كذا وقع عند الطبراني، والصواب حَبْحَاب».

(٢) زيادة من ت، أ.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢)﴾.

يقول تعالى ذامًا للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، وفرحوا بمقعدهم[1] بعد خروجه، ﴿وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا﴾ معه ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا﴾ أى: بعضهم لبعض: ﴿لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾؛ وذلك أن الخروج فى[2] غزوة تبوك كان فى شدة الحر، عند طيب الظلال والثمار، فلهذا قالوا[3]: ﴿لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾، قال الله تعالى لرسوله: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التى تصيرون إليها بسبب مخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مما فررتم منه من الحر، بل أشد حرا من النار، كما قال الإمام مالك، عن أبى الزِّناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «نار بنى آدم التى يوقدون بها جزءٌ من سبعين جزءًا [من نار جهنم» فقالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافيةٌ. قال[4]: «إنها فُضِّلَت عليها بتسعة وستين جزءا][5]» أخرجاه فى الصحيحين من حديث مالك، به[6].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة، عن النبى[7] ﷺ قال: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل [الله][8] فيها منفعة لأحد»[9]. وهذا أيضا إسناده صحيح[10].

وقد روى الإمام أبو عيسى الترمذى وابن ماجه، عن عباس الدورى، عن يحيى بن أبى بكير[11]، عن شريك، عن عاصم، عن أبى صالح، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُوقد على النار ألف سنة حتى احمرَّت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضَّت، ثم أُوقد عليها ألف سنة حتى اسودَّت، فهى سوداء كالليل المظلم». ثم قال الترمذى: لا أعلم أحداً رفعه غير يحيى[12].

كذا قال. وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوَيه عن إبراهيم بن محمد، عن محمد بن الحسين بن

---

(١) فى ت، أ: «بقعودهم». (٢) فى ت، أ: «إلى».
(٣) فى ك: «قال». (٤) فى ت، ك، أ: «فقال». (٥) زيادة من ت، ك، أ، والموطأ.
(٦) الموطأ (٢/ ٩٩٤) وصحيح البخارى برقم (٣٢٦٥) ورواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٨٤٣) من طريق المغيرة بن عبد الرحمن عن أبى الزناد به.
(٧) فى ك: «أن رسول الله». (٨) زيادة من ت، ك، أ، والمسند.
(٩) المسند (٢/ ٢٤٤).
(١٠) فى ت، أ: «إسناد جيد صحيح». (١١) فى أ: «بكر».
(١٢) سنن الترمذى برقم (٢٥٩١) وسنن ابن ماجه برقم (٤٣٢٠) وقال الترمذى: «حديث أبى هريرة فى هذا موقوف أصح، ولا أعلم أحداً رفعه غير يحيى بن أبى بكير عن شريك».

مكرم، عن عبيد الله بن سعد[١]، عن عمه، عن شريك ـ وهو ابن عبد الله النخعي ـ به. وروى أيضاً ابن مَرْدُويه من رواية مبارك بن فضالة، عن ثابت، عن أنس قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦]، قال: «أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، وألف عام حتى احمرت، وألف عام حتى اسودت، فهي سوداء كالليل، لا يضيء لهبها»[٢].

وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث تمام بن نَجيح ـ وقد اختلف فيه ـ عن الحسن، عن أنس مرفوعاً: «لو أن شرارة بالمشرق ـ أي من نار جهنم ـ لوجد حرها مَنْ بالمغرب»[٣].

وروى الحافظ أبو يعلى عن إسحاق بن أبي إسرائيل، عن أبي عبيدة الحداد، عن هشام بن حسان[٤]، عن محمد بن شبيب، عن جعفر بن أبي وحشية، عن سعيد بن جُبير، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان هذا المسجد مائة ألف أو يزيدون، وفيهم رجل من أهل النار فتنفس فأصابهم نفسه، لاحترق المسجد ومن فيه»[٥]. غريب.

وقال الأعمش عن أبي إسحاق، عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لمن له نعلان وشراكان من نار، يغلي منهما دماغه كما يغلي المِرْجَل، لا يرى أحداً من أهل النار أشدَّ عذاباً منه، وإنه أهونهم عذاباً». أخرجاه في الصحيحين، من حديث الأعمش[٦].

وقال مسلم أيضاً: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا يحيى بن أبي بُكَيْر[٧]، حدثنا زهير بن محمد، عن سهيل بن أبي صالح، عن النعمان بن أبي عياش[٨]، عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى أهل النار عذاباً يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار، يغلي دماغه من حرارة نعليه»[٩].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن ابن عجلان، سمعت أبي، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن أدنى أهل النار عذاباً رجل يجعل له نعلان يغلي منهما دماغه»[١٠].

وهذا إسناد جيد قوي، رجاله على شرط مسلم، والله أعلم.

---

(١) في ت، ك، أ: «سعيد».

(٢) ورواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٧٩٩) من طريق سهل بن حماد عن مبارك بن فضالة به نحوه.

(٣) المعجم الأوسط برقم (٤٨٤٤) «مجمع البحرين» وأشار الحافظ هنا إلى الاختلاف في حال تمام بن نجيح، قال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٣٦٢): «في إسناده احتمال للتحسين».

(٤) في جميع النسخ: «حسام» والتصويب من أبي يعلى.

(٥) مسند أبي يعلى (١٢/ ٢٢) ورواه أبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٠٧) من طريق إسحاق بن أبي إسرائيل به، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٣٦٣): «إسناده حسن، وفي متنه نكارة».

(٦) صحيح البخاري برقم (٦٥٦٢) وصحيح مسلم برقم (٢١٣).

(٧) في أ: «بكر». (٨) في أ: «عباس».

(٩) صحيح مسلم برقم (٢١١).

(١٠) المسند (٢/ ٤٣٨).

والأحاديث والآثار النبوية في هذا كثيرة، وقال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿كلا إنها لظى. نزاعة للشوى﴾ [المعارج: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿يصب من فوق رءوسهم الحميم. يصهر به ما في بطونهم والجلود. ولهم مقامع من حديد. كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق﴾ [الحج: ١٩ ـ ٢٢]، وقال تعالى: ﴿إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب﴾ [النساء: ٥٦].

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة [الأخرى][1]: ﴿قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون﴾ أي: لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول في سبيل الله في الحر، ليتقوا به حر جهنم، الذي هو أضعاف أضعاف هذا، ولكنهم كما قال الآخر[2]:

كالمستجير من الرمضاء بالنار

وقال الآخر:

عُمرُكَ بالحمية أفنيتـــه   مَخَافَةَ البارد والحـــار
وكانَ أولَى بكَ أنْ تتقي   مِنَ المعاصي حَذَرَ النَّار

ثم قال [الله][3] ، تعالى جل جلاله، متوعدا لهؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا: ﴿فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون﴾.

قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: الدنيا قليل، فليضحكوا فيها ما شاؤوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله، عز وجل، استأنفوا بكاء لا ينقطع أبدا. وكذا قال أبو رزين، والحسن، وقتادة، والربيع بن خثيم، وعون العقيلي[4]، وزيد بن أسلم.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عبد الله بن عبد الصمد بن أبي خداش، حدثنا محمد بن حميد[5]، عن ابن المبارك، عن عمران بن زيد، حدثنا يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "أيها الناس، ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول، حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون. فلو أن سفنا أزجيت فيها لجرت".

ورواه ابن ماجه من حديث الأعمش، عن يزيد الرقاشي، به[6].

---

(١) زيادة من ت، ك، أ.

(٢) وصدر البيت: والمستجير بعمرو عند كربته

وذكره داود الأنطاكي في مصارع العشاق (ص٢١٩).

(٣) زيادة من ت، ك، أ.   (٤) في ت: "العقيلي".

(٥) في جميع النسخ: "محمد بن جبير" والتصويب من أبي يعلى.

(٦) مسند أبي يعلى (٧/ ١٦١، ١٦٢) وسنن ابن ماجه برقم (٤٣٢٤) وقال البوصيري في الزوائد (٣/ ٣٢٣): "هذا إسناد فيه يزيد بن أبان الرقاشي وهو ضعيف".

وقال الحافظ أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن العباس، حدثنا حماد الجزرى، عن زيد بن رُفَيع، رفعه قال: «إن أهل النار إذا دخلوا النار بكوا الدموع زماناً، ثم بكوا القيح زماناً» قال: «فتقول لهم الخزَنة: يا معشر الأشقياء، تركتم البكاء في الدار المرحوم فيها أهلها في الدنيا، هل تجدون اليوم من تستغيثون به؟ قال: فيرفعون[1] أصواتهم: يا أهل الجنة، يا معشر الآباء والأمهات والأولاد، خرجنا من القبور عطاشاً، وكنا طول الموقف عطاشاً، ونحن اليوم عطاش، فأفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، فيدعُون أربعين سنة لا يجيبهم، ثم يجيبهم: ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، فييأسون من كل خير»[2].

﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣)﴾.

يقول تعالى آمراً لرسوله عليه الصلاة والسلام[3]: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ﴾ أى: ردك الله من غزوتك هذه ﴿إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ قال قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا اثنى عشر رجلا، ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ أى: معك إلى غزوة أخرى، ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ أى: تعزيرا لهم وعقوبة. ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، فإن من جزاء السيئة السيئة بعدها كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، كما قال في عُمرة الحديبية: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾: قال ابن عباس: أى الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة. وقال قتادة: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ أى: مع النساء.

قال ابن جرير: وهذا لا يستقيم؛ لأن جمع النساء لا يكون بالياء والنون، ولو أريد النساء لقال: فاقعدوا مع الخوالف، أو الخالفات، ورجح قول ابن عباس رضى الله عنهما[4] [5].

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤)﴾.

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين، وألا يصلى[6] على أحد منهم إذا مات، وألا

---

(١) في ت: «فيرفعوا».

(٢) صفة النار (ق ١٥٦ ظاهرية) وله شواهد من حديث أبي موسى الأشعري وأبي سعيد الخدري، رضى الله عنهما.

(٣) في أ: «ﷺ». (٤) في ت، ك، أ: «عنه».

(٥) تفسير الطبري (١٤/٤٠٥).

(٦) في ت، أ: «ونهاه أن يصلى».

يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله، وماتوا عليه. وهذا حكم عام في كل من عُرِف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أُبَيّ بن سلول رأس المنافقين، كما قال البخاري:

حدثنا عبيد بن إسماعيل، عن أبي أسامة، عن عُبَيد الله، عن نافع، عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله ـ هو ابن أُبيّ ـ جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفِّن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟! فقال رسول الله ﷺ: «إنما خيرني الله فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، وسأزيده على السبعين». قال: إنه منافق! قال: فصلى عليه [رسولُ الله ﷺ][1]. فأنزل الله، عز وجل، آية: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾.

وكذا رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن أبي أسامة حماد بن أسامة، به[2].

ثم رواه البخاري عن إبراهيم بن المنذر، عن أنس بن عياض، عن عبيد الله ـ وهو ابن عمر العمري ـ به وقال: فصلى عليه، وصلينا معه، وأنزل الله: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ الآية.

وهكذا رواه الإمام أحمد، عن يحيى بن سعيد القطان، عن عبيد الله، به[3].

وقد رُوي من حديث عمرَ بن الخطاب نفسه أيضاً بنحو من هذا، فقال الإمام أحمد:

حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: سمعت عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يقول لما تُوفي عبد الله بن [أُبَيّ دعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام إليه، فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولتُ حتى قمت في صدره، فقلت: يا رسول الله، أعلى عدوِّ الله عبد الله بن][4] أُبَيّ القائل يوم كذا: كذا وكذا ـ يُعدِّد أيامه ـ قال: ورسول الله ﷺ يتبسم، حتى إذا أكثرتُ عليه قال: «أخِّرْ عني يا عمر، إني خُيِّرت فاخترتُ، قد قيل لي: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، لو أعلم أني إن زدت على السبعين غُفر له لزدت». قال: ثم صلى عليه، ومشى معه، وقام على قبره حتى فُرِغ منه ـ قال: فَعَجبٌ لي وجراءتي على رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلم! قال: فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا

---

(١) زيادة من ت، ك، أ، والبخاري.

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٦٧٠) وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٤).

(٣) صحيح البخاري برقم (٤٦٧٢) والمسند (٢/ ١٨).

(٤) زيادة من ت، ك، أ، والمسند.

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾. فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق، ولا قام على قبره، حتى قبضه الله، عز وجل.

وهكذا رواه الترمذي في «التفسير» من حديث محمد بن إسحاق، عن الزهري، به[١]، وقال: حسن صحيح. ورواه البخاري عن يحيى بن بُكَير، عن الليث، عن عُقَيل، عن الزهري، به، فذكر مثله وقال: «أخّر عني يا عمر». فلما أكثرت عليه قال: «إني خُيِّرت فاخترتُ، ولو أعلم أني إن زدت على السبعين يُغفَر[٢] له لزدت عليها». قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف، فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ الآية، فعجبتُ بعد من جُرْأتي على رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ أعلم[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عُبَيد، حدثنا عبد الملك، عن أبي الزبير، عن جابر قال: لما مات عبد الله بن أبيّ، أتى ابنه النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إنك إن لم تأته لم نزل نُعيَّر بهذا. فأتاه النبيّ ﷺ، فوجده قد أدخل في حفرته، فقال: أفلا قبل أن تدخلوه! فأخرج من حُفرته، وتَفَل عليه من قرنه إلى قدمه، وألبسه قميصه.

ورواه النسائي، عن أبي داود الحراني، عن يعلى بن عبيد، عن عبد الملك ـ وهو ابن أبي سليمان به[٤].

وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن عثمان، أخبرنا ابن عُيَينة، عن عمرو، سمع جابر بن عبد الله قال: أتى النبيّ ﷺ عبد الله بن أبيّ بعد ما أدخل في قبره، فأمر به فأخرج، ووضع على ركبتيه، ونَفَث عليه من ريقه، وألبسه قميصه، والله أعلم[٥].

وقد رواه أيضاً في غير موضع مع مسلم والنسائي، من غير وجه، عن سفيان بن عيينة، به[٦].

وقال الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا يحيى، حدثنا مجالد، حدثنا عامر، حدثنا جابر (ح) وحدثنا يوسف بن موسى، حدثنا عبدالرحمن بن مغراء الدوسي، حدثنا مجالد، عن الشعبي، عن جابر قال: مات رأس المنافقين ـ قال يحيى بن سعيد: بالمدينة ـ فأوصى أن يُصلي عليه النبي[٧] ﷺ، فجاء ابنه إلى رسول الله ﷺ فقال:

---

(١) المسند (١/ ١٦) وسنن الترمذي برقم (٣٠٩٧).

(٢) في ت: «تغفر».

(٣) صحيح البخاري برقم (٤٦٧١).

(٤) المسند (٣/ ٣٧١) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٩٦٦٥).

(٥) صحيح البخاري برقم (٥٧٩٥).

(٦) صحيح البخاري برقم (١٢٧٠، ١٣٥٠، ٣٠٠٨) وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٣) وسنن النسائي (٤/ ٣٧، ٣٨).

(٧) في ت: «رسول الله».

إن أبي أوصى أن يكفن في قميصك ـ وهذا الكلام في حديث عبد الرحمن بن مغراء ـ قال يحيى في حديثه: فصلى عليه، وألبسه قميصه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾. وزاد عبد الرحمن: وخلع النبي ﷺ قميصه، فأعطاه إياه، ومشى فصلى عليه، وقام على قبره، فأتاه جبريل، عليه السلام، لما ولى قال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾[1] وهذا إسناد لا بأس به، وما قبله شاهد له.

وقال الإمام أبو جعفر الطبري: حدثنا [أحمد بن إسحاق، حدثنا][2] أبو أحمد، حدثنا حماد بن سلمة، عن يزيد الرقاشي، عن أنس: أن رسول الله ﷺ أراد أن يصلي على عبد الله بن أبيّ، فأخذ جبريل بثوبه وقال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾.

ورواه الحافظ أبو يعلى في مسنده، من حديث يزيد الرقاشي[3]، وهو ضعيف.

وقال قتادة: أرسل عبد الله بن أبيّ إلى رسول الله ﷺ وهو مريض، فلما دخل عليه قال له النبي ﷺ: «أهلكك حبّ يهود». قال: يا رسول الله، إنما أرسلتُ إليك لتستغفر لي، ولم أرسل إليك لتؤنبني! ثم سأله عبد الله أن يعطيه قميصه أن يكفن فيه أباه، فأعطاه إياه، وصلى عليه، وقام على قبره، فأنزل الله، عز وجل: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾.

وقد ذكر بعض السلف أنه إنما ألبسه قميصه؛ لأن عبد الله بن أبيّ لما قدم العباس طُلب له قميص، فلم يُوجَد على تفصيله إلا ثوب عبد الله بن أُبيّ؛ لأنه كان ضخماً طويلاً، ففعل ذلك به رسول الله ﷺ، مكافأة له، فالله أعلم، ولهذا كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه لا يصلي على أحد من المنافقين، ولا يقوم على قبره، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن أبيه، حدثني عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا دعي لجنازة سأل عنها، فإن أثني عليها خيراً قام فصلى عليها، وإن أثني عليها غير ذلك قال لأهلها: «شأنكم بها»، ولم يصل عليها[4].

وكان عمر بن الخطاب لا يصلي على جنازة من جُهِل حاله، حتى يصلي عليها حذيفة بن اليمان؛ لأنه كان يعلم أعيان منافقين قد أخبره[5] بهم رسول الله ﷺ؛ ولهذا كان يقال له: «صاحب السر» الذي لا يعلمه غيره أي من الصحابة.

---

(١) ورواه ابن ماجه في السنن برقم (١٥٢٤) من طريق يحيى بن سعيد عن مجالد به نحوه.

(٢) زيادة من ت، أ، والطبري.

(٣) تفسير الطبري (١٤/٤٠٧) ومسند أبي يعلى (٧/١٤٥).

(٤) المسند (٥/٢٩٩).

(٥) في أ: «أعلمه».

وقال أبو عُبَيد في كتاب «الغريب»، في حديث عُمَر أنه أراد أن يصلي على جنازة رجل، فمرَزَه حُذيفة، كأنه أراد أن يَصُدّه عن الصلاة عليها، ثم حكى عن بعضهم أن «المرز» بلغة أهل اليمامة هو: القَرْص بأطراف الأصابع.

ولما نهى الله، عز وجل، عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم، كان هذا الصنيعُ من أكبر القُرُبات في حق المؤمنين، فشرع ذلك. وفي فعله الأجر الجزيل، لما[1] ثبت في الصحاح وغيرها من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من شهد الجنازة حتى يصلّى عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان». قيل: وما القيراطان؟ قال: «أصغرهما مثل أحد»[2].

وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات فقد قال أبو داود: حدثنا إبراهيم بن موسى الرازي، أخبرنا هشام، عن عبد الله بن بَحير، عن هانئ ـ وهو أبو سعيد البربري، مولى عثمان بن عفان ـ عن عثمان، رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يسأل».

انفرد بإخراجه أبو داود، رحمه الله[3].

﴿ وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) ﴾.

قد تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة[4]، ولله الحمد.

﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ(٨٧) ﴾.

يقول تعالى منكراً وذاماً للمتخلفين عن الجهاد، الناكلين عنه مع القدرة عليه، ووجود السعة والطَّوْل، واستأذنوا الرسول في القعود، وقالوا: ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ﴾، ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء، وهن الخوالف، بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أمْنٌ كانوا أكثر الناس كلاماً، كما قال [الله][5] ،تعالى، عنهم في الآية الأخرى: ﴿فإذا جاء

---

(١) في ت، أ: «كما».

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم (١٣٢٥) ومسلم في صحيحه برقم (٩٤٥).

(٣) سنن أبي داود برقم (٣٢٢١).

(٤) انظر تفسير الآية: ٥٥ من هذه السورة.

(٥) زيادة من ت.

الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩]، أي: علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمن، وفي الحرب أجبن شيء، وكما قال الشاعر[1]:

أفي السِّلم أعياراً جفاءً وَغلْظَةً وفي الحَرْب أشباهُ النِّساء العَوارِك[2]

وقال تعالى[3] في الآية الأخرى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ. طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ. [فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ][4]﴾ [الآية][5] [محمد: ٢٠ ـ ٢٢].

وقوله: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: بسبب[6] نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل الله، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه، ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه.

**﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩)﴾.**

لما ذكر تعالى ذمّ المنافقين، بيّن ثناء المؤمنين، وما لهم في آخرتهم، فقال: ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا﴾ إلى آخر الآيتين من بيان حالهم ومآلهم.

وقوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ أي: في الدار الآخرة، في جنات الفردوس والدرجات العلى.

**﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠)﴾.**

ثم بيّن تعالى حال ذوي الأعذار في ترك الجهاد، الذين جاؤوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، ويبينون له ما هم فيه من الضعف، وعدم القدرة على الخروج، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة.

---

(١) البيت في السيرة النبوية لابن هشام (١/٦٥٦) منسوباً إلى هند بنت عتبة، والأعيار: جمع عَير وهو الحمار، والعوارك: هن الحوائض.

(٢) في أ: «العوازل». (٣) في ت: «الله». (٤) زيادة من

(٥) زيادة من ت، ك، أ. (٦) في ك: «بسببهم».

قال الضحاك، عن ابن عباس: إنه كان يقرأ: «وَجَاءَ الْمُعْذِرُونَ» بالتخفيف، ويقول: هم أهل العذر.

وكذا روى ابن عيينة، عن حُمَيد، عن مجاهد سواء.

قال ابن إسحاق: وبلغني أنهم نَفَر من بني غفار منهم: خُفاف بن إيماء بن رَحَضة.

وهذا القول هو الأظهر في معنى الآية؛ لأنه قال بعد هذا: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: لم يأتوا فيعتذروا.

وقال ابن جُرَيج عن مجاهد: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ﴾ قال: نفر من بني غفار، جاؤوا فاعتذروا فلم يَعذرهم الله. وكذا قال الحسن، وقتادة، ومحمد بن إسحاق، والقول الأول أظهر[1] والله أعلم، لما قدمنا من قوله بعده: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: وقعد آخرون من الأعراب عن المجيء للاعتذار، ثم أوعدهم بالعذاب الأليم، فقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٩٣)﴾.

ثم بين تعالى الأعذار التي لا حَرَج على من قعد فيها عن القتال، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجلاد في الجهاد، ومنه العمى والعَرَج ونحوهما، ولهذا بدأ به. ما هو عارض بسبب مرض عَنّ له في بدنه، شغله عن الخروج في سبيل الله، أو بسبب فقره[2] لا يقدر على التجهز للحرب، فليس على هؤلاء حَرَج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم، ولم يرجفوا بالناس، ولم يُثَبِّطوهم، وهم محسنون في حالهم هذا؛ ولهذا قال: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقال سفيان الثوري، عن عبد العزيز بن رفيع، عن أبي ثمامة، رضي الله عنه، قال: قال الحواريون: يا روح الله، أخبرنا عن الناصح لله؟ قال: الذي يُؤْثِر حق الله على حق الناس، وإذا حدث له أمران ـ أو: بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة ـ بدأ بالذي للآخرة ثم تفرغ للذي للدنيا.

---

(١) في أ: «أولى». (٢) في ت، أ: «فقر».

وقال الأوزاعي: خرج الناس للاستسقاء، فقام فيهم بلال بن سعد، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معشر من حضر، ألستم مقرين بالإساءة؟ قالوا: اللهم نعم. فقال: اللهم، إنا نسمعك تقول: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾، اللهم، وقد أقررنا بالإساءة فاغفر لنا وارحمنا واسقنا. ورفع يديه ورفعوا أيديهم فَسُقُوا.

وقال قتادة: نزلت هذه الآية في عائذ بن عمرو المزني.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عبيد الله الرازي، حدثنا ابن جابر، عن ابن فَرْوَة، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتبُ لرسول الله ﷺ، فكنت أكتب «براءة» فإني لواضعُ القلم على أذني إذ أُمِرْنا بالقتال، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه، إذ جاء أعمى فقال: كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى؟ فأنزل الله[1]: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ﴾ الآية[2].

وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: وذلك أن رسول الله ﷺ أمرَ الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه، فيهم عبد الله بن مُغَفَّل المزني[3]، فقالوا: يا رسول الله، احملنا. فقال لهم: «والله لا[4] أجد ما أحملكم عليه». فتولوا ولهم بكاء، وعزَّ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقة ولا محملا. فلما رأى الله حرْصَهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾: نزلت في بني مُقَرِّن من مزينة.

وقال محمد بن كعب: كانوا سبعة نفر، من بني عمرو بن عوف: سالم بن عُمَيْر[5] ـ ومن بني واقف: هَرَمى[6] بن عمرو ـ ومن بني مازن بن النجار: عبد الرحمن بن كعب، ويكنى أبا ليلى ـ ومن بني المُعَلى: [سلمان بن صخر ـ ومن بني حارثة: عبد الرحمن بن يزيد، أبو عبلة، وهو الذي تصدق بعرضه فقبله الله منه][7] ومن بني سَلِمة: عمرو بن عَنَمة[8]، وعبد الله بن عمرو المزني.

وقال محمد بن إسحاق في سياق غزوة تبوك: ثم إن رجالا من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ،

---

(١) في ت، أ: «فنزلت».

(٢) ورواه الدارقطني في الأفراد كما في الأطراف لابن طاهر (ق ١٣٤) وقال: «غريب من حديث أبي فروة ـ مسلم بن سالم عنه ـ أي ابن أبي ليلى ـ عن زيد، تفرد به محمد بن جابر عنه، وهو غريب من حديث ابن أبي ليلى لا يعلم حدث به عنه غير أبي فروة».

(٣) في ت، ك، أ: «عبد الله بن معقل بن مقرن». (٤) في ت، ك: «ما».

(٥) في ك: «عوف». (٦) في جميع النسخ: «حرمى» والتصويب من أسد الغابة والإصابة.

(٧) زيادة من ت، ك، والطبري، وفي هـ: «فضل الله». (٨) في ك: «عنزة».

وهم البكاؤون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، من بني عمرو بن عوف: سالم بن عُمَير[١]، وعلبة بن زيد أخو بني حارثة، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب، أخو بني مازن بن النجار، وعمرو ابن الحمام بن الجموح، أخو بني سَلِمة، وعبد الله بن المغفَّل المزني؛ وبعض الناس يقول: بل هو عبد الله بن عمرو المزني، وهَرَمِيّ بن عبد الله، أخو بني واقف، وعِرْباض[٢] بن سارية الفزاري، فاستحملوا رسول الله ﷺ، وكانوا أهل حاجة، فقال: لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون[٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن الأودي، حدثنا وكيع، عن الربيع، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد خلفتم بالمدينة أقواما، ما أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم واديا، ولا نلتم من عدو نيلا إلا وقد شَرِكوكم في الأجر»، ثم قرأ: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ الآية.

وأصل هذا الحديث في الصحيحين من حديث[٤] أن رسول الله ﷺ قال: «إن بالمدينة أقواما ما قطعتم واديا، ولا سرتم [مسيراً][٥] إلا وهم معكم». قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «نعم، حبسهم العذر»[٦].

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد خلفتم بالمدينة رجالا[٧]، ما قطعتم وادياً، ولا سلكتم طريقاً إلا شَرِكوكم في الأجر، حبسهم المرض».

ورواه مسلم، وابن ماجه، من طرق، عن الأعمش، به[٨].

ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء، وأنَّبهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرحال، ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ

---

(١) في أ: «عوف».

(٢) في جميع النسخ: «عباض» والتصويب من ابن هشام. مستفاد من هامش ط. الشعب.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٥١٨).

(٤) بعدها بياض في جميع النسخ تقدر كلمة.

(٥) زيادة من أ، ومسلم.

(٦) صحيح البخاري برقم (٢٨٣٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه وصحيح مسلم برقم (١٩١١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٧) في ت، أ: «أقواماً».

(٨) المسند (٣/ ٣٠٠) وصحيح مسلم برقم (١٩١١) وسنن ابن ماجه برقم (٢٧٦٥).

تعملون (٩٤) سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون (٩٥) يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين (٩٦) ﴾.

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم، ﴿قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم﴾ أى: لن نصدقكم، ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ أى: قد أعلمنا الله أحوالكم، ﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾ أى: سيظهر أعمالكم للناس فى الدنيا، ﴿ثم تردون[1] إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ أى: فيخبركم بأعمالكم، خيرها وشرها، ويجزيكم عليها.

ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون معتذرين لتعرضوا عنهم فلا تؤنبوهم، ﴿فأعرضوا عنهم﴾ احتقارا لهم، ﴿إنهم رجس﴾ أى: خبثاء نجس بواطنهم واعتقاداتهم، ﴿ومأواهم﴾ فى آخرتهم ﴿جهنم﴾، ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ أى: من الآثام والخطايا.

وأخبر أنهم وإن رضوا عنهم بحلفهم[2] لهم، ﴿ فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ أى: الخارجين عن طاعته وطاعة رسوله، فإن الفسق هو الخروج، ومنه سميت الفأرة «فويسقة» لخروجها من جحرها للإفساد، ويقال: «فسقت الرطبة»: إذا خرجت من أكمامها[3].

﴿ الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم (٩٧) ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم (٩٨) ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم (٩٩) ﴾.

أخبر تعالى أن فى الأعراب كفارا ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد، وأجدر، أى: أحرى ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، كما قال الأعمش عن إبراهيم قال: جلس أعرابى إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند، فقال الأعرابى: والله إن حديثك ليعجبنى، وإن يدك لتريبنى فقال زيد: ما يريبك من يدى؟ إنها الشمال. فقال الأعرابى: والله ما أدرى، اليمين يقطعون أو الشمال؟ فقال زيد بن صوحان[4]: صدق الله: ﴿الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا سفيان، عن أبى موسى، عن وهب

---

(١) فى أ: «ستردون» وهو خطأ. (٢) فى أ: «بحلفانهم». (٣) فى ت: «أكمامها».
(٤) فى ك: «صوحان».

ابن مُنَبِّه، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غَفَل، ومن أتى السلطان افتتن».

ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي من طرق، عن سفيان الثوري، به[1]. وقال الترمذي: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث الثوري.

ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولا، وإنما كانت البعثة من أهل القرى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩]، ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ فردَّ عليه أضعافها حتى رضي، قال: «لقد هَمَمتُ ألا أقبلَ هدية إلا من قُرشي، أو ثَقَفي أو أنصاري، أو دَوْسي»[2]؛ لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن: مكة، والطائف، والمدينة، واليمن، فهم ألطف أخلاقاً من الأعراب: لما في طباع الأعراب من الجفاء.

**حديث [الأعرابي][3] في تقبيل الولد:** قال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كُرَيْب قالا: حدثنا أبو أسامة وابن نُمَيْر، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: قَدِم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبِّلون صبيانكم؟ قالوا: نعم. قالوا: ولكنا والله ما نقبِّل. فقال رسول الله ﷺ: «وأَمْلِكُ أن كان الله نزع منكم الرحمة؟». وقال ابن نمير: «من قلبك الرحمة»[4].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق، لا يسأل عما يفعل، لعلمه وحكمته.

وأخبر تعالى أن منهم ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ أي: في سبيل الله ﴿مَغْرَمًا﴾ أي: غرامة وخسارة، ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ أي: ينتظر بكم[5] الحوادث والآفات، ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أي: هي منعكسة عليهم والسَّوء دائرٌ عليهم، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميع لدعاء عباده، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان.

وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾: هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله، ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم، ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ أي: ألا إن ذلك حاصل لهم، ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

---

(١) المسند (١/ ٣٥٧) وسنن أبي داود برقم (٢٨٥٩) وسنن الترمذي برقم (٢٢٥٦) وسنن النسائي (٧/ ١٩٥).

(٢) رواه النسائي في السنن (٦/ ٢٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) زيادة من ت، ك، أ.

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٣١٧).

(٥) في ت، ك، أ: «بهم».

﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)﴾.

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعدَّ لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم.

قال الشعبي: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية.

وقال أبو موسى الأشعري، وسعيد بن المسيب، ومحمد بن سيرين، والحسن، وقتادة: هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ.

وقال محمد بن كعب القرظي: مرَّ عمر بن الخطاب برجل يقرأ: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارُ﴾، فأخذ عمر بيده فقال: من أقرأك هذا؟ فقال: أُبيُّ بن كعب. فقال: لا تفارقني حتى أذهب بك إليه. فلما جاءه قال عمر: أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا؟ قال: نعم. قال: وسمعتها من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا، فقال أُبيٌّ: تصديق هذه الآية في أول سورة الجمعة: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجمعة: ٣]، وفي سورة الحشر: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠]، وفي الأنفال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ﴾ إلى آخر الآية [الأنفال: ٧٥]، رواه ابن جرير[1].

قال: وذكر عن الحسن البصري أنه كان يقرؤها برفع «الأنصار» عطفا على ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ﴾.

فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان: فيا ويل من أبغضهم أو سبَّهم أو أبغض او سبَّ بعضهم، ولا سيما سيدُ الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم، أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة، رضي الله عنه، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم، عياذاً بالله من ذلك. وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن، إذ يسبُّون من رضي الله عنهم؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه، ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يبتدون ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ

---

(١) تفسير الطبري (١٤/٤٣٨).

نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم (١٠١)﴾.

يخبر تعالى رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقون، وفي أهل المدينة أيضا منافقون ﴿مردوا على النفاق﴾ أي: مرنوا واستمروا عليه: ومنه يقال: شيطان مَريد ومارد، ويقال: تمرد فلان على الله، أي: عتا وتجبر.

وقوله: ﴿لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾ لا ينافي قوله تعالى: ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول﴾ الآية [محمد: ٣٠]؛ لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين. وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً، وإن كان يراه صباحاً ومساء، وشاهد هذا بالصحة ما رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال:

حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن النعمان بن سالم، عن رجل، عن جبير بن مطعم، رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة، فقال: «لتأتينكم أجوركم ولو كنتم في جُحر ثعلب». وأصغى إليَّ رسول الله ﷺ برأسه فقال: «إن في أصحابي منافقين»[١].

ومعناه: أنه قد يبوح بعض المنافقين والمرجفين من الكلام بما لا صحة له، ومن مثلهم صدرَ هذا الكلامُ الذي سمعه جبير بن مطعم. وتقدم في تفسير قوله: ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ [التوبة: ٧٤]، أنه عليه السلام[٢] أعلم حُذَيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقاً، وهذا تخصيص لا يقتضي أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم، والله أعلم.

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة «أبي عمر البيروتي» من طريق هشام بن عمار: حدثنا صدقة ابن خالد، حدثنا ابن جابر، حدثني شيخ ببيروت يكنى أبا عمر، أظنه حدثني عن أبي الدرداء؛ أن رجلا يقال له «حرملة» أتى النبي ﷺ فقال: الإيمان ها هنا ـ وأشار بيده إلى لسانه ـ والنفاق ها هنا ـ وأشار بيده إلى قلبه ولم يذكر الله إلا قليلا. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل له لسانا ذاكرا، وقلبا شاكرا، وارزقه حبي، وحبَّ من يحبني، وصيِّر أمره إلى خير». فقال: يا رسول الله، إنه كان لي أصحاب من المنافقين وكنت رأسا فيهم، أفلا آتيك بهم؟ قال: «من أتانا استغفرنا له، ومن أصر على دينه فالله أولى به، ولا تخرقن على أحد سترا»[٣].

قال: وكذا رواه أبو أحمد الحاكم، عن أبي بكر الباغندي، عن هشام بن عمار، به.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة في هذه الآية أنه قال: ما بال أقوام يتكلفون علم

(١) المسند (٤/ ٨٣).

(٢) في أ: «ﷺ».

(٣) انظر مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٩/ ٧٦).

الناس؟ فلان في الجنة وفلان في النار. فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدري! لَعَمْري أنت بنفسك[1] أعلم منك بأحوال الناس، ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه الأنبياء قبلك. قال نبي الله نوح: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢]، وقال نبي الله شعيب: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٦]، وقال الله لنبيه ﷺ: ﴿لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾[2].

وقال السدي، عن أبي مالك، عن ابن عباس في هذه الآية قال: قام رسول الله ﷺ خطيباً يوم الجمعة فقال: «اخرج يا فلان، فإنك منافق، واخرج يا فلان فإنك منافق». فأخرج من المسجد ناساً منهم، فضحهم. فجاء عمر وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم حَيَاء أنه لم يشهد الجمعة[3]، وظن أن الناس قد انصرفوا، واختبؤوا هم من عمر، ظنوا أنه قد علم بأمرهم. فجاء عمر فدخل المسجد فإذا الناس لم يصلوا، فقال له رجل من المسلمين: أبشر يا عمر، قد[4] فضح الله المنافقين اليوم. قال ابن عباس: فهذا العذاب الأول حين أخرجهم من المسجد، والعذاب الثاني عذاب القبر[5].

وكذا قال الثوري، عن السدي، عن أبي مالك نحو هذا.

وقال مجاهد في قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ يعني: القتل والسِّباء[6]، وقال ـ في رواية ـ بالجوع، وعذاب القبر، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

وقال ابن جُرَيج: عذابُ الدنيا، وعذاب القبر، ثم يردون إلى عذاب النار.

وقال الحسن البصري: عذاب في الدنيا، وعذاب في القبر[7].

وقال عبد الرحمن بن زيد: أما عذابٌ في الدنيا فالأموال والأولاد، وقرأ قول الله[8]: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٨٥]، فهذه المصائب لهم عذاب، وهي للمؤمنين أجر، وعذاب في الآخرة في النار ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، قال: النار.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ قال: هو ـ فيما بلغني ـ ما هم فيه من أمر الإسلام، وما يدخل عليهم من غيظ ذلك على غير حسبة، ثم عذابهم في القبور إذا صاروا إليها، ثم العذاب العظيم الذي يُرَدُّون إليه، عذاب الآخرة والخلد فيه.

وقال سعيد، عن قتادة في قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾: عذاب الدنيا، وعذاب القبر، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ

---

(١) في جميع النسخ: «بنصيبك» والتصويب من الطبري. مستفاد من هامش ط. الشعب.

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/٢٥٣).

(٣) في أ: «المسجد».

(٤) في ت، ك، أ: «فقد».

(٥) رواه الطبري في تفسيره (١٤/٤٤١).

(٦) في أ: «والسبي».

(٧) في ت، أ: «النار».

(٨) في ت: «قوله»، وفي أ: «قول الله تعالى».

﴿إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾. ذكر لنا أن نبي الله ﷺ أسرّ إلى حذيفة باثني عشر رجلاً من المنافقين، فقال: «ستة منهم تكفيكهم الدُّبَيْلة: سراج من نار جهنم، يأخذ في كتف أحدهم حتى يفضي إلى صدره، وستة يموتون موتاً». وذكر لنا أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كان إذا مات رجل ممن يُرى أنه منهم، نظر إلى حذيفة، فإن صلى عليه وإلا تركه. وذُكر لنا أن عمر قال لحذيفة: أنشدك بالله، أمنهم أنا؟ قال: لا، ولا أومن منها أحداً بعدك[١].

﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢)﴾.

لما بيّن تعالى حالَ المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبة عنها وتكذيباً وشكاً، شرع في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلا إلى الراحة، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق، فقال: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أقروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربّهم، ولهم أعمال أخر صالحة، خلطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه.

وهذه الآية ـ وإن كانت نزلت في أناس معينين ـ إلا أنها عامة في كل المذنبين الخاطئين المخلصين المتلوثين.

وقد قال مجاهد: إنها نزلت في أبي لُبَابة لما قال لبني قريظة: إنه الذبح، وأشار بيده إلى حلقه.

وقال ابن عباس: ﴿وَآخَرُونَ﴾: نزلت في أبي لُبابة وجماعة من أصحابه، تخلفوا عن غزوة تبوك، فقال بعضهم: أبو لبابة وخمسة معه، وقيل: وسبعة معه، وقيل: وتسعة معه، فلما رجع النبي ﷺ من غزوته[٢]، ربطوا أنفسهم بسواري المسجد، وحلفوا لا يحلهم إلا رسول الله ﷺ، فلما أنزل الله هذه الآية: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾، أطلقهم النبي ﷺ، وعفا عنهم.

وقال البخاري: حدثنا مُؤَمَّل بن هشام، حدثنا إسماعيل بن ابراهيم، حدثنا عوف، حدثنا أبو رجاء، حدثنا سَمُرَة بن جُنْدَب قال: قال رسول الله ﷺ لنا: «أتاني الليلة آتيان[٣] فابتعثاني فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولَبِن فضة، فتلقانا رجال شَطْر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطر كأقبح ما أنت راء، قالا لهم: اذهبوا فقَعُوا في ذلك النهر. فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة، قالا لي: هذه جنة عدن، وهذا منزلك. قالا: أما القوم الذين كانوا شَطر منهم حَسَن وشطر منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئاً، فتجاوز الله عنهم».

هكذا رواه مختصراً، في تفسير هذه الآية[٤].

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٤/٤٤٣). والدبيلة: خراج ودمل كبير يظهر في الجوف فيقتل صاحبه غالبا.

(٢) في أ: «من غزوه».    (٣) في أ: «اثنان».

(٤) صحيح البخاري برقم (٤٦٧٤).

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

أمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يأخُذَ من أموالهم صدقَة يطهرهم ويزكيهم بها، وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير في «أموالهم» إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئا؛ ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون، وإنما كان هذا خاصاً برسول الله[1] ﷺ؛ ولهذا احتجوا بقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾، وقد رَدَّ عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد الصديق أبو بكر وسائر الصحابة، وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة، كما كانوا يُؤدونها إلى رسول الله ﷺ، حتى قال الصديق: والله لو منعوني عِقالا ـ وفي رواية: عَنَاقاً ـ يُؤدُّونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه[2].

وقوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادع لهم واستغفر لهم، كما رواه مسلم في صحيحه، عن عبد الله ابن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أُتِيَ بصدقة قوم صَلَّى عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهم صَلِّ على آل أبي أوفى»[3]. وفي الحديث الآخر: أن امرأة قالت: يا رسول الله، صلِّ عليَّ وعلى زوجي. فقال: «صلى الله عليك، وعلى زوجك»[4].

وقوله: «إنَّ صَلَواتك»: قرأ بعضهم: «صلواتك» على الجمع، وآخرون قرؤوا: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ﴾ على الإفراد.

﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾: قال ابن عباس: رحمة لهم. وقال قتادة: وقار.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي: لدعائك ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له.

قال الإمام أحمد: حدثنا وَكِيع، حدثنا أبو العُمَيْس، عن أبي بكر بن عمرو بن عتبة، عن ابن لحذيفة، عن أبيه؛ أن النبي ﷺ كان إذا دعا لرجل أصابته، وأصابت ولده، وولد ولده[5].

ثم رواه عن أبي نُعَيم، عن مِسْعَر، عن أبي بكر بن عمرو بن عتبة، عن ابن لحذيفة ـ قال مسعر:

---

(١) في ك: «بالنبي».

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم (٧٢٨٤، ٧٢٨٥) بلفظ: «لو منعوني عقالاً» قال: «وقال ابن بكير وعبد الله عن الليث: «عناقا» وهو أصح».

(٣) صحيح مسلم برقم (١٠٧٨) والبخاري في صحيحه برقم (١٤٩٧).

(٤) رواه أبو داود في السنن برقم (١٥٣٣) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١٠٢٥٦) من حديث جابر بن عبد الله، رضي الله عنه.

(٥) المسند (٥/ ٣٨٥).

وقد ذكره مرة عن حذيفة ـ: إن صلاة النبي ﷺ لتُدرك الرجل وولده وولد ولده[١].

وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾: هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منها[٢] يحطُّ الذنوب ويمحصها ويمحقها.

وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه فيربيها لصاحبها، حتى تصير التمرة مثل أحد. كما جاء بذلك الحديث، عن رسول الله ﷺ ـ كما قال الثوري ووكيع، كلاهما عن عباد بن منصور، عن القاسم بن محمد أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم، كما يربي أحدكم مهره، حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد»، وتصديق ذلك في كتاب الله، عز وجل: ﴿[أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ][٣] هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ و[قوله][٤]: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦][٥].

وقال الثوري والأعمش كلاهما، عن عبد الله بن السائب، عن عبد الله بن أبي قتادة قال: قال عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه: إن الصدقة تقع في يد الله عز وجل قبل أن تقع في يد السائل. ثم قرأ هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا[٦] أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾.

وقد روى ابن عساكر في تاريخه، في ترجمة عبد الله بن الشاعر السَّكْسَكي الدمشقي ـ وأصله حمصي، وكان أحد الفقهاء، روى عن معاوية وغيره، وحكى عنه حوشب بن سيف السكسكي الحمصي ـ قال: غزا الناس في زمان معاوية، رضي الله عنه، وعليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فَغَلَّ رجل من المسلمين مائة دينار رومية. فلما قفل الجيش نَدم وأتى الأميرَ، فأبى أن يقبلها منه، وقال: قد تفرق الناس ولن أقبلها منك، حتى تأتي الله بها يوم القيامة فجعل الرجل يستقرئ الصحابة، فيقولون له مثل ذلك، فلما قدم دمشق ذهب إلى معاوية ليقبلها منه، فأبى عليه. فخرج من عنده وهو يبكي ويسترجع، فمر بعبد الله بن الشاعر السكسكي، فقال له: ما يبكيك؟ فذكر له أمره، فقال أمطيعي أنت؟ فقال: نعم، فقال: اذهب إلى معاوية فقل له: اقبل مني خُمسك، فادفع إليه عشرين ديناراً، وانظر الثمانين الباقية فتصدق بها عن ذلك الجيش، فإن الله يقبل التوبة عن عباده، وهو أعلم بأسمائهم ومكانهم ففعل الرجل، فقال معاوية، رضي الله عنه: لأن أكون أفتيتُه بها أحب إلي من كل شيء أملكه، أحسن الرجل[٧].

---

(١) المسند (٥/ ٤٠٠).

(٢) في ت، أ: «منهما».

(٣، ٤) زيادة من ك.

(٥) رواه الطبري في تفسيره (١٤/ ٤٦١).

تنبيه: وقع خطأ في الآية هنا وعند الطبري، وما أثبتناه هو الصواب.

(٦) في ت: «تعلموا».

(٧) تاريخ دمشق (٩/ ١٠٤) «المخطوط».

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)﴾.

قال مجاهد: هذا وَعيد، يعني من الله تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرَضُ عليه تبارك وتعالى، وعلى الرسول، وعلى المؤمنين. وهذا كائن لا محالة يوم القيامة، كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ[1] مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩]، وقال: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠] وقد يظهر ذلك للناس في الدنيا، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا دَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صَمَّاء ليس لها باب ولا كُوَّةٌ، لأخرج الله عمله للناس كائنًا ما كان»[2].

وقد ورد: أن أعمال الأحياء تُعرَض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ، كما قال أبو داود الطيالسي: حدثنا الصلت بن دينار، عن الحسن، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركم في قبورهم، فإن كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: «اللهم، ألهمهم أن يعملوا بطاعتك»[3].

وقال الإمام أحمد: أخبرنا عبد الرزاق، عن سفيان، عمَّن سمع أنساً يقول: قال النبي ﷺ: «إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات، فإن كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم، لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا»[4].

وقال البخاري: قالت عائشة، رضي الله عنها: إذا أعجبك حُسن عمل امرئ، فقل: ﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[5].

وقد ورد في الحديث شبيه بهذا، قال الإمام أحمد:

حدثنا يزيد، حدثنا حُمَيد، عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «لا عليكم أن تعجبوا بأحد حتى تنظروا بم يختم له؟ فإن العامل يعمل زماناً من عمره ـ أو: بُرهَةً من دهره ـ بعمل صالح لو مات عليه لدخل الجنة، ثم يتحول فيعمل عملا سيئًا، وإن العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيئ، لو

---

(١) في ت: «يعرضون لا يخفى».

(٢) المسند (٣/ ٢٨) ودراج عن أبي الهيثم ضعيف.

(٣) مسند الطيالسي برقم (١٧٩٤).

(٤) المسند (٣/ ١٦٤) وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٢٢٨): «وفيه رجل لم يُسم».

(٥) صحيح البخاري (١٣/ ٥٠٣ «فتح»).

مات عليه دخل النار، ثم يتحول فيعمل عملاً صالحاً، وإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله قبل موته». قالوا: يا رسول الله وكيف يستعمله: قال: «يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه»[1]. تفرد به أحمد من هذا الوجه.

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦) ﴾.

قال ابن عباس ومجاهدٌ وعكرِمة، والضحاك وغير واحد: هم الثلاثة الذين خلفوا، أي: عن التوبة، وهم: مرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد، كسلا وميلا إلى الدَّعَة والحفظ وطيب الثمار والظلال، لا شكا ونفاقا، فكانت منهم طائفة ربَطوا أنفسهم بالسوارى، كما فعل أبو لُبابة وأصحابه، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء، وأرجى هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية، وهي قوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾ الآية [التوبة: ١١٧]، ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ [وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ[2]]﴾ الآية [التوبة: ١١٨]، كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك.

وقوله: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: هم تحت عفو الله، إن شاء فعل بهم هذا، وإن شاء فعل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلب غضبه، وهو ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو، حكيم في أفعاله وأقواله، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) ﴾.

سبب نزول هذه الآيات[3] الكريمات: أنه كان بالمدينة قبل مَقْدَم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له: «أبو عامر الراهب»، وكان قد تَنَصَّر في الجاهلية وقرأ علْم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير. فلما قَدم رسولُ الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، شَرِق اللعين أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة، وظاهر بها، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش فألَّبهم على حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان،

(١) المسند (٣/ ١٢٠) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢١١): «ورجاله رجال الصحيح».

(٢) زيادة من ك.　　(٣) في أ: «الآية».

وامتحنهم الله، وكانت العاقبة للمتقين[١].

وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين، فوقع فى إحداهن رسول الله ﷺ، وأصيب ذلك اليوم، فجرح فى وجهه وكُسِرت رَبَاعِيتُه اليمنى السفلى، وشُجَّ رأسه، صلوات الله وسلامه عليه.

وتقدم أبو عامر فى أول المبارزة إلى قومه من الأنصار، فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبوه. فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومى بعدى شر. وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره، وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرَّد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً، فنالته هذه الدعوة. وذلك أنه لما فرغ الناس[٢] من أحد، ورأى أمر الرسول، صلوات الله وسلامه عليه[٣]، فى ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل، ملك الروم، يستنصره على النبى ﷺ، فوعده ومنَّاه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويُمنِّيهم أنه سيقدمَ بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له مَعقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كُتُبه ويكونَ مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج النبى ﷺ إلى تبوك، وجاؤوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتى إليهم فيصلى فى مسجدهم، ليحتجوا بصلاته، عليه السلام، فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة فى الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: «إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله».

فلما قفل، عليه السلام[٤]، راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه الوحى بخبر مسجد الضِّرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين فى مسجدهم مسجد قباء، الذى أسس من أول يوم على التقوى. فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هَدَمه قبل مقدمه المدينة، كما قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا [وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ][٥]﴾: وهم أناس من الأنصار، ابتنوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر، ابنوا مسجداً واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتى بجند من الروم وأخرج محمداً وأصحابه. فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبى ﷺ فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب[٦] أن تصلى فيه وتدعو لنا بالبركة. فأنزل الله، عز وجل: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ إلى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وكذا رُوى عن سعيد بن جُبير، ومجاهد، وعروة بن الزبير، وقتادة وغير واحد من العلماء.

وقال محمد بن إسحاق بن يَسَار، عن الزهرى، ويزيد بن رومان، وعبد الله بن أبى بكر،

---

(١) فى ت، ك، أ: «للتقوى». (٢) فى ت، أ: «المسلمون» (٣، ٤) فى أ: «ﷺ».
(٥) زيادة من أ. (٦) فى ت، ك: «فنحب».

وعاصم بن عُمَر بن قتادة وغيرهم، قالوا: أقبل رسول الله ﷺ ـ يعني: من تبوك ـ حتى نزل بذي أوان ـ بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار ـ وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة، والليلة المطيرة، والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه. فقال: «إني على جناح سفر وحال شُغل ـ أو كما قال رسول الله ﷺ ـ ولو قد قدمنا إن شاء الله تعالى أتيناكم فصلينا لكم فيه». فلما نزل بذي أوان أتاه خبرُ المسجد، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدُّخْشُم أخا بني سالم بن عوف، ومعن بن عدي ـ أو: أخاه عامر بن عدي ـ أخا بلعجلان فقال: «انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه وحرقاه». فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدّخشم، فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي. فدخل أهله فأخذ سَعَفا من النخل، فأشعل فيه ناراً، ثم خرجا يَشتدَّان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه. ونزل فيهم من القرآن ما نزل: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾ إلى آخر القصة. وكان الذين بنوه اثني عشر رجلا: خذام ابن خالد، من بني عُبَيد بن زيد، أحد[1] بني عمرو بن عوف، ومن داره أخرج مسجد الشقاق، وثعلبة بن حاطب من بني عبيد وهو إلى بني أمية بن زيد، ومعتّب بن قُشير، من [بني][2] ضُبَيعة بن زيد، وأبو حبيبة بن الأذعر، من بني ضُبَيعة بن زيد، وعبَّاد بن حُنَيف، أخو سهل بن حنيف، من بني عمرو بن عوف، وجارية بن عامر، وابناه: مُجَمِّع بن جارية، وزيد بن جارية ونَبْتَل [بن][3] الحارث، وهم من بني ضبيعة، وبحزج وهو من بني ضبيعة، وبجاد بن عُثمان وهو من بني ضُبَيعة، [ووديعة بن ثابت، وهو إلى بني أمية][4] رهط أبي لبابة بن عبد المنذر[5].

وقوله: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ أي: الذين بنوه ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ أي: ما أردناه ببنيانه إلا خيراً ورفقاً بالناس، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: فيما قصدوا وفيما نوَوا، وإنما بنوه ضرارا لمسجد قُباء، وكفرا بالله، وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله، وهو أبو عامر الفاسق، الذي يقال له: «الراهب» لعنه الله.

وقوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾: نهي من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، والأمة تَبَع له في ذلك، عن أن يقوم فيه، أي: يصلي فيه أبدا.

ثم حثه على الصلاة في مسجد قُباء الذي أسس من أول يوم بنائه على التقوى، وهي طاعة الله، وطاعة رسوله، وجمعاً لكلمة المؤمنين ومَعقلا وموئلا للإسلام وأهله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾، والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء؛ ولهذا جاء

---

(١) في أ: «جده». (٢ ـ ٤) زيادة من ت، أ، وابن هشام.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٥٣٠) ورواه الطبري في تفسيره (١٤/ ٤٦٨).

وانظر الكلام على هذه الرواية وتفنيدها في كتاب الفاضل: عداب الحمش «ثعلبة بن حاطب المفترى عليه (ص١٣٨)».

في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة في مسجد قُباء كعُمرة»[١]. وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان يزورُ مسجد قُباء راكباً وماشياً[٢]. وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ لما بناه وأسسه أول قدومه ونزوله على بني عمرو بن عوف، كان جبريل هو الذي عَيَّن له جِهَةَ القبلة[٣]، فالله أعلم.

وقال أبو داود: حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا معاوية بن هشام، عن يونس بن الحارث، عن إبراهيم بن أبي ميمونة، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «نزلت هذه الآية في أهل قباء: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ قال: كانوا يستنجون بالماء، فنزلت فيهم الآية.

ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث يونس بن الحارث، وهو ضعيف، وقال الترمذي: غريب من هذا الوجه.

وقال الطبراني: حدثنا الحسن بن علي المعمري، حدثنا محمد بن حميد الرازي، حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحاق، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾، بعث رسول الله ﷺ إلى عُوَيم بن ساعدة فقال: «ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم؟». فقال: يا رسول الله، ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه ـ أو قال: مقعدته ـ فقال النبي ﷺ: «هو هذا»[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حُسَين بن محمد، حدثنا أبو أويس، حدثنا شرحبيل، عن عُوَيم بن ساعدة الأنصاري: أنه حَدَّثه أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قُباء، فقال: «إن الله تعالى قد أحسن [عليكم الثناء][٥] في الطُّهور في قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذي تطهرون به؟» فقالوا: والله ـ يا رسول الله ـ ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود، فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط، فغسلنا كما غسلوا.

ورواه ابن خُزيمة في صحيحه[٦].

وقال هشيم، عن عبد الحميد المدني، عن إبراهيم بن إسماعيل الأنصاري: أن رسول الله ﷺ قال

---

(١) رواه الترمذي في السنن برقم (٣٢٤) وابن ماجه في السنن برقم (١٤١١) من طريق أبي أسامة ـ عبد الحميد بن جعفر ـ عن أبي الأبرد مولى بني الخطمة ـ عن أسيد بن ظهير الأنصاري رضي الله عنه، به.

وقال الترمذي ـ كما في تحفة الأشراف (١/٧٥): «حديث حسن صحيح، ولا نعرف لأسيد بن ظهير شيئاً يصح غير هذا الحديث، ولا نعرفه إلا من حديث أبي أسامة».

(٢) صحيح مسلم برقم (١٣٩٩) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) سنن أبي داود برقم (٤٤) وسنن الترمذي برقم (٣١٠٠)، وسنن ابن ماجة برقم (٣٥٧).

(٤) المعجم الكبير (١١/٦٧) وفيه محمد بن حميد وهو ضعيف، وابن إسحاق مدلس وقد عنعن.

(٥) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٦) المسند (٣/٤٢٢) وصحيح ابن خزيمة برقم (٨٣) وقال الهيثمي في المجمع (١/٢١٢): «وفيه شرحبيل بن سعد ضعفه مالك وابن معين وأبو زرعة ووثقه ابن حبان».

لعُويم بن ساعدة: «ما هذا الذى أثنى الله عليكم: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾؟. قالوا: يا رسول الله، إنا نغسل الأدبار بالماء[1].

وقال ابن جرير: حدثنى محمد بن عُمارة الأسدى، حدثنا محمد بن سعد، حدثنا إبراهيم بن محمد، عن شرحبيل بن سعد قال: سمعت خُزَيمة بن ثابت يقول: نزلت هذه الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾، قال: كانوا يغسلون أدبارهم من الغائط[2].

حديث آخر: قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا مالك ـ يعنى: ابن مغوَل ـ سمعت سيارا أبا الحكم، عن شهر بن حوشب، عن محمد بن عبد الله بن سلام قال: لما[3] قدم رسول الله ﷺ، يعنى: قباء، فقال: «إن الله، عز وجل، قد أثنى عليكم فى الطهور خيراً، أفلا تخبرونى؟» يعنى: قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾. فقالوا: يارسول الله، إنا نجده مكتوباً علينا فى التوراة: الاستنجاءُ بالماء[4].

وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف، رواه على بن أبى طلحة، عن ابن عباس. ورواه عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهرى، عن عُرْوَة بن الزبير. وقاله عطية العوفى، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والشعبى، والحسن البصرى، ونقله البغوى عن سعيد بن جبير، وقتادة.

وقد ورد فى الحديث الصحيح: أن مسجد رسول الله ﷺ الذى هو فى جوف المدينة، هو المسجد الذى أسس على التقوى. وهذا صحيح. ولا منافاة بين الآية وبين هذا؛ لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى؛ ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده:

حدثنا أبو نُعيم، حدثنا عبد الله بن عامر الأسلمى، عن عمران بن أبى أنس، عن سهل بن سعد، عن أبىّ بن كعب: أن النبى ﷺ قال: «المسجد الذى أسس على التقوى مسجدى هذا!». تفرد به أحمد[5].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا وَكيع، حدثنا ربيعة بن عثمان التيمى، عن عمران بن أبى أنس، عن سهل بن سعد الساعدى قال: اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ فى المسجد الذى أُسِّسَ على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجد رسول الله[6] ﷺ. وقال الآخر: هو مسجد قباء.

---

(١، ٢) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/٤٨٧).

(٣) فى أ: «قدم».

(٤) المسند (٦/٦).

(٥) المسند (٥/١١٦).

(٦) فى ت، أ: «الرسول».

فأتيا النبي ﷺ فسألاه، فقال: «هو مسجدي هذا»[1]. تفرد به أحمد أيضاً

**حديث آخر:** قال أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ليث، عن عمران بن أبي أنس، عن سعيد بن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «هو مسجدي هذا»[2]. تفرد به أحمد.

**طريق أخرى:** قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا ليث، حدثني عمران بن أبي أنس، عن ابن أبي سعيد، عن أبيه أنه قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال رجل: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «هو مسجدي».

وكذا رواه الترمذي والنسائي عن قتيبة، عن الليث[3]، وصححه الترمذي، ورواه مسلم كما سيأتي.

**طريق أخرى:** قال أحمد: حدثنا يحيى، عن أُنَيس بن أبي يحيى، حدثني أبي قال: سمعت أباسعيد الخدري قال: اختلف رجلان: رجل من بني خُدْرة، ورجل من بني عمرو بن عوف في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال الخدري: هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال العَمْري: هو مسجد قباء، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك، فقال: «هو هذا المسجد» لمسجد رسول الله ﷺ، وقال: «في ذاك [خير كثير]»[4]، يعني: مسجد قباء[5].

**طريق أخرى:** قال أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد ـ حدثنا حميد الخراط المدني، سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن أبي سعيد[6] فقلت: كيف سمعت أباك يقول في المسجد الذي أسس على التقوى؟ فقال أبي: أتيت رسول الله ﷺ فدخلت عليه في بيت لبعض نسائه، فقلت: يا رسول الله، أين المسجد[7] الذي أسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفا من حصباء فضرب به الأرض، ثم قال: «هو مسجدكم هذا». ثم قال: [فقلتُ له: هكذا][8] سمعتَ أباك يذكره؟.

رواه مسلم منفرداً به عن محمد بن حاتم، عن يحيى بن سعيد، به[9]. ورواه عن أبي بكر بن

---

(١) المسند (٥/ ٣٣١) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٤). «رجاله رجال الصحيح».

(٢) المسند (٣/ ٨٩).

(٣) المسند (٣/ ٧) وسنن الترمذي برقم (٣٠٩٩) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٢٢٨).

(٤) زيادة من ت، ك، أ، والمسند. وفي أ: «خير كثير».

(٥) المسند (٣/ ٢٣).

(٦) في ت، ك، أ: «سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن قال: مر بي عبد الرحمن بن أبي سعيد».

(٧) في أ: «أي مسجد». (٨) زيادة من ت، ك، أ، والطبري.

(٩) تفسير الطبري (١٤/ ٤٧٧) وصحيح مسلم برقم (١٣٩٨).

أبي شيبة وغيره، عن حاتم بن إسماعيل، عن حميد الخراط، به[١].

وقد قال بأنه مسجد النبي ﷺ جماعة من السلف والخلف، وهو مروي عن عمر بن الخطاب، وابنه عبد الله، وزيد بن ثابت، وسعيد بن المسيب. واختاره ابن جرير.

وقوله: **﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾**: دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع جماعة الصالحين، والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء، والتنزه عن[٢] ملابسة القاذورات.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن عبد الملك بن عمير، سمعت شبيبا أبا روح يحدث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ: أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح فقرأ بهم[٣] الروم فأوهم، فلما انصرف قال: «إنه يلبس علينا القرآن، إن أقواما منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء».

ثم رواه من طريقين آخرين، عن عبد الملك بن عمير، عن شبيب أبي روح من ذي الكلاع: أنه صلى مع النبي ﷺ، فذكره[٤]. فدل هذا على أن إكمال الطهارة يسهل القيام في العبادة، ويعين على إتمامها وإكمالها والقيام بمشروعاتها.

وقال أبو العالية في قوله تعالى: **﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾**: إن الطهور بالماء لحسن، ولكنهم المطهرون من الذنوب.

وقال الأعمش: التوبة من الذنب، والتطهير من الشرك.

وقد ورد في الحديث المروي من طرق، في السنن وغيرها، أن رسول الله ﷺ قال لأهل قباء: «قد أثنى الله عليكم في الطهور، فماذا تصنعون؟» فقالوا: نستنجي بالماء.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عبد الله بن شبيب، حدثنا أحمد بن محمد بن عبد العزيز قال: وجدته في كتاب أبي ، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء: **﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾**. فسألهم رسول الله ﷺ فقالوا: إنا نُتبعُ الحجارة الماء.

ثم قال: تفرد به محمد بن عبد العزيز، عن الزهري، ولم يرو عنه سوى ابنه[٥].

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٣٩٨).

(٢) في ت، ك، أ: «من».　　　(٣) في ت، أ: «فيها».

(٤) المسند (٣/ ٤٧١، ٤٧٢).

(٥) مسند البزار برقم (٢٤٧) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٢١٢): «فيه محمد بن عبد العزيز بن عمر الزهري ضعفه البخاري والنسائي وهو الذي أشار بجلد مالك».

قلت: وإنما ذكرته بهذا اللفظ لأنه مشهور بين الفقهاء[١]، ولم يعرفه كثير من المحدثين المتأخرين، أو كلهم، والله أعلم.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)﴾.

يقول تعالى: لا يستوى من أسس بنيانه على تقوى الله ورضوان، ومن بنى مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين، وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل، فإنما بنى هؤلاء بنيانهم ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ أي: طرف حَفيرة مثاله ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا يصلح عمل المفسدين.

قال جابر بن عبد الله: رأيت المسجد الذي بنى ضرارا يخرج منه الدخان على عهد النبي[٢] ﷺ.

وقال ابن جُرَيج[٣]: ذُكر لنا أن رجالا[٤] حفَروا فوجدوا الدخان يخرج منه. وكذا قال قتادة.

وقال خلف بن ياسين الكوفي: رأيت مسجد المنافقين الذي ذكره الله تعالى في القرآن، وفيه جحر يخرج منه الدخان، وهو اليوم مَزْبلة. رواه ابن جرير[٥]، رحمه الله.

وقوله: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: شكا ونفاقا بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع، أورثهم نفاقا في قلوبهم، كما أشرب عابدو العجل حبه.

وقوله: ﴿إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: بموتهم. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وزيد بن أسلم، والسدي، وحبيب بن أبي ثابت، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد من علماء السلف.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: بأعمال خلقه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في مجازاتهم عنها[٦]، من خير وشر.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ

---

(١) في ت، ك، أ: «الفقهاء به». (٢) في ت، أ: «رسول الله». (٣) في ت، أ: «جرير».

(٤) في ت: «رجلا».

(٥) تفسير الطبري (١٤/ ٤٩٤).

(٦) في ك، أ: «عليها».

فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾.

يخبر تعالى أنه عاوض عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوها فى سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عباده المطيعين له؛ ولهذا قال الحسن البصرى وقتادة: بايعهم والله فأغلى ثمنهم.

وقال شَمِر بن عطية: ما من مسلم إلا ولله، عز وجل، فى عُنُقه بيعة، وفَّى بها أو مات عليها، ثم تلا هذه الآية.

ولهذا يقال: من حمل فى سبيل الله بايع الله، أى: قَبِل هذا العقد ووفى به.

وقال محمد بن كعب القُرَظى وغيره: قال عبد الله بن رواحة، رضى الله عنه، لرسول الله ﷺ ـ يعنى ليلة العقبة ـ : اشترط لربك ولنفسك ما شئت! فقال: «أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم». قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: «الجنة». قالوا: رَبِح البيعُ، لا نُقيل ولا نستقيل، فنزلت[1]: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ الآية.

وقوله: ﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أى: سواء قتلوا أو قُتلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا، فقد وجبت لهم الجنة؛ ولهذا جاء فى الصحيحين: «وتكفل الله لمن خرج فى سبيله، لا يخرجه إلا جهاد فى سبيلى، وتصديق برسلى، بأن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه، نائلا ما نال من أجر أو غنيمة»[2].

وقوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾: تأكيد لهذا الوعد، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة، وأنزله على رسله فى كُتُبه الكبار، وهى[3] التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقوله: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [أى: ولا واحد أعظم وفاءً بما عاهد عليه من الله][4]، فإنه لا يخلف الميعاد، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]؛ ولهذا قال: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أى: فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد، بالفوز العظيم، والنعيم[5] المقيم.

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

---

(١) فى أ: «فنزل».

(٢) صحيح البخارى برقم (٣١٢٣) وصحيح مسلم برقم (١٨٧٦).

(٣) فى أ: «وهو». (٤) زيادة من ت، ك، أ. (٥) فى ت، أ: «والمغنم».

﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾.

هذا نعتُ المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة: ﴿التَّائِبُونَ﴾ من الذنوب كلها، التاركون للفواحش، ﴿الْعَابِدُونَ﴾ أي: القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها، وهي الأقوال والأفعال فمن أخصّ الأقوال الحمد[1]؛ فلهذا قال: ﴿الْحَامِدُونَ﴾، ومن أفضل الأعمال الصيامُ، وهو ترك الملاذّ من الطعام والشراب والجماع، وهو المراد بالسياحة هاهنا؛ ولهذا قال: ﴿السَّائِحُونَ﴾، كما وصف أزواج النبي[2] ﷺ بذلك في قوله تعالى: ﴿سَائِحَاتٍ﴾ [التحريم: ٥]، أي: صائمات، وكذا الركوع والسجود، وهما عبارة عن الصلاة، ولهذا قال: ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾، وهم مع ذلك ينفعون خلق الله، ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركُه، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه، علما وعملا، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق؛ ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به.

[بيان[3] أن المراد بالسياحة الصيام][4]:

قال سفيان الثوري، عن عاصم، عن زِرّ، عن عبد الله بن مسعود قال: ﴿السَّائِحُونَ﴾ الصائمون. وكذا رُوي عن سعيد بن جُبَير، والعوفي عن ابن عباس.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: كل ما ذكر الله في القرآن السياحة، هم الصائمون. وكذا قال الضحاك، رحمه الله.

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا إبراهيم بن يزيد، عن الوليد ابن عبد الله، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: سياحةُ هذه الأمة الصيام.[5]

وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء، وأبو عبد الرحمن السلمي، والضحاك بن مُزاحم، وسفيان بن عُيينة وغيرهم: أن المراد بالسائحين: الصائمون.

وقال الحسن البصري: ﴿السَّائِحُونَ﴾: الصائمون شهر رمضان.

وقال أبو[6] عمرو العَبْدي: ﴿السَّائِحُونَ﴾: الذين يديمون الصيام من المؤمنين.

وقد ورد في حديث مرفوع نحو هذا، وقال ابن جرير: حدثني محمد بن عبد الله بن بَزِيع،

---

(١) في أ: «الحمد لله».
(٢) في ت، أ: «الرسول».
(٣) في أ: «ذكر».
(٤) زيادة من ت، ك، أ.
(٥) تفسير الطبري (١٤/٥٠٥).
(٦) في ت: «أبي».

حدثنا حكيم بن حزام، حدثنا سليمان، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «السائحون هم الصائمون»[١].

[ثم رواه عن بُنْدَار، عن ابن مهدى، عن إسرائيل، عن سليمان الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة أنه قال: ﴿السَّائِحُونَ﴾: الصائمون][٢].

وهذا الموقوف أصح.

وقال أيضا: حدثنى يونس، عن ابن وهب، عن عمر بن الحارث، عن عمرو بن دينار، عن عُبَيد ابن عُمَير قال: سئل النبى ﷺ عن السائحين فقال: «هم الصائمون»[٣].

وهذا مرسل جيد.

فهذه[٤] أصح الأقوال وأشهرها، وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد، وهو ما روى أبو داود فى سننه، من حديث أبى أمامة أن رجلا قال: يا رسول الله، ائذن لى فى السياحة. فقال النبى ﷺ: «سياحة[٥] أمتى الجهاد فى سبيل الله»[٦].

وقال ابن المبارك، عن ابن لَهِيعة: أخبرنى عُمارة بن غَزِيَّة: أن السياحة ذكرت عند رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أبدلنا الله بذلك الجهاد فى سبيل الله، والتكبير على كل شرف»[٧].

وعن عِكْرِمة أنه قال: هم طلبة العلم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المهاجرون. رواهما ابن أبى حاتم.

وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة فى الأرض، والتفرد فى شواهق الجبال والكهوف والبرارى، فإن هذا ليس بمشروع إلا فى أيام الفتَن والزلازل فى الدين، كما ثبت فى صحيح البخارى، عن أبى سعيد الخدرى[٨] أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يكون خير مال الرجل[٩] غَنَم يَتْبَع بها شَعَفَ الجبال، ومواقع القَطْر، يفر بدينه من الفتن»[١٠].

وقال العوفى وعلى بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ قال: القائمون بطاعة الله. وكذا قال الحسن البصرى، وعنه رواية: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾قال: لفرائض

---

(١) تفسير الطبرى (١٤/٣-٥).

(٢) زيادة من ت، ك، أ.

(٣) تفسير الطبرى (١٤/٢-٥).

(٤) فى ت: «وهذه»، وفى أ: «فهذا».

(٥) فى أ: «سياح».

(٦) سنن أبى داود برقم (٢٤٨٦).

(٧) وهذا معضل، عمارة بن غزية لم يدرك أحداً من الصحابة.

(٨) فى أ: «عن أبى هريرة».

(٩) فى ت، ك، أ: «المسلم».

(١٠) صحيح البخارى برقم (١٩).

الله، وفي رواية: القائمون على أمر الله.

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) ﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن الزهري، عن ابن المسيب، عن أبيه قال: لما حَضَرت أبا طالب الوفاة[1]، دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال: «أيْ عَمّ، قل: لا إله إلا الله. كلمة أحاجّ لك بها عند الله، عز وجل». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملَّة عبد المطلب؟ [قال: فلم يزالا يكلمانه، حتى قال آخر شيء كلمهم به: على[2] ملة عبد المطلب][3]. فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنْهَ عنك». فنزلت: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، قال: ونزلت فيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] أخرجاه[4].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، أخبرنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن أبي الخليل، عن علي، رضي الله عنه، قال: سمعت رجلا يستغفر لأبويه، وهما مشركان، فقلت: أيستغفر الرجل لأبويه وهما مشركان؟ فقال: أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فنزلت: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ إلى قوله: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ ﴾، قال: «لما مات»، فلا أدري قاله سفيان أو قاله إسرائيل، أو هو[5] في الحديث «لما مات»[6].

قلت هذا ثابت عن مجاهد أنه قال: لما مات.

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا زهير، حدثنا زبيد بن الحارث اليامي[7]، عن محارب بن دثار، عن ابن بُرَيْدة، عن أبيه قال: كنا مع النبي ﷺ، فنزل بنا ونحن معه قريب من ألف راكب، فصلى ركعتين، ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تَذْرِفان، فقام إليه عمر بن الخطاب وفَدَاه بالأب والأم، وقال: يا رسول الله، مالك؟ قال: «إني سألت ربي، عز وجل، في الاستغفار لأمي، فلم يأذن لي، فدمعت عيناي رحمة لها من النار، وإني كنت نهيتكم عن ثلاث: نهيتكم عن زيارة القبور

---

(١) في أ: «القائلة».  (٢) في ت، ك، أ: «فقال: أنا على ملة».  (٣) زيادة من ت، ك، أ، والمسند.

(٤) المسند (٥/٤٣٣) وصحيح البخاري برقم (٤٦٧٥) وصحيح مسلم برقم (٢٤).

(٥) في ت، أ: «وهو».

(٦) المسند (١/٩٩).

(٧) في أ: «السامي».

فزوروها، لتذكركم زيارتُها خيراً، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاث، فكلوا وأمسكوا ما شئتم، ونهيتكم عن الأشربة في الأوعية، فاشربوا في أي وعاء[1] ولا تشربوا مسكرا»[2].

وروى ابن جرير، من حديث علقمة بن مَرْثد، عن سليمان بن بُرَيدة، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ لما قدم مكة أتى رَسْمَ قبر، فجلس إليه، فجعل يخاطب، ثم قام مستعبراً. فقلنا: يا رسول الله، إنا رابنا ما صنعت. قال: «إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي، فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي». فما رؤي باكيا أكثر من يومئذ[3].

وقال ابن أبي حاتم، في تفسيره: حدثنا أبي، حدثنا خالد بن خِداش، حدثنا عبد الله بن وهب، عن ابن جُرَيج عن أيوب بن هانئ، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود قال: خرجَ رسول الله ﷺ يوما إلى المقابر، فاتبعناه، فجاء حتى جلس إلى قبر منها، فناجاه طويلا ثم بكى فبكينا لبكائه ثم قام فقام إليه عمر بن الخطاب، فدعاه ثم دعانا، فقال: «ما أبكاكم؟» فقلنا: بكينا لبكائك. قال: «إن القبر الذي جلستُ عنده قبر آمنة، وإني استأذنتُ ربي في زيارتها فأذن لي»[4]، ثم أورده من وجه آخر، ثم ذكر من حديث ابن مسعود قريبا منه، وفيه: «وإني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي، وأنزل علي: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾، فأخذني ما يأخذ الولدَ للوالدة، وكنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تذكر الآخرة»[5].

**حديث آخر في معناه:** قال الطبراني: حدثنا محمد بن علي المروزي، حدثنا أبو الدرداء عبد العزيز[6] بن منيب، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن كَيْسَان، عن أبيه، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ لما أقبل من غزوة تبوك واعتمر، فلما هبط من ثنية عُسْفان أمر أصحابه: أن استندوا إلى العقبة حتى أرجع إليكم، فذهب فنزل على قبر أمّه، فناجي ربَّه طويلا، ثم إنه بكى فاشتد بكاؤه، وبكى هؤلاء لبكائه، وقالوا: ما بكى نبي الله بهذا المكان إلا وقد أُحدثَ في أمته شيء لا تُطيقه. فلما بكى هؤلاء قام فرجع إليهم، فقال: «ما يبكيكم؟». قالوا: يا نبي الله، بكينا لبكائك، فقلنا: لعله أحدث في أمتك شيء لا تُطيقه، قال: «لا، وقد كان بعضه، ولكن نزلت على قبر أمي

---

(١) في ت، ك، أ: «أي وعاء شئتم».

(٢) المسند (٥/ ٣٥٥).

(٣) تفسير الطبري (١٤/ ٥١٢) ورواه البيهقي في دلائل النبوة (١/ ١٨٩) من طريق سفيان عن علقمة بن مرثد به نحوه.

(٤) ورواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٣٦) ومن طريقه البيهقي في دلائل النبوة (١/ ١٨٩) من طريق بحر بن نصر عن ابن وهب به نحوه.

(٥) وأصل الحديث رواه مسلم في صحيحه برقم (٩٧٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله. فقال: «استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت».

(٦) في ت: «أبو الدرداء عن عبد العزيز».

فدعوت الله أن يأذن لي في شفاعتها يوم القيامة، فأبى الله أن يأذن لي، فرحمتها وهي أمي، فبكيت، ثم جاءني جبريل فقال: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾، فتبرأ أنت من أمك، كما تبرأ إبراهيم من أبيه، فرحمتُها وهي أمي، ودعوت ربي أن يرفع عن أمتي أربعاً، فرفع عنهم اثنتين، وأبى أن يرفع عنهم اثنتين: دعوتُ ربي أن يرفع عنهم الرجم من السماء والغَرَق من الأرض، وألا يلبسهم شيعا، وألا يذيق بعضهم بأس بعض، فرفع الله عنهم الرجم من السماء، والغرق من الأرض، وأبى الله أن يرفع عنهم القتل والهرج». وإنما عدل إلى قبر أمه لأنها كانت مدفونة تحت كَداء[1]، وكانت عُسْفان لهم[2].

وهذا حديث غريب وسياق عجيب، وأغرب منه وأشد نكارة ما رواه الخطيب البغدادي في كتاب «السابق واللاحق» بسند مجهول، عن عائشة في حديث فيه قصة أن الله أحيا أمَّه فآمنت ثم عادت[3]. وكذلك ما رواه السهيلي في «الروض» بسند فيه جَمَاعة مجهولون: أن الله أحيا له أباه وأمه[4]، فآمنا به[5].

وقد قال الحافظ ابن دِحْيَة: [هذا الحديث موضوع يرده القرآن والإجماع، قال الله تعالى ﴿وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨]. وقال أبو عبد الله القرطبي: إن مقتضى هذا الحديث... وردَّ عَلَى ابن دِحية][6] في هذا الاستدلال بما حاصله: أن هذه حياة جديدة، كما رجعت الشمس بعد غيبوبتها فصلى عَلِيٌّ العصر، قال الطحاوي: وهو [حديث][7] ثابت، يعني: حديث الشمس.

قال القرطبي: فليس إحياؤهما يمتنع عقلا ولا شرعا، قال: وقد سمعت أن الله أحيا عمه أبا طالب، فآمن به[8].

---

(١) في ت، أ: «كذا وكذا»، وفي ك: «كذا وكدا».

(٢) المعجم الكبير (١١/ ٣٧٤).

(٣) ساقه القرطبي في: التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة (ص١٦) وقال: خرجه أبو بكر أحمد بن علي الخطيب في كتاب السابق واللاحق، وأبو حفص عمر بن شاهين في الناسخ والمنسوخ، ولا يصح الحديث. لمخالفته ما في صحيح مسلم برقم (٩٧٦) من حديث أبي هريرة قال: زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله. فقال: «استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت» ولضعف إسناده.

(٤) في ت: «وآمنة».

(٥) الروض الأنف (١/ ١١٣).

(٦، ٧) زيادة من ت، ك، أ.

(٨) التذكرة (ص١٧). وما ذكره القرطبي لا يصح؛ أما إحياؤهما وإيمانهما فلا يمتنع عقلاً، وأما شرعاً فقد جاء في صحيح مسلم من حديث أنس؛ أن رجلاً قال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: «في النار» فلما قفا دعاه وقال: «إن أبي وأباك في النار» ومُنع النبي ﷺ من الاستغفار لأمه، وهذا المنع متأخر بخلاف من قال بأن ما جاء في أنهما ـ أي أبواه ﷺ ـ في النار منسوخ بحديث عائشة الذي رواه الخطيب، فإن دعوى النسخ غير قائمة ولا تعتمد على أصل. وأما قول القرطبي بأنه سمع أن الله أحيا عمه أبا طالب... إلخ، فهذا أبعد عن الصحة؛ فإن في الصحيح من حديث أبي سعيد؛ أن النبي ﷺ شفع له عند الله فهو في النار يجعل ضحضاح من نار تحت قدميه يغلي منها دماغه، وفي صحيح مسلم مرفوعاً: «أهون أهل النار عذاباً أبو طالب» فمن يكون في النار كيف يقال: إنه آمن في قبره؟!

قلت: وهذا كله متوقف على صحة الحديث، فإذا صح فلا مانع منه[1]، والله أعلم.

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية، فإن رسول الله ﷺ أراد أن يستغفر لأمه، فنهاه الله عن ذلك[2]، فقال: «فإن إبراهيم خليل الله استغفر لأبيه»، فأنزل الله: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ[3] ﴾ الآية.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في هذه الآية: كانوا يستغفرون لهم، حتى نزلت هذه الآية، فلما [نزلت[4] أمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم، ولم ينههم أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا][5]، ثم أنزل الله: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ ﴾ الآية.

وقال قتادة في هذه الآية: ذُكر لنا أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا نبي الله، إن من آبائنا من كان يحسن الجوار، ويصل الأرحام، ويفُكّ العاني، ويوفي بالذمم؛ أفلا نستغفر لهم؟ قال: فقال النبي ﷺ: «بلى، والله إني لأستغفر لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه». فأنزل الله: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ حتى بلغ: ﴿ الْجَحِيمِ ﴾، ثم عذر الله تعالى إبراهيم، فقال: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ قال: وذُكر لنا أن نبي الله قال: «أوحي إليّ كلمات، فدخلن في أذني ووقَرْن في قلبي: أمرتُ ألا أستغفرَ لمن مات مشركا، ومن أعطى فَضْلَ ماله فهو خيرٌ له، ومن أمسك فهو شرٌ له، ولا يلوم الله على كَفَاف».

وقال الثوري، عن الشيباني، عن سعيد بن جُبير قال: مات رجل يهودي وله ابن[6] مسلم، فلم يخرج معه، فذكر ذلك لابن عباس فقال: فكان ينبغي له أن يمشي معه ويدفنه، ويدعو له بالصلاح ما دام حيا، فإذا مات وكَّله إلى شأنه ثم قال: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾، لم يَدْعُ.

[قلت][7]: وهذا يشهد له بالصحة ما رواه أبو داود وغيره، عن علي بن أبي طالب قال: لما مات أبو طالب قلت: يا رسول الله، إن عمك الشيخ الضال قد مات. قال: «اذهب فَوَارِه ولا تُحدثَنَّ شيئا حتى تأتيني». وذكر تمام الحديث[8].

ويروى أن رسول الله ﷺ لما مَرّت به جنازة عمه أبي طالب قال: «وَصَلَتْكَ رَحِمٌ يا عم»[9].

---

(١) وقد رأيت أن ذلك لا يصح. والله أعلم.

(٢) في ت، أ: «عنه».

(٣) في ت: «إياها».

(٤) في أ: «أنزلت».

(٥) زيادة من ت، ك، أ.

(٦) في ك: «ولد».

(٧) زيادة من أ.

(٨) سنن أبي داود برقم (٣٢١٤).

(٩) ورواه ابن عدي في الكامل (١/ ٢٦٠) من طريق الفضل بن موسى، عن إبراهيم بن عبد الرحمن ـ وهو ضعيف ـ عن ابن جريج عن عطاء، عن ابن عباس مرفوعاً ولفظه: «وصلتك رحم وجزيت خيراً يا عم». وإبراهيم بن عبد الرحمن قال ابن عدي: «أحاديثه عن كل من روى ليست بمستقيمة» ثم قال: «وعامة أحاديثه غير محفوظة».

وقال عطاء بن أبي رباح: ما كنت لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة، ولو كانت حبشية حبلى من الزنا؛ لأني لم أسمع الله حجب الصلاة إلا على المشركين، يقول الله، عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾.

وروى ابنُ جَرير، عن ابن وَكيع، عن أبيه، عن عصمة بن زامل، عن أبيه قال: سمعت أبا هريرة يقول: رحم الله رجلا استغفر لأبي هريرة ولأمه. قلت: ولأبيه؟ قال: لا. قال: إن أبي مات مشركا[(١)].

وقوله: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾: قال ابن عباس: ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه. وفي رواية: لما مات تبين له أنه عدو لله.

وكذا قال مجاهد، والضحاك، وقتادة، وغيرهم، رحمهم الله.

وقال عُبَيْد بن عمير، وسعيد بن جُبَيْر: إنه يتبرأ منه [في][(٢)] يوم القيامة حين يلقى أباه، وعلى وجه أبيه الغُبرة والقَتْرة فيقول: يا إبراهيم، إني كنت أعصيك وإني اليوم لا أعصيك. فيقول: أيْ ربي، ألم تعدني ألا تخزني يوم يبعثون؟ فأيّ خزْي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقال: انظر إلى ما وراءك، فإذا هو بِذِيخٍ متلطخ، أي: قد مسخ ضِبْعاناً، ثم يسحب بقوائمه، ويلقى في النار.

وقوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾، قال سفيان الثوري وغير واحد، عن عاصم بن بَهْدَلَة، عن زرّ بن حُبَيْش، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: الأواه: الدَّعَّاء. وكذا روى من غير وجه، عن ابن مسعود.

وقال ابن جرير: حدثني المثنى: حدثنا الحجاج بن مِنْهال، حدثنا عبد الحميد بن بَهْرام، حدثنا شَهْر بن حَوْشَب، عن عبد الله بن شداد بن الهاد قال: بينما رسول الله ﷺ جالس قال رجل: يا رسول الله، ما الأوّاه؟ قال: «المتضرع»، قال: «﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾»[(٣)].

ورواه[(٤)] ابن أبي حاتم من حديث ابن المبارك، عن عبد الحميد بن بَهْرَام، به، قال: المتضرع: الدَّعَّاء.

وقال الثوري، عن سلمة بن كُهَيْل، عن مسلم البَطِين عن أبي العُبَيْدَيْن أنه سأل ابن مسعود عن الأواه، فقال: هو الرحيم.

وبه قال مجاهد، وأبو ميسرة عمرو بن شُرَحْبِيل، والحسن البصري، وقتادة: أنه الرحيم، أي: بعباد الله.

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ٥١٧).

(٢) زيادة من ت، ك، أ.

(٣) تفسير الطبري (١٤/ ٥٣١).

(٤) في ت، أ: «وروى».

وقال ابن المبارك، عن خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: الأوَّاه: الموقن بلسان الحبشة[١]. وكذا قال العوفي، عن ابن عباس: أنه الموقن. وكذا قال مجاهد، والضحاك. وقال على بن أبي طلحة، ومجاهد، عن ابن عباس: الأواه: المؤمن ـ زاد على بن أبي طلحة عنه: المؤمن التواب. وقال العوفي عنه: هو المؤمن بلسان الحبشة. وكذا قال ابن جُرَيْج: هو المؤمن بلسان الحبشة.

وقال أحمد: حدثنا موسى، حدثنا ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن على بن رباح، عن عقبة بن عامر؛ أن رسول الله ﷺ قال لرجل يقال له «ذو البجادين»: «إنه أواه»، وذلك أنه رجل[٢] كثير الذكر لله في القرآن ويرفع صوته في الدعاء.

ورواه ابن جرير[٣].

وقال سعيد بن جبير، والشعبي: الأواه: المسبِّح. وقال ابن وهب، عن معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن جبير بن نفير، عن أبي الدرداء، رضى الله عنه، قال: لا يحافظ على سبحة الضحى إلا أواه. وقال شُفَىّ بن مانع، عن أيوب: الأواه: الذى إذا ذكر خطاياه استغفر منها.

وعن مجاهد: الأواه: الحفيظ الوجل، يذنب الذنب سرا، ثم يتوب منه سرا.

ذكر ذلك كلّه ابن أبي حاتم، رحمه الله.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا المحاربي، عن حجاج، عن الحكم، عن الحسن بن مسلم بن يناق: أن رجلا كان يكثر ذكر الله ويسبّح، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «إنه أواه»[٤].

وقال أيضا حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا ابن يمان، حدثنا المِنْهَال بن خليفة، عن حَجّاج بن أرطاة، عن عطاء، عن ابن عباس؛ أن النبي ﷺ دفن ميتا، فقال: «رحمك الله إن كنتَ لأواهًا!» ـ يعنى: تلاءً للقرآن[٥]. وقال شعبة، عن أبي يونس الباهلي قال: سمعت رجلا بمكة ـ وكان أصله روميا، وكان قاصا ـ يحدث عن أبي ذر قال: كان رجل يطوف بالبيت الحرام ويقول في دعائه: «أوّه! أوّه»، فذُكر ذلك للنبي ﷺ فقال: إنه أواه. قال: فخرجت ذات ليلة، فإذا رسول الله ﷺ يدفن ذلك الرجل ليلا ومعه المصباح.

هذا حديث غريب رواه ابن جرير ومشاه[٦].

وروى عن كعب الأحبار أنه قال[٧]: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ﴾ قال: كان إذا ذكر النار قال: «أوّه من النار».

---

(١) في ت: «الحبشية».
(٢) في ت، أ: «رجل كان كثير الذكر».
(٣) المسند (٤/ ١٥٩) وتفسير الطبرى (١٤/ ٥٣٣) وحسنه الهيثمي في المجمع (٩/ ٣٦٩) وفيه ابن لهيعة متكلم فيه.
(٤) تفسير الطبرى (١٤/ ٥٢٩).
(٥) تفسير الطبرى (١٤/ ٥٣٠).
(٦) تفسير الطبرى (١٤/ ٥٣٠). ورواه الحاكم في المستدرك (١/ ٣٦٨) من طريق شعبة به، وقال: «إسناده معضل».
(٧) في هـ، ت، أ: «أنه قال: سمعت».

وقال ابن جُرَيْج عن ابن عباس: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ ﴾، قال: فقيه.

قال الإمام العلم أبو جعفر بن جرير: وأولى الأقوال قول من قال: إنّه الدعَّاء، وهو المناسب للسياق، وذلك أن الله تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه عن موعدة وعدها إياه، وقد كان إبراهيم كثير الدعاء حليما عمن ظلمه وأناله مكروها، ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه[1] في قوله: ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا. قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٦، ٤٧]، فحلم عنه مع أذاه له، ودعا له واستغفر، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾[2].

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (١١٦) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة وحكمه العادل: إنه لا يضل قوما بعد بلاغ[3] الرسالة إليهم، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ الآية [فصلت: ١٧].

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾، قال: بيان الله، عز وجل، للمؤمنين في الاستغفار للمشركين خاصة، وفي بيانه طاعته ومعصيته عامة، فافعلوا أو ذَرُوا.

وقال ابن جرير: يقول الله تعالى: وما كان الله ليقضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه فتتركوا، فأما قبل أن يبين لكم كراهيته[4] ذلك بالنهي عنه، ثم تتعدوا نهيه إلى ما نهاكم عنه، فإنه لا يحكم عليكم بالضلال، فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهي، وأما من لم يُؤمَر ولم يُنْهَ فغير كائن مطيعا أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه.

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾: قال ابن جرير: هذا تحريض من الله لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر، وأن[5] يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض، ولا يرهبوا من أعدائه فإنه لا ولي لهم من دون الله، ولا نصير لهم

(١) في ك: «أذاه له».

(٢) تفسير الطبري (١٤/ ٥٣٢).

(٣) في ت: «إبلاغ». (٤) في ت: «كراهية». (٥) في ت، ك: «وأنهم».

سواه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن أبي دلامة البغدادي، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن صفوان بن مُحْرِز، عن حكيم بن حزام قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا ما نسمع من شيء. فقال رسول الله ﷺ: «إني لأسمع أطيط السماء، وما تلام أن تَئطَّ، وما فيها من موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم»[1].

وقال كعب الأحبار: ما من موضع خرمة[2] إبرة من الأرض إلا وملك موكل بها، يرفع علم ذلك إلى الله، وإن ملائكة السماء لأكثر من عدد التراب، وإن حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى مُخّه مسيرة مائة عام.

﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾.

قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مُجدبة وحر شديد، وعسر من الزاد والماء.

قال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك في لَهَبان الحر، على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهد شديد، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين[3] كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم، يمصها هذا، ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا، ثم يشرب عليها، [ثم يمصها هذا، ثم يشرب عليها][4]، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم.

وقال ابن جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن عتبة بن أبي عتبة، عن نافع بن جُبَير بن مطعم، عن عبد الله بن عباس؛ أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة، فقال عمر بن الخطاب: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً، فأصابنا فيه عَطَش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع[5]، [حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع][6]، حتى إن الرجل لينحر بعيره، فيعصر فَرْثَه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله عز وجل، قد عوّدك في الدعاء خيراً، فادع لنا. قال: «تحب ذلك؟». قال: نعم! فرفع يديه فلم

---

(١) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٣/١-٢) وأبو نعيم في الحلية (٢/٢١٧) من طريق عبد الوهاب بن عطاء به نحوه، وقال أبو نعيم: «هذا حديث غريب من حديث صفوان بن محرز عن حكيم تفرد به عن قتادة سعيد بن أبي عروبة».

(٢) في ت، أ: «خرم».

(٣) في أ: «رجلين».

(٤) زيادة من أ.

(٥) في ت: «ستقطع».

(٦) زيادة من ت، ك، أ، والطبري.

يرجمهما حتى ملأت السماء فأظَلَّت[1] ثم سكبت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر[2].

وقال ابن جرير في قوله: ﴿لقد تَّاب اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ أي: من النفقة والظَّهْر والزاد والماء، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ تَزِيغُ[3] قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: عن الحق ويشك في دين رسول الله ﷺ ويرتاب، بالذي نالهم من المشقة والشدة في سفره وغزوه، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم، والرجوع إلى الثبات على دينه، ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن أخي الزهري محمد بن عبد الله، عن عمه محمد بن مسلم الزهري، أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، أن عبد الله بن كعب بن مالك ـ وكان قائد كعب من بنيه[4] حين عَمِي ـ قال: سمعت كعب بن مالك يحدّث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزاة غيرها[5] قط إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزاة بدر، ولم يعاتب أحدٌ تخلف عنها، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد، ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين توافقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذْكرَ في الناس منها وأشهر، وكان من خبري حين تخلَّفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة، وكان رسول الله ﷺ قَلَّما يريد غزوة يغزوها إلا وَرّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حَرٍّ شديد، واستقبل سفرا بعيدا ومفازا، واستقبل عدوا كثيرا[6]، فجَلَّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم وَجْهَهُ

---

(١) في ب، ك، أ: «فأمطنت».

(٢) تفسير الطبري (١٤/٥٤١) ورواه ابن حبان في صحيحه برقم (١٧٠٧) «موارد» والحاكم في المستدرك (١/١٥٩) من طريق حرملة ابن يحيى، ورواه البزار في مسنده برقم (١٨٤١) «كشف الأستار» من طريق أصبغ بن الفرج كلاهما عن ابن وهب به نحوه، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه». قال المؤلف ابن كثير في السيرة (٤/١٦): «إسناده جيد، ولم يخرجوه من هذا الوجه».

(٣) في أ: «يزيغ».

(٤) في أ: «بيته».

(٥) في أ: «غزاها».

(٦) في أ: «كبيرا».

الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ ـ يريد الديوان ـ فقال كعب: فَقَلّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي من الله، عز وجل، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظل، وأنا إليها أصعر. فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض من جهازي شيئا، فأقول لنفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى شمّر [١] بالناس الجدّ، فأصبح رسول الله ﷺ غاديا والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئا، وقلت: الجهاز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه[٢]. فغدوت بعدما فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئا من جهازي. ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا، فلم يزل [ذلك] [٣] يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهممت أن أرتحل فأدركهم ـ وليت أنّي فعلتُ ـ ثم لم يقدر ذلك لي، فطفقت إذا خرجتُ في الناس بعد [خروج][٤] رسول الله ﷺ [فَطُفتُ فيهم] [٥] يحزنني ألا أرى إلا رجلا مَغْموصا عليه في النفاق، أو رجلا ممن عذره الله، عز وجل، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «مافعل كعب بن مالك؟» قال رجل من بني سَلِمة: حبسه يارسول الله بُرْداه، والنظر في عِطْفيه. فقال له معاذ بن جبل: بئسما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا! فسكت رسول الله ﷺ، قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توَجَّه قافلا من تبوك حضرني بثّي[٦]، فطفقت أتذكر[٧] الكَذِب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدا؟ أستعين على ذلك كلّ ذي رأي من أهلي. فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظلّ قادما، زاح عني الباطل وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبدا. فأجمعتُ صدقه، وصَبّح رسول الله ﷺ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس. فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ـ وكانوا بضعة وثمانين رجلا ـ فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت، فلما سلّمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال لي: «تعال»، فجئت أمشي حتى جلستُ بين يديه، فقال لي: «ماخلّفك، ألم تك قد اشتريت ظهرك؟» قال: فقلت: يارسول الله، إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سَخَطه بعذر، لقد أعطيتُ جَدَلا، ولكنه والله لقد علمتُ لئن حَدّثتك اليوم حديث كَذِب ترضى به عني، ليوشكن الله يُسْخطك علي، ولئن حدثتك بصدق تَجِدُ عَليّ فيه، إني لأرجو أقرب عقبى ذلك [عفوا] [٨] من الله، عز وجل[٩]، والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. قال: فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك». فقمت وبادرني رجال من بني سلمة واتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عَجَزْت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون[١٠]، فقد كان كافيك [من ذنبك] [١١] استغفار رسول الله ﷺ لك. قال: فوالله

---

(١) في ت، ك: «استمر».
(٢) في ت: «ألحقهم».
(٣-٥) زيادة من ت، ك، أ، والمسند.
(٦) في أ: «شيء».
(٧) في ت، أ: «أتفكر».
(٨) زيادة من ت، ك، أ، والمسند.
(٩) في ت: «تعالى».
(١٠) في أ: «المخلفون».
(١١) زيادة من ت، ك، أ، والمسند.

ما زالوا يؤنّبوني حتى أردت أن أرجع فأكذّب نفسي: قال: ثم قلت لهم: هل لقى هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، [لقيه معك] [١] رجلان، قالا ما قلتَ، وقيل لهما مثل ما قيل لك. قلت: فمن هما؟ قالوا: مُرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي. فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا لي فيهما أسوة. قال: فمضيت حين ذكروهما لي ـ قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا ـ أيها الثلاثة ـ من بين من تخلف عنه، فاجتنبَنا الناس وتغيّروا لنا، حتى تنكرتْ لي في نفسي الأرضُ، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشبّ القوم وأجلدهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف بالأسواق، فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم، وأقول في نفسي: حرّك شفتيه برد السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلي قريبا منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، فإذا التفت نحوه أعرَض، حتى إذا طال على ذلك من هجر المسلمين مشَيت حتى تسورت حائط أبي قتادة ـ وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي ـ فسلمت عليه، فوالله ما رد على السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدُك الله: هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت. قال: فعدتُ فنشدته [فسكت، فعدت فنشدته] [٢]، فقال: الله ورسوله أعلم. قال: ففاضت عيناي وتوليت حتى تسوّرت الجدار. فبينا [٣] أنا أمشي بسوق المدينة إذا نَبَطيٌّ من أنباط الشام، ممن [٤] قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ قال: فطفِقَ الناس يشيرون له إليّ، حتى جاء فدفع إلي كتابا من ملك غسان، وكنت كاتبا [٥]، فإذا فيه: أما بعد، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هَوان ولا مَضيَعة، فالحق بنا نُواسكَ. قال: فقلت حين قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء. قال: فتيممت به التنور فَسَجرته [٦]، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك. قال: فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها ولا تقربها. قال: وأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت له: يارسول الله، إن هلالا شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقربنَّك» قالت: وإنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما يزال يبكي من لدن أن كان من أمرك ما كان إلى يومه هذا. قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. قال: فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما أدري ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته وأنا رجل شاب؟ قال: فلبثنا [بعد ذلك] [٧] عشر ليال، فكَمُل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا: قد ضاقت علي نفسي،

---

(١، ٢) زيادة من ت، ك، أ، والمسند. (٣) في ت، ك، أ: «وبينا». (٤) في ت: «فيمن».

(٥) في ت: «وكتب كتابا». (٦) في ت، أ: «فسجرته فيها». (٧) زيادة من ت، ك، أ، والمسند.

وضاقت على الأرض بما رحبت، سمعت صارخا أوفى على جبل سَلْع يقول بأعلى صوته: ياكعب ابن مالك، أبشر. قال: فخررت ساجدا، وعرفت أن[1] قد جاء فرج، فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَل صاحبيّ مبشرون، وركض إلى رجل فرساً، وسعى ساع من أسلم وأوفى على جبل، فكان الصوت أسرع من الفرس. فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، فنزعت[2] ثوبي، فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أؤم رسول الله ﷺ، يلقاني الناس فوجا فوجا يهنئوني بالتوبة، يقولون: لِيَهْنك توبة الله عليك. حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد حوله الناس، فقام إلى طلحة بن عبيد الله يُهرول، حتى صافحني وهنَّأني، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة. قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك». قال: قلت: أمن عندك يارسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا، بل من عند الله». قال: وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، حتى يعرف ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت. يارسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله. قال: «أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك». قال: فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر. وقلت: يا رسول الله، إنما نجاني الله بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقا ما بقيت. قال: فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ما تعمدت كَذبَةً منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي. قال: وأنزل الله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ تَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ. وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ قال كعب: فوالله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظمَ في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ ألا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه [حين كذبوه][3]، فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، قال[4] الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦]. قال: وكنا خُلِّفنا ـ أيها الثلاثة ـ عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله أمرنا، حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله تعالى[5]: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾، وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي

---

(١) في أ: «أنه».
(٢) في ت، ك، أ: «فنزعت له».
(٣) زيادة من ت، ك، أ، والمسند.
(٤) في ت، ك، أ: «فقال».
(٥) في ت: «عز وجل».

ذكر مما خُلّفنا بتخلفنا عن الغزو، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه.

هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته، رواه صاحبا الصحيح: البخاري ومسلم من حديث الزهري، بنحوه[١].

فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها. وكذا رُوي عن غير واحد من السلف في تفسيرها، كما رواه الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر بن عبد الله في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ قال: هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومُرارة بن ربيعة وكلهم من الأنصار.

وكذا قال مجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي وغير واحد ـ وكلهم قال: مُرارة بن ربيعة.

[وكذا في مسلم: مرارة بن ربيعة في بعض نسخه، وفي بعضها: مرارة بن الربيع][٢].

وفي رواية عن سعيد بن جبير: ربيع بن مرارة.

وقال الحسن البصري: ربيع بن مرارة[٣]، أو: مرارة[٤] بن ربيع.

وفي رواية عن الضحاك: مُرارة بن الربيع، كما وقع في الصحيحين، وهو الصواب.

وقوله: «فسموا رجلين شهدا بدرا»، قيل: إنه خطأ من الزهري، فإنه لا يُعْرَف شُهودُ واحد من هؤلاء الثلاثة بدرا، والله أعلم.

ولما ذكر تعالى ما فرّج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب، من هجر المسلمين إياهم نحوا من خمسين ليلة بأيامها، وضاقت عليهم أنفسهم، وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت، أي: مع سعتها، فسُدّدت عليهم المسالك والمذاهب، فلا يهتدون ما يصنعون، فصبروا لأمر الله، واستكانوا لأمر الله، وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم، وأنه كان عن غير عذر، فعوقبوا على ذلك هذه المدة، ثم تاب الله عليهم، فكان[٥] عاقبة صدقهم خيرا لهم وتوبة عليهم؛ ولهذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، أي: اصدُقوا والزموا الصدق تكونوا مع أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجا من أموركم، ومخرجا، وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن شقيق[٦]، عن عبد الله، هو ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرّى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب، حتى

---

(١) المسند (٣/ ٤٥٦ ـ ٤٥٩) وصحيح البخاري برقم (٨٨٩) وبرقم (٢٧٥٧) وصحيح مسلم برقم (٢٧٦٩).

(٢) زيادة من أ.

(٣، ٤) في جميع النسخ: «مرارة» بدون هاء، والتصويب من الطبري.

(٥) في ت، ك، أ: «وكان».

(٦) في أ: «سفيان».

يكتب عند الله كذابا».

أخرجاه في الصحيحين[١].

وقال شعبة، عن عمرو بن مُرَّة، سمع أبا عبيدة يحدث عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، أنه قال: [إن] [٢] الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، اقرؤوا إن شئتم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مِنَ[٣] الصَّادِقِينَ﴾ ـ هكذا قرأها ـ ثم قال: فهل تجدون لأحد فيه رخصة.

وعن عبد الله بن عمر: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾: مع محمد ﷺ وأصحابه.

وقال الضحاك: مع أبي بكر وعمر وأصحابهما[٤].

وقال الحسن البصري: إن أردت أن تكون مع الصادقين، فعليك بالزهد في الدنيا، والكف عن أهل الملة.

**﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠)﴾.**

يعاتب تعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل من المشقة، فإنهم نَقَصُوا أنفسهم من الأجر؛ لأنهم[٥] ﴿لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ وهو: العطش ﴿وَلا نَصَبٌ﴾ وهو: التعب ﴿وَلا مَخْمَصَةٌ﴾ وهي: المجاعة[٦] ﴿وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ أي: ينزلون منزلا [٧] يُرهبُ عدوهم ﴿وَلا يَنَالُونَ﴾ منه ظفراً وغلبة عليه إلا كتب الله لهم بهذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قدرهم، وإنما هي ناشئة عن أفعالهم، أعمالا صالحة وثوابا جزيلا، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٣٠].

**﴿وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)﴾.**

يقول تعالى: ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً﴾ أي: قليلا ولا كثيرا

---

(١) المسند (١/ ٣٨٤) وصحيح البخاري برقم (٦٠٩٤) وصحيح مسلم برقم (٢٦٠٧).

(٢) زيادة من أ. (٣) في ت، ك، أ: «مع». (٤) في ت، ك، أ: «وأصحابهم».

(٥) في ت، أ: «لأنه». (٦) في ت: «المجاعة». (٧) في أ: «مالا».

﴿وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أي: في السير إلى الأعداء ﴿إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ﴾ ولم يقل هاهنا «به» لأن هذه أفعال صادرة عنهم؛ ولهذا قال: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه، من هذه الآية الكريمة حظ وافر، ونصيب عظيم، وذلك أنه أنفق فى هذه الغزوة النفقات الجليلة، والأموال الجزيلة، كما قال عبد الله ابن الإمام أحمد:

حدثنا أبو موسى العنَزَى، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثنى سكَن بن المغيرة، حدثنى الوليد بن أبى هشام، عن فرقد أبى طلحة، عن عبد الرحمن بن خَبَّاب السلمى قال: خطب رسول الله ﷺ فحث على جيش العسرة، فقال عثمان بن عفان، رضى الله عنه: علىَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها. قال: ثم حث، فقال عثمان: علىَّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: ثم نزل مرقاة من المنبر ثم حث، فقال عثمان بن عفان: علىَّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: فرأيت رسول الله ﷺ يقول بيده هكذا ـ يحركها. وأخرج عبد الصمد يده كالمتعجب: «ما على عثمان ما عمل بعد هذا»[1].

وقال عبد الله أيضا: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ضَمْرَة، حدثنا عبد الله بن شَوْذَب، عن عبد الله بن القاسم، عن كثير مولى عبد الرحمن بن سَمُرة، عن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان إلى النبى ﷺ بألف دينار فى ثوبه حين[2] جَهَّز النبى ﷺ جيش العسرة قال: فصبها فى حجر النبى ﷺ، فجعل النبى ﷺ يقلبها بيده ويقول: «ما ضَرّ ابن عفان ماعمل بعد اليوم». يرددها مرارا[3].

وقال قتادة فى قوله تعالى: ﴿وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ﴾الآية: ما ازداد قوم من أهليهم فى سبيل الله بعدا إلا ازدادوا من الله قربا.

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)﴾.

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نَفير الأحياء مع الرسول فى غزوة تبوك، فإنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً﴾[التوبة: ٤١]، وقال: ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن

---

(١) زوائد المسند (٤/ ٧٥) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٧٠٠) من طريق السكن بن المغيرة به، وقال الترمذى: «هذا حديث غريب من هذا الوجه لانعرفه إلا من حديث السكن بن المغيرة».

(٢) فى ت، ك: «حتى».

(٣) زوائد المسند (٥/ ٦٣) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٧٠١) من طريق الحسن بن واقع عن ضمرة بن ربيعة به، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه».

رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠]، قالوا: فنسخ ذلك بهذه الآية.

وقد يقال: إن هذا بيان لمراده تعالى من نفير الأحياء كلها، وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم، ليتفقه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو، فيجتمع لهم الأمران في هذا: النفير المعين وبعده، صلوات الله وسلامه عليه، تكون الطائفة النافرة من الحي إما للتفقه وإما للجهاد؛ فإنه فرض كفاية على الأحياء.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ يقول: ما كان المؤمنون لينفروا جميعا ويتركوا النبي ﷺ وحده، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يعني: عصبة، يعني: السرايا، ولا يَتَسرَّوا [١] إلا بإذنه، فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النبي ﷺ، قالوا: إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنا، وقد تعلمناه. فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم، ويبعث سرايا أخرى، فذلك قوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ يقول: ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم، وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس من أصحاب محمد ﷺ، خرجوا في البوادي، فأصابوا من الناس معروفا، ومن الخصب [٢] ما ينتفعون به، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا. فوجدوا في أنفسهم من ذلك تحرجا، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي ﷺ، فقال الله، عز وجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يبتغون [٣] الخير، ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا [فِي الدِّينِ][٤]﴾ وليستمعوا ما في الناس، وما أنزل الله بعدهم، ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ الناس كلهم ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

وقال قتادة في هذه الآية: هذا إذا بعث رسول الله ﷺ الجيوش، أمرهم الله الا يُعرّوا [٥] نبيّه ﷺ، وتقيم طائفة مع رسول الله تتفقه في الدين، وتنطلق طائفة تدعو قومها، وتحذرهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم.

وقال الضحاك: كان رسولُ الله ﷺ إذا غزا بنفسه لم يحلّ لأحد من المسلمين أن يتخلف عنه، إلا أهل العذر. وكان إذا أقام فاسترت السرايا لم يحل لهم أن ينطلقوا إلا بإذنه، فكان الرجل إذا استرى فنزل بعده قرآن، تلاه رسول [٦] الله ﷺ على أصحابه القاعدين [٧] معه، فإذا رجعت السرية قال لهم الذين أقاموا مع رسول الله ﷺ: إن الله أنزل بعدكم على نبيه قرآنا. فيقرؤونهم ويفقهونهم في الدين، وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ يقول إذا أقام رسول الله ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يعني بذلك: أنه لا ينبغي للمسلمين أن ينفروا جميعا ونبي الله ﷺ قاعد، ولكن إذا قعد نبي الله تسرت السرايا، وقعد معه عُظْم [٨] الناس.

---

(١) في جميع النسخ: «يسيروا» والمثبت من الطبري ومستفاد من ط. الشعب.

(٢) في ك: «الخطب». (٣) في أ: «يبغون». (٤) زيادة من أ.

(٥) في ت: «أن لا يغزوه»، وفي أ: «أن يغزوا». (٦) في أ: «نبي». (٧) في ت، ك، أ: «القاعدون».

(٨) في ت، أ: «عظيم».

وقال [علي] (١) ابن أبي طلحة أيضا عن ابن عباس: قوله: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾: فإنها ليست في الجهاد، ولكن لما دعا رسول الله ﷺ على مُضر بالسنين أجدبت بلادهم، وكانت القبيلة منهم تُقبل بأسرها حتى يحلوا بالمدينة من الجهد، ويعتلّوا بالإسلام وهم كاذبون. فضيقوا على أصحاب النبي ﷺ وأجهدوهم. فأنزل الله يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين، فردهم رسول الله إلى عشائرهم، وحذّر قومهم أن يفعلوا فعلهم، فذلك قوله: ﴿ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾.

وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة، فيأتون النبي ﷺ. فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم، ويتفقهون في دينهم، ويقولون لنبي الله: ما تأمرنا أن نفعله؟ وأخبرنا [ما نقول] (٢) لعشائرنا إذا قدمنا انطلقنا إليهم. قال: فيأمرهم نبي الله بطاعة الله وطاعة رسوله، ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة. وكانوا إذا أتوا قومهم نادوا: إن من أسلم فهو منا، وينذرونهم، حتى إن الرجل ليفارق أباه وأمه، وكان رسول الله ﷺ يخبرهم وينذرهم قومهم، فإذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام وينذرونهم النار ويبشرونهم بالجنة.

وقال عكرمة: لما نزلت هذه الآية: [الشريفة] (٣): ﴿إلا تنفروا نعذبكم (٤) عذابا أليما﴾ [التوبة: ٣٩]، و﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا [عن رسول الله] (٥)﴾ [التوبة: ١٢٠]، قال المنافقون: هلك أصحاب البدو الذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه. وقد كان ناس من أصحاب النبي ﷺ خرجوا إلى البدو إلى قومهم يفقهونهم، فأنزل الله، عز وجل: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ الآية، ونزلت: ﴿والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له﴾ الآية [الشورى: ١٦].

وقال الحسن البصري: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين﴾ قال: ليتفقه الذين خرجوا، بما يردهم الله من الظهور على المشركين، والنصرة، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

**﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين (١٢٣)﴾.**

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولا فأولا، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام؛ ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة، والطائف، واليمن واليمامة، وهجر، وخيبر، وحضرموت، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب،

---

(١) زيادة من أ.
(٢) زيادة من ت، ك، أ.
(٣) زيادة من ت.
(٤) في ت، ك: «يعذبكم».
(٥) زيادة من ت، أ.

ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجاً، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لكونهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس وجَدْب البلاد [١] وضيق الحال، وكان ذلك سنة تسع من هجرته، عليه السلام[٢].

ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجته حَجَّة الوداع. ثم عاجلته المنية، صلوات الله وسلامه عليه، بعد الحجة بأحد وثمانين يوماً، فاختاره الله لما عنده.

وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر، رضي الله عنه، وقد مال الدين ميلة كاد أن ينجفل، فثبته الله تعالى به فوطد القواعد، وثبت الدعائم. ورد شارد الدين وهو راغم. ورد أهل [٣] الردة إلى الإسلام، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطغام، وبين الحق لمن جهله، وأدى عن الرسول ما حمله. ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عَبَدَة الصلبان[٤]، وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنف كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد. وأنفق كنوزهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك رسول الإله.

وكان تمام الأمر على يدي وصيِّه من بعده، وولي عهده الفاروق الأوّاب، شهيد المحراب، أبي حفص عمر بن الخطاب، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين، وقمع الطغاة والمنافقين، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً. وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعداً وقُرباً. ففرقها على الوجه الشرعي، والسبيل المرضي.

ثم لما مات شهيداً وقد عاش حميداً، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار. على خلافة أمير المؤمنين [أبي عمرو] [٥] عثمان بن عفان شهيد الدار. فكسا الإسلام [بجلاله] [٦] رياسة حلة سابغة. وأمدت [٧] في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة، وظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وعلت كلمة الله وظهر دينه. وبلغت الأمة الحنيفية من أعداء الله غاية مآربها، فكلما علَوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم، ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار، امتثالا لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾، [أي: وليجد الكفار منكم [٨] غلظة] [٩] عليهم في قتالكم لهم، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقاً لأخيه المؤمن، غليظاً على عدوه الكافر، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣، والتحريم: ٩]؛ وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «أنا الضَّحوك القتَّال»، يعني: أنه ضَحُوك في وجه وليه،

---

(١) في ت، ك، أ: «الناس».
(٢) في أ: «ﷺ».
(٣) في ت: «أل».
(٤) في أ: «الأصنام».
(٥) زيادة من ت، ك، أ.
(٦) زيادة من ت، أ.
(٧) في أ: «وامتدت».
(٨) في ت، أ: «فيكم».
(٩) زيادة من ت، ك، أ.

قتّال لهامة عدوه.

وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، أي: قاتلوا الكفار، وتوكلوا على الله، واعلموا أن الله معكم إن اتقيتموه وأطعتموه.

وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة، في غاية الاستقامة، والقيام بطاعة الله تعالى، لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، ولم تزل الفتوحات كثيرة، ولم تزل الأعداء في سفال وخسار. ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك، طمع الأعداء في أطراف البلاد، وتقدموا إليها، فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام، فأخذوا من الأطراف بلدانا كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، ولله، سبحانه، الأمر من قبل ومن بعد. فكلما [1] قام ملك من ملوك الإسلام، وأطاع أوامر الله، وتوكل على الله، فتح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسبه، وبقدر ما فيه من ولاية الله. والله المسؤول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين، وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم، إنه جواد كريم.

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فمن المنافقين ﴿ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾؟ أي: يقول بعضهم لبعض أيكم زادته هذه السورة إيمانا؟ قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد، وقد بسط الكلام على هذه المسألة في أول «شرح البخاري» رحمه الله. ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أي: زادتهم شكا إلى شكهم، وريبا إلى ريبهم، كما قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سببا لضلالهم ودمارهم، كما أن سيئ المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده إلا خبالا ونقصا.

---

(١) في ت: العلماء.

﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٢٧)﴾.

يقول تعالى: أولا يرى هؤلاء المنافقون [1] ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ أي: يختبرون ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: لا يتوبون من ذنوبهم السالفة، ولاهم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم.

قال مجاهد: يختبرون بالسَّنة والجوع.

وقال قتادة: بالغزو في السنة مرة أو مرتين.

وقال شريك، عن جابر ـ هو الجعفي ـ عن أبي الضُّحى، عن حذيفة: ﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ قال: كنا نسمع في كل عام كذبة او كذبتين، فيضل بها فئام من الناس كثير. رواه ابن جرير.

وفي الحديث عن أنس: «لا يزداد الأمر إلا شدة، ولا يزداد الناس إلا شحا، وما من عام إلا والذي بعده شر منه»، سمعته من نبيكم ﷺ [2].

وقوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم [3] مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾، هذا أيضا إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ، ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: تَلَفَّتُوا، ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ أي: تولوا عن الحق وانصرفوا عنه، وهذا حالهم في الدين لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ. كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ. فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩ ـ ٥١]، وقال تعالى: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ. عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ [المعارج: ٣٦، ٣٧]، أي: ما لهؤلاء القوم يتقللون عنك يمينا وشمالا، هروبا من الحق، وذهابا إلى الباطل.

وقوله: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾، كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]،

---

(١) في ك، أ: «المنافقين».

(٢) هذا الحديث مركب من حديثين عن أنس:

الأول: رواه ابن ماجه في السنن برقم (٤٠٣٩) والحاكم في المستدرك (٤/ ٤٤١) من طريق محمد بن خالد الجندي، عن أبان ابن صالح، عن الحسن، عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «لايزداد الأمر إلا شدة، ولا الدنيا إلا إدباراً، ولا الناس إلا شحاً، ولاتقوم الساعة إلا على شرار الناس، وما المهدى إلا عيسى ابن مريم» ففيه ضعف ونكارة بينهما المؤلف ـ الحافظ ابن كثير في النهاية في الفتن والملاحم (١/ ٣٢).

وأما الثاني: فرواه البخاري في صحيحه برقم (٧٠٦٨) من طريق سفيان عن الزبير بن عدى قال: أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما يلقون من الحجاج، فقال: «اصبروا فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده أشر منه حتى تلقوا ربكم» سمعته من نبيكم ﷺ.

(٣) في ت: «راكم».

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفهمون عن الله خطابه، ولا يقصدون لفهمه ولا يريدونه، بل هم في شده[1] عنه ونفور منه فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)﴾.

يقول تعالى ممتنا على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولا من أنفسهم، أي: من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم، عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: منكم وبلغتكم، كما قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولا منا، نعرف نسبه وصفته، ومدخله ومخرجه، وصدقه وأمانته، وذكر الحديث.

وقال سفيان بن عُيينة، عن جعفر بن محمد، عن أبيه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية، وقال ﷺ: «خرجت من نكاح، ولم أخرج من سِفاح».

وقد وصل هذا من وجه آخر، كما قال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهُرْمُزي في كتابه «الفاصل بين الراوي والواعي»: حدثنا أبو أحمد يوسف بن هارون بن زياد، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا محمد بن جعفر بن محمد قال: أشهد على أبي لحدثني، عن أبيه، عن جده، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي لم يمسني[2] من سفاح الجاهلية شيء»[3].

وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يعز عليه الشيء الذي يَعْنَتُ أمته ويشق عليها؛ ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة»[4]، وفي الصحيح: «إن هذا الدين يسر»[5]، وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة، يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم.

قال الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى،

---

(١) في ت، ك، أ: «شغل». (٢) في ت، أ: «لم يصبني»، وفي ك: «لم يمسني».

(٣) الفاصل بين الراوي والواعي (ص١٣٦) ورواه الطبراني في الأوسط برقم (٣٤٨٣) «مجمع البحرين» من طريق عبد الرحمن الرازي، عن محمد بن أبي عمر به، وفيه محمد بن جعفر بن محمد بن علي متكلم فيه.

(٤) رواه أحمد في مسنده (٥/ ٢٦٦) عن أبي أمامة، و(٦/ ٢٣٣) عن عائشة رضي الله عنهما.

(٥) صحيح البخاري برقم (٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

حدثنا سفيان بن عيينة، عن فِطْر، عن أبي الطفيل، عن أبي ذر قال. تركنا رسول الله ﷺ وما طائر[١] يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكرنا منه علما ـ قال: وقال ﷺ: «مابقي شيء يُقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم»[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا [أبو] [٣] قَطَن، حدثنا المسعودي، عن الحسن بن سعد، عن عبدة النَّهدي، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يحرم حُرمة إلا وقد علم أنه سيطلعها منكم مُطَّلِع، ألا وإني آخذ بحجزكم أن تهافتوا في النار، كتهافت الفراش، أو الذباب»[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جُدْعان، عن يوسف بن مِهْرَان، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ أتاه ملكان، فيما يرى النائم، فقعد أحدهما عند [٥] رجليه والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته. فقال: إن مثله [٦] ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة[٧]، فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة[٨]، ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حُلَّة حِبَرَة فقال: أرأيتم إن وردَت بكم رياضا معشبة، وحياضا رواء تتبعوني؟ فقالوا: نعم. قال: فانطلق بهم، فأوردهم رياضا معشبة، وحياضا رواء، فأكلوا وشربوا وسمنوا، فقال لهم: ألم ألفكم على تلك الحال، فجعلتم لي إن وردت بكم رياضا معشبة وحياضا رواء أن تتبعوني؟ فقالوا: بلى. قال: فإن بين أيديكم رياضا هي أعشب من هذه، وحياضا هي أروى من هذه، فاتبعوني. فقالت طائفة: صدق، والله لنتبعنه وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه[٩].

وقال البزار: حدثنا سلمة بن شبيب وأحمد بن منصور قالا: حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان حدثنا أبي، عن عكرمة عن أبي هريرة، رضي الله عنه؛ أن أعرابيا جاء إلى رسول الله ﷺ ليستعينه في شيء ـ قال عكرمة: أراه قال: «في دم» ـ فأعطاه رسول الله ﷺ شيئا، ثم قال: «أحسنت إليك؟» قال الأعرابي: لا، ولا أجملت. فغضب بعض المسلمين، وهموا أن يقوموا إليه، فأشار رسول الله إليهم: أن كفوا. فلما قام رسول الله ﷺ وبلغ إلى منزله، دعا الأعرابي إلى البيت، فقال له: «إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك، فقلت ما قلت» فزاده رسول الله ﷺ شيئا، وقال: «أحسنت إليك؟» فقال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً. قال النبي ﷺ: «إنك جئتنا تسألنا[١٠] فأعطيناك، فقلت ما قلت، وفي أنفس أصحابي عليك من ذلك شيء، فإذا جئت [١١] فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي، حتى يذهب عن صدورهم». قال: نعم. فلما جاء الأعرابي. قال [١٢]: «إن صاحبكم كان

(١) في أ: «وما من طائر».
(٢) المعجم الكبير(٢/ ١٥٥) وقال الهيثمي في المجمع(٧/ ٢٦٥): «رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ وهو ثقة».
(٣) زيادة من ت، ك، أ، والمسند.
(٤) المسند (١/ ٣٩٠)
(٥) في ك: «عن».
(٦) في ت: «مثل هذا».
(٧) في ك: «مغارة».
(٨) في ك: «المغارة».
(٩) المسند (١/ ٢٦٧) وعلي بن زيد بن جدعان ضعيف.
(١٠) في ت، ك: «فسألتنا» وفي أ: «فسألتنا».
(١١) في ت: «خرجت».
(١٢) في ك، أ: «قال رسول الله ﷺ».

جاءنا فسألنا فأعطيناه، فقال ما قال، وإنا قد دعوناه فأعطيناه فزعم أنه قد رضي، [كذلك يا أعرابي؟][(١)] » قال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً. فقال النبي ﷺ: «إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة، فشردت عليه، فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا. فقال لهم صاحب الناقة: خلوا بيني وبين ناقتي، فأنا أرفق بها، وأعلم بها. فتوجه إليها وأخذ لها [(٢)] من قُمام الأرض، ودعاها حتى جاءت واستجابت، وشد عليها رحلها وإنه لو أطعتكم حيث قال ما قال لدخل النار». ثم قال البزار: لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه[(٣)].

قلت: وهو ضعيف بحال إبراهيم بن الحكم بن أبان، والله أعلم.

وقوله: ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ. وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾[الشعراء: ٢١٥ ـ ٢١٧].

وهكذا أمره تعالى.

وهذه [(٤)] الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة، ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: الله كافيَّ، لا إله إلا هو عليه توكلت، كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].

﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي: هو مالك كل شيء وخالقه، لأنه رب العرش العظيم، الذي هو سقف المخلوقات وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء، وقدَره نافذ في كل شيء، وهو على كل شيء وكيل.

قال [عبد الله بن][(٥)] الإمام أحمد: حدثني محمد بن أبي بكر، حدثنا بشر بن عمر، حدثنا شعبة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، عن أبي بن كعب قال: آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السورة[(٦)].

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا روح بن عبد المؤمن، حدثنا عمر بن شقيق، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب، رضي الله عنه: أنهم جمعوا القرآن في مصاحف في خلافة أبي بكر، رضي الله عنه، فكان رجال يكتبون ويملي عليهم أبي بن كعب، فلما انتهوا إلى هذه الآية من سورة براءة: ﴿ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧]، فظنوا أن هذا آخر ما أنزل [(٧)] من القرآن. فقال لهم أبي بن كعب: إن رسول الله ﷺ أقرأني بعدها آيتين: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ

---

(١) زيادة من ت، ك، أ، والبزار. (٢) في ت، أ: «فأخذها».

(٣) مسند البزار برقم (٢٤٧٦) «كشف الأستار» وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٥): «وفيه إبراهيم بن الحكم بن أبان، وهو متروك».

(٤) في ت، ك، أ: «في هذه». (٥) ساقطة من النسخ.

(٦) زوائد المسند (٥/ ١١٧) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٦): «وفيه علي بن زيد بن جدعان وهو ثقة سيئ الحفظ، وبقية رجاله ثقات» قلت: أجمع الأئمة على تضعيف علي بن زيد بن جدعان.

(٧) في أ: «ما نزل».

رَّحِيمٌ﴾ إلى: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ قال: «هذا [١] آخر ما أنزل [٢] من القرآن» قال: فختم بما فُتح به، بالله الذي لا إله إلا هو، وهو قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ يُوحَى [٣] إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] غريب [٤] أيضا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن بحر، حدثنا محمد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد، عن أبيه عباد بن عبد الله بن الزبير، رضي الله عنه، قال: أتى الحارث بن خَزَمة[٥] بهاتين الآيتين من آخر براءة: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى عمر بن الخطاب، فقال: من معك على هذا؟ قال: لا أدري، والله إني لأشهد[٦] لسمعتها من رسول الله ﷺ ووعيتها وحفظتها. فقال عمر: وأنا أشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ ـ ثم قال: لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة، فانظروا سورة من القرآن، فضموها فيها، فوضعوها في آخر براءة[٧].

وقد تقدم أن عمر بن الخطاب هو الذي أشار على أبي بكر الصديق، رضي الله عنهما، بجمع القرآن، فأمر زيد بن ثابت فجمعه. وكان عمر يحضرهم وهم يكتبون ذلك. وفي الصحيح أن زيدا قال: فوجدت آخر سورة «براءة» مع خزيمة بن ثابت ـ أو: أبي خزيمة[٨]. وقدمنا أن جماعة من الصحابة تذكروا[٩] ذلك عن رسول الله ﷺ، كما قال خزيمة بن ثابت حين ابتدأهم بها، والله أعلم.

وقد روى أبو داود، عن يزيد بن محمد، عن عبد الرزاق بن عمر ـ وقال: كان من ثقات المسلمين من المتعبدين، عن مدرك بن سعد ـ قال يزيد: شيخ ثقة ـ عن يونس بن ميسرة، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء قال: من قال إذا أصبح وإذا أمسى: حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم، سبع مرات، إلا كفاه الله ما أهمه[١٠] [١١].

وقد رواه ابن عساكر في ترجمة «عبد الرزاق بن عمر» هذا، من رواية أبي زُرْعَة الدمشقي، عنه، عن أبي سعد مُدْرِك بن أبي سعد الفزاري، عن يونس بن ميسرة بن حَلْبس، عن أم الدرداء، سمعت أبا الدرداء يقول: ما من عبد يقول: حسبي الله، لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم، سبع مرات، صادقا كان بها أو كاذبا، إلا كفاه الله ما هَمَّه[١٢].

وهذه زيادة غريبة. ثم رواه في ترجمة عبد الرزاق أبي محمد، عن أحمد بن عبد الله بن عبد الرزاق، عن جده عبد الرزاق بن عمر، بسنده ترفعه[١٣]، فذكر مثله بالزيادة. وهذا منكر، والله أعلم.

آخر سورة براءة، والحمد لله وحده[١٤]

---

(١) في أ: «إن هذا». (٢) في أ: «ما نزل». (٣) في أ: «إلا نوحي».

(٤) زوائد المسند (٥/ ١٣٤).

(٥) في ك: «خزيمة». (٦) في أ: «أشهد».

(٧) المسند (١/ ١٩٩).

(٨) صحيح البخاري برقم (٤٦٧٩).

(٩) في ك، أ: «يذكروا». (١٠) في ك: «ما يهمه».

(١١) سنن أبي داود برقم (٥٠٨١).

(١٢) تريخ دمشق (١٠/ ٢٩١ «المخطوط»).

(١٣) تريخ دمشق (١٠/ ٣١٢ «المخطوط»)

(١٤) جاء في ك: [رابع عشر من ربيع الأول سنة ثمانين في سبع من الهجرة النبوية، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم].

## تفسير سورة يونس

[وهي مكية][١].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ① أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ②﴾.

أما الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد تقدم الكلام عليها [مستوفى][٢] في أوائل[٣] سورة البقرة.

وقال أبو الضحى، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿الر﴾، أي: أنا الله أرى. وكذا قال الضحاك وغيره.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ أي: هذه آيات القرآن المحكم المبين وقال مجاهد: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [قال: التوراة والإنجيل][٤].

[وقال الحسن: التوراة والزبور][٥].

وقال قتادة: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ قال: الكتب التي كانت قبل القرآن.

وهذا القول لا أعرف وجهه ولا معناه.

وقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية، يقول تعالى منكرا على من تعجب من الكفار من إرسال المرسلين من البشر، كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من[٦] قولهم: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، وقال هود وصالح لقومهما: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣، ٦٩] وقال تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

وقال الضحاك، عن ابن عباس: لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولا، أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد. قال: فأنزل الله عز

---

(١) زيادة من ت. (٢) زيادة من ت، أ. (٣) في ت، أ: «أول».

(٤) زيادة من تفسير الطبري (١٥/ ١١) مستفاد من ط. الشعب.

(٥) زيادة من ت، أ. (٦) في ت، أ: «في».

وجل: ﴿أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم﴾.

وقوله: ﴿أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾: اختلفوا فيه، فقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿أن لهم قدم صدق [عند ربهم][(١)]﴾ يقول: سبقت لهم السعادة في الذكر الأول.

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ يقول: أجرا حسنا، بما قدموا. وكذا قال الضحاك، والربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا كقوله تعالى: ﴿لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا . ماكثين فيه أبدا﴾ [الكهف: ٢، ٣].

وقال مجاهد: ﴿أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ قال: الأعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم.

[وقال عمرو بن الحارث عن قتادة أو الحسن ﴿أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾][(٢)]، قال: محمد ﷺ شفيع لهم. وكذا قال زيد بن أسلم، ومقاتل بن حيان.

وقال قتادة: سلفُ صدق عند ربهم.

واختار ابن جرير قول مجاهد ـ أنها الأعمال الصالحة التي قدموها ـ قال: كما يقال: «له قدم في الإسلام»، ومنه قول [حسان][(٣)] رضي الله عنه:

لنا القَدَمُ[(٤)] العُلْيا إليك وخَلْفُنا ... لأولنا في طاعة الله تابعُ

وقول ذي الرُّمة:

لكُم قَدَمٌ لا يُنْكِرُ الناسُ أنها ... مَعَ الحسَبِ العَادِيّ طَمّت على البَحْرِ[(٥)]

وقوله تعالى: ﴿قال الكافرون إن هذا لساحر[(٦)] مبين﴾ أي: مع أنا بعثنا إليهم رسولا منهم، رجلا من جنسهم، بشيراً ونذيراً، ﴿قال الكافرون إن هذا لساحر[(٧)] مبين﴾ أي: ظاهر، وهم الكاذبون في ذلك.

﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون (٣)﴾.

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ـ قيل: كهذه الأيام، وقيل: كل يوم كألف سنة مما تعدون. كما سيأتي بيانه [إن شاء الله تعالى][(٨)]، ثم استوى

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) زيادة من ت.
(٣) زيادة من ت، أ.
(٤) في ت: «قدم».
(٥) تفسير الطبري (١٥/ ١٦).
(٦، ٧) في ت: «لسحر».
(٨) زيادة من أ.

على العرش، والعرش أعظم المخلوقات وسقفها.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا حجاج بن حمزة، حدثنا أبو أسامة، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد قال: سمعت سعد[1] الطائي يقول: العرش ياقوتة حمراء.

وقال وهب بن منبه: خلقه الله من نوره.

وهذا غريب.

﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ أي: يدبر أمر الخلائق، ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [سبأ: ٣]، ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلطه[2] المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين[3]، ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير، في الجبال والبحار والعمران والقفار، ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦]. ﴿ وَمَا تَسْقُطُ[4] مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال الدراوردي، عن سعد بن إسحاق بن كعب [بن عجرة][5] أنه قال حين نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ لقيهم ركب عظيم[6] [لا يرون إلا أنهم][7] من العرب، فقالوا لهم: من أنتم؟ قالوا: من الجن، خرجنا من المدينة، أخرجتنا هذه الآية. رواه ابن أبي حاتم.

[وقوله][8]: ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾، كقوله تعالى: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وكقوله تعالى: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، وقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣].

وقوله: ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ[9]﴾ أي: أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ[10]﴾ أي: أيها المشركون في أمركم، تعبدون مع الله غيره، وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقوله: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ[11] قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧]، وكذا الآية التي قبلها والتي بعدها.

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

---

(١) في ت: «سعداً». (٢) في ت، أ: «ولا يغلطه». (٣) في ت: «بالا لحاح الملحين».
(٤) في ت: «يسقط». (٥) زيادة من ت، أ. (٦) في ت: «لقي ـ ثم بيض ـ ركباً عظيماً».
(٧) زيادة من ت. (٨) زيادة من ت، أ. (٩، ١٠) في ت: «يتذكرون».
(١١) في ت: «الله».

الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤)﴾.

أخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة، لا يترك منهم أحدا حتى يعيده كما بدأه. ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده، ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ [الروم: ٢٧].

﴿ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط﴾ أي: بالعدل والجزاء الأوفى. ﴿والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾ أي: بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العقاب، من ﴿سموم وحميم. وظل من يحموم﴾ [الواقعة: ٤٢، ٤٣]. ﴿هذا فليذوقوه حميم وغساق. وآخر من شكله أزواج﴾ [ص: ٥٧، ٥٨]. ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون. يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦)﴾.

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته، وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء وشعاع القمر نورا، هذا فن وهذا فن آخر، ففاوت بينهما لئلا يشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيراً، ثم يتزايد نوره وجرمه، حتى يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر، كما قال تعالى: ﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم. لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾ [يس: ٣٩، ٤٠]، وقال: ﴿والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وقدره﴾ أي: القمر ﴿وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب﴾. فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام.

﴿ما خلق الله ذلك إلا بالحق﴾ أي: لم يخلقه عبثا بل له حكمة عظيمة في ذلك، وحجة بالغة، كما قال تعالى: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾ [ص: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون. فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وقوله: ﴿نفصل الآيات﴾ أي: نبين الحجج والأدلة ﴿لقوم يعلمون﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيئاً، كما قال تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: من الآيات الدالة على عظمته تعالى، كما قال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ [يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ](1)﴾ [يوسف: ١٠٥]، [وقال(2)]: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ [(3) وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا(4) إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [سبأ: ٩]، وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] أي: العقول، وقال ها هنا: ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ أي: عقاب الله، وسخطه، وعذابه.

**﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨)﴾.**

يقول تعالى مخبراً عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ولا يرجون في لقاء الله شيئاً، ورضوا بهذه الحياة الدنيا(5) واطمأنت إليها أنفسهم.

قال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها، حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها، والشرعية فلا يأتمرون بها، بأن مأواهم يوم معادهم النار، جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والأجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر.

**﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾.**

وهذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وامتثلوا ما أمروا، فعملوا الصالحات، بأنه سيهديهم بإيمانهم.

يحتمل أن تكون «الباء» هاهنا سببية، فتقديره: بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة

---

(1) زيادة من ت، أ، وفي هـ: «الآية». (2) في أ: «وقوله». (3) زيادة من ت، أ.
(4) في ت: «ينظروا». (5) في أ: «الدنية».

على الصراط، حتى يجوزوه ويخلصُوا إلى الجنة. ويحتمل أن تكون للاستعانة، كما قال مجاهد في قوله: ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾، قال: [يكون لهم نورا يمشون به][(١)].

وقال ابن جُرَيْج في [قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ قال][(٢)]: يمثَّل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة إذا قام من قبره، يعارض صاحبه ويبشره بكل خير، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك. فيجعل[(٣)] له نورا. من بين يديه حتى يدخله[(٤)] الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾. والكافر يُمثَّلُ له عمله في صورة سيئة وريح منتنة فيلازم صاحبه ويلازُّه[(٥)] حتى يقذفه في النار.

وروى نحوه عن قتادة مرسلا، فالله أعلم.

وقوله: ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: هذا حال أهل الجنة.

قال ابن جريج: أخبرتُ أن قوله: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾، [قال: إذا مر بهم الطير يشتهونه، قالوا: سبحانك اللهم][(٦)]، وذلك دعواهم فيأتيهم الملك بما يشتهونه، فيسلم عليهم، فيردون عليه، فذلك قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾، قال: فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم، فلذلك قوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقال مقاتل بن حيان: إذا أراد أهل الجنة أن يدعوا بالطعام قال أحدهم: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ قال: فيقوم على أحدهم عشرة آلاف خادم، مع كل خادم صحفة من ذهب، فيها طعام ليس في الأخرى، قال: فيأكل منهن كلهن.

وقال سفيان الثوري: إذا أراد أحدهم أن يدعو بشيء قال: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾.

وهذه الآية فيها شبه من قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا. إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، وقوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]، وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ. سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وقوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: هذا فيه دلالة على أن الله تعالى هو المحمود أبدا، المعبود على طول المدى؛ ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفي ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله، حيث يقول تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها، وأنه

---

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) زيادة من ت، أ، وفي هـ: «الآية».
(٣) في ت: «فتجعل».
(٤) في ت: «يدخل».
(٥) في ت: «ويلاده».
(٦) زيادة من ت، أ.

المحمود في الأول، و[في][1] الآخر، في الحياة الدنيا وفي الآخرة، في جميع الأحوال؛ ولهذا جاء في الحديث: «إن أهل الجنة يُلْهَمُون التسبيح والتحميد كما يُلْهَمُون النَّفَس»[2]. وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من تضاعف نعم الله عليهم، فتكرّر[3] وتعاد وتزاد، فليس لها انقضاء ولا أمد، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١)﴾.

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده: أنه لا يستجيب لهم[4] إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم[5]، في حال ضجرهم وغضبهم، وأنه يعلم منهم عَدَم القصد إلى إرادة ذلك، فلهذا لا يستجيب[6] لهم ـ والحالة هذه ـ لطفا ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم وأولادهم بالخير والبركة والنماء؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ[7] اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أي: لو استجاب لهم كلّما دعوه به في ذلك، لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك، كما جاء في الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده:

حدثنا محمد بن مَعْمَر، حدثنا يعقوب بن محمد، حدثنا حاتم بن إسماعيل، حدثنا يعقوب بن مجاهد أبو حَزْرَة عن عبادة بن الوليد، حدثنا جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب[8] لكم».

ورواه أبو داود، من حديث حاتم بن إسماعيل، به[9].

وقال البزار: [و][10] تفرد به عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت الأنصاري، لم يشاركه أحد فيه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]

وقال مجاهد في تفسير هذه الآية: ﴿وَلَوْ[11] يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ﴾: وهو قول الإنسان لولده وماله إذا غضب عليه: «اللهم لا تبارك فيه والعنه». فلو يعجل لهم الاستجابة في

---

(١) زيادة من ت.

(٢) رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٨٣٥) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) في ت، أ: «فيكرر».

(٤) في ت: «لا يستجب منهم»، وفي أ: «لا يستجيب منهم».

(٥) في ت، أ: «وأموالهم وأولادهم».

(٦) في ت: «لا يستجب».

(٧) في ت: «تعجل».

(٨) في ت: «فيستجب».

(٩) سنن أبي داود برقم (١٥٣٢) ورواه مسلم في صحيحه برقم (٣٠٠٩) بأطول منه من طريق حاتم بن إسماعيل.

(١٠) زيادة من ت.

(١١) في ت: «ولولا».

ذلك، كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم.

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) ﴾.

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر، كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١] أي: كثير، وهما في معنى واحد؛ وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها وزوالها عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه، وفي جميع أحواله، فإذا فرّج الله شدته وكشف كربته، أعرض ونأى بجانبه، وذهب كأنه ما كان به من ذاك شيء، ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾.

ثم ذم تعالى مَنْ هذه صفته وطريقته[٢] فقال: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد، فإنه مستثنى من ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١]، وكقول[٣] رسول الله ﷺ: «عجبا لأمر المؤمن[٤]، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرا له: إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له»، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن[٥].

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤) ﴾.

أخبر تعالى عما أحلّ بالقرون الماضية، في تكذيبهم الرسل فيما جاؤوهم به من البينات والحجج الواضحات، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم، وأرسل إليهم رسولا لينظر طاعتهم له، واتباعهم رسوله، وفي صحيح مسلم من حديث أبي نَضْرة، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خَضِرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»[٦].

وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا زيد بن عوف أبو ربيعة فهد[٧]، حدثنا حماد، عن ثابت

---

(١) في ت: «ولولا».
(٢) في أ: «وطريقه».
(٣) في ت، أ: «وكما قال».
(٤) في ت، أ: «عجبا للمؤمن».
(٥) رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب الرومي رضي الله عنه.
(٦) صحيح مسلم برقم (٢٧٤٢).
(٧) في هـ، ت: «مهد»، وفي أ: «شهد» والتصويب من الطبري

البُناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى؛ أن عوف بن مالك قال لأبي بكر: رأيت فيما يرى النائم كأن سَبَبًا دُلي من السماء، فانتُشط رسولُ الله ﷺ، ثم أعيد، فانتُشط أبو بكر، ثم ذُرع[1] الناس حول المنبر، ففضل عمر بثلاث أذرع إلى المنبر. فقال عمر: دعنا من رؤياك، لا أربَ لنا فيها! فلما استخلف عمر قال: يا عوف، رؤياك! فقال: وهل لك في رؤياي من حاجة؟ أو لم تنتهرني[2]؟ فقال: ويحك! إني: كرهت أن تنعَى لخليفة رسول الله ﷺ نفسه! فقصّ عليه الرؤيا، حتى إذا بلغ: «ذُرع[3] الناس إلى المنبر بهذه الثلاث الأذرع»، قال: أما إحداهن فإنه كائن خليفة. وأما الثانية فإنه لا يخاف في الله لومة لائم. وأما الثالثة فإنه شهيد. قال: فقال: يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، فقد استُخلفت[4] يا ابن أم عمر، فانظر كيف تعمل؟ وأما قوله: «فإني لا أخاف في الله لومة لائم»، فما شاء الله! وأما قوله: [إني][5] شهيد فأنّى لعمر الشهادة والمسلمون مطيفون به[6].

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾.

يخبر تعالى عن تعنّت الكفار من مشركي قريش الجاحدين الحقّ المعرضين عنه، أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحُججه الواضحة قالوا له: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا﴾ أي: رد هذا وجئنا بغيره من نمط آخر، أو بدّله إلى وضع آخر، قال الله لنبيه، صلوات الله عليه وسلامه عليه، ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ أي: ليس هذا إليّ، إنما أنا عبد مأمور، ورسول مبلغ عن الله، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

ثم قال محتجا عليهم في صحة ما جاءهم به: ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ﴾ أي: هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيئته وإرادته، والدليل على أني لست أتقوله من عندي ولا افتريته[7] أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله عز وجل، لا تنتقدون علي شيئا تَغمصوني به؛ ولهذا قال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل؛ ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم

---

(١) في ت: «ذرع».
(٢) في ت: «تنتهرني».
(٣) في ت، أ: «ذرع».
(٤) في ت، أ: «استخلفت».
(٥) زيادة من ت.
(٦) تفسير الطبري (١٥/ ٣٩).
(٧) في ت: «افتريته»، وفي أ: «اقترفته».

أبا[١] سفيان ومن معه، فيما سأله من صفة النبي ﷺ، قال: هل[٢] كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا ـ وقد كان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين، ومع هذا اعترف[٣] بالحق:

وَالفَضْلُ ما شَهِدَتْ به الأعداءُ

فقال له هرقل: فقد أعرف[٤] أنه لم يكن ليَدَعَ الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله[٥]!

وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة: بعث الله فينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته، وقد كانت مدة مقامه، عليه السلام، بين أظهرنا[٦] قبل النبوة أربعين سنة. وعن سعيد بن المسيب: ثلاثا وأربعين سنة. والصحيح المشهور الأول.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧) ﴾.

يقول تعالى: لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجرامًا ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، وتَقَوَّل[٧] على الله، وزعم أن الله أرسله، ولم يكن كذلك، فليس أحد أكبر جرماً ولا أعظم ظُلما من هذا، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء، فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء! فإن مَن قال هذه المقالة صادقا أو كاذبا، فلابد أن الله يَنصب عليه من الأدلة على بِرِّه أو فُجُوره ما[٨] و أظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب [لعنه الله][٩] لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى ووقت نصف الليل في حندس الظلماء، فَمِنْ سيما كل منهما وكلامه وفعاله يَستدلّ من له بصيرة على صدق محمد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب، وسَجَاح، والأسود العَنْسي[١٠].

قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انْجَفَل الناسُ، فكنت فيمن انجفل، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، [وصلوا الأرحام][١١]، وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[١٢].

ولما قَدم ضمام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ في[١٣] قومه بني سعد بن بكر قال لرسول الله فيما قال له[١٤]: من رفع هذه السماء؟ قال: «الله». قال: ومن نصب هذه الجبال؟ قال: «الله». قال: ومن

---

(١) في ت: «لأبي». (٢) في ت: «فهل». (٣) في ت: «اعترف».
(٤) في ت: «أعترف». (٥) في ت، أ: «ربه». (٦) في ت، أ: «أظهرهم».
(٧) في ت: «ويقول» (٨) في ت: «وما». (٩) زيادة من أ.
(١٠) في أ: «العبسي». (١١) زيادة من ت، أ، والمسند.
(١٢) رواه أحمد في المسند (٥/٤٥١) والترمذي في السنن برقم (٢٤٨٥) وقال الترمذي: «حديث صحيح».
(١٣) في أ: «من». (١٤) في ت: «فيما قاله».

سطح هذه الأرض؟ قال: «الله». قال: فبالذي رفع هذه السماء، ونصب هذه الجبال، وسطّح هذه الأرض: الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ قال: «اللهم نعم» ثم[1] سأله عن الصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، ويحلف عند كل واحدة[2] هذه اليمين، ويحلف رسول الله ﷺ، فقال له: صدقت، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص[3].

فاكتفى هذا الرجل بمجرد هذا، وقد أيقن بصدقه، صلوات الله وسلامه عليه، بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه، كما قال حسان بن ثابت:

لَو لم تكُن[4] فيه آياتٌ مبيّنة ... كانت بَديهتُه[5] تأتيكَ بالخَبَرِ

وأما مسيلمة فمن شاهده من ذَوي البصائر، علم أمره لا محالة، بأقواله الركيكة التي ليست بفصيحة، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة، وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم الحسرة[6] والفضيحة، وكم من فرق بين قوله تعالى: **﴿اللهُ لا إلهَ إلاّ هُوَ الحيُّ القَيُّومُ لا تأخُذُهُ سِنَةٌ ولا نومٌ لَهُ ما في السّموات وما في الأرْضِ مَن ذا الّذي يشْفَعُ عندَهُ إلاّ بإذْنِه يعلَمُ ما بينَ أيْديهِمْ وما خلفَهُمْ ولا يُحيطُونَ بشيْءٍ مِنْ علْمِه إلاّ بما شاءَ وسِعَ كُرسِيُّهُ السّمواتِ والأرْضَ ولا يؤُودُهُ حِفْظُهُما وهُوَ العَليُّ العَظيمُ﴾** [البقرة: ٢٥٥]. وبين عُلاك[7] مسيلمة قبحه الله ولعنه: «يا ضفدع بنت[8] الضفدعين، نقي كما تنقين لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين». وقوله ـ قُبّح ولعن ـ: «لقد أنعم الله على الحبلى، إذ أخرج منها نَسَمة تسعى، من بين صفَاق وحَشَى». وقوله ـ خذَّله[9] الله في نار جهنم، وقد فعل ـ: «الفيل وما أدراك ما الفيل؟ له زلْقُوم[10] طويل» وقوله ـ أبعده الله من رحمته: «والعاجنات عجنا، والخابزات خبزا، واللاقمات[11] لقما، إهالة وسمنا، إن قريشا قوم يعتدون» إلى غير ذلك من الهذيانات والخرافات التي يأنف الصبيان أن يتلفظوا بها، إلا على وجه السخرية والاستهزاء؛ ولهذا أرغم الله أنفه، وشرب يوم «حديقة الموت» حتفه. ومَزّق[12] شمله. ولعنه صحبُه وأهله. وقدموا على الصديق تائبين، وجاؤوا في دين الله راغبين، فسألهم الصديق خليفة الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، ورضي [الله][13] عنه ـ أن يقرؤوا عليه شيئا من قرآن مسيلمة لعنه الله، فسألوه أن يعفيهم من ذلك، فأبى عليهم إلا أن يقرؤوا شيئا منه ليسمعه من لم يسمعه من الناس، فيعرفوا فضل ما هم عليه[14] من الهدى والعلم. فقرؤوا عليه من هذا الذي ذكرناه وأشباهه، فلما فرغوا قال لهم الصديق، رضي الله عنه: ويحكم! أين كان يُذهبَ بعقولكم؟ والله إن هذا لم يخرج من إلّ.

---

(١) في أ: «قال: ثم». (٢) في ت: «واحد».

(٣) رواه مسلم في صحيحه برقم (١٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه بنحو هذا السياق.

(٤) في ت: «يكن». (٥) في أ: «بدايته». (٦) في ت، أ: «الحشر».

(٧) في ت: «علان». (٨) في ت: «بين». (٩) في ت، أ: «خلده».

(١٠) في ت، أ: «زلوم». (١١) في ت، أ: «فاللاقمات». (١٢) في ت، أ: «وتمزق».

(١٣) زيادة من ت. (١٤) في ت، أ: «فيه».

وذكروا أن وفد عمرو بن العاص على مسيلمة، وكان صديقا له في الجاهلية، وكان عمرو لم يسلم بعدُ، فقال له مسيلمة: ويحك يا عمرو، ماذا أنزل على صاحبكم ـ يعني، رسول الله ﷺ ـ في هذه المدة؟ فقال: لقد سمعت أصحابه يقرؤون سورة عظيمة قصيرة فقال: وما هي؟ فقال: ﴿والعصر. إنَّ الإنسان لفي خُسْر. إلاَّ الَّذين آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحات وتواصوْا بالْحقّ وتواصوْا بالصَّبْر﴾ [سورة العصر]، ففكر مسيلمة ساعة، ثم قال: وقد أنزل عليَّ مثله. فقال: وما هو؟ فقال: «يا وَبْر[1]، إنما أنت أذنان وصدر، وسائرك حَفْرٌ نَقْر، كيف ترى يا عمرو؟» فقال له عمرو:[2] «والله إنك لتعلم أني أعلم أنك لتكذب»، فإذا كان هذا من مشرك في حال شركه، لم يشتبه عليه حال محمد ﷺ وصدقه، وحال مسيلمة ـ لعنه الله ـ وكذبه، فكيف بأولي[3] البصائر والنهى، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجى! ولهذا قال الله تعالى: ﴿ومَنْ[4] أظْلَمُ ممَّن افْترَىٰ علَى الله كذبًا أوْ قال أُوحي إلَيَّ ولمْ يُوحَ إلَيْه شيْءٌ ومن قال سأُنزلُ مثْل ما أنزل اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ومنْ أظْلَمُ ممَّن افْترَىٰ علَى الله كذبًا أوْ كذَّب بآياته إنَّهُ لا يُفْلحُ الظَّالمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]، وكذلك من كذّب بالحق الذي جاءت به الرسل، وقامت عليه الحجج. لا أحد أظلم منه كما جاء في الحديث: «أعتى الناس على الله رجلٌ قتل نبيا، أو قتله نبي»[5].

﴿ويعْبُدُونَ من دُون اللَّه ما لا يضُرُّهُمْ ولا ينفعُهُمْ ويقُولُونَ هؤُلاء شُفعاؤُنا عند اللَّه قُلْ أتُنبّئُونَ اللَّه بما لا يعْلمُ في السَّمٰوات ولا في الأرْض سُبْحانهُ وتعالىٰ عمَّا يُشْركُون (١٨) وما كانَ النَّاسُ إلاَّ أُمَّةً واحدةً فاخْتلفُوا ولوْلا كلمةٌ سبقتْ من رَّبّك لقُضي بيْنهُمْ فيما فيه يخْتلفُون(١٩)﴾.

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتُها عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تنفع ولا تضر ولا تملك شيئا، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها، ولا يكون هذا أبدا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أتُنبّئُون اللَّه بما لا يعْلمُ في السَّمٰوات ولا في الأرْض﴾.

وقال ابن جرير: معناه: أتخبرون[6] الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض؟ ثم نزه نفسه عن شركهم وكفرهم، فقال: ﴿سُبْحانهُ وتعالىٰ عمَّا يُشْركُون﴾.

---

(١) في ت، أ: «يا وبر وبر». (٢) في ت: «عمر».

(٣) في ت: «بأولي». (٤) في ت: «فمن».

(٥) رواه الإمام أحمد في المسند (١/٤٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود ولفظه: «أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل قتله نبي أو قتل نبيا». وروى البخاري في صحيحه برقم (٤٠٧٣) من حديث أبي هريرة: «اشتد غضب الله على من يقتله رسول الله في سبيل الله».

(٦) في ت: «أتخبرونه».

ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس، كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد، وهو الإسلام؛ قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام، ثم وقع الاختلاف بين الناس، وعُبدت الأصنام والأنداد والأوثان. فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحُجَجه البالغة وبراهينه الدامغة، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾أي: لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه؛ وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود لقضى بينهم فيما فيه اختلفوا، فأسعد المؤمنين، وأعنت الكافرين.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٢٠)﴾.

أي: ويقول هؤلاء الكفرة [الملحدون][1] المكذبون المعاندون: «لولا أنزل على محمد آية من ربه»؛ يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن[2] يحول لهم الصفا ذهبا، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهارا، ونحو ذلك مما الله عليه قادر[3]، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا. بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١٠، ١١] وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، يقول تعالى: إن سنتي في خلقي أني إذا آتيتهم ما سألوا، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة. ولهذا لما خيَّر رسول الله، عليه الصلاة والسلام، بين أن يُعطى ما سألوا، فإن أجابوا وإلا عُوجلوا، وبين أن يتركهم ويُنظرهم، اختار إنظارهم، كما حلم عنهم غير مرة، صلوات الله عليه؛ ولهذا قال تعالى إرشادا لنبيه إلى الجواب عما سألوا: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: الأمر كله لله، وهو يعلم العواقب في الأمور، ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ أي: إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتم فانتظروا حكم الله فيَّ وفيكم. هذا مع أنهم قد شاهدوا من معجزاته، عليه السلام[4]، أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره، فانشق باثنتين[5]: فرقة من وراء الجبل، وفرقة من دونه. وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوا ومالم يسألوا، ولو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشادا وتثبتا لأجابهم، ولكن علم أنهم إنما يسألون عنادا وتعنتا، فتركهم فيما رابهم، وعلم أنهم لا يؤمن[6] منهم أحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا

---

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) في ت، أ: «وأن».
(٣) في ت: «مما الله قادر عليه».
(٤) في أ: ﷺ.
(٥) في ت، أ: «باثنين».
(٦) في ت، أ: «ولكن عن لم يؤمن».

إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]، ولما فيهم من المكابرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧] فمثل هؤلاء أقل من أن يجابوا إلى ما سألوا؛ لأنه لا فائدة في جواب هؤلاء؛ لأنه دائر على تعنتهم وعنادهم، لكثرة فجورهم وفسادهم؛ ولهذا قال: ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)﴾.

يخبر[١] تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم، كالرخاء بعد الشدة، والخصب[٢] بعد الجدب، والمطر بعد القحط ونحو ذلك ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾.

قال مجاهد: استهزاء وتكذيب. كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ [يونس: ١٢]، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على[٣] أثر سماء ـ مطر[٤] ـ أصابهم[٥] من الليل ثم قال: «هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة؟» قالوا[٦]: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب»[٧].

وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي: أشد استدراجا وإمهالا، حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة، ثم يؤخذ على غرة منه، والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله،

---

(١) في ت: «فخبر».
(٢) في ت: «والخصيب».
(٣) في ت، أ: «في».
(٤) في ت، أ: «أي مطر».
(٥) في ت: «أصابتهم».
(٦) في ت: «قلنا».
(٧) صحيح البخاري برقم (٨٤٦) وصحيح مسلم برقم (٧١).

ويحصونه عليه، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة، فيجازيه على الحقير والجليل[1]، والنقير والقطمير.

ثم أخبر تعالى أنه: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي: يحفظكم[2] ويكلؤكم بحراسته ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ أي: بسرعة سيرهم رافقين، فبينما[3] هم كذلك إذ ﴿جَاءَتْهَا﴾ أي: تلك السفن ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أي: شديدة ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: اغتلم البحر عليهم ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي: هلكوا ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: لايدعون معه صنما ولا وثنا، بل يُفردونه بالدعاء والابتهال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال هاهنا: ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ﴾ أي: هذه الحال ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أي: لانشرك بك أحداً، ولنفردنّك[4] بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء هاهنا، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ﴾ أي: من تلك الورطة ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: كأن لم يكن من ذاك شيء[5]، ﴿كأن لم يدعنا إلى ضر مسه﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾ أي: إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ولا تضرون[6] به أحداً غيركم، كما جاء في الحديث: «مامن ذنب أجدر[7] أن يعجّل الله عقوبته في الدنيا، مع ما يدّخر[8] الله لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم»[9].

وقوله: ﴿مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: مصيركم ومآلكم[10] ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾ أي: فنخبركم بجميع أعمالكم، ونوفيكم[11] إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥) ﴾.

---

(١) في ت: «القليل والحقير». (٢) في ت، أ: «يحيطكم». (٣) في ت: «فبينا».

(٤) في أ: «ولنفردك». (٥) في ت، أ: «كأن لم يكن شيء من ذلك». (٦) في ت: «يضرون».

(٧) في ت: «أحرى». (٨) في ت: «يؤخر».

(٩) رواه أبو داود في السنن برقم (٤٩٠٢) والترمذي في السنن برقم (٢٥١١) وابن ماجه في السنن برقم (٤٢١١) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

(١٠) في ت: «ومآبكم». (١١) في ت: «ونوفكم».

ضرب [تبارك و][١] تعالى مثلا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها، بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بما أنزل [٢] من السماء من الماء، مما يأكل الناس من زرع [٣] وثمار، على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل [٤] الأنعام من أب وقضب وغير ذلك، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي: زينتها الفانية، ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ أي: حسنت بما خرج من [٥] رباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان، ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا﴾، الذين زرعوها وغرسوها[٦]، ﴿أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على جذاذها وحصادها فبيناهم [٧] كذلك إذ جاءتها صاعقة، أو ريح باردة، فأيبست أوراقها، وأتلفت ثمارها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَتَاهَا[٨] أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ أي: يبسا بعد [تلك] [٩] الخضرة والنضارة، ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ أي: كأنها ما كانت حسناء قبل ذلك.

وقال قتادة: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾: كأن لم تنعم.

وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن؛ ولهذا جاء في الحديث[١٠]: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا، فيغمس في النار غمسة ثم يقال له: هل رأيت خيراً قط؟[هل مر بك نعيم قط؟] [١١] فيقول: لا. ويؤتى بأشد الناس عذاباً في الدنيا[١٢]، فيغمس في النعيم غمسة، ثم يقال له: هل رأيت بؤسا قط؟ فيقول: لا»[١٣].

وقال تعالى إخباراً عن المهلكين: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ . كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [هود: ٩٤، ٩٥].

ثم قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: نبين الحجج والأدلة، ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا عن أهلها سريعاً مع اغترارهم بها، وتمكنهم [١٤] بمواعيدها وتفلتها [١٥] منهم، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها، والطلب لمن هرب منها، وقد ضرب الله مثل الحياة الدنيا بنبات الأرض، في غير ما آية من كتابه العزيز، فقال في سورة الكهف: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]، وكذا في سورة الزمر[١٦]، والحديد [١٧] يضرب بذلك مثل الحياة الدنيا كماء.

وقال ابن جرير: حدثني الحارث[١٨]، حدثنا عبد العزيز، حدثنا ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال: سمعت مروان ـ يعني: ابن

---

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) في ت، أ: «أنزل الله».
(٣) في ت: «الزرع».
(٤) في ت: «يأكل».
(٥) في ت: «في».
(٦) في ت: «وغرسوها».
(٧) في ت، أ: «فبيناها».
(٨) في ت، أ: «جاءها» وهو خطأ.
(٩) زيادة من ت، أ.
(١٠) في ت، أ: «الصحيح».
(١١) زيادة من ت، أ، وابن ماجه.
(١٢) في ت، أ: «ويؤتى بأبأس أهل الدنيا».
(١٣) سنن ابن ماجه برقم (٤٣٢١).
(١٤) في ت، أ: «وتمسكهم».
(١٥) في ت: «وتفلها».
(١٦) الآية: ٢١.
(١٧) الآية: ٢٠.
(١٨) في ت: «الحرب».

الحكم ـ يقرأ على المنبر: «وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها وما كان الله ليهلكها [1] إلا بذنوب أهلها»، قال: قد قرأتها وليست في المصحف فقال عباس بن عبد الله بن عباس: هكذا يقرؤها ابن عباس. فأرسلوا إلى ابن عباس فقال: هكذا أقرأني أبيّ بن كعب[2].

وهذه قراءة غريبة، وكأنها زيادة للتفسير.

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ ﴾ الآية: لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة [عطبها و] [3] زوالها، رغَّب في الجنة ودعا إليها، وسماها دار السلام أي: من الآفات، والنقائص والنكبات، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

قال أيوب عن أبي قِلابة عن النبي ﷺ قال: «قيل لي: لتنَمْ عينُك، وليعقلْ قلبك، ولتسمع [4] أذنك فنامت عيني، وعقل قلبي، وسمعت أذني. ثم قيل: سيدٌ بَنَى داراً، ثم صنع مأدبة، وأرسل داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار، وأكل من المأدبة، ورضي عنه السيد، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأدبة، ولم يرض عنه السيِّد فالله السيد، والدار الإسلام، والمأدبة الجنة، والداعي محمد ﷺ»[5].

وهذا حديث مرسل، وقد جاء متصلا من حديث الليث، عن خالد بن يزيد[6]، عن سعيد بن أبي هلال، عن جابر [7] بن عبد الله، رضي الله عنه، قال: خرج علينا رسولُ الله ﷺ يوماً فقال: «إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلا. فقال: اسمع سَمِعت أذنك، واعقل عَقَل قلبك، إنما مَثَلُك ومثل أمَّتك كمثل ملك اتخذ داراً، ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مأدبة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه، فالله الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يامحمد الرسُول، فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها» رواه ابن جرير[8].

وقال قتادة: حدثني خُلَيد العَصَري، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «مامن يوم طلعت فيه شمسه إلا وبجنبَتَيْها ملكان يناديان يسمعهما [9] خلق الله كلهم إلا الثقلين: يأيها الناس،

---

(١) في ت: «ليهلكهم».

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ٥٧) وانظر تعليق الأستاذ محمود شاكر في الحاشية، فقد ذكر أن هذا الإسناد هالك.

(٣) زيادة من ت، أ.

(٤) في ت: «وليسمع».

(٥) رواه الطبري في تفسيره (١٥/ ٦٠).

(٦) في ت، أ: «سويد».

(٧) في ت: «جابر».

(٨) تفسير الطبري (١٥/ ٦١) وعلقه البخاري في صحيحه برقم (٧٢٨١) ورواه الترمذي في السنن برقم (٢٨٦٠) من طريق قتيبة عن الليث به، وقال الترمذي: «هذا حديث مرسل، سعيد بن أبي هلال لم يدرك جابر بن عبد الله» قال: «وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن النبي ﷺ بإسناد أصح من هذا» قلت: رواه البخاري في صحيحه برقم (٧٢٨١) من طريق يزيد عن سليم بن حيان، عن سعيد بن أبي ميناء، عن جابر بن عبد الله بنحوه.

(٩) في ت، أ: «يسمعه».

هلموا إلى ربكم، إن ما قَلّ وكَفَى، خير مما كثر وألهى». قال: وأنزل ذلك في [(١)] القرآن، في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير [(٢)].

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦)﴾.

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح أبدله [(٣)] الحسنى في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾[ الرحمن: ٦٠].

وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: هي [(٤)] تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وزيادة على ذلك [أيضا] [(٥)]، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القُصُور والحُور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظرُ إلى وجهه [(٦)] الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بفضله وبرحمته[(٧)] وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله [(٨)] الكريم، عن أبي بكر الصديق، وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس [قال البغوي وأبو موسى وعبادة بن الصامت][(٩)]، وسعيد بن المسيب، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وعبد الرحمن بن سابط، ومجاهد، وعكرمة، وعامر بن سعد، وعطاء، والضحاك، والحسن، وقتادة، والسدي، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم من السلف والخلف.

وقد وردت في ذلك أحاديثُ كثيرة، عن رسول الله ﷺ، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد:

حدثنا عفان، أخبرنا حماد بن سلمة، عن ثابت البُناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب؛ أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، وقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن يُنْجِزَكُمُوه. فيقولون: وما هو؟ ألم يُثَقِّل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا من النار؟». قال: «فيكشف[(١٠)] لهم الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقر لأعينهم».

وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة، من حديث حماد بن سلمة، به[(١١)].

---

(١) في ت، أ: «في ذلك».

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ٦٠) ورواه أحمد في مسنده (٥/ ١٩٧) من طريق همام عن قتادة بنحوه.

(٣) في ت، أ: «أن لهم».　(٤) في ت، أ: «تشمل هي».　(٥) زيادة من ت، أ.

(٦) في ت: «وجهه».　(٧) في ت: «ورحمته».　(٨) في ت: «وجهه».

(٩) زيادة من ت، أ.　(١٠) في ت: «فكشف».

(١١) صحيح مسلم برقم (١٨١) ورواه الترمذي في السنن برقم (٢٥٥٢) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٢٣٤) وابن ماجه في السنن برقم (١٨٧).

وقال ابن جرير: أخبرنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا شبيب، عن أبان[1]، عن أبي تَميمة الهُجَيْمي؛ أنه سمع أبا موسى الأشعري يحدث عن رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادي: يا أهل الجنة ـ بصَوْت يُسْمِعُ أوَّلهم وآخرهم ـ: إن الله وعدكم الحسنى وزيادة، الحسنى: الجنة. وزيادة: النظر إلى وجه الرحمن عز وجل»[2].

ورواه أيضاً ابنُ أبي حاتم، من حديث أبي بكر الهُذَلي[3]، عن أبي تميمة الهجيمي، به.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا ابن حميد، حدثنا إبراهيم بن المختار[4]، عن ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن كعب بن عُجْرَة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: النظر إلى وجه الرحمن عز وجل[5].

وقال أيضاً: حدثنا ابن عبد الرحيم[6]، حدثنا عمرو بن أبي سلمة، سمعت زهيراً عمن سَمِع أبا العالية، حدثنا أُبيّ بن كعب: أنه سأل رسولَ الله ﷺ عن قول الله عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «الحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله عز وجل»[7].

ورواه ابن أبي حاتم أيضاً من حديث زهير، به.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ أي: قتام وسواد في عَرَصات المحشر، كما يعتري وجوه الكفرة الفجرة من القَتَرة والغَبَرة، ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: هوان وصغار، أي: لا يحصل لهم إهانة في الباطن، ولا في الظاهر، بل هم كما قال تعالى في حقهم: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] أي: نضرة في وجوههم، وسروراً في قلوبهم، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته، آمين.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧)﴾.

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يُضاعف لهم الحسنات، ويزدادون[8] على ذلك، عطف بذكر حال الأشقياء، فذكر عدله تعالى فيهم، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها، لا يزيدهم على ذلك،

---

(١) في ت، أ: «أبان».

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ٦٥) وابن وهب روى عن شبيب مناكير وأبان بن أبي عياش ضعيف.

(٣) في ت: «الهذلي».

(٤) في ت: «المختار به».

(٥) تفسير الطبري (١٥/ ٦٨) ورواه أبو نعيم في الحلية (٥/ ٤٠٢) من طريق محمد بن حميد به، وقال: «غريب من حديث عطاء وابن جريج تفرد به إبراهيم بن المختار». وإبراهيم بن المختار ضعيف.

(٦) في أ: «عبد الرحمن».

(٧) تفسير الطبري (١٥/ ٦٩) ورواه اللالكائي في السنة برقم (٧٨٠) من طريق الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد عمن سمع أبي العالية يحدث عن أُبيّ بن كعب فذكره مرفوعاً.

(٨) في ت: «ويزدادون».

﴿وترهقهم﴾ أي: تعتريهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها، كما قال تعالى: ﴿وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي﴾ [الشورى: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار . مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء . وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب﴾ [إبراهيم: ٤٢ ـ ٤٤]، وقوله: ﴿ما لهم من الله من عاصم﴾ أي: من مانع ولا واق يقيهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿يقول الإنسان يومئذ أين المفر . كلا لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر﴾ [القيامة: ١٠ ـ ١٢].

وقوله: ﴿كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما﴾: إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾ [آل عمران: ١٠٦ ، ١٠٧]، وكما قال تعالى: ﴿وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة . ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها قترة . أولئك هم الكفرة الفجرة﴾ الآية [عبس: ٣٨ ـ ٤٢].

﴿ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون (٢٨) فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين (٢٩) هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون (٣٠)﴾.

يقول تعالى: ﴿ويوم نحشرهم﴾ أي: أهل الأرض كلهم، من إنس وجن[1]، وبر وفاجر، كما قال: ﴿وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم﴾ أي: الزموا أنتم وهم مكاناً معيناً، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ [يس: ٥٩]، وقال: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾ [الروم: ١٤]، وفي الآية الأخرى: ﴿يومئذ يصدعون﴾ [الروم: ٤٣] أي: يصيرون صدعين، وهذا يكون إذا جاء الرب تعالى لفصل القضاء؛ ولهذا قيل: ذلك[2] يستشفع المؤمنون إلى الله تعالى أن يأتي لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا، وفي الحديث الآخر: «نحن يوم القيامة على كوم فوق الناس[3]»[4].

---

(١) في ت: «من جن وإنس».

(٢) وقع هنا بياض في هـ، ووصل في ت، أ.

وحديث الاستشفاع رواه البخاري في صحيحه برقم (٤٤٧٦) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) في أ: «النار».

(٤) رواه أحمد في المسند (٣/ ٣٤٥) من حديث جابر رضي الله عنه. والكوم: الموضع المشرف العال.

وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة إخباراً عما يأمر به المشركين[1] وأوثانهم يوم القيامة: ﴿مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون﴾، أنكروا عبادتهم، وتبرؤوا منهم، كما قال تعالى: ﴿كلا[2] سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾ الآية [مريم: ٢]. وقال: ﴿إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا﴾ [البقرة: ١٦٦]، وقال: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

وقال في هذه الآية إخباراً عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم عند ادعائهم عبادتهم: ﴿فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين﴾ أي: ما كنا نشعر بها ولا نعلم، وإنما أنتم كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم، والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا، ولا أمرناكم بها، ولا رضينا منكم بذلك.

وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ممن لا يسمع ولا يبصر، ولا يغني عنهم شيئاً، ولم يأمرهم بذلك ولا رضي به ولا أراده، بل تبرأ منهم في وقت أحوج ما يكونون إليه، وقد تركوا[3] عبادة الحي القيوم، السميع البصير، القادر على كل شيء، العليم بكل شيء، وقد أرسل رسله وأنزل كتبه، آمرا بعبادته وحده لا شريك له، ناهياً عن عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يوحي[4] إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ [الزخرف: ٤٥].

والمشركون أنواع وأقسام كثيرون، قد ذكرهم الله في كتابه، وبيّن أحوالهم وأقوالهم، ورد عليهم فيما هم فيه أتم رد.

وقوله: ﴿هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت﴾ أي: في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما أسلفت من [عملها من][5] خير وشر، كما قال تعالى: ﴿يوم تبلى السرائر﴾ [الطارق: ٩]، وقال تعالى: ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾ [القيامة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

وقد قرأ بعضهم: ﴿هنالك تتلو كل نفس ما أسلفت﴾، وفسرها بعضهم بالقراءة، وفسرها بعضهم بمعنى تتبع ما قدمته من خير وشر، وفسرها بعضهم بحديث: «لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع من

---

(١) في ت، أ: «المشركون». (٢) زيادة من ت، أ. (٣) في ت: «يكون إليه وقد تركوا».
(٤) في ت: «نوحي». (٥) زيادة من أ.

كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت» الحديث[١].

وقوله: ﴿ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ أي: ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل، ففصلها، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: ذهب عن المشركين ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي: ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه.

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) ﴾.

يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية الإله[٢]، فقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر، فيشق[٣] الأرض شقاً بقدرته ومشيئته، فيخرج منها ﴿حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٢٧ ـ ٣١]، أإله مع الله؟ فسيقولون: الله، ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ [الملك: ٢١]؟، وكذلك قوله: ﴿أَمَّن[٤] يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ [يونس: ٣١]؟ أي: الذي وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ولو شاء لذهب بها وسلبكم إياها، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣]، وقال: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦].

وقوله: ﴿ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي: بقدرته العظيمة، ومنته العميمة، وقد تقدم ذكر الخلاف في ذلك، وأن الآية عامة في ذلك كله.

وقوله: ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي: من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩]، فالملك كله العلوي والسفلي، وما فيهما من ملائكة وإنس وجان، فقيرون إليه، عبيد له، خاضعون لديه، ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ أي: هم يعلمون ذلك

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم (١٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في ت، أ: «وحدانيته الإلهية». (٣) في ت، أ: «ويشق». (٤) في أ: «قل من» وهو خطأ.

ويعترفون به، ﴿ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ أي: أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم؟.

وقوله: ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ أي: فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة، ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ﴾ أي: فكل معبود سواه باطل، لا إله إلا هو، واحد[1] لا شريك له.

﴿ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾[2] أي: فكيف تصرفون[3] عن عبادته إلى عبادة ما سواه، وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء، والمتصرف في كل شيء؟

وقوله: ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي: كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف في الملك وحده، الذي بعث رسله بتوحيده؛ فلهذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار، كقوله: ﴿قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر: ٧١].

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾.

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، وعبدوا من الأصنام والأنداد، ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي: من بدأ خلق هذه السموات والأرض ثم ينشئ[4] ما فيهما من الخلائق، ويفرق أجرام السموات والأرض ويبدلهما بفناء ما فيهما، ثم يعيد الخلق[5] خلقاً جديداً؟ ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾، هو الذي يفعل هذا ويستقل به، وحده لا شريك له، ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل؟!

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ أي: أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال، وإنما يهدي الحيارى والضلال، ويقلب القلوب من الغي إلى الرشد الله، الذي لا إله إلا هو.

﴿ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَى﴾ أي: أفيتبع [العبد الذي يهدي إلى

---

(١) في ت، أ: «لا إله إلا هو لأن الإله واحد».
(٢، ٣) في ت: «يصرفون».
(٤) في ت، أ: «يفني».
(٥) في ت: «الخلائق».

الحق ويبصر بعد العمى، أم الذي لا يهدي إلى شيء [إلا][١] أن يهدى، لعماه وبكمه؟ كما قال تعالى إخبارًا عن إبراهيم أنه قال: ﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئًا﴾ [مريم: ٤٢]. وقال لقومه: ﴿أتعبدون ما تنحتون . والله خلقكم وما تعملون﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾ أي: فما بالكم[٢] يذهب بعقولكم، كيف سويتم بين الله وبين خلقه، وعدلتم هذا بهذا، وعبدتم هذا وهذا؟ وهلا أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم الهادي من الضلالة بالعبادة وحده، وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة.

ثم بين تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلا ولا برهانًا، وإنما هو ظن منهم، أي: توهم وتخيل، وذلك لا يغني عنهم شيئًا، ﴿إن الله عليم بما يفعلون﴾: تهديد لهم، ووعيد شديد؛ لأنه تعالى أخبر[٣] أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء.

﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين (٣٧) أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين (٣٨) بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين (٣٩) ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين (٤٠)﴾.

هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور، ولا بسورة من مثله، لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته، واشتماله على معاني عزيزة[٤] [نعزيزة][٥]، النافعة في الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا صفاته، ولا في أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وما كان هذا[٦] القرآن أن يفترى من دون الله﴾ أي: مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه هذا كلام[٧] البشر، ﴿ولكن تصديق الذي بين يديه﴾ أي: من الكتب المتقدمة، ومهيمنًا عليه، ومبينًا لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل.

وقوله: ﴿وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ أي: وبيان الأحكام والحلال والحرام، بيانًا

---

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) في ت، أ: "لكم".
(٣) في ت، أ: "أخبر".
(٤) في ت، أ: "الغزيرة".
(٥) زيادة من ت.
(٦) في ت، أ: "أي هذا".
(٧) في ت، أ: "كلام".

شافياً كافياً حقاً لا مرية فيه من الله رب العالمين، كما تقدم فى حديث الحارث الأعور، عن على ابن أبى طالب: «فيه خَبَرُ ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وفصل ما بينكم»، أى: خَبَر عما سلف وعما سيأتى، وحكم فيما بين الناس بالشرع الذى يحبه الله ويرضاه.

وقوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: إن ادعيتم وافتريتم وشككتم فى أن هذا من عند الله، وقلتم كذباً ومَيْناً: «إن هذا من عند محمد»، فمحمد بشر مثلكم، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن، فأتوا أنتم بسورة[1] مثله، أى: من جنس القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان.

وهذا هو المقام الثالث فى التحدى، فإنه تعالى تحداهم ودعاهم، إن كانوا صادقين فى دعواهم، أنه من عند محمد، فلتعارضوه[2] بنظير ما جاء به وحده واستعينوا بمن شئتم[3]. وأخبر أنهم لا يقدرون على ذلك، ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه، فقال فى أول سورة هود: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ[4] اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، ثم تنازل إلى سورة، فقال فى هذه السورة: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن[5] دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، وكذا فى سورة البقرة ـ وهى مدنية ـ تحداهم بسورة منه، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً، فقال: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ الآية: [البقرة: ٢٤].

هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى فى هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا قِبَلَ لأحد به، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته، وجزالته وطلاوته، وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به، وأفهمهم له، وأتبعهم له وأشدهم[6] له انقياداً، كما عرف السحرة، لعلمهم[7] بفنون السحر، أن هذا الذى فعله موسى، عليه السلام، لا يصدر إلا عن مُؤَيَّد مُسَدَّد مرسل من الله، وأن هذا لا يستطاع لبشر إلا بإذن الله. وكذلك عيسى، عليه السلام، بُعث فى زمان علماء الطب ومعالجة المرضى، فكان يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيى الموتى بإذن الله، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه، فعرف من عرف منهم أنه عبد الله[8] ورسوله؛ ولهذا جاء فى الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبى من الأنبياء إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً»[9].

---

(١) فى ت، أ: «من مثله». (٢) فى ت، أ: «فليعارضوه». (٣) فى ت، أ: «وليستعينوا بمن شاؤوا».
(٤، ٥) فى ت: «ما» وهو خطأ. (٦) فى ت، أ: «وأشهرهم».
(٧) فى ت، أ: «بعلمهم». (٨) فى ت: «من عبد الله» وفى أ: «من عند الله».
(٩) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٩٨١) ومسلم فى صحيحه برقم (١٥٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ يقول: بل كذب هؤلاء بالقرآن، ولم يفهموه ولا عرفوه، ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أي: ولم يُحصّلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلا وسفهاً ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم السالفة ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وعلواً، وكفرا وعناداً وجهلا، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم.

وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أي: ومن هؤلاء الذين بُعثت[1] إليهم يا محمد من يؤمن[2] بهذا القرآن، ويتبعك وينتفع بما أرسلت به، ﴿وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ﴾، بل يموت على ذلك ويبعث عليه، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أي: وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيضله، وهو العادل الذي لا يجور، بل يعطي كلا ما يستحقه، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه، لا إله إلا هو.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤)﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ: وإن كذبك[3] هؤلاء المشركون، فتبرأ منهم ومن عملهم، ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون]. وقال إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أي: يسمعون[4] كلامك الحسن، والقرآن العظيم، والأحاديث الصحيحة الفصيحة[5] النافعة في القلوب والأبدان والأديان، وفي هذا كفاية عظيمة، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم، فإنك لا تقدر على إسماع الأصم ـ وهو الأطرش ـ فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء، إلا أن يشاء الله.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ أي: ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التؤدة، والسمت الحسن، والخلق العظيم، والدلالة الظاهرة، على نبوتك لأولي البصائر[6] والنهى، وهؤلاء ينظرون كما ينظر

---

(١) ت في ت: «الذين من بعثت». (٢) في ت، أ: «سيؤمن». (٣) في أ: «وإن كذبوك».
(٤) في ت: «يستمعون». (٥) في ت: «الفصيحة الصحيحة». (٦) في ت: «الأبصار».

غيرهم، ولا يحصل لهم من الهداية شيء مما [١]يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار، والكافرون ينظرون إليك بعين الاحتقار، ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا. إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢].

ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحد شيئاً، وإن كان قد هدى به من هدى [من الغي][٢] وبصر به من العمى، وفتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوباً غلفا، وأضل به عن الإيمان[٣] آخرين، فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء، الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، لعلمه وحكمته وعدله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. وفي الحديث عن أبي ذر[٤]، عن النبي[٥] ﷺ، فيما يرويه عنه ربه عز وجل: «يا عبادي، إني حرّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ـ إلى أن قال في آخره: يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نفسه». رواه مسلم بطوله[٦].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥)﴾.

يقول تعالى مُذكِّراً للناس قيام الساعة وحشرهم من أجداثهم إلى عرصات القيامة: كأنهم[٧] يوم يوافونها لم يلبثوا في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا. يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا. نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢ ـ ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ. وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦].

وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة كما قال: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ. قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ. قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٤].

وقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يعرف الأبناء الآباء[٨]، والقرابات بعضهم بعضا، كما كانوا في

---

(١) في ت: «ما».
(٢) زيادة من ت، أ.
(٣) في ت: «وأضل عن الإيمان به».
(٤) في ت، أ: «حديث أبي ذر».
(٥) في ت، أ: «رسول الله».
(٦) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧).
(٧) في ت، أ: «وكأنهم».
(٨) في ت، أ: «الآباء الأبناء».

الدنيا، ولكن كل مشغول بنفسه ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ . وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ . وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ . كَلاَّ﴾ [المعارج: ١٠ ـ ١٥].

وقوله: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥]، لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين. فهذه هي الخسارة العظيمة، ولا خسارة أعظم من خسارة من فُرِّق بينه وبين أحبته[1]، يوم الحسرة والندامة.

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٤٧) ﴾.

يقول تعالى مخاطبا لرسوله ﷺ: ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أي: ننتقم[2] منهم في حياتك لتقرّ عينُك منهم، ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: مصيرهم ومنقلَبهم، والله شهيد على أفعالهم بعدك.

وقد قال الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا عقبة بن مكرم، حدثنا أبو بكر الحنفي، حدثنا داود بن الجارود، عن أبي الطفيل[3]، عن حذيفة بن أسيد، عن النبي ﷺ قال: «عُرِضت عليّ أمتي البارحة لدى هذه الحجرة، أولها وآخرها. فقال رجل: يا رسول الله، عرض عليك من خُلق، فكيف من لم يخلق؟ فقال: «صُوِّروا لي في الطين، حتى إني لأعرفُ بالإنسان منهم من أحدكم بصاحبه»[4].

ورواه عن محمد بن عثمان بن أبي شيبة، عن عقبة بن مكرم، عن يونس بن بُكَير، عن زياد بن المنذر، عن أبي الطفيل، عن حذيفة بن أسيد، به نحوه[5].

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾: قال مجاهد: يعني يوم القيامة.

﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ[6] وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩]، فكل أمة تُعرَضُ على الله بحضرة رسولها، وكتابُ أعمالها من خير وشر موضوعٌ شاهد عليهم، وحفظتهم من الملائكة شهودٌ أيضا أمة بعد أمة. وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق، إلا أنها أول الأمم يوم القيامة يفصل بينهم، ويقضى لهم، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن

---

(١) في ت، أ: «أخيه». (٢) في ت: «ينتقم».

(٣) في جميع النسخ: «أبي السليل» والتصويب من المعجم الكبير للطبراني.

(٤) المعجم الكبير (٣/ ١٨١).

(٥) المعجم الكبير (٣/ ١٨١) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٦٩): «وفيه زياد بن المنذر وهو كذاب».

(٦) في ت، أ: «بالقسط» وهو خطأ.

الآخرون السابقون يوم القيامة، المقضى لهم قبل الخلائق[1]، فأمته إنما حازت قصب السبق لشرف رسولها، صلوات الله وسلامه عليه [دائماً][2] إلى يوم الدين.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كُفر هؤلاء المشركين فى استعجالهم العذاب وسؤالهم عن وقته قبل التعيين، مما لا فائدة فيه لهم[3]، كما قال تعالى: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ [الشورى: ١٨] أى: كائنة لا محالة وواقعة، وإن لم يعلموا وقتها عيناً، ولهذا أرشدَ رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال: ﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ أى: لا أقول إلا ما علَّمنى، ولا أقدر على شىء مما استأثر به إلا أن يُطلعنى عليه، فأنا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم بمجىء الساعة وأنها كائنة، ولم يطلعنى على وقتها، [ولكن][4] ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾، أى: لكل قرن مدةٌ من العمر مقدَّره[5]، فإذا انقضى أجلهم ﴿ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ [المنافقون: ١١]، ثم أخبرهم أن عذاب الله سيأتيهم بغتة، فقال: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا ﴾ أى: ليلا أو نهارا، ﴿ مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ . أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ ﴾ يعنى: أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا: ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

﴿ ثُمَّ قِيلَ[6] لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾ أى: يوم القيامة يقال لهم هذا، تبكيتا وتقريعاً، كقوله: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا . هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ . أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ . اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور: ١٣ ـ ١٦].

---

(١) هذا اللفظ فى صحيح مسلم برقم (٨٥٦) من حديث حذيفة رضى الله عنه، وروى البخارى أوله برقم (٨٧٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت، أ: «لهم فيه».

(٤) زيادة من ت، أ. (٥) فى ت: «تقدره».

(٦) فى ت: «قل».

﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) ﴾.

يقول تعالى: ويستخبرونك ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾؟ أي: المعاد والقيامة من الأجداث بعد صيرورة الأجسام ترابا. ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: ليس صيرورتكم ترابا بمعجز لله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ[1] إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣]، وفي التغابن: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة يودّ الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهبا، ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالحق، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦) ﴾.

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنّ وعده حقّ كائن لا محالة، وأنه يحيي ويميت وإليه مرجعهم، وأنه القادر على ذلك، العليم بما تفرّق من الأجسام وتمزّق في سائر أقطار الأرض والبحار والقفار [سبحانه وتعالى تقدست أسماؤه وجل ثناؤه][2].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾.

يقول تعالى ممتنا على خلقه بما أنزل إليهم من القرآن العظيم على رسوله الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: زاجر عن الفواحش، ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: من الشبه والشكوك، وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي: يحصل لها الهداية والرحمة من الله تعالى. وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ

---

(١) في ت: «إنما قوله» والصواب ما أثبتناه.

(٢) زيادة من أ.

آمنوا هُدى وشفاءٌ والَّذين لا يؤمنون في آذانهم وقْرٌ وهو عليهم عمًى أُولئك يُنادون من مكانٍ بعيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ[1] فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق[2]، فليفرحوا، فإنه أولى ما يفرحون به، ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة، كما قال ابن أبي حاتم، في تفسير هذه الآية: «وذُكِر عن بَقِيَّة[3] ـ يعني ابن الوليد ـ عن صفوان بن عمرو، سمعت أيفع بن عبد الكلاعي يقول: لما قُدم خراجُ العراق إلى عمر، رضي الله عنه، خرج عُمَرُ ومولى له فجعل عمر يعد الإبل، فإذا هي[4] أكثر من ذلك، فجعل عمر يقول: الحمد لله تعالى، ويقول مولاه: هذا والله من فضل الله ورحمته. فقال عمر: كذبت. ليس هذا، هو الذي يقول الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، وهذا مما يجمعون.

وقد[5] أسنده[6] الحافظ أبو القاسم الطبراني، فرواه عن أبي زُرْعَة الدمشقي، عن حيْوة بن شُرَيح، عن بقية، فذكره[7].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٦٠)﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحرمون ويحلون من البحائر والسوائب والوصائل، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦] الآيات.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق، سمعت أبا الأحوص ـ وهو عوف بن [مالك بن][8] نضلة ـ يحدث عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا قَشِفُ الهيئة، فقال: «هل لك مال؟» قال: قلت: نعم. قال: «من أي المال؟» قال: قلت: من كل المال، من الإبل والرقيق والخيل والغنم. فقال[9]: «إذا آتاك مالا فَلْيُرَ عليك». وقال: «هل تنتج إبل قومك صحاحا آذانُها، فتعمد إلى موسى فتقطع آذانها، فتقول: هذه بحر وتشقها، أو تشق جلودها

---

(١) في ت: «وبرحمته».
(٢) في أ: «الله».
(٣) في ت: «ذكر عن نفسه».
(٤) في أ: «هو».
(٥) في ت: «وهذا».
(٦) في أ: «أسند».
(٧) أورده السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٦٨) وعزاه لابن أبي حاتم والطبراني.
(٨) زيادة من ت، أ، والمسند.
(٩) في ت، أ: «وأنعم قال».

وتقول: هذه صُرُم، وتحرمها[١] عليك وعلى أهلك؟» قال: نعم. قال: «فإن ما آتاك الله لك حل، وساعد الله أشد من ساعدك، وموسى الله أحد من موساك» وذكر تمام الحديث[٢].

ثم رواه عن سفيان بن عيينة، عن أبي الزعراء عمرو بن عمرو، عن عمه أبي الأحوص[٣]: وعن بَهْز بن أسد، عن حماد بن سلمة، عن عبد الملك بن عمير، عن أبي الأحوص، به[٤]. وهذا حديث جيد قوي الإسناد.

وقد أنكر [الله][٥] تعالى على من حَرَّم ما أحل الله، أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء، التي[٦] لا مستند لها ولا دليل عليها. ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة، فقال: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: ما ظنهم أن يُصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾: قال ابن جرير: في تركه معاجلتهم[٧] بالعقوبة في الدنيا.

قلت: ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع في الدنيا، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، بل يحرمون ما أنعم الله [به][٨] عليهم، ويضيقون على أنفسهم، فيجعلون بعضا حلالا وبعضا حراما. وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم.

وقال ابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا رباح، حدثنا عبد الله بن سليمان، حدثنا موسى بن الصباح في قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ قال: إذا كان يوم القيامة، يؤتى بأهل ولاية الله عز وجل، فيقومون بين يدي الله عز وجل ثلاثة أصناف قال: فيؤتى برجل من الصنف الأول فيقول: عبدي، لماذا عملت؟ فيقول: يارب: خلقت الجنة وأشجارها وثمارها وأنهارها، وحورها ونعيمها، وما أعددت لأهل طاعتك فيها، فأسهرتُ ليلي وأظمأتُ نهاري شوقا إليها. قال: فيقول الله تعالى: عبدي، إنما عملت للجنة، هذه الجنة فادخلها، ومن فضلي عليك أن أعتقك من النار، [ومن فضلي عليك أن أدخلك جنتي][٩]، قال: فيدخل هو ومن معه الجنة.

قال: ثم يؤتى برجل من الصنف الثاني، قال: فيقول: عبدي، لماذا[١٠] عملت؟ فيقول: يا رب، خلقت نارا وخلقت أغلالها وسعيرها وسمومها ويحمومها، وما أعددت لأعدائك وأهل معصيتك فيها

---

(١) في ت: «حرام وبحرمها».

(٢) المسند (٣/ ٤٧٣).

(٣) المسند (٤/ ١٣٧).

(٤) المسند (٣/ ٤٧٣).

(٥) زيادة من ت، أ. (٦) في أ: «الذي».

(٧) في ت: «معاجلتهم». (٨، ٩) زيادة من ت، أ.

فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري خوفا منها. فيقول: عبدي، إنما عملت ذلك خوفا من ناري،[1] فإني قد أعتقتك من النار، ومن فضلي عليك أن أدخلك جنتي. فيدخل هو ومن معه الجنة.

ثم يؤتى برجل من الصنف الثالث، فيقول: عبدي، لماذا عملت؟ فيقول: رب[2]، حبا لك، وشوقا إليك، وعزتك لقد أسهرت ليلي وأظمأت نهاري شوقا إليك وحبا لك، فيقول تبارك وتعالى: عبدي، إنما عملت حبا لي وشوقا إلي. فيتجلى له الرب جل جلاله، ويقول: ها أنا ذا، انظر إلي. ثم يقول: من فضلي عليك أن أعتقك من النار، وأبيحك جنتي، وأزيرك ملائكتي، وأسلم عليك بنفسي. فيدخل هو ومن معه الجنة.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١)﴾.

يخبر تعالى نبيه، صلوات الله عليه وسلامه[3]، أنه[4] يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق في كل ساعة وآن ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين، كقوله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ[5] الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة في قوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء، فكيف بعلمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ. الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ. وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٧ ـ ٢١٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راؤون سامعون، ولهذا قال، عليه السلام[6]، لما سأله جبريل عن الإحسان [قال][7]: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[8].

(١) في ت، أ: «النار».
(٢) في أ: «ربي».
(٣) في ت: «صلوات الله وسلامه عليه».
(٤) في ت: «بأنه».
(٥) في ت: «مفاتح».
(٦) في أ: «ﷺ».
(٧) زيادة من ت، أ.
(٨) رواه مسلم في صحيحه برقم (٨) من حديث عمر بن الخطاب الطويل.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)﴾.

يخبر تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، كما فسرهم[1] ربهم، فكل من كان تقيا كان لله وليا: أنه ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [أي][2]: فيما يستقبلون من أهوال القيامة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما وراءهم في الدنيا.

وقال عبد الله بن مسعود، وابن عباس، وغير واحد من السلف: أولياء الله الذين إذا رؤوا ذُكر الله.

وقد ورد هذا في حديث مرفوع كما قال البزار:

حدثنا علي بن حَرْب الرازي، حدثنا محمد بن سعيد بن سابق، حدثنا يعقوب بن عبد الله الأشعري ـ وهو القمي ـ عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رجل: يا رسول الله، مَنْ أولياء الله؟ قال: «الذين إذا رؤُوا ذُكر الله». ثم قال البزار: وقد روى عن سعيد مرسلا[3].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو هشام الرِّفاعي، حدثنا ابن فضيل[4]، حدثنا أبي، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زُرْعة بن عمرو بن جرير البَجَلي، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله عبادا يغبطهم[5] الأنبياء والشهداء». قيل: من هم يا رسول الله؟ لعلنا نحبهم. قال: «هم قوم تحابوا[6] في الله من غير أموال ولا أنساب، وجوههم نور على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس». ثم قرأ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[7].

ثم رواه وأيضا أبو داود، من حديث جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، بمثله[8].

وهذا أيضا إسناد جيد، إلا أنه منقطع بين أبي زرعة وعمر بن الخطاب، والله أعلم.

---

(١) في ت، أ: «فسر بهم». (٢) زيادة من ت.

(٣) مسند البزار برقم (٣٦٢٦) «كشف الأستار». والمرسل رواه الطبري في تفسيره (١٥/ ١١٩) من طريق أشعث بن إسحاق، عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير مرسلاً.

(٤) في جميع النسخ «أبو فضيل»، وكذا وقع في مخطوطة الطبري وصوبه المعلق.

(٥) في ت: «يغبطهم». (٦) في أ: «تحابون».

(٧) تفسير الطبري (١٥/ ١٢٠) ورواه النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٢٣٦) عن واصل بن عبد الأعلى عن محمد بن فضيل عن أبيه وعمارة بن القعقاع ـ هكذا مقرونا ـ كلاهما عن أبي زرعة عن أبي هريرة به نحوه، ورواه ابن حبان في صحيحه برقم (٢٥٠٨) من طريق عبد الرحمن بن صالح عن ابن فضيل عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة به.

(٨) تفسير الطبري (١٥/ ١٢١) وسنن أبي داود برقم (٣٥٢٧).

وفي حديث الإمام أحمد، عن أبي النضر، عن عبد الحميد بن بَهْرَام، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن عبد الرحمن بن غَنْم، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي من أفناء الناس ونوازع القبائل قوم لم تتصل[1] بينهم أرحام متقاربة، تحابوا في الله، وتصافوا في الله، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور، فيجلسهم عليها، يفزع الناس ولا يفزعون، وهم أولياء الله، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون». والحديث مُطَوَّل[2] [3].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن الأعمش، عن ذَكْوَان أبي صالح، عن رجل، عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، قال: «الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو تُرى له»[4].

وقال ابن جرير: حدثني أبو السائب، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن عطاء بن يسار، عن رجل من أهل مصر، عن أبي الدرداء في قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، قال: سأل رجل أبا الدرداء[5] عن هذه الآية، فقال: لقد سألت عن شيء ما سمعتُ [أحداً][6] سأل عنه بعد رجل سأل عنه رسولَ الله، فقال: «هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل المسلم، أو تُرَى له، بشراه في الحياة الدنيا، وبشراه في الآخرة [الجنة]»[7].

ثم رواه ابن جرير من حديث سفيان، عن ابن المُنْكَدِر، عن عَطَاء بن يَسَار، عن رجل من أهل مصر، أنه سأل أبا الدرداء عن هذه الآية، فذكر نحو ما تقدم[8].

وقال ابن جرير: حدثني المثنى: حدثنا الحجاج بن مِنْهَال، حدثنا حماد بن زيد، عن عاصم بن بَهْدَلَة، عن أبي صالح قال: سمعت أبا الدرداء، وسئل عن: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ . لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾، فذكر نحوه سواء[9].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبان، حدثنا يحيى، عن أبي سلمة، عن عبادة بن الصامت؛ أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت قول الله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾؟ فقال: «لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد من أمتي ـ أو: أحد قبلك» قال: «تلك الرؤيا الصالحة، يراها الرجل الصالح أو تُرَى له».

وكذا رواه أبو داود الطيالسي، عن عمران القَطَّان، عن يحيى بن أبي كثير، به[10]. ورواه

---

(١) في ت: «يتصل».

(٢) في ت، أ: «يطول».

(٣) المسند (٥/ ٣٤٣).

(٤) المسند (٦/ ٤٤٥).

(٥) في أ: «سأل رجل من أهل مصر أبا الدرداء».

(٦، ٧) زيادة من ت، أ، والطبري.

(٨) تفسير الطبري (١٥/ ١٢٨) ورواه الترمذي في السنن برقم (٣١٠٦) من طريق سفيان عن محمد بن المنكدر به نحوه.

(٩) تفسير الطبري (١٥/ ١٣٦) ورواه الترمذي في السنن برقم (٣١٠٦) من طريق أحمد بن عبدة عن حماد بن زيد به.

(١٠) مسند الإمام أحمد (٥/ ٣١٥) وهو في مسند الطيالسي برقم (٥٨٣) عن حرب بن شداد، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة قال: نبئت أن عبادة بن الصامت فذكره، وهو منقطع قال ابن حجر: «رجاله ثقات إلا أنه معلول، فإن أبا سلمة لم يسمع من عبادة».

الأوزاعى، عن يحيى بن أبى كثير، فذكره. ورواه على بن المبارك، عن يحيى، عن أبى سلمة قال: نُبِّئنا عن عبادة بن الصامت، سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية، فذكره.

وقال ابن جرير: حدثنى أبو حميد الحِمْصِىّ، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عمر بن عمرو بن عبد الأحمُوسى، عن حميد بن عبد الله المزنى قال: أتى رجل عبادة بن الصامت فقال: آية فى كتاب الله أسألك عنها، قول الله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؟ فقال عبادة: ما سألنى عنها أحد قبلك، سألت عنها نبى الله فقال مثل ذلك: «ما سألنى عنها أحد قبلك، الرؤيا الصالحة، يراها العبد المؤمن فى المنام أو تُرَى له»[١].

ثم رواه من حديث موسى بن عبيدة، عن أيوب بن خالد بن صَفْوان، عن عبادة بن الصامت؛ أنه قال لرسول الله ﷺ: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، فقد عرفنا بشرى الآخرة الجنة، فما بشرى الدنيا؟ قال: «الرؤيا الصالحة يراها العبد أو تُرَى له، وهى جزء من أربعة وأربعين جزءا أو سبعين جزءا من النبوة»[٢].

وقال [الإمام][٣] أحمد أيضا: حدثنا بَهْز، حدثنا حماد، حدثنا أبو عمران، عن عبد الله بن الصامت، عن أبى ذر؛ أنه قال: يا رسول الله، الرجل يعمل العمل فيحمده[٤] الناس عليه، ويثنون عليه به، فقال رسول الله ﷺ: «تلك عاجل بشرى المؤمن». رواه مسلم[٥].

وقال أحمد أيضا: حدثنا حسن ـ يعنى الأشيب ـ حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا دَرّاج، عن عبدالرحمن بن جُبَيْر، عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قال: «الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن، هى جزء من تسعة وأربعين جزءا من النبوة، فمن رأى [ذلك][٦] فليخبر بها، ومن رأى سوى ذلك فإنما هو من الشيطان ليَحْزُنَه، فلينفث[٧] عن يساره ثلاثا، وليكبر[٨]، ولا يخبر بها أحدا»[٩] لم يخرجوه.

وقال ابن جرير: حدثنى يونس، أنبأنا ابن وَهْب، حدثنى عمرو بن الحارث، أن دَرّاجا أبا السمح حدثه عن عبد الرحمن بن جُبَيْر، عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: «الرؤيا الصالحة يبشَّرها المؤمن، جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»[١٠].

وقال أيضا ابن جرير: حدثنى محمد بن حاتم المؤدِّب، حدثنا عمار بن محمد، حدثنا الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قال: «هى

---

(١) تفسير الطبرى (١٥/ ١٢٩).
(٢) تفسير الطبرى (١٥/ ١٣٢).
(٣) زيادة من أ.
(٤) فى ت، أ: «ويحمده».
(٥) المسند (٥/ ١٥٦) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٢).
(٦) زيادة من أ، والمسند، وفى ت: «تلك».
(٧) فى ت: «فليتفث».
(٨) فى ت، أ: «وليسكت».
(٩) المسند (٢/ ٢١٩) وابن لهيعة ودراج ضعيفان.
(١٠) تفسير الطبرى (١٥/ ١٣٩).

فى الدنيا الرؤيا الصالحة، يراها العبد أو تُرَى له، وهى فى الآخرة الجنة»[١].

ثم رواه عن أبى كُرَيْب، عن أبى بكر بن عيَّاش، عن أبى حصين، عن أبى صالح، عن أبى هريرة أنه قال: الرؤيا الحسنة بشرى من الله، وهى من المبشّرات[٢].

هكذا رواه من هذه الطريق موقوفا.

وقال أيضا: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا أبو بكر، حدثنا هشام، عن ابن سيرين، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا الحسنة هى البشرى، يراها المسلم أو تُرَى له»[٣].

وقال ابن جرير: حدثنى أحمد بن حماد الدُّولابى، حدثنا سفيان، عن عبيد الله بن أبى يزيد، عن أبيه، عن سِبَاع بن ثابت، عن أم كُرْز الكعبية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ذهبت النبوة، وبقيت المبشرات»[٤].

وهكذا روى عن ابن مسعود، وأبى هريرة، وابن عباس، ومجاهد، وعُرْوَة بن الزبير، ويحيى بن أبى كثير، وإبراهيم النَّخَعى، وعطاء بن أبى رباح: أنهم فسروا ذلك بالرؤيا الصالحة.

وقيل: المراد بذلك[٥] بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢].

وفى حديث البراء: «أن المؤمن إذا حضره الموت، جاءه ملائكة بيض الوجوه، بيض الثياب، فقالوا: اخرجى أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان، ورب غير غضبان. فتخرج من فمه، كما تسيل القطرة من فم السقاء».

وأما بشراهم فى الآخرة، فكما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٦] [الحديد: ١٢].

وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أى: هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير، بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة: ﴿ذَٰلِكَ[٧] هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

---

(١) تفسير الطبرى (١٥/ ١٣١).

(٢، ٣) تفسير الطبرى (١٥/ ١٣٠).

(٤) تفسير الطبرى (١٥/ ١٣٣) ورواه ابن ماجه فى السنن برقم (٣٨٩٦) من طريق هارون الحمال عن سفيان به. وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢١٢): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات» وأبو يزيد لم يوثقه سوى ابن حبان، ولم يرو عنه سوى ابنه.

(٥) فى ت، أ: «المراد من ذلك». (٦) فى ت: «وذلك الفوز العظيم». (٧) فى ت: «وذلك» وهو خطأ.

﴿وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥) أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٦٦) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧)﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلا يَحْزُنكَ﴾ قولُ هؤلاء المشركين، واستعن بالله عليهم، وتوكل عليه؛ فإن العزة لله جميعا، أي: جميعها له ولرسوله وللمؤمنين. ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده العليم بأحوالهم[1].

ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض، وأن المشركين يعبدون الأصنام، وهي لا تملك شيئا، لا[2] ضراً ولا نفعا، ولا دليل لهم على عبادتها، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخرصهم وكذبهم وإفكهم.

ثم أخبر أنه الذي جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه، أي: يستريحون فيه من نَصَبهم وكلالهم وحَركاتهم، ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: مضيئاً لمعاشهم وسعيهم، وأسفارهم ومصالحهم، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: يسمعون هذه الحجج والأدلة، فيعتبرون[3] بها، ويستدلون على عظمة خالقها، ومقدرها ومسيرها.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾.

يقول تعالى منكراً على من ادعى أن له ولداً: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ أي: تقدس عن ذلك، هو الغنى عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه، ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أي: فكيف يكون له ولد مما خلق، وكل شيء مملوك له، عبد له؟! ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ أي: ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان! ﴿أَتَقُولُونَ[4] عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾: إنكار ووعيد أكيد، وتهديد شديد، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا. تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا. أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا. وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا. إِن كُلُّ مَن فِي

---

(١) في ت، أ: «عليم بهم».
(٢) في ت، أ: «ولا».
(٣) في ت: «ويعتبرون».
(٤) في ت: «أيقولون».

السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا. لقد أحصاهم وعدهم عدا. وكلهم آتيه يوم القيامة فردا﴾ [مريم: ٨٨ـ ٩٥].

ثم توعد تعالى الكاذبين عليه المفترين، ممن زعم أنه له ولدا، بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة، فأما في الدنيا فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم متعهم قليلا، ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ، كما قال هاهنا: ﴿ متاع في الدنيا ﴾ أي: مدة قريبة، ﴿ ثم إلينا مرجعهم ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿ ثم نذيقهم العذاب الشديد﴾ أي: الموجع المؤلم ﴿ بما كانوا يكفرون ﴾ أي: بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله، فيما ادعوه من الإفك والزور.

﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون (٧١) فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين (٧٢) فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين (٧٣) ﴾.

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ واتل عليهم ﴾ أي: أخبرهم واقصص عليهم، أي: على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك ﴿ نبأ نوح ﴾ أي: خبره مع قومه الذين كذبوه، كيف أهلكهم الله ودمّرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك. ﴿إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم ﴾ أي: عظُم عليكم، ﴿ مقامي﴾ أي: فيكم بين أظهركم، ﴿وتذكيري﴾ إياكم ﴿بآيات الله﴾ أي: بحججه وبراهينه، ﴿ فعلى الله توكلت﴾ أي: فإني لا أبالي ولا أكف عنكم[1]، سواء عظم عليكم أو لا! ﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم﴾ أي: فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله، من صنم ووثن، ﴿ ثم لا يكن أمركم عليكم غمة﴾ أي: ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبسا، بل افصلوا حالكم معي، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون، فاقضوا إلي ولا تنظرون، أي: ولا تؤخروني ساعة واحدة، أي: مهما قدرتم فافعلوا، فإني لا أباليكم[2] ولا أخاف منكم، لأنكم لستم على شيء، كما قال هود لقومه: ﴿ إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون. من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون. إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

﴿ فإن توليتم﴾ أي: كذبتم وأدبرتم عن الطاعة، ﴿ فما سألتكم من أجر﴾ أي: لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئا، ﴿ إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ أي: وأنا ممتثل ما أمرت به

---

(١) في ت، أ: «ولا أنكر عنكم».

(٢) في ت، أ: «أبالكم».

من الإسلام لله عز وجل، والإسلام هو دين [جميع][1] الأنبياء من أولهم إلى آخرهم، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]. قال ابن عباس: سبيلا وسنة. فهذا نوح يقول: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١]، وقال تعالى عن إبراهيم الخليل: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣١، ١٣٢]، وقال يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقال موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وقالت[2] السحرة: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، وقال [الله][3] تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١] وقال خاتم الرسل وسيد البشر: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] أي: من هذه الأمة؛ ولهذا قال في الحديث الثابت عنه: «نحن معاشر الأنبياء أولاد علات، ديننا واحد»[4]. أي: وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت شرائعنا، وذلك معنى قوله: «أولاد علات»، وهم: الإخوة من أمهات شتى والأب واحد.

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن[5] مَّعَهُ﴾ أي: على دينه ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ وهي: السفينة، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ أي: في الأرض، ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ أي: يا محمد كيف أنجينا المؤمنين، وأهلكنا المكذبين.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤)﴾.

يقول تعالى: ثم بعثنا من بعد نوح رسلا إلى قومهم، فجاؤوهم بالبينات، أي: بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاؤوهم به، ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم، بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي: كما طبع الله على قلوب هؤلاء، فما آمنوا

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) في ت، أ: «وقال». (٣) زيادة من ت، أ.

(٤) رواه البخاري في صحيحه برقم (٣٤٤٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) في ت، أ: «والذين».

بسبب تكذيبهم المتقدم، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم، ويختم على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

والمراد: أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسل، وأنجى[١] من آمن بهم، وذلك من بعد نوح، عليه السلام، فإن الناس كانوا من قبله من[٢] زمان آدم عليه السلام على الإسلام، إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام، فبعث الله إليهم نوحا، عليه السلام؛ ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة: أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض.

وقال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام.

وقال الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧]، وفي هذا إنذار عظيم لمشركي العرب الذين كذبوا بسيد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين، فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العقاب والنَّكال، فماذا[٣] ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك؟

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨)﴾.

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد تلك الرسل ﴿مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي: قومه[٤]. ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي: حججنا وبراهيننا، ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ أي: استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ كأنهم ـ قبحهم الله ـ أقسموا على ذلك، وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰ﴾ منكرا عليهم: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ. قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ أي: تثنينا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي: الدين الذي كانوا عليه، ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا﴾ أي: لك ولهارون ﴿الْكِبْرِيَاءُ﴾ أي: العظمة والرياسة ﴿فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وكثيراً ما يذكر الله تعالى قصة موسى، عليه السلام، مع فرعون في كتابه العزيز؛ لأنها من أعجب القصص، فإن فرعون حذر من موسى كل[٥] الحذر، فسخره القدر أن ربَّى هذا الذي يُحذِّر

---

(١) في ت، أ: «ونجى». (٢) في ت، أ: «إلى». (٣) في ت، أ: «فما».
(٤) في ت، أ: «أي إلى قومه». (٥) في أ: «من».

منه على فراشه ومائدته بمنزلة الولد، ثم ترعرع وعقد الله له سببا أخرجه من بين أظهرهم، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم، وبعثه إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده[١] ويرجع إليه، هذا مع ما كان عليه فرعون من عظمة المملكة والسلطان، فجاءه برسالة الله، وليس له وزير سوى أخيه هارون عليه[٢] السلام، فتمرد فرعون واستكبر وأخذته الحمية، والنفس الخبيثة الأبية، وقوى رأسه وتولّى بركنه، وادعى ما ليس له، وتجهرم على الله، وعتا وبغى وأهان حزب الإيمان من بني إسرائيل، والله تعالى يحفظ رسوله موسى وأخاه هارون، ويحوطهما، بعنايته، ويحرسهما بعينه التي لا تنام، ولم تزل[٣] المحاجة والمجادلة والآيات تقوم على يدي موسى شيئا[٤] بعد شيء، ومرة[٥] بعد مرة، مما يبهر العقول ويدهش الألباب، مما لا يقوم له شيء، ولا يأتي به إلا من هو مؤيد من الله، وما تأتيهم من آية إلا هي أكبر من أختها، وصمم فرعون ومَلَؤه ـ قبحهم الله ـ على التكذيب بذلك كله، والجحد والعناد والمكابرة، حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يُرَد، وأغرقهم في صبيحة[٦] واحدة أجمعين، ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

**﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) ﴾.**

ذكر تعالى[٧] قصة السحرة مع موسى، عليه السلام، في سورة الأعراف، وقد تقدم الكلام عليها هناك. وفي هذه السورة، وفي سورة طه، وفي الشعراء؛ وذلك أن فرعون ـ لعنه الله ـ أراد أن يَتَهَرَّج على الناس، ويعارض ما جاء به موسى، عليه السلام، من الحق المبين، بزخارف[٨] السحرة والمشعبذين، فانعكس عليه النظام، ولم يحصل له ذلك المرام، وظهرت[٩] البراهين الإلهية في ذلك المحفل العام، و﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ . قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الشعراء: ٤٦ ـ ٤٨] فظن فرعون أن[١٠] يستنصر بالسُّحار، على رسول عالم الأسرار، فخاب وخسر الجنة، واستوجب النار.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ[١١] عَلِيمٍ . فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾؛ وإنما قال لهم ذلك لأنهم اصطفوا ـ وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل ـ ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ . قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ [طه: ٦٥، ٦٦]، فأراد موسى أن تكون البَدَاءةُ منهم، ليرى الناس ما صنعوا، ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم؛ ولهذا لما ﴿ أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ

---

(١) في ت، أ: «ليعبده». (٢) في ت، أ: «عليهما». (٣) في ت: «ولم يزل».
(٤) في ت: «شيء». (٥) في ت: «وكرة». (٦) في ت: «صيحة».
(٧) في ت: «ذكر الله سبحانه». (٨) في أ: «من خوارق». (٩) في ت: «وأظهرت».
(١٠) في ت: «أنه». (١١) في ت: «سحار».

وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ . قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ . وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٧ ـ ٦٩]. فعند ذلك قال موسى لما ألقوا: ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ . وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث، حدثنا عبد الرحمن ـ يعني الدشتكي ـ أخبرنا أبو جعفر الرازي، عن لَيْث ـ وهو ابن أبي سليم ـ قال: بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالى، تقرأ في إناء فيه ماء، ثم يصب على رأس المسحور: الآية التي من سورة يونس: ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ . وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾، والآية الأخرى: ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨ ـ ١٢٢]، وقوله: ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[طه: ٦٩].

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) ﴾.

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى، عليه السلام، مع ما جاء به من الآيات[١] البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات، إلا قليل من قوم فرعون، من الذرية ـ وهم الشباب[٢] ـ على وجل وخوف منه ومن مَلَئه، أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر؛ لأن فرعون كان جبارا عنيدا مسرفا في التمرد والعتوّ، وكانت[٣] له سَطْوة ومَهابة، تخاف رعيته منه خوفا شديدا.

قال العوفي: عن ابن عباس: ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ قال: فإن الذرية التي آمنت لموسى، من أناس غير بني إسرائيل، من قوم فرعون يسير، منهم: امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه.

وروى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ يقول: بني إسرائيل.

وعن ابن عباس، والضحاك، وقتادة (الذرية): القليل.

وقال مجاهد في قوله: ﴿إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ يقول: بني إسرائيل. قال: هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى، من طول الزمان، ومات آباؤهم.

واختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية: أنها من بني إسرائيل لا من قوم فرعون، لعود الضمير على أقرب المذكورين.

---

(١) في ت: «الإيمان». (٢) في ت: «الشباب». (٣) في ت: «فكانت».

وفي هذا نظر؛ لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب[١]، وأنهم من بني إسرائيل، فالمعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى، عليه السلام، واستبشروا به، وقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة، وأن الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون ويظهرهم عليه؛ ولهذا لما بلغ هذا فرعون حَذَرَ كل الحذر فلم يُجْدِ عنه شيئا. ولما جاء موسى آذاهم فرعون[٢] أشد الأذى، و﴿ **قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٢٩]. وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى، وهم بنو إسرائيل؟.

﴿ **عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ** ﴾ أي: وأشراف قومهم أن يفتنهم، ولم يكن في بني إسرائيل من يخاف منه أن يُفتِنَ عن الإيمان سوى قارون، فإنه كان من قوم موسى، فبغى عليهم؛ لكنه كان طاويا[٣] إلى فرعون، متصلا به، متعلقا بحباله[٤]. ومن قال: إن الضمير في قوله: ﴿ **وَمَلَئِهِمْ** ﴾، عائد إلى فرعون، وعظم الملك[٥] من أجل اتباعه أو بحذف «آل» فرعون، وإقامة المضاف إليه مقامه ـ فقد أبعد، وإن كان ابن جرير قد حكاهما عن بعض النحاة. ومما يدل على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن قوله تعالى:

﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦)** ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن موسى أنه قال لبني إسرائيل: ﴿ **يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ** ﴾ أي: فإن الله كاف من توكل عليه، ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ** ﴾ [الزمر: ٣٦]، ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ [الطلاق: ٣].

وكثيرا ما يقرن الله بين العبادة والتوكل، كما في قوله تعالى: ﴿ **فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿ **قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا** ﴾ [الملك: ٢٩]، ﴿ **رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا** ﴾ [المزمل: ٩]، وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم[٦] مرات متعددة: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ [الفاتحة: ٥].

وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك، فقالوا: ﴿ **عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ أي: لا تظفرهم بنا، وتسلطهم[٧] علينا، فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل،

---

(١) في ت: «والشباب».
(٢) في ت: «لفرعون».
(٣) في ت: «طاريا».
(٤) في ت: «بحاله».
(٥) في ت: «الملك».
(٦) في ت: «صلاتهم».
(٧) في ت: «أي يظفركم ويسلطهم».

فيفتنوا[1] بذلك. هكذا روى عن أبي مجلز، وأبي الضحى.

وقال ابن أبي نجيح وغير واحد، عن مجاهد: لا تعذبنا بأيدي قوم فرعون، ولا بعذاب من عندك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على حق ما عذبوا، ولا سلطنا عليهم، فيفتنوا[2] بنا.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن عيينة، عن ابن نجيح، عن مجاهد: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [أي][3]: لا تسلطهم علينا، فيفتنونا.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ أي: خلصنا برحمة منك وإحسان، ﴿ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ أي: الذين كفروا الحق وستروه، ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك.

**﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) ﴾.**

يذكر تعالى سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه، وكيفية خلاصهم منهم[4]، وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون، عليهما السلام ﴿ أَن تَبَوَّءَا ﴾ أي: يتخذا لقومهما بمصر بيوتا.

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿ وَاجْعَلُوا [5]بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، فقال الثوري وغيره، عن خصيف، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قال: أمروا أن يتخذوها مساجد.

وقال الثوري أيضا، عن ابن منصور، عن إبراهيم: ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قال: كانوا خائفين، فأمروا أن يصلوا في بيوتهم.

وكذا قال مجاهد، وأبو مالك، والربيع بن أنس، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وأبوه زيد بن أسلم: وكأن هذا ـ والله أعلم ـ لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه، وضيقوا عليهم، أمروا بكثرة الصلاة، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣]. وفي الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى. أخرجه أبو داود[6]. ولهذا[7] قال تعالى في هذه الآية: ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بالثواب والنصر القريب.

وقال العوفي، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية قال: قالت بنو إسرائيل لموسى، عليه السلام: لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة، فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا في بيوتهم، وأمروا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة. وقال مجاهد: ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾، قال: لما خاف بنو إسرائيل من

---

(١، ٢) في ت، أ: «يفتنوا».

(٣) زيادة من ت، أ.

(٤) في أ: «منه».

(٥) في ت: «وجعلوا».

(٦) سنن أبي داود برقم (١٣١٩) من حديث حذيفة، رضي الله عنه.

(٧) في ت، أ: «وكذا».

فرعون أن يقتلوا[١] في الكنائس الجامعة، أمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة، يصلون فيها سراً. وكذا قال قتادة، والضحاك.

وقال سعيد بن جبير: ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ أي: يقابل بعضها بعضا.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩) ﴾.

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى، عليه السلام، على فرعون ومَلَئه، لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين، ظلما وعلوا وتكبراً وعتوا، قال: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً ﴾ أي: من أثاث الدنيا ومتاعها، ﴿ وَأَمْوَالًا ﴾ أي: جزيلة كثيرة، ﴿ فِي ﴾ هذه ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيَضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ ـ بفتح الياء ـ أي: أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم استدراجا منك لهم، كما قال تعالى: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾.

وقرأ آخرون: ﴿ لِيُضِلُّوا ﴾ بضم الياء، أي: ليفتتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيت هؤلاء هذا لحبك إياهم[٢]، واعتنائك بهم.

﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد: أي: أهلكها. وقال الضحاك، وأبوالعالية، والربيع بن أنس: جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت.

وقال قتادة: بلغنا أن زروعهم تحولت حجارة.

وقال محمد بن كعب القُرَظي: اجعل[٣] سُكَّرهم حجارة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث، حدثنا يحيى بن أبي بُكَير، عن أبي مَعْشَر، حدثني محمد بن قيس: أن محمد بن كعب قرأ سورة يونس على عمر بن عبد العزيز: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ ﴾ إلى قوله: ﴿ اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ ﴾ إلى آخرها [فقال له: عمر يا أبا حمزة[٤]، أي شيء الطمس؟ قال: عادت أموالهم كلها حجارة][٥]. فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له: ائتني بكيس. [فجاءه بكيس][٦]، فإذا فيه حمص وبيض، قد قطع حول حجارة.

وقوله: ﴿ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾: قال ابن عباس: أي اطبع عليها، ﴿ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾.

وهذه الدعوة كانت من موسى، عليه السلام، غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه، الذين تبين له

---

(١) في ت: «أن يصلوا».
(٢) في ت، أ: «لهم».
(٣) في ت: «جعل».
(٤) في ت: «يا أبا حمزة».
(٥، ٦) زيادة من ت، أ.

أنه لا خير فيهم، ولا يجيء منهم شيء كما دعا نوح، عليه السلام، فقال: ﴿ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا . إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]؛ ولهذا استجاب الله تعالى لموسى، عليه السلام، فيهم[1] هذه الدعوة، التي أمَّنَ عليها أخوه هارون، فقال تعالى: ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾.

قال أبو العالية، وأبو صالح، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظي، والربيع بن أنس: دعا موسى وأمَّنَ هارون، أي: قد أجبناكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون.

وقد يحتج بهذه الآية من يقول: «إن تأمين المأموم على قراءة الفاتحة يُنَزَّل منزلة[2] قراءتها؛ لأن موسى دعا وهارون أمن».

وقال تعالى: ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا [وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ][3] ﴾ أي: كما أجيبت دعوتكما فاستقيما على أمري.

قال ابن جُرَيْج، عن ابن عباس: ﴿ فَاسْتَقِيمَا ﴾: فامضيا لأمري، وهي الاستقامة. قال ابن جريج: يقولون: إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة.

وقال محمد بن علي بن الحسين: أربعين يوما.

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) ﴾.

يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده؛ فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر صحبة موسى، عليه السلام، وهم ـ فيما قيل ـ ستمائة ألف مقاتل سوى الذرية، وقد كانوا استعاروا من القبط حُلِيًّا كثيرا، فخرجوا به معهم، فاشتد حَنَق فرعون عليهم، فأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له جنوده من أقاليمه، فركب وراءهم في أبهة عظيمة، وجيوش هائلة لما يريده الله تعالى بهم، ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان في سائر مملكته، فلحقوهم وقت شروق الشمس، ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء: ٦١]، وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر، وأدركهم فرعون، ولم يبق إلا أن يتقاتل[4] الجمعان، وألح أصحاب موسى، عليه السلام، عليه في السؤال كيف المخلص مما نحن فيه؟ فيقول: إني أمرت أن أسلك هاهنا، ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

---

(١) في ت: «فيما».
(٢) في ت: «ينتزل منزلة».
(٣) زيادة من أ، وفي هـ: «الآية».
(٤) في أ: «أن يتقابل».

[الشعراء: ٦٢]، فعندما ضاق الأمر اتسع، فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فانفلق البحر، ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] أي: كالجبل العظيم، وصار اثنى عشر طريقاً، لكل سبط واحد. وأمر الله الريح فنشفت أرضه، ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى﴾ [طه: ٧٧]، وتخرق الماء بين الطرق كهيئة الشبابيك، ليرى كل قوم الآخرين لئلا يظنوا أنهم هلكوا. وجازت بنو إسرائيل البحر، فلما خرج آخرهم منه انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى، وهو في مائة ألف أدهم سوى بقية الألوان، فلما رأى ذلك هاله وأحجم وهاب وهم بالرجوع، وهيهات ولات حين مناص، نفذ القدر، واستجيبت الدعوة. وجاء جبريل، عليه السلام، على فرس ـ وديق حائل، فمر إلى جانب حصان فرعون فحمحم إليها وتقدم جبريل فاقتحم البحر ودخله، فاقتحم الحصان وراءه، ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئاً، فتجلد لأمرائه، وقال لهم: ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا، فاقتحموا كلهم عن آخرهم وميكائيل في ساقتهم، لا يترك أحداً منهم، إلا ألحقه بهم. فلما استوسقوا فيه وتكاملوا، وهم أولهم بالخروج منه، أمر اللهُ القدير البحرَ أن يرتطم عليهم، فارتطم عليهم، فلم ينج منهم أحد، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم، وتراكمت الأمواج فوق فرعون، وغشيته سكرات الموت، فقال وهو كذلك: ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. فآمن حيث لا ينفعه الإيمان، ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

وهكذا[١] قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال: ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ أي: أهذا[٢] الوقت تقول، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه؟ ﴿وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: في الأرض الذين أضلوا الناس، ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١].

وهذا الذي حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله[٣] ذاك من أسرار الغيب التي[٤] أعلم الله بها رسوله؛ ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله:

حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قال فرعون: ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾، قال: قال لي جبريل: [يا محمد][٥] لو رأيتني وقد أخذت [حالا][٦] من حال البحر، فدسسته في فيه مخافة أن تناله الرحمة».

---

(١) في ت: «ولهذا».
(٢) في ت: «هذا».
(٣) في ت: «حالة».
(٤) في ت، أ: «الذي».
(٥، ٦) زيادة من ت، أ، والمسند.

ورواه الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم في تفاسيرهم، من حديث حماد بن سلمة، به[١].
وقال الترمذي: حديث حسن.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن عدي بن ثابت وعطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل: لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر، فأدسه في فم فرعون مخافة أن تدركه الرحمة». وقد رواه أبو عيسى الترمذي أيضا، وابن جرير أيضا، من غير وجه، عن شعبة، به[٢]. وقال الترمذي: حسن غريب صحيح.

ووقع في رواية عند ابن جرير، عن محمد بن المثنى، عن غُنْدَر، عن شعبة، عن عَطاء وعَدِيّ، عن سعيد، عن ابن عباس، رفعه أحدهما ـ وكأن[٣] الآخر لم يرفعه، فالله[٤] أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجّ، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن عمر بن عبد الله بن يَعْلَى الثقفي، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: لما أغرق[٥] الله فرعون، أشار بأصبعه ورفع صوته: ﴿آمنت أنَّه لا إلَهَ[٦] إلاَّ الَّذي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إسْرَائِيلَ﴾، قال: فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه، فجعل يأخذ الحال بجناحه فيضرب به وجهه فيرمسه.

وكذا رواه ابن جرير، عن سفيان بن وَكِيع، عن أبي خالد، به موقوفا[٧].

وقد روى من حديث أبي هريرة أيضا، فقال ابن جرير:

حدثنا ابن حميد، حدثنا حكَّام، عن عَنْبَسَة ـ هو ابن[٨] سعيد ـ عن كثير بن زاذان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل: يا محمد، لو رأيتني وأنا أغطُّه وأدس من الحال[٩] في فيه، مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له» يعني: فرعون[١٠].

كثير بن زاذان هذا قال ابن مَعِين: لا أعرفه، وقال أبو زُرْعَة وأبو حاتم: مجهول، وباقي رجاله ثقات.

---

(١) المسند (١/ ٣٠٩) وسنن الترمذي برقم (٣١٠٧).

(٢) سنن الترمذي برقم (٣١٠٨) وتفسير الطبري (١٥/ ١٩٠ ـ ١٩٢) ورواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٠) من طريق النضر بن شميل عن شعبة به، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه؛ لأن أكثر أصحاب شعبة أوقفوه على ابن عباس» ورواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٩٣٩٢) فذكرت روايات الرفع والوقف.

(٣) في ت، أ: «فكان».

(٤) في ت، أ: «والله».

(٥) في ت، أ: «لما غرق».

(٦) في ت: «أن لا إله».

(٧) تفسير الطبري (١٥/ ١٩٣) ورواه السرقسطي في غريب الحديث، كما في تخريج الكشاف (٢/ ١٣٨) عن موسى بن هارون، عن يحيى الحماني عن أبي خالد الأحمر به نحوه.

(٨) في ت، آ: «أبو».

(٩) في ت: «الجبال».

(١٠) تفسير الطبري (١٥/ ١٩١) ورواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٩٣٩٠) من طريق حكام الرازي به.

وقد أرسل هذا الحديث جماعة من السلف: قتادة، وإبراهيم التيمي، وميمون بن مِهْران. ونقل عن الضحاك بن قيس: أنه خطب بهذا للناس، فالله أعلم.

وقوله: ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾: قال ابن عباس وغيره من السلف: إن بعض بني إسرائيل شكّوا في موت فرعون، فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده[1] بلا روح، وعليه درعه المعروفة [به][2]، على نجوة[3] من الأرض وهو المكان المرتفع، ليتحققوا موته وهلاكه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ ﴾ أي: نرفعك على نَشز[4] من الأرض، ﴿ بِبَدَنِكَ ﴾. قال مجاهد: بجسدك. وقال الحسن: بجسم لا روح فيه. وقال عبد الله بن شداد: سويا صحيحا، أي: لم يتمزق ليتحققوه ويعرفوه. وقال أبو صخر: بدرعك[5].

وكل هذه الأقوال لا منافاة بينها، كما تقدم، والله أعلم.

وقوله: ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ أي: لتكون لبني إسرائيل دليلا على موتك وهلاكك، وأن الله[6] هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده، وأنه لا يقوم لغضبه شيء؛ ولهذا قرأ بعض السلف: «لتكون لمن خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ [7]»، أي: لا يتعظون[8] بها، ولا يعتبرون. وقد كان [إهلاك فرعون وملئه][9] يوم عاشوراء، كما قال البخاري:

حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غُنْدَر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قدم النبي ﷺ المدينة، واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. فقال النبي ﷺ لأصحابه: «أنتم أحق بموسى منهم، فصوموه»[10].

**﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣) ﴾.**

يخبر تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية فـ﴿ مُبَوَّأَ[11] صِدْقٍ ﴾، قيل: هو بلاد مصر والشام، مما يلي بيت المقدس ونواحيه، فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها، كما قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾[الأعراف: ١٣٧]، وقال في الآية الأخرى: ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ[12] . وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء: ٥٧ ـ ٥٩]، ولكن

---

(١) في ت، أ: «بجسده سويا».
(٢) زيادة من ت، أ.
(٣) في ت: «نحوه».
(٤) في ت: «يرفعك على بشر».
(٥) في ت: «تذرعك».
(٦) في ت: «وأنه تعالى».
(٧) في ت: «الغافلون».
(٨) في ت: «يتعضون».
(٩) زيادة من ت، أ.
(١٠) صحيح البخاري برقم (٤٦٨٠).
(١١) في ت: «فالمبوأ».
(١٢) في ت، أ: «كم تركوا من جنات وعيون وزروع».

استمروا مع موسى، عليه السلام، طالبين إلى بلاد بيت المقدس [وهي بلاد الخليل عليه السلام فاستمر موسى بمن معه طالبا بيت المقدس][١]، وكان فيه قوم من العمالقة، [فنكل بنو إسرائيل عن قتال العمالقة][٢]، فشردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة، ومات فيه[٣] هارون، ثم، موسى، عليهما السلام، وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون، ففتح الله عليهم بيت المقدس، واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم بختنصر حينا من الدهر، ثم عادت إليهم، ثم أخذها ملوك اليونان، وكانت تحت أحكامهم[٤] مدة طويلة، وبعث الله عيسى ابن مريم، عليه السلام، في تلك المدة، فاستعانت اليهود ـ قبحهم[٥] الله ـ على معاداة عيسى، عليه السلام، بملوك اليونان، وكانت تحت أحكامهم، ووشوا عندهم، وأوحوا إليهم أن هذا يفسد عليكم الرعايا فبعثوا[٦] من يقبض عليه، فرفعه الله إليه، وشُبّه لهم بعض الحواريين بمشيئة الله وقدره[٧]، فأخذوه فصلبوه، واعتقدوا أنه هو، ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨] ثم بعد المسيح، عليه السلام بنحو [من][٨] ثلاثمائة سنة، دخل قسطنطين أحد ملوك اليونان ـ في دين النصرانية، وكان فيلسوفا قبل ذلك. فدخل في دين النصارى قيل: تقية، وقيل: حيلة ليفسده، فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشريعة وبدعاً أحدثوها، فبنى لهم الكنائس والبِيَع الكبار والصغار، والصوامع والهياكل، والمعابد، والقلايات. وانتشر دين النصرانية[٩] في ذلك الزمان، واشتهر على ما فيه من تبديل وتغيير وتحريف، ووضع وكذب، ومخالفة لدين المسيح. ولم يبق على دين المسيح على الحقيقة منهم إلا القليل من الرهبان، فاتخذوا لهم الصوامع في البراري والمهامة والقفار، واستحوذت يدُ النصارى على مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم، وبنى هذا الملك المذكور مدينة قسطنطينية، والقُمَامة، وبيت لحم، وكنائس [بلاد][١٠] بيت المقدس، ومدن حَوْران كبُصرى وغيرها من البلدان بنايات هائلة محكمة، وعبدوا الصليب من حينئذ، وصلوا إلى الشرق، وصوروا الكنائس، وأحلوا لحم الخنزير، وغير ذلك مما أحدثوه من[١١] الفروع في دينهم والأصول، ووضعوا له الأمانة الحقيرة، التي يسمونها الكبيرة، وصنفوا له القوانين، وبسط هذا يطول.

والغرض أن يدهم لم تزل على هذه البلاد إلى أن انتزعها[١٢] منهم الصحابة، رضي الله عنهم، وكان فتح بيت المقدس على يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أي: الحلال، من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعا وشرعا.

وقوله: ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ أي: ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم، أي: ولم يكن لهم أن يختلفوا، وقد بين الله لهم وأزال عنهم اللبس. وقد ورد في

---

(١، ٢) زيادة من ت، آ.
(٣) في ت، أ: «في أثنائها».
(٤) في أ: «أحكامهم».
(٥) في أ: «لعنهم».
(٦) في ت: «فبعثوا».
(٧) في أ: «وقدرته».
(٨) زيادة من ت، آ.
(٩) في أ: «النصارى».
(١٠) زيادة من ت، أ.
(١١) في أ: «في».
(١٢) في ت: «انتزعتها».

الحديث: أن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وأن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، منها واحدة في الجنة، وثنتان وسبعون في النار. قيل: من هم[1] يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي».

رواه الحاكم في مستدركه بهذا اللفظ، وهو في السنن والمسانيد[2]. ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ أي: يفصل بينهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

**﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧) ﴾.**

قال قتادة بن دعامة: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا أشك ولا أسأل»[3].

وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن البصري، وهذا فيه تثبيت[4] للأمة، وإعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودة[5] في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]. ثم مع هذا العلم يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم، يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه، ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي: لا يؤمنون إيمانا ينفعهم، بل حين لا ينفع نفساً إيمانها؛ ولهذا لما دعا موسى، عليه السلام، على فرعون وملئه قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]، ثم قال تعالى:

**﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾.**

---

(١) في ت: «من هو».

(٢) المستدرك (١/ ١٢٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وجاء من حديث معاوية وأنس وعوف بن مالك قال العراقي: «أسانيدها جياد».

(٣) رواه عبد الرزاق في تفسيره (١٥/ ٢٠٢) عن معمر عن قتادة به مرسلاً.

(٤) في ت: «تثبيت».

(٥) في ت، أ: «صلوات الله وسلامه عليه موجودة».

يقول تعالى: فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل، بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه، أو أكثرهم كما قال تعالى: ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠]، ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ[١] إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ[٢]﴾ [الزخرف: ٢٣]. وفى الحديث الصحيح: «عرض علىّ الأنبياء، فجعل النبى يمر ومعه الفئام من الناس، والنبى معه الرجل والنبى معه الرجلان، والنبى ليس معه أحد»[٣] ثم ذكر كثرة أتباع موسى، عليه السلام، ثم ذكر كثرة أمته، صلوات الله وسلامه عليه، كثرة سدت الخافقين الشرقى[٤] والغربى.

والغرض أنه لم توجد[٥] قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى، إلا قوم يونس، وهم أهل نِينَوى، وما كان إيمانهم إلا خوفا من وصول العذاب الذى أنذرهم به رسولهم، بعد ما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به، وتضرعوا[٦] لديه. واستكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذى أنذرهم به نبيهم. فعندها رحمهم الله، وكشف عنهم العذاب وأخّروا، كما قال تعالى: ﴿ إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ .

واختلف المفسرون: هل كُشف عنهم العذاب الأخروى مع الدنيوى؟ أو إنما كشف عنهم فى الدنيا فقط؟ على قولين، أحدهما: إنما كان ذلك فى الحياة الدنيا، كما هو مقيد فى هذه الآية، والقول الثانى فيهما لقوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ. فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ [الصافات: ١٤٧، ١٤٨]، فأطلق عليهم الإيمان، والإيمان منقذ من العذاب الأخروى، وهذا هو الظاهر، والله أعلم.

قال قتادة فى تفسير هذه الآية: لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب، فتركت، إلا قوم يونس، لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم، قذف الله فى قلوبهم التوبة، ولبسوا المسُوح، وفرّقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عَجّوا إلى الله أربعين ليلة. فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم، والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف الله عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم ـ قال قتادة: وذكر أن قوم يونس كانوا بنينوى أرض الموصل.

وكذا روى عن ابن مسعود، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وغير واحد من السلف، وكان ابن مسعود يقرؤها: «فَهَلاَّ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ».

---

(١) فى ت: «وما أرسلنا فى قرية من نبى». (٢) فى ت: «مهتدون» وهو خطأ.

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٧٥٢) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٢٠) من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنه.

(٤) فى ت، أ: «والشرقى». (٥) فى ت: «يوجد». (٦) فى ت، أ: «وضرعوا».

وقال أبو عمران، عن أبي الجَلْد قال: لما نزل بهم[1] العذاب، جعل يدور على رؤوسهم كقطع الليل المظلم، فمشوا إلى رجل من علمائهم فقالوا: علمنا دعاء ندعو به، لعل الله يكشف[2] عنا العذاب، فقال: قولوا: يا حيّ حين لا حيّ، يا محيي الموتى[3]، لا إله إلا أنت. قال: فكُشِف عنهم العذاب.

وتمام القصة سيأتي مفصلا في سورة الصافات إن شاء الله.

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (١٠٠) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ ﴾ ـ يا محمد ـ لأذن لأهل الأرض كلّهم في الإيمان بما جئتهم به، فآمنوا كلهم، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى كما قال: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [الرعد: ٣١]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ ﴾ أي: تلزمهم وتلجئهم ﴿ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ أي: ليس ذلك عليك ولا إليك، بل [إلى][4] الله ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [فاطر: ٨]، ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣]، ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦]، ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد، الهادي من يشاء، المضل لمن يشاء، لعلمه وحكمته وعدله؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ[5] إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ ﴾ وهو الخبال[6] والضلال، ﴿ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴾ أي: حججَ الله وأدلته، وهو العادل في كل ذلك، في هداية من هدى، وإضلال من ضل.

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾.

---

(١) في ت: «لما نزل بقوم يونس».
(٢) في ت: «أن يكشف».
(٣) في ت: «يا محيي الموتى يا حي».
(٤) زيادة من ت.
(٥) في ت: «يؤمن».
(٦) في ت: «الخبال».

يرشدُ تعالى عباده إلى التفكر في آلائه[1] وما خلق في السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب، مما في السموات[2] من كواكب نيرات، ثوابت وسيارات، والشمس والقمر، والليل والنهار، واختلافهما، وإيلاج أحدهما في الآخر، حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها، وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير، وصنوف النبات، وما ذرأ فيها من دوابّ مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول[3] وقفار وعمران وخراب. وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا [مسخر][4] مذلل للسالكين، يحمل سفنهم، ويجري بها برفق بتسخير القدير له، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وقوله: ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وأي شيء تُجدي الآيات السماوية والأرضية، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها، عن قوم لايؤمنون، كما قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾[يونس: ٩٦، ٩٧].

وقوله: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾أي: فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يامحمد من النقمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم المكذبة لرسلهم، ﴿قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي[5] مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ . ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾أي: ونهلك المكذبين بالرسل، ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[أي] [6]حقا: أوجبه تعالى على نفسه الكريمة: كقوله﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، كما جاء في الصحيحين، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله كتب كتابا فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت [7] غضبي»[8].

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧) ﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه: قل: يا أيها الناس، إن كنتم في شك من

---

(١) في أ: «إلى التفكر في الآية لآياته».
(٢) في ت، أ: «السماء».
(٣) في أ: «وعر».
(٤) زيادة من ت، أ.
(٥) في ت: «أنني».
(٦) زيادة من ت، أ.
(٧) في ت، أ: «تغلب».
(٨) صحيح البخاري برقم (٧٥٥٤) وصحيح مسلم برقم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

صحة ماجئتكم من الدين الحنيف، الذي أوحاه الله إلي، فها أنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له، وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم، ثم إليه مرجعكم؛ فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله [1] حقا، فأنا لا أعبدها[2]، فادعوها فلتضرني، فإنها لا تضر ولاتنفع، وإنما الذي بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له، وأمرت أن أكون من المؤمنين.

وقوله: ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: أخلص العبادة لله وحده حنيفا، أي: منحرفا عن الشرك؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾، وهو معطوف على قوله: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ إلى آخرها، بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه [3]في ذلك أحد، فهو الذي يستحق العبادة وحده، لاشريك له.

روى الحافظ ابن عساكر، في ترجمة صفوان بن سليم، من طريق عبد الله بن وهب: أخبرني يحيى بن أيوب عن عيسى بن موسى، عن صفوان بن سليم، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ قال: «اطلبوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن لله نفحات من رحمته، يصيب بها من يشاء من عباده واسألوه أن يستر عوراتكم، ويؤمن روعاتكم»[4].

ثم رواه من طريق الليث، عن عيسى بن موسى، عن صفوان، عن رجل من أشجع، عن أبي هريرة مرفوعا؛ بمثله سواء[5].

وقوله: ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ أي: لمن تاب إليه وتوكل عليه، ولو من أيّ ذنب كان، حتى من الشرك به، فإنه يتوب عليه.

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) ﴾.

يقول تعالى آمرا لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند

---

(١) في أ: «من دون الله من شيء حقا». (٢) في ت: «أعبد».

(٣) في ت، «لايشركه».

(٤) تاريخ دمشق (٨/ ٣٢٨ «المخطوط») ورواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (١١٢١) من طريق عبد الله بن وهب به، ورواه ابن عبد البر في التمهيد (٥/ ٣٣٩) والبيهقي في شعب الإيمان برقم (١١٢٢) من طريق عمرو بن الربيع بن طارق عن يحيى بن أيوب به نحوه ورمز له السيوطي بالضعف في الجامع.

(٥) تاريخ دمشق (٨/ ٣٢٨ «المخطوط») ورواه ابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة برقم (٢٧) من طريق رويم بن يزيد عن الليث به مرفوعاً، ورواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (١١٢٣) من طريق يحيى بن بكير عن الليث به مرفوعاً. وقال البيهقي: «هذا هو المحفوظ دون الأول» والأول حديث أنس.

الله هو الحق الذى لامرية فيه ولاشك، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه، [ومن ضل عنه [١] فإنما يرجع وبال ذلك عليه[٢]][٣].

﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أى: وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين به، وإنما أنا نذير لكم، والهداية على الله تعالى.

وقوله: ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ ﴾ أى: تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه[٤]، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس، ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ﴾ أى: يفتح بينك وبينهم، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أى: خير الفاتحين بعدله [٥] وحكمته.

---

(١) فى ت: «عن ذلك».
(٢) فى ت: «على نفسه».
(٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت، أ: «وأوحاه إليك».
(٥) فى ت، أ: «العادلة».

## تفسير سورة هود

[وهي مكية] (١).

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا خلف بن هشام البزار، حدثنا أبو الأحوص، عن أبي إسحاق، عن عكرمة قال: قال أبو بكر: سألت رسول الله ﷺ: ماشيّبك؟ قال: «شيبتني هود، والواقعة، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت»(٢).

وقال أبو عيسى الترمذي: حدثنا أبو كُرَيْبٌ محمد بن العلاء، حدثنا معاوية بن هشام، عن شيبان، عن أبي إسحاق، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يارسول الله، قد شبت؟ قال: «شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت» (٣) وفي رواية: «هود وأخواتها».

وقال الطبراني: حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا حماد (٤) بن الحسن، حدثنا سعيد بن سلام، حدثنا عمر بن محمد، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «شيبتني هود وأخواتها: الواقعة، والحاقة، وإذا الشمس كورت» وفي رواية: «هود وأخواتها»(٥).

وقد روي من حديث ابن مسعود، فقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا أحمد بن طارق الرائشي(٦)، حدثنا عمرو بن ثابت، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه؛ أن أبا بكر قال: يارسول الله، ما شيبك؟ قال: «هود، والواقعة»(٧).

عمرو بن ثابت متروك، وأبو إسحاق لم يدرك ابن مسعود. والله أعلم.

---

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) مسند أبي يعلى (١/١٠٢) وهو منقطع وقد تكلم عليه والذى بعده، الحافظ الدارقطني في العلل (٣/١٩٣ ـ ٢١١) بما يكفي.

(٣) سنن الترمذي برقم (٣٢٩٧) وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب لانعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه».

(٤) جميع النسخ: «حجاج» والتصويب من المعجم الكبير.

(٥) المعجم الكبير (٦/١٨٣) ورواه الدارقطني في العلل (١/٢١٠) من طريق أحمد بن طارق به، وقال الهيثمي في المجمع (٣/١٩٢): «عمر بن صهبان متروك» وسعيد بن سلام كذاب.

(٦) في ت، آ، والمعجم الكبير: «الوابشي» ولم أجد ترجمته.

(٧) المعجم الكبير (١٠/١٢٥، ١٢٦) وهو عنده من طريق عمرو بن ثابت عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود فلعله سقط من نسخة ابن كثير والله أعلم.

وللاستزادة في أحاديث الباب: فقد توسع الفاضل محمد طرهوني في تتبعها انظر كتابه: موسوعة فضائل القرآن (١/٢٩٥ـ ٣٠٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤)﴾.

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا، وبالله التوفيق.

وأما قوله: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أي: هي محكمة في لفظها، مفصلة في معناها، فهو كامل صورة ومعنى. هذا معنى مروي عن مجاهد، وقتادة، واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أي: من عند الله الحكيم في أقواله، وأحكامه، الخبير بعواقب الأمور.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة[1] الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، قال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله: ﴿إِنَّنِي[2] لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي: إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشير بالثواب إن أطعتموه، كما جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ صعد الصفا، فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب، فاجتمعوا، فقال[3]: «يامعشر قريش، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا تصبحكم[4]، ألستم مصدقي؟» فقالوا: ماجربنا عليك كذبا. قال: «فإني نذير لكم بين[5] يدي عذاب شديد»[6].

وقوله: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي: وآمركم[7] بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله عز وجل فيما تستقبلونه، وأن تستمروا[8] على ذلك، ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾ أي: في الدنيا ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي: في الدار الآخرة، قاله قتادة، كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ

---

(١) في ت، أ: لعباده. (٢) في ت، أ: إنني. (٣) في ت: فقالوا.

(٤) في ت: تصبحكم. (٥) في أ: من.

(٦) رواه البخاري في صحيحه برقم (٤٩٧١) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

(٧) في ت، أ: يأمركم. (٨) في ت، أ: يستقيموا ولا يصروا.

فلنحيينه[١] حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا[٢] يعملون﴾ [النحل: ٩٧]، وقد جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لسعد: «وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله، إلا أجرت بها، حتى ما تجعل في فيّ[٣] امرأتك»[٤].

وقال ابن جرير: حدثت عن المسيب بن شريك، عن أبي بكر، عن سعيد بن جبير، عن ابن مسعود في قوله: ﴿ويؤت كل ذي فضل فضله﴾ قال: من عمل سيئة كتبت عليه سيئة، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات. فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات، وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات. ثم يقول: هلك من غلب آحاده أعشاره[٥].

وقوله: ﴿وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾: هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى، وكذب رسله، فإن العذاب يناله يوم معاده[٦] لا محالة، ﴿إلى الله مرجعكم﴾ أي: معادكم يوم القيامة، ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ أي: وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه، وانتقامه من أعدائه، وإعادة[٧] الخلائق يوم القيامة، وهذا مقام الترهيب، كما أن الأول مقام ترغيب.

**﴿ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور (٥)﴾.**

قال ابن عباس: كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم، وحال وقاعهم، فأنزل الله هذه الآية. رواه البخاري من حديث ابن جريج، عن محمد بن عباد بن جعفر: أن ابن عباس قرأ: «ألا إنهم تثنوني[٨] صدورهم»، فقلت: يا أبا عباس، ماتثنوني[٩] صدورهم؟ قال: الرجل كان يجامع امرأته فيستحيي ـ أو: يتخلى فيستحيي فنزلت: «ألا إنهم تثنوني[١٠] صدورهم».

وفي لفظ آخر له: قال ابن عباس: أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا، فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم.

ثم قال: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو قال: قرأ[١١] ابن عباس: «ألا إنهم يثنوني صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم».

---

(١) في ت: «فليحيينه». (٢) في ت: «بأحسن الذي كانوا». (٣) في ت، أ: «في فم».

(٤) صحيح البخاري برقم (٦٣٧٣) وصحيح مسلم برقم (١٦٢٨).

(٥) تفسير الطبري (١٥/ ٢٣١).

(٦) في ت: «معاده». (٧) في ت، أ: «وإعادته».

(٨، ٩) في ت، أ: «تثنون». (١٠) في ت، أ: «يثنون». (١١) في ت: «قال».

قال البخاري: وقال غيره، عن ابن عباس: ﴿يَسْتَغْشُونَ﴾: يغطون رؤوسهم[1].

وقال ابن عباس في رواية أخرى في تفسير هذه الآية: يعني به الشك في الله، وعمل السيئات، وكذا روى عن مجاهد، والحسن، وغيرهم: أي أنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه، يظنون أنهم يستخفون من الله بذلك، فأعلمهم الله تعالى أنهم[2] حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل، ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾[3] من القول: ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾أي: يعلم ماتكن صدورهم من النيات والضمائر والسرائر. وما أحسن ما قال زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة:

فَلا تَكْتُمُنَّ اللهَ مافي نفوسكم ليخفى، فمهما يُكتم[4] اللهُ يَعْلَم
يُؤخَر فيوضَع في كتاب فَيُدخَر ليوم حساب، أو يُعَجل فَيُنْقَمِ[5][6]

فقد اعترف هذا الشاعر الجاهلي بوجود الصانع وعلمه بالجزئيات، وبالمعاد وبالجزاء، وبكتابة الأعمال في الصحف ليوم القيامة.

وقال عبد الله بن شداد: كان أحدهم إذا مر برسول الله ﷺ ثنى[7] صدره، وغطى رأسه فأنزل الله ذلك.

وعود الضمير[8] على الله أولى؛ لقوله: ﴿أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

وقرأ ابن عباس: «ألا إنهم تَثْنَونى[9] صُدُورُهُم»، برفع الصدور على الفاعلية، وهو قريب المعنى.

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦)﴾.

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات، من سائر دواب الأرض، صغيرها وكبيرها، بحريها، وبريها، وأنه ﴿يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أي: يعلم أين مُنتهى سيرها في الأرض، وأين تأوي إليه من وكرها، وهو مستودعها.

وقال علي بن أبي طلحة وغيره، عن ابن عباس: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ أي: حيث تأوي، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾، حيث تموت.

وعن مجاهد: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ في الرحم، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ في الصلب، كالتي في الأنعام: وكذا روى عن ابن عباس والضحاك، وجماعة. وذكر[10] ابن أبي حاتم أقوال المفسرين هاهنا، كما ذكره

(١) صحيح البخاري برقم (٤٦٨١ ـ ٤٦٨٣).
(٢) في ت، أ: «أنه». (٣) في ت، أ: «يسرونه». (٤) في ت: «تكتم».
(٥) في ت: «فينتقم».
(٦) البيت في تفسير الطبري (١٥/ ٢٣٣).
(٧) في ت، أ: «ثنى عنه». (٨) في ت، أ: «الضمير أولاه».
(٩) في ت، أ: «يثنوني». (١٠) في أ: «وقال».

عند تلك الآية:[١]، فالله أعلم، وأن جميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[الأنعام: ٣٨]، وقوله[٢]: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

**﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨)﴾.**

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن جامع بن شداد، عن صفوان بن مُحْرِز، عن عمران بن حصين قال. قال رسول الله ﷺ: «اقبلوا البشرى يابني تميم». قالوا: قد بشرتنا فأعطنا. قال: «اقبلوا البشرى ياأهل اليمن». قالوا: قد قبلنا، فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان؟ قال: «كان الله قبل كل شيء، وكان عرشه على الماء، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء». قال: فأتاني آت فقال: يا عمران، انحلت ناقتك من عقالها. قال: فخرجت في إثرها، فلا أدري ما كان بعدي[٣].

وهذا الحديث مخرج في صحيحي البخاري ومسلم بألفاظ كثيرة[٤]؛ فمنها: قالوا: جئناك نسألك عن أول هذا الأمر فقال: «كان الله ولم يكن شيء قبله ـ وفي رواية: غيره ـ وفي رواية: معه ـ وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كلَّ شيء، ثم خلق السموات والأرض».

وفي صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدَّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»[٥].

وقال البخاري في تفسير هذه الآية: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، حدثنا أبو الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: أَنفق أُنفقْ

---

(١) عند تفسير الآية: ٩٨ من سورة الأنعام.

(٢) في ت، أ: «وقال تعالى».

(٣) المسند (٤/ ٤٣١).

(٤) صحيح البخاري برقم (٣١٩٠، ٣١٩١، ٤٣٦٥، ٤٣٨٦، ٧٤١٨) ولم أعثر عليه في صحيح مسلم.

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٦٥٣).

عليك». وقال: «يد الله ملأى لا يَغيضها نفقة، سحَّاءَ الليلَ والنهار» وقال «أفرأيتم [١] ما أنفق منذ خلق السماء والأرض، فإنه لم يَغض مافي يده، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع» [٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا حماد بن سلمة، عن يَعلَى بن عَطَاء، عن وكيع بن عُدُس، عن عمه أبي رَزين ـ واسمه لَقيط بن عامر بن المنتفق [٣] العُقَيْلى ـ قال: قلت: يارسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «كان في عَمَاء، ما تحته هواء وما فوقه هواء، ثم خلق العرش بعد ذلك».

وقد رواه الترمذي في التفسير، وابن ماجه في السنة من حديث يزيد بن هارون به [٤]. وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

وقال مجاهد: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ قبل أن يخلق شيئًا. وكذا قال وهب بن مُنَبِّه، وضمرة بن حبيب، وقاله قتادة، وابن جرير، وغير واحد.

وقال قتادة في قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾: ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض.

وقال الربيع بن أنس: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾، فلما خلق السموات والأرض، قسم ذلك الماء قسمين، فجعل نصفاً تحت العرش، وهو البحر المسجور.

وقال ابن عباس: إنما سمي العرش عرشا لارتفاعه.

وقال إسماعيل بن أبي خالد، سمعت سعداً الطائي يقول: العرش ياقوتة حمراء.

وقال محمد بن إسحاق في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾: فكان كما [٥] وصف نفسه تعالى، إذ ليس إلا الماء وعليه العرش، وعلى العرش ذو الجلال والإكرام، والعزة والسلطان، والملك والقدرة، والحلم والعلم، والرحمة والنعمة، الفعال لما يريد.

وقال الأعمش، عن المِنْهَال بن عمرو، عن سعيد بن جبير قال: سئل ابن عباس عن قول الله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾: على أي شيء كان الماء؟ قال: على متن الريح.

وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾أي: خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه وحده لا شريك له، ولم يخلق ذلك عبثا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ [٦] وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا

(١) في ت، أ: «أرأيت».

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٦٨٤).

(٣) في ت، أ: «المنفق».

(٤) المسند (٤/ ١١) وسنن الترمذي برقم (٣١٠٩) وسنن ابن ماجه برقم (١٨٢).

(٥) في ت: «كما». (٦) في أ: «السموات».

خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون. فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقوله: ﴿ليبلوكم﴾ أي: ليختبركم ﴿أيكم أحسن عملا﴾، ولم يقل: أكثر عملا، بل ﴿أحسن عملا﴾، ولا يكون العمل حسنا حتى يكون خالصا لله عز وجل، على شريعة رسول الله ﷺ. فمتى فقد العمل واحدا من هذين الشرطين بطل وحبط.

وقوله: ﴿ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾: يقول تعالى: ولئن أخبرت يامحمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم، مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض، [كما قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض]⁽¹⁾ وسخر الشمس والقمر ليقولن الله﴾ [العنكبوت: ٦١]، وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة، الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾[لقمان: ٢٨] وقولهم⁽²⁾: ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ أي: يقولون كفرا وعنادا ماتصدقك⁽³⁾على وقوع البعث، وما يذكر ذلك⁽⁴⁾ إلا من سحرته، فهو يتبعك على ماتقول.

وقوله: ﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه﴾. يقول تعالى: ولئن أخرنا العذاب والمؤاخذة عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأمد محصور، وأوعدناهم به إلى مدة مضروبة، ليقولن تكذيبا واستعجالا: ﴿ما يحبسه﴾ أي: يؤخر هذا العذاب عنا، فإن سجاياهم قد ألفت التكذيب والشك، فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد.

و«الأمة» تستعمل في القرآن والسنة في معان متعددة، فيراد بها: الأمد، كقوله في هذه الآية: ﴿إلى أمة معدودة﴾ وقوله في [سورة]⁽⁵⁾ يوسف: ﴿وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة﴾[يوسف: ٤٥]، وتستعمل في الإمام المقتدى به، كقوله: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين﴾ [النحل: ١٢٠]، وتستعمل في الملة والدين، كقوله إخبارا عن المشركين أنهم قالوا: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾[الزخرف: ٢٣]، وتستعمل في الجماعة، كقوله: ﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون﴾ [القصص: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾[النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾[يونس: ٤٧].

والمراد من الأمة هاهنا: الذين يبعث فيهم الرسول⁽⁶⁾ مؤمنهم وكافرهم، كما [جاء]⁽⁷⁾ في

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) في ت، أ: «وقوله». (٣) في ت: «مايصدقك».
(٤) في ت: «وماتذكره من ذلك». (٥) زيادة من أ. (٦) في أ: «الرسل». (٧) زيادة من ت.

صحيح مسلم: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»[1].

وأما أمة الأتباع، فهم المصدقون للرسل، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وفي الصحيح: «فأقول: أمتي أمتي».

وتستعمل الأمة في الفرقة والطائفة، كقوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة، إلا من رحم الله من عباده المؤمنين، فإنه إذا أصابته شدة بعد نعمة، حصل له يأس[2] وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل، وكفر وجحود لماضي الحال، كأنه لم ير خيرا، ولم يرج[3] بعد تلك فرجا. وهكذا إن[4] أصابته نعمة بعد نقمة ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أي: يقول: ما بقي ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء، ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أي: فرح بما في يده، بطر فخور على غيره. قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: في الشدائد والمكاره، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: في الرخاء والعافية، ﴿أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: بما يصيبهم من الضراء، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ بما أسلفوه في زمن الرخاء، كما جاء في الحديث: «والذي نفسي بيده، لا يصيب المؤمن همٌّ ولا غمٌّ، ولا نَصَبٌ ولا وَصَبٌ، ولا حَزَنٌ حتى الشوكة يشاكها، إلا كَفَّرَ اللهُ عنه بها من خطاياه[5]»[6]، وفي الصحيحين: «والذي نفسي بيده، لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته سراء فشكر كان[7] خيرا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له، وليس ذلك لأحد غير المؤمن»[8]. وهكذا قال الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا . إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ الآية [المعارج: ١٩ ـ ٢٢].

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في ت: «إياس».　　(٣) في ت، أ: «ولا يرجو».　　(٤) في ت: «إذا».

(٥) في ت، أ: «ولا حزن إلا كفر الله بها من خطاياه حتى الشوكة يشاكها».

(٦) روى مسلم نحوه في صحيحه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد (٢٥٧٣) ومن حديث أبي هريرة وحده (٢٥٧٤).

(٧) في ت: «فكان».

(٨) صحيح مسلم برقم (٢٩٩) بلفظ: «عجبا للمؤمن إن أمره كله خير» من حديث صهيب الرومي رضي الله عنه وليس في صحيح البخاري.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

يقول تعالى مسليًا لرسوله ﷺ، عما كان يتعنت به المشركون، فيما كانوا يقولونه عن الرسول ـ كما أخبر تعالى عنهم ـ: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٧، ٨]. فأمر الله تعالى رسوله، صلوات الله تعالى وسلامه عليه، وأرشده إلى ألا يضيق بذلك منهم صَدْرُه، ولا يهيدنّه ذلك ولا يُثْنِيَنَّه عن دعائهم إلى الله عز وجل آناء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ . وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٩]، وقال هاهنا: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا﴾ أي: لقولهم ذلك، فإنما أنت نذير، ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك، فإنهم كُذِّبُوا وأوذُوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل.

ثم بين تعالى إعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله، ولا بعشر سور [من][1] مثله، ولا بسورة من مثله؛ لأن كلام الرب لا يشبهه كلام المخلوقين، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات[2]، وذاته لا يشبهها شيء، تعالى وتقدس وتنزه، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ أي: فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتموهم[3] إليه، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن هذا الكلام منزل من عند الله، متضمن[4] علمه وأمره ونهيه، ﴿وَأَن لَّا[5] إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

قال العوفي، عن ابن عباس، في هذه الآية: إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا، وذلك أنهم لا يظلمون نقيرا، يقول: من عمل صالحا التماس الدنيا، صوما أو صلاة أو تهجدا بالليل، لا

---

(١) زيادة من ت.
(٢) في ت، أ: «المخلوقين».
(٣) في ت، أ: «ما دعوتهم».
(٤) في ت: «متضمنا».
(٥) في ت: «وأنه».

يعمله[1] إلا التماس الدنيا، يقول الله: أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة، وحبط عمله الذي كان يعمله التماس الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين.

وهكذا روى عن مجاهد، والضحاك، وغير واحد.

وقال أنس بن مالك، والحسن: نزلت في اليهود والنصارى. وقال مجاهد وغيره: نزلت في أهل الرياء[2].

وقال قتادة: من كانت الدنيا همه وسَدَمه[3] وطَلِبته ونيته، جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء. وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة.

وقد ورد في الحديث المرفوع نحو من هذا[4].

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ[5] لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا . كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ٢١]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧)﴾.

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده، من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه وينصِّرانه ويمجِّسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تُحِسُّون فيها من جدعاء؟»[6]. وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار، عن رسول الله ﷺ

---

(١) في ت: «لا يعمله».  (٢) في ت: «الرياء».  (٣) في ت: «وطلبته».

(٤) لعل الحافظ يقصد الحديث الذي رواه البزار والطبراني من حديث أنس ولفظه: «من كانت الدنيا همه وسدمه ولها شخص وإياها ينوي، جعل الله الفقر بين عينيه وشتت عليه ضيعته، ولم يأته منها إلا ما كتب له منها، ومن كانت الآخرة همه وسدمه ولها شخص، وإياها ينوي، جعل الله عز وجل الغنى في قلبه وجمع عليه ضيعته وأتته الدنيا وهي صاغرة». ورواه الترمذي في السنن برقم (٢٤٦٥) عن أنس بأخصر من هذا، ورواه ابن ماجه في السنن عن زيد بن ثابت مرفوعا بنحوه.

(٥) في ت: «لمن يشاء».

(٦) صحيح البخاري برقم (١٣٨٥) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٨).

قال: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حُنَفَاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أحللت لهم»[١]. وفي المسند والسنن: «كل مولود يولد على هذه الملة، حتى يُعرب عنه لسانه»[٢] الحديث، فالمؤمن باقٍ على هذه الفطرة.

[وقوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي][٣]: وجاءه شاهد من الله، وهو ما أوحاه إلى الأنبياء، من الشرائع المطهرة المكَمَّلَة المعظَّمة المُخْتَتَمَة بشريعة محمد، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. ولهذا قال ابن عباس، ومجاهد، وعِكْرِمة، وأبو العالية، والضحاك، وإبراهيم النَّخَعي، والسُّدِّي، وغير واحد في قوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ إنه جبريل عليه السلام.

وعن علي، والحسن، وقتادة: هو محمد ﷺ.

وكلاهما قريب في المعنى؛ لأن كلا من جبريل ومحمد، صلوات الله عليهما، بلَّغ رسالة الله تعالى، فجبريل إلى محمد، ومحمد إلى الأمة[٤].

وقيل: هو علي. وهو ضعيف لا يثبت له قائل، والأول والثاني هو الحق؛ وذلك أن المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة، والتفاصيل تؤخذ من الشريعة، والفطرة تصدقها وتؤمن بها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ وهو القرآن، بلّغه جبريل إلى النبي [محمد][٥] ﷺ، وبلغه النبي محمد إلى أمته.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ﴾ أي: ومن قبل [هذا][٦] القرآن كتاب موسى، وهو التوراة، ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي: أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماما لهم، وقدوة[٧] يقتدون بها، ورحمة من الله بهم. فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.

ثم قال تعالى متوعدا لمن كذب بالقرآن أو بشيء منه: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ أي: ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركيهم: أهل[٨] الكتاب وغيرهم، من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم، ممن بلغه القرآن، كما قال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾. وفي صحيح مسلم، من حديث شعبة، عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»[٩].

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥).

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٣٥٣) من طريق أبي جعفر عن الربيع بن أنس عن الحسن عن جابر به.

(٣) زيادة من ت، أ. (٤) في أ: «الأمة». (٥) زيادة من ت، أ.

(٦) زيادة من أ. (٧) في ت: «وقدوة». (٨) في ت: «وأهل».

(٩) كذا، والحديث في صحيح مسلم برقم (١٥٣) من حديث أبي هريرة، وإنما رواه بهذا السند الطبري في تفسيره (١٥/ ٢٨١) وأحمد في مسنده (٤/ ٣٩٦) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٦١).

وقال أيوب السختياني، عن سعيد بن جبير قال: كنت لا أسمع بحديث عن رسول الله ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه ـ أو قال: تصديقه ـ في القرآن، فبلغني أن رسول الله ﷺ قال: «لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، ولا يهودي ولا نصراني، فلا يؤمن بي إلا دخل النار». فجعلت أقول: أين مصداقه في كتاب الله؟ قال: وقلما سمعت عن رسول الله ﷺ إلا وجدت له تصديقا في القرآن، حتى وجدت هذه الآية: ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾، قال: «من الملل كلها»[1].

قوله: ﴿فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك﴾ أي: القرآن حق من الله، لا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى: ﴿الم . تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ [السجدة: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه [هدى للمتقين][2]﴾ [البقرة: ١، ٢].

وقوله: ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾، كما قال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين﴾ [سبأ: ٢٠].

**﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين (١٨) الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون (١٩) أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون (٢٠) أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون (٢١) لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون (٢٢)﴾.**

يبين تعالى حال المفترين عليه وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق؛ من الملائكة، والرسل، والأنبياء، وسائر البشر والجان، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا بهز وعفان قالا: أخبرنا همام، حدثنا قتادة، عن صفوان بن محرز قال: كنت آخذاً بيد ابن عمر، إذ عرض له رجل قال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه، ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا[3]؟ أتعرف ذنب كذا[4]؟ أتعرف ذنب كذا[5]؟ حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم. ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول: ﴿الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٥/ ٢٨٠).

(٢) زيادة من ت، أ.

(٣ ـ ٥) في أ: «كذا وكذا».

**﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾**.

أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين، من حديث قتادة به[١].

وقوله: **﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾** أي: يردُّون الناسَ عن اتباع الحق وسلوك طريق[٢] الهدى الموصلة إلى الله عز وجل ويجنبوهم[٣] الجنة، **﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾** أي: ويريدون أن يكون طريقهم[٤] عوجا غير معتدلة، **﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾** أي: جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها.

**﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾** أي: بل كانوا تحت قهره وغَلَبته، وفي قبضته وسلطانه، وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة، ولكن **﴿يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾** [إبراهيم: ٤٢]، وفي الصحيحين: «إن الله ليُملي للظالم، حتى إذا أخذَه لم يُفْلته»[٥]؛ ولهذا قال تعالى: **﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾** أي: يضاعف عليهم العذاب، وذلك لأن الله تعالى جعل لهم سمعا وأبصارا وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم [من شيء][٦]، بل كانوا صُمّاً عن سماع الحق، عُميا عن اتباعه، كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار: **﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾** [الملك: ١٠]، وقال تعالى: **﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾** [النحل: ٨٨]؛ ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه، وعلى كل نهي ارتكبوه؛ ولهذا كان أصحُّ الأقوال أنهم مكلفون بفروع الشرائع أمرها ونهيها بالنسبة إلى الدار الآخرة.

وقوله: **﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾** أي: خسروا أنفسهم لأنهم دخلوا[٧] نارا حامية، فهم معذبون فيها لا يُفَتَّر عنهم من عذابها طرفة عين، كما قال تعالى: **﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾** [الإسراء: ٩٧].

و**﴿ضَلَّ عَنْهُم﴾** أي: ذهب عنهم **﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾** من دون الله من الأنداد والأصنام، فلم تُجْد عنهم شيئاً، بل ضرتهم كل الضرر، كما قال تعالى: **﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾** [الأحقاف: ٦]، وقال تعالى: **﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ[٨] عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾** [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال الخليل لقومه: **﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ[٩] الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾** [العنكبوت: ٢٥]، وقال تعالى: **﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ**

---

(١) المسند (٢/ ٧٤) وصحيح البخاري برقم (٤٦٨٥) وصحيح مسلم برقم (١٧٦٨).

(٢) في ت: «طرق».  (٣) في ت: «ويجنبهم».  (٤) في ت، أ: «طريق الحق».

(٥) صحيح البخاري برقم (٤٦٨٦) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٦) زيادة من أ.  (٧) في ت: «أدخلوا».  (٨) في ت: «ويكونوا».

(٩) في ت: «ويوم».

﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]؛ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسرهم[1] ودمارهم؛ ولهذا قال: ﴿لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾. يخبر تعالى عن حالهم أنهم أخسر الناس صفقة فى الدار الآخرة؛ لأنهم استبدلوا بالدركات عن الدرجات، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن، وعن شرب الرحيق المختوم، بسَمُوم وحميم، وظِلٍّ من يحموم، وعن الحور العين بطعام من غِسْلين، وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قرب الرحمن، ورؤيته بغضب الديان وعقوبته، فلا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون.

**﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٤)﴾.**

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثَنَّى بذكر السُّعَداء، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فآمنت قلوبهم وعَمِلت جوارحهم الأعمال الصالحة قولا وفعلا، من الإتيان بالطاعات وترك المنكرات، وبهذا ورثوا الجنات، المشتملة على الغرف العاليات، والسرر المصفوفات، والقطوف الدانيات، والفرش المرتفعات، والحسان الخيرات، والفواكه المتنوعات، والمآكل المشتهيات[2]، والمشارب المستلذات، والنظر إلى خالق الأرض والسموات، وهم فى ذلك خالدون، لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون، وينامون[3] ولا يتغوَّطون، ولا يبصقون ولا يتمخطون، إن هو إلا رَشْحُ مسك يعرقون.

ثم ضرب [الله][4] تعالى مثل الكافرين والمؤمنين، فقال: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أى: الذين وصفهم أولا بالشقاء والمؤمنين السُّعَداء، فأولئك كالأعمى والأصم، وهؤلاء كالبصير والسميع. فالكافر أعمى عن وجه الحق فى الدنيا، وفى الآخرة لا يهتدى إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع الحجَج، فلا[5] يسمع ما ينتفع به، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وأما المؤمن ففَطِن ذكى لبيب، بصير الحق، يميز[6] بينه وبين الباطل، فيتبعُ الخير ويترك الشر، سميع للحجة، يفرق بينها وبين الشبهة، فلا يَرُوج[7] عليه باطل، فهل يستوى هذا وهذا.

﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تعتبرون وتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠] وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ. وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ. وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ. وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ. إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ. إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ١٩ ـ ٢٤].

---

(١) فى ت، أ: «خسارهم». (٢) فى ت: «المشهوات». (٣) فى ت، أ: «لا ينامون».
(٤) زيادة من ت، أ. (٥) فى ت، أ: «ولا». (٦) فى ت: «يميز».
(٧) فى ت: «فلا يزوج».

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

يخبر تعالى عن نوح، عليه السلام، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عَبَدة الأصنام أنه قال لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: ظاهر النِّذَارَة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله؛ ولهذا قال: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، وقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أى إن استمررتم على ما أنتم عليه عذَّبكم الله عذابا أليما مُوجعا شاقًا فى الدار الآخرة.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾: والملأ هم: السادة والكبراء من الكافرين منهم: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ أى: لست بملك، ولكنك بشر، فكيف أوحى إليك من دوننا؟ ثم ما نراك[1] اتبعك إلا أراذلنا[2] كالباعة والحاكة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء [منا][3]، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تَرَوٍّ منهم ولا فكرة ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك[4]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أى: فى أول بادئ الرأى، ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ يقولون: ما رأينا لكم علينا فضيلة فى خَلْق ولا خُلُق، ولا رزق ولا حال، لَمَّا دخلتم فى دينكم هذا، ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ أى: فيما تَدَّعونه[5] لكم من البر والصلاح والعبادة، والسعادة فى الدار الآخرة إذا صرتم إليها.

هذا اعتراض الكافرين على نوح، عليه السلام، وأتباعه، وذلك دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق رَذَالة من اتبعه، فإن الحق فى نفسه صحيح، وسواء اتبعه الأشراف أو الأراذل[6]، بل الحق الذى لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف، ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل، ولو كانوا أغنياء. ثم الواقع غالبا أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ[7] إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبى ﷺ، قال له فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل.

وقولهم[8]: «بادى الرأى» ليس بمذمة ولا عيب؛ لأن الحق إذا وضح لا يبقى للتروى[9] ولا للفكر مجال، بل لابد من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذى زكاء وذكاء، ولا يفكر ويتروى هاهنا إلا عَيِىٌّ أو غبى[10]. والرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إنما جاؤوا بأمر جلى واضح. وقد

---

(١) فى ت، أ: «لا نراك».
(٢) فى ت: «أرذلنا».
(٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت، أ: «واتبعوك».
(٥) فى ت: «تدعوهم»، وفى أ: «تدعونهم».
(٦) فى ت، أ: «الأرذال».
(٧) فى ت: «من نبى».
(٨) فى ت: «وقوله».
(٩) فى ت: «للروى»، وفى أ: «للردى».
(١٠) فى ت، أ: «غنى».

جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كَبْوَة، غير أبي بكر، فإنه لم يَتَلَعْثَم»[(١)] أي: ما تردد ولا تروَّى، لأنه رأى أمرا جليا عظيما واضحا، فبادر إليه وسارع.

وقولهم: ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ هم لا يرون ذلك، لأنهم عُمْي عن الحق، لا يسمعون ولا يبصرون، بل هم في ريبهم يترددون، في ظلمات الجهل يعمهون، وهم الأفاكون الكاذبون، الأقلون الأرذلون، وفي الآخرة هم الأخسرون.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نوح ما ردَّ على قومه في ذلك: ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ أي: على يقين وأمر جلي، ونبوة صادقة، وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم، ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ أي: خفيت عليكم، فلم تهتدوا إليها، ولا عرفتم قدرها، بل بادرتم إلى تكذيبها وردها، ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ أي: نَغْصبكم[(٢)] بقبولها وأنتم لها كارهون.

﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) ﴾.

يقول لقومه: لا أسألكم على نصحي [لكم][(٣)] مالا؛ أجرة آخذها منكم، إنما أبتغي الأجر من الله عز وجل، ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾، كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه، احتشاما ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم، كما سأل أمثالهم خاتم[(٤)] الرسل ﷺ أن يطرد عنهم[(٥)] جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلسا خاصا، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ [الأنعام: ٥٢]، ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ الآيات [الأنعام: ٥٣].

﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) ﴾.

---

(١) ذكره المؤلف في البداية والنهاية (٣/٢٧) عن ابن إسحاق وهو منقطع.
(٢) في ت: «تغصبكم».
(٣) زيادة من ت، أ.
(٤) في ت: «الخاتم».
(٥) في ت: «عنه».

يخبرهم أنه رسولٌ من الله، يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، بإذن الله له فى ذلك، ولا يسألهم على ذلك أجرا، بل هو يدعو من لقيه من شريف ووضيع، فمن استجاب له فقد نجا. ويخبرهم[١] أنه لا يَقدِر على التصرف فى خزائن الله، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، وليس هو بمَلك من الملائكة، بل بشر مرسل، مؤيد بالمعجزات. ولا أقولُ عن هؤلاء الذين تحتقرونهم وتزدرونهم[٢]: إنه[٣] ليس لهم عند الله ثواب على إيمانهم الله أعلم بما فى أنفسهم، فإن كانوا مؤمنين باطناً، كما هو الظاهر من حالهم، فلهم جزاء الحسنى، ولو قطع لهم أحد بشر بعد ما آمنوا، لكان ظالما قائلا ما لا أعلم له به.

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه وسخطه، والبلاء موكل بالمنطق: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ أي: حاججتنا فأكثرت من ذلك، ونحن لا نتبعك ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ أي: من النقمة والعذاب، ادع علينا بما شئت، فليأتنا ما تدعو به[٤]، ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أى: إنما الذى يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذى لا يُعجزه شىء، ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ أي: أىّ شيء يُجدي عليكم إبلاغى لكم وإنذارى إياكم ونصحى، إن كان الله يريد إغواءكم ودماركم، ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى: هو مالك أزمة الأمور، والمتصرف[٥] الحاكم العادل الذى لا يجور، له الخلق وله الأمر، وهو المبدئ المعيد، مالك الدنيا والآخرة.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾.

هذا كلام معترض فى وسط هذه القصة، مؤكد لها ومقرر بشأنها[٦]. يقول تعالى لمحمد[٧] ﷺ: أم يقول[٨] هؤلاء الكافرون الجاحدون: افترى هذا وافتعله من عنده ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ اى: فإثم ذلك على، ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أى: ليس ذلك مفتعلا، ولا مفترى[٩]، لأنى أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه.

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا

(١) فى ت: «وتخبرهم». (٢) فى ت، أ: «يحتقرونهم ويزدرونهم». (٣) فى أ: «إنهم».
(٤) فى ت: «من تدعونا»، وفى أ: «بدعوته». (٥) فى ت: «المتصرف». (٦) فى ت: «لشأنها».
(٧) فى ت، أ: «لنبيه». (٨) فى ت: «أم يقولونه». (٩) فى ت: «مفتريا».

يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾.

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نُوح لما استعجل قومُه نقمة الله بهم وعذابه لهم، فدعا عليهم نوح دعوته التي قال الله تعالى[1] مخبراً عنه أنه قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، فعند ذلك أوحى الله تعالى إليه: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾، فلا تحزن عليهم ولا يَهُمَّنَّك أمرهم.

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ يعني: السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمرأىً منا، ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أي: وتعليمنا لك ماذا تصنعه، ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

فقال بعض السلف: أمره الله تعالى أن يغرِز[2] الخشب ويقطِّعه وييبسه، فكان ذلك في مائة سنة، ونَجَرها في مائة سنة أخرى، وقيل: في أربعين سنة، فالله[3] أعلم.

وذكر محمد بن إسحاق عن التوراة: أن الله أمره أن يصنعها من خشب الساج، وأن يجعل طولها ثمانين ذراعا وعرضها خمسين ذراعا.

وأن يطلي باطنها وظاهرها بالقار، وأن يجعل لها جؤجؤا أزور يشق الماء. وقال قتادة: كان طولها ثلاثمائة ذراع، في عرض خمسين.

وعن الحسن: طولها ستمائة ذراع وعرضها ثلاثمائة ذراع.

وعنه مع ابن عباس: طولها ألف ومائتا ذراع، في عرض ستمائة.

وقيل: طولها ألفا ذراع، وعرضها مائة ذراع، فالله أعلم.

قالوا كلهم: وكان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعا، ثلاث طبقات، كل طبقة عشرة أذرع، فالسفلى للدواب والوحوش: والوسطى للإنس: والعليا للطيور. وكان بابها في عرضها، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها.

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير أثرا غريبا، من حديث علي بن زيد بن جُدْعَان، عن يوسف ابن مِهْران، عن عبد الله بن عباس؛ أنه قال: قال الحواريون لعيسى ابن مريم: لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة فحدثنا عنها. قال: فانطلق بهم حتى أتى[4] إلى كثيب من تراب، فأخذ كفا من ذلك التراب بكفه، قال[5]: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا كعب[6] حام بن نوح. قال: وضرب الكثيب بعصاه، قال: قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفُض التراب عن رأسه، قد شاب. قال له

---

(١) في أ: «عز وجل». (٢) في أ: «يغرس». (٣) في ت: «والله».
(٤) في ت، أ: «انتهى». (٥) في أ: «فقال». (٦) في أ: «قبر».

عيسى، عليه السلام: هكذا هلكت؟ قال: لا، ولكني متّ وأنا شابّ، ولكنني ظننت أنها الساعة، فمن ثَمَّ شبت. قال: حدِّثنا عن سفينة نوح؟ قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي[1] ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات، فطبقة فيها الدواب والوحش، وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطير، فلما كثر أرواث الدواب، أوحى الله عز وجل إلى نوح، عليه السلام، أن اغمز ذَنَب الفيل، فغمزه، فوقع منه خنزير وخنزيرة، فأقبلا على الروث، فلما وقع الفأر بخَرَزِ السفينة يقرضه وحبالها، أوحى إلى نوح، أن اضرب بين عيني الأسد، فخرج من منخره سِنَّور وسنورة، فأقبلا على الفأر. فقال له عيسى، عليه السلام: كيف علم نوح أن البلاد قد غرقت؟ قال: بعث الغراب يأتيه بالخبر، فوجد جيفة فوقع عليها، فدعا عليه بالخوف، فلذلك لا يألف البيوت قال: ثم بعث الحمامة، فجاءت بورق زيتون بمنقارها، وطين برجليها، فعلم أن البلاد قد غَرِقت. قال: فطوّقها الخضرة التي في عنقها، ودعا لها أن تكون في أنس وأمان، فمن ثم تألف البيوت. قال: فقلنا: يا رسول الله، ألا ننطلق به[2] إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا؟ قال: كيف يتبعكم من لا رزق له؟ قال: فقال له: عد بإذن الله، فعاد ترابا[3].

وقوله: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ أي: يطنزون به ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق. ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ . فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وعيد شديد، وتهديد أكيد، ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: يهينه في الدنيا، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: دائم مستمر أبدا.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠)﴾.

هذه مُواعدة من الله تعالى لنوح، عليه السلام، إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة، والهتّان الذي لا يُقلع ولا يَفتُر، بل هو كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١١ ـ ١٤].

وأما قوله: ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾، فعن ابن عباس: التنور: وجه الأرض، أي: صارت الأرض عيونا تفور، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار، صارت تفور ماء، وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف.

وعن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: التنور: فَلَق الصبح، وتنوير الفجر، وهو ضياؤه وإشراقه.

---

(١) في أ: «ومائتا». (٢) في أ: «بنا».

(٣) تفسير الطبري (١٥/ ٣١١).

والاول أظهر.

وقال مجاهد والشعبي: كان هذا التنور بالكوفة، وعن ابن عباس: عين بالهند. وعن قتادة: عين بالجزيرة، يقال لها: عين الوردة.

وهذه أقوال غريبة.

فحينئذ أمر الله نوحا، عليه السلام، أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين ـ من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، قيل: وغيرها من النباتات ـ اثنين. ذكرا وأنثى، فقيل: كان أول من أدخل من الطيور الدرة، وآخر من أدخل من الحيوانات الحمار، فدخل إبليس متعلقاً بذنبه، فدخل بيده[1]، وجعل يريد أن ينهض فيثقله إبليس وهو متعلق بذنبه، فجعل يقول له نوح: مالك؟ ويحك. ادخل. فينهض ولا يقدر، فقال: ادخل وإن كان إبليس معك فدخلا في السفينة.

وذكر أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود أنهم لم يستطيعوا أن يحملوا معهم الأسد، حتى ألقيت عليه الحمى.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث، حدثني الليث، حدثني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم. عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «لما حمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين، قال أصحابه: وكيف يطمئن أو: تطمئن ـ المواشي ومعها[2] الاسد؟ فسلط الله عليه الحمى، فكانت أول حُمَّى نزلت الارض، ثم شكوا الفأرة فقالوا: الفُوَيْـسِقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا. فأوحى الله إلى الأسد، فعطس، فخرجت الهرة منه، فتخبأت الفأرة منها[3].

وقوله: ﴿وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أي: «واحمل فيها أهلك، وهم أهل بيته وقرابته» إلا من سبق عليه القول منهم، ممن لم يؤمن بالله، فكان منهم ابنه «يام» الذي انعزل وحده، وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله.

وقوله: ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ أي: من قومك، ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ أي: نزر[4] يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاما، فعن ابن عباس: كانوا ثمانين نفسا منهم[5] نساؤهم. وعن كعب الأحبار: كانوا اثنين وسبعين نفسا. وقيل: كانوا عشرة. وقيل: إنما كانوا نوح وبنوه[6] الثلاثة سام، وحام، ويافث، وكنائنه الاربع نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة يام. وقيل: بل امرأةُ نوح كانت

---

(١) في ت: «بيديه». (٢) في ت: «ومعنا».

(٣) وهذا مرسل، وقد ورد في سفينة نوح غير ما ذكره الحافظ وأكثرها من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. قال ابن حبان: «كان ممن يقلب الأخبار حتى كثر ذلك في روايته من رفع المراسيل وإسناد الموقوف، فاستحق الترك». ومما رواه في شأن سفينة نوح ما أورده ابن حجر في التهذيب (٦/ ١٧٩) عن الساجي قال: حدثنا الربيع، حدثنا الشافعي قال: قيل لعبد الرحمن بن زيد: حدثك أبوك عن جدك أن رسول الله ﷺ قال: «إن سفينة نوح طافت بالبيت وصلت خلف المقام ركعتين؟!» قال: نعم. وقد ذكر رجل لمالك حديثاً منقطعاً، فقال: اذهب إلى عبد الرحمن بن زيد يحدثك عن أبيه عن نوح!. وانظر كتاب: الإسرائيليات في كتب التفسير لمحمد أبو شهبة (ص ٢١٨).

(٤) في ت، أ: «نفر». (٥) في أ: «معهم».

(٦) في أ: «إنما كان وبنوه».

معهم في السفينة، وهذا فيه نَظَرٌ، بل الظاهر أنَّها هلكت؛ لأنها كانت على دين قومها، فأصابها ما أصابهم، كما أصاب امرأة لوط ما أصاب قومها، والله أعلم وأحكم.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣)﴾.

يقول تعالى إخباراً عن نوح، عليه السلام، أنه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ أي: باسم الله يكون جَرْيُها على وجه الماء، وباسم الله يكون منتهى سيرها، وهو رُسُوُّها.

وقرأ أبو رجاء العَطاردي: «بِسْمِ الله مُجْرِيْها ومُرْسِيها».

وقال الله تعالى[1]: ﴿فَإِذَا[2] اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨، ٢٩]؛ ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور: عند الركوب على السفينة وعلى الدابة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ . لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ ـ ١٤]، وجاءت السنة بالحث على ذلك، والندب إليه، كما سيأتي في سورة «الزخرف»، إن شاء الله وبه الثقة.

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا إبراهيم بن هاشم البغوي، حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي ـ وحدثنا زكريا بن يحيى الساجي، حدثنا محمد بن موسى الحَرَشي ـ قالا: حدثنا عبد الحميد بن الحسن الهلالي، عن نَهْشَل بن سعيد، عن الضحاك، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «أمان أمتي من الغرق إذا ركبوا في السفن أن يقولوا: بسم الله الملك، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾»[3].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، مناسب عند[4] ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين ذكْرُ أنه غفور رحيم، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، إلى غير ذلك من الآيات التي

---

(١) في أ: «عز وجل». (٢) في ت: «وإذا» وهو خطأ.

(٣) المعجم الكبير (١٢/ ١٢٤) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٣٢): «فيه نهشل بن سعيد وهو متروك».

(٤) في ت، أ: «عند».

﴿وإنَّ ربَّك لذو مغفرة للنَّاس على ظلمهم وإنَّ ربَّك لشديد العقاب﴾ [الرعد: ٦]، إلى غير ذلك من الآيات التي يقرن فيها بين انتقامه ورحمته.

وقوله: ﴿وهي تجري بهم في موجٍ كالجبال﴾ أي: السفينة سائرة بهم على وجه الماء، الذي قد طبّق[1] جميع الأرض، حتى طفت[2] على رؤوس الجبال، وارتفع عليها بخمسة عشرة ذراعًا، وقيل: بثمانين ميلاً، وهذه السفينة على وجه الماء سائرة بإذن الله وتحت كنفه وعنايته[3]، وحراسته وامتنانه كما قال تعالى: ﴿إنَّا لمَّا طغا الماء حملناكم في الجارية. لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذنٌ واعية﴾ [الحاقة: ١١، ١٢]. وقال تعالى: ﴿وحملناه على ذات ألواحٍ ودُسُر. تجري بأعيننا جزاء لمن كان كُفِر. ولقد تركناها آية فهل من مُدَّكر﴾ [القمر: ١٣ ـ ١٥].

وقوله: ﴿ونادى نوحٌ ابنه وكان في معزلٍ يا بُنيَّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين﴾ هذا هو الابن الرابع، واسمه «يام»، وكان كافرًا، دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون، ﴿قال سآوي إلى جبلٍ يعصمني من الماء﴾. وقيل: إنه اتخذ له مركبًا من زجاج، وهذا من الإسرائيليات، والله أعلم بصحته. والذي نص عليه القرآن أنه قال: ﴿قال سآوي إلى جبلٍ يعصمني من الماء﴾، اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجاه ذلك من الغرق، فقال له أبوه نوح، عليه السلام: ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رَحِم﴾ أي: ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله. وقيل: إن عاصمًا بمعنى معصوم، كما يقال: «طاعم وكاسٍ»، بمعنى مطعوم ومكسوّ. ﴿وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾.

﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقُضي الأمر واستوت على الجوديِّ وقيل بُعدًا للقوم الظالمين (٤٤)﴾.

يخبر تعالى أنه لما غرق[4] أهل الأرض إلا أصحاب السفينة، أمر[5] الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تقلع عن المطر، ﴿وغيض الماء﴾ أي: شرع في النقص، ﴿وقُضي الأمر﴾ أي: فُرغ من أهل الأرض قاطبة، ممن كفر بالله، لم يبق منهم ديَّار، ﴿واستوت﴾ السفينة بمن فيها ﴿على الجودي﴾. قال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة، تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت، وتواضع هو لله عز وجل، فلم يغرق، وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام.

وقال قتادة: استوت عليه شهرًا حتى نزلوا منها، قال قتادة: قد أبقى[6] الله سفينة نوح، عليه السلام، على الجودي من أرض الجزيرة عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة قد

---

(١) في ت: «طبق به».
(٢) في أ: «طفت».
(٣) في ت: «وعنايته»، وفي أ: «ورعايته».
(٤) في ت، أ: «غرق».
(٥) في ت، أ: «فإنه أمر».
(٦) في ت، أ: «فأبقى».

كانت بعدها فهلكت، وصارت رماداً[١].

وقال الضحاك: الجُودِيّ: جبل بالموصل: وقال بعضهم: هو الطور.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن رافع، حدثنا محمد بن عبيد، عن توبة[٢] بن سالم قال: رأيت زِرّ بن حُبَيْش يصلي في الزاوية حين يُدخل من أبواب كِندة على يمينك، فسألته إنك لكثير[٣] الصلاة هاهنا يوم الجمعة:! قال: بلغني أن سفينة نوح أرْسَتْ من هاهنا.

وقال عِلْباء بن أحمد، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس قال: كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلا، معهم أهلوهم، وإنهم كانوا في السفينة مائة وخمسين يوما، وإن الله وجَّه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوما، ثم وجهها الله إلى الجُودِيّ فاستقرت عليه، فبعث نوح الغرابَ ليأتيه بخبر الأرض، فذهب فوقع على الجِيَف فأبطأ عليه فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون، ولطخت رجليها بالطين، فعرف نوح، عليه السلام، أن الماء قد نضب، فهبط إلى أسفل الجُودِيّ، فابتنى قرية وسماها ثمانين، فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة، إحداها اللسان[٤] العربي. فكان بعضهم لا يفقه كلام بعض، وكان نوح عليه السلام يُعبّر عنهم.

وقال كعب الأحبار: إن السفينة طافت ما بين المشرق والمغرب قبل أن تستقر على الجوديّ.

وقال قتادة وغيره: ركبوا في عاشر شهر رجب فساروا مائة وخمسين واستقرت بهم على الجودي شهراً، وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرم. وقد ورد نحو هذا في حديث مرفوع رواه ابن جرير[٥]. وأنهم صاموا يومهم ذاك[٦]، فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو جعفر، حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدي، عن أبيه حَبيب بن عبد الله، عن شُبَيل، عن أبي هريرة قال: مر النبي ﷺ بأناس من اليهود، وقد صاموا يوم عاشوراء، فقال: ما هذا الصوم؟ قالوا: هذا اليوم الذي نجي الله موسى وبني إسرائيل من الغرق، وغرق فيه فرعون، وهذا يوم استوت[٧] فيه السفينة على الجُودِيّ، فصامه[٨] نوح وموسى، عليهما السلام، شكراً لله عز وجل. فقال النبي ﷺ: «أنا أحق بموسى، وأحق بصوم هذا اليوم». فصام، وقال لأصحابه: «من كان أصبح منكم صائما فليتم صومه، ومن كان أصاب من غَدَاء أهله، فليتم بقية يومه»[٩].

وهذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه، ولبعضه شاهدٌ في الصحيح[١٠].

---

(١) في ت: «مدادا».

(٢) في ت، أ: «ثوبة». (٣) في أ: «لكثير». (٤) في ت: «لسان».

(٥) تفسير الطبري (١٥/ ٣٣٥) وهو موضوع.

(٦) في أ: «ذلك». (٧) في ت، أ: «استقرت». (٨) في ت، أ: «فصام».

(٩) المسند (٢/ ٣٥٩).

(١٠) في صحيح البخاري برقم (٤٦٨٠) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم عاشوراء، فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، فقال النبي ﷺ لأصحابه: «أنتم أحق بموسى منهم، فصوموا».

وقوله: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: هلاكاً وخساراً[١] لهم، وبعداً[٢] من رحمة الله، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم، فلم يبق لهم بقية.

وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير والحبر أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيريهما[٣]، من حديث موسى بن يعقوب[٤] الزمعي، عن قائد ـ مولى عبيد الله بن أبي رافع ـ أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة أخبره: أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته: أن النبي ﷺ قال: «لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبي»، قال رسول الله ﷺ: «كان نوح، عليه السلام، مكث في قومه ألف سنة [إلا خمسين عاما][٥]، يعني وغرس مائة سنة الشجر، فعظمت وذهبت كل مذهب، ثم قطعها، ثم جعلها سفينة ويمرون عليه ويسخرون منه ويقولون: تعمل[٦] سفينة في البرّ، فكيف تجري؟ قال: سوف تعلمون. فلما فرغ ونبّع الماء، وصار في السكك خشيت أمّ الصبي عليه، وكانت تحبه حبا شديداً، فخرجت إلى الجبل، حتى بلغت ثلثه[٧]، فلما بلغها الماء [ارتفعت حتى بلغت ثلثيه، فلما بلغها الماء][٨] خرجت به حتى استوت على الجبل، فلما بلغ رقبتها رفعته بيديها فغرقا فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبي»[٩].

وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وقد روي عن كعب الأحبار، ومجاهد بن جبر قصةُ هذا الصبي وأمه بنحو من هذا.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧)﴾.

هذا سؤال استعلام وكشف من نوح، عليه السلام، عن حال ولده الذي غرق، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أي: وقد وعدتني بنجاة أهلي، ووعدُك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين؟ ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: الذين وعدت إنجاءهم[١٠]؛ لأني[١١] إنما وعدتك[١٢] بنجاة من آمن من أهلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾[هود: ٤٠]، فكان هذا الولد

---

(١) في ت، أ: «هلاك وخسار». (٢) في ت، أ: «وبعد». (٣) في ت، أ: «تفسيرهما».

(٤) في ت، أ: «يعقوب بن موسى». (٥) زيادة من الدر المنثور. مستفاد من ط. الشعب. (٦) في ت: «يعمل».

(٧) في ت، أ: «ثلثه». (٨) زيادة من الدر المنثور. مستفاد من ط. الشعب.

(٩) تفسير الطبري (١٥/ ٣١٠) ورواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٢) من طريق سعيد بن أبي مريم عن موسى بن يعقوب به نحوه، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبي قلت: «إسناده مظلم وموسى بن يعقوب ليس بذاك».

(١٠) في أ: «نجاتهم». (١١) في ت: «الذين أي: ليس من أهلك وعدت بنجاتهم لأنه».

(١٢) في ت، أ: «وعدناك».

ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبيّ الله نوحا، عليه السلام.

وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه، وإنما كان ابن زِنْيَة[١]، ويحكى القول بأنه ليس بابنه، وإنما كان ابن امرأته عن مجاهد، والحسن، وعُبَيد بن عُمَير، وأبي جعفر الباقر، وابن جُرَيج، واحتج بعضهم بقوله: ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾، وبقوله: ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ [التحريم: ١٠]، فممن قاله الحسن البصري، احتج بهاتين الآيتين. وبعضهم يقول: كان ابن امرأته. وهذا يحتمل[٢] أن يكون أراد ما أراد الحسن، أو أراد أنه نسب إليه مجازا، لكونه كان ربيباً عنده، فالله أعلم.

وقال ابن عباس، وغير واحد من السلف: ما زنت امرأة نبي قط، قال: وقوله: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أي: الذين وعدتك نجاتهم[٣].

وقولُ ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه، فإن الله سبحانه[٤] أغير من أن يمكن[٥] امرأة نبي من الفاحشة[٦]، ولهذا غضب الله على الذين رمَوا أم المؤمنين عائشة بنتَ الصِّدِّيق زوجَ النبي ﷺ[٧]، وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١١ ـ ١٥].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة وغيره، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس قال: هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنية. قال عكرمة: في بعض الحروف: «إنه عَمِل عملاً غير صالح»، والخيانة تكون على غير باب.

وقد ورد في الحديث أن رسول الله قرأ بذلك، فقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن أسماء بنت يزيد قالت، سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: «إنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ»، وسمعته يقول[٨]: ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ ولا يبالي ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣][٩].

وقال أحمد أيضا: حدثنا وَكيع، حدثنا هارون النحوي، عن ثابت البُنَاني، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن أم سلمة أن رسول الله قرأها: «إنه عَمِل غَيْرَ صَالِحٍ»[١٠].

أعاده أحمد أيضاً في مسنده[١١].

---

(١) في ت، أ: «ليس منك إنما هو ولد زنية».
(٢) في ت: «محتمل».
(٣) في ت: «بنجاتهم».
(٤) في ت: «تعالى».
(٥) في ت: «يمكن من».
(٦) في ت: «هذه الفاحشة».
(٧) في أ: «زوج النبي ﷺ بالفاحشة».
(٨) في ت: «يقرأ».
(٩) المسند (٦/ ٤٥٤).
(١٠) المسند (٦/ ٢٩٤).
(١١) المسند (٦/ ٣٢٢).

أم سلمة هي[1] أم المؤمنين، والظاهر ـ والله أعلم ـ أنها أسماء[2] بنت يزيد، فإنها تكنى بذلك أيضا[3].

وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا الثوري وابن عيينة، عن موسى بن أبي عائشة، عن سليمان بن قَتَّة قال: سمعت ابن عباس ـ سُئِل ـ وهو إلى جَنْب الكعبة ـ عن قول الله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]، قال: أما وإنه لم يكن بالزنا، ولكن كانت هذه تخبر الناس أنه مجنون، وكانت هذه تدل على الأضياف. ثم قرأ: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾: قال ابن عيينة: وأخبرني عمار الدُّهْني[4] أنه سأل سعيد ابن جبير عن ذلك فقال: كان ابن نوح، إن الله لا يكذب! قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ﴾، قال: وقال بعض العلماء: ما فجرت امرأة نبي قط[5].

وكذا رُوي عن مجاهد أيضاً، وعكرمة، والضحاك، وميمون بن مِهْران وثابت بن الحجاج، وهو اختيار أبي جعفر بن جرير، وهو الصواب [الذي][6] لا شك فيه.

[وقوله][7]:

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨)﴾.

يخبر تعالى عما قيل لنوح، عليه السلام، حين أرست السفينة على الجوديّ، من السلام عليه، وعلى من معه من المؤمنين، وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة. كما قال محمد بن كعب: دخل في هذا السلام كلّ مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وكذلك في العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة.

وقال محمد بن إسحاق: ولما أراد أن يكف[8] الطوفان أرسل ريحا على وجه الأرض، فسكن الماء، وانسدت ينابيع الأرض الغمر الاكبر[9] وأبواب السماء، يقول الله تعالى[10]: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي

---

(١) في ت، أ: «هند».        (٢) في ت: «إنما هي أسماء».

(٣) قال الطبري في تفسيره (١٥/٣٤٨): «ولا نعلم هذه القراءة قرأ بها أحد من قراء الأمصار إلا بعض المتأخرين، واعتل في ذلك بخبر روي عن رسول الله ﷺ أنه قرأ ذلك كذلك، غير صحيح السند، وذلك حديث روي عن شهر بن حوشب، فمرة يقول: عن أم سلمة، ومرة يقول عن أسماء بنت يزيد. «ولا نعلم ابنة يزيد يريد؟ ولا نعلم لشهر سماعاً يصح عن أم سلمة». وانظر: حاشية الأستاذ محمود شاكر عليه فقد أفاد وأجاد.

(٤) في ت: «الذهبي».

(٥) رواه الطبري في تفسيره (١٥/٣٤٣).

(٦) زيادة من ت، أ.        (٧) زيادة من ت.        (٨) في ت: «يكف تلك».

(٩) قال الأستاذ محمود شاكر في حاشيته على الطبري (١٥/٢٣٩): «هكذا في المخطوطة والمطبوعة: «الغمر الأكبر». وأنا أرجح أنه خطأ محض، وأن الصواب: «الغوط الأكبر» وبهذا اللفظ رواه صاحب اللسان في مادة (غوط)».

(١٠) في ت، أ: «يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ».

مَاءَكِ [وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ][١]﴾ فجعل الماء ينقص ويَغيض ويُدْبِرُ، وكان استواء الفلك على الجودى، فيما يزعم أهل التوراة، فى الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه، وفى أول يوم من الشهر العاشر، رُئى رؤوس الجبال. فلما مضى بعد ذلك أربعون يوماً، فتح نوح كُوَّةَ الفُلْك التى ركب[٢] فيها، ثم أرسل الغرابَ لينظر له ما صنع الماء، فلم يرجع إليه. فأرسل الحمامة فرجعت إليه، لم تجد لرجليها موضعا، فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها. ثم مضى[٣] سبعة أيام، ثم أرسلها لتنظر له، فرجعت حين أمست، وفى فيها وَرَقُ زيتون[٤]، فعلم نوح أن الماء قد قَلّ عن وجه الأرض. ثم مكث سبعة أيام، فلم ترجع، فعلم نوح أن الأرض قد بَرَزَت، فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى ان أرسل نوح الحمامة، ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنتين، برز وجه الأرض ،وظهر اليَبَس[٥]، وكشف نوح غطاء الفلك ورأى وجه الأرض، وفى الشهر الثانى من سنة اثنتين، فى سبع وعشرين ليلة منه ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا [وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ][٦]﴾ [إلى آخر][٧] الآية[٨].

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)﴾.

يقول تعالى لنبيه [ورسوله محمد][٩] ﷺ[١٠]. هذه القصص وأشباهها[١١] ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾ يعنى: من أخبار الغيوب السالفة نوحيها إليك على وجهها [وجليتها][١٢]، كأنك شاهدها[١٣]، ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾، أى: نعلمك بها وحيا[١٤] منا إليك، ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ أى: لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها، حتى يقول من يكذبك: إنك تعلمتها[١٥] منه، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك، فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك، وأذاهم لك، فإنا سننصرك[١٦] ونحوطك بعنايتنا، ونجعل العاقبة لك ولأتباعك فى الدنيا والآخرة، كما فعلنا [بإخوانك][١٧] بالمرسلين[١٨] حيث نصرناهم على أعدائهم، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا [فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ

---

(١) زيادة من ت، أ، وفى هـ: «الآية».
(٢) فى ت، أ: «صنع».
(٣) فى ت، أ: «مضت».
(٤) فى ت: «زيتونة».
(٥) فى ت: «النسر»، وفى أ: «البشر».
(٦) زيادة من ت، أ.
(٧) زيادة من ت، أ.
(٨) تفسير الطبرى (١٥/٣٣٨).
(٩) زيادة من ت، أ.
(١٠) فى أ: «صلوات الله وسلامه عليه».
(١١) فى ت: «وما أشبهها».
(١٢) زيادة من ت، أ.
(١٣) فى ت: «مشاهد لها».
(١٤) فى ت: «بوحى».
(١٥) فى أ: «تعلمها».
(١٦) فى ت: «سنؤيدك: ونبصرك»، وفى أ: «فإنا سنؤيدك».
(١٧) زيادة من ت، أ.
(١٨) فى ت، أ: «من المرسلين».

اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ[(١)]﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ. [وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ][(٢)]﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝٥٠ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٥١ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ۝٥٢﴾.

يقول تعالى: ولقد أرسلنا، ﴿إِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ آمرا لهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ناهيا لهم[(٣)] عن [عبادة][(٤)] الأوثان التي افتروها واختلقوا لها أسماء الآلهة، وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجرة على هذا النصح والبلاغ من الله، إنما يبغي ثوابه [على ذلك وأجره][(٥)] من الله الذي فطره ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أجرة[(٦)].

ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة، وبالتوبة عما يستقبلون [من الأعمال السابقة][(٧)]، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه، وسهل عليه أمره وحفظ [عليه][(٨)] شأنه [وقوته][(٩)]؛ ولهذا قال: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١١]، و[كما جاء][(١٠)] وفي الحديث: «من لزم[(١١)] الاستغفار جعل الله له من كل هَم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب».

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦﴾.

يخبر[(١٢)] تعالى [إخباراً عن قوم هود][(١٣)] أنهم قالوا لنبيهم: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي: بحجة [ولا دلالة][(١٤)] [ولا][(١٥)] وبرهان على ما تدعيه، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ أي: بمجرد قولك: «اتركوهم» نتركهم، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [أي][(١٦)]: بمصدقين، ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾، يقولون: ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبَل في عقلك بسبب نهيك عن

---

(١، ٢) زيادة من ت، أ، وفي هـ: «الآية».
(٣) في ت، أ: «ونهاهم».
(٤، ٥) زيادة من ت، أ.
(٦) في ت، أ: «من غير جعل ولا أجر».
(٧ ـ ١٠) زيادة من ت، أ.
(١١) في ت، أ: «أكثر من».
(١٢) في ت، أ: «يقول».
(١٣ ـ ١٦) زيادة من ت، أ.

عبادتها وعيبك لها ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا﴾، [أي أنتم أيضا][1] ﴿أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ[2]. مِن دُونِهِ﴾، يقول: إني بريء من جميع الأنداد والأصنام، ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أي: أنتم وآلهتكم إن كانت حقا، [ف ذروها تكيدني][3]، ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي: طرفة عين [واحدة][4].

وقوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أي: [هي][5] تحت قهره وسلطانه، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور في حكمه، فإنه على صراط مستقيم.

قال الوليد بن مسلم، عن صفوان بن عمرو[6]، عن أيفع بن عبد الكلاعي أنه قال في قوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، قال: فيأخذ بنواصي عباده فيلقى المؤمن[7] حتى يكون له[8] أشفق من الوالد لولده[9]، ويقال للكافر: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦].

وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، بل هي جَمَاد لا تسمع ولا تبصر، ولا تُوالي ولا تُعادي، وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له، الذي بيده الملك، وله التصرف، وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)﴾.

يقول لهم [رسولهم][10] هود: فإن تولوا عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له، فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغي إياكم رسالة الله التي بعثني بها، ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي[11] قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يعبدونه وحده لا يشركون به [شيئا][12] ولا يبالي بكم: فإنكم لا تضرونه بكفركم بل[13] يعود وبال ذلك عليكم، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ويجزيهم[14] عليها إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

---

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) في ت: «تدعون» وهو خطأ.
(٣ ـ ٥) زيادة من ت، أ.
(٦) في أ: «محرز».
(٧) في ت: «للمؤمن».
(٨) في ت: «لهم».
(٩) في ت: «بولده».
(١٠) زيادة من ت، أ.
(١١) في ت، أ: «الله» وهو خطأ.
(١٢) زيادة من ت، أ.
(١٣) في ت، أ: «بكفركم وإنما».
(١٤) في ت: «ويجزيهم».

﴿ولَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾، وهو [ما أرسل الله عليهم من][1] الريح العقيم [التى لا تمر بشىء إلا جعلته كالرميم][2]، فأهلكهم الله عن آخرهم، ونجى [من بينهم رسولهم][3] هودا وأتباعه [المؤمنين][4] من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ [أى][5]: كفروا بها، وعصوا رسل الله، وذلك أن من كفر بنبى فقد كفر بجميع الأنبياء، لأنه لا فرق بين أحد منهم فى وجوب الإيمان به، فعاد كفروا بهود، فنزل كفرهم [به][6] منزلة من كفر بجميع الرسل، ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، تركوا اتباع رسولهم الرشيد، واتبعوا أمر كل جبار عنيد. فلهذا اتبعوا فى هذه الدنيا لعنة من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذكروا، وينادى عليهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد[7]، ﴿أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ [أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ][8]﴾.

قال السُّدِّى: ما بُعث نبى بعد عاد إلا لعنوا على لسانه.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١)﴾.

يقول تعالى: ولقد أرسلنا ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ وهم الذين كانوا يسكنون[9] مدائن الحجر بين تبوك والمدينة، وكانوا بعد عاد، فبعث الله منهم[10] ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾، فأمرهم[11] بعبادة الله وحده [لا شريك له الخالق الرازق][12]؛ ولهذا قال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أى: ابتدأ خلقكم منها، [من الأرض التى][13] خلق منها أباكم آدم، ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أى: جعلكم [فيها][14] عُمَّارًا تعمرونها وتستغلونها، «لما سلف ذنوبكم، ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ فيما تستقبلونه؛ ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية [البقرة: ١٨٦].

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣)﴾.

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح، عليه السلام، وبين قومه، وما كان عليه قومه من الجهل والعناد فى قولهم: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا﴾ أى: كنا نرجوك فى عقلك قبل أن تقول ما

---

(١ ـ ٥) زيادة من ت، أ.
(٦) زيادة من أ.
(٧) فى ت: «عليهم على رؤوس الخلائق يوم القيامة».
(٨) زيادة من ت، أ، وفى هـ: «الآية».
(٩) فى ت: «يستكبرون».
(١٠) فى ت، أ: «فيهم».
(١١) فى أ: «فأمروا».
(١٢) زيادة من أ.
(١٣، ١٤) زيادة من ت، أ.

قلت! ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾، وما كان عليه أسلافنا، ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي: [في][1] شك كثير[2].

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾، فيما أرسلني به إليكم على يقين وبرهان [من الله][3]. ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾، وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده، فلو تركته[4] لما نفعتموني ولما زدتموني ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي: خسارة.

﴿وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ (٦٨)﴾.

وتقدم الكلام على هذه القصة مستوفى في سورة «الأعراف»[5] بما أغنى عن إعادته هاهنا، وبالله التوفيق.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾، وهم الملائكة، إبراهيم بالبشرى، قيل: تبشره[6] بإسحاق، وقيل: بهلاك قوم لوط. ويشهد للأول قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤]، ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ أي: عليكم.

قال علماء[7] البيان: هذا أحسن مما حيوه به؛ لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام[8].

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ أي: ذهب[9] سريعا، فأتاهم بالضيافة، وهو عجل: فتى البقر،

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) في ت، أ: «كبير». (٣) زيادة من ت، أ.
(٤) في ت، أ: «فلو تركت ذلك».
(٥) عند تفسير الآيات: ٧٣ ـ ٧٨.
(٦) في ت: «تبشيره». (٧) في ت: «علماء». (٨) في ت، أ: «والاستقرار».
(٩) في ت: «فذهب».

حَنِيذ: [وهو][1] مَشْوِى [شياً ناضجاً][2] على الرَّضْف، وهى الحجارة المُحْماة.

هذا معنى ما روى عن ابن عباس [ومجاهد][3]، وقتادة [والضحاك، والسدى][4]، وغير واحد، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ . فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٦، ٢٧].

وقد تضمنَّت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة.

وقوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ تنكرهم، ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾. وذلك أن الملائكة لاهمة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه؛ فلهذا رأى حالهم معرضين [5] عما جاءهم به، فارغين عنه بالكلية فعند ذلك نكرهم، ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾.

قال السدّى: لما بعث الله الملائكة لقوم لوط[6]، أقبلت تمشى فى صُوَر رجال شبان[7]، حتى نزلوا على إبراهيم فتضيفوه، فلما رآهم [إبراهيم] [8] أجلّهم، ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾، فذبحه ثم شواه فى الرضف[9]. [فهو الحنيذ حين شواه] [10]وأتاهم به فقعد معهم، وقامت سارة تخدمهم[11]، فذلك حين يقول: «وامرأته قائمة وهو جالس» فى قراءة ابن مسعود: «فلما قرّبه إليهم قال ألا تأكلون قالوا: يا إبراهيم إنا لا نأكل طعاما إلا بثمن. قال فإن لهذا ثمنا. قالوا[12]: وماثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله، وتحمدونه على آخره فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال: حُق لهذا أن يتخذه ربه خليلا»، ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ يقول: فلما رآهم لا يأكلون فزع منهم، وأوجس منهم خيفة، فلما نظرت إليه [13]سارة أنه قد أكرمهم وقامت هى تخدمهم، ضحكت وقالت: عجبا لأضيافنا هؤلاء، [إنا] [14] نخدمهم بأنفسنا كرامة [15] لهم، وهم لا يأكلون طعامنا.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا نصر بن على، [حدثنا] [16] نوح بن قيس، عن عثمان بن مِحْصَن فى ضيف إبراهيم قال: كانوا أربعة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ورفائيل. قال نوح بن قيس: فزعم نوح بن أبى شداد أنهم لما دخلوا على إبراهيم، فقرب إليهم العجل، مسحه جبريل بجناحه، فقام يدرج حتى لحق بأمه، وأم العجل فى الدار.

وقوله تعالى إخبارا عن الملائكة: ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ [إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ . وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ ][17]﴾ أى قالوا: لا تخف منا، إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم[18]. فضحكت[19] سارة استبشاراً [منها] [20] بهلاكهم، لكثرة فسادهم، وغِلَظ كفرهم وعنادهم، فلهذا جوزيت بالبشارة

---

(١ - ٤) زيادة من ت، أ.
(٥) فى ت، أ: «معرضا».
(٦) فى ت، أ: «الملائكة لهلك قوم لوط».
(٧) فى ت، أ: «شباب».
(٨) زيادة من ت، أ.
(٩) فى ت: «الرصف».
(١٠) زيادة من ت، أ.
(١١) فى ت، أ: «عليهم».
(١٢) فى ت: «قال».
(١٣) فى ت: «إليهم».
(١٤) زيادة من ت، أ.
(١٥) فى ت: «تكرمة».
(١٦، ١٧) زيادة من ت، أ.
(١٨) فى ت: «إلى قوم لوط لتدمر عليهم ونهلكهم كما ذكر فى الآية الأخرى».
(١٩) فى ت: «وضحكت».
(٢٠) زيادة من ت، أ.

بالولد بعد الإياس.

وقال قتادة: ضحكت [امرأته] [١] وعجبت [من] [٢] أن قوما يأتيهم [٣] العذاب وهم في غفلة [فضحكت من ذلك وعجبت فبشرناها بإسحاق][٤].

وقوله: ﴿ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾: قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾ أي: حاضت.

وقول محمد بن قيس: إنها إنما ضحكت من أنها ظنت أنهم يريدون أن يعملوا كما يعمل قوم لوط، وقول الكلبي إنها إنما ضحكت لما رأت من الروع بإبراهيم ـ ضعيفان جدا، وإن كان ابن جرير قد رواهما بسنده إليهما، فلا يلتفت إلى ذلك، والله أعلم.

وقال وهب بن مُنَبِّه: إنما ضحكت لما بشرت بإسحاق. وهذا مخالف لهذا السياق، فإن البشارة صريحة مُرتبة على ضحكها.

﴿ فَبَشَّرْنَاهَا[٥] بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ أي: بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل؛ فإن يعقوب ولد إسحاق، كما قال في آية البقرة: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

ومن هاهنا استدل من استدل بهذه الآية، على أن الذبيح إنما هو إسماعيل، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق؛ لأنه وقعت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل[٦] صغير، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده. ووعد الله حق لا خُلْفَ فيه، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه، فتعين أن يكون هو إسماعيل وهذا من أحسن الاستدلال وأصحه وأبينه، ولله الحمد.

﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا [إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ][٧] ﴾: حكى قولها في هذه الآية، كما حكى فعلها في الآية الأخرى، فإنها: ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ ﴾، وفي الذاريات: ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾[الذاريات: ٢٩]، كما جرت به عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن عند التعجب. ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾؟ أي: قالت الملائكة لها، لا تعجبي من أمر الله، فإنه إذا أراد شيئاً أن [٨] يقول له: «كن» فيكون، فلا تعجبي من هذا، وإن كنت عجوزا [كبيرة] [٩] عقيما، وبعلك [ وهو زوجها الخليل عليه السلام، وإن كان] [١٠] شيخا كبيرا، فإن الله على ما يشاء قدير.

---

(١، ٢) زيادة من ت، أ.

(٣) في ت: «تأتيهم».

(٤) زيادة من ت.

(٥) في ت: «فبشرت».

(٦) في ت: «غلام».

(٧) زيادة من ت، أ، وفي هـ: «الآية».

(٨) في ت: «إنما».

(٩، ١٠) زيادة من ت، أ.

﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ أي: هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله محمود، ممجد في صفاته وذاته؛ ولهذا ثبت في الصحيحين أنهم قالوا: قد علمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك يارسول الله؟ قال: قولوا: «اللهم صلّ على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على [إبراهيم و][1] آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»[2].

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) ﴾.

يخبر تعالى عن [خليله] [3] إبراهيم، عليه السلام، أنه لما ذهب عنه الروع، وهو ما أوجس من الملائكة خيفة، حين لم يأكلوا، وبشروه بعد ذلك بالولد[وطابت نفسه][4]، وأخبروه بهلاك قوم لوط، أخذ يقول كما قال [5] [عنه] [6]سعيد بن جبير في الآية[7]، قال: لما جاءه جبريل ومن معه، قالوا له[8] : ﴿ إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ [إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ][9]﴾ [العنكبوت: ٣١]، قال لهم [إبراهيم][10] : أتاهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا. قال: أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا. قال: أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمنا؟ قالوا: لا. قال : ثلاثون؟ قالوا لا حتى بلغ خمسة قالوا: لا قال: أرأيتكم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا. فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك: ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ الآية [العنكبوت: ٣٢]، فسكت عنهم واطمأنت نفسه.

وقال قتادة وغيره قريبا من هذا ـ زاد ابن إسحاق: أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد؟ قالوا: لا. قال: فإن كان فيها لوط يدفع به عنهم العذاب، قالوا: ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا [لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ][11]﴾ [العنكبوت: ٣٢].

وقوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾، مدح[12] إبراهيم بهذه الصفات الجميلة، وقد تقدم تفسيرها [في سورة براءة][13].

وقوله تعالى: ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ [وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ][14]﴾

---

(١) زيادة من ت، والبخاري.

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٧٩٧) وصحيح مسلم برقم (٤٠٦) من حديث كعب بن عجرة، رضي الله عنه.

(٣، ٤) زيادة من ت، أ.

(٥) في ت : «قاله»

(٦) زيادة من ت.

(٧) في ت، أ: «في قوله: يجادلنا في قوم لوط».

(٨) في آ: «فقالوا لإبراهيم».

(٩) زيادة من ت، آ.

(١٠) زيادة من ت.

(١١) زيادة من ت، آ. وفي هـ: «الآية».

(١٢) في ت، آ: «مدح له».

(١٣) زيادة من ت، أ.

(١٤) زيادة من ت، أ، وفي هـ: «الآية».

أي: إنه قد نفذ فيهم القضاء، وحقَّت عليهم الكلمة بالهلاك، وحلول البأس الذي لا يُرد عن القوم المجرمين.

**﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) ﴾.**

يخبر تعالى عن قُدوم رسله من الملائكة [١] بعد ما أعلموا [٢] إبراهيم بهلاكهم، وفارقوه وأخبروه بإهلاك الله قوم لوط هذه الليلة. فانطلقوا من عنده، فأتوا لوطا[٣]، عليه السلام، وهو ـ على ما [٤] قيل ـ في أرض له [يعمرها][٥]، وقيل: [بل كان] [٦]في منزله، ووردوا عليه وهم في أجمل صورة تكون، على هيئة شبان [٧] حسان الوجوه، ابتلاء من الله [واختبارا][٨]، وله الحكمة والحجة البالغة، [فنزلوا عليه] [٩] فساء شأنهم وضاقت نفسه بسببهم، وخشي إن لم يُضِفْهم[١٠] أن يُضيفهم أحد من قومه، فينالهم بسوء، **﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾**.

قال ابن عباس [ومجاهد وقتادة ومحمد بن إسحاق][١١]، وغير واحد [من الأئمة] [١٢] شديد بلاؤه. وذلك أنه علم أنه سيدافع [قومه] [١٣] عنهم، ويشق عليه ذلك.

وذكر قتادة أنهم أتوه وهو في أرض له [يعمل فيها][١٤]، فتضيّفوه [١٥] فاستحيا منهم، فانطلق أمامهم وقال [١٦] لهم في أثناء الطريق، كالمعرض لهم بأن ينصرفوا عنه: إنه والله ياهؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء. ثم مشى قليلا، ثم أعاد ذلك عليهم، حتى كرره أربع مرات قال قتادة: وقد كانوا أمروا ألا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك.

وقال السدي: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية [١٧] لوط[١٨]،فبلغوا [١٩]نهر سدوم نصف النهار، ولقوا بنت [٢٠] لوط تستقي[من الماء لأهلها وكانت له ابنتان اسم الكبرى رَيثا والصغرى زغرتا][٢١]، فقالوا [لها][٢٢]: ياجارية، هل من منزل؟ فقالت [لهم][٢٣]: مكانكم حتى آتيكم، وفَرِقت عليهم من قومها، فأتت أباها فقالت: ياأبتاه، أدرك فتيانا على باب المدينة، ما رأيت

---

(١) في ت، أ: «من الملائكة الذين فارقوا إبراهيم الخليل عليه السلام بعد».

(٢) في ت، أ: «أعلموه».
(٣) في ت: «فأتوا على لوط»، وفي أ: «فأتوا لوط».
(٤) في ت، أ: «وهو فيها».

(٥، ٦) زيادة من ت، أ.
(٧) في ت، أ: «شباب».
(٨، ٩) زيادة من ت، أ.

(١٠) في ت، أ: «يضيفهم».
(١١ ـ ١٤) زيادة من ت، أ.
(١٥) في ت، أ: «فيضيفوه».

(١٦) في ت، أ: «فقال».
(١٧) في ت: «قوم».

(١٨) في ت، أ: «لوط فأتوها نصف النهار، فبلغوا».

(١٩) في ت، أ: «فلما بلغوا».
(٢٠) في ت، أ: «ابنة».
(٢١ ـ ٢٣) زيادة من ت، أ.

وجوه قوم [هي] [١] أحسن منهم، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم، و[قد][٢] كان قومه نهوه أن يضيف رجلا، فقالوا: خل عنا فلنُضيف [٣] الرجال. فجاء بهم، فلم يعلم بهم أحد إلا أهل بيته[٤]، فخرجت امرأته فأخبرت قومها [فقالت: إن في بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط][٥]، فجاؤوا [٦] يهرعون إليه.

وقوله: ﴿ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أي: يسرعون ويهرولون [في مشيتهم ويجمرون] [٧] من فرحهم بذلك [وروى في هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدى وقتادة وشمر بن عطية وسفيان بن عيينة][٨].

وقوله: ﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أي: لم يزل هذا من سجيتهم [إلى وقت آخر] [٩] حتى أخذوا وهم على ذلك الحال.

وقوله: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾: يرشدهم إلى نسائهم، فإن النبى للأمة بمنزلة الوالد[للرجال والنساء][١٠]، فأرشدهم إلى ماهو أنفع [١١] لهم في الدنيا والآخرة، كما قال لهم في الآية الاخرى: ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ . وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]، وقوله في الآية الاخرى: ﴿ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [الحجر: ٧٠] أي: ألم[١٢] ننهك عن ضيافة الرجال﴿ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ . لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧١، ٧٢]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ قال [١٣] مجاهد: لم يكن بناته، ولكن كن من أمته، وكل نبى أبو أمته.

وكذا روى عن قتادة، وغير واحد.

وقال ابن جُرَيْج: أمرهم أن يتزوجوا النساء، لم يعرض عليهم سفاحا.

وقال سعيد بن جبير: يعني نساءهم، هن بَنَاته، وهو أب لهم[١٤]، ويقال في بعض القراءات[١٥]: «النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم».

وكذا روى عن الربيع بن أنس، وقتادة، والسدي، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم.

وقوله: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾ أي: اقبلوا ما آمركم به من الاقتصار على نسائكم[١٦]، ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ أي: [ليس منكم رجل][١٧]: فيه خير، يقبل ما آمره به، ويترك ما أنهاه

---

(١، ٢) زيادة من ت،أ. (٣) في ت، أ: «فلنضيف». (٤) في ت، أ: «بيت لوط».
(٥) زيادة من ت، أ. (٦) في ت، أ: «فجاء قومه». (٧ ـ ١٠) زيادة من ت، أ.
(١١) في ت: «الانفع». (١٢) في ت، أ: «أو لم». (١٣) في ت، أ: «وقال».
(١٤) في ت، أ: «هن بناته هو نبيهم». (١٥) في ت، أ: «القراءة».
(١٦) في ت، أ: «أى اقبلوا ما آمركم به من إتيانكم نساءكم واقتصاركم عليهن وترككم الفواحش من إتيان الذكران من العالمين».
(١٧) زيادة من ت ، أ.

عنه؟

﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ أي: إنك تعلم [١] أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولانشتهيهن، ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ أي: ليس لنا غرض إلا في الذكور، وأنت تعلم ذلك، فأي حاجة في تكرار القول علينا في ذلك؟

قال السدي: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾: إنما نريد الرجال.

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط، عليه السلام: إن لوطا توعدهم بقوله[٢]: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً [أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ][٣] ﴾ أي: لكنت نكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل[من العذاب والنقمة وإحلال البأس بكم][٤] بنفسي وعشيرتي، ولهذا ورد في الحديث، من طريق محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «رحمة الله على لوط، لقد كان يأوى إلى ركن شديد - يعني: الله عز وجل - فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه»[٥].

[وروى من حديث الزهري عن أبي سلمة وسعيد بن المسيب عن أبي هريرة مرفوعاً ومن حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة به، ومن حديث ابن لهيعة عن أبي يونس سمع أبا هريرة به وأرسله الحسن وقتادة][٦].

فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم [٧]رسل الله إليه، و[وبشروه] [٨] أنهم لاوصول لهم إليه [ولا خلوص][٩]، ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾، وأمروه أن يسرى بأهله من آخر الليل، وأن يتّبع أدبارهم، أي: يكون ساقة لأهله، ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: إذا سمعت [١٠] ما نزل بهم، ولاتهولنّكم [١١] تلك الأصوات المزعجة، ولكن استمروا ذاهبين[كما أنتم][١٢].

﴿ إِلَّا امْرَأَتَكَ ﴾: قال الأكثرون: هو استثناء من المثبت[١٣]، وهو قوله: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾، تقديره: ﴿ إِلَّا امْرَأَتَكَ ﴾. وكذلك قرأها ابن مسعود ونصب هؤلاء امرأتك؛ لأنه من مثبت[١٤]،

---

(١) في ت، أ: «تعلم». (٢) في ت، أ: «عليه السلام إنه توعدهم بهذا الكلام وهو قوله».

(٣) زيادة من ت، أ، وفي هـ: «الآية». (٤) زيادة من ت، أ.

(٥) رواه الترمذي في السنن برقم (٣١١٦) من طريق الفضل بن موسى عن محمد بن عمرو به، ورواه عن طريق عبدة وعبد الرحيم عن محمد بن عمرو ونحو حديث الفضل بن موسى، وقال الترمذي: «وهذا - أي الطريق الثاني - أصح من رواية الفضل بن موسى وهذا حديث حسن».

(٦) زيادة من ت، أ. (٧) في ت: «بأنهم». (٨، ٩) زيادة من ت، أ.

(١٠) في ت، أ: «إذا سمعتم». (١١) في ت: «ولاتهولنكم». (١٢) زيادة من ت، أ.

(١٣) في ت: «من البيت». (١٤) في ت: «من بيت».

فوجب نصبه عندهم.

وقال آخرون من القراء والنحاة: هو استثناء من قوله: ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ﴾، فجوّزوا الرفع والنصب، وذكر هؤلاء [وغيرهم من الإسرائيليات][1] أنها خرجت معهم، وأنها لما سمعت الوَجْبَة التفتت وقالت[2]: واقوماه. فجاءها حجر من السماء فقتلها[3].

ثم قرّبوا له هلاك قومه تبشيراً له؛ لأنه قال لهم: «أهلكوهم الساعة»، فقالوا: ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾، هذا وقومُ لُوطٍ وقُوف على الباب وعُكوف قد جاؤوا يُهرعون إليه من كل جانب، ولوط واقف على [4] الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه، وهم لايقبلون منه، بل يتوعدونه، فعند ذلك خرج عليهم جبريل، عليه السلام، فضرب وجوههم بجناحه، فطمس أعينهم، فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ .[ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ . فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ][5] ﴾ [القمر: ٣٧ ـ ٣٩].

وقال مَعْمَر، عن قتادة، عن حذيفة بن اليمان قال: كان إبراهيم، عليه السلام، يأتي [6] قوم لوط، فيقول: أنهاكم [7] الله أن تَعَرَّضوا لعقوبته؟ فلم يطيعوه، حتى إذا بلغ الكتاب أجله [لمحل عذابهم وسطوات الرب بهم قال][8]: انتهت الملائكة إلى لوط وهو يعمل في أرض له، فدعاهم إلى الضيافة فقالوا: إنا ضيوفك [9] الليلة، وكان الله قد عهد إلى جبريل ألا يُعذبهم حتى يشهد عليهم لوط ثلاث شهادات فلما توجه بهم لوط إلى الضيافة، ذكر ما يعمل قومه من الشر [والدواهي العظام][10]، فمشى معهم ساعة، ثم التفت إليهم فقال: أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض شرا منهم. أين أذهب بكم؟ إلى قومي وهم [من] [11] أشر خلق الله، فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال: احفظوها[12]، هذه واحدة. ثم مشى معهم ساعة، فلما توسط القرية وأشفق عليهم واستحيا منهم قال: أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض أشر منهم، إن قومي أشر خلق الله. فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال: احفظوا، هاتان اثنتان، فلما انتهى إلى باب الدار بكى حياء منهم وشفقة عليهم فقال[13]: إن قومي أشر من خلق الله؟ أما تعلمون مايعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض أهل قرية شرا[14] منهم. فقال جبريل للملائكة: احفظوا، هذه ثلاث، قد حق العذاب. فلما دخلوا ذهبت عجوز السوء فصعدت فلوّحت بثوبها، فأتاها الفساق يُهرَعون سراعا، قالوا: ماعندك؟ قالت: ضَيَّف لوطاً قوم[15]، ما رأيت قط أحسن وجوها منهم، ولا أطيب ريحاً منهم. فهُرِعوا يسارعون إلى الباب، فعالجهم لوط على الباب، فدافعوه طويلا، هو داخل وهم خارج، يناشدهم الله ويقول: ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ فقام

---

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) في ت، «فقالت».
(٣) في ت: «فقتلتها».
(٤) في ت، أ: «في».
(٥) زيادة من ت، أ، وفي هـ: «الآية».
(٦) في ت، أ: «يأتيهم يعني».
(٧) في ت، أ: «أنهاكم الله عن».
(٨) زيادة من ت، أ، والطبري.
(٩) في ت: «مضيفوك».
(١٠، ١١) زيادة، ت، أ.
(١٢) في ت، أ: «احفظوا».
(١٣) في ت: «وقال».
(١٤) في ت، أ: «أشر».
(١٥) في ت، أ: «الليلة».

الملك فَلَز[١] بالباب ـ يقول: فسده [٢]ـ واستأذن جبريل فى عقوبتهم، فأذن الله له، فقام فى الصورة التى يكون فيها فى السماء، فنشر جناحه. ولجبريل جناحان، وعليه وشاح من درّ منظوم، وهو براق الثنايا، أجلى الجبين، ورأسه حُبُكٌ حُبُك مثل المرجان وهو اللؤلؤ، كأنه الثلج، ورجلاه إلى الخضرة. فقال يا لوط: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾، امض يا لوط عن الباب ودعنى وإياهم، فتنحى لوط عن الباب، فخرج إليهم، فنشر جناحه، فضرب به وجوههم ضربة شدخ أعينهم، فصاروا عُمْيًا لا يعرفون الطريق [ولا يهتدون بيوتهم][٣] ثم أمر لوط فاحتمل بأهله فى ليلته قال: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾[٤].

وروى عن محمد بن كعب [القرظى][٥]، وقتادة، والسدى نحو هذا.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)﴾.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس، ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا﴾، وهى [قريتهم العظيمة وهى][٦] سَدُوم [ومعاملتها][٧] ﴿سَافِلَهَا﴾ كقوله[٨]: ﴿[وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى][٩]. فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٣، ٥٤] أى: أمطرنا[١٠] عليها حجارة من «سجيل»، وهى بالفارسية: حجارة من طين، قاله ابن عباس وغيره.

وقال بعضهم: أى من «سنك» وهو الحجر، و«كل»[١١] وهو الطين، وقد قال فى الآية الأخرى: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣] أى: مستحجرة قوية شديدة. وقال بعضهم: مشوية، [وقال بعضهم: مطبوخة قوية صلبة][١٢]، وقال البخارى. «سِجيل»: الشديد الكبير. سجيل وسجين واحد، اللام والنون أختان، وقال تميم بن مُقبل:

وَرَجْلَةٍ يَضْرِبُون البَيْضَ ضَاحِيةً ... ضَرْبًا تواصَت به الأبطال[١٣] سِجِّينا[١٤]

وقوله: ﴿مَّنضُودٍ﴾: قال بعضهم: منضودة فى السماء، أى: معدة لذلك.

وقال آخرون: ﴿مَّنضُودٍ﴾ أى: يتبع بعضها بعضا فى نزولها عليهم.

وقوله: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أى مُعْلَمَة مختومة، عليها أسماء أصحابها، كل حجر مكتوب عليه اسم الذى ينزل عليه.

---

(١) فى آ: «فكن».
(٢) فى ت: «فشلما»، وفى أ: «سده».
(٣) زيادة من ت، آ، والطبرى.
(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (١٥/ ٤٢٩).
(٥ ـ ٧) زيادة من ت، أ.
(٨) فى ت: «كما قال تعالى».
(٩) زيادة من ت، آ.
(١٠) فى ت، أ: «أمطر».
(١١) فى ت: «وحل»، وفى أ: «وجيل».
(١٢) زيادة من ت، آ.
(١٣) فى أ: «الأباطل».
(١٤) صحيح البخارى (٨/ ٣٥٢) «فتح».

وقال قتادة وعِكْرِمة: ﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ [أي][١]: مُطَوَّقة، بها نَضْحٌ من حُمْرة.

وذكروا أنها نزلت على أهل البلد، وعلى المتفرقين في القرى مما حولها، فبينا أحدهم يكون عند[٢] الناس يتحدّث، إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس، فدمّره، فتتبعهم[٣] الحجارة من سائر البلاد، حتى أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد.

وقال مجاهد: أخذ جبريلُ قوم لوط من سَرْحهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم، ورفعهم حتى سمع أهل السماء نُباح كلابهم ثم أكفأهم[٤] [وقال][٥] وكان حملهم على خوافي[٦] جناحه الأيمن. قال: ولما قلبها كان أول ما سقط منها شُذّانها[٧].

وقال قتادة: بلغنا أن جبريل أخذ بعروة[٨] القرية الوسطى، ثم ألوَى بها إلى جو السماء، حتى سمع أهل السماء[٩] ضواغي كلابهم، ثم دمر بعضها على بعض، ثم اتبع شُذّاذ القوم سُخْراً[١٠] ـ قال: وذكر لنا أنهم كانوا أربع قرى، في كل قرية مائة ألف ـ وفي رواية: [كانوا][١١] ثلاث قرى، الكبرى منها سدوم. قال: وبلغنا أن إبراهيم، عليه السلام، كان يشرف على سَدُوم، ويقول: سدوم، يومٌ، مالَكِ؟.

وفي رواية عن قتادة وغيره: بلغنا أن جبريل، عليه السلام، لما أصبح نشر جناحه، فانتسف به أرضهم بما فيها من قُصُورها ودوابها وحجارتها وشجرها، وجميع ما فيها، فضمها في جناحه، فحواها وطواها في جوف جناحه، ثم صعد بها إلى السماء الدنيا، حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب، وكانوا أربعة آلاف ألف، ثم قلبها، فأرسلها إلى الأرض منكوسة، ودَمْدَمَ بعضها على بعض، فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعها حجارة من سجيل.

وقال محمد بن كعب القُرَظي: كانت قرى قوم لوط خمس قريات: «سدوم»، وهي العظمى، و«صعبة»[١٢] و«صعوة» و«عثرة»[١٣]، و«دوما»، احتملها جبريل بجناحه، ثم صعد بها، حتى إنّ أهل السماء الدنيا ليسمعون نابحة كلابها، وأصوات دجاجها، ثم كفأها على وجهها، ثم أتبعها الله بالحجارة، يقول الله تعالى: ﴿ جَعَلْنَا[١٤] عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾، فأهلكها الله وما حولها من المؤتفكات.

وقال السدي: لما أصبح قوم لوط: نزل جبريل فاقتلع الأرض من سبع أرضين، فحملها حتى بلغ بها السماء، حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم، وأصوات ديوكهم، ثم قلبها فقتلهم، فذلك

---

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) في ت، أ: «بين».
(٣) في ت: «فيتبعهم».
(٤) في ت، أ: «أكفاها».
(٥) زيادة من ت.
(٦) في ت، أ: «حوافي».
(٧) في ت: «شرفاتها».
(٨) في ت: «بحزوة».
(٩) في ت، أ: «سمع الملائكة».
(١٠) في ت، أ: «صخراً».
(١١) زيادة من ت، أ.
(١٢) في ت، أ: «صبعة».
(١٣) في ت، أ: «وعمرة».
(١٤) في ت، أ: «فجعلنا».

قوله[1]: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ [النجم: ٥٣]، ومن لم يمت حين سقط للأرض، أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة، ومن كان منهم شاذا في الأرض يتبعهم في القرى، فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فيقتله، فذلك قوله[2] عز وجل: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم﴾ أي: في القرى حجارة من سجيل. هكذا قال السدي.

وقوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي: وما هذه النقمة ممن تَشَبَّه بهم في ظلمهم، ببعيد[3] عنه.

وقد ورد في الحديث المروي في السنن[4]، عن ابن عباس مرفوعاً[5]: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به»[6].

وذهب الإمام الشافعي في قول عنه وجماعة من العلماء إلى أن اللائط يقتل، سواء كان محصناً أو غير[7] محصن، عملا بهذا الحديث.

وذهب الإمام أبو حنيفة [رحمه الله إلى][8] أنه يلقى من شاهق، ويُتبع بالحجارة، كما فعل الله بقوم لوط، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤)﴾.

يقول تعالى: ولقد أرسلنا إلى مدين ـ وهم قبيلة من العرب، كانوا يسكنون بين الحجاز والشام، قريباً من بلاد معان، في بلد يعرف بهم، يقال لها «مدين» فأرسل الله إليهم شعيبا، وكان من أشرفهم[9] نسباً. ولهذا قال: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده، وينهاهم عن التطفيف[10] في المكيال والميزان ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: في معيشتكم ورزقكم فأخاف أن تُسلَبوا ما أنتم فيه بانتهاككم محارم الله، ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ[11]﴾ أي: في الدار الآخرة.

---

(١) في ت، أ: «فذلك حين يقول».  (٢) في ت، أ: «قول الله».  (٣) في ت: «ببعد».

(٤) في ت، أ: «في السنن من حديث عمرو بن أبي عمرو عن عكرمة».  (٥) في ت، أ: «عن رسول الله ﷺ أنه قال».

(٦) سنن أبي داود برقم (٤٤٦٢) وسنن الترمذي برقم (١٤٥٦) وسنن ابن ماجة برقم (٢٥٦١)، وقال الترمذي: «وإنما يعرف هذا الحديث عن ابن عباس عن النبي ﷺ من هذا الوجه، وروى محمد بن إسحاق هذا الحديث عن عمرو بن أبي عمرو فقال: «ملعون من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط» ولم يذكر فيه القتل وذكر فيه: «ملعون من أتى بهيمة».

(٧) في ت، أ: «أو لم يكن محصنا».  (٨) زيادة من ت، أ.  (٩) في ت، أ: «أشرافهم».

(١٠) في أ: «التطفيف».  (١١) في ت: «عظيم».

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦)﴾.

ينهاهم[1] أولا عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين، ونهاهم عن العيث[2] في الأرض بالفساد، وقد كانوا يقطعون الطريق.

وقوله: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ﴾: قال ابن عباس: رزق الله خير لكم.

وقال الحسن: رزق الله خير [لكم][3] من بخسكم الناس.

وقال الربيع بن أنس: وصية الله خير لكم.

وقال مجاهد: طاعة الله [خير لكم][4].

وقال قتادة: حظكم من الله خير لكم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «الهلاك» في العذاب، و«البقية» في الرحمة.

وقال أبو جعفر بن جرير: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي: ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي: من أخذ أموال الناس قال: وقد روي هذا عن ابن عباس.

قلت: ويشبه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

وقوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أي: برقيب ولا حفيظ، أي: افعلوا ذلك لله عز وجل، لا تفعلوه[5] ليراكم الناس، بل لله عز وجل.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧)﴾.

يقولون له على سبيل التهكم، قبحهم الله: ﴿أَصَلَاتُكَ﴾[6]. قال الأعمش: أي: قراءتك[7]، ﴿تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أي: الأوثان والأصنام، ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾، فنترك التطفيف[8] على قولك، هي أموالنا نفعل فيها ما نريد.

[قال الحسن][9] في قوله: ﴿أَصَلَاتُكَ[10] تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾: إي والله، إن صلاته

---

(١) في ت، أ: «نهاهم».
(٢) في ت، أ: «العبث».
(٣، ٤) زيادة من ت، أ.
(٥) في ت، أ: «ولا تعملوه».
(٦) في ت، أ: «أصلواتك».
(٧) في أ: «قراءتك».
(٨) في أ: «التطفيف».
(٩) زيادة من ت، أ.
(١٠) في ت، أ: «أصلواتك».

لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم.

وقال الثوري في قوله: ﴿ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾: يعنون الزكاة.

وقولهم: ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾: قال ابن عباس، وميمون بن مِهْرَان، وابن جُرَيْج، وابن أسلم، وابن جرير: يقولون ذلك ـ أعداء الله ـ على سبيل الاستهزاء، قبحهم الله ولعنهم عن رحمته، وقد فعل.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) ﴾.

يقول لهم أرأيتم يا قوم ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: على بصيرة فيما أدعو إليه، ﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، قيل: أراد النبوة. وقيل: أراد الرزق الحلال، ويحتمل الأمرين.

وقال الثوري: ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ أي: لا أنهاكم عن شيء[1] وأخالف أنا في السر فأفعله خفية[2] عنكم، كما قال قتادة في قوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾، يقول: لم أكن لأنهاكم عن أمر وأركبه[3]، ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾ أي: فيما آمركم وأنهاكم، إنما مرادي إصلاحكم جهدي وطاقتي، ﴿وَمَا تَوْفِيقِي ﴾ أي: في إصابة الحق فيما أريده ﴿ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: أرجع، قاله مجاهد وغيره.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا أبو قَزَعَة سُوَيد بن حُجَيْر[4] الباهلي، عن حكيم بن معاوية، عن أبيه: أن أخاه مالكاً قال: يا معاوية، إن محمداً أخذ جيراني، فانطلق إليه، فإنه قد كلمك وعرفك، فانطلقت معه فقال: دع لي جيراني، فقد كانوا أسلموا. فأعرض عنه. [فقام مُتَمَعِّطًا][5]، فقال: أما والله لئن فعلتَ إن الناس يزعمون أنك تأمر بالأمر وتخالف إلى غيره. وجعلت أجرّه وهو يتكلم، فقال رسول الله ﷺ «ما تقول؟» فقال: إنك والله لئن فعلت ذلك، إن الناس ليزعمون أنك لتأمر بالأمر وتخالف إلى غيره. قال: فقال: «أوَ قد قالوها ـ أو: قائلهم ـ ولئن فعلت ذلك ما ذاك إلا عليّ، وما عليهم من ذلك من شيء، أرسلوا له جيرانه»[6].

وقال أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن بَهْز[7] بن حكيم، عن أبيه، عن جده

---

(١) في ت، أ: «الشيء».
(٢) في ت: «خيفة».
(٣) في أ: «وأرتكبه».
(٤) في ت: «ابن حجر».
(٥) زيادة من ت، أ، والمسند.
(٦) المسند (٤/٤٤٧).
(٧) في ت، أ: «شهر».

قال: أخذ النبي ﷺ ناساً من قومي في تُهَمة فحبسهم، فجاء رجل من قومي إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب، فقال: يا محمد، علام تحبس جيرتي؟ فصَمَت رسول الله ﷺ [عنه][1] فقال: إن ناساً ليقولون: إنك تنهى عن الشيء وتستخلي به، فقال النبي ﷺ: «ما يقول؟» قال: فجعلت أعرض بينهما الكلام مخافة أن يسمعها فيدعو على قومي دَعوة لا يفلحون بعدها أبداً، فلم يزل رسول الله ﷺ به حتى فهمها، فقال: «أو قد قالوها ـ أو: قائلها منهم ـ والله لو فعلتُ لكان عليَّ وما كان عليهم، خلوا له عن جيرانه»[2].

ومن هذا القبيل الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا سليمان بن بلال، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، عن عبد الملك بن سعيد بن سويد الأنصاري قال: سمعت أبا حميد وأبا أسيد يقولان: قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب، فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عني تُنكره قلوبكم، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه»[3].

هذا [4] إسناد صحيح، وقد أخرج مسلم بهذا السند حديث: «إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: اللهم، افتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج فليقل: اللهم، إني أسألك من فضلك»[5].

ومعناه ـ والله أعلم ـ: مهما بلغكم عني من خير فأنا أولاكم به ومهما يكن من مكروه فأنا أبعدكم منه، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ [عَنْهُ][6]﴾.

وقال قتادة، عن عَزْرَة[7]، عن الحسن العُرَني، عن يحيى بن الجزار، عن مسروق، أن امرأة جاءت ابن مسعود قالت[8]: أتنهى عن الواصلة؟ قال: نعم. فقالت [المرأة] [9] فلعله في بعض نسائك؟ فقال: ماحفظت إذا وصية العبد الصالح: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾.

وقال عثمان بن أبي شيبة: حدثنا جرير، عن أبي سليمان العتبي [10] قال: كانت تجيئنا كتب عمر ابن عبد العزيز فيها الأمر والنهي، فيكتب في آخرها: وما كانت [11] من ذلك إلا كما قال العبد الصالح: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

---

(١) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٢) المسند (٥/٢) ورواه أبو داود في السنن برقم (٣٦٣٠) عن عبد الرزاق والترمذي في السنن برقم (١٤١٧) عن ابن المبارك كلاهما من طريق معمر به مختصراً جداً، وقال الترمذي: «حديث بهز عن أبيه عن جده حديث حسن».

(٣) المسند (٤٩٧/٣).

(٤) في ت، أ: «وهذا».

(٥) صحيح مسلم برقم (٧١٣).

(٦) زيادة من ت، أ.    (٧) في ت، أ: «عروة».    (٨) في ت: «فقالت».

(٩) زيادة من ت، أ.    (١٠) في ت، أ: «القيسي».    (١١) في ت: «وما كنت»، وفي أ: «وما كتب».

﴿ وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) ﴾.

يقول لهم: ﴿ وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ﴾ أي: لاتحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط من النقمة والعذاب.

قال قتادة: ﴿ وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ﴾ يقول: لا يحملنكم فراقي.

وقال السدي: عداوتي، على أن تتمادوا في الضلال والكفر، فيصيبكم من العذاب ما أصابهم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج، حدثنا ابن أبي غَنِيَّة، حدثني عبد الملك بن أبي سليمان، عن أبي ليلى الكندي قال: كنت مع مولاي أمسك دابته، وقد أحاط الناس بعثمان بن عفان، إذ أشرف علينا من داره فقال: ﴿ وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ﴾، ياقوم، لاتقتلوني، إنكم إن تقتلوني كنتم هكذا، وشبَّك بين أصابعه.

وقوله: ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ ،[قيل: المراد في الزمان، كما قال قتادة في قوله: ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ يعني][1]: إنما أهلكوا [2] بين أيديكم بالأمس، وقيل: في المكان، ويحتمل الأمران، ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾، أي: استغفروه من سالف الذنوب ، وتوبوا فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة، ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾أي: لمن تاب وأناب.

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) ﴾.

يقولون ﴿ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾أي: مانفهم ولانعقل كثيراً من قولك، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب. ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾.

قال [3] سعيد بن جبير، والثوري: كان ضرير البصر. قال الثوري: وكان يقال له: خطيب الأنبياء.

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) في ت: «أهلكوا». (٣) في ت: «وقال».

[وقال السدي: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قال: أنت واحد][1].

[وقال أبو روق: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ يعنون: ذليلا؛ لأن عشيرتك ليسوا على دينك، فأنت ذليل ضعيف][2].

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أي: قومك وعشيرتك؛ لولا معزة قومك علينا لرجمناك، قيل[3]: بالحجارة، وقيل: لسببناك، ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي: ليس لك عندنا معزة.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾: يقول: أتتركوني لأجل قومي، ولاتتركوني إعظاما لجناب الله أن تنالوا نبيه بمساءة. وقد اتخذتم جانب الله ﴿وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي: نبذتموه خلفكم، لاتطيعونه ولاتعظمونه، ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي: هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزيكم بها.

**﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)﴾.**

لما يئس نبي الله شعيب من استجابة قومه له، قال: ياقوم، ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على طريقتكم، وهذا تهديد ووعيد شديد، ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾، على طريقتي ومنهجي ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: في الدار الآخرة، ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ أي: مني ومنكم، ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ أي: انتظروا ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، وهم قومه، ﴿الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ وقوله: ﴿جَاثِمِينَ﴾ أي: هامدين لاحراك بهم. وذكر هاهنا أنهم أتتهم صيحة، وفي الأعراف رجفة، وفي الشعراء عذاب يوم الظلة، وهم أمة واحدة، اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقمُ كلها. وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه، ففي الأعراف لما قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، ناسب أن يذكر هناك الرجفة، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها، وأرادوا إخراج نبيهم منها، وهاهنا لما أساؤوا الأدب في مقالتهم على نبيهم ناسب ذكر الصيحة التي أسكتتهم[4] وأخمدتهم، وفي الشعراء لما قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، قال: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، وهذا من الأسرار الغريبة الدقيقة، ولله الحمد والمنة كثيراً دائماً.

---

(١، ٢) زيادة من ت، أ. (٣) في ت: «قتل». (٤) في ت، أ: «أسكنتهم».

وقوله: ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ أى: يعيشوا فى دارهم قبل ذلك، ﴿ أَلا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾، وكانوا جيرانهم قريباً منهم فى الدار، وشبيهاً بهم فى الكفر وقطع الطريق، وكانوا عربا شبههم.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن إرساله موسى، عليه السلام، بآياته وبيناته وحججه ودلائله الباهرة القاطعة إلى فرعون لعنه الله، وهو ملك ديار مصر على أمة القبط، ﴿ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ أى: مسلكه ومنهجه وطريقته فى الغى والضلال، ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ أى: ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال، وكفر وعناد، وكما أنهم أتبعوه فى الدنيا، وكان مُقَدمهم ورئيسهم، كذلك هو يَقْدُمهم يوم القيامة إلى نار جهنم، فأوردهم إياها، وشربوا من حياض[1] رَدَاها، وله فى ذلك الحظ الأوفر، من العذاب الأكبر، كما قال تعالى: ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ [المزمل: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ . ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ . فَحَشَرَ فَنَادَىٰ . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ . فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ [النازعات: ٢١ ـ ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾، وكذلك شأن المتبوعين يكونون مُوفرين فى العذاب يوم المعاد، كما قال تعالى: ﴿[ قَالَ ][2] لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف: ٣٨]، وقال تعالى إخباراً عن الكفرة أنهم يقولون فى النار: ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا . رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْم، حدثنا أبو الجهم، عن الزهرى، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «امرؤ القيس حامل لواء شعراء الجاهلية إلى النار»[3].

وقوله: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾أى: أتبعناهم زيادة على ما جازيناهم من عذاب النار لعنة فى هذه الحياة الدنيا، ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾.

قال مجاهد: زيدوا لعنة يوم القيامة، فتلك لعنتان.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ قال: لعنة الدنيا والآخرة، وكذا

---

(١) فى ت: «حياض».

(٢) زيادة من ت، أ.

(٣) المسند (٢/ ٢٢٨).

قال الضحاك، وقتادة، وهكذا قوله[1] تعالى: ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون. وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ [القصص: ٤١، ٤٢]، وقال تعالى: ﴿ النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ [غافر: ٤٦].

﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد (١٠٠) وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب (١٠١) ﴾.

لما ذكر تعالى خبر هؤلاء الأنبياء، وماجرى لهم مع أممهم، وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين قال: ﴿ ذلك من أنباء القرى ﴾ أي: من أخبارها ﴿ نقصه[2] عليك منها قائم ﴾ أي: عامر. ﴿ وحصيد ﴾ أي: هالك دائر، ﴿ وما ظلمناهم ﴾ أي: إذ أهلكناهم، ﴿ ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ أي: بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم، ﴿ فما أغنت عنهم آلهتهم ﴾ أي: أصنامهم وأوثانهم التي كانوا يعبدونها ويدعونها، ﴿ من دون الله من شيء ﴾ أي: مانفعوهم ولا أنقذوهم لما جاء أمر الله بإهلاكهم، ﴿ وما زادوهم غير تتبيب[3] ﴾.

قال مجاهد، وقتادة، وغيرهما: أي غير تخسير، وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة وعبادتهم إياها[4]، فبهذا أصابهم ما أصابهم، وخسروا بهم، في الدنيا والآخرة.

﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد (١٠٢) ﴾.

يقول تعالى: وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا كذلك نفعل بنظائرهم وأشباههم وأمثالهم، ﴿ إن أخذه أليم شديد ﴾ وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[5].

﴿ إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود (١٠٣) وما نؤخره إلا لأجل معدود (١٠٤) يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد (١٠٥) ﴾.

---

(١) في ت، أ: «وهذا كقوله».
(٢) في ت: «نقصها» وهو خطأ.
(٣) في ت: «تتبيب».
(٤) في ت: «إياهم».
(٥) صحيح البخاري برقم (٤٦٨٦) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٣).

واعتبارا على صدق موعودنا في الدار الآخرة، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ[١] يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾أي: أولهم وآخرهم، فلا يبقى منهم أحد، كما قال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي: يوم عظيم تحضره الملائكة كلهم، ويجتمع فيه الرسل جميعهم، وتحشر فيه الخلائق بأسرهم، من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب، ويحكم فيهم [٢] العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها.

وقوله: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي: ما نؤخر إقامة يوم القيامة إلا لأنه [٣] قد سبقت كلمة الله وقضاؤه وقدره، في وجود أناس معدودين من ذرية آدم، وضرب مدة معينة إذا انقضت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم من ذرية آدم، أقام الله الساعة، ولهذا قال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي: لمدة مؤقتة لا يزاد عليها ولا ينقص منها، ﴿يَوْمَ يَأْتِ[٤] لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، يقول: يوم يأتي هذا اليوم وهو يوم القيامة، لا يتكلم أحد [يومئذ] [٥] إلا بإذن الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة الطويل: «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلّم سلّم[٦]»[٧].

وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾أي: فمن أهل الجمع شقي ومنهم سعيد، كما قال: ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧].

وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا موسى بن حيان، حدثنا عبد الملك بن عمرو، حدثنا سليمان بن[٨] سفيان، حدثنا عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، عن عمر [٩] رضي الله عنه، قال: لما نزلت ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، سألت النبي ﷺ، قلت[١٠]: يارسول الله، علام نعمل[١١]؟ على شيء قد فُرغ منه، أم على شيء لم يفرغ منه؟ فقال: «على شيء قد فرغ منه ياعمر وجرت به الأقلام،

---

(١) قبلها في ت، أ: «إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة».

(٢) في أ: «فيه». (٣) في ت، أ: «إلا أنه». (٤) في ت: «يأتي» وفي أ: «يأتيهم».

(٥) زيادة من ت. (٦) في ت: «اللهم سلم اللهم سلم».

(٧) صحيح البخاري برقم (٨٠٦) وصحيح مسلم برقم (١٨٢).

(٨) في ت، أ: «أبو». (٩) في أ: «عمر بن الخطاب». (١٠) في ت: «فقلت».

(١١) في ت: «على ما يعمل».

ولكن كل ميسر لما خلق له»[1].

ثم بين[2] تعالى حال الأشقياء وحال السعداء، فقال:

**﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) ﴾.**

يقول تعالى: ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾، قال ابن عباس: الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر أي: تنفسهم زفير، وأخذهم النفس شهيق، لما هم فيه من العذاب، عياذاً بالله من ذلك.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾: قال الإمام أبو جعفر بن جرير: من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت: «هذا دائم دوامَ السموات والأرض»، وكذلك يقولون: هو باقٍ ما اختلف الليلُ والنهار، وما سمر ابنا سَمير، وما لألأت العُفْر[3] بأذنابها. يعنون بذلك كلمة: «أبدا»، فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم، فقال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾.

قلت: ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرض: الجنس؛ لأنه لابدَّ في عالم الآخرة من سموات وأرض، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]؛ ولهذا قال الحسن البصري في قوله: ﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾، قال: تبدل سماء غير[4] هذه السماء، وأرض غير هذه الأرض، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض.

وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن سفيان بن حسين، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس قوله: ﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾، قال: لكل جنة سماء وأرض.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: مادامت الأرض أرضاً، والسماء سماءً.

وقوله: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾، كقوله تعالى: ﴿ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء، على أقوال كثيرة، حكاها الشيخ أبو الفرج بن الجوزي في كتابه «زاد المسير»[5]، وغيره من علماء التفسير، ونقل كثيراً منها الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله، في كتابه[6] واختار هو مانقله عن خالد بن مَعْدان، والضحاك، وقتادة، وأبي سِنَان، ورواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن أيضاً: أن الاستثناء عائد على العُصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، من الملائكة والنبيين والمؤمنين، حين يشفعون

(١) ورواه الترمذي في السنن برقم (٣١١١) عن بندار، عن أبي عامر العقدي ـ عبد الملك بن عمرو به ـ وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه لانعرفه إلا من حديث عبد الملك بن عمرو».

(٢) في أ: «وبين». (٣) في ت: «الغفر». (٤) في ت: «يبدل بهما غيره».

(٥) زاد المسير (٤/ ١٦٠، ١٦١).

(٦) تفسير الطبري (١٥/ ٤٨٥).

التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، من الملائكة والنبيين والمؤمنين، حين يشفعون في أصحاب الكبائر، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين، فتخرج من النار من لم يعمل خيرا قط، وقال يوما من الدهر: لا إله إلا الله. كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك من حديث أنس، وجابر، وأبي سعيد، وأبي هريرة، وغيرهم من الصحابة[١]، ولايبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ولا محيد له عنها. وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً في تفسير هذه الآية الكريمة.

وقد روي في تفسيرها عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وابن عباس، وابن مسعود[٢]، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وجابر، وأبي سعيد، من الصحابة. وعن أبي مِجْلَز، والشعبي، وغيرهما من التابعين. وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وإسحاق بن راهويه وغيرهم من الأئمة ـ أقوال غريبة. وورد حديث غريب في معجم الطبراني الكبير، عن أبي أمامة صُدَيّ بن عجلان الباهلي، ولكن سنده ضعيف، والله أعلم.

وقال قتادة: الله أعلم بثنياه.

وقال السدي: هي منسوخة بقوله: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾[النساء: ٥٧].

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا ﴾ وهم أتباع الرسل، ﴿ فَفِي الْجَنَّةِ ﴾ أي: فمأواهم الجنة، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين مقيمين فيها أبدا، ﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾. معنى الاستثناء هاهنا: أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم، ليس أمرا واجبا بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم [دائما][٣]، ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النَّفَس.

وقال الضحاك، والحسن البصري: هي في حق عصاة الموحدين الذين كانوا في النار، ثم أخرجوا منها. وعقب ذلك بقوله: ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ أي: غير مقطوع[٤] ـ قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية وغير واحد، لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثَمّ انقطاعاً، أو لبساً، أو شيئاً[٥]، بل ختم له بالدوام وعدم الانقطاع. كما بين هنا[٦] أن عذاب أهل النار في النار دائما مردود إلى مشيئته، وأنه[٧] بعدله وحكمته عذبهم؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ [هود: ١٠٧]، كما قال: ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وهنا طيب القلوب وثَبَّت المقصود بقوله: ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾.

---

(١) انظر أحاديث الشفاعة عند تفسير سورة الإسراء في أولها.

(٢) في ت: «وابن مسعود وابن عباس».

(٣) زيادة من ت، أ.

(٤) في أ: «منقطع».

(٥) في ت: «ثم تقطع أو لبس أو شيء».

(٦) في ت، أ: «هناك».

(٧) في ت: «وأن».

ياأهل الجنة، خلُود فلا [١] موت، ويا أهل النار، خلود فلا [٢] موت»[٣].

وفي الصحيحين [٤] أيضا: «فيقال[٥]: يا أهل الجنة، إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن تشبوا فلا تَهْرَموا أبدا، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا»[٦].

﴿ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) ﴾.

يقول تعالى: ﴿فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ﴾ المشركون، أنه باطل وجهل وضلال، فإنهم إنما يعبدون مايعبد آباؤهم من قبل، أي: ليس لهم مُستَنَد فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات، وسيجزيهم الله على ذلك أتم الجزاء فيعذب كافرهم عذاباً لا يعذبه أحدا من العالمين، وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة.

قال سفيان الثوري، عن جابر الجُعْفي، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ ، قال: ما [٧]وعدوا فيه من خير أو شر.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لموفوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص. ثم ذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب، فاختلف الناس فيه، فمن مؤمن به، ومن كافر به، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يامحمد أسوة، فلا يغيظنك تكذيبهم لك، ولايهيدنَّك ذلك.

﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾: قال ابن جرير: لولا ماتقدم من تأجيله العذاب [٨] إلى أجل معلوم، لقضى الله بينهم.

ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحدا إلا بعدم [٩] قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه، كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥]؛ فإنه قد قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى. فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ [طه: ١٢٩، ١٣٠].

---

(١، ٢) في ت، أ: «بلا».

(٣) صحيح البخاري برقم (٤٧٣٠) وصحيح مسلم برقم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) في أ: «وفي الصحيح». (٥) في ت، أ: «فقال».

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٨٣٧) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما، ولم أعثر عليه في البخاري.

(٧) في ت: «وعدوا». (٨) في ت: «العادة» وفي أ: «الميعاد». (٩) في ت، أ: «إلا بعد».

ثم أخبر أن الكافرين في شك ـ مما جاءهم به الرسول ـ قوي، فقال: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾.

ثم أخبرنا [١] تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم، ويجزيهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فقال: ﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي: عليم بأعمالهم جميعها، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها.

وفي هذه الآية قراءات كثيرة، ويرجع معناها إلى هذا الذي ذكرناه، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٣٢].

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (١١٣) ﴾.

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد ونهى عن الطغيان، وهو البغي، فإنه مَصرَعة حتى ولو كان على مشرك. وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد، لا يغفل عن شيء، ولا يخفى عليه شيء.

وقوله: ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: لا تُدهنوا.

وقال العوفي، عن ابن عباس: هو الركون إلى الشرك.

وقال أبو العالية: لا ترضوا أعمالهم.

وقال ابن جُرَيْج، عن ابن عباس: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا وهذا القول حسن، أي: لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بباقي صنيعهم، ﴿ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴾ أي: ليس لكم من دونه [٢] من ولي ينقذكم، ولاناصر يخلصكم من عذابه.

﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) ﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ قال: يعني الصبح والمغرب وكذا قال الحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال الحسن ـ في رواية ـ وقتادة، والضحاك، وغيرهم: هي الصبح والعصر.

وقال مجاهد: هي الصبح في أول النهار، والظهر والعصر من آخره. وكذا قال محمد بن كعب القُرَظي، والضحاك في رواية عنه.

---

(١) في ت، أ: «ثم أخبر».

(٢) في أ: «من دون الله».

وقوله: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغيرهم: يعني صلاة العشاء.

وقال الحسن ـ في رواية ابن المبارك، عن مبارك بن فَضَالة، عنه: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ يعني: المغرب والعشاء قال رسول الله ﷺ: «هما زُلْفَتَا[1] الليل: المغرب والعشاء»[2]. وكذا قال مجاهد، ومحمد بن كعب، وقتادة، والضحاك: إنها صلاة المغرب والعشاء.

وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء؛ فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها. وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة، ثم نسخ في حق الأمة، وثبت وجوبه عليه، ثم نسخ عنه أيضاً، في قول، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، يقول: إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال: كنت إذا سمعتُ من رسول الله ﷺ حديثا نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه، وإذا حدثني عنه أحد استحلفته، فإذا حلف لي صدقته، وحدثني أبو بكر ـ وصدق أبو بكر ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مامن مسلم يذنب ذنبا، فيتوضأ ويصلي ركعتين، إلا غفر له»[3].

وفي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان: أنه توضأ لهم كوُضوء رسول الله ﷺ، ثم قال: هكذا رأيتُ رسول الله يتوضأ، وقال: «من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يُحَدِّث فيهما نفسه، غُفِرَ له ماتقدم من ذنبه»[4].

وروى الإمام أحمد، وأبو جعفر بن جرير، من حديث أبي عَقِيل زُهْرَة بن مَعْبَد: أنه سمع الحارث مولى عثمان يقول: جلس عثمان يوما وجلسنا معه، فجاءه المؤذن، فدعا عثمان بماء في إناء أظنه سيكون فيه قدر مُدّ، فتوضأ، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئي هذا، ثم قال: «من توضأ وضوئي هذا، ثم قام فصلى[5] صلاة الظهر، غُفِر له ما كان بينه وبين صلاة الصبح، ثم صلى العصر غفر له مابينه وبين صلاة الظهر، ثم صلى المغرب غفر له ما بينه وبين صلاة العصر، ثم صلى العشاء غفر له مابينه وبين صلاة المغرب، ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته، ثم إن قام فتوضأ وصلى الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء، وهن الحسنات يذهبن السيئات»[6].

وفي الصحيح[7] عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أرأيتم لو أن

---

(١) في ت: «زلفى».

(٢) رواه الطبري في تفسيره (١٥/ ٥٠٨).

(٣) المسند (١/ ٢) وسنن أبي داود برقم (١٥٢١) وسنن الترمذي برقم (٤٠٦) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١٠٢٤٧) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٩٥) وقال الترمذي: «حديث علي حديث حسن، لانعرفه إلا من هذا الوجه».

(٤) صحيح البخاري برقم (١٥٩) وصحيح مسلم برقم (٢٤٥).

(٥) في ت: «يصلي».

(٦) المسند (١/ ٧١) وتفسير الطبري (١٥/ ٥١١).

(٧) في ت: «وفي الصحيحين».

بباب أحدكم نهراً غَمْراً يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يُبقي من درنه شيئا؟» قالوا: لا، يارسول الله. قال: «وكذلك الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الذنوب والخطايا»[١].

وقال مسلم في صحيحه: حدثنا أبو الطاهر[٢] وهارون بن سعيد قالا: حدثنا ابن وَهْب، عن أبي صخر: أن عمر بن إسحاق مولى زائدة حَدّثه عن أبيه، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مُكَفِّرَات ما بينهن إذا[٣] اجتنبت الكبائر»[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحكَم بن نافع[٥]، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن ضَمْضَم بن زُرْعَة، عن شُرَيْح بن عبيد، أن أبا رُهْم السمعي كان يحدّث: أن أبا أيوب الأنصاري حدثه أن النبي ﷺ كان يقول: «إن كل صلاة تحطّ ما بين يديها من خطيئة»[٦].

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا محمد بن عوف[٧]، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبي، عن ضمضم بن زرعة، عن شريح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «جعلت الصلوات كفارات لما بينهن؛ فإن الله قال: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾»[٨].

وقال البخاري: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا يزيد بن زُرَيع، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان النهدي، عن ابن مسعود؛ أن رجلا أصاب من امرأة قُبْلَة، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، فقال الرجل: ألي هذا يا رسول الله؟[٩] قال: «لجميع أمتي كلهم».

هكذا رواه في كتاب الصلاة، وأخرجه في التفسير عن مُسَدَّد، عن يزيد بن زُرَيع، بنحوه[١٠]. ورواه مسلم، وأحمد، وأهل السنن إلا أبا داود، من طرق عن أبي عثمان النهدي، واسمه عبدالرحمن ابن مُلّ، به[١١].

وروى الإمام أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن جرير ـ وهذا لفظه ـ

---

(١) صحيح البخاري برقم (٥٢٨) وصحيح مسلم برقم (٦٦٧).

(٢) في ت: «أبو طاهر». (٣) في ت: «ما».

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٣٣).

(٥) في أ: ابن رافع.

(٦) المسند (٥/٤١٣).

(٧) في ت: «عون».

(٨) تفسير الطبري (١٥/٥١٣) ومحمد بن إسماعيل ضعيف ولم يسمع من أبيه.

(٩) في ت: «يا رسول الي هذا».

(١٠) صحيح البخاري برقم (٥٢٦) وبرقم (٤٦٨٧).

(١١) وصحيح مسلم برقم (٢٧٦٣) والمسند (١/٣٨٥) وسنن الترمذي برقم (٣١١٤) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٢٤٧) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٩٨).

من طُرُق: عن سِمَاك بن حرب: أنه سمع إبراهيم بن يزيد يُحدِّث عن علقمة والأسود، عن ابن مسعود قال: جاء رجل إلى النبي[1] ﷺ فقال: يا رسول الله، إني وجدت امرأة في بستان، ففعلت بها كل شيء، غير أني لم أجامعها، قبَّلتها ولزمتها، ولم أفعل غير ذلك، فافعل بي ما شئت. فلم يقل رسول الله ﷺ شيئا، فذهب الرجل، فقال عمر: لقد ستر الله عليه، لو ستر على نفسه. فأتبعه رسول الله ﷺ بصرَه ثم قال: «ردوه عليّ». فردّوه عليه، فقرأ عليه: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾. فقال معاذ ـ وفي رواية عمر ـ: يا رسول الله، أله وحده، أم للناس كافة؟ فقال: «بل للناس كافة»[2].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا أبان بن إسحاق، عن الصباح بن محمد، عن مُرَّة الهَمْداني، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم[3]، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي[4] الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين[5] إلا من أحب. فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده، لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه». قال: قلنا: وما بوائقه يا نبي الله[6]؟ قال: «غشه وظلمه، ولا يكسِبُ عبد مالا حراما فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زادَه إلى النار، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»[7].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو السائب، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم قال: كان فلان بن معتب رجلا من الأنصار، فقال: يا رسول الله، دخلت على امرأة فنلْتُ منها ما ينال الرجل من أهله، إلا أني لم أجامعها فلم يدر رسول الله ﷺ ما يجيبه، حتى نزلت هذه الآية: ﴿ وَأَقِمِ[8] الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾. فدعاه رسول الله، فقرأها عليه[9].

وعن ابن عباس: أنه عمرو بن غَزِيَّة الأنصاري التمار. وقال مقاتل: هو أبو نفيل عامر بن قيس الأنصاري، وذكر الخطيب البغدادي أنه أبو اليَسر: كعب بن عمرو.

---

(١) في ت، أ: «رسول الله».

(٢) المسند (١/ ٤٤٥) وصحيح مسلم برقم (٢٧٦٣) وسنن أبي داود برقم (٤٤٦٨) وسنن الترمذي برقم (٣١١٢) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٧٣٢٣) وتفسير الطبري (١٥/ ٥١٥).

(٣) في ت، أ: «آجالكم».   (٤) في ت: «معطي».   (٥) في ت، أ: «الآخرة».

(٦) في أ: «يا رسول الله».

(٧) المسند (١/ ٣٨٧).

(٨) في ت، أ: «أقم» وهو خطأ.

(٩) تفسير الطبري (١٥/ ٥١٩).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس وعفان قالا: حدثنا حماد ـ يعني: ابن سلمة ـ عن علي بن زيد ـ قال عفان: أنبأنا علي بن زيد، عن يوسف بن مِهْرَان، عن ابن عباس؛ أن رجلا أتى عمر قال[١]: امرأة جاءت تبايعه، فأدخلتها الدولج، فأصبت منها ما دون الجماع، فقال: ويحك. لعلها مُغِيبة في سبيل الله؟ قال: أجل. قال: فائت أبا بكر فاسأله[٢]. قال: فأتاه فسأله، فقال: لعلها مُغِيبة في سبيل الله؟ فقال مثل قول عمر، ثم أتى النبي ﷺ فقال له مثل ذلك، قال: «فلعلها مُغِيبة في سبيل الله». ونزل القرآن: ﴿وَأَقِمِ[٣] الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ إلى آخر الآية، فقال: يا رسول الله، إليّ خاصة أم للناس عامة؟ فضرب ـ يعني: عمر ـ صدره[٤] بيده وقال: لا، ولا نُعمَة عين، بل للناس عامة. فقال رسول الله ﷺ: «صدق عمر»[٥].

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير من حديث قيس بن الربيع، عن عثمان بن موهب، عن موسى ابن طلحة، عن أبي اليسر كعب بن عمرو الأنصاري قال: أتتني امرأة تبتاع مني بدرهم تمرا، فقلت: إن في البيت تمرا أطيب وأجود من هذا، فدخلت، فأهويت إليها فقبلتها، فأتيت عمر فسألته، فقال: اتق الله، واستر على نفسك، ولا تخبرنّ أحدا. فلم أصبر حتى أتيت أبا بكر فسألته، فقال: اتق الله، واستر على نفسك، ولا تخبرنّ أحدا. قال: فلم أصبر حتى أتيت النبي ﷺ، فأخبرته، فقال: «أخَلَفْتَ رجلا غازيا في سبيل الله في أهله بمثل هذا؟» حتى ظننت أني من أهل النار، حتى تمنيت أني أسلمت ساعتئذ. فأطرق رسولُ الله ﷺ ساعة، فنزل جبريل، فقال: «[أين][٦] أبو اليسر؟». فجئت، فقرأ علي: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ إلى ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾، فقال إنسان: يارسول لله، أله خاصة أم للناس عامة؟ قال[٧]: «للناس عامة»[٨].

وقال الحافظ أبو الحسن الدارقطني: حدثنا الحسين بن إسماعيل المحاملي، حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا جرير، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن معاذ بن جبل؛ أنه كان قاعدا عند النبي ﷺ فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، ما تقول في رجل أصاب من امرأة لا تحل له، فلم يدع شيئا يصيبه الرجل من امرأته إلا قد أصاب منها، غير أنه لم يجامعها؟ فقال له النبي ﷺ: «توضأ وضوءا حَسَنا، ثم قم فصل»[٩]. قال: فأنزل الله عز وجل هذه الآية، يعني قوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾، فقال معاذ: أهي له خاصة أم للمسلمين عامة؟ قال: «بل للمسلمين عامة».

---

(١) في ت: «فقال». (٢) في ت: «فسله». (٣) في ت، أ: «أقم» وهو خطأ.

(٤) في ت: «عن صدره».

(٥) المسند (١/٢٤٥) وعلي بن زيد ضعيف.

(٦) زيادة من ت، أ، والطبري. (٧) في ت: «فقال».

(٨) تفسير الطبري (١٥/٥٢٣).

(٩) في ت: «فصلي».

ورواه ابن جرير من طرق، عن عبد الملك بن عمير، به[١].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا محمد بن مسلم، عن عمرو بن دينار، عن يحيى بن جعدة؛ أن رجلا من أصحاب النبى ﷺ ذكر امرأة وهو جالس مع رسول الله ﷺ، فاستأذنه لحاجة، فأذن له، فذهب يطلبها فلم يجدها، فأقبل الرجل يريد أن يبشر النبى ﷺ بالمطر، فوجد المرأة جالسة على غدير، فدفع فى صدرها وجلس بين رجليها، فصار ذكره مثل الهُدْبة، فقام نادما حتى أتى النبى ﷺ فأخبره بما صنع، فقال له: «استغفر ربك، وصلّ أربع ركعات». قال: وتلا عليه: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ الآية[٢].

وقال ابن جرير: حدثنى عبد الله بن أحمد بن شَبّويه، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنى عمرو ابن الحارث حدثنى عبد الله بن سالم، عن الزبيدى، عن سليم بن عامر؛ أنه سمع أبا أمامة يقول: إن رجلا أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، أقم فىّ حد الله ـ مرة أو ثنتين ـ فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ثم أقيمت الصلاة، فلما فرغ النبى ﷺ من الصلاة قال: «أين هذا الرجل القائل: أقم فىّ حد الله؟» قال: أنا ذا: قال: «أتممت الوضوء وصليت معنا آنفا؟» قال: نعم. قال: «فإنك من خطيئتك كما ولدتك أمك، ولا تعد». وأنزل الله على رسول الله ﷺ[٣]: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أنبأنا على بن زيد، عن أبى عثمان قال: كنت مع سلمان الفارسى تحت شجرة، فأخذ منها غصْنا يابسا فهزّه حتى تحاتّ ورقة[٥]، ثم قال: يا أبا عثمان، ألا تسألنى لم أفعل هذا؟ فقلت: لم تفعله[٦]؟ قال: هكذا فعل بى رسول الله ﷺ وأنا معه تحت شجرة، فأخذ منها يابساً فهزه حتى تحاتّ ورقة، فقال: «يا سلمان، ألا تسألنى: لم أفعل هذا؟». قلت: ولم تفعله؟ فقال: «إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم صلى الصلوات الخمس، تحاتت خطاياه كما يتحات[٧] هذا الورق. وقال: ﴿وَأَقِمِ[٨] الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾»[٩].

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن حبيب بن أبى ثابت، عن ميمون بن أبى

---

(١) سنن الدارقطني (١/ ١٣٤) وتفسير الطبرى (١٥/ ٥٢٠ ـ ٥٢٢) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣١١٣) من طريق عبد الملك بن عمير به، وقال الترمذى: «هذا حديث ليس إسناده بمتصل، عبد الله بن أبى ليلى لم يسمع من معاذ، وروى شعبة هذا الحديث عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن النبى ﷺ، مرسلا».

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٧٤).

(٣) فى ت: «على رسوله».

(٤) تفسير الطبرى (١٥/ ٥٢١) ورواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٧٦٥) من طريق شداد بن عبد الله، عن أبى أمامة بنحوه.

(٥) فى ت، أ: «ورقه». (٦) فى ت: «قلت ولم يفعله». (٧) فى ت: «يتحاتت».

(٨) فى ت: «أقم» وهو خطأ.

(٩) المسند (٥/ ٤٣٧).

شبيب، عن معاذ، رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال له: «يا معاذ، أتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[١].

وقال الإمام أحمد، رضي الله عنه: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن حبيب، عن ميمون بن أبي شبيب، عن أبي ذر؛ أن رسول[٢] الله ﷺ قال: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[٣].

وقال أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شَمِر بن عطية، عن أشياخه، عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، أوصني. قال: «إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها». قال: قلت: يا رسول الله، أمن الحسنات: لا إله إلا الله؟ قال: «هي أفضل الحسنات»[٤].

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا هذيل بن إبراهيم الجُمَّاني، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الزهري، من ولد سعد بن أبي وقاص، عن الزهري، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قال عَبْد: لا إله إلا الله، في ساعة من ليل أو نهار، إلا طَلَست ما في الصحيفة من السيئات، حتى تسكن إلى مثلها من الحسنات»[٥].

عثمان بن عبد الرحمن، يقال له: الوقاصي. فيه ضعف.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا بشر بن آدم وزيد بن أخرم قالا: حدثنا الضحاك بن مَخْلَد، حدثنا مستور بن عباد، عن ثابت، عن أنس؛ أن رجلا قال: يا رسول الله، ما تركت من حاجة ولا داجة، فقال رسول الله ﷺ: «تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟». قال: بلى. قال: «فإن هذا يأتي على ذلك»[٦].

تفرد به من هذا الوجه مستور.

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) ﴾.

يقول تعالى: فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، ينهون عما كان يقع بينهم من

---

(١) المسند (٥/ ٢٢٨).

(٢) في ت، أ: «أن النبي».

(٣) المسند (٥/ ١٥٣).

(٤) المسند (٥/ ١٦٩).

(٥) مسند أبي يعلى (٦/ ٢٠٤) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٨٢): «فيه عثمان بن عبد الرحمن الزهري، وهو متروك».

(٦) مسند البزار برقم (٣٠٦٧) «كشف الأستار» وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٨٣): «رجاله ثقات».

الشرور والمنكرات والفساد في الأرض.

وقوله: ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أي: قد وُجد منهم من هذا الضرب قليل، لم يكونوا كثيرا، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غِيَرِه، وفجأة نقَمه؛ ولهذا أمر تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وفي الحديث: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيّروه، أوشك أن يَعُمَّهُم الله بعقاب»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ أي: استمروا على ما هم فيه من المعاصي والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك، حتى فَجَأهم العذابُ، ﴿وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾.

ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة [لنفسها][1]، ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)﴾.

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كُلّهم أمة واحدة، من إيمان أو كفران[2]، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

وقوله: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أي: ولا يزال الخُلْفُ بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم.

قال[3] عكرمة: ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾ في الهدى[4]. وقال الحسن البصري: ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾ في الرزق، يُسخّر بعضهم بعضا، والمشهورُ الصحيح الأول.

وقوله: ﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أي: إلا المرحومين من أتباع الرسل، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين[5]. أخبرتهم به رسل الله إليهم، ولم يزل ذلك دأبهم، حتى كان النبي ﷺ الأمي خاتم الرسل والأنبياء، فاتبعوه وصدقوه، ونصروه ووازروه، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة؛ لأنهم الفرقة الناجية، كما جاء في الحديث المروي في المسانيد والسنن، من طرق يشد بعضها بعضا: «إن اليهود افترقت على

---

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) في ت، ؟: «وكفران».
(٣) في ت، أ: «وقال».
(٤) في ت، أ: «الهوى».
(٥) في ت: «الذي»، وفي أ: «الدين».

إحدى[١] وسبعين فرقة، وإن النصارى افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتى[٢] على ثلاث وسبعين فرقة، كلها فى النار إلا فرقة واحدة». قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابى».

رواه الحاكم فى مستدركه بهذه الزيادة[٣].

وقال عطاء: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ يعنى: اليهود والنصارى والمجوس ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ يعنى: الحنيفية.

وقال قتادة: أهلُ رحمة الله أهلُ الجماعة، وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم، وأهل معصيته أهل فرقة، وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم.

وقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾: قال الحسن البصرى ـ فى رواية عنه ـ: وللاختلاف خلقهم.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: خلقهم فريقين، كقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].

وقيل: للرحمة خلقهم. قال ابن وهب: أخبرنى مسلم بن خالد، عن ابن أبى نَجيح، عن طاوس؛ أن رجلين اختصما إليه فأكثرا[٤]، فقال طاوس: اختلفتما فأكثرتما[٥]! فقال أحد الرجلين: لذلك خلقنا. فقال طاوس: كذبت. فقال: أليس الله يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، قال: لم يخلقهم ليختلفوا، ولكن خلقهم للجماعة والرحمة. كما قال الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب. وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة. ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقيل: بل المراد: وللرحمة والاختلاف خلقهم، كما قال الحسن البصرى فى رواية عنه فى قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال: الناس مختلفون على أديان شتى، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾، فمن رحم ربك غير مختلف. قيل له: فلذلك خلقهم؟ [قال][٦] خلق هؤلاء لجنته، وخلق هؤلاء لناره، وخلق هؤلاء لرحمته، وخلق هؤلاء لعذابه.

وكذا[٧] قال عطاء بن أبى رباح، والأعمش.

وقال ابن وَهْب: سألت مالكا عن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، قال: فريق فى الجنة وفريق فى السعير.

---

(١) فى أ: «اثنين». (٢) فى أ: «هذه الأمة».

(٣) سبق تخريجه عند تفسير الآية: ٩٣ من سورة يونس.

(٤) فى ت: «فأكثروا». (٥) فى ت: «وأكثرتما». (٦) زيادة من ت.

(٧) فى ت: «وكذلك».

وقد اختار هذا القول ابن جرير، وأبو عبيدة[١]، والفراء.

وعن مالك فيما رويناه عنه في التفسير: ﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ قال: للرحمة، وقال قوم: للاختلاف.

وقوله: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ : يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره، لعلمه التام وحكمته النافذة، أن ممن[٢] خلقه من يستحق الجنة، ومنهم من يستحق النار، وأنه لابد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس، وله الحجة البالغة والحكمة التامة. وفي الصحيحين عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «اختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضَعَفَةُ الناس وسَقَطُهم؟ وقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. فقال الله عز وجل للجنة، أنت رحمتي أرحم بك من أشاء. وقال للنار: أنت عذابي، أنتقم بك ممن أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها. فأما الجنة فلا يزال فيها فضل، حتى ينشئ الله لها خلقا يسكن فضل الجنة، وأما النار فلا تزال تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع عليه ربّ العزة قَدمه، فتقول: قَطْ قط، وعزتك»[٣].

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) ﴾.

يقول تعالى: وكل أخبار نقصها عليك، من أنباء الرسل المتقدمين قبلك مع أممهم، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين ـ كل هذا مما نثبت به فؤادك ـ يا محمد ـ أي: قلبك، ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسْوَة.

وقوله: ﴿ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ ﴾ أي: [في][٤] هذه السورة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وجماعة من السلف. وعن الحسن ـ في رواية عنه ـ وقتادة: في هذه الدنيا.

والصحيح: في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف نَجّاهم[٥] الله والمؤمنين بهم، وأهلك الكافرين، جاءك فيها قَصَصٌ حق، ونبأ صدق، وموعظة يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتوفر[٦] بها المؤمنون.

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٢٢) ﴾.

---

(١) في ت، أ: «وأبو عبيد». (٢) في ت، أ: «من».

(٣) صحيح البخاري برقم (٧٤٤٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٤٦).

(٤) زيادة من أ. (٥) في ت، أ: «نجاهم». (٦) في ت، أ: «يتذكر».

يقول تعالى آمرا رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد: ﴿ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي: على طريقتكم ومنهجكم، ﴿ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ أي: على طريقتنا ومنهجنا، ﴿ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ أي: فستعلمون من تكون له عاقبة الدار، إنه لا يفلح الظالمون.

وقد أنجز الله لرسوله وعده، ونصره وأيده، وجعل كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم.

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣) ﴾.

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه إليه المرجع والمآب، وَسَيُوَفِّي كل عامل عمله يوم الحساب، فله الخلق والأمر. فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه؛ فإنه كاف من توكل عليه وأناب إليه.

وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ [١]﴾ أي: ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد، بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة، وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا زيد بن الحباب، عن جعفر بن سليمان، عن أبي عمران الجوني، عن عبد الله بن رباح، عن كعب [٢] قال: خاتمة «التوراة» خاتمة «هود» [والله أعلم][٣].

**تم تفسير سورة هود**

---

(١) في ت: «يعملون». (٢) في أ: «كعب الأحبار». (٣) زيادة من أ.

## تفسير سورة يوسف

[وهي مكية][1].

روى الثعلبي وغيره، من طريق سَلاّم بن سلم ـ ويقال: سليم ـ المدائني، وهو متروك، عن هارون بن كثير ـ وقد نصّ على جهالته أبو حاتم ـ عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن أبي أمامة، عن أُبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «علموا أرقاءكم سورة يوسف، فإنه أيما مسلم تلاها، أو علمها أهله، أو ما[2] ملكت يمينه، هوّن الله عليه سكرات الموت، وأعطاه من القوة ألا يحسد مسلماً»[3].

وهذا من هذا الوجه لا يصح، لضعف إسناده بالكلية. وقد ساق له[4] الحافظ ابن عساكر متابعا من طريق القاسم بن الحكم، عن هارون بن كثير، به ـ ومن طريق شَبَابة، عن مخلد بن عبد الواحد البصري[5]، عن علي بن زيد بن جدعان ـ وعن عطاء بن أبي ميمونة، عن زر بن حُبَيش، عن أُبي ابن كعب، عن النبي ﷺ ـ فذكر نحوه[6]. وهو منكر من سائر طرقه.

وروى البيهقي في «الدلائل» أن طائفة من اليهود حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة أسلموا لموافقتها ما عندهم. وهو من رواية الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣)﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة «البقرة».

وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن، ﴿الْمُبِينِ﴾ أي: الواضح الجلي، الذي يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسرها ويبينها[7].

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس؛ فلهذا أنزلَ أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة[8] أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله في أشرف

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) في ت: «وما».

(٣) تفسير الثعلبي (٧/ل ٦١ «المحمودية») وأورده الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ١٧٩) من رواية الثعلبي في تفسيره، ورواه الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٩٩) من طريق إبراهيم بن شريف عن أحمد بن يونس عن سلام بن سليم به.

(٤) في جميع النسخ: «وقد ساقه» وهذا التعبير غير صحيح.

(٥) جميع النسخ: «محمد بن عبد الواحد النضري»، وفي أ، ت: «مخلد بن عبد الواحد النضري» والصواب ما أثبتناه.

(٦) نقله الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ١٨٠) عن المؤلف. (٧) في ت: «وتفسيرها وتبيينها». (٨) في ت: «كسفارة».

شهور السنة وهو رمضان، فكمل من كل الوجوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾، بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن.

وقد وَرَدَ في سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن جرير:

حدثني نصر بن عبد الرحمن الأوْدي[١]، حدثنا حكام الرازي، عن أيوب، عن عمرو ـ هو ابن قيس الملائي ـ عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا؟ فنزلت: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾[٢].

ورواه من وجه آخر، عن عمرو بن قيس مرسلا.

وقال أيضا: حدثنا محمد بن سعيد[٣] العطار[٤]، حدثنا عمرو بن محمد، أنبأنا خَلَّاد الصفار، عن عمرو بن قيس، عن عمرو بن مُرَّة[٥]، عن مصعب بن سعد عن سعد قال: أنزل على النبي ﷺ القرآن، قال: فتلا عليهم زمانا، فقالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا. فأنزل الله عز وجل: ﴿الر تلك آيات الكتاب المبين﴾ إلى قوله: ﴿لعلكم تعقلون﴾[٦]. ثم تلا عليهم زمانا، فقالوا: يا رسول الله، لو حدثتنا. فأنزل الله عز وجل: ﴿الله نزل أحسن الحديث﴾ الآية [الزمر: ٢٣]، وذكر الحديث.

ورواه الحاكم من حديث إسحاق بن رَاهَوَيه، عن عمرو بن محمد القرشي العَنْقَزي، به[٧].

وروى ابن جرير بسنده[٨]، عن المسعودي، عن عَوْن بن عبد الله قال: مَلّ أصحابُ رسول الله ﷺ مَلّة، فقالوا: يا رسول الله، حَدّثنا. [فأنزل الله: ﴿الله نزل أحسن الحديث﴾. ثم ملّوا ملة أخرى فقالوا: يا رسول الله، حدثنا][٩] فوق الحديث ودون القرآن ـ يعنون القصص ـ فأنزل الله: ﴿الر تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون . نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾. فأرادوا الحديث، فدلّهم على أحسن الحديث، وأرادوا القصص فدلهم على أحسن القصص[١٠].

ومما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة، المشتملة على مدح القرآن، وأنه كاف عن كل ما سواه من الكتب ما قال الإمام أحمد:

حدثنا سُرَيج بن النعمان، أخبرنا هُشَيم، أنبأنا مجالد، عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله: أن

---

(١) في ت: «الأوزي».

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ٥٥٢).

(٣) في أ: «سعد».    (٤) في ت، أ: «القطان».    (٥) في ت، أ: «قرة».

(٦) في ت: «﴿لعلكم تعقلون﴾ الآية».

(٧) تفسير الطبري (١٥/ ٥٥٣) والمستدرك (٢/ ٣٤٥) وقال: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وحسنه الحافظ ابن حجر في المطالب العالية برقم (٣٦٥٢).

(٨) في ت: «بسنده».    (٩) زيادة من ت، أ، والطبري.

(١٠) تفسير الطبري (١٥/ ٥٥٢).

عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ فغضب وقال: «أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذى نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه، أو بباطل فتصدقونه، والذى نفسي بيده، لو أن موسى كان حيا، لما[1] وسعه إلا أن يتبعني»[2].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن جابر، عن الشعبي، عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني مررت بأخ لي من قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ. قال عبد الله بن ثابت: فقلت له: ألا ترى ما بوجه[3] رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا. قال: فسُرِّي عن النبي[4] ﷺ وقال: «والذى نفس محمد بيده، لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين»[5].

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عبد الغفار بن عبد الله بن الزبير، حدثنا علي بن مُسْهِر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن خليفة بن قيس، عن خالد بن عُرْفطة قال: كنت جالسا عند عمر، إذ أتي برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس، فقال له عمر: أنت فلان بن فلان العبدي؟ قال: نعم. قال: وأنت النازل بالسوس، قال: نعم. فضربه بقناة معه، قال: فقال الرجل: ما لي يا أمير المؤمنين؟ فقال له عمر: اجلس. فجلس، فقرأ عليه: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ [ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ][6] ﴾ إلى قوله: ﴿ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾، فقرأها[7] ثلاثا، وضربه ثلاثا، فقال له الرجل: ما لي يا أمير المؤمنين؟ فقال: أنت الذى نسخت كتاب دانيال! قال: مرني بأمرك أتبعه. قال: انطلق فامحه بالحميم والصوف الأبيض، ثم لا تقرأه[8] ولا تُقرئه أحدا من الناس، فلئن بلغني عنك أنك قرأته أو أقرأته أحدا من الناس لأنهكنك عقوبة، ثم قال له: اجلس، فجلس بين يديه، فقال: انطلقت أنا فانتسخت كتابا من أهل الكتاب، ثم جئت به في أديم، فقال لي رسول الله ﷺ: «ما هذا في يدك يا عمر؟». قال: قلت: يا رسول الله، كتاب نسخته لنزداد[9] به علما إلى علمنا. فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرّت وجنتاه، ثم نودي بالصلاة جامعة، فقالت الأنصار: أغضب نبيكم ﷺ؟ السلاح السلاح. فجاؤوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله ﷺ، فقال: «يأيها الناس، إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه، واختُصر لي اختصارا، ولقد أتيتكم بها

---

(١) في ت: «ما».

(٢) المسند (٣/ ٣٧٨).

(٣) في ت: «ما بوجه».

(٤) في أ: «رسول الله».

(٥) المسند (٣/ ٣٦٥).

(٦) زيادة من ت.

(٧) في ت، أ: «فقرأها عليه».

(٨) في ت: «لا يقرأه».

(٩) في ت: «ليزداد».

بيضاء نقية فلا تَتهوَّكوا، ولا يغرنكم المتهوِّكون». قال عمر: فقمت فقلت: رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا، وبك رسولا. ثم نزل رسول الله ﷺ[1].

وقد رواه ابن أبي حاتم في تفسيره مختصرا، من حديث عبد الرحمن بن إسحاق، به. وهذا حديث غريب من هذا الوجه. وعبد الرحمن بن إسحاق هو أبو شَيْبَةَ[2] الواسطي، وقد ضعفوه وشيخه. قال البخاري: لا يصح حديثه.

قلت: وقد روي له شاهد من وجه آخر، فقال الحافظ أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي: أخبرني الحسن بن سفيان، حدثنا يعقوب بن سفيان، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الزبيدي، حدثني عمرو بن الحارث، حدثنا عبد الله بن سالم الأشعري، عن الزبيدي، حدثنا سليم بن عامر: أن جُبَير بن نُفَير حَدَّثهم: أن رجلين كانا بحمص في خلافة عمر، رضي الله عنه، فأرسل إليهما فيمن أرسل من أهل حمص، وكانا قد اكتتبا من اليهود صلاصفة[3] فأخذاها معهما يستفتيان فيها أمير المؤمنين ويقولون: إن رضيها لنا أمير المؤمنين ازددنا فيها رغبة. وإن نهانا عنها رفضناها، فلما قدما عليه قالا: إنا بأرض أهل الكتابين، وإنا نسمع منهم كلاما تقشعر منه جلودنا، أفنأخذ منه أو نترك؟ فقال: لعلكما كتبتما منه شيئا. قالا[4]: لا. قال: سأحدثكما. انطلقت في حياة رسول الله[5] ﷺ حتى أتيت خيبر، فوجدت يهوديا يقول قولا أعجبني، فقلت: هل أنت مكتبي ما تقول؟ قال: نعم. فأتيت بأديم، فأخذ يملي علي، حتى كتبت في الأكرُع. فلما رجعت قلت: يا نبي الله، وأخبرته، قال: «ائتني به». فانطلقت أرغب عن المشي رجاء أن أكون أتيت[6] رسول الله ببعض ما يحب، فلما أتيت به قال: «اجلس اقرأ عليَّ». فقرأت ساعة، ثم نظرت إلى وجهه فإذا هو يتلوَّن، فتحيرت من الفَرَق، فما استطعت أجيز[7] منه حرفا، فلما رأى الذي بي دَفَعه[8]، ثم جعل يتبعه رسما رسما فيمحوه بريقه، وهو يقول: «لا تتبعوا هؤلاء، فإنهم قد هَوَّكوا وتَهَوَّكوا». حتى محا آخره حرفاً حرفا. قال عمر، رضي الله عنه: فلو علمت أنكما كتبتما منه شيئاً جعلتكما نكالا لهذه الأمة! قالا: والله ما نكتب منه شيئاً أبداً. فخرجا بصلاصفتهما[9]، فحفرا لها[10] فلم يألُوا أن يعمِّقا، ودفناها

---

(١) لم أعثر عليه في المطبوع من مسند أبي يعلى، وأورده الهيثمي في المجمع (١/ ١٨٢) وقال: «رواه أبو يعلى، وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي، ضعفه أحمد وجماعة». ورواه المقدسي في المختارة برقم (١١٥) من طريق أبي يعلى وقال: «عبد الرحمن بن إسحاق أخرج له مسلم وابن حبان». يقصد عبد الرحمن بن إسحاق المدني وهو أثبت من الواسطي وطبقتهما متقاربة، لكن المزي ذكر علي بن مسهر من الرواة عن الواسطي الضعيف، وقد رجح المؤلف هنا أنه الواسطي. وكذا في مسند عمر بن الخطاب (٢/ ٥٩١) وقال: «وزعم الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «المختارة» أنه الذي روى له مسلم كما (أظن صوابه كذا) قال: وأما شيخه خليفة بن قيس فقال فيه أبو حاتم الرازي: شيخ ليس بالمعروف. وقال البخاري: لم يصح حديثه».

(٢) في ت: «ابن شيبة».　　(٣) في هـ: «صلاصق» بدون نقط، والمثبت من ت، أ.　　(٤) في ت، أ: «فقالا».

(٥) في ت: «النبي».　　(٦) في ت: «جئت».　　(٧) في ت: «أخبر».

(٨) في ت: «دفعته».　　(٩) في هـ، ت: «بصفيهما» والمثبت من أ.

(١٠) في ت: «فحفراها».

فكان آخر العهد منها[١].

وكذا روى الثوري، عن جابر بن يزيد الجُعْفي، عن الشعبي، عن عبد الله بن ثابت الأنصاري، عن عمر بن الخطاب، بنحوه[٢]. وروى أبو داود في المراسيل، من حديث أبي قِلَابَة، عن عمر نحوه[٣]. والله أعلم.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤)﴾.

يقول تعالى: اذكر لقومك يا محمد في قَصَصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه، وأبوه هو: يعقوب، عليه السلام، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

انفرد بإخراجه البخاري، فرواه[٤] عن عبد الله بن محمد، عن عبد الصمد به[٥]. وقال البخاري أيضاً:

حدثنا محمد، أخبرنا عبدة، عن عُبَيْد الله، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: سُئِل رسولُ الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم. قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فَقِهوا». ثم قال: تابعه أبو أسامة، عن عبيد الله[٦].

وقال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وحي.

وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام: أن الأحد عشر كوكبا عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلا [سواه][٧]، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه. رُوي هذا عن ابن عباس، والضحاك،

---

(١) ورواه أبو نعيم في الحلية (٥/ ١٣٦) عن الطبراني، عن عمرو بن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الحمصي، عن أبيه، عن عمرو بن الحارث به.

(٢) سبق تخريجه في المسند.

(٣) المراسيل برقم (٤٥٥).

(٤) في أ: «ورواه».

(٥) المسند (٢/ ٩٦) وصحيح البخاري برقم (٤٦٨٨).

(٦) صحيح البخاري برقم (٤٦٨٩).

(٧) زيادة من ت.

وقتادة، وسفيان الثوري، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة، وقيل: ثمانين سنة، وذلك حين رفع أبويه على العرش، وهو سريره، وإخوته بين يديه: ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وقد جاء في حديث تسمية هذه الأحد عشر كوكبا ـ فقال الإمام أبو جعفر بن جرير.

حدثني علي بن سعيد الكِنْدي، حدثنا الحكم بن ظهير، عن السُّدِّي، عن عبد الرحمن بن سابط، [عن جابر][1] قال: أتى النبي ﷺ رجل من يهود يقال له: «بستانة اليهودي»، فقال له: يا محمد، أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف أنها ساجدة له، ما أسماؤها؟ قال: فسكت النبي ﷺ ساعة فلم يجبه بشيء، ونزل [عليه][2] جبريل، عليه السلام، فأخبره بأسمائها. قال: فبعث رسول الله ﷺ إليه فقال: «هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟» فقال: نعم. قال: «خرتان[3]، والطارقُ، والذَّيّال[4]، وذو الكَتِفَات، وقابس، ووثّاب، وعَمُودَان، والفَيْلَقُ، والمُصَبِّحُ، والضَّرُوحُ، وذو الفرغ، والضِّيَاءُ، والنُّور»، فقال اليهودي: إيْ والله، إنها لأسماؤها[5].

ورواه البيهقي في «الدلائل»، من حديث سعيد[6] بن منصور، عن الحكم بن ظهير. وقد روى هذا الحديث الحافظان أبو يعلى الموصلي وأبو بكر البزار في مسنديهما، وابن أبي حاتم في تفسيره[7]، أما أبو يعلى فرواه عن أربعة من شيوخه عن الحكم بن ظهير، به وزاد: قال رسول الله ﷺ: «لما رآها يوسف قَصّها على أبيه يعقوب، فقال له أبوه: هذا أمر متشتت يجمعه الله من بعد؛ قال: والشمس أبوه، والقمر أمه».

تفرد به الحكم بن ظهير الفزاري[8]، وقد ضَعَّفه الأئمة، وتركه الأكثرون، وقال الجوزجاني: ساقط، وهو صاحب حديث حُسْن يوسف.

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) ﴾.

---

(١، ٢) زيادة من ت، أ، والطبري.

(٣) في هـ: «حرثان» وفي ت، أ: «جربان» والمثبت من ميزان الاعتدال ١/ ٥٧٢. مستفاد من ط. الشعب.

(٤) في ت: «والدثال».

(٥) تفسير الطبري (١٥/ ٥٥٥).

(٦) في ت: «سعد».

(٧) دلائل النبوة للبيهقي (٦/ ٢٧٧) ومسند البزار برقم (٢٢٢٠) «كشف الأستار». وقد وقع اختلاف في أسماء الكواكب في هذه المصادر وليست بالمهمة، والحديث حكم عليه ابن الجوزي بالوضع.

(٨) لم يتفرد به بل توبع، فرواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٩٦) من طريق طلحة عن أسباط بن نصر، عن السدي، عن عبد الرحمن بن سابط، عن جابر به نحوه، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» قال الزيلعي: «ومسند الحاكم وارد على البزار في قوله: لا نعلم له طريقا غيره، وعلى البيهقي في قوله: تفرد به الحكم بن ظهير ولهما علم عما» تخريج الكشاف (٢/ ١٦١).

يقول تعالى مخبراً عن قيل يعقوب لابنه يوسف حين قصّ عليه ما رأى من هذه الرؤيا، التي تعبيرها خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه تعظيما زائداً، بحيث يخرون له ساجدين إجلالا وإكراما واحتراما[١]، فخشي يعقوب، عليه السلام، أن يحدث بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدوه[٢] على ذلك، فيبغوا له الغوائل، حسداً منهم له؛ ولهذا قال له: ﴿**لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا**﴾ أي: يحتالوا لك حيلةً يُرْدُونك فيها. ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به، وإذا رأى ما يكره فليتحوّل إلى جنبه الآخر وليتفل عن يساره ثلاثا، وليستعذ بالله من شرها، ولا يحدث بها أحداً، فإنها لن تضره»[٣]. وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد، وبعض أهل السنن، من رواية معاوية بن حيدة القشيري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعَبر، فإذا عُبِّرَتْ وقعت»[٤]. ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر، كما ورد في حديث: «استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها، فإن كل ذي نعمة محسود»[٥].

﴿**وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)**﴾.

يقول تعالى مخبرا عن قول يعقوب لولده يوسف: إنه كما اختارك[٦] ربك، وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك، ﴿**وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ**﴾ أي: يختارك ويصطفيك لنبوته، ﴿**وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ**﴾: قال مجاهد وغير واحد: يعني تعبير الرؤيا.

﴿**وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ**﴾أي: بإرسالك والإيحاء إليك؛ ولهذا قال: ﴿**كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ**﴾ وهو الخليل، ﴿**وَإِسْحَاقَ**﴾ ولده، وهو الذبيح في قول، وليس بالرجيح، ﴿**إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ أي: [هو][٧] أعلم حيث يجعل رسالاته، كما قال في الآية الأخرى.

﴿**لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ**

---

(١) في ت، أ: «واحتراماً وإكراماً». (٢) في ت: «فيحسدونه».

(٣) جاء من حديث جابر، وأم سلمة، وأبي قتادة: أما حديث جابر، فرواه مسلم في صحيحه برقم (٢٢٦٢)، وأما حديث أم سلمة، فرواه النسائي في السنن الكبرى برقم (١٠٧٤١)، وأما حديث أبي قتادة، فرواه أحمد في المسند (٥/ ٢٩٦) وهذا لفظه.

(٤) لم أعثر عليه من حديث معاوية، وإنما من حديث لقيط بن عامر رضي الله عنه، رواه أحمد في المسند (٤/ ١٠) وأبو داود في السنن برقم (٥٠٢٠) والترمذي في السنن برقم (٢٢٧٨) وابن ماجه في السنن برقم (٣٩١٤).

(٥) رواه العقيلي في الضعفاء (٢/ ١٠٩) وابن عدي في الكامل (٣/ ٤٠٤) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٩٦) من طريق سعيد بن سلام العطار عن ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان عن معاذ به مرفوعاً، وأورده ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ١٦٥) وقال أبو حاتم في العلل (٢/ ٢٥٨): «حديث منكر». وآفته سعيد بن سلام العطار فهو كذاب.

(٦) في ت: «اختار». (٧) زيادة من ت.

أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

يقول تعالى: لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته آيات، أي: عبرةٌ ومواعظُ للسائلين عن ذلك، المستخبرين عنه، فإنه خبر عجيب، يستحق أن يستخبر عنه، ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا﴾ أي: حلفوا فيما يظنون: والله ليوسف وأخوه ـ يعنون بنيامين، وكان شقيقه لأمه ـ ﴿أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة، فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة؛ ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، يعنون في تقديمهما علينا، ومحبته إياهما أكثر منا.

واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنهم أوحي إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر. ويحتاج مُدّعي ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وهذا فيه احتمال؛ لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يقال للعرب: قبائل، وللعجم: شعوب؛ يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم، والله أعلم.

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾: يقولون: هذا الذي يزاحمكم في محبة أبيكم لكم، أعدموه من وجه أبيكم، ليخلو لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه، أو تلقوه في أرض من الأراضي ـ تستريحوا منه، وتختلوا أنتم بأبيكم، وتكونوا من [1]بعد إعدامه قوماً صالحين. فأضمروا التوبة قبل الذنب.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾: قال قتادة، ومحمد بن إسحاق: كان أكبرهم واسمه روبيل. وقال السدي: الذي قال ذلك يهوذا. وقال مجاهد: هو شمعون ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ أي: لاتصلوا [2] في عداوته وبغضه إلى قتله، ولم يكن لهم [3] سبيلٌ إلى قتله؛ لأن الله تعالى كان يريد منه أمراً لابدّ من إمضائه وإتمامه، من الإيحاء إليه بالنبوة، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها، فصرفهم الله عنه بمقالة روبيل فيه وإشارته عليهم بأن يلقوه في غيابة الجب، وهو أسفله.

قال قتادة: وهي بئر بيت المقدس.

﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أي: المارة من المسافرين، فتستريحوا بهذا، ولاحاجة إلى قتله.

﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي: إن كنتم عازمين على ما تقولون.

قال محمد بن إسحاق بن يسار: لقد اجتمعوا على أمر عظيم، من قطيعة الرحم، وعقوق

---

(١) في أ: «وتكونوا من بعده، أي من بعده». (٢) في أ: «لا تصلوا». (٣) في ت: «له».

الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الضَّرَع الذي لاذنب له، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل، وخطره عند الله، مع حق الوالد على ولده، ليفرقوا بينه وبين ابنه [(١)] وحبيبه، على كبر سنه، ورقّة عظمه، مع مكانه من الله فيمن أحبه طفلا صغيرا، وبين أبيه على ضعف قوته وصغر سنه، وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمرا عظيما.

رواه ابن أبي حاتم من طريق سلمة بن الفضل، عنه.

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) ﴾.

لما تواطؤوا على أخذه وطَرْحه في البئر، كما أشار عليهم أخوهم الكبير رُوبيل، جاؤوا أباهم يعقوب، عليه السلام، فقالوا: ﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾. وهذه توطئة وسلف ودعوى، وهم يريدون خلاف ذلك؛ لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له، ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا﴾ أي: ابعثه معنا. ﴿غَدًا نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ﴾ وقرأ بعضهم بالياء ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾.

قال ابن عباس: يسعى وينشط. وكذا قال قتادة، والضحاك والسُّدِّي، وغيرهم.

﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾: يقولون: ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك.

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ (١٤) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن نبيه [(٢)] يعقوب أنه قال لبنيه في جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء: ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ﴾أي: يشق علي مفارقتُه مدة ذهابكم به إلى أن يرجع، وذلك لفرْط محبته له، لما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة والكمال في الخَلْق والخُلُق، صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾: يقول: وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورَعْيتكم [(٣)] فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون، فأخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه، وقالوا مجيبين عنها في الساعة الراهنة: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾، يقولون: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا، ونحن جماعة، إنا إذا لهالكون عاجزون.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٥) ﴾.

(١) في ت: «أبيه». (٢) في ت، أ: «عن نبي الله». (٣) في ت: «ورعيكم».

يقول تعالى: فلما ذهبت [١] به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك، ﴿ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ﴾، هذا فيه تعظيم لما فعلوه أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يُظهرونه له إكراما له، وبسطا وشرحاً لصدره، وإدخالا للسرور عليه، فيقال: إن يعقوب [٢]، عليه السلام، لما بعثه معهم ضمه إليه، وقبّله ودعا له.

قال [٣] السدي وغيره: إنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له، إلا أن غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه، ثم شرعوا يؤذونه بالقول، من شتم ونحوه، والفعل من ضَرْب ونحوه، ثم جاؤوا به إلى ذلك الجب الذي اتفقوا على رميه فيه فربطوه بحبل ودلوه فيه، فجعل إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة، فسقط في الماء فغمره، فصعد إلى صخرة تكون في وسطه، يقال لها: «الراغوفة»[٤]، فقام فوقها.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾: يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته وعائدته [٥] وإنزاله اليسر في حال العسر: إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق، تطييباً لقلبه، وتثبيتاً له: إنك لا تحزن مما [٦] أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً، وسينصرك الله عليهم، ويعليك ويرفع درجتك، وستخبرهم [٧] بما فعلوا معك من هذا الصنيع.

وقوله: ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ـ قال [مجاهد و] [٨] قتادة: ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بإيحاء الله إليه.

وقال ابن عباس: ستنبئهم بصنيعهم هذا في حقك، وهم لا يعرفونك، ولا يستشعرون بك، كما قال ابن جرير:

حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا صدقة بن عُبادة الأسدي، عن أبيه، سمعت ابن عباس يقول: لما دخل إخوة يوسف على يوسف فعرفهم وهم له منكرون، قال: جيء بالصُّواع، فوضعه على يده، ثم نقره فطن، فقال: إنه ليخبرني هذا الجام: أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له «يوسف»، يدنيه دونكم، وأنكم انطلقتم به فألقيتموه في غيابة الجب ـ قال: ثم نقره فطنّ ـ فأتيتم أباكم فقلتم: إن الذئب أكله، وجئتم على قميصه بدم كذب ـ قال: فقال بعضهم لبعض: إن هذا الجام ليخبره بخبركم. قال ابن عباس، رضي الله عنهما: لا نرى [٩] هذه الآية نزلت إلا فيهم: ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[١٠].

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ

(١) في ت، أ: «ذهب».
(٢) في ت، أ: «يوسف».
(٣) في ت: «فذكر».
(٤) في أ: «الراغوف».
(٥) في ت: «وعائد به».
(٦) في ت، أ: «فيما».
(٧) في ت، أ: «وسيجزيهم».
(٨) زيادة من ت.
(٩) في ت: «فلايرى»، وفي أ: «فلانرى».
(١٠) تفسير الطبري (١٥/٥٧٦).

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الذى اعتمده إخوة يوسف بعد ما ألقوه فى غيابة الجب: أنهم [١] رجعوا إلى أبيهم فى ظلمة الليل يبكون، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ويتغممون لأبيهم، وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أى: نترامى. ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا﴾ أى: ثيابنا وأمتعتنا، ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾، وهو الذى كان [قد] [٢] جزع منه، وحذر عليه.

وقولهم: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾: تلطفٌ عظيم فى تقرير ما يحاولونه، يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا ـ والحالة هذه ـ لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا فى ذلك، لأنك خشيت أن يأكله الذئب، فأكله الذئب، فأنت معذور فى تكذيبك لنا؛ لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا فى أمرنا هذا.

﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أى: مكذوب مفترى. وهذا من الأفعال التى يؤكدون بها ما تمالؤوا عليه من المكيدة، وهو أنهم عمدوا إلى سَخْلَة ـ فيما ذكره مجاهد، والسدى، وغير واحد ـ فذبحوها، ولطخوا ثوب يوسف بدمها، موهمين أن هذا قميصه الذى أكله فيه الذئب، وقد أصابه من دمه، ولكنهم نسوا أن يخرقوه، فلهذا لم يَرُج هذا الصنيع على نبى الله يعقوب، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع فى نفسه من تمالئهم عليه: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أى: فسأصبر صبراً جميلا على هذا الأمر الذى قد اتفقتم عليه، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه، ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أى: على ما تذكرون من الكذب والمحال.

وقال الثورى، عن سِمَاك، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ قال: لو أكله السبع لخرق القميص. وكذا قال الشعبى، والحسن، وقتادة، وغير واحد.

وقال مجاهد: الصبر الجميل: الذى لا جزع فيه.

وروى هُشَيْم، عن عبد الرحمن بن يحيى، عن حبَّان بن أبى جَبَلة قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، فقال: «صبر لا شكوى [٣] فيه» وهذا مرسل [٤].

وقال عبد الرزاق: قال الثورى عن بعض أصحابه أنه قال: ثلاث من الصبر: ألا تحدث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تزكى نفسك [٥].

وذكر البخارى هاهنا حديث عائشة، رضى الله عنها، فى الإفك حتى ذكر قولها: والله لا أجد لى ولكم مثلا إلا أبا يوسف [٦]، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [٧].

---

(١) فى س، أ: «أنهم».	(٢) زيادة من أ.	(٣) فى ت: «لا شكوى».

(٤) تفسير الطبرى (١٥/ ٥٨٥).

(٥) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٧٧).

(٦) فى ت: «إلا يعقوب» وفى أ: «إلا أبا يوسف إذ قال».

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٦٩٠).

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عما جرى ليوسف، عليه السلام، حين ألقاه إخوته، وتركوه في ذلك الجب فريدا وحيداً، فمكث في البئر ثلاثة أيام، فيما قاله أبو بكر بن عياش[1].

وقال محمد بن إسحاق: لما ألقاه إخوته جلسوا حول البئر يومهم ذلك، ينظرون ما يصنع وما يُصنع به، فساق الله له سَيَّارة، فنزلوا قريباً من تلك[2] البئر، وأرسلوا واردهم ـ وهو الذي يتطلب لهم الماء ـ فلما جاء تلك[3] البئر، وأدلى دلوه فيها، تشبث يوسف، عليه السلام، فيها، فأخرجه واستبشر به، وقال: ﴿ يَا بُشْرَايَ هَٰذَا غُلَامٌ ﴾.

وقرأ بعض القراء: ﴿ يَا بُشْرَىٰ ﴾، فزعم السدي أنه اسم رجل ناداه ذلك الرجل الذي أدلى دلوه، معلماً له أنه أصاب غلاماً. وهذا القول من السدي غريب؛ لأنه لم يُسبَق إلى تفسير هذه القراءة بهذا إلا في رواية عن ابن عباس، والله أعلم. وإنما معنى القراءة على هذا النحو يرجع إلى القراءة الأخرى، ويكون قد أضاف البشرى إلى نفسه، وحذف ياء الإضافة وهو يريدها، كما تقول العرب: «يا نفسُ اصبري»، و«ياغلام أقبل»، بحذف حرف الإضافة، ويجوز الكسر حينئذ والرفع، وهذا منه، وتفسرها القراءة الأخرى ﴿ يَا بُشْرَايَ ﴾، والله أعلم.

وقوله: ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾ أي: وأسره الواردون من بقية السيارة وقالوا: اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره. قاله مجاهد، والسدي، وابن جرير. هذا قول.

وقال العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ يعني: إخوة يوسف، أسروا شأنه، وكتموا أن يكون أخاهم وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع. فذكره إخوته لوارد القوم، فنادى أصحابه: ﴿ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ﴾ يباع، فباعه إخوته.

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أي: يعلم ما يفعله إخوة يوسف ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمة وقَدَرٌ سابق، فترك ذلك ليمضي ما قدره وقضاه، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين.

وفي هذا تعريض لرسوله محمد ﷺ[4]، وإعلام له بأنني عالم بأذى قومك، وأنا قادر على الإنكار عليهم، ولكني سأملي لهم، ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته.

---

(١) في ت: «ابن عباس». (٢، ٣) في ت: «ذلك».

(٤) في ت: «صلوات الله عليه» وفي أ: «صلوات الله عليه وسلامه».

وقوله: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾، يقول تعالى: وباعه إخوته بثمن قليل، قاله مجاهد وعكرمة.

والبخس: هو النقص، كما[1] قال تعالى: ﴿ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا﴾ [الجن:١٣] أي: اعتاض عنه إخوته بثمن دون قليل، وكانوا مع ذلك فيه من الزاهدين، أي: ليس لهم رغبة فيه، بل لو سألوه[2] بلا شيء لأجابوا.

قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: إن الضمير في قوله: ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾عائد على إخوة يوسف.

وقال قتادة: بل هو عائد على السيارة.

والأول أقوى؛ لأن قوله: ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾، إنما أراد إخوته، لا أولئك السيارة؛ لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه، فيرجح من هذا أن الضمير في ﴿ وَشَرَوْهُ﴾ إنما هو لإخوته.

وقيل: المراد بقوله: ﴿ بَخْسٍ﴾ : الحرام. وقيل: الظلم. وهذا وإن كان كذلك، لكن ليس هو المراد هنا؛ لأن هذا معلوم يعرفه كل أحد أن ثمنه حرام على كل حال، وعلى كل أحد، لأنه نبي ابن نبي، ابن نبي، ابن خليل الرحمن، فهو الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم. وإنما المراد هنا بالبخس الناقص أو الزيوف أو كلاهما، أي: إنهم إخوته، وقد باعوه ومع هذا بأنقص الأثمان؛ ولهذا قال: ﴿ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾، فعن ابن مسعود باعوه بعشرين درهما، وكذا قال ابن عباس، ونَوْف البَكَالي، والسُّدِّي، وقتادة، وعطية العَوْفي وزاد: اقتسموها درهمين درهمين.

وقال مجاهد: اثنان وعشرون درهماً.

وقال محمد بن إسحاق وعِكْرِمة: أربعون درهماً.

وقال الضحاك في قوله: ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾: وذلك أنهم لم يعلموا نبوته ومنزلته عند الله عز وجل.

وقال مجاهد: لما باعوه جعلوا يتبعونهم ويقولون لهم: استوثقوا منه لا يأبق حتى وقفوه بمصر، فقال: من يبتاعني وليبشر؟ فاشتراه الملك، وكان مسلماً.

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾.

---

(١) في ت: «وكما».

(٢) في أ: «لو سئلوا».

يخبر تعالى بألطافه بيوسف، عليه السلام، أنه قيض له الذي اشتراه من مصر، حتى اعتنى به وأكرمه، وأوصى أهله به، وتوسم فيه الخير والفلاح، فقال لامرأته: ﴿أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا﴾، وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها، وهو الوزير بها. [قال] [١] العوفي، عن ابن عباس: وكان اسمه قطفير.

وقال محمد بن إسحاق: اسمه إطفير [٢] بن روحيب، وهو العزيز، وكان على خزائن مصر، وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد، رجل من العماليق قال: واسم امرأته راعيل بنت رعائيل.

وقال غيره: اسمها زليخا.

وقال محمد بن إسحاق أيضاً، عن محمد بن السائب، عن أبي صالح، عن ابن عباس: كان الذي باعه بمصر مالك ابن دعر بن بويب [٣] بن عنقا بن مديان بن إبراهيم، فالله أعلم.

وقال أبو إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته: ﴿أكرمي مثواه﴾، والمرأة التي قالت لأبيها [عن موسى] [٤]: ﴿يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ [القصص: ٢٦] وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب، رضي الله عنهما [٥].

يقول تعالى: وكما أنقذنا يوسف من إخوته، ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾ يعني: بلاد مصر، ﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ قال مجاهد والسدي: هو تعبير الرؤيا، ﴿والله غالب على أمره﴾ أي [٦]: إذا أراد شيئا فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف، بل هو الغالب لما سواه.

قال سعيد بن جبير في قوله: ﴿والله غالب على أمره﴾ أي: فعال لما يشاء.

وقوله: ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾: يقول: لايدرون حكمته في خلقه، وتلطفه لما يريد [٧].

وقوله: ﴿ولما بلغ﴾ أي: يوسف عليه السلام ﴿أشده﴾ أي: استكمل عقله [٨]، وتم خلقه. ﴿آتيناه حكما وعلما﴾ يعني: النبوة، إنه حباه بها بين أولئك الأقوام، ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ أي: إنه كان محسناً في عمله، عاملا بطاعة ربه تعالى.

وقد اختلف في مقدار المدة التي بلغ فيها أشده، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ثلاث وثلاثون. وعن ابن عباس: بضع وثلاثون. وقال الضحاك: عشرون. وقال الحسن: أربعون سنة. وقال عكرمة: خمس وعشرون سنة. وقال السدي: ثلاثون سنة. وقال سعيد بن جبير: ثماني عشرة سنة. وقال الإمام مالك، وربيعة، وزيد بن أسلم، والشعبي: الأشد الحلم. وقيل غير ذلك،

---

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) في ت، أ: «إطفير».
(٣) في ت: «نويب».
(٤) زيادة من أ.
(٥) رواه الطبري في تفسيره (١٦/١٩).
(٦) في أ: «فهو».
(٧) في ت، أ: «يريده».
(٨) في أ: «خلقه».

والله[1] أعلم.

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣)﴾.

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التى كان يوسف فى بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه [﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾][2]﴿عَن نَّفْسِهِ﴾ أى: حاولته على[3] نفسه، ودعته إليها، وذلك أنها أحبته حباً شديداً لجماله وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجملت له، وغلقت عليه الأبواب، ودعته إلى نفسها، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾، فامتنع من ذلك أشد الامتناع، و﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي [أَحْسَنَ مَثْوَايَ][4]﴾ وكانوا يطلقون «الرب»[5] على السيد والكبير، أى: إن بعلك ربى أحسن[6] مثواى أى: منزلى وأحسن إلى، فلا أقابله بالفاحشة فى أهله، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ قال ذلك مجاهد، والسدى، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم.

وقد اختلف القراء فى قراءة: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، فقرأه كثيرون بفتح الهاء، وإسكان الياء، وفتح التاء. وقال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: معناه: أنها تدعوه إلى نفسها. وقال على بن أبى طلحة، والعوفى، عن ابن عباس: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ تقول: هلم لك. وكذا قال زِرّ بن حبيش، وعِكْرِمة، والحسن وقتادة.

قال عمرو بن عُبَيد، عن الحسن: وهى كلمة بالسريانية، أى: عليك.

وقال السدى: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ أى: هلم لك، وهى بالقبطية.

وقال مجاهد: هى لغة عربية[7] تدعوه بها.

وقال البخارى: وقال عكرمة: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾: هَلُمّ لك بالحَوْرَانية.

هكذا ذكره معلقاً، وقد أسنده الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنى أحمد بن سُهَيْل الواسطى، حدثنا قُرَّة بن عيسى، حدثنا النضر بن عربى الجَزَرى[8]، عن عكرمة مولى ابن عباس فى قوله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ قال: هلم لك. قال: هى بالحورانية.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وكان الكسائى يحكى[9] هذه القراءة ـ يعنى: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ ـ ويقول: هى لغة، لأهل حَوْران، وقعت إلى أهل الحجاز، معناها: تعال. وقال أبو عبيد: سألت شيخاً عالماً من أهل حوران، فذكر أنها لغتهم يعرفها.

---

(١) فى ت: «فالله».
(٢) زيادة من ت، أ.
(٣) فى ت، أ: «عن».
(٤) زيادة من أ.
(٥) فى ت، أ: «ذلك».
(٦) فى ت، أ: «أكرم».
(٧) فى ت: «عربية».
(٨) فى ت: «عربى الحورى».
(٩) فى ت، أ: «يحب».

واستشهد الإمام ابن جرير على هذه القراءة بقول [١] الشاعر لعلى بن أبى طالب، رضى الله عنه:

أَبْلِغْ أَمِيرَ المؤمِنين ... أَخَا العِرَاقِ إِذَا أَتَيْنَا
إِنَّ العِـراقَ وأَهْلَـهُ ... عُنُقٌ إِلَيْكَ فَهَيْتَ هَيْتَا

يقول: فتعال واقترب[٢].

وقرأ ذلك آخرون: «هِئْتَ لك» بكسر الهاء والهمزة، وضم التاء، بمعنى: تهيأت لك، من قول القائل: هئت للأمر أهيء هيئة وممن روى عنه هذه القراءة ابن عباس، وأبو عبد الرحمن السلمى، وأبو وائل، وعكرمة، وقتادة، وكلهم يفسرها بمعنى: تهيأت لك.

قال ابن جرير: وكان أبو عمرو والكسائى ينكران هذه القراءة. وقرأ عبد الله بن إسحاق [٣]: «هيت»، بفتح الهاء وكسر التاء: وهى غريبة.

وقرأ آخرون، منهم عامة أهل المدينة «هَيْتُ» بفتح الهاء، وضم التاء، وأنشد [٤] قول الشاعر[٥]:

لَيسَ قَومِى بالأَبْعَدِين إِذَا مَا ... قَالَ دَاعٍ مِنَ العَشِيرَةِ: هَيْتُ

قال عبد الرزاق: أنبأنا الثورى، عن الأعمش، عن أبى وائل قال: قال ابن مسعود: قد سمعت القَرَأة فسمعتهم متقاربين، فاقرؤوا كما عُلِّمتم، وإياكم والتنطع والاختلاف، فإنما هو كقول أحدكم: «هلم» و«تعال» ثم قرأ عبد الله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، فقال: يا أبا عبد الرحمن، إن ناسا يقرؤونها: «هَيْتُ [لك] [٦]»؟ فقال عبد الله: إنى أقرأها كما عُلِّمت، أحبُّ إلى[٧].

وقال ابن جرير: حدثنى ابن وكيع، حدثنا ابن عُيَيْنة، عن منصور، عن أبى وائل قال: قال عبد الله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾. فقال له مسروق: إن ناساً يقرؤونها: «هَيْتُ لَكَ»؟ فقال: دعونى، فإنى أقرأ كما أُقْرِئْتُ، أحب إلى[٨].

وقال أيضاً: حدثنى المثنى، حدثنا آدم بن أبى إياس، حدثنا شعبة، عن شقيق، عن ابن مسعود قال: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بنصب الهاء والتاء ولا يهمز.

---

(١) فى ت: «قول».
(٢) تفسير الطبرى (١٦/ ٢٥).
(٣) فى ت: «عبد الله بن أبى إسحاق». (٤) فى ت، أ: «وأنشدوا».
(٥) هو طرفة بن العبد، والبيت فى تفسير الطبرى (١٦/ ٣٠).
(٦) زيادة من أ.
(٧) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٧٩).
(٨) تفسير الطبرى (١٦/ ٣١).

وقال[١] آخرون: «هِيتُ لَكَ»، بكسر الهاء، وإسكان الياء، وضم التاء.

قال أبو عُبَيدة معمر بن المثنى: «هيت» لا تثنى ولا تجمع ولا تؤنث، بل يخاطب الجميع بلفظ واحد، فيقال: هيتَ لكَ، وهيتَ لكِ، وهيتَ لكما، وهيتَ لكم، وهيتَ لهن[٢].

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) ﴾.

اختلفت أقوال الناس وعباراتهم في هذا المقام، وقد روي عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وطائفة من السلف في ذلك ما ذكره ابن جرير وغيره، والله أعلم.

وقال بعضهم: المراد بهمه بها همّ خَطَرات حديث[٣] النفس. حكاه البغوي عن بعض أهل التحقيق، ثم أورد[٤] البغوي هاهنا حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن همام، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إذا همّ عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها. وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإنما تركها من جرّائي، فإن عملها فاكتبوها بمثلها»[٥].

وهذا الحديث مخرج في الصحيحين[٦]، وله ألفاظ كثيرة،هذا منها.

وقيل: هم بضربها. وقيل: تمناها زوجة. وقيل: ﴿ همّ بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ أي: فلم يهم بها.

وفي هذا القول نظر من حيث العربية. ذكره ابن جرير وغيره[٧].

وأما البرهان الذي رآه ففيه أقوال أيضاً: فعن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومحمد بن سيرين، والحسن، وقتادة، وأبي صالح، والضحاك، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم: رأى صورة أبيه يعقوب، عليه السلام، عاضاً على أصبعه بفمه[٨].

وقيل عنه في رواية: فضرب في صدر يوسف.

وقال العوفي، عن ابن عباس: رأى خيال[٩] الملك، يعني: سيده، وكذا قال محمد بن إسحاق،

---

(١) في ت: «وقرأ».

(٢) في أ: «لهن». (٣) في ت، أ: «وحديث». (٤) في ت: «وأورد».

(٥) معالم التنزيل (٤/ ٢٣٦).

(٦) صحيح البخاري برقم (٧٥٠١) وصحيح مسلم برقم (١٢٨).

(٧) تفسير الطبري (١٦/ ٣٨، ٣٩) وما ذكره الحافظ هنا في معنى الهمّ غير مسلم به، والراجح هو ما اختاره أبو حيان في تفسيره ونقله عنه العلامة الشنقيطي في «أضواء البيان» (٣/ ٦٠) وقال: «والجواب الثاني ـ وهو الذي اختاره أبو حيان ـ أن يوسف لم يقع منه همّ أصلاً، بل هو منفي عنه لوجود البرهان ...» واطلع على كلامه هناك.

(٨) في ت، أ: «بفمه». (٩) في ت، أ: «خيال».

فيما حكاه عن بعضهم: إنما هو خيال إطفير سيده، حين دنا من الباب[1].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وَكِيع، عن أبي مودود[2]، سمعت من محمد بن كعب القُرَظي قال: رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت، فإذا كتاب في حائط البيت: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢].

وكذا رواه أبو مَعْشَر المدني، عن محمد بن كعب.

وقال عبد الله بن وهب، أخبرني نافع بن يزيد، عن أبي صخر قال: سمعت القرظي يقول في: «البرهان» الذي رأى يوسف: ثلاث آيات من كتاب الله ﴿ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ الآية[الانفطار: ١٠]، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ الآية: [يونس: ٦١]، وقوله: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد: ٣٣] قال نافع: سمعت أبا هلال يقول مثل قول القرظي، وزاد آية رابعة ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقال الأوزاعي: رأى آية من كتاب الله في الجدار تنهاه[3] عن ذلك.

قال ابن جرير: والصواب أن يقال: إنه رأى من آيات الله ما زجره عما كان هم به، وجائز أن يكون صورة يعقوب، وجائز أن يكون [صورة][4] الملك، وجائز أن يكون ما رآه مكتوبا من الزجر عن ذلك. ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى.

قال: وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾أي: كما أريناه برهانا صرفه عما كان فيه، كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره.

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ أي: المجتبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار، صلوات الله وسلامه عليه.

**﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ**

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في الفتاوى (١٠/٢٩٧): «وما ينقل من أنه حل سراويله وجلس مجلس الرجل من المرأة وأنه رأى صورة يعقوب عاضاً على يد، وأمثال ذلك، فهو مما لم يخبر الله به ولا رسوله، وما لم يكن كذلك، فإنما هو مأخوذ عن اليهود الذين هم من أعظم الناس كذباً على الأنبياء، وقدحاً فيهم، وكل من نقله من المسلمين فعنهم نقله، لم ينقل من ذلك أحد عن نبينا ﷺ حرفاً واحداً». وانظر: الإسرائيليات في كتب التفسير لمحمد أبو شهبة (ص ٢٢٠ ـ ٢٢٥).

(٢) في ت: «المرودود». (٣) في ت، أ: «وبالجدار نهاه». (٤) زيادة من ت، أ.

عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩)﴾.

يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب، يوسف هارب، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت، فلحقته في أثناء ذلك، فأمسكت بقميصه [من ورائه][1] فَقَدَّته[2] قداً فظيعا، يقال: إنه سقط عنه، واستمر يوسف هاربا ذاهبا، وهي في إثره، فألفيا سيدها ـ وهو زوجها ـ عند الباب، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها متنصلة وقاذفة يوسف بدائها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ أي[3]: فاحشة، ﴿إِلَّا أَن يُسْجَنَ﴾ أي: يحبس، ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: يضرب ضربا شديداً موجعا. فعند ذلك انتصر يوسف، عليه السلام، بالحق، وتبرأ مما رمته به من الخيانة، وقال بارا صادقا[4]: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾، وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قدت قميصه، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ أي: من قدامه، ﴿فَصَدَقَتْ﴾ أي: في قولها إنه أرادها على نفسها، لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته في صدره، فقدت قميصه، فيصح ما قالت: ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، وذلك يكون كما وقع لما هرب منها، وتطلبته أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها، فقدت قميصه من ورائه.

وقد اختلفوا في هذا الشاهد: هل هو صغير أو كبير، على قولين لعلماء السلف، فقال عبد الرزاق:

أخبرنا إسرائيل، عن سِمَاك، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قال: ذو لحية.

وقال الثوري، عن جابر، عن ابن أبي مُلَيْكَة، عن ابن عباس: كان من خاصة الملك. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي، ومحمد بن إسحاق: إنه كان رجلا.

وقال زيد بن أسلم، والسدي: كان ابن عمها.

وقال ابن عباس: كان من خاصة الملك.

وقد ذكر ابن إسحاق أن زليخا كانت بنت أخت الملك الريان بن الوليد.

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قال: كان صبيا في المهد. وكذا رُوي عن أبي هريرة، وهلال بن يَسَاف، والحسن، وسعيد بن جبير والضحاك بن مُزاحم: أنه كان صبيا في الدار. واختاره ابن جرير.

وقد ورد فيه حديث مرفوع فقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا عفان، حدثنا حماد ـ هو ابن سلمة ـ أخبرني عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي

---

(١) زيادة من ت، أ.  (٢) في ت، أ: "فقدت".  (٣) في ت، أ: "يعني".

(٤) في ت: "صادقا بارا".

ﷺ قال: «تكلم أربعة وهم صغار»، فذكر فيهم شاهد يوسف[(١)].

ورواه غيره عن حماد بن سلمة، عن عطاء، عن سعيد، عن ابن عباس؛ أنه قال: تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جُرَيْج، وعيسى ابن مريم[(٢)].

وقال ليث ابن أبي سليم، عن مجاهد: كان من أمر الله، ولم يكن إنسيًا. وهذا قول غريب.

وقوله: ﴿فلمَّا رأى قميصهُ قُدَّ من دُبُرٍ﴾ أي: فلما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به، ﴿قال إنَّهُ من كيدكُنَّ﴾ أي: إن هذا البهت واللَّطخ الذي لطخت عرض هذا الشاب به من جملة كيدكن، ﴿إنَّ كيدكُنَّ عظيمٌ﴾.

ثم قال آمرا ليوسف، عليه السلام، بكتمان ما وقع: يا ﴿يُوسُفُ أعرض عن هذا﴾ أي: اضرب عن هذا [الأمر][(٣)] صفحا، فلا تذكره لأحد. ﴿واستغفري لذنبك﴾، يقول لامرأته وقد كان لين العريكة سهلا، أو أنه عذرها؛ لأنها رأت ما لا صبر لها عنه، فقال لها: ﴿استغفري لذنبك﴾ أي: الذي[(٤)] وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب، ثم قذفه بما هو بريء منه، استغفري من هذا الذي وقع منك، ﴿إنكِ كنتِ من الخاطئين﴾.

﴿وقال نسوةٌ في المدينة امرأةُ العزيز تُراودُ فتاها عن نفسه قد شغفها حُبًّا إنَّا لنراها في ضلالٍ مُّبينٍ (٣٠) فلمَّا سمعت بمكرهنَّ أرسلت إليهنَّ وأعتدت لهنَّ مُتَّكأً وآتت كُلَّ واحدةٍ مِّنهُنَّ سكِّينًا وقالت اخرُج عليهنَّ فلمَّا رأينهُ أكبرنهُ وقطَّعن أيديهُنَّ وقُلن حاش لله ما هذا بشرًا إنْ هذا إلاَّ ملكٌ كريمٌ (٣١) قالت فذلكُنَّ الَّذي لُمتُنَّني فيه ولقد راودتُّهُ عن نَّفسه فاستعصم ولئن لَّم يفعل ما آمُرُهُ ليُسجننَّ وليكُونًا مِّن الصَّاغرين (٣٢) قال ربِّ السِّجنُ أحبُّ إليَّ ممَّا يدعُونني إليه وإلاَّ تصرف عنِّي كيدهُنَّ أصبُ إليهنَّ وأكُن مِّن الجاهلين (٣٣) فاستجاب لهُ ربُّهُ فصرف عنهُ كيدهُنَّ إنَّهُ هُو السَّميعُ العليمُ (٣٤)﴾.

يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع في المدينة، وهي مصر، حتى تحدث الناس به، ﴿وقال نسوةٌ في المدينة﴾ مثل نساء الأمراء [و][(٥)] الكبراء، ينكرن على امرأة العزيز، وهو الوزير، ويعبن ذلك عليها. ﴿امرأةُ العزيز تُراودُ فتاها عن نفسه﴾ أي: تحاول غلامها عن نفسه، وتدعوه إلى

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٥٥) ورواه أحمد في المسند (١/ ٣١٠) والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٩٦) من طريق حماد بن سلمة به، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٢) رواه العلاء بن عبد الجبار عن حماد موقوفا أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٤).

(٣) زيادة من ت. (٤) في ت: «للذي». (٥) زيادة من ت، أ.

نفسها، ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: قد وصل حبه إلى شغاف قلبها. وهو غلافه.

قال الضحاك عن ابن عباس: الشَّغَف: الحب القاتل، والشَّغَف دون ذلك، والشغاف: حجاب القلب.

﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في صنيعها هذا من حبها فتاها، ومراودتها إياه عن نفسه.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾: قال بعضهم: بقولهن. وقال محمد بن إسحاق: بل[1] بَلَغَهُنَّ حُسْنُ يوسف، فأحببن أن يرينه، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته، فعند ذلك ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: دعتهن إلى منزلها لتضيفهن ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾.

قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والحسن، والسدي، وغيرهم: هو المجلس المعد، فيه مفارش ومخاد وطعام، فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج[2] ونحوه. ولهذا قال تعالى: ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾، وكان هذا مكيدة منها، ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته، ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾، وذلك أنها كانت قد خبأته في مكان آخر، ﴿فَلَمَّا﴾ خرج و ﴿رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أي: أعظمن شأنه، وأجللن قدره، وجعلن يقطعن أيديهم دَهَشًا برؤيته، وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج[3] بالسكاكين، والمراد: أنهن حززن أيديهن بها، قاله غير واحد.

وعن مجاهد، وقتادة: قطعن أيديهن حتى ألقينها، فالله[4] أعلم.

وقد ذكر عن زيد بن أسلم أنها قالت لهن بعدما أكلن وطابت أنفسهن، ثم وضعت بين أيديهن أترجا[5]، وآتت كل واحدة منهن سكينا: هل لكن في النظر إلى يوسف؟ قلن: نعم. فبعثت إليه تأمره أن اخرج إليهن[6]، فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن، ثم أمرته أن يرجع فرجع ليرينه مقبلا ومدبرا، وهن يحززن في أيديهن، فلما أحسسن بالألم جعلن يولولن، فقالت: أنتن من نظرة واحدة فعلتن هكذا، فكيف ألام أنا؟ فقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم، ثم قلن لها: وما نرى عليك من لوم بعد الذي رأينا، لأنهن لم يرين في البشر شبهه ولا قريبا منه، فإنه، صلوات الله عليه وسلم[7]، كان قد أعطي شطر الحسن، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح في حديث الإسراء: أن رسول الله ﷺ مر بيوسف، عليه السلام، في السماء الثالثة، قال: «فإذا هو قد أعطي شطر الحسن»[8].

وقال حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطي يوسف وأمه شطر

---

(١) في ت، أ: «قيل». (٢) في ت، أ: «أترنج». (٣) في ت: «الأترنج».
(٤) في أ: «والله». (٥) في أ: «أترجا». (٦) في أ: «عليهن».
(٧) في ت، أ: «وسلامه».
(٨) رواه مسلم في صحيحه برقم (١٦٢) من حديث أنس رضي الله عنه.

الحسن»[١]. وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: أعطي يوسف وأمه ثلث الحسن.

وقال أبو إسحاق أيضا، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: كان وجه يوسف مثل البرق، وكانت المرأة إذا أتته لحاجة غطّى وجهه مخافة أن تفتتن به.

ورواه الحسن البصري مرسلا، عن النبي ﷺ أنه قال: «أعطي يوسف وأمه ثلث حسن أهل الدنيا، وأعطي الناس الثلثين ـ أو قال: أعطي يوسف وأمه الثلثين والناس الثلث»[٢].

وقال سفيان، عن منصور، عن مجاهد عن ربيعة الجُرَشي قال: قسم الحسن نصفين، فأعطي يوسف وأمه سارة نصف الحسن. والنصف الآخر بين سائر الخلق.

وقال الإمام أبو القاسم السهيلي: معناه: أن يوسف كان على النصف من حسن آدم، عليه السلام، فإن الله خلق آدم بيده على أكمل صورة وأحسنها، ولم يكن في ذريته من يوازيه في جماله، وكان يوسف قد أعطي شطر حسنه.

فلهذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته: ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ قال مجاهد وغير واحد: معاذ الله، ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ وقرأ بعضهم: «ما هذا بِشِرًى» أي: بمشترى.

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ . قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾: تقول هذا معتذرة إليهن بأن هذا حقيق بأن يحبّ لجماله وكماله.

﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي: فامتنع. قال بعضهم: لما رأين جماله الظاهر، أخبرتهن بصفاته الحسنة التي تخفى عنهن، وهي[٣] العفة مع هذا الجمال، ثم قالت تتوعد[٤]: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾، فعند ذلك استعاذ يوسف، عليه السلام، من شرهن وكيدهن، وقال: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ أي: من الفاحشة. ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: إن وكلتني إلى نفسي، فليس لي من نفسي قدرة، ولا أملك لها ضرا ولا نفعا إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان وعليك التكلان، فلا تكلني إلى نفسي.

﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ . فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، وذلك أن يوسف، عليه السلام، عَصَمه الله عصمة عظيمة، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٨٠) والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٧٠) وابن عدي في الكامل (٥/ ٣٨٥) من طريق عفان عن حماد بن سلمة به، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه». قال ابن عدي: «وهذا الحديث ما أعلم رفعه أحد غير عفان، وغيره أوقفه عن حماد بن سلمة، وعفان أشهر وأوثق وأصدق من أن يقال فيه شيء مما ينسب إلى الضعف».

(٢) رواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٨٠).

(٣) في ت: «عليهن وهو».　　　(٤) في ت، أ: «تتوعده».

على ذلك، وهذا في غاية مقامات الكمال: أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته، وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في[١] غاية الجمال والمال، والرياسة ويمتنع من ذلك، ويختار السجن على ذلك، خوفا من الله ورجاء ثوابه.

ولهذا ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله[٢]، ورجل قلبه معلق بالمسجد[٣]، إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وافترقا[٤] عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات جمال ومنصب، فقال: إني أخاف الله»[٥].

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾.

يقول تعالى: ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين، أي: إلى مدة، وذلك بعدما عرفوا براءته، وظهرت الآيات - وهي الأدلة - على صدقه في عفته ونزاهته. فكأنهم - والله أعلم - إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاما[٦] أن هذا راودها عن نفسها، وأنهم سجنوه على ذلك. ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة، امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة، فلما تقرر ذلك خرج وهو نَقِيّ العرض، صلوات الله عليه وسلامه.

وذكر السُّدِّي: أنهم إنما سجنوه لئلا يشيع ما كان منها[٧] في حقه، ويبرأ عرضه فيفضحها.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

قال قتادة: كان أحدهما ساقي الملك، والآخر خبازه.

قال محمد بن إسحاق: كان اسم الذي على الشراب «نبوا»، والآخر «مجلث».

قال السدي: وكان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالآ على سمه في طعامه وشرابه.

وكان[٨] يوسف، عليه السلام، قد اشتهر في السجن بالجود[٩] والأمانة وصدق الحديث، وحسن السَّمت وكثرة العبادة، صلوات الله عليه وسلامه، ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن وعيادة

---

(١) في ت: «إلى».
(٢) في ت: «في طاعة الله عز وجل».
(٣) في ت، أ: «في المسجد».
(٤) في ت، أ: «وتفرقا».
(٥) صحيح البخاري برقم (١٤٢٣) وصحيح مسلم برقم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٦) في ت: «اتهاما».
(٧) في أ: «منهما».
(٨) في ت: «فكان».
(٩) في أ: «بالجودة».

مرضاهم والقيام بحقوقهم. ولما دخل هذان[١] الفتيان إلى السجن، تآلفا به وأحباه حبا شديدا، وقالا له: والله لقد أحببناك حبا زائدا. قال[٢]: بارك الله فيكما، إنه ما أحبني أحد إلا دخل عليّ من محبته ضرر، أحبتني عمتي فدخل على الضرر بسببها، وأحبني أبي فأوذيت بسببه، وأحبتني امرأة العزيز فكذلك، فقالا: والله ما نستطيع إلا ذلك، ثم إنهما رأيا مناما، فرأى الساقي أنه يعصر خمرا ـ يعني عنبا ـ وكذلك هي في قراءة عبد الله بن مسعود: «إني أراني أعصر عنبا». ورواه ابن أبي حاتم، عن أحمد بن سِنَان، عن يزيد بن هارون، عن شَرِيك، عن الأعمش، عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود: أنه قرأها: «أعصر عنبا».

وقال الضحاك في قوله: ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ يعني: عنبا. قال: وأهل عمان يسمُّون العنب خمرا.

وقال عكرمة: رأيت[٣] فيما يرى النائم أني غرست حَبَلَة من عنب، فنبتت. فخرج فيه عناقيد، فعصرتهن ثم سقيتهن الملك. قال[٤]: تمكث في السجن ثلاثة أيام، ثم تخرج فتسقيه خمراً.

وقال الآخر ـ وهو الخباز ـ: ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه، وأنهما رأيا مناما وطلبا تعبيره.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وَكِيع وابن حميد قالا: حدثنا جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن إبراهيم، عن عبد الله قال: ما رأى صاحبا يوسف شيئا، إنما كانا تحالما ليجربا عليه.

﴿ قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ (٣٨) ﴾.

يخبرهما يوسف، عليه السلام، أنهما[٥] مهما رأيا في نومهما من حلم، فإنه عارف[٦] بتفسيره ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه؛ ولهذا قال: ﴿ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾.

---

(١) في ت: «هذا». (٢) في ت، أ: «فقال».

(٣) في ت: «وقال عكرمة: قال له رأيت».

(٤) في ت، أ: «فقال». (٥) في ت: «أنه».

(٦) في أ: «عالم».

قال مجاهد: يقول: ﴿لا يأتيكما طعام ترزقانه﴾ [في نومكما][١]، ﴿إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما﴾، وكذا قال السدي.

وقال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا محمد ابن يزيد ـ شيخ له ـ حدثنا رشدين، عن الحسن بن ثوبان، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ما أدري لعل يوسف، عليه السلام، كان يعتاف وهو كذلك، لأني أجد في كتاب الله حين قال للرجلين: ﴿لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ قال: إذا جاء الطعام حلوا أو مرا اعتاف عند ذلك. ثم قال ابن عباس: إنما علم فعلم. وهذا أثر[٢] غريب.

ثم قال: وهذا إنما هو من تعليم الله إياي؛ لأني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر، فلا يرجون ثوابا ولا عقابا في المعاد. ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يقول: هجرت طريق الكفر والشرك، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى، واتبع المرسلين، وأعرض عن طريق الظالمين[٣] فإنه يهدي قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلمه، ويجعله إماما يقتدى[٤] به في الخير، وداعيا إلى سبيل الرشاد.

﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾: هذا التوحيد ـ وهو الإقرار بأنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، ﴿مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أي: أوحاه إلينا، وأمرنا به ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾، إذ جعلنا دعاة لهم إلى ذلك ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ[٥]﴾ أي: لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم، بل ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا حجاج، عن عطاء، عن ابن عباس؛ أنه كان يجعل الجد أبا، ويقول: والله فمن[٦] شاء لاعناه عند الحجر، ما ذكر الله جدا ولا جدة، قال الله تعالى ـ يعني إخبارا عن يوسف: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٤٠) ﴾.

ثم إن يوسف، عليه السلام، أقبل على الفتيين بالمخاطبة، والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما، فقال: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) في ت: «أمر». (٣) في ت، أ: «الضالين».
(٤) في ت: «يهتدي». (٥) في أ: «لا يعلمون». (٦) في ت، أ: «من».

﴿الْقَهَّارُ﴾ [أي][1]: الذي ولي[2] كل شيء بعز جلاله، وعظمة[3] سلطانه.

ثم بين لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهة، إنما هو جهل[4] منهم، وتسمية من تلقاء أنفسهم، تلقاها خلفهم عن سلفهم، وليس لذلك مستند من عند الله؛ ولهذا قال: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: حجة ولا برهان.

ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله، وقد أمر عباده قاطبة ألا يعبدوا إلا إياه، ثم قال: ذلك الدين القيم أي: هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله، وإخلاص العمل له، هو الدين المستقيم، الذي أمر الله به وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلهذا كان أكثرهم مشركين. ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقد قال ابن جرير: إنما عدل بهم يوسف عن تعبير الرؤيا إلى هذا؛ لأنه عرف أنها ضارة لأحدهما، فأحب أن يشغلهما بغير ذلك، لئلا يعاودوه فيها، فعاودوه، فأعاد عليهم الموعظة[5].

وفي هذا الذي قاله نظر؛ لأنه قد وعدهما أولا بتعبيرها[6]، ولكن جعل سؤالهما له على وجه التعظيم والاحترام وصلة وسببا إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام، لما رأى في سجيتهما من قبول الخير والإقبال عليه، والإنصات إليه، ولهذا لما فرغ من دعوتهما، شرع في تعبير رؤياهما، من غير تكرار سؤال فقال:

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١)﴾.

يقول لهما: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾، وهو الذي رأى أنه يعصر خمرا، ولكنه لم يعينه لئلا يحزن ذاك، ولهذا أبهمه في قوله: ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾، وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا.

ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه، وهو واقع لا محالة؛ لأن الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت.

وقال الثوري، عن عمارة بن القعقاع عن إبراهيم، عن عبد الله قال: لما قالا ما قالا، وأخبرهما، قالا: ما رأينا شيئا. فقال: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾

---

(١) زيادة من ت، أ.　(٢) في ت، أ: «دان».　(٣) في ت، أ: «وعظيم».

(٤) في ت، أ: «جعل».

(٥) تفسير الطبري (١٦/١٠٢).

(٦) في أ: «بتعبيرهما».

ورواه محمد بن فضيل[١]، عن عمارة، عن إبراهيم، عن علقمة، عن ابن مسعود به، وكذا فسره مجاهد، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم. وحاصله أن من تحلَّم بباطل وفسَّره، فإنه يُلزَم بتأويله، والله أعلم، وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد، عن معاوية بن حَيْدَة، عن النبي ﷺ: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعَبر[٢] فإذا عُبِّرت وقعت»[٣].

وفي مسند أبي يَعْلَى، من طريق يزيد الرَّقاشي، عن أنس مرفوعا: «الرؤيا لأول عابر»[٤].

**﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢)﴾.**

لما ظن[٥] يوسف، عليه السلام، نجاة أحدهما ـ وهو الساقي ـ قال له يوسف خفية عن الآخر والله أعلم، لئلا يشعره أنه المصلوب قال له: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، يقول: اذكر قصتي عند ربك[٦] ـ وهو الملك ـ فنسي ذلك الموصَى أن يُذكِّر مولاه بذلك، وكان من جملة مكايد الشيطان، لئلا يطلع نبي الله من السجن.

هذا هو الصواب أن الضمير في قوله: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ عائد على الناجي، كما قال مجاهد، ومحمد بن إسحاق وغير واحد. ويقال: إن الضمير عائد على يوسف، عليه السلام، رواه ابن جرير، عن ابن عباس، ومجاهد أيضا، وعِكْرِمة، وغيرهم. وأسند ابن جرير ها هنا حديثا فقال:

حدثنا ابن وكِيع، حدثنا عَمْرو بن محمد، عن إبراهيم بن يزيد[٧]، عن عمرو بن دينار، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «لو لم يقل ـ يعني: يوسف ـ الكلمة التي قال: ما لبث في السجن طول ما لبث. حيث يبتغي الفرج من عند غير الله»[٨].

وهذا الحديث ضعيف جدا؛ لأن سفيان بن وكيع ضعيف، وإبراهيم بن يزيد ـ هو الخُوزي ـ أضعف منه أيضا. وقد رُوي عن الحسن وقتادة مرسلا عن كل منهما، وهذه المرسَلات ها هنا لا تقبل لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن، والله أعلم.

وأما «البضع»، فقال مجاهد وقتادة: هو ما بين الثلاث إلى التسع. وقال وهب بن منبِّه: مكث

---

(١) في ت: «فضل». (٢) في ت: «يعبر».

(٣) سبق تخريجه عند تفسير الآية: «٥» من هذه السورة.

(٤) ورواه ابن ماجة في السنن برقم (٣٩١٥) من طريق عبد الله بن نمير، عن الأعمش، عن يزيد الرقاشي، عن أنس موقوفاً، وقال البوصيري في الزوائد (٣/٢١٦): «هذا إسناد فيه يزيد وهو ضعيف».

(٥) في ت، أ: «علم». (٦) في ت، أ: «الملك». (٧) في ت: «عن يزيد».

(٨) تفسير الطبري (١٦/١١٢).

أيوب في البلاء سبعاً ويوسف في السجن سبعاً، وعذاب[1] بختنصر سبعاً.

وقال الضحاك، عن ابن عباس، رضي الله عنهما: فلبث في السجن بضع سنين قال: ثنتا[2] عشرة سنة. وقال الضحاك: أربع عشرة سنة.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩)﴾.

هذه الرؤيا من مَلِك مصر مما قدّر الله تعالى أنها كانت سبباً لخروج يوسف، عليه السلام، من السجن مُعززاً مكرماً، وذلك أن المَلِك رأى هذه الرؤيا، فهالته وتعجّب من أمرها، وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة والحُزاة وكبراء دولته وأمراءه وقصّ عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه بأن هذه ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ أي: أخلاط اقتضت رؤياك هذه[3]، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ أي: ولو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط، لما كان لنا معرفة بتأويلها، وهو تعبيرها. فعند ذلك تذكّر ذلك الذي نجا من ذينك الفتيين اللذين[4] كانا في السجن مع يوسف، وكان الشيطان قد أنساه ما وصاه به يوسف، من ذكر أمره للملك، فعند ذلك تذكر ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: مدة ـ وقرأ بعضهم: «بعد أَمَهٍ» أي: بعد نسيان، فقال للملك والذين جمعهم لذلك: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي: بتأويل هذا المنام، ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ أي: فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن. ومعنى الكلام: فبعثوا[5]. فجاء. فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾، وذكر المنام الذي رآه الملك، فعند ذلك ذكر له يوسف، عليه السلام، تعبيرها من غير تعنيف لذلك الفتى في نسيانه ما وصاه به، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك، بل قال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي[6]: يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات، ففسر البقر بالسنين؛ لأنها تثير الأرض التي تُستغل منها الثمرات والزروع، وهن السنبلات

(١) في ت، أ: «وعذب». (٢) في ت، أ: «اثنتي». (٣) في ت، أ: «رؤيا في هذا».
(٤) في ت: «الذي». (٥) في ت: «فبعثوه». (٦) في ت: «إذا».

الخضر، ثم أرشدهم إلى ما يعتمدونه فى تلك السنين فقال: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أى: مهما استغللتم[1] فى هذه السبع السنين الخصب فاخزنوه فى سنبله، ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه، إلا المقدار الذى تأكلونه، وليكن قليلا قليلا لا تسرفوا فيه، لتنتفعوا فى السبع الشداد، وهن السبع السنين المُحْل التى تعقب هذه السبع متواليات، وهن البقرات العجاف اللاتى يأكلن السِّمان؛ لأن سنى[2] الجَدْب يؤكل فيها ما جَمَعوه فى سنى[3] الخصب، وهن السنبلات اليابسات.

وأخبرهم أنهن لا ينبتن شيئا، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء؛ ولهذا قال: ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾.

ثم بشرهم بعد الجَدْب العام المتوالى بأنه يعقبهم بعد ذلك ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ أى: يأتيهم الغيث، وهو المطرُ، وتُغل البلاد، ويَعصرُ الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم، من زيت ونحوه، وسكر ونحوه حتى قال بعضهم: يدخل[4] فيه حلب اللبن أيضاً.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾: يحلبون.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣)﴾.

يقول تعالى إخباراً عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه، التى كان رآها، بما أعجبه وأيقنه، فعرف فضل يوسف، عليه السلام، وعلمه [وحسن اطلاعه على رؤياه][5]، وحسن أخلاقه على من ببلده من رعاياه، فقال ﴿ائْتُونِي بِهِ﴾ أى: أخرجوه من السجن وأحضروه. فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته، ونزاهة عرضه، مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه، بل كان ظلما وعدوانا، قال: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

وقد وردت السنة بمدحه على ذلك، والتنبيه على فضله وشرفه، وعُلُوّ قدره وصبره، صلوات الله

---

(١) فى ت، أ: «استغليتم».
(٢، ٣) فى ت، أ: «سنين».
(٤) فى ت، أ: «ويدخل».
(٥) زيادة من ت، أ.

وسلامه عليه، ففي المسند والصحيحين من حديث الزهري، عن سعيد وأبي سلمة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، ويرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي»[١].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «لو كنت أنا لأسرعت الإجابة، وما ابتغيت العذر»[٢].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عُيَيْنَة، عن عمرو بن دينار، عن عكْرِمة قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له، حين سُئل عن البقرات العجاف والسِّمان، ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى أشترط أن يخرجوني. ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له، حين أتاه الرسول، ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب، ولكنه أراد أن يكون له العذر». هذا حديث مرسل[٣].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾: إخبار عن الملك حين جمع النِّسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطبا لهن كلهن ـ وهو يريد امرأة وزيره، وهو العزيز ـ: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ أي: شأنكن وخبركن ﴿إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ يعني: يوم الضيافة؟ ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ أي: قالت النسوة جوابا للملك: حاش لله أن يكون يوسف مُتَّهمًا، والله ما علمنا عليه من سوء. فعند ذلك ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: تقول الآن: تبين الحق وظهر وبرز.

﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: في قوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾. ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾. تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسي، ذلك ليعلم زوجي أن لم أخنه في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة، فامتنع؛ فلهذا اعترفتُ ليعلم أني بريئة، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ . وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾. تقول المرأة: ولست أبرئ نفسي، فإن النفس تتحدث[٤] وتتمنى؛ ولهذا راودته لأنها أمارة بالسوء، ﴿إِلَّا مَا[٥] رَحِمَ رَبِّي﴾ أي: إلا من عصمه الله تعالى، ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ[٦] رَّحِيمٌ﴾.

---

(١) المسند (٢/٣٢٦) وصحيح البخاري برقم (٤٦٩٤) وصحيح مسلم برقم (١٥١).

(٢) المسند (٢/٣٤٧) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٤٠): «وفيه محمد بن عمرو، وهو حسن الحديث».

(٣) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٨١، ٢٨٢) وقد وصله إسحاق بن راهويه في مسنده، ومن طريقه الطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٢٤٩) من طريق إبراهيم بن يزيد الخوزي عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس مرفوعاً بنحوه. وفيه إبراهيم بن يزيد وهو متروك.

(٤) في ت، أ: «تحدث». (٥) في ت، أ: «من» وهو خطأ. (٦) في ت: «الغفور» وهو خطأ.

وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام. وقد حكاه الماوردي في تفسيره، وانتدب لنصره الإمام العلامة أبو العباس ابن تيميَّة، رحمه الله، فأفرده بتصنيف على حدة[1].

وقد قيل: إن ذلك من كلام يوسف، عليه السلام، من قوله: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ ﴾ في زوجته ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ الآيتين أي: إنما رَدَدْتُ الرسول ليعلم الملك براءتي وليعلم العزيز ﴿ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ في زوجته ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾، ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ . وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [الآية][2]، وهذا القول هو الذي لم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم سواه.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وكيع، عن إسرائيل، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما جمع الملك النسوة فسألهن: هل راودتن يوسف عن نفسه؟ ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ قال يوسف: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ [وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ][3]﴾، قال: فقال له جبريل، عليه السلام: ولا يوم هممت بما هممت به. فقال: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾[4].

وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جُبَيْر، وعكرمة، وابن أبي الهُذَيْل، والضحاك، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي. والقول الأول أقوى وأظهر؛ لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف، عليه السلام، عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) ﴾.

يقول تعالى إخباراً عن الملك حين تحقق براءة يوسف، عليه السلام، ونزاهة عرضه مما نسب إليه، قال: ﴿ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أي: أجعله من خاصتي وأهل مشورتي﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ أي: خاطبه الملك وعرفه، ورأى فضله وبراعته، وعلم ما هو عليه من خَلْق وخُلُق وكمال قال له الملك: ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي: إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة، فقال يوسف، عليه السلام: ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾، مدح نفسه، ويجوز للرجل ذلك إذا جُهِل أمره، للحاجة. وذكر أنه ﴿ حَفِيظٌ ﴾ أي: خازن أمين، ﴿عَلِيمٌ ﴾ ذو علم وبصر بما يتولاه[5].

قال شيبة بن نعامة: حفيظ لما استودعتني، عليم بِسِنِيِّ الجَدْب. رواه ابن أبي حاتم.

وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه، ولما في ذلك من المصالح للناس[6]، وإنما سأل أن يُجْعَل على

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٠/ ٢٩٨). (٢، ٣) زيادة من ت، أ.
(٤) تفسير الطبري (١٦/ ١٤٣).
(٥) في ت: «تولاه». (٦) في ت: «مصالح الناس».

خزائن[١] الأرض، وهى الأهرام التى[٢] يجمع فيها الغلات، لما يستقبلونه من السنين التى أخبرهم بشأنها، ليتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه، وتكرمة له؛ ولهذا قال تعالى:

**﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧) ﴾.**

يقول تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ ﴾ أي: أرض مصر، ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾.

قال السُّدِّي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يتصرف فيها كيف يشاء.

وقال ابن جرير: يتخذ منها منزلا حيث يشاء[٣]، بعد الضيق والحبس والإسار. ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾أي: وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز؛ فلهذا أعقبه الله عز وجل السلامة والنصر والتأييد، ﴿وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾، يخبر تعالى أن ما ادخره[٤] الله لنبيه يوسف، عليه السلام، فى الدار الآخرة أعظم وأكثر[٥] وأجل، مما خوله من التصرف والنفوذ فى الدنيا كما قال تعالى فى حق سليمان، عليه السلام: ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ. وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [ص: ٣٩، ٤٠].

والغرض أن يوسف، عليه السلام، ولاه مَلك مصر الريانُ بن الوليد الوزارة فى بلاد مصر، مكان الذى اشتراه من مصر زوج التى راودته، وأسلم الملك على يدى يوسف، عليه السلام. قاله مجاهد.

وقال محمد بن إسحاق لما قال يوسف للملك: ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾، قال الملك: قد فعلت. فولاه فيما ذكروا عمل إطفير[٦]، وعزل إطفير[٧] عما كان عليه، يقول الله عز وجل: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فذكر لى ـ والله أعلم ـ أن إطفير[٨] هَلك فى تلك الليالى، وأن الملك الريان بن الوليد زوّج يوسف امرأة إطفير[٩]: راعيل، وأنها حين دخلت عليه قال: أليس هذا خيراً مما كنت تريدين؟ قال: فيزعمون أنها قالت: أيها الصديق، لا تلمني، فإنى كنت امرأة كما ترى حسناء جميلة، ناعمة فى ملك ودنيا، وكان صاحبى لا يأتى النساء، وكنت كما جعلك الله فى حسنك وهيئتك[١٠] على ما رأيت، فيزعمون أنه وجدها عذراء، فأصابها فولدت له رجلين أفرائيم بن يوسف، وميشا بن

---

(١) فى ت: «خزان».
(٢) فى ت: «الذى».
(٣) فى ت: «شاء».
(٤) فى ت: «ادخر».
(٥) فى ت: «وأكبر».
(٦ـ ٩) فى ت: «إظفير».
(١٠) فى ت: «وهيبتك».

يوسف[1]. وولد لأفرائيم نون، والد يوشع بن نون، ورحمة امرأة أيوب، عليه السلام.

وقال الفضيل بن عياض: وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق، حتى مرّ يوسف، فقالت: الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكا بطاعته، والملوك عبيدا بمعصيته.

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

ذكر السُّدّي، ومحمد بن إسحاق، وغيرهما من المفسرين: أن السبب الذي أقدم إخوة يوسف بلاد مصر، أن يوسف، عليه السلام، لما باشر الوزارة بمصر، ومضت السبع السنين المخصبة، ثم تلتها سنينُ الجدب، وعمّ القحط بلاد مصر بكمالها، ووصل إلى بلاد كنعان، وهي التي فيها يعقوب، عليه السلام، وأولاده. وحينئذ احتاط يوسف، عليه السلام، للناس في غلاتهم، وجمعها أحسن[2] جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم، وأهْراءَ متعددة هائلة، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يعطي الرجل أكثر من حمل بعير في السنة. وكان، عليه السلام، لا يشبع نفسه ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النهار، حتى يتكفى الناس بما في أيديهم مدة السبع سنين. وكان رحمة من الله على أهل مصر.

وما ذكره بعض المفسرين من أنه باعهم في السنة الأولى بالأموال، وفي الثانية بالمتاع، وفي الثالثة بكذا، وفي الرابعة بكذا، حتى باعهم بأنفسهم وأولادهم بعد ما تَمَلَّك عليهم جميع ما يملكون، ثم أعتقهم وردّ عليهم أموالهم كلها، الله[3] أعلم بصحة ذلك، وهو من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب.

والغرض أنه كان في جملة من ورد للميرة إخوةُ يوسف، عن أمر أبيهم لهم في ذلك، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمنه، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعاما، وركبوا عشرة نفر، واحتبس يعقوب، عليه السلام، عنده بنيامين شقيق يوسف، عليهما[4] السلام، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف. فلما دخلوا على يوسف، وهو جالس في أبهته ورياسته وسيادته، عرفهم حين نظر إليهم، ﴿ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ أي: لا يعرفونه؛ لأنهم فارقوه وهو صغير حدث فباعوه[5] للسيارة، ولم يدروا أين يذهبون به، ولا كانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه، فلهذا لم يعرفوه، وأما هو فعرفهم.

---

(١) وهذا مما لم يرد به الكتاب ولا السنة، فمثله لا يعتمد فيه على رواية ابن إسحاق رحمه الله.

(٢) في ت: «أتم». (٣) في ت: «والله».

(٤) في ت: «عليه». (٥) في ت: «وباعوه».

فذكر السدى وغيره: أنه شرع يخاطبهم، فقال لهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادى؟ قالوا: أيها العزيز، إنا قدمنا للميرة. قال: فلعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله. قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبى الله. قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم، كنا اثنى عشر، فذهب أصغرنا، هلك في البَرِّيَّة، وكان أحبنا إلى أبيه، وبقى شقيقة فاحتبسه [1] أبوه ليتسلى به عنه. فأمر بإنزالهم وإكرامهم.

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ أى: وفَّاهم كيلهم، وحمل لهم أحمالهم قال: ائتونى بأخيكم هذا الذى ذكرتم، لأعلم صدقكم فيما ذكرتم، ﴿ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ يرغبهم فى الرجوع إليه، ثم رَهَّبهم فقال: ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ ﴾ أى: إن لم تقدموا به معكم فى المرة الثانية، فليس لكم عندى ميرة، ﴿ وَلا تَقْرَبُونِ. قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ أى: سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن ولا نبقى مجهودا لتعلم صدقنا فيما قلناه.

وذكر السدى: أنه أخذ منهم رهائن حتى يقدموا به معهم. وفى هذا نظر؛ لأنه أحسن إليهم ورغبهم كثيرا، وهذا لحرصه [2] على رجوعهم.

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ ﴾ أى: غلمانه ﴿ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ ﴾، وهى التى قدموا بها ليمتاروا عوضاً عنها ﴿ فِي رِحَالِهِمْ ﴾ أى: فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾بها.

قيل: خشى يوسف، عليه السلام، ألا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها. وقيل: تذمم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضا عن الطعام. وقيل: أراد أن يردهم إذا وجدوها فى متاعهم تحرجاً وتورعاً لأنه يعلم ذلك منهم [3] والله أعلم.

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) ﴾.

يخبر تعالى عنهم أنهم لما رجعوا إلى أبيهم﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ يعنون بعد هذه المرة، إن لم ترسل معنا أخانا بنيامين، فأرسله معنا نكتل.

وقرأ بعضهم: [يكتل] [4] بالياء، أى يكتل هو، ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ أى: لا تخف عليه فإنه سيرجع إليك. وهذا كما قالوا له فى يوسف: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ [5] وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾، ولهذا قال لهم: ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ أى: هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، تغيبونه عنى، وتحولون بينى وبينه؟ ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ﴾ وقرأ بعضهم: ﴿حَافِظًا﴾،

---

(١) فى ت: «فاحتبسوا». (٢) فى ت: «ولهذا يحرصه» وفى أ: «ولهذا يحرضهم».

(٣) فى ت، أ: «منهم ذلك». (٤) زيادة من ت، أ. (٥) فى ت، أ: «نرتع ونلعب».

﴿ وهو أرحم الراحمين ﴾ أي: هو أرحم الراحمين بي، وسيرحم كبري وضعفي ووجدي بولدي، وأرجو من الله أن يرده علي، ويجمع شملي به، إنه أرحم الراحمين.

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) ﴾.

يقول تعالى: ولما فتح إخوة يوسف متاعهم، وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، وهي التي كان أمر يوسف فتيانه بوضعها في رحالهم، فلما وجدوها في متاعهم ﴿ قالوا يا أبانا ما نبغي﴾؟ أي: ماذا نريد؟ ﴿ هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾ كما قال قتادة. ما نبغي وراء هذا[1]؟ إن بضاعتنا ردت إلينا وقد أوفى لنا الكيل.

﴿ ونمير أهلنا﴾أي: إذا أرسلت أخانا معنا نأتي بالميرة إلى أهلنا، ﴿ ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير﴾ وذلك أن يوسف، عليه السلام، كان يعطي كل رجل حمل بعير. وقال مجاهد: حمل حمار. وقد يسمى في بعض اللغات بعيرا، كذا قال.

﴿ ذلك كيل يسير﴾: هذا من تمام الكلام وتحسينه، أي: إن هذا يسير في مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا.

﴿ قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله﴾ أي: تحلفون[2] بالعهود والمواثيق، ﴿ لتأتنني به إلا أن يحاط بكم﴾ إلا أن تغلبوا كلكم ولاتقدرون على تخليصه.

﴿فلما آتوه موثقهم﴾ أكده عليهم فقال: ﴿ الله على ما نقول وكيل﴾.

قال ابن إسحاق: وإنما فعل ذلك؛ لأنه لم يجد بدا من بعثهم لأجل الميرة، التي لا غنى لهم عنها، فبعثه معهم.

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾.

---

(١) في ك: «هذه».

(٢) في ت: «تحلفوا».

يقول تعالى، إخبارا عن يعقوب، عليه السلام: إنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر، ألا يدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة، فإنه كما قال ابن عباس، ومحمد بن كعب، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسُّدِّي: إنه خشي عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء، فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم؛ فإن العين حق، تستنزل الفارس عن فرسه.

وروى ابن أبي حاتم، عن إبراهيم النَّخَعي في قوله: ﴿ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ قال: علم أنه سيلقى إخوته في بعض الأبواب.

وقوله: ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه[1]؛ فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع[2]، ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ. وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ قالوا: هي دفع إصابة العين لهم، ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾: قال قتادة والثوري: لذو عمل بعلمه. وقال ابن جرير: لذو علم لتعليمنا إياه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

**﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) ﴾.**

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم اخوه شقيقه بنيامين، فأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والإلطاف والإحسان، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه، وما جرى له، وعرّفه أنه أخوه، وقال له: «لاتبتئس» أي: لا تأسف على ما صنعوا بي، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وألا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده، مُعزّزًا مكرما معظما.

**﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) ﴾.**

لما جَهَّزهم وحَمَّل لهم أبعرتهم طعاما، أمر بعض فتيانه أن يضع «السقاية»، وهي: إناء من فضة في قول الأكثرين. وقيل: من ذهب ـ قاله ابن زيد ـ كان يشرب فيه، ويكيل للناس به من عزّة الطعام إذ ذاك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد.

وقال شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ قال: كان من

---

(١) في ت: «قضاء الله وقدره».

(٢) في ت: «لا يمانع ولا يخالف».

فضة يشربون فيه، وكان مثل المكوك، وكان للعباس مثله في الجاهلية، فوضعها في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد، ثم نادى مناد بينهم: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾، فالتفتوا إلى المنادي وقالوا: ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ. قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ أي: صاعه الذي يكيل به، ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾، وهذا من باب الجُعَالة، ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾، وهذا من باب الضمان والكفالة.

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾.

لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة، قال لهم إخوة يوسف: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ أي: لقد تحققتم وعلمتم منذ [1] عرفتمونا، لأنهم [2] شاهدوا منهم سيرة حسنة، أنّا ما جئنا للفساد في الأرض، وما كنا سارقين، أي: ليست سجايانا تقتضي هذه الصفة، فقال [3] لهم الفتيان: ﴿ فَمَا جَزَاؤُهُ ﴾ أي: السارق، إن كان فيكم ﴿إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾ اي: أي شيء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه [4]؟ ﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

وهكذا كانت شريعة إبراهيم: أن السارق يدفع إلى المسروق منه. وهذا هو الذي أراد يوسف، عليه السلام؛ ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، أي: فتشها قبله، تورية، ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾، فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم وإلزاما لهم بما يعتقدونه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾، وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾أي: لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر، قاله الضحاك وغيره.

وإنما قيض الله له أن [5] التزم له إخوته بما التزموه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم؛ ولهذا مدحه تعالى فقال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾، كما قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١١].

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾: قال الحسن البصري: ليس عالم إلا فوقه عالم، حتى ينتهي إلى الله عز وجل. وكذا روى عبد الرزاق، عن سفيان الثوري، عن عبد الأعلى الثعلبي، عن سعيد بن جبير

(١) في ت: «مذ». (٢) في ت: «لا لأنهم». (٣) في أ: «فقالت».
(٤) في أ: «فيهم من أخذها». (٥) في ت: «أنه».

قال: كنا عند ابن عباس فتحدث بحديث عجيب، فتعجب رجل فقال: الحمد لله ﴿فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [فقال ابن عباس: بئس ما قلت، الله العليم، وهو فوق كل عالم][1]، وكذا روى سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، قال: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، والله فوق كل عالم. وهكذا[2] قال عكرمة.

وقال قتادة: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، حتى ينتهي العلم إلى الله، منه بُدِئ وتعلمت العلماء، وإليه يعود، وفي قراءة عبد الله «وَفَوْقَ كُلِّ عالم عليم».

﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧)﴾.

وقال[3] إخوة يوسف لما رأوا الصّواع قد أخرج من متاع بنيامين: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾، يتنصلون إلى العزيز من التشبه[4] به، ويذكرون أن هذا فَعَل كما فعل أخ له من قبل، يعنون به يوسف، عليه السلام.

قال سعيد بن جبير، عن قتادة[5]: كان يوسف قد سرق صنما لجده، أبي أمه، فكسره.

وقال محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نَجيح، عن مجاهد قال: كان أول ما دخل على يوسف من البلاء، فيما بلغني، أن عمته ابنة إسحاق، وكانت أكبر ولد إسحاق، وكانت إليها منطقة إسحاق، وكانوا يتوارثونها بالكبر، فكان من اختبأها[6] ممن وليها كان له سَلَمًا لا ينازع فيه، يصنع فيه ما يشاء[7]. وكان يعقوب حين وُلد له يوسف قد حضنته عمته، فكان منها وإليها، فلم يُحب أحدٌ شيئا من الأشياء حبها إياه، حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات وقعت نفس يعقوب عليه فأتاها، فقال: يا أخيّة[8]، سلّمي إليّ يوسف، فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة. قالت: فوالله ما أنا بتاركته. ثم قالت: فدعه عندي أياما أنظر إليه وأسكن عنه. لعل ذلك يسلّيني عنه ـ أو كما قالت. فلما خرج من عندها يعقوب، عمدت إلى منطقة إسحاق، فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه، ثم قالت: فقدت منطقة إسحاق، عليه السلام، فانظروا من أخذها ومن أصابها؟ فالتمست ثم قالت: اكشفوا أهل البيت. فكشفوهم فوجدوها مع يوسف. فقالت: والله إنه لي لَسَلَمٌ، أصنع فيه ماشئت. فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر. فقال لها: أنت وذاك، إن كان فعل ذلك فهو سَلَم لك ما أستطيع غير ذلك. فأمسكته فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت. قال: فهو الذي يقول إخوة يوسف حين صنع بأخيه ما صنع حين أخذه: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾[9].

---

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) في ت، أ: «وكذا».

(٣) في ت، أ: «فقال».

(٤) في أ: «والتشبه».

(٥) في ت، أ: «وقتادة».

(٦) في أ: «اختانها».

(٧) في ت، أ: «ما شاء».

(٨) في ت، أ: «يا أخته».

(٩) رواه الطبري في تفسيره (١٦/ ١٩٦).

وقوله: ﴿ فَأَسَرَّهَا[1] يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ ﴾ يعني: الكلمة التي بعدها، وهي قوله: ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ[2] ﴾ أي: تذكرون. قال هذا في نفسه، ولم يبده لهم، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر، وهو كثير، كقول الشاعر[3]:

جَزَى بَنُوه أبا الغيلان عن كِبَرٍ ... وحُسْنِ فعلٍ[4] كما يُجزَى سِنمَّار

وله شواهد كثيرة من القرآن والحديث واللغة، في منثورها وأخبارها وأشعارها.

قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ ﴾ قال: أسر في نفسه: ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾.

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ (٧٩) ﴾.

لما تعين أخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم، شرعوا يترققون له ويعطفونه عليهم، فـ ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ يعنون: وهو يحبه حبا شديدا ويتسلى به عن ولده الذي فقده، ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ أي: بدله، يكون عندك عوضًا عنه، ﴿ إِنَّا نَرَاكَ[5] مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي: من العادلين المنصفين القابلين للخير. ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ﴾ أي: كما قلتم واعترفتم، ﴿ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴾ [أي][6] إن أخذنا بريئا بسقيم.

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾.

يخبر تعالى عن إخوة يوسف: أنهم لما يئسوا من تخليص أخيهم بنيامين، الذي قد التزموا لأبيهم برده إليه، وعاهدوه على ذلك، فامتنع عليهم ذلك، ﴿ خَلَصُوا ﴾ أي: انفردوا عن الناس ﴿ نَجِيًّا ﴾ يتناجون فيما بينهم.

﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ وهو روبيل، وقيل: يهوذا، وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر عندما هموا

---

(١) في ت: «فأسر هذا». (٢) في ت: «يصفون».

(٣) هو سليط بن سعد، والبيت من شواهد ابن عقيل في شرحه على الألفية لابن مالك برقم (١٥٣).

(٤) في ت، أ: «ظن». (٥) في أ: «نراك» وهو خطأ. (٦) زيادة من ت، أ.

بقتله، قال لهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ لتردنَّه إليه، فقد رأيتم كيف تعذّر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه، ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ أي: لن أفارق هذه البلدة، ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ في الرجوع إليه راضياً عني، ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾، قيل: بالسيف. وقيل: بأن يمكنني من أخذ أخي، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ[١]﴾.

ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع، حتى يكون عذرا لهم عنده ويتنصلوا إليه، ويبرؤوا مما وقع بقولهم.

وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ قال عكرمة وقتادة: ما [كنا] [٢] نعلم أن ابنك سرق[٣].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما علمنا في الغيب أنه يسرق [٤] له شيئا، إنما سألنا [٥] ما جزاء السارق؟

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾: قيل: المراد مصر. قاله قتادة، وقيل: غيرها، ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي: التي رافقناها، عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا. ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به، من أنه سرق وأخذوه بسرقته.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦)﴾.

قال لهم كما قال لهم حين جاؤوا على قميص يوسف بدم كذب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

قال محمد بن إسحاق: لما جاؤوا يعقوب وأخبروه بما جرى اتهمهم، وظن أنها كفعلتهم بيوسف ﴿قَالَ[٦] بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

وقال بعض الناس: لما كان صنيعهم[٧] هذا مرتباً على فعلهم الأول، سُحب [٨] حكم الأول عليه، وصح قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

ثم ترجى [٩] من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة: يوسف وأخاه بنيامين، وروبيل الذي أقام بديار

---

(١) في ت، أ: «أحكم الحاكمين» وهو خطأ.
(٢) زيادة من ت، أ.
(٣) في ت: «يسرق».
(٤) في ت، أ: «سرق».
(٥) في ت، أ: «سألناه».
(٦) في ت، أ: «فقال» وهو خطأ.
(٧) في ت: «صبرنا».
(٨) في ت: «فاسحب»، وفي أ: «انسحب».
(٩) في ت: «يرجى».

مصر ينتظر أمر الله فيه، إما أن يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يأخذ أخاه خفية؛ ولهذا قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ أي: العليم بحالي، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وقضائه وقدره.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي: أعرض عن بنيه وقال متذكراً حُزْنَ يوسف القديم الأول: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، جَدَّد له حزنُ الابنين [(١)] الحزن الدفين.

قال عبد الرزاق، أخبرنا الثوري، عن سفيان العُصْفُرِيّ، عن سعيد بن جبير أنه قال: لم يعط أحد غيرَ هذه الأمة الاسترجاع، ألا تسمعون إلى قول يعقوب، عليه السلام: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق [(٢)]. قاله قتادة وغيره.

وقال الضحاك: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾: كميد حزين.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حماد بن سلمة [حدثنا أبو موسى]، عن علي بن زيد[(٣)]، عن الحسن، عن الأحنف بن قيس، أن النبي ﷺ قال: «إن داود، عليه السلام، قال: يارب، إن بني إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحاق ويعقوب، فاجعلني لهم رابعاً. فأوحى الله تعالى إليه أن يا داود، إن إبراهيم ألقي في النار بسببي فصبر، وتلك بلية لم تنلك، وإن إسحاق بذل مهجة [(٤)] دمه في سببي فصبر، وتلك بلية لم تنلك، وإن يعقوب أخذت منه حبيبه حتى ابيضت عيناه من الحزن، فصبر، وتلك بلية لم تنلك».

وهذا مرسل، وفيه نكارة[(٥)]؛ فإن الصحيح أن إسماعيل هو الذبيح، ولكن علي بن زيد بن جُدْعَان له مناكير وغرائب كثيرة، والله أعلم.

وأقرب ما في هذا أن يكون قد حكاه الأحنف بن قيس، رحمه الله، عن بني[(٦)] إسرائيل ككعب ووهب ونحوهما، والله أعلم، فإن الإسرائيليين ينقلون أن يعقوب كتب إلى يوسف لما احتبس أخاه بسبب السرقة يتلطف له في رده، ويذكر له أنهم أهل بيت مصابون بالبلاء، فإبراهيم ابتلي بالنار، وإسحاق بالذبح، ويعقوب بفراق يوسف، في حديث طويل لا يصح، والله أعلم، فعند ذلك رق له بنوه، وقالو له على سبيل الرفق به والشفقة عليه: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي: لا تفارق تَذَكُّر يوسف، ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي: ضعيف الجسم، ضعيف القوة، ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ يقولون: وإن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: أجابهم عما قالوا بقوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي﴾

---

(١) في ت: «الاثنين».

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٨٤) وروى موصولاً ولا يصح.

(٣) في ت: «يزيد». (٤) في ت: «مهجته».

(٥) ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ٥٥٤) عن عفان، عن حماد بن سلمة به.

(٦) في ت: «عن بعض بني».

أي: همي وما أنا فيه ﴿ إِلَى اللَّهِ﴾ وحده ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أرجو منه كل خير.

وعن ابن عباس: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [يعني رؤيا يوسف أنها صدق وأن الله لابد أن يظهرها وينجزها. وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾][1]، أعلم أن رؤيا يوسف صادقة، وأني سوف أسجد له.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا يحيى بن عبد الملك بن أبي غَنِيَّة، عن حفص ابن عمر بن أبي الزبير، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كان ليعقوب النبي، عليه السلام، أخ مُؤاخ له، فقال له ذات يوم: ما الذي أذهب بصرك وقوّس ظهرك؟ قال: الذي[2] أذهب بصري البكاء[3] على يوسف، وأما الذي قوس ظهري فالحزن على بنيامين، فأتاه جبريل، عليه السلام، فقال: يا يعقوب، إن الله يُقرئك السلام ويقول لك: أما تستحي أن تشكوني إلى غيري؟ فقال يعقوب: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله. فقال جبريل، عليه السلام: الله أعلم بما تشكو»[4].

وهذا حديث غريب، فيه نكارة.

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن يعقوب، عليه السلام، أنه ندب بنيه على[5] الذهاب في الأرض، يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين.

والتحسس[6] يكون في الخير، والتجسس يستعمل في الشر.

ونَهَضهم وبشرهم وأمرهم ألا ييأسوا من روح الله، أي: لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه[7]، فإنه لا يقطع الرجاء، ويقطع الإياس من الله إلا القوم الكافرون[8].

وقوله: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ تقدير الكلام: فذهبوا فدخلوا بلد[9] مصر، ودخلوا على يوسف،

---

(١) زيادة من ت. (٢) في أ: «أما الذي». (٣) في ت، أ: «فالبكاء».

(٤) ورواه الحاكم في المستدرك (٢/٣٤٨) من طريق أبي بكر بن أبي شيبة، عن يحيى بن عبد الملك بن أبي غنية، عن حفص بن عمر ابن الزبير، عن أنس بنحوه، وقال الحاكم: «حفص بن عمر بن الزبير، وأظن الزبير وهماً من الراوي فإنه حفص بن عمر بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري». ورواه إسحاق بن راهويه ومن طريقه الحاكم في المستدرك (٢/٣٤٨) من طريق يحيى بن عبد الملك، عن أنس بن مالك مرسلا. ورواه ابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» برقم (٤٧) من طريق زافر بن سليمان عن يحيى بن عبد الملك عن رجل، عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً. ورواه الطبراني في الأوسط برقم (٣٣٤١) «مجمع البحرين» من طريق وهب بن بقية عن يحيى بن عبد المطلب عن حصين بن عمر الأحمسي عن أبي الزبير عن أنس مرفوعاً. وبهذا يتبين أن الحديث مضطرب.

(٥) في أ: «إلى». (٦) في ت: «والتجسس». (٧) في ت، أ: «ويقصدون له».

(٨) في ت: «الكافرين». (٩) في أ: «بلاد».

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ يعنون من الجدب والقحط وقلة الطعام، ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ أي: ومعنا ثمن الطعام الذي تمتاره، وهو ثمن قليل. قاله مجاهد، والحسن، وغير واحد.

وقال ابن عباس: الرديء [١] لا ينفُق، مثل خَلَق الغرارة، والحبل، والشيء، وفي رواية عنه: الدراهم الرديئة التي لا تجوز إلا بنقصان. وكذا قال قتادة، والسُّدي.

وقال سعيد بن جبير [وعكرمة][٢]: هي الدراهم الفُسُول.

وقال أبو صالح: هو الصنوبر وحبة الخضراء.

وقال الضحاك: كاسدة لا تنفق.

وقال أبو صالح: جاؤوا بحَبِّ البُطْم الأخضر والصنوبر.

وأصل الإزجاء: الدفع لضعف الشيء، كما قال حاتم الطائي:

لِيَبْكِ عَلَى مِلْحَانَ ضَيفٌ مُدَفَّعٌ وَأَرْمَلَةٌ تُزْجِي مَعَ اللَّيلِ أَرْمَلا[٣].

وقال أعشى بني ثعلبة:

الوَاهِبُ المائةِ الهِجَانِ وعَبْدِهَا عُوذًا تُزَجِّي خَلْفَهَا أَطْفَالَها[٤].

وقوله إخبارا عنهم: ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أي: أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك.

وقرأ ابن مسعود: «فأوقر ركابنا وتصدق علينا».

وقال ابن جُرَيْج: ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ بردِّ أخينا إلينا.

وقال سعيد بن جبير والسدي: ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾، يقولون: تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة، وتجوز فيها.

وسئل سفيان بن عُيَيْنَة: هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبي ﷺ؟ فقال: ألم تسمع قوله: ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ رواه ابن جرير عن الحارث، عن القاسم، عنه[٥] [٦].

وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا القاسم، حدثنا مروان بن معاوية، عن عثمان بن الأسود: سمعت مجاهدا وسئل: هل يكره أن يقول الرجل في دعائه: اللهم تصدق علي؟ فقال: نعم، إنما الصدقة لمن يبتغي الثواب.

---

(١) في ت، أ: «الردئ الذي لا».
(٢) زيادة من ت، أ.
(٣) البيت في تفسير الطبري (١٦/ ٢٣٥).
(٤) البيت في تفسير الطبري (١٦/ ٢٣٥).
(٥) في أ: «به».
(٦) تفسير الطبري (١٦/ ٢٤٢).

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن يوسف، عليه السلام : أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجَدْب، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه، مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته، وبدره البكاء، فتعرف إليهم، يقال[1]: إنه رفع التاج عن جبهته، وكان فيها شامة، وقال: ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾؟ يعني: كيف فرقوا بينه وبينه ﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ أي: إنما حملكم على هذا[2] الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه، كما قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل، وقرأ: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩].

والظاهر ـ والله أعلم ـ أن يوسف، عليه السلام، إنما تعرف إليهم بنفسه، بإذن الله له في ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الاوليين[3] بأمر الله تعالى له في ذلك، والله أعلم، ولكن لما ضاق الحال واشتد الامر، فرَّج الله تعالى من ذلك الضيق، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ[4] مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٥، ٦]، فعند ذلك قالوا: ﴿أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾؟

وقرأ أُبيّ بن كعب: «أو أنت[5] يُوسُفُ»، وقرأ ابن مُحَيْصِن: «إنَّك لأنتَ[6] يُوسُفُ». والقراءة المشهورة هي الأولى؛ لأن الاستفهام يدل على الاستعظام، أي: إنهم تعجَّبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر، وهم لا يعرفونه، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام: ﴿ أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي﴾، ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد المدة، ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخَلق والخُلق، والسعة والملك، والتصرف والنبوة أيضا ـ على قول من لم يجعلهم أنبياء ـ وأقروا له بأنهم أساؤوا إليه وأخطؤوا في حقه.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ يقول: لا تأنيب عليكم ولا عَتْب عليكم اليوم، ولا أعيد[7] ذنبكم في حقي بعد اليوم.

---

(١) في ت، أ: «فيقال».
(٢) في أ: «ذلك».
(٣) في ت، أ: «الأولتين».
(٤) في ت، أ: «إن» وهو خطأ.
(٥) في أ: «أو إنك».
(٦) في ت، أ: «وأنت».
(٧) في ت، أ: «ولا أعيد عليكم».

ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال: ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

قال السدي: اعتذروا إلى يوسف، فقال: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ يقول: لا أذكر لكم ذنبكم.

وقال ابن إسحاق والثوري: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُم [الْيَوْمَ][1]﴾ أي: لا تأنيب عليكم اليوم عندى فيما صنعتم ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ أي: يستر الله عليكم فيما فعلتم، ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) ﴾.

يقول: اذهبوا بهذا القميص، ﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾، وكان قد عَمِيَ من كثرة البكاء، ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: بجميع بنى يعقوب.

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ أي: خرجت من مصر، ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعني: يعقوب، عليه السلام، لمن بقى عنده من بنيه: ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾: تنسبونى إلى الفَنَد والكِبَر.

قال عبد الرزاق: أنبأنا إسرائيل، عن أبى سِنَان، عن عبد الله بن أبى الهُذَيْل قال: سمعت ابن عباس يقول: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ قال: لما خرجت العير، هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال: ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾، قال: فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام[2].

وكذا رواه سفيان الثورى، وشعبة، وغيرهما عن أبى سِنَان، به.

وقال الحسن وابن جُرَيْج: كان بينهما ثمانون فرسخا، وكان بينه وبينه منذ افترقا ثمانون سنة.

وقوله: ﴿ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وقتادة، وسعيد بن جُبَيْر: تُسَفِّهون.

وقال مجاهد أيضا، والحسن: تُهَرِّمون.

وقولهم: ﴿ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ قال ابن عباس: لفى خطئك القديم.

وقال قتادة: أى من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه، قالوا لوالدهم كلمةً غليظة، لم يكن ينبغى لهم أن يقولوها لوالدهم، ولا لنبى الله ﷺ[3]. وكذا قال السدى، وغيره.

﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا

---

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٨٦).

(٣) في أ: «عليه السلام».

**لا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨)﴾.**

قال ابن عباس والضحاك: ﴿الْبَشِيرُ﴾: البريد.

وقال مجاهد والسدي: كان يهوذا بن يعقوب.

قال السدي: إنما جاء به لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب، فأراد[1] أن يغسل ذاك بهذا، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه، فرجع بصيرا.

وقال لبنيه عند ذلك: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلم أن الله سيرده إليّ، وقلت لكم: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ﴾؟. فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفقين له: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ. قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: من تاب إليه تاب عليه.

قال ابن مسعود، وإبراهيم التَّيْمِيّ، وعمرو بن قيس، وابن جُرَيْج وغيرهم: أرجأهم إلى وقت السَّحَر.

وقال ابن جرير: حدثني أبو السائب، حدثنا ابن إدريس، سمعت عبد الرحمن بن إسحاق يذكر عن محارب بن دثار قال: كان عمر، رضي الله عنه، يأتي المسجد فيسمع[2] إنسانا يقول: «اللهم دعوتني فأجبت، وأمرتني فأطعت، وهذا السَّحَرُ فاغفر لي». قال: فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود. فسأل عبد الله عن ذلك فقال: إن يعقوب أخّر بنيه إلى السحر بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾[3].

وقد ورد في الحديث أن ذلك كان ليلة جمعة، كما قال ابن جرير: أيضا: حدثني المثنى، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن أبو[4] أيوب الدمشقي، حدثنا الوليد، أنبأنا ابن جُرَيْج، عن عَطاء وعِكْرِمة، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾، يقول: حتى تأتي ليلة الجمعة، وهو قول أخي يعقوب لبنيه[5].

وهذا غريب من هذا الوجه، وفي رفعه نظر، والله أعلم.

---

(١) في ت، أ: «فأحب».

(٢) في أ: «فسمع».

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ٢٦١).

(٤) في ت: «ابن».

(٥) تفسير الطبري (١٦/ ٢٦٢) وهذا إسناد فيه ثلاث علل:

**الأولى:** عنعنة ابن جريج وهو مدلس لم يصرح بالسماع.

**الثانية:** الوليد بن مسلم القرشي كان يهم في رفع الأحاديث ويدلس تدليس التسوية.

**الثالثة:** سليمان بن عبد الرحمن تكلم فيه من جهة حفظه وبمثل هذا السند روى حديث دعاء نسيان القرآن، وسبق الكلام عليه في فضائل القرآن.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) ﴾.

يخبر تعالى عن ورود يعقوب، عليه السلام، على يوسف، عليه السلام، وقدومه بلاد [1] مصر، لما كان يوسف قد تقدم إلى إخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين، فتحملوا عن آخرهم وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد [2] مصر، فلما أخبر يوسف، عليه السلام، باقترابهم خرج لتلقيهم، وأمر [الملك][3] أمراءه وأكابر الناس بالخروج [مع يوسف] [4] لتلقي نبي الله يعقوب، عليه السلام، ويقال: إن الملك خرج أيضا لتلقيه، وهو الأشبه.

وقد أشكل قوله: ﴿ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ ﴾ على كثير [5] من المفسرين، فقال بعضهم: هذا من المقدم والمؤخر، ومعنى الكلام: ﴿ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾، وآوى إليه أبويه، ورفعهما على العرش.

وقد رد ابن جرير هذا. وأجاد في ذلك. ثم اختار ما حكاه عن السُّدِّي: أن يوسف آوى إليه أبويه لما تلقاهما، ثم لما وصلوا باب البلد قال: ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾.

وفي هذا نظر أيضا؛ لأن الإيواء إنما يكون في المنزل، كقوله: ﴿ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾، وفي الحديث: «من آوى محدثا» وما المانع أن يكون قال لهم بعدما دخلوا عليه وآواهم إليه: ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ ﴾، وضمَّنه: اسكنوا مصر ﴿ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ أي: مما كنتم فيه من الجهد والقحط، ويقال ـ والله أعلم ـ: إن الله تعالى رفع عن أهل مصر بقية السنين المجدبة ببركة قدوم يعقوب عليهم، كما رفع بقية السنين التي دعا بها رسول الله ﷺ على أهل مكة حين قال: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف»، ثم لما تضرعوا إليه واستشفعوا لديه، وأرسلوا أبا سفيان في ذلك، فدعا لهم، فَرَّجَ عنهم بقية ذلك ببركة دعائه، عليه السلام[6].

وقوله: ﴿ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾، قال السدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما كان أباه [7] وخالته، وكانت أمه قد ماتت قديما.

وقال محمد بن إسحاق وابن جرير: كان أبوه وأمه يعيشان.

قال ابن جرير: ولم يقم دليل على موت أمه، وظاهر القرآن يدل على حياتها. وهذا الذي نصره

---

(١) في أ: «على». (٢) في ت، أ: «ديار». (٣، ٤) زيادة من ت، أ.

(٥) في ت: «كثيرين».

(٦) رواه البخاري في صحيحه برقم (٤٨٠٧ - ١٠٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٧) في ت: «أبوه».

هو المنصور الذي يدل عليه السياق.

وقوله: ﴿ورفع أبويه على العرش﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: يعني السرير، أي: أجلسهما معه على سريره.

﴿وخروا له سجدا﴾ أي: سجد له أبواه وإخوته الباقون، وكانوا أحد عشر رجلا. ﴿وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل﴾ أي: التي كان قصها على أبيه ﴿إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾ [يوسف: ٤].

وقد كان هذا سائغا في شرائعهم إذا سلّموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى، عليه السلام، فحرم هذا في هذه الملة، وجُعل السجود مختصا بجناب الرب سبحانه وتعالى.

هذا مضمون قول قتادة وغيره.

وفي الحديث أن معاذا قدم الشام، فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ، فقال: «ما هذا يا معاذ؟» فقال: إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم، وأنت أحق أن يسجد لك يارسول الله فقال: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد، لأمرت الزوجة[1] أن تسجد لزوجها من عظم[2] حقه عليها»[3].

وفي حديث آخر: أن سلمان لقي النبي ﷺ في بعض طُرق المدينة، وكان سلمان حديث عهد بالإسلام، فسجد للنبي ﷺ، فقال: «لا تسجد لي يا سلمان، واسجد للحي الذي لا يموت»[4].

والغرض أن هذا كان جائزاً في شريعتهم، ولهذا خروا له سجّدا، فعندها قال يوسف: ﴿يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا﴾ أي: هذا ما آل إليه الأمر، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر، كما قال تعالى: ﴿هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله﴾ [الأعراف: ٥٣] أي: يوم القيامة يأتيهم ما وعدوا من خير وشر.

وقوله: ﴿قد جعلها ربي حقا﴾ أي: صحيحة صدقا، يذكر نعم الله عليه، ﴿وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو﴾ أي: البادية.

قال ابن جُرَيج وغيره: كانوا أهل بادية وماشية. وقال: كانوا يسكنون بالعَرَبات من أرض فلسطين، من غور الشام. قال: وبعض يقول: كانوا بالأولاج من ناحية شعب أسفل من حسمى، وكانوا أصحاب بادية وشاء[5] وإبل.

---

(١) في ت، أ: «المرأة».　　(٢) في ت: «عظيم».

(٣) رواه أحمد في المسند (٤/٣٨١) وابن ماجه في السنن برقم (١٨٥٣) من حديث معاذ رضي الله عنه، وصححه ابن حبان.

(٤) رواه أبو نعيم في تاريخ أصبهان (٢/٣٠١) من طريق شهر بن حوشب، عن سلمان رضي الله عنه، وسيأتي عند تفسير الآية: ٥٨ من سورة الفرقان.

(٥) في أ: «وماشية».

﴿ من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي [ ثم قال ][1] إن ربي لطيف لما يشاء ﴾ أي: إذا أراد أمراً قيض له أسباباً ويسره وقدره، ﴿ إنه هو العليم ﴾ بمصالح عباده ﴿ الحكيم ﴾ في أفعاله وأقواله، وقضائه وقدره، وما يختاره ويريده.

قال أبو عثمان النهدي، عن سلمان [2]: كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة.

قال عبد الله بن شداد: وإليها [3] ينتهي أقصى الرؤيا. رواه ابن جرير.

وقال أيضا: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا عبد الوهاب الثقفي، حدثنا هشام، عن الحسن قال: كان منذ [4] فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا، ثمانون سنة، لم يفارق في الحزن قلبه، ودموعه تجري على خديه، وما على وجه الأرض عبد أحب إلى الله من يعقوب[5].

وقال هُشَيم، عن يونس، عن الحسن: ثلاث وثمانون سنة.

وقال مبارك بن فضالة، عن الحسن: ألقي يوسف في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة، فغاب عن أبيه ثمانين [6] سنة، وعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة، فمات وله عشرون ومائة سنة.

وقال قتادة: كان بينهما خمس وثلاثون سنة.

وقال محمد بن إسحاق: ذُكر ـ والله أعلم ـ أن غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثماني عشرة سنة ـ قال: وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين [7] سنة أو نحوها، وأن يعقوب، عليه السلام، بقي مع يوسف بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة، ثم قبضه الله إليه.

وقال أبو إسحاق السَّبِيعي، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: دخل بنو إسرائيل مصر، وهم ثلاثة وستون إنسانا، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف وسبعون ألفا.

وقال أبو إسحاق، عن مسروق: دخلوا وهم ثلاثمائة وتسعون من بين رجل وامرأة. والله [8] أعلم.

وقال موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب القُرَظي، عن عبد الله بن شداد: اجتمع آل يعقوب إلى يوسف بمصر. وهم ستة وثمانون إنسانا، صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف ونيف.

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾.

---

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) في أ: «عن سلمان قال».
(٣) في ت: «وإليه».
(٤) في ت: «منذ».
(٥) تفسير الطبري (١٦/ ٢٧٣).
(٦) في أ: «ثمانون».
(٧) في أ: «أربعون».
(٨) في ت، أ: «فالله».

هذا دعاء من يوسف الصديق، دعا به ربه عز وجل، لما تمت النعمة عليه، باجتماعه بأبويه وإخوته، وما مَنَّ الله به عليه من النبوة والملك، سأل ربه عز وجل، كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة، وأن يتوفاه مسلما حين يتوفاه. قاله الضحاك، وأن يلحقه بالصالحين، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين، صلوات الله وسلامه [عليه و] [١] عليهم أجمعين.

وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف، عليه السلام، قاله عند احتضاره، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة، رضي الله عنها؛ أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت، ويقول: «اللهم في الرفيق الأعلى، اللهم في الرفيق الأعلى، اللهم في الرفيق الأعلى»[٢].

ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا حان أجله، وانقضى عمره؛ لا أنه سأل ذلك منجزاً، كما يقول الداعي لغيره: «أماتك الله على الإسلام». ويقول الداعي: «اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين».

ويحتمل أنه سأل ذلك منجزاً، وكان ذلك سائغا في ملتهم، كما قال قتادة: قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾: لما جمع الله شمله وأقر عينه، وهو يومئذ مغمور في الدنيا وملكها وغضارتها، فاشتاق[٣] إلى الصالحين قبله، وكان ابن عباس يقول: ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف، عليه السلام.

وكذا ذكر ابن جرير[٤]، والسدي عن ابن عباس: أنه أول نبي دعا بذلك. وهذا يحتمل أنه أول من سأل الوفاة على الإسلام، كما أن نوحا أول من قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾ [نوح: ٢٨]، ويحتمل أنه أول من سأل نجاز ذلك، وهو ظاهر سياق قتادة، ولكن هذا لا يجوز[٥] في شريعتنا.

قال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا عبد العزيز بن صهيب، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضُرٍّ نزل به، فإن كان لابد[٦] متمنيا الموت فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي»[٧].

[ورواه البخاري ومسلم، وعندهما: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به إما محسنا فيزداد، وإما مسيئا فلعله يستعتب، ولكن ليقل: اللهم، أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة

---

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٤٣٧) وصحيح مسلم برقم (٢٤٤٤).

(٣) في ت، أ: «واشتاق». (٤) في ت، أ: «جريج». (٥) في ت، أ: «لا يجوز هذا».

(٦) في ت، أ: «كان ولابد».

(٧) المسند (٣/١٠١).

خيراً لي»[(١)])[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا مُعَان بن رفاعة، حدثني علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: جلسنا إلى رسول الله ﷺ فذكَّرنا ورقَّقنا، فبكى سعد بن أبي وقاص فأكثر البكاء، فقال: يا ليتني متُّ! فقال النبي ﷺ: «يا سعد أعندي تتمنى الموت؟» فردَّد ذلك [ثلاث][(٣)] مرات ثم قال: «يا سعد، إن كنت خلقت للجنة، فما طال[(٤)] عمرك، أو حَسُن من عملك، فهو خير لك»[(٥)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا أبو يونس ـ هو سُلَيم بن جُبير ـ عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «لا يتمنين أحدكم الموت ولا يدعونَ[(٦)] به من قبل أن يأتيه، إلا أن يكون قد وَثِق بعمله، فإنه إذا مات أحدكم انقطع عنه عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عمره[(٧)] إلا خيراً» تفرد به أحمد[(٨)].

وهذا فيما إذا كان الضر خاصا به، أما إذا كان[(٩)] فتنة في الدين فيجوز سؤال الموت، كما قال الله تعالى إخباراً عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهدَّدهم بالقتل قالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وقالت مريم لما أجاءها المخاض، وهو الطلق، إلى جذع النخلة ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣]، لما تعلم من أن الناس يقذفونها بالفاحشة؛ لأنها لم تكن ذات زوج وقد حملت وولدت، فيقول القائل أنى لها هذا؟ ولهذا واجهوها أولا بأن قالوا: ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا. يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٧، ٢٨] فجعل الله لها من ذلك الحال فرجا ومخرجا، وأنطق الصبي في المهد بأنه عبد الله ورسوله، وكان[(١٠)] آية عظيمة ومعجزة باهرة صلوات الله وسلامه عليه[(١١)]. وفي حديث معاذ، الذي رواه الإمام أحمد والترمذي، في قصة المنام والدعاء الذي فيه: «وإذا أردت بقوم فتنة، فتوفني إليك غير مفتون»[(١٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سلمة، أنا عبد العزيز بن محمد، عن عمرو عن[(١٣)] عاصم عن[(١٤)] عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد؛ أن النبي ﷺ قال: «اثنتان يكرههما ابن آدم الموت، والموت خير

---

(١) صحيح البخاري برقم (٦٣٥١) وصحيح مسلم برقم (٢٦٨٠).

(٢) زيادة من ت، أ.

(٣) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٤) في ت، أ: «فأطال».

(٥) المسند (٥/٢٦٦).

(٦) في ت، أ: «لا يدعو».

(٧) في ت، أ: «عمله».

(٨) المسند (٢/٣٥٠).

(٩) في أ: «كان فيه».

(١٠) في ت: «فكان».

(١١) في ت: «عليه وسلامه».

(١٢) المسند (٥/٢٤٣) وسنن الترمذي برقم (٣٢٣٥). وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح، سألت محمد بن إسماعيل البخاري عن هذا الحديث فقال: هذا حديث حسن صحيح».

(١٣، ١٤) في ت: «ابن».

للمؤمن [من الفتنة][1] ويكره قلة المال، وقلة المال أقل للحساب»[2].

فعند حُلول الفتن في الدين يجوز سؤال الموت؛ ولهذا قال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، في آخر إمارته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له، ولا يزداد الأمر إلا شدة قال: اللهمَّ، خذني إليك، فقد سئمتهم وسئموني.

وقال البخاري، رحمه الله، لما وقعت له تلك المحن وجرى له ما جرى مع أمير خراسان: اللهم، توفني إليك.

وفي الحديث: «إن الرجل ليمر بالقبر ـ أي في زمان الدجال ـ فيقول: يا ليتني مكانك»[3]، لما يرى من الفتن والزلازل والبلابل والأمور الهائلة التي هي فتنة لكل مفتون.

قال أبو جعفر بن جرير: وذُكِرَ أن بني يعقوب الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا، استغفر لهم أبوهم، فتاب الله عليهم وعفا عنهم، وغفر لهم ذنوبهم.

[ذكر من قال ذلك][4]:

حدثنا القاسم، حدثنا الحسن، حدثني حجاج، عن صالح المري، عن يزيد الرَّقاشي، عن أنس ابن مالك قال: إن الله تعالى لما جمع ليعقوب شمله، وأقر عينه[5]، خلا ولدُه نجياً، فقال بعضهم لبعض: ألستم قد علمتم ما صنعتم، وما لقي منكم الشيخ، وما لقي منكم يوسف؟ قالوا: بلى. قال: فيغرَّكم عفوهما عنكم، فكيف لكم بربكم؟ فاستقام أمرهم على أن أتوا الشيخ فجلسوا بين يديه، ويوسف إلى جنب أبيه قاعداً، قالوا: يا أبانا، إنا أتيناك في أمر، لم نأتك في مثله قط، ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله. حتى حرَّكوه، والأنبياء، عليهم السلام، أرحم البرية، فقال: ما لكم يا بَنيّ؟ قالوا: ألست قد علمت ما كان منا إليك، وما كان منا إلى أخينا يوسف؟ قال: بلى. قالوا: أو لستما قد عفَوتما؟ قالا: بلى. قالوا: فإن عفوكما لا يغني عنا شيئاً، إن كان الله لم يعف عنا. قال: فما تريدون يا بني؟ قالوا: نُريدُ أن تدعوَ الله لنا، فإذا جاءك الوحي من الله بأنه قد عفا عما صنعنا قرّت أعيننا، واطمأنت قلوبنا، وإلا فلا قُرَّة عين في الدنيا أبداً لنا. قال: فقام الشيخ فاستقبل القبلة، وقام يوسف خلف أبيه، وقاموا خلفهما أذلَّة خاشعين. قال: فدعا وأمَّن يوسف، فلم يُجبْ فيهم عشرين سنة ـ قال صالح المري[6]: يخيفهم ـ قال: حتى إذا كان رأس العشرين نزل جبريل، عليه السلام، على يعقوب فقال: إن الله بعثني إليك أبشرك بأنه قد أجاب دعوتك في ولدك، وأنه قد عفا عما

---

(١) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٢) المسند (٥/٤٢٧).

(٣) رواه مسلم في صحيحه برقم (١٥٧/٥٤) من حديث أبي هريرة بلفظ «والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه ويقول: يا ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر، وليس به الدين إلا البلاء».

(٤) زيادة من ت، أ.

(٥) في هـ، ت، أ: «شمله بعينه» والمثبت من الطبري.

(٦) في ت: «المزي».

صنعوا، وأنه قد اعتقد مواثيقهم من بعدك على النبوة[١].

هذا الأثر موقوف عن أنس، ويزيد الرقاشى وصالح المرى[٢] ضعيفان جداً.

وذكر السدى: أن يعقوب، عليه السلام، لما حضره الموت، أوصى إلى يوسف بأن يدفن عند إبراهيم وإسحاق، فلما مات صبَّره وأرسله إلى الشام، فدفن عندهما، عليهم[٣] السلام.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (١٠٤) ﴾.

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه، لما قص عليه نبأ إخوة يوسف، وكيف رفعه الله عليهم، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام: هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة، ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ ونعلمك به لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك، ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ حاضراً عندهم ولا مشاهدا لهم ﴿ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ ﴾ أي: على إلقائه في الجب، ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ به، ولكنا أعلمناك به وحيا إليك، وإنزالا عليك، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [القصص: ٤٤]. إلى أن قال: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص: ٤٦]، وقال: ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [القصص: ٤٥]، وقال: ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ . إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [ص: ٦٩، ٧٠].

يقرر تعالى أنه رسوله، وأنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم ودنياهم، ومع هذا ما آمن أكثر الناس، ولهذا قال: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾، وقال: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي: وما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر، أي: من جُعَالة ولا أجرة على ذلك، بل تفعله ابتغاء وجه الله، ونصحا لخلقه.

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ أي: يتذكرون به ويهتدون، وينجون به في الدنيا والآخرة.

---

(١) تفسير الطبرى (١٦/ ٢٨١).

(٢) فى ت: «المزى».

(٣) فى ت: «عليهما».

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٠٧) ﴾.

يخبر تعالى عن [غفلة][1] أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده، بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت، وسيارات وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات وحدائق وجنات وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمات، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات، وحيوانات ونبات، وثمرات متشابهة ومختلفات، في الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد، خالق أنواع المخلوقات، المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية ذي الأسماء والصفات.

وقوله: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾: قال ابن عباس: من إيمانهم، إذا قيل لهم: من خلق السموات؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: «الله»، وهم مشركون به. وكذا قال مجاهد، وعطاء وعكرمة، والشعبي، وقتادة، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وهكذا في الصحيحين[2]: أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك. وفي الصحيح: أنهم كانوا إذا قالوا: «لبيك لا شريك لك» يقول رسول الله ﷺ: «قَدْ قَدْ»، أي حَسْبُ حَسْبُ، لا تزيدوا على هذا[3].

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]، وهذا هو الشرك الأعظم الذي يعبد مع الله غيره، كما في الصحيحين. عن ابن مسعود قلت: يا رسول الله، أيّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندا وهو خلقك»[4].

وقال الحسن البصري في قوله: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ قال: ذاك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس، وهو مشرك بعمله ذاك، يعني قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء: ١٤٢].

وثمَّ شرك آخر خفي لا يشعر به غالبُ فاعله، كما روى حماد بن سلمة، عن عاصم بن أبي النَّجُود، عن عُرْوَة قال: دخل حذيفة على مريض، فرأى في عضده سيراً فقطعه ـ أو: انتزعه ـ ثم قال: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾.

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) في ت، أ: «في صحيح مسلم».

(٣) صحيح مسلم برقم (١١٨٥/٢٢).

(٤) صحيح البخاري برقم (٤٤٧٧) وصحيح مسلم برقم (٦٨).

وفي الحديث: «من حلف بغير الله فقد أشرك». رواه الترمذي وحسّنه من رواية ابن عمر[١].

وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود وغيره، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرُّقَى والتَّمائِم والتِّوَلة شرك»[٢].

وفي لفظ لهما: «[الطِّيَرة شرك][٣] وما منَّا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل»[٤].

ورواه الإمام أحمد بأبسط من هذا فقال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مُرَّة، عن يحيى الجزار[٥]، عن ابن أخي، زينب [عن زينب][٦] امرأة عبد الله بن مسعود قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح[٧] وبزق كراهية أن يهجم منا على أمر يكرهه، قالت: وإنه جاء ذات يوم فتنحنح وعندي عجوز ترقيني من الحُمْرَة فأدخلتها تحت السرير، قالت: فدخل فجلس إلى جانبي، فرأى في عنقي خيطا، قال: ما هذا الخيط؟ قالت: قلت: خيط رُقِي لي فيه. قالت: فأخذه فقطعه، ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياءٌ عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتِّوَلة شرك». قالت، قلت له: لم تقول هذا وقد كانت عيني تقذف، فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيها، فكان إذا رقاها سكنت، قال: إنما ذاك من الشيطان. كان ينخسها بيده، فإذا رقيتها كف عنها: إنما كان يكفيك أن تقولي كما قال رسول الله ﷺ: «أذهب البأس رب الناس، اشف وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سَقَمًا»[٨].

وفي حديث آخر رواه الإمام أحمد، عن وكيع، عن ابن أبي ليلى، عن عيسى بن عبد الرحمن قال: دخلنا على عبد الله بن عُكَيْم[٩]، وهو مريض نعوده، فقيل له: تَعَلَّقتَ شيئا؟ فقال: أتعلق شيئا! وقد قال رسول الله ﷺ: «من تَعَلَّق شيئا وُكِلَ إليه»[١٠]. ورواه النسائي عن أبي هريرة[١١].

وفي مسند الإمام أحمد، من حديث عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «من علَّق تميمة

---

(١) سنن الترمذي برقم (١٥٣٥).

(٢) المسند (١/ ٣٨١) وسنن أبي داود برقم (٣٨٨٣) ورواه ابن ماجه في السنن برقم (٣٥٣٠).

(٣) زيادة من ت، أ، والمسند وسنن أبي داود.

(٤) المسند (١/ ٣٨٩) وسنن أبي داود برقم (٣٩١٠).

(٥) في ت، أ: «يحيى بن الجزار».

(٦) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٧) في ت: «تنجيح».

(٨) المسند (١/ ٣٨١).

(٩) في ت: «حكيم».

(١٠) المسند (٤/ ٣١٠) ورواه الترمذي في السنن برقم (٢٠٧٢) من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى به، وقال الترمذي: «وحديث عبدالله بن حكيم إنما نعرفه من حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى، وعبد الله بن حكيم لم يسمع النبي ﷺ، وكان في زمن النبي ﷺ يقول: «كتب إلينا رسول الله ﷺ».

(١١) سنن النسائي (٧/ ١١٢).

فقد أشرك» وفي رواية: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تَعلّق ودَعَة فلا وَدَعَ الله له»[١].

وعن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، ومن عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشِركه». رواه مسلم[٢].

وعن أبي سعيد بن أبي فَضالة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، ينادي مناد: من كان أشرك في عمل عمله لله فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك». رواه أحمد[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا لَيْث، عن يزيد ـ يعني: ابن الهاد ـ عن عمرو، عن محمود بن لبيد، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخْوَف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر». قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»[٤].

وقد رواه إسماعيل بن جعفر، عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لَبيد، به[٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، أنبأنا ابن لَهيعة، أنبأنا ابن هُبَيْرة، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «من رَدّته الطِّيَرَةُ من حاجة، فقد أشرك». قالوا: يا رسول الله، ما كفارة ذلك؟ قال: «أن يقول أحدهم: اللهم لا خير إلا خيرك[٦]، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك»[٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان العَرْزَمي، عن أبي علي ـ رجل من بني كاهل ـ قال: خطبنا أبو موسى الأشعري فقال: يا أيها الناس، اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دَبيب النمل. فقام عبد الله بن حَزْن وقيس بن المضارب فقالا: والله لتخرجن[٨] مما قلت أو لنأتين عمر مأذونا لنا أو غير مأذون، قال: بل أخرج مما قلت، خطبنا رسول

---

(١) المسند (٤/١٥٦) وقال المنذري في الترغيب (٤/٣٠٧): «رجاله ثقات».

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٩٨٥).

(٣) المسند (٤/٢١٥).

(٤) المسند (٥/٤٢٨) وحسنه الحافظ ابن حجر في بلوغ المرام.

(٥) رواه البغوي في شرح السنة (١٤/٣٢٣) من طريق علي بن حجر، عن إسماعيل بن جعفر به.

(٦) في ت: «لا خير إلا غيرك».

(٧) المسند (٢/٢٢٠) ورواه ابن السني في عمل اليوم والليلة (ص٢٩٣) من طريق ابن وهب، عن ابن لهيعة به، فصح الحديث بحمد الله.

(٨) في ت: «ليخرجن».

الله ﷺ [ذات يوم][1] فقال: «أيها الناس، اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل». فقال له من شاء الله أن يقول: فكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك [من][2] أن نشرك بك شيئا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه»[3].

وقد روى من وجه آخر، وفيه أن السائل في ذلك هو الصِّدِّيق، كما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي، من حديث عبد العزيز بن مسلم، عن لَيْث بن أبي سليم، عن أبي محمد، عن مَعْقِل بن يَسَار قال: شهدت النبي ﷺ ـ أو قال: حدثني أبو بكر الصديق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل». فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من دعا مع الله إلها آخر؟ فقال رسول الله ﷺ: «الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل». ثم قال: «ألا أدلك على ما يُذهب عنك صَغِير ذلك وكبيره؟ قل: اللهم، أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»[4].

وقد رواه الحافظ أبو القاسم البغوي، عن شيبان بن فَرُّوخ، عن يحيى بن كثير، عن الثوري، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن أبي بكر الصديق قال: قال رسول الله ﷺ: «الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا». قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله، فكيف النجاة والمخرج من ذلك؟ فقال: «ألا أخبرك بشيء إذا قلتَه برئتَ من قليله وكثيره وصغيره وكبيره؟». قال: بلى، يا رسول الله، قال: «قل: اللهم، إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»[5].

قال الدارقطني: يحيى بن كثير هذا يقال له: «أبو النضر»، متروك الحديث.

وقد روى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وصححه، والنسائي، من حديث يعلى بن عطاء، سمعت عمرو بن عاصم[6]، سمعت أبا هريرة قال: قال أبو بكر الصديق، رضي الله عنه: يارسول الله، علمني شيئا أقوله إذا أصبحتُ، وإذا أمسيتُ، وإذا أخذت مضجعي. قال: «قل: اللهم، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، ربَّ كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان وشركه»[7].

وزاد أحمد في رواية له من حديث ليث بن أبي سليم، [عن مجاهد][8]، عن أبي بكر قال:

---

(١، ٢) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٣) المسند (٤/٤٠٣).

(٤) مسند أبي يعلى (١/٦٢) ورواه ابن جريج عن ليث، عن أبي محمد، عن حذيفة نحوه، وأخرجه أبو يعلى في المسند (١/٦٠) وأبو محمد مجهول، وليث بن أبي سليم ضعيف.

(٥) ورواه أبو نعيم في الحلية (٧/١١٢) من طريق يحيى بن محمد البختري، عن شيبان بن فروخ به نحوه، وقال: «تفرد به عن الثوري يحيى بن كثير».

(٦) في هـ، أ: «عاصم» والمثبت من ت والمسند.

(٧) المسند (١/٩) وسنن أبي داود برقم (٥٠٦٧) وسنن الترمذي برقم (٣٣٩٢) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٧٦٩١).

(٨) زيادة من ت، أ.

أمرني رسول الله ﷺ أن أقول. . . فذكر هذا الدعاء وزاد في آخره: «وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجرّه إلى مسلم»[1].

وقوله: ﴿ أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ﴾ أي: أفأمن هؤلاء المشركون [ بالله ][2] أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون، كما قال تعالى: ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون . أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين . أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم ﴾ [النحل: ٤٥ـ٤٧]، وقال تعالى: ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون . أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون . أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ [الأعراف: ٩٧ ـ ٩٩].

﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين (١٠٨) ﴾.

يقول [الله][3] تعالى لعبده ورسوله إلى الثقلين: الإنس والجن، آمراً له أن يخبر الناس: أن هذه سبيله، أي طريقه ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك، ويقين وبرهان، هو وكلّ من اتبعه، يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان شرعي وعقلي.

وقوله: ﴿ وسبحان الله ﴾ أي: وأنزّه الله وأجلّه وأعظمه وأقدّسه، عن أن يكون له شريك أو نظير، أو عديل أو نديد، أو ولد أو والد أو صاحبة، أو وزير أو مشير، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه عن ذلك كلّه علوا كبيراً. ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون (١٠٩) ﴾.

يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء. وهذا قول جمهور العلماء، كما دلّ عليه سياق هذه الآية الكريمة: أن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بني آدم وحي تشريع.

وزعم بعضهم: أن سارة امرأة الخليل، وأم موسى، ومريم أم عيسى نبيات، واحتجوا بأن الملائكة

---

(١) مسند (١/ ١٤).

(٢) زيادة من ت، أ.

(٣) زيادة من أ.

بشرت سارة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وبقوله: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ الآية [القصص: ٧]، وبأن الملك جاء إلى مريم فبشرها بعيسى، عليه السلام، وبقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ . يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢، ٤٣].

وهذا القدر حاصل لهن، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف، فهذا لا شك فيه، ويبقى الكلام معه فى أن هذا: هل يكفى فى الانتظام فى سلك النبوة بمجرده أم لا؟ الذى عليه [أئمة][1] أهل السنة والجماعة، وهو الذى نقله الشيخ أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى عنهم: أنه ليس فى النساء نبية، وإنما فيهن صديقات، كما قال تعالى مخبرا عن أشرفهن مريمَ بنت عمران حيث قال: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ ﴾ [المائدة: ٧٥]، فوصفها فى أشرف مقاماتها بالصدِّيقية، فلو كانت نبيّة لذكر ذلك فى مقام التشريف والإعظام، فهى صديقة بنص القرآن.

وقال الضحاك، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي[2] إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ أى: ليسوا من أهل السماء كما قلتم. وهذا القول من ابن عباس يعتضد بقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ﴾ الآية [الفرقان: ٢٠] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ . ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨، ٩]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ الآية [الأحقاف: ٩].

وقوله: ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾: المراد بالقرى: المدن، لا أنهم من أهل البوادى، الذين هم أجفى الناس طباعا وأخلاقا. وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدن أرقّ طباعا، وألطف من أهل سوادهم، وأهل الريف والسواد أقرب حالا من الذين يسكنون فى البوادى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾ [التوبة: ٩٧].

وقال قتادة فى قوله: ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾: لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمود.

وفى الحديث الآخر: أن رجلا من الأعراب أهدى لرسول الله ﷺ ناقة، فلم يزل يعطيه ويزيده حتى رضى، فقال رسول الله ﷺ: «لقد هَمَمْتُ ألا أتَّهِبَ هِبَةً إلا من قرشى، أو أنصارى، أو ثقفى، أو دَوْسِى»[3].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن يحيى بن وثاب، عن شيخ

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت: «يوحى».

(٣) رواه أحمد فى المسند (١/ ٢٩٥) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.

من أصحاب رسول الله ﷺ ـ قال الأعمش: هو [ابن][(١)] عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خير من الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم»[(٢)].

وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ ﴾ [يعنى: هؤلاء المكذبين لك يا محمد فى الأرض،][(٣)] ﴿ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أى: من الأمم المكذبة للرسل، كيف دمر الله عليهم، وللكافرين أمثالها، كقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]، فإذا استمعوا[(٤)] خبر ذلك، رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجى المؤمنين، وهذه كانت سنته تعالى فى خلقه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا[(٥)] ﴾ أى: وكما أنجينا المؤمنين فى الدنيا، كذلك كتبنا لهم النجاة فى الدار الآخرة أيضا، وهى خير لهم من الدنيا بكثير، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ. يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر: ٥٠، ٥١].

وأضاف الدار إلى الآخرة فقال: ﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ ﴾، كما يقال: «صلاة الأولى» و«مسجد الجامع» و«عام الأول» و«بارحة الأولى» و«يوم الخميس». قال الشاعر:

أَتَمْدَحُ فَقْعَساً وَتَذُمُّ[(٦)] عَبْساً ... ألا لله أمُّكَ مِن هَجِينِ
وَلَو أقْوَتْ عَلَيْكَ دِيَارُ عَبْسٍ ... عَرَفْتَ الذُّلَّ عِرْفَانَ اليَقِينِ[(٧)]

﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) ﴾.

يخبر تعالى أن نصره ينزل على رسله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله تعالى فى أحوج الأوقات إلى ذلك، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وفى قوله: ﴿ كُذِبُوا ﴾ قراءتان، إحداهما بالتشديد: «قد كُذِّبوا»، وكذلك كانت عائشة، رضى الله عنها، تقرؤها، قال البخارى:

حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن صالح، عن ابن شهاب قال:

---

(١) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٢) المسند (٢/ ٤٣).

(٣) زيادة من ت.

(٤) فى ت، أ: «استعملوا».

(٥) فى ت، أ: «يتقون» وهو خطأ.

(٦) فى ت: «وتمدح».

(٧) البيتان فى تفسير الطبرى (١٦/ ٢٩٥).

أخبرني عروة بن الزبير، عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾، قال: قلت: أكُذِبوا أم كُذِّبوا؟ فقالت عائشة: كُذِّبوا. فقلت: فقد استيقنوا أن قومهم قد كذَّبوهم فما هو بالظن؟ قالت: أجل، لعمري لقد استيقنوا بذلك. فقلت لها: وظنوا أنهم قد كذبوا؟ قالت[1]: معاذ الله، لم تكن[2] الرسل تظن ذلك بربها. قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾ ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذَّبوهم، جاءهم نصر الله عند ذلك.

حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب، عن الزهري قال: أخبرنا عُرْوَة، فقلت: لعلها قد كُذِبوا مخففة؟ قالت: معاذ الله. انتهى ما ذكره[3].

وقال ابن جُرَيج أخبرني ابن أبي مُلَيْكَة: أن ابن عباس قرأها: ﴿ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ خفيفة ـ قال عبد الله هو ابن مُلَيْكة: ثم قال لي ابن عباس: كانوا بشرا[4]، وتلا ابن عباس: ﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]، قال ابن جريج: وقال لي ابن أبي مليكة: وأخبرني عروة عن عائشة: أنها خالفت ذلك وأبته، وقالت: ما وعد الله محمداً ﷺ من شيء إلا قد علم أنه سيكون حتى مات، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أنَّ من معهم من المؤمنين قد كذَّبوهم. قال ابن أبي مليكة في حديث عروة: كانت عائشة تقرؤها « وظنوا أنهم قد كُذِّبوا» مثقلة، للتكذيب.

وقال ابن أبي حاتم: أنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أنا ابن وهب، أخبرني سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد قال: جاء إنسان إلى القاسم بن محمد فقال: إن محمد بن كعب القرظي يقول[5] هذه الآية: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾، فقال القاسم: أخبره عني أني سمعت عائشة زوج النبي ﷺ تقول: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾، تقول: كذبتهم أتباعهم. إسناد صحيح أيضا.

والقراءة الثانية بالتخفيف، واختلفوا في تفسيرها، فقال ابن عباس ما تقدم، وعن ابن مسعود، فيما رواه سفيان الثوري، عن الأعمش، عن أبي الضُّحى، عن مسروق، عن عبد الله أنه قرأ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾، مخففة، قال عبد الله: هو الذي تكره[6].

وهذا عن ابن مسعود وابن عباس، رضي الله عنهما، مخالف لما رواه آخرون عنهما. أما ابن عباس فروى الأعمش، عن مسلم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾، قال: لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومهم، وظن قومهم أن الرسل قد كَذَّبوهم،

---

(١) في ت، أ: «فقالت».
(٢) في ت: «يكن».
(٣) صحيح البخاري برقم (٤٦٩٥، ٤٦٩٦).
(٤) في أ: «بشروا».
(٥) في ت، أ: «يقرأ».
(٦) في أ: «يكره».

جاءهم النصر على ذلك، ﴿ فَنُجِّيَ[١] مَن نَّشَاءُ ﴾.

وكذا روى عن سعيد بن جبير، وعمران بن الحارث السلمى، وعبد الرحمن بن معاوية وعلى بن أبى طلحة، والعوفى عن ابن عباس بمثله.

وقال ابن جرير: حدثنى المثنى، حدثنا عارم[٢] أبو النعمان، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا شعيب[٣]، حدثنا إبراهيم بن أبى حُرَّة[٤] الجزرىّ قال: سأل فتى من قريش سعيد بن جبير فقال له: يا أبا عبد الله، كيف هذا الحرف، فإنى إذا أتيت عليه تمنيت أنى لا أقرأ هذه السورة: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ ؟ قال: نعم، حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يصدقوهم، وظن المرسَلُ إليهم أن الرسل كَذَبوا. فقال الضحاك بن مزاحم: ما رأيت كاليوم قط رجلا يدعى إلى علم فيتلكأ! لو رحلت فى هذه إلى اليمن كان قليلا.

ثم روى ابن جرير أيضا من وجه آخر: أن مسلم بن يَسَار سأل سعيد بن جبير عن ذلك، فأجابه بهذا الجواب، فقام إلى سعيد فاعتنقه، وقال: فرَّج الله عنك كما فَرجت عنى.

وهكذا روى من غير وجه عن سعيد بن جبير أنه فسرها كذلك. وكذا فسرها مجاهد بن جبْر، وغير واحد من السلف، حتى إن مجاهدا قرأها: «وظنوا أنهم قد كَذَبوا»، بفتح الذال. رواه ابن جرير، إلا أن بعض من فسرها كذلك يعيد الضمير فى قوله: ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ إلى أتباع الرسل من المؤمنين، ومنهم من يعيده إلى الكافرين منهم،أى: وظن الكفار أن الرسل قد كَذبوا ـ مخففة ـ فيما وعدوا به من النصر.

وأما ابن مسعود فقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا محمد بن فضيل[٥]، عن جَحش[٦] بن زياد الضبى، عن تميم بن حَذْلَم قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول فى هذه الآية: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ﴾ من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم[٧]، وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كَذَبوا، بالتخفيف[٨].

فهاتان الروايتان عن كل من ابن مسعود وابن عباس، وقد أنكرت ذلك عائشة على من فسرها بذلك، وانتصر لها ابن جرير، ووجَّه المشهور عن الجمهور، وزيف القول الآخر بالكلية، وردَّه وأبَاه، ولم يقبله ولا ارتضاه، والله أعلم[٩].

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾.

---

(١) فى ت: «فنجى». (٢) فى ت: «غارم». (٣) فى أ: «شعبة».

(٤) فى ت، أ: «أبى حمزة». (٥) فى أ: «فضل». (٦) فى ت، أ: «محسن».

(٧) فى ت، أ: «لهم». (٨) فى ت، أ: «مخففة».

(٩) انظر ما قالته عائشة فى: تفسير الطبرى (١٦/ ٣٠٧، ٣٠٨) ورد الطبرى لقول ابن عباس (١٦/ ٣٠٦).

يقول تعالى: لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم، وكيف أنجينا[1] المؤمنين وأهلكنا الكافرين ﴿ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾، وهي العقول، ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ أي: وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله، أي: يكذب ويختلق؛ ﴿ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي: من الكتب المنزلة من السماء، وهو يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير، ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من تحليل وتحريم، ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور على الجلية، وعن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقات، فلهذا كان: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلالة إلى السداد، ويبتغون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد. فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة، يوم يفوز بالربح المُبْيَضَّة وجوههم الناضرة، ويرجع[2] المسودَّة وجوهُهم بالصفقة الخاسرة.

**آخر تفسير سورة يوسف، ولله الحمد والمنة وبه المستعان وعليه التكلان، وهو حسبنا ونعم الوكيل**

---

(١) في ت، أ: «نجينا».

(٢) في ت: «وترجع».

## تفسير سورة الرعد

[وهي مكية][١].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) ﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد تقدم[٢] في أول سورة البقرة، وقَدَّمنا أن كل سورة تُبتدأ بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله[٣] من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب؛ ولهذا قال: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن، وقيل: التوراة والإنجيل. قاله مجاهد وقتادة، وفيه نظر[٤]، بل هو بعيد.

ثم عطف على ذلك عطف صفات قوله: ﴿ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أي: يا محمد، ﴿ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾ خبر تقدم مبتدؤه، وهو قوله: ﴿ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾، هذا هو الصحيح المطابق لتفسير مجاهد وقتادة. واختار ابن جرير أن تكون الواو زائدة أو عاطفة صفة[٥] على صفة كما قدمنا، واستشهد بقول الشاعر:

إلى المَلِكِ القَرْمِ وابنِ الهُمَامِ ... ولَيْثِ الكتيبةِ في المُزْدَحَمْ[٦]

وقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾، كقوله: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣] أي: مع هذا البيان والجلاء والوضوح، لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق.

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) ﴾.

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه: أنه الذي بإذنه وأمره رَفَع السموات بغير عمَد، بل بإذنه وأمره[٧]، وتسخيره رفعها عن الأرض بُعداً لا تنال ولا يدرك مداها، فالسماء الدنيا محيطة

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) في ت: «تقدم الكلام عليها». (٣) في ت، أ: «أنه نزل».
(٤) في ت، أ: «وفيه تطويل». (٥) في ت، أ: «للصفة».
(٦) البيت في تفسير الطبري (١٦/ ٣٢١).
(٧) في ت، أ: «بل بأمره وبإذنه».

بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها[١] وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام. ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت، وبينها وبينها من البعد مسيرة خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، ثم السماء الثالثة محيطة[٢] بالثانية، بما فيها، وبينها[٣] وبينها خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، وكذا الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، كما قال [الله][٤] تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: ١٢] وفي الحديث: «ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فَلاَة، والكرسي في العَرْش كتلك[٥] الحلقة في تلك الفلاة[٦]، وفي رواية: «والعرش لا يقدر قدره إلا الله، عز وجل، وجاء عن بعض السلف أن بُعد ما بين العرش إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة، وبعد ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة، وهو من ياقوتة حمراء.

وقوله: ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾: روى عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة: أنهم قالوا: لها عَمَد ولكن لا ترى.

وقال إياس بن معاوية: السماء على الأرض مثل القبة، يعني بلا عمد. وكذا روى عن قتادة، وهذا هو اللائق بالسياق. والظاهر من قوله تعالى: ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج: ٦٥]، فعلى هذا يكون قوله: ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ تأكيدا لنفي ذلك، أي: هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها. هذا هو الأكمل في القدرة. وفي شعر أمية بن أبي الصلت الذي آمن شعره وكفر قلبه، كما ورد في الحديث[٧]، ويروى لزيد بن عمرو بن نفيل، رحمه الله ورضي عنه:

وأَنتَ الذي مِنْ فَضْلِ مَنٍّ وَرَحْمَةٍ ... بَعَثْتَ إلى مُوسَى رَسُولاً مُنَادِيا

فقلتَ له: فاذهَبْ وهارونَ فادعُوَا ... إلى الله فِرْعَونَ الذي كانَ طَاغيا

وَقُولاَ له: هَلْ أنتَ سَوَّيْت هَذه ... بلا[وَتَد حتَّى اطمأنت[٨] كمَا هيا

وقُولا لَه: أأنتَ رَفَّعتَ هَذه ... بلا ][٩]عَمَد أَرْفِقْ إذَا بكَ بانيًا؟

وقُولا له: هَل أنتَ سَوَّيت وَسْطَهَا ... مُنيراً إذا ما جَنَّك الليلُ هاديا

---

(١) في ت، أ: «جهاتها ونواحيها». (٢) في ب: «محيط». (٣) في أ: «بينهما».

(٤) زيادة من أ. (٥) في أ: «كمثل».

(٦) سبق الكلام على هذا الحديث والذي بعده مفصلاً عند تفسير الآية: ٢٥٥ من سورة البقرة.

(٧) رواه ابن عبد البر في التمهيد (٤/٧) من طريق أبي بكر الهذلي عن عكرمة قال: قلت لابن عباس: أرأيت ما جاء عن النبي ﷺ في أمية بن أبي الصلت: «آمن شعره وكفر قلبه»؟ قال: هو حق فما أنكرتم من ذلك ؟ . الحديث.

(٨) في ت أ: «استقلت»، والمثبت من سيرة ابن هشام.

(٩) زيادة من ت، أ، وسيرة ابن هشام.

وقُولا له: مَنْ يُرسِلُ الشَّمس غُدوةً فيُصبحَ ما مَسَّتْ منَ الارض ضَاحيا؟

وقُولا له: مَن يُنبتُ الحَبَّ في الثَّرَى فيُصبحَ منه العُشب يهتزُّ رَابيا؟

ويُخرجُ منه حبَّة في رؤوسه ففي ذاكَ آياتٌ لمن كَانَ وَاعيا[1]

وقوله: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾: تقدم تفسير ذلك في سورة «الاعراف»[2]، وأنه يُمرّ[3] كما جاء من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل، تعالى الله علوا كبيرا.

وقوله: ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾: قيل: المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [يس: ٣٨].

وقيل: المراد إلى مستقرهما، وهو تحت العرش مما يلي بطن الأرض من الجانب الآخر، فإنهما وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك، يكونون أبعد ما يكون[4] عن العرش؛ لأنه على الصحيح الذى تقومُ عليه الادلة، قبة مما يلي العالم من هذا الوجه، وليس بمحيط كسائر الافلاك؛ لأنه[5] له قوائم وحَمَلة يحملونه. ولا يتصوّر هذا في الفلك المستدير، وهذا واضح لمن تدبَّر ما وَرَدَتْ به الآيات والأحاديث الصحيحة، ولله الحمد والمنة.

وذكر الشمس والقمر؛ لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة، التى هى أشرف وأعظم من الثوابت، فإذا كان قد سخر هذه، فلأن يدخل في التسخير سائرُ الكواكب بطريق الأولى والأحرى، كما نبه[6] بقوله تعالى: ﴿ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧]. مع أنه قد صرح بذلك بقوله[7]: ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الاعراف: ٥٤].

وقوله: ﴿ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ أي: يوضح[8] الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما ابتدأ خلقه.

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى

---

(١) الأبيات في السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٢٨).

(٢) انظر: تفسير الآية: ٥٤.

(٣) في ت: «يمر».

(٤) في ت، أ: «ما يكونون».

(٥) في ت، أ: «لأن».

(٦) في ت: «فيه».

(٧) في ت: «في قوله».

(٨) في ت، أ: «توضح».

بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)﴾.

لما ذكر تعالى العالم العلوي، شرع في ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلي، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ﴾أي: جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض، وأرساها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون لسقي ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح، من كل زوجين اثنين، أي: من كل شكل صنفان.

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أي: جعل كلا منهما [١] يطلب الآخر طلبا حثيثا، فإذا ذهب هذا غشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، فيتصرف أيضا في الزمان كما تصرف في المكان والسكان.

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي: في آلاء الله وحكمته [٢] ودلائله.

وقوله: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ أي: أراضٍ تجاور [٣] بعضها بعضا، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينتفع به الناس، وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئا. هكذا روي عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبير، والضحاك، وغيرهم.

وكذا يدخل في هذه الآية اختلافُ ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة[٤]، وهذه سهلة، وهذه مرملة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات. فهذه بصفتها، وهذه بصفتها الأخرى، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وقوله: ﴿وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ [٥]وَنَخِيلٌ﴾: يحتمل [٦] أن تكون عاطفة على ﴿جَنَّاتٌ ﴾، فيكون ﴿وَزَرْعٌ[٧] وَنَخِيلٌ﴾ مرفوعين. ويحتمل أن يكون معطوفا على أعناب، فيكون مجرورا؛ ولهذا قرأ بكل منهما طائفة من الأئمة.

وقوله: ﴿ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾: الصنوان: هي الأصول المجتمعة في منبت واحد، كالرمان والتين وبعض النخيل، ونحو ذلك. وغير الصنوان: ما كان على أصل واحد، كسائر الأشجار، ومنه سمي عم الرجل صنو أبيه،كما جاء في الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لعمر: «أما شعرت[٨] أن عم الرجل صنو أبيه؟»[٩].

وقال سفيان الثوري، وشعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء، رضي الله عنه: الصنوان: هي النخلات في أصل واحد، وغير الصنوان: المتفرقات. وقاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

---

(١) في ت: «منهما». (٢) في ت، أ: «وحكمه». (٣) في ت: «يجاورها».
(٤) في ت: «محجرة». (٥) في ت: «وزروع» وهو خطأ. (٦) في ت: «تحمل».
(٧) في ت: «وزروع» وهو خطأ. (٨) في أ: «أما علمت».
(٩) رواه مسلم في صحيحه برقم (٩٨٣) من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

وقوله: ﴿ تُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾: قال الأعمش، عن أبى صالح، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ قال: «الدَّقَل والفارسى، والحُلْو والحامض». رواه الترمذى وقال: حسن غريب[1].

أى: هذا الاختلاف فى أجناس الثمرات والزروع، فى أشكالها وألوانها، وطعومها وروائحها، وأوراقها وأزهارها.

فهذا فى غاية الحلاوة وذا فى غاية الحموضة، وذا [2] فى غاية المرارة وذا عَفِص، وهذا عذب وهذا [3] جمع هذا وهذا، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى. وهذا أصفر وهذا أحمر، وهذا أبيض وهذا أسود وهذا أزرق. وكذلك الزهورات مع أن كلها يستمد [4] من طبيعة واحدة، وهو الماء، مع هذا الاختلاف الكثير الذى لا ينحصر ولا ينضبط، ففى ذلك آيات لمن كان واعيا، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار، الذى بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها على ما يريد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥) ﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بأمر المعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلالاته فى خلقه على أنه القادر على ما يشاء، ومع ما يعترفون [5] به من أنه ابتدأ خلق الأشياء، فكونها بعد أن لم تكن شيئا مذكورا، ثم هم بعد هذا يكذبون خبره فى أنه سيعيد العالمين خلقا جديدا، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به، فالعجب من قولهم: ﴿ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾، وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق فالإعادة سهلة عليه، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

ثم نعت المكذبين بهذا فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ أى: يُسْحَبُون بها فى النار، ﴿ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أى: ماكثون فيها أبدا، لا يحولون عنها ولا يزولون.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ

---

(١) سنن الترمذى برقم (٣١١٨). والدقل: الردىء واليابس من التمر. والفارسى: نوع من التمر.

(٢) فى ت: «وهذا». (٣) فى ت، أ: «وهذا قد جمع».

(٤) فى ت: «استمد». (٥) فى ت، أ: «يعرفون».

﴿لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ⑥﴾.

يقول تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ[1]﴾ أي: هؤلاء المكذبون ﴿بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي: بالعقوبة، كما أخبر عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٦ ـ ٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٣، ٥٤]، وقال: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١]، وقال: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] أي: حسابنا وعقابنا، كما قال مخبرا عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، فكانوا[2] يطلبون من الرسول أن يأتيهم بعذاب الله، وذلك من شدة تكذيبهم وكفرهم وعنادهم.

قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ أي: قد أوقعنا نقمتنا بالأمم الخالية وجعلناهم مثلة وعبرة وعظة لمن اتعظ بهم.

ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه [وغفره][3] لعاجلهم بالعقوبة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا[4] مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أي: إنه ذو عفو وصفح[5] وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار. ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب، ليعتدل الرجاء والخوف، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، إلى أمثال ذلك من الآيات التي تجمع الرجاء والخوف.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزه، ما هنأ أحداً العيش[6]، ولولا وعيده[7] وعقابه، لاتكل كل أحد»[8].

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الحسن بن عثمان أبي حسان الزيادي: أنه رأى رب العزة في

---

(١) في ت، أ: «ويستعجلونك» وهو خطأ.
(٢) في ت: «وكانوا».
(٣) زيادة من أ.
(٤) في ت: «الناس بظلمهم» وهو خطأ.
(٥) في ت: «ذو صفح وغفر».
(٦) في ت: «العيش».
(٧) في ت: «وعيده».
(٨) ورواه الواحدي في الوسيط (٣/٦) من طريق محمد بن أيوب، عن موسى بن إسماعيل، به مرسلاً.

النوم، ورسول الله ﷺ واقف بين يديه يشفع في رجل من أمته، فقال له: ألم يكفك أني أنزلت عليك في سورة الرعد: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾؟ قال: ثم انتبهت[١].

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) ﴾.

يقول تعالى إخباراً عن المشركين أنهم يقولون كفرا وعنادا: لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون، كما تعنتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهبا، وأن يزيل[٢] عنهم الجبال، ويجعل مكانها مروجا وأنهاراً، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ أي: إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها، ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، أي: ولكل قوم داع.

وقال العوفي، عن ابن عباس في تفسيرها: يقول الله تعالى: أنت يا محمد منذر، وأنا هادي كل قوم، وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جُبَير، والضحاك.

وعن مجاهد: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: نبي. كما قال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]. وبه قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد.

وقال أبو صالح، ويحيى بن رافع: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: قائد.

وقال أبو العالية: الهادي: القائد، والقائد: الإمام، والإمام: العمل.

وعن عِكْرِمة، وأبي الضُّحى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قالا: هو محمد [رسول الله][٣] ﷺ.

وقال مالك: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾: منْ يدعوهم إلى الله، عز وجل.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني أحمد بن يحيى الصوفي، حدثنا الحسن بن الحسين الأنصاري، حدثنا معاذ بن مسلم بياع الهروي، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: لما نزلت: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، قال: وضع رسول الله ﷺ يده على صدره، وقال: «أنا المنذر، ولكل قوم هاد». وأومأ بيده إلى منكب عليٍّ، فقال: «أنت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون من بعدي».

وهذا الحديث فيه نكارة شديدة[٤].

---

(١) تاريخ دمشق (٤/ ٤٧١ «المخطوط»).

(٢) في ت، أ: «يزيح». (٣) زيادة من أ.

(٤) تفسير الطبري (١٦/ ٣٥٧)، وقال الذهبي في ميزان الاعتدال (١/ ٤٨٤) بعد أن ساقه في ترجمة الحسن بن الحسين: «رواه ابن جرير في تفسيره، عن أحمد بن يحيى، عن الحسن، عن معاذ، ومعاذ نكرة، فلعل الآفة منه».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا المطلب بن زياد، عن السدي، عن عبد خير، عن علي: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، قال: الهادي: رجل من بني هاشم: قال الجنيد[1]: هو علي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عباس، في إحدى الروايات، وعن أبي جعفر محمد بن علي، نحو ذلك.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩)﴾.

يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤] أي: ما حملت من ذكر أو أنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقي أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦] أي: خلقكم طورا من بعد طور، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤]، وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله[2] ﷺ: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه ملك فيؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه، وعمره، وعمله، وشقي أو سعيد»[3].

وفي الحديث الآخر: «فيقول الملك: أيْ رب، أذكر أم أنثى؟ أي رب، أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيقول الله، ويكتب الملَك»[4].

وقوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾: قال البخاري: حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا معْن، حدثنا مالك، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها[5] إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطرُ أحدٌ إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله»[6].

---

(١) في أ: «ابن الجنيد». (٢) في ت: «النبي».

(٣) صحيح البخاري برقم (٣٢٠٨) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٣).

(٤) رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٦٤٥) من حديث حذيفة بن أسيد، رضي الله عنه.

(٥) في ت: «لا يعلمهن».

(٦) صحيح البخاري برقم (٤٦٩٧).

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ يعني: السقط ﴿وَمَا تَزْدَادُ ﴾ يقول: ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماما. وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومنهن من تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تزيد في الحمل، ومنهن من تنقص، فذلك الغيض [١] والزيادة التي ذكر الله تعالى، وكل ذلك بعلمه تعالى.

وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: ما نقصت من تسعة وما زاد عليها.

وقال الضحاك: وضعتني أمي وقد حملتني في بطنها سنتين، وولدتني وقد نبتت ثنيّتي.

وقال ابن جُرَيْج، عن جميلة بنت سعد، عن عائشة قالت: لا يكون الحمل أكثر من سنتين، قدر ما يتحرك ظل مغزل.

وقال مجاهد: ﴿ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: ما ترى من الدم في حملها، وما تزداد على تسعة أشهر. وبه قال عطية العوفي وقتادة، والحسن البصري، والضحاك.

وقال مجاهد أيضا: إذا رأت المرأة الدم دون التسعة زاد على التسعة، مثل أيام الحيض. وقاله عكرمة، وسعيد بن جبير، وابن زيد.

وقال مجاهد أيضا: ﴿ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ ﴾: إراقة المرأة حتى يخسّ الولد ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ إن لم تهرق المرأة تم الولد وعظم.

وقال مكحول: الجنين في بطن أمه لا يطلب، ولا يحزن ولا يغتم، وإنما يأتيه رزقه في بطن أمه من دم حيضتها [٢]، فمن ثم لا تحيض الحامل. فإذا وقع إلى الأرض استهل، واستهلاله استنكار [٣] لمكانه، فإذا قطعت سرته حول الله رزقه إلى ثديي أمه حتى لا يطلب ولايحزن ولا يغتم، ثم يصير طفلا يتناول الشيء بكفه فيأكله، فإذا هو بلغ قال: هو الموت أو القتل، أنّى لي بالرزق؟ فيقول مكحول: يا ويلك [٤] ! غذاك وأنت في بطن أمك، وأنت طفل صغير، حتى إذا اشتددت وعقلت قلت: هو الموت أو القتل، أنى لي بالرزق؟ ثم قرأ مكحول: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾.

وقال قتادة: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ أي: بأجل، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم، وجعل لذلك أجلا معلوماً.

وفي الحديث الصحيح: أن إحدى بنات النبي ﷺ بعثت إليه: أن ابناً لها في الموت، وأنها تحب أن يحضره. فبعث إليها يقول: «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمروها

(١) في ت: «الغيض».
(٢) في ت: «حيضها».
(٣) في ت: «الاستنكار».
(٤) في ت: «يا ويحك».

فلتصبر ولتحتسب» الحديث بتمامه(١).

وقوله: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أي: يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ومما يغيب عنهم، ولا يخفى(٢) عليه منه شيء. ﴿الْكَبِيرُ﴾ الذي هو أكبر من كل شيء، ﴿الْمُتَعَالِ﴾ أي: على كل شيء، قد أحاط بكل شيء علما، وقهر كل شيء، فخضعت له الرقاب ودان له العباد، طوعا وكرها.

﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١) ﴾.

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه، سواء(٣) منهم من أسر قوله أو جهر به، فإنه يسمعه، لا يخفى عليه شيء كما قال: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: ٧]، وقال: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ [النمل: ٢٥]، وقالت عائشة، رضي الله عنها: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، والله لقد جاءت المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وأنا في جنب البيت، وإنه ليخفى علي بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

وقوله: ﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾أي: مختف في قعر بيته في ظلام الليل، ﴿ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أي: ظاهر ماش في بياض النهار وضيائه، فإن كليهما(٤) في علم الله على السواء، كما قال تعالى: ﴿ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [هود: ٥]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[يونس: ٦١].

وقوله: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أي: للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء(٥) والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فاثنان عن اليمين و[عن](٦) الشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحدا(٧) من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل بدلا، حافظان وكاتبان، كما جاء في الصحيح: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم:

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم (١٢٨٤) ومسلم في صحيحه برقم (٩٢٣) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.
(٢) في ت: «لا يخفى». (٣) في ت: «وأنه سواء». (٤) في ت: «كلاهما».
(٥) في ت: «الأنواء». (٦) زيادة من ت. (٧) في ت: «وآخر».

كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون»[١]. وفي الحديث الآخر: «إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع، فاستحيوهم وأكرموهم»[٢].

وقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾: والمعقبات من أمر الله، وهي الملائكة.

وقال عكرمة، عن ابن عباس: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلّوا عنه.

وقال مجاهد: ما من عبد إلا له [٣] مَلَك موكل، يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه يريده إلا قال الملك: وراءك إلا شيء يأذن الله فيه فيصيبه.

وقال الثوري عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ قال: ذلك [٤] ملك من ملوك الدنيا، له حرس من دونه حرس.

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعني: ولي الشيطان، يكون عليه الحرس. وقال عكرمة في تفسيرها: هؤلاء الأمراء: المواكب من بين يديه ومن خلفه.

وقال الضحاك: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ قال: هو السلطان[٥] المحترس [٦]من أمر الله، وهم أهل الشرك.

والظاهر، والله أعلم، أن مُرَاد ابن عباس وعكرمة والضحاك بهذا أن حرس الملائكة للعبيد [٧] يشبه حرس هؤلاء لملوكهم وأمرائهم.

وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير هاهنا حديثاً غريباً جداً فقال:

حدثني المثنى، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام بن صالح القُشيري، حدثنا علي بن جرير، عن حماد بن سلمة، عن عبد الحميد بن جعفر، عن كنانة العدوي قال: دخل عثمان بن عفان على رسول الله ﷺ. فقال: يا رسول الله، أخبرني عن العبد، كم معه من ملك[٨]؟ فقال: «ملك على يمينك على حسناتك، وهو آمر [٩] على الذي على الشمال، إذا عملت حسنة كتبت عشرا، فإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين: أكتب؟ قال: لا، لعله يستغفر الله ويتوب. فإذا قال ثلاثا قال:

---

(١) صحيح البخاري برقم (٥٥٥، ٧٤٢٩) وصحيح مسلم برقم (٦٣٢).

(٢) رواه الترمذي في السنن برقم (٢٨٠٠) من طريق ليث، عن نافع، عن ابن عمر، رضي الله عنه، مرفوعاً، وأوله: «إياكم والتعري فإن معكم». الحديث. وقال الترمذي: «هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه».

(٣) في ت، أ: «به».  (٤) في ت، أ: «ذكر».  (٥) في ت: «الشيطان».

(٦) في أ: «المحروس».  (٧) في ت، أ: «للعبد».  (٨) في ت، أ: «كم ملك معه».

(٩) في ت، أ: «وهو أمين».

نعم، اكتب أراحنا الله منه، فبئس القرين. ما أقل مراقبته لله وأقل استحيائه منا». يقول الله: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨]، وملكان من بين يديك ومن خلفك، يقول الله: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾، وملك قابض على نصايتك، فإذا تواضعت لله رفعك، وإذا تجبرت على الله قصمك، وملكان على شفتيك، ليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد ﷺ، وملك قائم على فيك لا يَدَع الحية أن تدخل فى فيك، وملكان على عينيك فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمى[١]، ينزلون[٢] ملائكة الليل على ملائكة النهار؛ لأن ملائكة الليل سوى ملائكة النهار، فهؤلاء عشرون ملكا على كل آدمى وإبليس بالنهار وولده بالليل»[٣].

قال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا سفيان، حدثنى منصور، عن سالم ابن أبى الجعد عن أبيه، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة». قالوا: وإياك يا رسول الله، قال: «وإياى، ولكن أعاننى الله عليه[٤]، فلا يأمرنى إلا بخير».

انفرد بإخراجه مسلم[٥].

وقوله: ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾: قيل: المراد حفظهم له من أمر الله. رواه على بن أبى طلحة، وغيره، عن ابن عباس. وإليه ذهب مجاهد، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النَّخَعى، وغيرهم.

وقال قتادة: ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ قال: وفى بعض القراءات: «يحفظونه بأمر الله».

وقال كعب الأحبار: لو تجلَّى لابن آدم كل سهل وحزن، لرأى كل شىء من ذلك شياطين[٦] لولا أن الله وكَّل بكم ملائكة عنكم فى مطعمكم ومشربكم وعوراتكم، إذاً لتُخُطِّفتم.

وقال أبو أمامة[٧]: ما من آدمى إلا ومعه ملك يَذُود عنه، حتى يسلمه للذى قُدِّر له.

وقال أبو مِجْلَز: جاء رجل من مُرَاد إلى على، رضى الله عنه، وهو يصلى، فقال: احترس، فإن ناساً من مراد يريدون قتلك. فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدّر، فإذا جاء القَدَرُ خليا بينه وبينه، وإن الأجل جنة حَصِينة[٨].

وقال بعضهم: ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾: بأمر الله، كما جاء فى الحديث أنهم قالوا: يا رسول الله، أرأيت رُقًى نسترقى بها، هل ترد من قَدَر الله شيئا؟ فقال: «هى من قَدَر الله»[٩].

---

(١) فى ت، أ: «على كل بنى آدم». (٢) فى ت، أ: «يبدلون».

(٣) تفسير الطبرى (١٦/ ٣٧٠).

(٤) فى ت، أ: «ولكن الله أعاننى عليه».

(٥) المسند (١/ ٣٩٧) وصحيح مسلم برقم (٢٨١٤).

(٦) فى ت، أ: «من ذلك ساء نفسه». (٧) فى أ: «أبو أسامة».

(٨) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٣٧٨).

(٩) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٠٦٥) من حديث أبى خزامة وقال: «حديث حسن».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، عن أشعث، عن جَهْم، عن إبراهيم قال: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل: أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله، إلا تحول لهم عما يحبون إلى ما يكرهون، ثم قال: إن مصداق[1] ذلك في كتاب الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

وقد ورد هذا في حديث مرفوع، فقال الحافظ محمد بن عثمان بن أبي شيبة في كتابه «صفة العرش»: حدثنا الحسن بن علي، حدثنا الهيثم بن الأشعث السلمي، حدثنا أبو حنيفة اليمامي[2] الأنصاري، عن عمير بن عبد الله[3] قال: خطبنا علي بن أبي طالب على منبر الكوفة، قال: كنت إذا سكتُّ عن رسول الله ﷺ ابتدأني، وإذا سألته عن الخبر أنبأني، وإنه حدثني عن ربه، عز وجل، قال: «قال الرب: وعزتي وجلالي، وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهتُ من معصيتي، ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي، إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي»[4].

وهذا غريب، وفي إسناده من لا أعرفه.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣)﴾.

يخبر تعالى أنه هو الذي يسخر البرق، وهو ما يرى[5] من النور اللامع ساطعا من خلل السحاب.

وروى ابن جرير أن ابن عباس كتب إلى أبي الجَلْد يسأله عن البرق، فقال: البرق: الماء.

وقوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾: قال قتادة: خوفا للمسافر، يخاف أذاه ومشقته، وطمعا للمقيم يرجو بركته ومنفعته، ويطمع في رزق الله.

﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ أي: ويخلقها منشأة جديدة، وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض.

قال مجاهد: والسحاب الثقال: الذي فيه الماء.

---

(١) في ت، أ: «التصديق».    (٢) في هـ، ت، أ: «اليمني» والصواب ما أثبتناه.

(٣) في هـ، ت، أ: «عبد الملك» والصواب ما أثبتناه.

(٤) صفة العرش برقم (١٩) والهيثم مجهول وشيخه لم أجد له ترجمة.

(٥) في ت: «ماترى».

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا إبراهيم بن سعد، أخبرني أبي قال: كنت جالساً إلى جنب حُمَيْد بن عبد الرحمن في المسجد، فمر شيخ من بني غفار، فأرسل إليه حميد، فلما أقبل قال: يا بن أخي، وسع[1] له فيما بيني وبينك، فإنه قد صَحب رسول الله ﷺ. فجاء حتى جلس فيما بيني وبينه، فقال له حميد: ما الحديث الذي حدثتني عن رسول الله ﷺ؟ فقال الشيخ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ينشئ السحاب، فينطق أحسن النطق، ويضحك أحسن الضحك»[2].

والمراد ـ والله أعلم ـ أن نطقَها الرعدُ، وضحكها البرقُ.

وقال موسى بن عبيدة، عن سعد بن إبراهيم قال: يبعث الله الغيث، فلا أحسن منه مضحكا، ولا آنس منه منطقا، فضحكه البرق، ومنطقه الرعد.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عبيد الله الرازي، عن محمد بن مسلم قال: بلغنا أن البرق مَلَكٌ له أربعة وجوه: وجه إنسان، ووجه ثور، ووجه نسر، ووجه أسد، فإذا مَصَع[3] بذنبه فذاك البرق[4].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الحجاج، حدثني أبو مطر، عن سالم، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا سَمِع الرعْد والصواعق قال: «اللهم، لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك».

ورواه الترمذي، والبخاري في كتاب الأدب، والنسائي في اليوم والليلة، والحاكم في مستدركه، من حديث الحجاج بن أرطاة، عن أبي مطر ـ ولم يسم به[5].

وقال [الإمام][6] أبو جعفر بن جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا إسرائيل، عن أبيه[7]، عن رجل، عن أبي هريرة، رفع الحديث قال: إنه كان إذا سمع الرعد قال: «سبحان من يُسبِّح الرعد بحمده»[8].

وروى عن علي، رضي الله عنه، أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال: سبحان من سبَّحت له.

---

(١) في ت: «أوسع».

(٢) المسند (٥/ ٤٣٥).

(٣) في ت: «قصع».

(٤) وهذا لا أصل له من كتاب ولا سنة، وهو من الخيال.

(٥) المسند (٢/ ١٠٠) وسنن الترمذي (٣٤٥٠) والأدب المفرد برقم (٧٢٢) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١٠٧٦٤)، وأما الحاكم فرواه في المستدرك (٤/ ٢٨٦) من طريق عبد الواحد بن زياد، عن أبي مطر، به. ولم يذكر الحجاج بن أرطاة، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وأقره الذهبي، وضعف النووي هذا الحديث في الأذكار (ص ١٦٤).

(٦) زيادة من ت، أ. (٧) في ت، أ: «عن ليث».

(٨) تفسير الطبري (١٦/ ٣٨٩) ورواه ابن مردويه في تفسيره كما في تخريج الكشاف (٢/ ١٨٤) من طريق محمد بن يحيى، عن أحمد بن إسحاق عن أبي أحمد، عن عتاب بن زياد، عن رجل، عن أبي هريرة رفع الحديث... إلى آخره.

وكذا روى عن ابن عباس، والأسود بن يزيد، وطاوس: أنهم كانوا يقولون كذلك.

وقال الأوزاعي: كان ابن أبي زكريا يقول: من قال حين يسمع الرعد: سبحان الله وبحمده، لم تصبه صاعقة.

وعن عبد الله بن الزبير[١]: أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: سبحان الذي يسبّح الرعدُ بحمده والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا لوعيد[٢] شديدٌ لأهل الأرض. رواه مالك في الموطأ، والبخاري في كتاب الأدب[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود الطيالسي، حدثنا صَدَقَة بن موسى، حدثنا محمد بن واسع، عن شتير[٤] بن نهار، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال ربكم عز وجل: لو أن عبيدي أطاعوني لأسقيتهم المطر بالليل، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولما أسمعتهم[٥] صوت الرعد»[٦].

وقال الطبراني: حدثنا زكريا بن يحيى الساجي، حدثنا أبو كامل الجَحْدري، حدثنا يحيى بن كثير أبو النضر، حدثنا عبد الكريم، حدثنا عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله؛ فإنه لا يصيب ذاكرا»[٧].

وقوله: ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ ﴾ أي: يرسلها نقمَةً ينتقم بها ممن يشاء، ولهذا تكثر في آخر الزمان، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا محمد بن مصعب، حدثنا عمارة[٨]، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة، حتى يأتي الرجل القوم فيقول: من صُعِق تلكم[٩] الغداة؟ فيقولون صُعِق فلان وفلان وفلان»[١٠].

وقد روى في سبب نزولها ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي:

حدثنا إسحاق، حدثنا علي بن أبي سارة الشّيباني، حدثنا ثابت، عن أنس: أن رسول الله ﷺ بعث رَجُلا مرة إلى رجل من فراعنة العرب فقال: «اذهب فادعه لي». قال: فذهب إليه فقال: يدعوك رسول الله ﷺ. فقال له: من رسول الله؟ وما الله؟ أمِن ذهب هو؟ أم من فضة هو؟ أم من نحاس هو؟ قال: فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: يا رسول الله، قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك،

---

(١) في ت، أ: «ابن عمرو». (٢) في ت، أ: «الوعيد».

(٣) الموطأ (٢/ ٩٩٢) والأدب المفرد برقم (٧٢٤).

(٤) في ت: «عن شمس»، وفي أ: «شمير». (٥) في ت: «استمعتهم».

(٦) المسند (٢/ ٣٥٩).

(٧) المعجم الكبير (١١/ ١٦٤) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٣٦): «فيه يحيى بن كثير وهو ضعيف».

(٨) في أ: «حماد». (٩) في ت، أ: «قبلكم».

(١٠) المسند (٣/ ٦٤).

قال لي كذا وكذا. فقال: «ارجع إليه الثانية». أراه، فذهب فقال له مثلها. فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك. قال: «ارجع إليه فادعه». فرجع إليه الثالثة. قال: فأعاد عليه ذلك الكلام. فبينا هو يكلمه، إذ بعث الله، عز وجل، سحابة حيال رأسه، فرعَدت، فوقعت منها صاعقة، فذهب بقحْف رأسه فأنزل الله: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾.

ورواه ابن جرير، من حديث علي بن أبي سارة، به[١]. ورواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عبدة ابن عبد الله، عن يزيد بن هارون، عن ديلم بن غَزْوان، عن ثابت، عن أنس، فذكر نحوه[٢].

وقال: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا عفان، حدثنا أبان بن يزيد، حدثنا أبو عمران الجَوْني، عن عبد الرحمن بن صُحَار العبدي: أنه بلغه أن نبي الله بعثه[٣] إلى جَبَّار يدعوه، فقال: أرأيتم[٤] ربكم، أذهب هو؟ أو فضة هو؟ ألؤلؤ هو؟ قال: فبينا هو يجادلهم، إذ بعث الله سحابة فرعَدَت فأرسل عليه صاعقة فذهبت بقِحْف رأسه، ونزلت هذه الآية.

وقال أبو بكر بن عياش، عن ليث بن أبي سليم، عن مجاهد قال: جاء يهودي فقال: يا محمد، أخبرني عن ربك، [من أي شيء هو][٥]، من نحاس هو؟ من لؤلؤ؟ أو ياقوت؟ قال: فجاءت صاعقة فأخذته، وأنزل الله: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾.

وقال قتادة: ذُكر لنا أنَّ رجلا أنكر القرآن، وكذَّب النبيَّ ﷺ، فأرسل الله صاعقة فأهلكته وأنزل: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ الآية.

وذكروا في سبب نزولها قصة عامر بن الطفيل وأربد[٦] بن ربيعة لما قدما على رسول الله ﷺ المدينة، فسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر فأبى عليهما رسول الله ﷺ، فقال له عامر بن الطفيل ـ لعنه الله: أما والله لأملأنها عليك خيلا جُرْدا ورجالا مُرْداً. فقال له رسول الله ﷺ: يأبى الله عليك ذلك وأبناء قَيْلة[٧]، يعني: الأنصار، ثم إنهما هما بالفتك[٨] بالنبي ﷺ، وجعل أحدهما يخاطبه، والآخر يستل سيفه ليقتله من ورائه، فحماه الله منهما وعَصمه، فخرجا من المدينة فانطلقا في أحياء العرب، يجمعان الناس لحربه، عليه السلام[٩]، فأرسل الله على أربد سحابة فيها صاعقة فأحرقته. وأما عامر بن الطفيل فأرسل الله عليه الطاعون، فخرجت فيه غُدَّة عظيمة، فجعل يقول: يا آل عامر، غُدَّة كغدَّة البَكْر، وموت في بيت سَلُولية[١٠]؟ حتى ماتا[١١]، لعنهما الله، وأنزل الله في مثل ذلك:

(١) مسند أبي يعلى (٦/ ١٨٣) وتفسير الطبري (١٦/ ٣٩٢) وعلي بن أبي سارة ضعيف.

(٢) مسند البزار برقم (٢٢٢١) «كشف الأستار» وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٤٢): «رجال البزار، رجال الصحيح غير ديلم بن غزوان وهو ثقة».

(٣) في ت، أ: «بعث».

(٤) في أ: «أرأيتكم».

(٥) زيادة من ت، أ، والطبري.

(٦) في ت: «وأربد».

(٧) في ت، أ: «نبيلة».

(٨) في أ: «بالقتل».

(٩) في أ: «ﷺ».

(١٠) في ت: «سلولة».

(١١) في أ: «مات».

﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ ﴾، وفي ذلك يقول لبيد بن ربيعة، أخو أربد يرثيه:

أخشَى عَلَى أرْبَدَ الحُتُوفَ وَلاَ ... أرْهَبُ نَوْءَ السِّمَاكِ والأسَدِ

فَجَعَنِي الرَّعْدُ والصَّوَاعِقُ بالـ ... ـفارس يَوْمِ الكريهَةِ النَّجُدِ[١]

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا مَسْعَدة بن سعد[٢] العطار، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي، حدثني عبد العزيز بن عمران، حدثني عبد الرحمن وعبد الله ابنا زيد بن أسلم، عن أبيهما، عن عطاء بن يسار، عن ابن عباس، أن أربد بن قيس بن جَزْء بن جليد[٣] بن جعفر بن كلاب، وعامر بن الطفيل بن مالك، قدما المدينة على رسول الله ﷺ، فانتهيا إليه وهو جالس، فجلسا بين يديه، فقال عامر بن الطفيل: يا محمد، ما تجعل لي إن أسلمتُ؟ فقال رسول الله ﷺ: «لك ما للمسلمين، وعليك ما عليهم». قال عامر بن الطفيل: أتجعل لي الأمر إن أسلمت من بعدك؟ قال رسول الله ﷺ: «ليس ذلك لك ولا لقومك، ولكن لك أعنَّة الخيل». قال: أنا الآن في أعنَّة خيل نجد، اجعل لي الوَبَر ولك المدَر. قال رسول الله: «لا». فلما قفلا من عنده قال عامر: أما والله لأملأنَّها عليك خيلا ورجالا، فقال له رسول الله ﷺ: «يمنعك الله». فلما خرج أربد وعامر، قال عامر: يا أربد، أنا أشغل عنك محمدا ﷺ بالحديث، فاضربه بالسيف، فإن الناس إذا قتلتَ محمدا لم يزيدوا على أن يرضَوا بالدية، ويكرهوا الحرب، فنعطيهم[٤] الدية. قال أربد: افعل. فأقبلا راجعين إليه، فقال عامر: يا محمد، قم معي أكلمك. فقام معه رسول الله ﷺ، فجلسا إلى الجدار، ووقف معه رسول الله ﷺ يكلمه، وسَلَّ أربدُ السيف، فلما وضع يده على السيف يَبِست يده على قائم السيف، فلم يستطع سَلَّ السيف، فأبطأ أربد على عامر بالضرب، فالتفت رسول الله ﷺ فرأى أربد، وما يصنع، فانصرف عنهما. فلما خرج عامر وأربد من عند رسول الله ﷺ حتى إذا كانا بالحَرَّة، حَرَّة واقم نزلا، فخرج إليهما سعد بن معاذ وأُسَيد بن حُضَير فقالا: اشخصا يا عدوَّي الله، لعنكما الله. فقال عامر: من هذا يا سعد؟ قال: هذا أسَيد بن حُضَير الكَتَائب[٥]. فخرجا حتى إذا كانا بالرَّقْم، أرسل الله على أربدَ صاعقة فقتلته، وخرج عامر حتى إذا كان بالخريم، أرسل الله قُرْحة فأخذته، فأدركه الليل في بيت امرأة من بني سلول، فجعل يمس قُرحته في حلقه ويقول: غُدَّة كغدَّة الجمل في بيت سَلُولية[٦] ترغب أن يموت في بيتها! ثم ركب فرسه فأحضره حتى مات عليه راجعا، فأنزل الله فيهما: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ٨ ـ ١١] ـ قال: المعقبات من أمر الله يحفظون محمداً ﷺ، ثم ذكر أربد وما قتله به، فقال: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ الآية[٧].

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٣٧٩ ـ ٣٨٢) عن ابن زيد.

(٢) في هـ، ت: «سعيد» وما أثبتناه هو الصواب؛ لوقوعه في المعجم الكبير والصغير هكذا، ولم أجد له ترجمة.

(٣) في أ: «خالد».

(٤) في ت، أ: «فنستعطيهم». (٥) في ت، أ: «الكاتب». (٦) في ت: «سلولته».

(٧) المعجم الكبير (١٠/ ٣٧٩ ـ ٣٨١) وفيه عبد العزيز بن عمران، وعبد الرحمن وعبد الله ابنا زيد بن أسلم، وكلهم ضعاف.

وقوله: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ أي: يشكّون في عظمته، وأنه لا إله إلا هو، ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾.

قال ابن جرير: شديدة مماحلته في عقوبة من طغى عليه وعتا وتمادى في كفره.

وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥٠، ٥١].

وعن علي، رضي الله عنه: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ أي: شديد الأخذ. وقال مجاهد: شديد القوة.

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (١٤)﴾.

قال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ قال: التوحيد. رواه ابن جرير.

وقال ابن عباس، وقتادة، ومالك عن محمد بن المنكدر: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [قال][1]: لا إله إلا الله.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ[2] مِن دُونِهِ﴾ أي: ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله. ﴿كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾: قال علي بن أبي طالب: كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده، وهو لا يناله أبدا بيده، فكيف يبلغ فاه؟

وقال مجاهد: ﴿كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ﴾: يدعو الماء بلسانه، ويشير إليه [بيده][3]، فلا يأتيه أبدا.

وقيل: المراد كقابض يده على الماء، فإنه لا يحكم منه على شيء، كما قال الشاعر[4]:

فَإِنِّي وَإِيَّاكُمْ وَشَوْقًا إِلَيْكُمْ كَقَابِضِ مَاءٍ لَمْ تَسِقْهُ[5] أَنَامِلُهْ

وقال الآخر[6]:

فَأَصْبَحْتُ مِمَّا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا مِنَ الْوُدِّ مِثْلَ الْقَابِضِ الْمَاءَ بِالْيَدِ

ومعنى الكلام: أن هذا الذي يبسط يده إلى الماء، إما قابضا وإما متناولا له من بُعد، كما أنه لا

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) في ت: «تدعون». (٣) زيادة من ت، أ، والطبري.

(٤) هو ضابئ بن الحارث البرجمي، والبيت في تفسير الطبري (١٦/ ٣٩٩) وأورده البغدادي في خزانة الأدب (٤/ ٨٠) من أبيات سبعة قالها في الحبس. اهـ مستفاد من حاشية الشعب.

(٥) في ت: «يسقه».

(٦) هو الأحوص بن محمد الأنصاري، والبيت في تفسير الطبري (١٦/ ٤٠٠).

ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه، الذي جعله محلا للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلها غيره، لا ينتفعون بهم أبدا في الدنيا ولا في الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١٥) ﴾.

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء. ولهذا يسجد له كلّ شيء طوعاً من المؤمنين، وكرها من المشركين، ﴿ وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ ﴾ أي: البُكر[١] والآصال، وهو جمع أصيل وهو آخر النهار، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٨].

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) ﴾.

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو؛ لأنهم معترفون[٢] أنه هو الذي خلق السموات والأرض، وهو ربها ومدبّرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لنفسها[٣]، ولا لعابديها بطريق الأولى ﴿ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: لا تحصل منفعة، ولا تدفع مضرة. فهل يستوى من عبد هذه الآلهة مع الله، ومن عبد الله وحده لا شريك له، وهو على نور من ربه؟ ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي[٤] الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الربّ وتماثله في الخلق، فخلقوا كخلقه، فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره؟ أي: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله، ولا ندّ له ولا عدْل[٥] له، ولا وزير له، ولا ولد ولا صاحبة، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم يعترفون[٦] أنها مخلوقة له عبيد له، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك. وكما أخبر تعالى عنهم في قوله: ﴿مَا[٧] نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]، فأنكر تعالى ذلك عليهم، حيث اعتقدوا

---

(١) في أ: «بالبكرات». (٢) في ت: «يعرفون». (٣) في ت: «لأنفسها».
(٤) في ت: «يستوى». (٥) في أ: «ولا عديل». (٦) في ت، أ: «يعرفون».
(٧) في ت: «إنما».

ذلك، وهو تعالى لا يُشَفَّع عنده أحداً إلا بإذنه، ﴿ولا تنفعُ الشَّفاعةُ عندهُ إلا لمنْ أذنَ لهُ﴾ [سبأ: ٢٣]، ﴿وكَم مِن مَلَكٍ في السَّمواتِ لا تُغني شفاعتُهم شيئاً إلاَّ من بعدِ أن يأذنَ اللهُ لمن يشاءُ ويرضى﴾ [النجم: ٢٦]، وقال: ﴿إن كلُّ من في السَّمواتِ والأرضِ إلاَّ آتي الرَّحمنِ عبداً . لقد أحصاهم وعدَّهم عدّاً . وكُلُّهم آتيه يومَ القيامةِ فرداً﴾ [مريم: ٩٣ ـ ٩٥]، فإذا كان الجميع عبيدا، فلم يعبد بعضهم بعضا بلا دليل ولا برهان، بل بمجرد الرأي والاختراع والابتداع؟ ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك، وتنهاهم عن عبادة من سوى الله، فكذبوهم وخالفوهم، فحقت عليهم كلمة العذاب لا محالة، ﴿ولا يظلمُ ربُّك أحداً﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿أنزلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فسالتْ أوديةٌ بقدرِها فاحتملَ السَّيلُ زبداً رابياً وممَّا يوقدونَ عليهِ في النَّارِ ابتغاءَ حليةٍ أو متاعٍ زبدٌ مثلُهُ كذلكَ يضربُ اللهُ الحقَّ والباطلَ فأمَّا الزَّبدُ فيذهبُ جُفاءً وأمَّا ما ينفعُ النَّاسَ فيمكثُ في الأرضِ كذلكَ يضربُ اللهُ الأمثالَ (١٧)﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: ﴿أنزلَ مِنَ السَّماءِ ماءً﴾ أي: مطرا، ﴿فسالتْ أوديةٌ بقدرِها﴾ أي: أخذ كل واد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيرا من الماء، وهذا صغير فوسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علما كثيرا، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها، ﴿فاحتملَ السَّيلُ زبداً رابياً﴾ أي: فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زَبَدٌ عال عليه، هذا مثل، وقوله: ﴿وممَّا يوقدونَ عليهِ في النَّارِ﴾، هذا هو المثل الثاني، وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ﴿ابتغاءَ حليةٍ﴾ أي: ليجعل حلية نحاس أو حديد، فيجعل متاعا فإنه يعلوه زَبَدٌ منه، كما يعلو ذلك[1] زبدٌ منه.

﴿كذلكَ يضربُ اللهُ الحقَّ والباطلَ﴾ أي: إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب ونحوه مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل؛ ولهذا قال: ﴿فأمَّا الزَّبدُ فيذهبُ جُفاءً﴾ أي: لا ينتفع به، بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح. وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب، لا يرجع[2] منه شيء، ولا يبقى إلا الماء[3]، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به؛ ولهذا قال: ﴿وأمَّا ما ينفعُ النَّاسَ فيمكثُ في الأرضِ كذلكَ يضربُ اللهُ الأمثالَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وتلكَ الأمثالُ نضربُها للنَّاسِ وما يعقلُها إلاَّ العالمونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

قال بعض السلف: كنت إذا قرأتُ مثلاً من القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وما يعقلُها إلاَّ العالمونَ﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: قوله تعالى: ﴿أنزلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فسالتْ أوديةٌ

---

(١) في ت: «ذاك».　(٢) في ت، أ: «منه إلى شيء».　(٣) في ت، أ: «ويبقى الماء».

بقدرها﴾: هذا مثل ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله. وهو قوله: ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء﴾، [وهو الشك][١]، ﴿وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾، وهو اليقين، وكما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار؛ فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك.

وقال العوفي عن ابن عباس قوله: ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا﴾ يقول: احتمل السيل ما في الوادي من عود ودمنة[٢] ﴿ومما يوقدون عليه في النار﴾، فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد، فللنحاس والحديد خبث، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت. فجعل ذاك[٣] مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيئ يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا الزبد، فكذلك الهدى والحق جاءا من عند الله، فمن عمل بالحق كان له، ويبقى كما يبقى ما ينفع الناس في الأرض. وكذلك الحديد لا يستطاع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل في النار فتأكل خبثه، ويخرج جيده فينتفع به. كذلك يضمحل الباطل إذا كان يوم القيامة، وأقيم الناس، وعرضت الأعمال، فيزيغ الباطل ويهلك، وينتفع أهل الحق بالحق.

وكذلك روي في تفسيرها عن مجاهد، والحسن البصري، وعطاء، وقتادة، وغيرواحد من السلف والخلف.

وقد ضرب الله، سبحانه وتعالى، في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين ناريًا ومائيا، وهما قوله: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله﴾ الآية [البقرة: ١٧]، ثم قال: ﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق﴾ الآية [البقرة: ١٩]. وهكذا ضرب للكافرين في سورة النور مثلين، أحدهما: قوله: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء﴾ الآية [النور: ٣٩]، والسراب إنما يكون في شدة الحر؛ ولهذا جاء في الصحيحين: «فيقال لليهود يوم القيامة: فما تريدون؟ فيقولون: أي ربنا، عطشنا فاسقنا. فيقال: ألا تردون؟ فيردون النار فإذا هي كالسراب يحطم بعضها بعضا».

ثم قال في المثل الآخر: ﴿أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب﴾ الآية [النور: ٤٠]. وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضا، فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت[٤] الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا، وأصابت طائفة منها [أخرى][٥]، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من

---

(١) زيادة من ت، أ.　(٢) في أ: «ورمة».　(٣) في ت، أ: «ذلك».
(٤) في ت: «وأنبتت».　(٥) زيادة من ت، أ، والصحيحين.

فَقه في دين الله ونَفَعه الله بما بعثني[1] ونفع به، فَعَلِم وَعَلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هُدَى الله الذي أرسلت به»[2].

فهذا مثل مائي، وقال في الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن همام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مثلي ومثلكم، كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله[3] ،جعل الفَرَاش وهذه[4] الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها، وجعل يحجزُهُنَّ ويغلبنه فيقتحمن فيها». قال: «فذلكم مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحُجزكم عن النار، هَلُمّ عن النار [هَلُمّ عن النار، هَلُمّ][5] ، فتغلبوني فتقتحمون فيها». وأخرجاه في الصحيحين أيضا[6]، فهذا مثل ناري.

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) ﴾.

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال: ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ﴾ أي: أطاعوا الله ورسوله، وانقادوا لأوامره، وصدقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم ﴿ الْحُسْنَىٰ ﴾، وهو الجزاء الحسن[7]، كما قال تعالى مخبراً عن ذي القرنين أنه قال: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا . وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [الكهف: ٨٧، ٨٨]، وقال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ أي لم: يطيعوا الله ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: في الدار الآخرة، لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهبا ومثله معه لافتدوا به، ولكن لا يتقبل منهم؛ لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفا ولا عدلا، ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ ﴾ أي: في الدار الآخرة، أي: يناقشون على النقير والقطمير، والجليل والحقير، ومن نوقش الحساب عُذب؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ(١٩) ﴾.

---

(١) في ت، أ: «بعثني به».

(٢) صحيح البخاري برقم (٧٩) وصحيح مسلم برقم (٢٢٨٢).

(٣) في ت: «ما حولها». (٤) في أ: «وهذا». (٥) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٦) المسند (٢/ ٣١٢) وصحيح البخاري برقم (٦٤٨٢) وصحيح مسلم برقم (٢٢٨٤) وهو عنده من هذا الطريق.

(٧) في ت: «الخير».

يقول تعالى: لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هو ﴿الْحَقُّ﴾ أي: الذي لا شك فيه ولا مرية ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه، بل هو كله[1] حق يصدق بعضه بعضاً، لا يضاد شيء منه شيئاً آخر، فأخباره كلها حق، وأوامره ونواهيه عدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقاً في الإخبار، وعدلاً في الطلب، فلا يستوي من تحقق صدق[2] ما جئت به يا محمد، ومن هو أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يفهمه، ولو فهمه ما انقاد له، ولا صدقه ولا اتبعه، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾؟ أي: أفهذا كهذا؟ لا استواء[3].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة[4]، جعلنا الله منهم [بفضله وكرمه][5].

**﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.**

يقول تعالى مخبراً عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة، بأن لهم ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾، وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة.

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾، وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾، من صلة الأرحام، والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج، وبذل المعروف، ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، يراقبون الله في ذلك، ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة. فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي: عن المحارم والمآثم، ففطموا[6] نفوسهم عن ذلك لله عز

---

(١) في ت، أ: «كلمة». (٢) في ت، أ: «صحة». (٣) في ت، أ: «لا سواء».
(٤) في ت: «الصحيحة السليمة». (٥) زيادة من أ. (٦) في أ: «فعظموا».

وجل؛ ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها[١] وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي، ﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أي: على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقرابات وأجانب، من فقراء ومحاويج ومساكين، ﴿سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾ أي: في السر والجهر، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال، في آناء الليل وأطراف النهار، ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أي: يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبرا واحتمالا وصفحا وعفوا، كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥]؛ ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء المتصفين بهذه الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ والعدن: الإقامة، أي: جنات إقامة يخلدون[٢] فيها.

وعن عبد الله بن عمرو أنه قال: إن في الجنة قصرا يقال له: «عدن»، حوله البروج والمروج، فيه خمسة آلاف باب، على كل باب خمسة آلاف حِبَرة[٣]، لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد.

وقال الضحاك في قوله: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾: مدينة الجنة، فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى، والناس حولهم بعد والجنات حولها. رواهما ابن جرير.

وقوله: ﴿ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ أي: يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين؛ لتقر أعينهم بهم، حتى إنه[٤] ترفع[٥] درجة الأدنى إلى درجة الأعلى، من غير تنقيص لذلك الأعلى عن درجته، بل امتناناً من الله وإحسانا، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ[٦] ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ[٧] وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

وقوله: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ . سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾. أي: وتدخل عليهم الملائكة من هاهنا وهاهنا للتهنئة بدخول الجنة، فعند[٨] دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلِّمين مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام، والإقامة في دار السلام، في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام.

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثني سعيد بن أبي أيوب، حدثنا[٩] معروف بن سُوَيد الجذامي عن أبي عُشَّانة المعافري، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، رضي الله عنهما[١٠]، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون[١١] الذين تُسدُّ بهم الثغور،

---

(١) في ت: «وسجودها وركوعها». (٢) في ت: «تخلدون».
(٣) في أ: «حبرة». (٤) في أ: «إنهم». (٥) في أ: «ترفع من».
(٦) في ت: «واتبعتهم». (٧) في أ: «ذرياتهم». (٨) في ت، أ: «عنده».
(٩) في ت، أ: «حدثني». (١٠) في ت: «عنه». (١١) في ت: «المهاجرين».

وتُتَّقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيوهم. فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك، وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم؟ قال: إنهم كانوا عباداً يعبدونني لا[1] يشركون بي شيئاً، وتُسَد[2] بهم الثغور، وتتقى[3] بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره فلا يستطيع لها قضاء». قال: «فتأتيهم الملائكة عند ذلك، فيدخلون عليهم من كل باب، ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾»[4].

ورواه أبو القاسم الطبراني، عن أحمد بن رشدين، عن أحمد بن صالح، عن عبد الله بن وهب، عن عَمْرو بن الحارث، عن أبي عُشَّانة سمع عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «أول ثلة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين، الذين تتقى بهم المكاره، وإذا أمروا سمعوا وأطاعوا، وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى سلطان لم تُقْضَ حتى يموت وهي في صدره، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها، فيقول: أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي، وأوذوا في سبيلي، وجاهدوا في سبيلي؟ ادخلوا الجنة بغير عذاب ولا حساب، وتأتي الملائكة فيسجدون ويقولون: ربنا نحن نسبحك الليل والنهار، ونُقدس لك، من هؤلاء الذين آثرتهم علينا؟ فيقول الرب عز وجل: هؤلاء عبادي الذين جاهدوا[5] في سبيلي، وأوذوا في سبيلي فتدخل عليهم الملائكة من كل باب: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾»[6].

وقال عبد الله بن المبارك، عن بَقِيَّة بن الوليد، حدثنا أرطاة بن المنذر، سمعت رجلا من مشيخة الجند، يقال له «أبو الحجاج» يقول: جلست إلى أبي أمامة فقال: إن المؤمن ليكون متكئاً على أريكته إذا دخل الجنة، وعنده سماطان من خدم، وعند طرف السماطين باب مبوب، فيقبل الملك فيستأذن، فيقول [أقصى الخدم][7] للذي يليه: «ملك يستأذن»، ويقول الذي يليه للذي يليه: «مَلَك يستأذن»، حتى يبلغ المؤمن فيقول: ائذنوا. فيقول أقربهم إلى المؤمن: ائذنوا، ويقول الذي يليه للذي يليه: ائذنوا حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب، فيفتح له، فيدخل فيسلم ثم ينصرف. رواه ابن جرير[8].

ورواه ابن أبي حاتم من حديث إسماعيل بن عياش، عن أرطاة بن المنذر، عن أبي الحجاج[9]

---

(١) في ت، أ: «ولا». (٢) في ت، أ: «ويسد». (٣) في ت، أ: «ويتقى».

(٤) المسند (٢/ ١٦٨) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٥٩): «رجاله ثقات».

(٥) في ت: «قاتلوا».

(٦) المعجم الكبير للطبراني برقم (١٥٢) «القطعة المفقودة» ورواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٧١) من طريق محمد بن عبد الله عن ابن وهب، به نحوه، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٧) زيادة من ت، أ، والطبري.

(٨) تفسير الطبري (١٦/ ٤٢٥).

(٩) كذا وقع في تفسير الطبري، ونقله أيضا ابن القيم في حادي الأرواح (٢/ ٣٨) «أبو الحجاج» وفي ترجمته في الجرح والتعديل (٩/ ٢٣٥) والتاريخ الكبير (٤/ ٢/ ٣٧٦) والثقات لابن حبان (٥/ ٥٥٢): «يوسف الألهاني، أبو الضحاك الحمصي، سمع أبا أمامة وابن عمر، وروى عنه أرطاة بن المنذر».

وانظر حاشية الأستاذ محمود شاكر على تفسير الطبري (١٦/ ٤٢٦).

يوسف الألهاني قال: سمعت أبا أمامة، فذكر نحوه.

وقد جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ كان يزور قبور الشهداء في رأس كل حول، فيقول لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ وكذا أبو بكر، وعمر وعثمان[1].

**﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥)﴾.**

هذا حال الأشقياء وصفاتهم، وذكر مآلهم في الدار الآخرة ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا، فأولئك كانوا يوفون بعهد الله ويصلون ما أمر الله به أن يوصل، وهؤلاء ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، كما ثبت في الحديث: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» وفي رواية: «وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

ولهذا قال: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ وهي الإبعاد عن الرحمة، ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وهي سوء العاقبة والمآل، ومأواهم جهنم وبئس القرار[2].

وقال أبو العالية في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ الآية، قال: هي ست خصال في المنافقين إذا كان فيهم الظَّهرة على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض. وإذا كانت الظَّهرة عليهم أظهروا الثلاث الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا.

**﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦)﴾.**

يذكر تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء، ويقتره على من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة والعدل. وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا في الحياة الدنيا استدراجا لهم وإمهالا، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ. نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة فقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٤٢٦) عن سهيل عن محمد بن إبراهيم التيمي مرسلاً، وهذا معضل.

(٢) في ت، أ: «المهاد».

الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا مَتَاعٌ﴾، كما قال: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء: ٧٧]، وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالا: حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس، عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم، فلينظر بم ترجع» وأشار بالسبابة. ورواه مسلم في صحيحه[1].

وفي الحديث الآخر: أن رسول الله ﷺ مر بجدي أسكّ[2] ميت ـ والأسك[3]: الصغير الأذنين ـ فقال: «والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه»[4].

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩)﴾.

يخبر تعالى عن قيل[5] المشركين: ﴿لَوْلا﴾ أي: هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ كما قالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]، وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة، وإن الله قادر على إجابة ما سألوا. وفي الحديث: أن الله أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهباً، وأن يجري لهم ينبوعاً، وأن يزيح الجبال من حول مكة فيصير مكانها مروج وبساتين: إن شئت يا محمد أعطيتهم ذلك، فإن كفروا فإني أعذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: «بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة»[6]؛ ولهذا قال لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي: هو المضل والهادي، سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا، أو لم يجبهم إلى سؤالهم؛ فإن الهداية والإضلال ليس منوطاً بذلك ولا عدمه، كما قال: ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي: ويهدي من أناب إلى الله، ورجع إليه، واستعان به، وتضرع لديه.

---

(١) المسند (٤/ ٢٢٨) وصحيح مسلم برقم (٢٨٥٨).

(٢) في ت، أ: «أشك». (٣) في ت، أ: «والأشك».

(٤) رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٩٥٧) من حديث جابر، رضي الله عنه.

(٥) في ت: «قول».

(٦) رواه أحمد في المسند (١/ ٢٤٢) من حديث ابن عباس، رضي الله عنهما.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: تطيب وتركن إلى جانب [١] الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيرا؟ ولهذا قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أي: هو حقيق بذلك.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾، قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: فرح وقُرة عين. وقال عكرمة: نِعْم ما لهم.

وقال الضحاك: غبطة لَهُم.

وقال إبراهيم النَّخعي: خير لهم.

وقال قتادة: هي كلمة عربية[٢]، يقول الرجل: «طوبى لك»، أي: أصبت خيرًا. وقال في رواية: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾: حسنى لهم.

﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾أي: مرجع.

وهذه الأقوال شيء واحد لا منافاة بينها.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾، قال: هي أرض الجنة بالحبشية.

وقال سعيد بن مَسْجُوح: طوبى اسم الجنة بالهندية. وكذا روى السدي، عن عِكْرِمة: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ أي: الجنة. وبه قال مجاهد.

وقال العوفي، عن ابن عباس: لما خلق الله الجنة وفرغ منها قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾، وذلك حين أعجبته.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب، عن جعفر، عن شَهْر بن حَوْشَب قال: ﴿طُوبَىٰ﴾ شجرة في الجنة، كل شجر الجنة منها، أغصانها من وراء سور الجنة.

وهكذا رُوي عن أبي هريرة، وابن عباس، ومغيث بن سُمَيّ، وأبي إسحاق السَّبِيعي وغير واحد من السلف: أن طوبى شجرة في الجنة، في كل دار منها غصن منها.

وذكر بعضهم أن الرحمن، تبارك وتعالى، غَرَسها بيده من حبة لؤلؤة، وأمرها أن تمتد، فامتدت إلى حيث يشاء الله تبارك وتعالى، وخرجت من أصلها ينابيع أنهار الجنة، من عسل وخمر وماء ولبن[٣].

وقد قال عبد الله بن وهب: حدثنا عمرو بن الحارث، أن دَرَّاجا أبا السَّمْح حدثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، [مرفوعا: «طوبى: شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»[٤].

---

(١) في ت، أ: «جنابه». (٢) في ت، أ: «عربية». (٣) في ت: «ولبن وماء».

(٤) رواه الطبري في تفسيره (١٦/٤٤٣) قال أحمد، رحمه الله: «أحاديث دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد فيها ضعف».

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، سمعت عبد الله بن لهيعة، حدثنا درّاج أبو السمح، أن أبا الهيثم حدثه، عن أبي سعيد الخدري] [١] عن رسول الله ﷺ: أن رجلا قال: يا رسول الله، طوبى لمن رآك وآمن بك. قال: «طوبى لمن رآني وآمن بي، ثم طوبى، ثم طوبى، ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني». قال له رجل: وما طوبى؟ قال: «شجرة في الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»[٢].

وروى البخاري ومسلم جميعاً، عن إسحاق بن راهويه، عن مغيرة المخزومي، عن وهيب، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها» قال: فحدّثت به النعمان بن أبي عياش الزرقي، فقال: حدثني أبو سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجَوَادَ المضمَّرَ السريع مائة عام ما يقطعها»[٣].

وفي صحيح البخاري، من حديث يزيد بن زُرَيْع، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله: ﴿وظلٍّ ممدود﴾ [الواقعة: ٣٠]، قال: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها»[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيْج، حدثنا فُلَيْح، عن هلال بن علي، عن عبد الرحمن بن أبي عمرة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة[٥]، اقرؤوا إن شئتم ﴿وظلٍّ ممدود﴾». أخرجاه في الصحيحين[٦].

وقال [الإمام] [٧] أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالا: حدثنا شعبة، سمعت أبا الضحاك يحدث عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين ـ أو: مائة ـ سنة هي شجرة الخلد»[٨].

وقال محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن أسماء بنت أبي بكر، رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله ﷺ، وذكر سدرة المنتهى، قال: «يسير في ظل الفنن منها الراكب مائة سنة ـ أو: قال ـ يستظل في الفنن منها مائة راكب، فيها فراش الذهب، كأن ثمرها القلال». رواه الترمذي[٩].

---

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) المسند (٣/ ٧١).

(٣) صحيح البخاري برقم (٦٥٥٢) وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٧).

(٤) صحيح البخاري برقم (٣٢٥١).

(٥) في أ: «عام».

(٦) المسند (٢/ ٤٨٢).

(٧) زيادة من ،.

(٨) المسند (٢/ ٤٥٥).

(٩) سنن الترمذي برقم (٢٥٤١) وقال الترمذي: «حديث حسن غريب» وفي بعض النسخ «حسن صحيح غريب».

وقال إسماعيل بن عياش، عن سعيد بن يوسف، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلام الأسود قال: سمعت أبا أمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يدخل الجنة إلا انطلق به إلى طوبى. فتفتح له أكمامها، فيأخذه من أي ذلك شاء، إن شاء أبيض، وإن شاء أحمر، وإن شاء أصفر، وإن شاء أسود، مثل شقائق النعمان وأرق وأحسن»[1].

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن مَعْمَر، عن أشعث بن عبد الله، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: طوبى شجرة في الجنة، يقول الله لها: «تَفَتَّقي لعبدي عَمَّا شاء» فتفتق له عن الخيل بسروجها ولجمها، وعن الإبل بأزمتها، وعما شاء من الكسوة[2].

وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه هاهنا أثراً غريباً عجيباً، قال وهب، رحمه الله: إن في الجنة شجرة يقال لها: «طوبى»، يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، زهرها رياط، وورقها برود، وقضبانها عنبر، وبطحاؤها ياقوت، وترابها كافور، وَوَحَلها مسك، يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل، وهي مجلس لأهل الجنة، فبينا هم في مجلسهم إذ أتتهم ملائكة من ربهم يقودون نُجُباً مزمومة بسلاسل من ذهب وجوهها كالمصابيح حسناً[3]، ووبرها كخز المِرْعِزّي[4] من لينه، عليها رحال ألواحها من ياقوت، ودفوفها[5] من ذهب، وثيابها من سندس وإستبرق، فينيخونها ويقولون: إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلموا عليه قال: فيركبونها، فهي أسرع من الطائر، وأوطأ من الفراش، نُجُباً من غير مَهَنَة، يسير الرجل إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه، لا تصيب[6] أذن راحلة منها أذن الأخرى، ولا برك راحلة برك الأخرى، حتى إن الشجرة لتتنحى عن طريقهم، لئلا تفرق بين الرجل وأخيه. قال: فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه، فإذا رأوه قالوا: اللهم، أنت السلام ومنك السلام، وحق لك الجلال والإكرام. قال: فيقول تعالى[عند ذلك][7]: «أنا السلام ومني السلام، وعليكم حقت رحمتي ومحبتي، مرحباً بعبادي الذين خشوني بغيب وأطاعوا أمري».

قال: فيقولون: ربنا لم نعبدك حق عبادتك، ولم نقدرك حق قدرك، فأذن لنا في السجود قُدامك قال: فيقول الله: «إنها ليست بدار نصب ولا عبادة، ولكنها دار مُلْك ونعيم، وإني قد رفعت عنكم نَصَب العبادة، فسلوني ما شئتم، فإن لكل رجل منكم أمنيته» فيسألونه، حتى إن أقصرهم أمنية ليقول: رب، تنافس[8] أهل الدنيا في دنياهم فتضايقوا فيها، رب فآتني مثل كل شيء كانوا فيه من

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة برقم (١٤٦) من طريق أبي عتبة، عن إسماعيل بن عياش، به.

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٤٣٨) ورواه ابن المبارك في الزهد برقم (٢٦٥) من طريق معمر عن الأشعث به، وشهر بن حوشب ضعيف.

(٣) في ت، أ: «من حسنها». (٤) في ت: «الزعفري». (٥) في أ: «وبرقوقها».

(٦) في ت، أ: «لا يصيب». (٧) زيادة من ت، أ، والطبري. (٨) في أ: «يتنافس».

يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا. فيقول الله تعالى: «لقد قَصرت بك أمنيتك، ولقد سالت دون منزلتك، هذا لك مني، [وسأتحفك بمنزلتي][١]؛ لأنه ليس في عطائي نكد ولا تَصريد». قال: ثم يقول: «اعرضوا على عبادي ما لم يبلغ أمانيهم، ولم يخطر لهم على بال». قال: فيعرضون عليهم حتى تَقْصر بهم أمانيهم التي في أنفسهم، فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مُقْرنة، على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة، على كل سرير منها قبة من ذهب مُفْرَّغة، في كل قبة منها فُرش من فُرش الجنة مُتظاهرة، في كل قبة منها جاريتان من الحور العين، على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة، وليس في الجنة لون إلا وهو فيهما[٢]، ولا ريح طيبة إلا قد عبقتا به[٣]، ينفذ ضوء وجوههما غلظ القبة، حتى يظن من يراهما أنهما دون القبة، يرى مخهما من فوق سوقهما، كالسلك الأبيض في ياقوتة حمراء، يريان له من الفضل على صاحبته[٤] كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل، ويرى هو لهما مثل ذلك، ويدخل إليهما فيحييانه ويقبلانه ويعتنقانه[٥] به، ويقولان له: والله ما ظننا أن الله يخلق مثلك. ثم يأمر الله تعالى الملائكة فيسيرون بهم صفا في الجنة، حتى ينتهي بكل رجل منهم إلى منزلته التي أعدت له[٦].

وقد روى هذا الأثر ابن أبي حاتم بسنده، عن وهب بن منبه، وزاد: فانظروا إلى موهوب ربكم الذي وهب لكم، فإذا هو بقباب في الرفيق الأعلى، وغرف مبنية من الدر والمرجان، وأبوابها من ذهب، وسررها من ياقوت، وفرشها من سندس وإستبرق، ومنابرها من نور، يفور من أبوابها وعراصها نور مثل شعاع الشمس عنده مثل الكوكب الدري[٧] في النهار المضيء، وإذا بقصور شامخة في أعلى عليين من الياقوت يزهو نورها، فلولا أنه مُسَخر، إذاً لالتمع الأبصارَ، فما كان من تلك القصور من الياقوت [الأبيض، فهو مفروش بالحرير[٨] الأبيض، وما كان منها من الياقوت الأحمر فهو مفروش بالعبقري الأحمر، وما كان منها من الياقوت الأخضر][٩]، فهو مفروش بالسندس الأخضر، وما كان منها من الياقوت الأصفر، فهو مفروش بالأرجوان الأصفر منزه[١٠] بالزمرد الأخضر، والذهب الأحمر، والفضة البيضاء، قوائمها وأركانها من الجوهر، وشُرُفها قباب من لؤلؤ، وبروجها غُرَف من المرجان. فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم، قُرِّبت لهم براذين من ياقوت أبيض، منفوخ فيها الروح، تَجنبَها الولدان المخلدون بيد كل وليد منهم حكمة بِرذَون من تلك البراذين، ولجمها وأعنتها من فضة بيضاء، منظومة بالدر والياقوت، سُروجها سُرُر موضونة، مفروشة بالسندس والإستبرق. فانطلقت بهم تلك البراذين تَزَف بهم ببطن[١١] رياض الجنة. فلما انتهوا إلى

---

(١) زيادة من ت، أ، والطبري.
(٢) في أ: «فيها».
(٣) في ت، أ: «عبقا بهما».
(٤) في أ: «صاحبه».
(٥) في ت، أ: «ويعلقانه».
(٦) تفسير الطبري (١٦/ ٤٣٩).
(٧) في ت، أ: «الذي».
(٨) في أ: «من الحرير».
(٩) زيادة من ت، أ.
(١٠) في أ: «مبوبة».
(١١) في أ: «ربطن».

منازلهم، وجدوا الملائكة قُعُودا على منابر من نور، ينتظرونهم ليزوروهم ويصافحوهم ويهنئوهم كرامة ربهم. فلما دخلوا قصورهم وجدوا فيها جميع ما تطاول به عليهم [١] وما سألوا وتمنوا، وإذا على باب كلّ قصر من تلك القصور أربعة جنان، [جنتان] [٢] ذواتا أفنان، وجنتان مُدْهامتان، وفيهما عينان نضاختان، وفيهما من كل فاكهة زوجان، وحور مقصورات في الخيام، فلما تَبَيَّنُوا [٣] منازلهم واستقروا قرارهم قال لهم ربهم: هل وجدتم ما وعدتكم [٤] حقا؟ قالوا: نعم وربّنا. قال: هل رضيتم ثواب ربكم؟ قالوا: ربنا، رضينا فارض عنا قال: برضاي [٥] عنكم حللتم داري، ونظرتم إلى وجهي، وصافحتكم ملائكتي، فهنيئاً هنيئاً لكم، ﴿عطاءً غير مجذوذ﴾ [هود: ١٠٨]، ليس فيه تنغيص ولا تصْريد. فعند ذلك قالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، وأدخلنا [٦] دار المقامة من فضله، لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب، إن ربنا لغفور شكور.

وهذا سياق غريب، وأثر عجيب ولبعضه شواهد، ففي الصحيحين: أن الله تعالى يقول لذلك الرجل الذي يكون آخر أهل الجنة دخولا الجنة: تمنَّ، فيتمنى [٧]، حتى إذا انتهت به الأماني يقول الله تعالى: «تمنّ من كذا وتمَنّ من كذا»، يذكره، ثم يقول: «ذلك لك، وعشرة أمثاله» [٨].

وفي صحيح مسلم، عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ عن الله، عز وجل [٩]: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان [١٠] مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئا، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر»، الحديث بطوله [١١].

وقال خالد بن مَعْدَان: إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى، لها ضروع، كلها ترضع صبيانَ أهل الجنة، وإن سَقْط المرأة يكون في نهر من أنهار الجنة، يتقلب فيه حتى تقوم القيامة، فيبعث ابن أربعين سنة. رواه ابن أبي حاتم.

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) ﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة ﴿لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: تبلغهم

---

(١) في أ: «عليهم ربهم».
(٢) زيادة من ت، أ.
(٣) في ت، أ: «تبوؤا».
(٤) في ت: «ما وعد ربكم».
(٥) في ت: «فبرضاي».
(٦) في أ: «وأحلنا».
(٧) في ت: «فيتمن».
(٨) صحيح البخاري برقم (٦٥٧٣) وصحيح مسلم برقم (١٨٢) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد، رضي الله عنهما.
(٩) في ت: «عن رسول الله ﷺ، عن جبريل، عن الله عز وجل».
(١٠) في ت: «إنسان منهم».
(١١) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧).

رسالة الله إليهم، كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كُذّب الرسل من قبلك، فلك فيهم أسوة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، فإن تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين، قال الله تعالى: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النحل:٦٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام:٣٤] أي: كيف نصرناهم، وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ أي: هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن، لا يقرّون به؛ لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم؛ ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم» وقالوا: ما ندري ما الرحمن الرحيم. قاله قتادة، والحديث في صحيح البخاري[١]، وقد قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن[٢]»[٣].

﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾أي: هذا الذي تكفرون به أنا مؤمن به، معترف مقر له بالربوبية والإلهية، هو ربي لا إله هو، ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: في جميع أموري، ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾أي: إليه أرجع وأنيب، فإنه لا يستحق ذلك أحد[٤] سواه.

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) ﴾.

يقول تعالى مادحا للقرآن الذي أنزله على محمد ﷺ، ومفضلا له على سائر الكتب المنزلة قبله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾أي: لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق[٥]، أو تكلم[٦] به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك؛ لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به،

---

(١) صحيح البخاري برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢) عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة في قصة غزوة الحديبية.

(٢) في أ زيادة: «وعبد الرحيم».

(٣) صحيح مسلم برقم (٢١٣٢).

(٤) في ت: «أحد دونه». (٥) في أ: «وتشقق».

(٦) في ت: «وتشقق وتكلم».

جاحدون له، ﴿ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾[1] أى: مرجع الأمور كلها إلى الله، عز وجل، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن يضلل فلا هادى له، ومن يهد[2] الله فلا مضل له.

وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة؛ لأنه مشتق من الجميع، قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن همام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خُفِّفَت[3] على داود القراءة، فكان يأمر بدابته أن تُسرج، فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه». انفرد بإخراجه البخارى[4].

والمراد بالقرآن هنا الزبور.

وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى: من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا[5] ﴿ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾، فإنه ليس ثم[6] حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع فى النفوس والعقول من هذا القرآن، الذى لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله. وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبى إلا وقد أوتى ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى، فارجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»[7]. معناه: أن معجزة كل نبى انقرضت بموته، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد، لا تنقضى عجائبه، ولا يَخْلَقُ عن كثرة الردّ، ولا يشبع منه العلماء، هو الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا مِنْجَاب بن الحارث، أنبأنا بشر بن عمارة، حدثنا عمر بن حسان، عن عطية العوفى قال: قلت له: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ الآية، قالوا لمحمد ﷺ: لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها، أو قطعت لنا[8] الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيى الموتى لقومه فأنزل الله هذه الآية. قال: قلت: هل تروون هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبى ﷺ؟ قال: نعم، عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ[9].

وكذا روى ابن عباس، والشعبى، وقتادة، والثورى، وغير واحد فى سبب نزول هذه الآية، فالله أعلم.

وقال قتادة: لو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم، فُعل بقرآنكم.

وقوله: ﴿ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾: قال ابن عباس: [أى][10] لايصنع من ذلك إلا ما يشاء، ولم

---

(١) فى ت، أ: «فلله» وهو خطأ. (٢) فى ت، أ: «يهده». (٣) فى ت، أ: «خفف».

(٤) المسند (٢/ ٣١٤) وصحيح البخارى برقم (٣٤١٧).

(٥) فى أ: «ويعلموا ويتيقنوا». (٦) فى أ: «ثمت».

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٩٨١) وصحيح مسلم برقم (١٥٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٨) فى ت، أ: «بها».

(٩) ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى تخريج الكشاف (٢/ ١٩١) من طريق بشر بن عمارة به، وإسناده ضعيف جدا.

(١٠) زيادة من أ.

يكن ليفعل، رواه ابن إسحاق بسنده عنه، وقاله ابن جرير أيضاً.

وقال غير واحد من السلف في قوله: ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾: أفلم يعلم الذين آمنوا. وقرأ [1] آخرون: «أفلم يتبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا».

وقال أبو العالية: قد يئس [2] الذين آمنوا أن يهدوا، ولو يشاء الله لهدى الناس جميعا.

وقوله: ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ أي: بسبب تكذيبهم، لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا، أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[الأحقاف: ٢٧]، وقال: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ [3] أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾[الأنبياء: ٤٤].

قال قتادة، عن الحسن: ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ أي: القارعة. وهذا هو الظاهر من السياق.

قال أبو داود الطيالسي: حدثنا المسعودي، عن قتادة، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم [4] بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ قال: سرية، ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ قال: محمد ﷺ، ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾ قال: فتح مكة[5].

وهكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، في رواية.

قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ تُصِيبُهُم [6] بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ قال: عذاب من السماء ينزل عليهم ﴿ أَوْ تَحُلُّ [7] قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ يعني: نزول رسول الله ﷺ بهم وقتاله إياهم.

وكذا قال مجاهد، وقتادة، وقال عكرمة في رواية عنه، عن ابن عباس: ﴿ قَارِعَةٌ ﴾ أي: نكبة.

وكلهم قال: ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾ يعني: فتح مكة. وقال الحسن البصري: يوم القيامة.

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ أي: لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة، ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ [إبراهيم: ٤٧].

**﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) ﴾.**

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه: ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ أي: فلك فيهم أسوة، ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي: أنظرتهم وأجلتهم، ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ أخذة رابية، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم؟ كما قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا

---

(١) في ت: «وقرأها».
(٢) في ت، أ: «أيس».
(٣) في ت، أ: «أفلم يروا» وهو خطأ.
(٤) في ت: «يصيبهم».
(٥) ومن طريق الطيالسي رواه الطبري في تفسيره (١٦/٤٥٦).
(٦) في ت: «يصيبهم».
(٧) في ت: «أو يحل».

وإليّ المصير﴾ [الحج: ٤٨]، وفي الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ [هود: ١٠٢](1).

﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض أم بظاهر من القول بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فما له من هاد (٣٣) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ أي: حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفوسة، يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر، ولا يخفى عليه خافية، ﴿وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه﴾[يونس: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ [هود: ٦]، وقال: ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾[الرعد: ١٠]، وقال: ﴿ يعلم السر وأخفى﴾[طه: ٧]. وقال: ﴿ وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير﴾ [الحديد: ٤] أفمن هو هكذا كالأصنام التي يعبدونها(2)، لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، ولا تملك نفعاً لأنفسها ولا لعابديها، ولا كشف ضر عنها ولا عن عابديها؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه، وهو قوله: ﴿وجعلوا لله شركاء﴾ أي: عبدوها معه، من أصنام وأنداد وأوثان.

﴿ قل سموهم﴾ أي: أعلمونا بهم، واكشفوا عنهم حتى يُعرفوا، فإنهم لا حقيقة لهم؛ ولهذا قال: ﴿ أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض﴾ أي: لا وجود له؛ لأنه لو كان له (3) وجود في الأرض لعلمها؛ لأنه لا تخفى عليه خافية.

﴿ أم بظاهر من القول﴾: قال مجاهد: بظن من القول.

وقال الضحاك وقتادة: بباطل من القول.

أي: إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر، وسميتموها آلهة، ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ [النجم: ٢٣].

﴿ بل زين للذين كفروا مكرهم﴾: قال مجاهد: قولهم، أي: ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه

---

(1) صحيح البخاري برقم (٤٦٨٦) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى، رضي الله عنه.

(2) في ت، أ: «عبدوها».

(3) في ت، أ: «لها».

آناء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٥].

«وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ»: من قرأها بفتح الصاد، معناه: أنهم لما زين لهم ما فيه وأنه حق، دَعَوا إليه وصَدّوا الناس عن اتباع طريق الرسل. ومن قرأها ﴿ وَصُدُّوا(١) ﴾ أي: بما زين لهم من صحة ما هم عليه، صُدّوا به عن سبيل الله؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾، كما قال: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١]، وقال: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [النحل: ٣٧].

﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤) مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) ﴾.

ذكر تعالى عقابَ الكفار وثواب الأبرار: فقال بعد، إخباره عن حال(٢) المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك: ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾أي: بأيدي المؤمنين قتلا وأسرا، ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ﴾أي: المدّخرَ [لهم](٣) ،مع هذا الخزي في الدنيا، ﴿أَشَقُّ﴾ أي: من هذا بكثير، كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة»(٤). وهو كما قال، صلوات الله وسلامه عليه، فإن عذاب الدنيا له انقضاء، وذاك دائم أبدا في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفا، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته، كما قال تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ . وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا . إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا . وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا . لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا . قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ١١ ـ ١٥].

ولهذا قرن هذا بهذا؛ فقال: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: صفتها ونعتها، ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾أي: سارحة في أرجائها وجوانبها، وحيث شاء أهلها، يفجرونها تفجيراً، أي: يصرفونها كيف شاؤوا وأين شاؤوا، كما قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

---

(١) في ت: «فصدوا عن السبيل». (٢) في ت: «أحوال».

(٣) زيادة من ت، أ.

(٤) رواه مسلم في صحيحه برقم (١٤٩٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وقوله: ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ أي: فيها المطاعم[1] والفواكه والمشارب، لانقطاع [لها] [2] ولا فناء.

وفي الصحيحين، من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف، وفيه قالوا: يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئا في مقامك هذا، ثم رأيناك تكعكعت فقال: «إني رأيت الجنة ـ أو: أريت الجنة ـ فتناولت منها عنقودا، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا»[3].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خَيْثَمَة، حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا عبيد الله، حدثنا أبوعَقيل، عن جابر قال: بينما نحن في صلاة الظهر، إذ تقدم رسولُ الله ﷺ فتقدمنا، ثم تناول شيئا ليأخذه ثم تأخر. فلما قضى الصلاة قال له أبي بن كعب: يا رسول الله، صنعت اليوم في الصلاة شيئا ما رأيناك كنت تصنعه. فقال: «إني عرضت على الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة؛ فتناولت منها قطفًا من عنب لآتيكم به، فحيل بيني وبينه، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا يَنْقُصُونه»[4].

وروى مسلم من حديث أبي الزبير، عن جابر، شاهدا لبعضه[5].

وعن عتبة بن عبد السلمي: أن أعرابيا سأل النبي ﷺ عن الجنة، فقال: فيها عنب؟ قال: «نعم». قال: فما عِظَم العنقود؟ قال: «مسيرة شهر للغراب الأبقع[6] ولا يفتر». رواه أحمد[7].

وقال الطبراني: حدثنا معاذ بن المثنى، حدثنا علي بن المديني، حدثنا ريحان بن سعيد، عن عباد ابن منصور، عن أيوب، عن أبي قِلاَبة، عن أبي أسماء، عن ثَوْبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى»[8].

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يأكل أهل الجنة ويشربون، ولا يتمخطون ولا يتغوّطون ولا يبولون، طعامهم[9] جُشَاء كريح المسك، ويلهمون التسبيح والتقديس[10] كما يلهمون النفس». رواه مسلم[11].

وروى الإمام أحمد والنسائي، من حديث الأعمش، عن ثمامة[12] بن عقبة[13]، سمعت زيد بن أرقم قال: جاء رجل من أهل الكتاب فقال: يا أبا القاسم، تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال:

---

(١) في ت، أ: «الطعام». (٢) زيادة من ت.

(٣) صحيح البخاري برقم (٧٤٨) وصحيح مسلم برقم (٩٠٧).

(٤) ورواه أحمد في المسند (٣/ ٣٥٢) من طريق عبيد الله وحسين بن محمد، عن عبيد الله به نحوه.

(٥) صحيح مسلم برقم (٩٠٤).

(٦) في أ: «لا يقع».

(٧) المسند (٤/ ١٨٤).

(٨) المعجم الكبير (٢/ ١٠٢) وعباد بن منصور متكلم فيه.

(٩) في ت، أ: «طعامهم ذلك». (١٠) في ت، أ: «التسبيح والتكبير».

(١١) صحيح مسلم برقم (٢٨٣٥). (١٢) في هـ، ت، أ: «تمام» والتصويب من المسند. (١٣) في ت: «عقبة بن منبه».

«نعم، والذى نفس محمد بيده، [إن الرجل من أهل الجنة][١] ليعطى قوة مائة رجل فى الأكل والشرب والجماع والشهوة». قال: فإن الذى يأكل ويشرب تكون له الحاجة، وليس فى الجنة أذى؟ قال: «حاجة أحدهم رشح يفيض من جلودهم، كريح المسك، فيضمر بطنه»[٢].

وقال الحسن بن عرفة: حدثنا خلف بن خليفة، عن حميد الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، قال: قال لى رسول الله ﷺ: «إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة، فيخر بين يديك مشويا[٣]»[٤].

وجاء فى بعض الأحاديث: أنه إذا فُرغ منه عاد طائراً كما كان بإذن الله تعالى.

وقد قال تعالى: ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ . لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣]، وقال: ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ [الإنسان: ١٤].

وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾ [النساء: ٥٧].

وقد تقدم فى الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة شجرة، يسير الراكب المجد الجواد المضمر السريع فى ظلها مائة عام لا يقطعها»، ثم قرأ: ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ [الواقعة: ٣٠].

وكثيرا ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار، ليرغب فى الجنة ويحذّر من النار؛ ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر، قال بعده: ﴿ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾، كما قال تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

وقال بلال بن سعد خطيب دمشق فى بعض خطبه: عباد الله[٥]، هل جاءكم مخبر يخبركم أن شيئا من عبادتكم[٦] تُقُبِّلَت منكم، أو أن شيئا من خطاياكم غفرت لكم؟ ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ[٧] أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، والله لو عُجِّل لكم الثواب فى الدنيا لاستقللتم كلكم ما افتُرِض عليكم، أو ترغبون[٨] فى طاعة الله لتعجيل دنياكم، ولا تنافسون فى جنة ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾. رواه ابن أبى حاتم.

---

(١) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٢) المسند (٤/٣٦٧).

(٣) فى ت: «مستويا».

(٤) جزء الحسن بن عرفة برقم (٢٢) وحميد الأعرج ضعيف وأورد الذهبى هذا الحديث فى الميزان (١/٦١٤) من جملة مناكيره.

(٥) فى أ: «الرحمن».

(٦) فى ت، أ: «أعمالكم».

(٧) فى ت: «أم حسبتم» وهو خطأ.

(٨) فى ت، أ: «ترغبون».

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ (٣٧) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ وهم قائمون بمقتضاه ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أى: من القرآن لما فى كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [البقرة: ١٢١]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] أى: إن كان ما وعدنا الله به فى كتبنا من إرسال محمد ﷺ لحقا وصدقا مفعولا لا محالة، وكائنا، فسبحانه ما أصدق وعده، فله الحمد وحده، ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

وقوله: ﴿ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ أى: ومن الطوائف من يكذّب ببعض ما أنزل إليك.

وقال مجاهد: ﴿ وَمِنَ الأَحْزَابِ ﴾: اليهود والنصارى، من ينكر بعض ما جاءك من الحق. وكذا قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ أى: إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له، كما أرسل الأنبياء من قبلى، ﴿إِلَيْهِ أَدْعُو ﴾ أى: إلى سبيله أدعو الناس، ﴿ وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ أى: مرجعى ومصيرى.

وقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أى: وكما أرسلنا قبلك المرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكما معربا، شرّفناك به وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلى الذى ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ أى: آراءهم، ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أى: من الله تعالى ﴿ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ ﴾ أى: من الله تعالى. وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا[١] سبل أهل الضلالة بعد ما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية، على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام

(١) فى ت: «يبتغوا».

[والتحية والإكرام][١].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) ﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلناك، يا محمد، رسولا بشريا[٢] كذلك [قد][٣] بعثنا المرسلين قبلك بَشَراً يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجا وذرية، وقد قال [الله][٤] تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وآكل الدَّسَم[٥] وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[٦].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أنبأنا الحجاج بن أرطاة عن مكحول قال: قال أبو أيوب: قال رسول الله ﷺ: «أربع من سنن المرسلين: التعطر، والنكاح، والسواك، والحناء»[٧].

وقد رواه أبو عيسى الترمذي، عن سفيان بن وَكيع عن حفص بن غياث، عن الحجاج، عن مكحول، عن أبي الشِّمال[٨]، عن أبي أيوب... فذكره، ثم قال: وهذا أصح من الحديث الذي لم يذكر فيه أبو الشمال[٩] [١٠].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: لم يكن يأتي قومه بخارق إلا إذا أُذِنَ له فيه، ليس ذلك إليه، بل إلى الله، عز وجل، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي: لكل مُدة مضروبة كتاب مكتوب بها، وكل شيء عنده بمقدار، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ[١١] وَالأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وكان الضحاك بن مُزاحم يقول في قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي: لكل كتاب أجل يعني[١٢] لكل كتاب أنزله من السماء مدة مضروبة عند الله ومقدار معين، فلهذا يمحو[١٣] ما يشاء منها ويثبت، يعني حتى نسخت كلها بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله، صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾: اختلف المفسرون في ذلك، فقال الثوري، ووَكيع، وهُشَيْم

---

(١) زيادة من أ. (٢) في أ: «بشرا». (٣، ٤) زيادة من ت، أ.
(٥) في ت، أ: «اللحم».
(٦) صحيح البخاري برقم (٥٠٦٣) وصحيح مسلم برقم (١٤٠١) وليس فيهما: «وآكل الدسم».
(٧) المسند (٥/ ٤٢١).
(٨) في أ: «أبي السماك». (٩) في أ: «أبو السماك».
(١٠) سنن الترمذي برقم (١٠٨٠).
(١١) في ت، أ: «السموات» وهو خطأ. (١٢) في ت، أ: «يعني» (١٣) في ت: «يمحى».

وهُشَيْم، عن ابن أبي ليلى، عن المِنْهَال بن عمرو، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس: يدبر أمر السنة، فيمحو ما يشاء، إلا الشقاء والسعادة، والحياة والموت. وفي رواية: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾، قال: كل شيء إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة فإنهما قد فرغ منهما.

وقال مجاهد: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة، فإنهما لا يتغيران.

وقال منصور: سألت مجاهداً فقلت: أرأيت دعاء أحدنا يقول: اللهم، إن كان اسمي في السعداء فأثبته فيهم، وإن كان في الأشقياء فامحه عنهم واجعله في السعداء. فقال: حَسَن. ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر، فسألته عن ذلك، فقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ. فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان ٣، ٤]، قال: يَقضى في ليلة القدر ما يكن في السنَّة من رزق أو مصيبة، ثم يقدم ما[1] يشاء ويؤخر ما [2] يشاء، فأما كتاب الشقاوة[3] والسعادة فهو ثابت لا يُغير[4].

وقال الأعمش، عن أبي وائل شَقِيق بن سلمة: إنه كان يكثر أن يدعو بهذا الدعاء: اللهم، إن كنت كتبتنا أشقياء فامحه، واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب. رواه ابن جرير[5].

وقال ابن جرير أيضا: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي، عن أبي حكيمة[6] عِصمة، عن أبي عثمان النَّهْدي: أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال وهو يطوف بالبيت وهو يبكي: اللهم، إن كنت كتبت علي شقوة أو ذنباً فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة[7].

وقال حماد عن خالد الحذَّاء، عن أبي قلابة عن ابن مسعود أنه كان يدعو بهذا الدعاء أيضا.

ورواه شريك، عن هلال بن حميد، عن عبد الله بن عُكَيْم، عن ابن مسعود، بمثله.

وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا حجاج، حدثنا خصاف، عن أبي حمزة، عن إبراهيم؛ أن كعبا قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، لولا آية في كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة. قال: وما هي؟ قال: قال الله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[8].

ومعنى هذه الأقوال: أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها، ويثبت منها ما يشاء، وقد يستأنس لهذا القول[9] بما رواه الإمام أحمد:

---

(١، ٢) في ت: «من». (٣) في ت: «الشقاء».

(٤) رواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٤٨٠).

(٥) رواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٤٨١).

(٦) في أ: «أبي حكيم».

(٧) تفسير الطبري (١٦/ ٤٨١).

(٨) تفسير الطبري (١٦/ ٤٨٤).

(٩) في أ: «الأقوال».

حدثنا وَكيع، حدثنا سفيان، وهو الثوري، عن عبد الله بن عيسى، عن عبد الله بن أبي الجَعْد، عن ثَوْبَان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يُصيبه، ولا يرد القَدَر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر».

ورواه النسائي وابن ماجه، من حديث سفيان الثوري، به[1].

وثبت في الصحيح أن صلة الرحم تزيد في العمر[2]، وفي الحديث الآخر: «إن الدعاء والقضاء ليعتلجان[3] بين السماء والأرض»[4].

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن سهل بن عسكر، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: إن لله لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام، من درة بيضاء، لها دفّتان من ياقوت ـ والدفتان: لوحان ـ لله، عز وجل [كل يوم ثلاثمائة][5] وستون لَحظة، يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب[6].

وقال الليث بن سعد، عن زيادة بن محمد، عن محمد بن كعب القُرَظي، عن فَضَالة بن عُبَيد، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «[إن الله][7] يفتح الذكر في ثلاث ساعات يَبْقَين من الليل، في الساعة الأولى منها ينظر في الذكر الذي لا ينظر فيه أحد غيره، فيمحو ما يشاء ويثبت». وذكر تمام الحديث. رواه ابن جرير[8].

وقال الكلبي: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ قال: يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه. فقيل له: من حدثك بهذا؟ فقال: أبو صالح، عن جابر بن عبد الله بن رئاب، عن النبي ﷺ. ثم سئل بعد ذلك عن هذه الآية فقال: يكتب القول كله، حتى إذا كان يوم الخميس، طرح منه كل شيء، ليس فيه ثواب ولا عقاب، مثل قولك: أكلت وشربت، دخلت وخرجت ونحوه من الكلام، وهو صادق، ويثبت ما كان فيه الثواب، وعليه العقاب[9].

وقال عِكْرِمة، عن ابن عباس: الكتاب كتابان: فكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب.

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يقول: هو

---

(١) المسند (٥/ ٢٧٧) وسنن ابن ماجة برقم (٩٠).

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٥٥٧) من حديث أنس ولفظه: «من سره أن يبسط عليه رزقه، أو ينسأ في أثره، فليصل رحمه».

(٣) في ت، أ: «ليعتلجان».

(٤) لم أعثر عليه بهذا اللفظ.

(٥) زيادة من تفسير الطبري، ومكانه في هـ، ت، أ: «ثلاث».

(٦) تفسير الطبري (١٦/ ٤٨٩).

(٧) زيادة من ت، أ، والطبري.

(٨) تفسير الطبري (١٦/ ٤٨٨).

(٩) رواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٤٨٤).

الرجل يعمل الزمانَ بطاعة الله، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة، فهو الذى يمحو ـ والذى يثبت: الرجل يعمل بمعصية الله، وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو فى طاعة الله، فهو الذى يثبت.

وروى عن سعيد بن جُبير: أنه بمعنى: ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾، يقول: يبدل ما يشاء فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله، ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يقول: وجملة ذلك عنده فى أم الكتاب، الناسخ، والمنسوخ، وما يبدل، وما يثبت كل ذلك فى كتاب.

وقال قتادة فى قوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾: كقوله: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

وقال ابن أبى نَجيح، عن مجاهد فى قوله. ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ قال: قالت كفار قريش حين أنزلت: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾: ما نراك يا محمد تملك من شىء، ولقد فُرغ من الأمر. فأنزلت هذه الآية تخويفا، ووعيداً لهم: إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا، وتحدث فى كل رمضان، فنمحو ونثبت[1] ما نشاء من أرزاق الناس ومصائبهم، وما تعطيهم، وما نقسم لهم.

وقال الحسن البصرى: ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ قال: من جاء أجله، فَذَهبَ، ويثبت الذى هو حىّ يجرى إلى أجله.

وقد اختار هذا القول أبو جعفر بن جرير، رحمه الله.

وقوله: ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال: الحلال والحرام.

وقال قتادة: أى جملة الكتاب وأصله.

وقال الضحاك: ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال: كتاب عند رب العالمين.

وقال سُنَيد بن داود، حدثنى معتمر، عن أبيه، عن سَيَّار، عن ابن عباس؛ أنه سأل كعباً عن «أم الكتاب»، فقال: عَلِمَ الله، ما هو خالق، وما خَلْقُه عاملون، ثم قال[2] لعلمه: «كن كتابا». فكانا[3] كتابا.

وقال ابن جرير، عن ابن عباس: ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال: الذكر. [والله أعلم][4].

---

(١) فى ت، أ: «فيمحو ويثبت». (٢) فى ت، أ: «فقال».
(٣) فى ت، أ: «فكان». (٤) زيادة من أ.

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾.

يقول تعالى لرسوله: ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ يا محمد ﴿ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ﴾ أي: نعد أعداءك من الخزي[1] والنكال في الدنيا، ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ [أي][2]: قبل ذلك، ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ أي: إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله وقد بلغت[3] ما أمرت به، ﴿ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ أي: حسابهم وجزاؤهم، كما قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ . إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ . فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ . إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٦].

وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾؟ قال ابن عباس: أو لم يروا أنا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض؟

وقال في رواية: أو لم يروا إلى القرية تخرب، حتى يكون العمران في ناحية؟

وقال مجاهد وعكرمة: ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ قال: خرابها.

وقال الحسن والضحاك: هو ظهور المسلمين على المشركين.

وقال العوفي عن ابن عباس: نقصان أهلها وبركتها.

وقال مجاهد: نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض.

وقال الشعبي: لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حُشُّك، ولكن تنقص الأنفس والثمرات. وكذا قال عكرمة: لو كانت الأرض تنقص لم تجد مكانا تقعد فيه، ولكن هو الموت.

وقال ابن عباس في رواية: خرابها بموت فقهائها وعلمائها وأهل الخير منها. وكذا قال مجاهد أيضاً: هو موت العلماء.

وفي هذا المعنى روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أحمد بن عبد العزيز أبي القاسم المصري الواعظ[4]، سكن أصبهان، حدثنا أبو محمد طلحة بن أسد المرئي بدمشق، أنشدنا أبو بكر الآجري بمكة قال: أنشدنا أحمد بن غزال لنفسه:

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها ... متى يمت عالم منها يمت طرفُ

كالأرض تحيا إذا ما الغيث حلّ بها ... وإن أبى عاد في أكنافها التلفُ

---

(١) في ت: «الخزن». (٢) زيادة من ت، أ. (٣) في ت، أ: «فعلت».

(٤) لم أعثر على ترجمته في المخطوط من تاريخ دمشق ولا في المختصر لابن منظور.

والقول الأول أولى، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية، [وكَفْرٌ بعد كَفْر، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٧]، وهذا اختيار ابن جرير، رحمه الله][1].

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢)﴾.

يقول: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ برسلهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، فمكر الله بهم، وجعل العاقبة للمتقين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ. فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ الآية [النمل: ٥٠ ـ ٥٢].

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: إنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر، وسيجزي كل عامل بعمله.

﴿وَسَيَعْلَمُ الكافر﴾ وقرئ: ﴿الْكُفَّارُ﴾ ﴿لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي: لمن تكون الدائرة والعاقبة، لهم أو لأتباع الرسل؟ كلا، بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة، ولله الحمد والمنة.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)﴾.

يقول: ويكذبك هؤلاء الكفار ويقولون: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ أي: ما أرسلك الله، ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: حسبي الله، وهو الشاهد علي وعليكم، شاهد عليّ فيما بلغتُ عنه من الرسالة، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان.

وقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾: قيل: نزلت في عبد الله بن سلام. قاله مجاهد.

وهذا القول غريب؛ لأن هذه الآية مكية، وعبد الله بن سلام إنما أسلم في أول مقدم رسول الله ﷺ المدينة. والأظهر في هذا ما قاله العوفي، عن ابن عباس قال: هم من[2] اليهود والنصارى.

وقال قتادة: منهم ابن سلام، وسلمان، وتميم الداري.

وقال مجاهد ـ في رواية ـ عنه: هو الله تعالى.

---

(١) زيادة من ت، أ.  (٢) في ت: «في».

وكان سعيد بن جُبَيْر ينكر أن يكون المراد بها عبد الله بن سلام، ويقول: هي مكية، وكان يقرؤها: «ومن عنده عُلِمَ الكتابُ»، ويقول: من عند الله.

وكذا قرأها مجاهد والحسن البصري.

وقد روى ابن جرير من حديث، هارون الأعور، عن الزهري، عن سالم، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قرأها: «ومن عنده عُلِمَ الكتابُ»، ثم قال: لا أصل له من حديث الزهري عند الثقات[1].

قلت: وقد رواه الحافظ أبو يعلى في مسنده، من طريق هارون بن موسى هذا، عن سليمان بن أرقم ـ وهو ضعيف ـ عن الزهري، عن سالم، عن أبيه مرفوعا كذلك. ولا يثبت[2]، والله أعلم.

والصحيح في هذا: أن ﴿ وَمَنْ عِندَهُ ﴾ اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة، من بشارات الأنبياء به، كما قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ الآية [الشعراء: ١٩٧]. وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل: أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة. وقد ورد في حديث الأحبار، عن عبد الله بن سلام بأنه أسلم بمكة قبل الهجرة، قال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتاب «دلائل النبوة»، وهو كتاب جليل:

حدثنا سليمان بن أحمد الطبراني، حدثنا عَبْدان بن أحمد، حدثنا محمد بن مُصَفَّى، حدثنا الوليد بن مسلم، عن محمد بن حمزة بن يوسف، بن عبد الله بن سلام، عن أبيه، أن عبد الله بن سلام قال لأحبار اليهود: إني أردت أن أجدد[3] بمسجد أبينا إبراهيم وإسماعيل عهدا[4]. فانطلق إلى رسول الله ﷺ وهو بمكة، فوافاهم وقد انصرفوا من الحج، فوجد رسول الله، بمنى، والناس حوله، فقام مع الناس، فلما نظر إليه رسول الله ﷺ قال: «أنت عبد الله بن سلام؟» قال: قلت: نعم. قال: «ادن». فدنوت منه، قال: «أنشدك بالله يا عبد الله بن سلام، أما تجدني في التوراة رسول الله؟» فقلت له: انعتْ ربنا. قال: فجاء جبريل حتى وقف بين يدي رسول الله ﷺ فقال له: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [سورة الإخلاص]، فقرأها علينا رسول الله ﷺ فقال ابن سلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. ثم انصرف ابن سلام إلى المدينة فكتم إسلامه. فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وأنا فوق نخلة لي أجُدُّها، فألقيت نفسي، فقالت

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٥٠٦).

(٢) مسند أبي يعلى (٩/ ٤٢٤) وقد وقع فيه: «عبد الرحيم بن موسى» بدلا من «هارون بن موسى».

(٣) في هـ، ت، أ: «أحدث» والمثبت من دلائل النبوة.

(٤) في هـ، ت، أ. «عيدا» والمثبت من دلائل النبوة.

أمي: [لله][١] أنت، لو كان موسى بن عمران ما كان لك أن تلقي نفسك من رأس النخلة. فقلت: والله لأني أسر بقدوم رسول الله ﷺ من موسى بن عمران إذ بُعث[٢].

وهذا حديث غريب جداً.

---

(١) زيادة من ت، ن، والدلائل.

(٢) دلائل النبوة (١/ ١٢٥) وهو في المعجم الكبير برقم (٣٧٢) «القطعة المفقودة» وأعله الهيثمي بالانقطاع.

## تفسير سورة إبراهيم، عليه السلام

وهي مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ① اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ② الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ③ ﴾.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور.

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ أي: هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن العظيم، الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض، إلى جميع أهلها عَربهم وعَجَمهم[(١)].

﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أي: إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب؛ لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي إلى الهدى والرشد، كما قال: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الحديد: ٩].

وقوله: ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: هو الهادي لمن قَدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره يهديهم ﴿ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ ﴾ أي: العزيز الذي لا يمانع ولا يُغَالب، بل هو القاهر لكل ما سواه، ﴿الْحَمِيدِ﴾ أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله، وشرعه وأمره ونهيه، الصادق في خبره.

وقوله: ﴿ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ : قرأه بعضهم مستأنفاً مرفوعاً، وقرأه آخرون على الإتباع صفة للجلالة، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقوله: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك يا محمد

---

(١) في ت، أ: «عربيهم وعجميهم».

وكذبوك.

ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، أي: يقدمونها ويُؤثرونها عليها، ويعملون للدنيا ونَسُوا الآخرة، وتركوها وراء ظهورهم، ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهي اتباع الرسل، ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي: ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة عائلة[1]، وهي مستقيمة في نفسها، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها، فهم[2] في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق، لا يرجى لهم ـ والحالة هذه ـ صلاح.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) ﴾.

هذا من لطفه تعالى بخلقه: أنه يرسل إليهم رسلا[3] منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا وكيع، عن عمر[4] بن ذر قال: قال مجاهد: عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يبعث الله، عز وجل، نبيا إلا بلغة قومه»[5].

وقوله: ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ أي: بعد البيان وإقامة الحجة عليهم يضل تعالى من يشاء عن وجه الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق، ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في أفعاله، فيضل من يستحق الإضلال، ويهدي من هو أهل لذلك.

وقد كانت هذه سنة الله في خلقه: أنه ما بعث نبيا في أمة إلا أن يكون بلغتهم، فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختص محمدَ بن عبد الله رسول الله بعموم الرسالة إلى سائر الناس، كما ثبت في الصحيحين عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يُعطهُن أحد من الأنبياء قبلي: نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطَهُوراً، وأحلَّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة»[6].

وله شواهد من وجوه كثيرة، وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

---

(١) عائلة: أي جائرة.
(٢) في ت: «فهم».
(٣) في أ: «رسولا».
(٤) في أ: «عمرو».
(٥) المسند (٥/١٥٨) ومجاهد لم يسمع من أبي ذر.
(٦) صحيح البخاري برقم (٣٣٥) وصحيح مسلم برقم (٥٢١).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥)﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب، لتخرج الناس كلهم، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى في بني إسرائيل بآياتنا.

قال مجاهد: وهي التسع الآيات.

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ أي: أمرناه قائلين له: ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: ادعهم إلى الخير، ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان.

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ أي: بأياديه ونعمه عليهم: في إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه، وإنجائه إياهم من عدوهم، وفلقه لهم البحر، وتظليله إياهم بالغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من النعم. قال ذلك مجاهد، وقتادة، وغير واحد.

وقد ورد فيه الحديث المرفوع الذي رواه عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل في مسند أبيه حيث[١] قال: حدثني يحيى بن عبد الله مولى بني هاشم، حدثنا محمد بن أبان الجعفي، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير [عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ . قال: «بنعم الله تبارك وتعالى]»[٢].

[ورواه ابن جرير][٣]، وابن أبي حاتم، من حديث محمد بن أبان، به[٤]. ورواه عبد الله ابنه[٥] أيضا موقوفا[٦]، وهو أشبه.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين، لعبرة لكل صبار، أي: في الضراء، شكور، أي: في السراء، كما قال قتادة: نعم العبد، عبد إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر.

وكذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أمر المؤمن كله عجب، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له»[٧].

---

(١) في هـ: «في مسنده حديث قال» والمثبت من ت، أ. (٢) زيادة من ت، أ، والمسند. (٣) زيادة من ت، أ.

(٤) زوائد المسند (٥/ ١٢٢) وتفسير الطبري (١٦/ ٥٢٢).

(٥) في ت: «ابن أحمد».

(٦) زوائد المسند (٥/ ١٢٢).

(٧) صحيح مسلم برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رضي الله عنه.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن موسى، حين ذكَّر قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال، حين[1] كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم، ويتركون إناثهم فأنقذ الله بني إسرائيل من ذلك، وهذه نعمة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي: نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها.

وقيل: وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل ﴿بَلَاءٌ﴾ أي: اختبار عظيم. ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا، والله أعلم. كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أي: آذنكم وأعلمكم بوعده لكم. ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه كما قال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ [مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ][2]﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وقوله[3]: ﴿لَئِن[4] شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي: لئن شكرتم نعمتي[5] عليكم لأزيدنكم منها، ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ أي: كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها، ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إياهم على كفرها.

وقد جاء في الحديث: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»[6].

وفي المسند: أن رسول الله ﷺ مرَّ به سائل فأعطاه تمرة، فتسخَّطها ولم يقبلها، ثم مر به آخر فأعطاه إياها، فقبلها وقال: تمرة من رسول الله ﷺ، فأمر له بأربعين درهماً، أو كما قال.

قال الإمام أحمد: حدثنا أسود، حدثنا عمارة الصيدلاني، عن ثابت، عن أنس قال: أتى النبي ﷺ سائل فأمر له بتمرة فلم يأخذها ـ أو: وحَّش بها ـ قال: وأتاه آخر فأمر له بتمرة، فقال: سبحان الله! تمرة من رسول الله ﷺ. فقال للجارية: «اذهبي إلى أم سلمة، فأعطيه الأربعين درهما التي

(١) في ت، أ: «حيث».
(٢) زيادة من ت، أ.
(٣) في ت، أ: «وقال هاهنا».
(٤) في ت، أ: «وإذ تأذن ربكم لئن».
(٥) في ت: «نعمة الله».
(٦) رواه أحمد في المسند (٥/ ٢٨٠) وابن ماجة في السنن برقم (٩٠) من حديث ثوبان رضي الله عنه، وحسنه العراقي كما في الزوائد للبوصيري (١/ ٦١).

عندها».

تفرد به الإمام أحمد[١].

وعمارة بن زاذان وثقه ابن حبان، وأحمد، ويعقوب بن سفيان[٢]. وقال ابن معين: صالح. وقال أبو زُرْعَة: لا بأس به. وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به، ليس بالمتين. وقال البخاري: ربما يضطرب في حديثه. وعن أحمد أيضاً أنه قال: روى عنه أحاديث منكرة. وقال أبو داود: ليس بذاك. وضعفه الدارقطني، وقال ابن عدي: لا بأس به ممن يكتب حديثه.

وقوله تعالى: **﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾** أي: هو غني عن شكر عباده، وهو الحميد المحمود، وإن كفره من كفره، كما قال: **﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾** [الزمر: ٧]، وقال تعالى: **﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾** [التغابن: ٦].

وفي صحيح مسلم، عن أبي ذر، عن رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه، عز وجل، أنه قال: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك في[٣] ملكي شيئاً. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، إلا كما ينقص المخْيَط إذا أدخل في البحر». فسبحانه وتعالى الغني الحميد[٤].

**﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩)﴾**.

قال ابن جرير: هذا من تمام قيل[٥] موسى لقومه[٦].

يعني: وتذكاره إياهم بأيام الله، بانتقامه من الأمم المكذبة للرسل.

وفيما قال[٧] ابن جرير نظر؛ والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة، فإنه قد قيل:

---

(١) المسند (٣/ ١٥٤).

(٢) في ت: «أحمد ويعقوب بن سفيان وابن حبان».  (٣) في ت، أ: «من».

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧).

(٥) في أ: «قول».

(٦) تفسير الطبري (١٦/ ٥٢٩).

(٧) في ت، أ: «قاله».

إن قصة عاد وثمود ليست في التوراة، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه وقَصَّه عليهم ذلك فلا شك[١] أن تكون هاتان القصتان في «التوراة»، والله أعلم. وبالجملة فالله تعالى قد قص علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل، مما لا يحصى عددهم[٢] إلا الله عز وجل أتتهم رسلهم بالبينات، أي: بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات.

وقال ابن[٣] إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله أنه قال في قوله: ﴿ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ﴾: كذب النسابون.

وقال عروة بن الزبير: ما وجدنا أحدا يعرف ما بعد معد بن عدنان.

وقوله: ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾: اختلف المفسرون في معناه، فقيل: معناه: أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمرونهم[٤] بالسكوت عنهم، لما دعوهم إلى الله، عز وجل.

وقيل: بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم.

وقيل: بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل.

وقال مجاهد، ومحمد بن كعب، وقتادة: معناه: أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواهم.

قال ابن جرير: وتوجيهه[٥] أن «في» هاهنا بمعنى «الباء»، قال: وقد سمع من العرب: «أدخلك الله بالجنة» يعنون: في الجنة، وقال الشاعر:

وأَرْغَبُ فِيها عَنْ لَقِيطٍ ورهْطه عَنْ سِنْبِس لَسْتُ أَرْغَب

يريد: أرغب بها[٦].

قلت: ويؤيد قول مجاهد تفسير ذلك بتمام الكلام: ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾، فكأن هذا [والله أعلم] [٧] تفسير لمعنى «ردّ أيديهم في أفواههم».

وقال سفيان الثوري، وإسرائيل، عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص، عن عبد الله في قوله: ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ قال: عضوا عليها غَيْظًا.

وقال شعبة، عن أبي إسحاق، عن هُبَيْرة ابن مريم، عن عبد الله أنه قال ذلك أيضا.

وقد اختاره عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ووجهه ابن جرير مختاراً له، بقوله تعالى عن المنافقين: ﴿ وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

وقال العوفي، عن ابن عباس: لما سمعوا كتاب[٨] الله عَجبوا، ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم.

---

(١) في ت، أ: «لاوشك».	(٢) في ت، أ: «عدده».	(٣) في ت: «أبو».
(٤) في ت: «يأمرونهم».	(٥) في ت: «وبوجهه»
(٦) تفسير الطبري (١٦/ ٥٣٤).
(٧) زيادة من ت، أ.	(٨) في ت: «كلام».

وقالوا: ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به؛ فإن عندنا فيه شكا قويا.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)﴾.

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاؤوهم به من عبادة الله وحده لاشريك له، قالت الرسل: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾؟

وهذا يحتمل شيئين، أحدهما: أفي وجوده شك، فإن الفطر شاهدة بوجوده، ومجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة؛ ولكن قد يعرض [١] لبعضها شك واضطراب، فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده؛ ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الذي خلقها وابتدعها على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث [٢] والخلق والتسخير ظاهر عليها، فلابد لها من صانع، وهو الله لا إله إلا هو، خالق كل شيء وإلهه ومليكه.

والمعنى الثاني في قولهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ أي: أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك، وهو الخالق لجميع الموجودات، ولا [٣] يستحق العبادة إلا هو، وحده لا شريك له؛ فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد [٤] معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى.

وقالت لهم الرسل: ندعوكم [٥] ليغفر لكم من ذنوبكم، أي: في الدار الآخرة، ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ الآية [هود:٣]، فقالت لهم الأمم محاجين في مقام الرسالة، بعد تقدير تسليمهم للمقام الأول، وحاصل ما قالوه: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي: كيف نتبعكم بمجرد قولكم، ولما نر منكم معجزة؟ ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: خارق نقترحه عليكم.

---

(١) في ت: «تعرض».
(٢) في ت، أ: «الحدث».
(٣) في ت، أ: «فلا».
(٤) في ت، أ: «يعبد».
(٥) في هـ: «وقالت لهم رسلهم: الرسل يدعوكم»، والمثبت من ت، أ.

قالت لهم رسلهم: ﴿إن نَّحنُ إلا بَشرٌ مِّثلُكُم﴾ أي: صحيح أنا بشر مثلكم في البشرية ﴿ولَكنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: بالرسالة والنبوة ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ﴾ على وفق ما سألتم ﴿إلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بعد سؤالنا إياه، وإذنه لنا في ذلك، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: في جميع أمورهم.

ثم قالت الرسل: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: وما يمنعنا من التوكل عليه، وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها، ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ أي: من الكلام السيئ، والأفعال السخيفة، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧)﴾.

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم، من الإخراج من أرضهم، والنفي من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، وقال قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، وقال تعالى إخباراً عن مشركي قريش: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وكان [١] من صنعه تعالى: أنه أظهر رسوله ونصره، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصاراً وأعواناً وجنداً، يقاتلون في سبيل الله، ولم يزل يرقيه [الله] [٢] تعالى من شيء إلى شيء، حتى فتح له مكة التي أخرجته، ومكّن له فيها، وأرغم آناف أعدائه منهم، و[من] [٣] سائر [أهل] [٤] الأرض، حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان، في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ. وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ [٥] عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾

(١) في ب، أ: «فكان». (٢ ـ ٤) زيادة من ت، أ. (٥) في ت: «لقوي» وهو خطأ.

[الأنبياء: ١٠٥]، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي: وعيدي[1] هذا لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة، وخشي من وعيدي، وهو تخويفي وعذابي، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ . وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ . وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٤١]، وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقوله: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ أي: استنصرت الرسل ربها على قومها. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: استفتحت الأمم على أنفسها، كما قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

ويحتمل أن يكون هذا مراداً وهذا مراداً، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله واستنصر، وقال الله تعالى للمشركين: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الآية [الأنفال: ١٩]، والله أعلم.

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: متجبر في نفسه معاند للحق، كما قال تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ . مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ . الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق: ٢٤ ـ ٢٦].

وفي الحديث: «إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة، فتنادي الخلائق فتقول: إني وُكلت بكل جبار عنيد» الحديث[2].

خاب وخسر حين اجتهد الأنبياء في الابتهال إلى ربها العزيز المقتدر.

وقوله: ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾: و«وراء» هاهنا بمعنى «أمام»، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، وكان ابن عباس يقرؤها «وكان أمامهم ملك».

أي: من وراء الجبار العنيد جهنم، أي: هي له بالمرصاد، يسكنها مخلداً يوم المعاد، ويعرض عليها غدواً وعشياً إلى يوم التناد.

---

(١) في ت: «وعدي».

(٢) رواه أحمد في المسند (٣/ ٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، ورواه الترمذي في السنن برقم (٢٥٧٤) من طريق الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب صحيح».

﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴾ أي: في النار ليس له شراب إلا من حميم أو غساق، فهذا [1] في غاية الحرارة، وهذا في غاية البرد والنتن، كما قال: ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ. وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ [ص: ٥٧، ٥٨].

قال مجاهد، وعكرمة: الصديد: من القيح والدم.

وقال قتادة: هو ما يسيل من لحمه وجلده. وفي رواية عنه: الصديد: ما يخرج من جوف الكافر، قد خالط القيح والدم.

وفي حديث شَهْر بن حَوْشَب، عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: قلت: يا رسول الله، ما طينة الخبال؟ قال: «صديد أهل النار» [2] وفي رواية: «عُصَارة أهل النار» [3].

وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، أنبأنا عبد الله، أنا صفوان بن عمرو، عن عبيد الله بن بُرٍّ، عن أبي أمامة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ. يَتَجَرَّعُهُ ﴾، قال: «يُقَرَّبُ إليه فيتكرهه، فإذا أدني منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره. يقول الله تعالى [4]: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، ويقول: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾» [5] [الكهف: ٢٩].

وهكذا رواه ابن جرير، من حديث عبد الله بن المبارك، به [6]. ورواه هو وابن أبي حاتم: من حديث بَقِيَّة ابن الوليد، عن صفوان بن عمرو، به [7].

وقوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ أي: يتغصصه ويتكرهه، أي: يشربه قهرا وقسرا، لا يضعه في فيه [8] حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ٢١].

﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ أي: يزدرده لسوء لونه وطعمه وريحه، وحرارته أو برده الذي لا يستطاع.

﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه.

قال ميمون بن مِهْرَان: من كل عظم، وعرق، وعصب.

وقال عكرمة: حتى من أطراف شعره.

---

(١) في ت، أ: «فهذا حار».

(٢) رواه أحمد في المسند (٦/ ٤٦٠).

(٣) وهي رواية أبي ذر، رضي الله عنه، ورواها أحمد في المسند (٥/ ١٧١)

(٤) في أ: «عز وجل».

(٥) المسند (٥/ ٢٦٥).

(٦) تفسير الطبري (١٦/ ٥٤٩) ورواه الترمذي في السنن برقم (٢٥٨٣) من طريق عبد الله بن المبارك به، وقال: «هذا حديث غريب، وهكذا قال محمد بن إسماعيل عن عبيد الله بن بُسْر، ولا نعرف عبيد الله بن بُسْر إلا في هذا الحديث».

(٧) ورواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٥١) من طريق حيوة بن شريح عن بقية به.

(٨) في ت: «لا يضعه في فمه» وفي أ: «لا يضيعه في فمه».

وقال إبراهيم التيمي: من موضع كل شعرة، أي: من جسده، حتى من أطراف شعره.

وقال ابن جرير: ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان﴾ أي: من أمامه وورائه، وعن يمينه وشماله، ومن فوقه[١] ومن تحت أرجله[٢]، ومن سائر أعضاء جسده.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان﴾ قال: أنواع العذاب الذي يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم، وليس منها نوع إلا الموت يأتيه منه لو كان يموت، ولكن لا يموت؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها [كذلك نجزي كل كفور][٣]﴾ [فاطر: ٣٦].

ومعنى كلام ابن عباس، رضي الله عنه: أنه ما من نوع من هذه الأنواع من [هذا][٤] العذاب إلا إذا ورد عليه اقتضى أن يموت منه لو كان يموت، ولكنه لا يموت ليخلد في دوام العذاب والنكال؛ ولهذا قال: ﴿ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت﴾.

وقوله: ﴿ومن ورائه عذاب غليظ﴾ أي: وله من بعد هذا الحال عذاب آخر غليظ، أي: مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمر. وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم . طلعها كأنه رءوس الشياطين. فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون. ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم . ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم﴾ [الصافات: ٦٤ ـ ٦٨]، فأخبر أنهم تارة يكونون في أكل زقوم، وتارة في شرب حميم، وتارة يردون إلى الجحيم[٥]، عياذا بالله من ذلك، وهكذا قال تعالى: ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون . يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إن شجرت الزقوم . طعام الأثيم . كالمهل يغلي في البطون . كغلي الحميم . خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق إنك أنت العزيز الكريم . إن هذا ما كنتم به تمترون﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٥٠]، وقال: ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال . في سموم وحميم . وظل من يحموم . لا بارد ولا كريم ﴾ [الواقعة: ٤١ ـ ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ هذا وإن للطاغين لشر مآب . جهنم يصلونها فبئس المهاد . هذا فليذوقوه حميم وغساق . وآخر من شكله أزواج ﴾ [ص: ٥٥ ـ ٥٨]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه وأشكاله، مما لا يحصيه إلا الله، عز وجل، جزاء وفاقا، ﴿ وما ربك بظلام للعبيد﴾ [فصلت: ٤٦].

**﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد (١٨) ﴾.**

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا مع الله غيره، وكذبوا رسله، وبنوا أعمالهم

---

(١) في ت: «فوقهم».
(٢) في ت: «أرجلهم».
(٣) زيادة من أ.
(٤) زيادة من ت، أ.
(٥) في ت: «جحيم».

على غير أساس صحيح؛ فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: مثل أعمال الذين كفروا يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى؛ لأنهم كانوا يحسبون أنهم على شيء، فلم يجدوا شيئاً، ولا ألفوا حاصلا إلا كما يتحصّل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي: ذي ريح عاصفة قوية، فلا[يقدرون على شيء من أعمالهم التي كسبوها في الدنيا إلا كما] [١] يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقال في هذه الآية: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أي: سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما هم إليه، ﴿ذَٰلِكَ [٢] هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قدرته على مَعاد الأبدان يوم القيامة، بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس، أفليس الذي قدر على خلق هذه السموات، في ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات، والحركات المختلفات، والآيات الباهرات، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد، وبراري وصحاري وقفار، وبحار وأشجار، ونبات وحيوان، على اختلاف أصنافها ومنافعها، وأشكالها وألوانها؛ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ[٣] أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ. الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ. أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ. إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ. فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٧ـ٨٣].

وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ أي: بعظيم ولا ممتنع، بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره، أن يذهبكم ويأت بآخرين على غير صفتكم، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ. إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) في ت، أ: «هذا» وهو خطأ. (٣) في ت، أ: «ولقد خلقنا الإنسان» وهو خطأ.

بعزيز﴾ [فاطر: ١٥ ـ ١٧]، وقال: ﴿وإن تتولَّوا يستبدل قومًا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ [محمد: ٣٨]، وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرًا﴾ [النساء: ١٣٣].

﴿وبرزوا لله جميعًا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعًا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص (٢١)﴾.

يقول: ﴿وبرزوا [لله]﴾[1] أي: برزت الخلائق كلها، برها وفاجرها لله وحده الواحد القهار، أي: اجتمعوا له في براز[2] من الأرض، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحدًا.

﴿فقال الضعفاء﴾ وهم الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم الذين استكبروا عن عبادة الله وحده لا شريك له، وعن موافقة الرسل، فقالوا لهم: ﴿إنا كنا لكم تبعًا﴾ أي: مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا، ﴿فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء﴾؟ أي: فهل تدفعون عنا شيئًا من عذاب الله، كما كنتم تعدوننا وتمنوننا؟ فقالت القادة لهم: ﴿لو هدانا الله لهديناكم﴾، ولكن حق علينا قول ربنا، وسبق فينا وفيكم قدر الله، وحقت كلمة العذاب على الكافرين.

﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾ أي: ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالوا، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة ببكائهم وتضرعهم إلى الله، عز وجل، تعالوا نبك ونتضرع إلى الله، فبكوا وتضرعوا، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: تعالوا، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر، تعالوا حتى نصبر، فصبروا صبرًا لم يُر مثله، فلم ينفعهم ذلك، فعند ذلك قالوا[3]: ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾.

قلت: والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: ﴿وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعًا فهل أنتم مغنون عنا نصيبًا من النار. قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨]، وقال تعالى: ﴿قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعًا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابًا ضعفًا من[4] النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون. وقالت أولاهم

---

(١) زيادة من أ. (٢) في ت: «براز». (٣) في أ: «فقالوا».
(٤) في ت: «في».

لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا. وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا. رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾[الأحزاب: ٦٦ ـ ٦٨].

وأما تخاصمهم فى المحشر، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ[1] مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا[2] النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٣١ ـ ٣٣].

**﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ (٢٣) ﴾.**

يخبر تعالى عما خطب به إبليس [لعنه الله] [3] أتباعه، بعد ما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس ـ لعنه الله ـ حينئذ خطيباً ليزيدهم حزنا إلى حزنهم[4]، وغبنا إلى غبنهم، وحسرة إلى حسرتهم، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ أى: على ألسنة رسله، ووعدكم فى اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقا، وخبرا صدقا، وأما أنا فوعدتكم وأخلفتكم، كما قال الله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أى: ما كان لى عليكم فيما دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق ما وعدتكم به، ﴿ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه، ﴿ فَلا تَلُومُونِي﴾ اليوم، ﴿ وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾، فإن الذنب لكم، لكونكم خالفتم الحجج واتبعتمونى بمجرد

---

(١) في ت، أ: «المجرمون» وهو خطأ.

(٢) في ت: «وأسر» وهو خطأ.

(٣) زيادة من أ.

(٤) في ت: «خزيا إلى خزيهم».

ما دعوتكم إلى الباطل، ﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه، ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ أي: بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال، ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾.

قال قتادة: أي بسبب ما أشركتموني من قبل.

وقال ابن جرير: يقول: إني جحدت أن أكون شريكا لله، عز وجل.

وهذا الذي قاله هو الراجح[١]، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقال: ﴿ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢].

وقوله: ﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

والظاهر من سياق الآية: أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار، كما قدمنا. ولكن قد ورد في حديث رواه ابن أبي حاتم ـ وهذا لفظه ـ وابن جرير من رواية عبد الرحمن بن زياد: حدثني دخين[٢] الحَجْرِي، عن عقبة بن عامر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا جمع الله الأولين والآخرين، فقضى بينهم، ففرغ من القضاء، قال المؤمنون: قد قضى بيننا ربنا، فمن يشفع لنا؟ فيقولون: انطلقوا بنا إلى آدم ـ وذكر نوحا، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ـ فيقول عيسى: أدلكم على النبي الأمي. فيأتوني، فيأذن الله لي أن أقوم إليه فيثور[٣] [من][٤] مجلسي من أطيب ريح شمها أحد قط، حتى آتي ربي فيشفعني، ويجعل لي نورا من شعر رأسي إلى ظُفر قدمي، ثم يقول الكافرون هذا: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فمن يشفع لنا؟ ما هو إلا إبليس هو الذي أضلنا، فيأتون إبليس فيقولون: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فقم أنت فاشفع لنا، فإنك أنت أضللتنا. فيقوم فيثور من مجلسه من أنتن ريح شمها أحد قط، ثم يعظم نحيبهم[٥]، ﴿ وَقَالَ[٦] الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾»[٧].

وهذا سياق ابن أبي حاتم، ورواه ابن المبارك عن رِشْدِين بن سعد، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، عن دُخَيْن[٨] عن عُقْبَة، به مرفوعا[٩].

---

(١) في أ: «الأرجح».　(٢) في ت، أ: «دجين».　(٣) في ت، أ: «فيفور».

(٤) زيادة من ت، أ، والطبري.　(٥) في ت، أ: «بجهنم».　(٦) في ت، أ: «ويقول» وهو خطأ.

(٧) تفسير الطبري (١٦/ ٥٦٢) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ٣٢) من طريق ابن وهب: أخبرني ابن نعيم (كذا في المعجم) عن دخين، عن عقبة مرفوعاً. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٧٦): «فيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، وهو ضعيف» وضعف السيوطي إسناده أيضا.

(٨) في أ: «دجين».

(٩) ورواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٦٢) من طريق سويد بن نصر، عن ابن المبارك به.

وقال محمد بن كعب القُرظي، رحمه الله: لما قال أهل النار: ﴿سواءٌ علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾ قال لهم إبليس: ﴿إن الله وعدكم وعد الحق﴾ الآية، فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم، فنودوا: ﴿لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون﴾ [غافر: ١٠].

وقال عامر الشعبي: يقوم خطيبان يوم القيامة على رؤوس الناس، يقول الله لعيسى ابن مريم: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾، إلى قوله: ﴿قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٩]، قال: ويقوم إبليس ـ لعنه الله ـ فيقول: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾ الآية.

ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال، وأن خطيبهم إبليس، عطف بحال السعداء وأنهم يدخلون يوم القيامة جنات تجري من تحتها الأنهار سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا[1]، ﴿خالدين فيها﴾: ماكثين أبدا لا يحولون ولا يزولون، ﴿بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام﴾، كما قال تعالى: ﴿حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب. سلام عليكم﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ويلقون فيها تحية وسلاما﴾ [الفرقان: ٧٥]، وقال: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾[يونس: ١٠].

﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء (٢٤) تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون (٢٥) ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار (٢٦)﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: «ومثل كلمة طيبة»: شهادة أن لا إله إلا الله، ﴿كشجرة طيبة﴾ وهو المؤمن، ﴿أصلها ثابت﴾ يقول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن، ﴿وفرعها في السماء﴾ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء.

وهكذا قال الضحاك، وسعيد بن جُبَير، وعكرمة وقتادة وغير واحد: إن ذلك عبارة عن المؤمن، وقوله الطيب، وعمله الصالح، وإن المؤمن كالشجرة من النخل، لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين ووقت، وصباح ومساء.

وهكذا رواه السُّدِّي، عن مُرَّة، عن ابن مسعود قال: هي النخلة.

وشعبة، عن معاوية بن قُرَّة، عن أنس: هي النخلة.

(١) في ت: «شاؤوا أين شاؤوا» وفي أ: «شاؤوا حيث شاؤوا».

وحماد بن سلمة، عن شعيب بن الحبحاب، عن أنس: أن رسول الله ﷺ أتي بقناع بُسْر فقال:[١] «ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة» قال: «هي النخلة»[٢].

وروي من هذا الوجه ومن غيره، عن أنس موقوفا[٣]. وكذا نص عليه مسروق، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك، وقتادة وغيرهم.

وقال البخاري: حدثنا عُبَيدُ بن إسماعيل، عن أبي أسامة، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أخبروني عن شجرة تُشبه ـ أو: كالرجل ـ المسلم، لا يتحات ورقها [ولا، ولا، ولا] [٤] تؤتي أكلها كل حين». قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئا، قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة». فلما قمنا قلت لعُمَر: يا أبتا، والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة. قال: ما منعك أن تكلَّم؟ قال: لم أركُم تَتكلَّمون، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئا. قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا[٥].

وقال أحمد: حدثنا سفيان، عن ابن أبي نَجيح، عن مُجاهد: صحبت ابن عمر إلى المدينة، فلم أسمعه يحدِّث عن رسول الله ﷺ إلا حديثاً واحدا ـ قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأتي بجُمَّار. فقال: «من الشجر شجرة مثلها مثل الرجل المسلم». فأردت أن أقول: هي النخلة، فنظرت فإذا أنا أصغر القوم، [فسكتُّ][٦]، فقال رسول الله ﷺ: «هي النخلة» أخرجاه[٧].

وقال مالك وعبد العزيز، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يوما لأصحابه: «إن من الشجر شجرة لا يَطْرحُ ورقها، مثل المؤمن». قال: فوقع الناس في شَجَر البوادي، ووقع في قلبي أنها النخلة [فاستحييت، حتى قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة]»[٨]. أخرجاه أيضا[٩].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبان ـ يعني ابن يزيد العطار ـ حدثنا قتادة: أن رجلا قال: يا رسول الله، ذهب أهل الدُّثُور بالأجور! فقال: «أرأيت لو عمد إلى متاع

---

(١) في هـ، ت، أ: «فقرأ» والمثبت من الطبري والترمذي.

(٢) رواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٧٠) والترمذي في السنن برقم (٣١١٩) من طريق حماد بن سلمة به، وقال الترمذي: «وروى غير واحد مثل هذا موقوفاً، ولانعلم أحداً رفعه غير حماد بن سلمة، ورواه معمر وحماد بن زيد وغير واحد ولم يرفعوه».

(٣) رواه أبو بكر بن شعيب بن الحبحاب، عن أبيه، عن أنس بن مالك نحوه موقوفاً، أخرجه الترمذي في السنن برقم (٣١١٩) ورواه حماد بن زيد، عن شعيب بن الحبحاب، عن أنس موقوفاً، أخرجه الترمذي في السنن برقم (٣١١٩).

(٤) زيادة من ت، أ، والبخاري.

(٥) صحيح البخاري برقم (٤٦٩٨).

(٦) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٧) المسند(٢/ ١٢) وصحيح البخاري برقم (٧٢) وصحيح مسلم برقم (٢٨١١).

(٨) زيادة من ت، أ، والصحيحين.

(٩) صحيح البخاري برقم (١٣١) وصحيح مسلم برقم (٢٨١١).

الدنيا، فركب بعضها على بعض أكان يبلغ السماء؟ أفلا أخبرك بعمل أصله في الأرض وفرعه في السماء؟». قال: ما هو يا رسول الله؟ قال: «تقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله»، عشر مرات في دبر كل صلاة، فذاك أصله في الأرض وفرعه في السماء»[١].

وعن ابن عباس: ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: هي شجرة في الجنة.

وقوله: ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾: قيل: غُدوة وعَشيا. وقيل: كل شهر. وقيل: كل شهرين. وقيل: كل ستة أشهر. وقيل: كل سبعة أشهر. وقيل: كل سنة.

والظاهر من السياق: أن المؤمن مثله كمثل شجرة، لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت من صيف أو شتاء، أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين.

﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي: كاملاً حسنا كثيراً طيبا، ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

وقوله: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾: هذا مثل كفر الكافر، لا أصل له ولا ثبات، وشبه بشجرة الحنظل، ويقال لها: «الشريان». [رواه شعبة، عن معاوية بن قرة، عن أنس بن مالك: أنها شجرة الحنظل][٢].

وقال أبو بكر البزار الحافظ: حدثنا يحيى بن محمد بن السكن، حدثنا أبو زيد سعيد بن الربيع، حدثنا شعبة، عن معاوية بن قُرَّة، عن أنس ـ أحسبه رفعه ـ قال: «مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة»، قال: هي النخلة، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾، قال: هي الشِّرْيان»[٣].

ثم رواه عن محمد بن المثنى، عن غُنْدَر، عن شعبة، عن معاوية، عن أنس موقوفا[٤].

وقال بن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد ـ هو ابن سلمة ـ عن شعيب بن الحَبْحاب عن أنس بن مالك؛ أن النبي ﷺ قال: «ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة» هي الحنظلة». فأخبرت بذلك أبا العالية فقال: هكذا كنا نسمع.

ورواه ابن جرير، من حديث حماد بن سلمة، به[٥]. ورواه أبو يعلى في مسنده بأبسط من هذا فقال:

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٢٢) وعزاه لابن أبي حاتم، وهو مرسل.

(٢) زيادة من ت، أ.

(٣) ورواه حماد بن سلمة عن شعيب بن الحبحاب عن أنس مرفوعاً مثله رواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٧٠، ٥٨٥).

(٤) ورواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٨٣) عن محمد بن المثنى به موقوفاً، ورواه شبابة وعمرو بن الهيثم، عن شعبة فأوقفوه.
انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٥٨٣).

(٥) تفسير الطبري (١٦/ ٥٨٥).

حدثنا غسان، عن حماد، عن شعيب، عن أنس: أن رسول الله ﷺ أتي بقناع عليه بُسْر، فقال: ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء. تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها فقال: «هي النخلة» ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾، قال: «هي الحنظل»[1]. قال شعيب: فأخبرت بذلك أبا العالية فقال: كذلك كنا نسمع[2].

وقوله: ﴿اجْتُثَّتْ﴾ أي: استؤصلت ﴿مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي: لا أصل لها ولا ثبات. كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يُتقبَّل منه شيء.

**﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)﴾.**

قال البخاري: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، أخبرني علقمة بن مرثد قال: سمعت سعد بن عُبَيدة، عن البراء بن عازب، رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾»[3].

ورواه مسلم أيضاً وبقيّة الجماعة كلهم، من حديث شعبة، به[4].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المِنْهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يُلحَد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله، كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر» مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحَنُوط من حَنُوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر. ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان». قال: «فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فِي السِّقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نَفْحة مسك وجدت على وجه الأرض. فيصعدون بها، فلا يمرون ـ يعني بها ـ على ملأ من الملائكة

---

(١) في أ: «الحنظلة».

(٢) ورواه الترمذي في السنن برقم (٣١١٩) عن عبد بن حميد، عن أبي الوليد، عن حماد بن سلمة به نحوه، وقد سبق الكلام عليه.

(٣) صحيح البخاري برقم (٤٦٩٩).

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٨٧١) وسنن أبي داود برقم (٤٧٥٠) وسنن الترمذي برقم (٣١٢٠) وسنن النسائي (٤/١٠١) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٦٩).

إلا قالوا: ما هذا الروح [الطيب][1]؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأحسن أسمائه التي [كانوا][2] يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقول الله: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم، ومنهم أخرجهم تارة أخرى».

قال: «فتُعاد روحه [في جسده][3]، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به وصدقت. فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة ـ قال: فيأتيه من رَوْحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره. ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت تُوعَد. فيقول له من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح. فيقول: رب، أقم الساعة. رب، أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي».

قال: «وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المُسُوح، فجلسوا منه مدّ البصر. ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سَخَط من الله وغضب». قال: «فتفَرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السَّفُّود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها[4] في يده طرفة عين، حتى يجعلوها في تلك المسوح. ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على مَلأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمونه بها في الدنيا [حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا][5] فيستفتح له فلا يفتح له». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فيقول الله: «اكتبوا كتابه في سجين، في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً». ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

«فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري. فينادي مناد من السماء: أن كذب فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار. فيأتيه من حرها وسمومها، ويُضيَّق عليه قبره، حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل

(١ ـ ٣) زيادة من ت، أ، والمسند. (٤) في أ: «لم يدعها». (٥) زيادة من ت، أ، والمسند.

قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح فيقول: أبشر بالذى يسوؤك، هذا يومك الذى كنت توعد. فيقول: ومن أنت فوجهك [الوجه][١] يجىء بالشر. فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب، لا تقم الساعة».

ورواه أبو داود من حديث الأعمش، والنسائى وابن ماجة من حديث المنهال بن عمرو، به[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن يونس بن خباب[٣]، عن المِنْهَال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب، رضى الله عنه، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة، فذكر نحوه.

وفيه: «حتى إذا خرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، [وكل ملك فى السماء][٤]، وفتحت أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله، عز وجل، أن يعرج بروحه من قبلهم».

وفى آخره: «ثم يقيض له أعمى أصم أبكم، وفى يده مرزبّة لو ضرب بها جبل لكان ترابا، فيضربه ضربة فيصير ترابا. ثم يعيده الله، عز وجل، كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شىء إلا الثقلين». قال البراء: ثم يفتح له باب إلى النار، ويمهد من فرش النار[٥].

وقال سفيان الثورى، عن أبيه، عن خَيْثَمَة، عن البراء فى قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: عذاب القبر.

وقال المسعودى، عن عبد الله بن مُخَارق، عن أبيه، عن عبد الله قال: إن المؤمن إذا مات أُجلس فى قبره، فيقال له: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ فيثبته الله، فيقول: ربى الله، ودينى الإسلام، ونبيى محمد ﷺ. وقرأ عبد الله: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[٦].

وقال الإمام عبد بن حميد، رحمه الله، فى مسنده: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا شيبان بن عبد الرحمن، عن قتادة، حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا وضع فى قبره، وتولى عنه أصحابه، إنه ليسمع قرع نعالهم». قال: «فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟» قال: «فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله». قال: «فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة». قال نبى الله ﷺ: «فيراهما جميعا». قال

---

(١) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٢) المسند (٤/ ٢٨٧) وسنن أبى داود برقم (٤٧٥٣) وسنن النسائى برقم (٤/ ٧٨) وسنن ابن ماجة برقم (١٥٤٨).

(٣) فى هـ، أ: «يونس بن حبيب» والمثبت من ت والمسند. (٤) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٥) المسند (٤/ ٢٩٥).

(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٥٩٧)

قتادة: وذُكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعا، ويملأ عليه خَضِراً إلى يوم القيامة.

رواه مسلم عن عبد بن حميد، به[١]. وأخرجه النسائي من حديث يونس بن محمد المؤدِّب، به[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن ابن جُرَيْج، أخبرني أبو الزبير، أنه سأل جابر بن عبد الله عن فَتَّانِي القبر فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن هذه الأمة تُبْتَلى في قبورها، فإذا أدخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه، جاء ملك شديد الانتهار، فيقول له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول المؤمن: أقول: إنه رسول الله وعبده. فيقول له الملك: انظر إلى مقعدك الذي كان لك في النار، قد أنجاك الله منه، وأبدلك بمقعدك الذي ترى من النار مقعدك الذي ترى من الجنة، فيراهما كليهما. فيقول المؤمن: دعوني أبشر أهلي. فيقال له: اسكن. وأما المنافق فيقعد إذا تولى عنه أهله، فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، أقول كما يقول الناس. فيقال له: لا دَرَيتَ، هذا مقعدك الذي كان لك في الجنة، قد أبدلت مكانه مقعدك من النار».

قال جابر: فسمعت النبي ﷺ يقول: «يبعث كل عبد في القبر على ما مات، المؤمن على إيمانه، والمنافق على نفاقه».

إسناده[٣] صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه[٤] [٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا عباد بن راشد، عن داود بن أبي هند، عن أبي نَضْرة، عن أبي سعيد الخدري قال: شَهِدنا مع رسول الله ﷺ جنازة، فقال رسول الله ﷺ: «يأيها الناس، إن هذه الأمة تُبْتَلى في قبورها، فإذا الإنسان دفن وتفرق عنه أصحابه، جاءه ملك في يده مطراق فأقعده، قال: ما تقول في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمنا قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله[٦]، فيقول له: صدقت. ثم يفتح له باب إلى النار، فيقول: هذا كان منزلك لو كفرت بربك، فأما إذ آمنت فهذا منزلك. فيفتح له بابا إلى الجنة، فيريد أن ينهض إليه، فيقول له: اسكن. ويفسح له في قبره».

«وإن كان كافرا أو منافقا يقول[٧] له: ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئا[٨]. فيقول: لا دَرَيتَ ولا تَلَيتَ ولا اهتديت. ثم يفتح له بابا إلى الجنة، فيقول له: هذا

---

(١) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١١٧٨) وصحيح مسلم برقم (٢٨٧٠).

(٢) سنن النسائي (٤/ ٩٧).

(٣) في ت: «إسناده».     (٤) في ت: «ولم يخرجوه».

(٥) الذي في المسند (٣/ ٣٤٦): حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي الزبير به، وكذا في أطراف المسند لابن حجر (٢/ ١١٠).

(٦) في أ: «وأن محمداً رسول الله».     (٧) في ت، أ: «فيقول».     (٨) في أ: «شيئا فقلته».

منزلك لو آمنت بربك، فأما إذ كفرت به فإن الله، عز وجل، أبدلك به هذا. فيفتح[1] له بابا إلى النار، ثم يقمَعه قمعةً بالمطراق يسمعها خَلْقُ الله، عز وجل، كلهم غير الثقلين». فقال بعض القوم: يا رسول الله، ما أحد يقوم عليه ملك في يده مطراق[2] إلا هيل عند ذلك. فقال رسول الله ﷺ: «﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾»[3].

وهذا أيضا إسناد لا بأس به، فإن عباد بن راشد التميمي روى له البخاري مقرونا، ولكن ضعفه بعضهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، عن ابن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يَسَار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ[4]: «إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس المطمئنة[5] كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان». قال: «فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان. فيقولون: مرحبا بالروح الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان» قال: فلا يزال يقال لها ذلك، حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل.

وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغَسَّاق، وآخر من شكله أزواج. فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحبا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لا تفتح[6] لك أبواب السماء. فيرسل[7] من السماء، ثم يصير[8] إلى القبر»، فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول.

ورواه النسائي وابن ماجة، من طريق ابن أبي ذئب[9] بنحوه[10].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: إذا خرجت روح العبد المؤمن، تلقاها ملكان يصعدان بها. قال حماد: فذكر من طيب ريحها وذكر المسك. قال: ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قِبَل الأرض، صَلَّى الله عليك وعلى جَسَد كنت تَعْمُرينه، فيُنْطَلَقُ به إلى ربه عز وجل، فيقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل. وإن الكافر إذا خرجت روحه. قال حماد: وذكر من

---

(١) في ت: «فتفتح». (٢) في ت: «مطرقة».
(٣) المسند (٣/ ٣).
(٤) في ت، أ: «عن النبي ﷺ أنه قال». (٥) في ت، أ: «الطيبة». (٦) في ت، أ: «يفتح».
(٧) في ت: «فترسل». (٨) في ت: «تصير». (٩) في ت: «ابن أبي دهاب» وفي أ: «ابن أبي ذر».
(١٠) المسند (٢/ ٣٦٤) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٦٢) وقال البوصيري في الزوائد (٣/ ٣٦٦): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

نَتْنها وذكر مقتا، ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قِبَل الأرض. قال: فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل. قال أبو هريرة: فردّ رسول الله ﷺ رَيْطَةً كانت عليه على أنفه، هكذا[١].

وقال ابن حبان في صحيحه: حدثنا عمر بن محمد الهمداني، حدثنا زيد بن أخزَم، حدثنا معاذ ابن هشام، حدثني أبي، عن قتادة، عن قسامة بن زهير، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن إذا قُبض، أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجي إلى روح الله. فتخرج كأطيب ريح مسك، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضا يشمونه حتى يأتوا به باب السماء، فيقولون ما هذا الريح الطيبة التي جاءت من قِبل الأرض؟ ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك، حتى يأتوا به أرواح المؤمنين، فَلَهُم أشدّ فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم، فيقولون: ما فعل فلان؟ فيقولون: دعوه حتى يستريح، فإنه كان في غمّ! فيقول: قد مات، أما أتاكم؟ فيقولون: ذُهب به إلى أمه الهاوية. وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسْح فيقولون: اخرجي إلى غضب الله، فتخرج كأنتن ريح جيفة، فَيُذْهَب به إلى باب الأرض»[٢].

وقد روى أيضا من طريق هَمَّام بن يحيى، عن قتادة، عن أبي الجوزاء، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه. قال: «فَيُسْأل: ما فعل فلان، ما فعل فلان؟ ما فعلت فلانة؟» قال: «وأما الكافر فإذا قُبضت نفسه، وذُهب بها إلى باب الأرض تقول خزنة الأرض: ما وجدنا ريحا أنتن من هذه. فَيُبْلَغُ بها الأرض السفلى»[٣].

قال قتادة: وحدثني رجل، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الله بن عمرو قال: أرواح المؤمنين تجمع بالجابية. وأرواح الكفار تجمع ببرهوت، سبخة بحضرموت.

وقال الحافظ أبو عيسى الترمذي، رحمه الله: حدثنا يحيى بن خلف، حدثنا بشر بن المفضل، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قبر الميت ـ أو قال: أحدكم ـ أتاه ملكان أسودان أزرقان[٤]، يقال لأحدهما: المنكر، والآخر: النكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا. ثم يُفسَح له في قبره سبعون ذراعا في سبعين. ثم ينوّر له فيه، ثم يقال له: نَمْ. فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم؟ فيقولان: نَمْ نومةَ العروس الذي لا يوقظه إلا أحَبُّ أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك. وإن كان منافقا قال: سمعت الناس يقولون فقلت مثلهم، لا أدري. فيقولان: قد كنا نعلم أنك

(١) صحيح مسلم برقم (٢٨٧٢).

(٢) صحيح ابن حبان برقم (٧٣٣) «موارد».

(٣) صحيح ابن حبان برقم (٧٣١) «موارد» ورواه الحاكم في المستدرك (١/ ٣٥١) من طريق همام به نحوه وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٤) في ت: «أزرقا».

تقول ذلك، فيقال[١] للأرض: التئمي عليه. فتلتئم عليه، فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك»[٢].

ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وقال حماد بن سلمة، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾. قال: «ذاك إذا قيل له في القبر: من ربك؟ وما دينك؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، جاءنا بالبينات من عند الله، فآمنت به وصدّقت. فيقال له: صَدَقْتَ، على هذا عشت، وعليه مت، وعليه تُبعث»[٣].

وقال ابن جرير: حدثنا مجاهد بن موسى والحسن بن محمد قالا: حدثنا يزيد، أنبأنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة[٤]: «إن الميت ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه مدبرين، فإذا كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه، والزكاة عن يمينه، والصيام عن يساره، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى من عند رأسه فتقول الصلاة: ما قِبَلي مَدْخَلٌ، فيؤتى من عن يمينه فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل. فيؤتى عن يساره فيقول الصيام: ما قبلي مدخل. فيؤتى من عند رجليه فيقول[٥] فعل الخيرات: ما قبلي مدخل. فيقال له اجلس. فيجلس، قد تَمَثّلت[٦] له الشمس، قد دنت للغروب، فيقال له أخبرنا عما[٧] نسألك. فيقول: دعوني[٨] حتى أصلي. فيقال: إنك ستفعل، فأخبرنا عما نسألك. فيقول: وعَمَّ تسألوني؟ فيقال: أرأيت هذا الرجل الذي كان فيكم، ماذا تقول فيه، وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: أمحمد؟ فيقال له: نعم. فيقول: أشهد أنه رسول الله، وأنه جاءنا[٩] بالبينات من عند الله، فصدقناه. فيقال له: على ذلك حَيِيتَ، وعلى ذلك مِتَّ، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله. ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا ويُنَوَّر له فيه، ويفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى ما أعد الله لك فيها. فيزداد غبطة [وسرورا][١٠]، ثم يجعل نسمه في النَّسم الطيب، وهي طير خضر تعلق بشجر الجنة، ويعاد الجسد إلى ما بدئ منه من التراب»، وذلك قول الله: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾[١١].

ورواه ابن حبّان، من طريق المعتمر بن سليمان، عن محمد بن عمرو، وذكر جواب الكافر

---

(١) في ت: «ويقال».

(٢) سنن الترمذي برقم (١٠٧١).

(٣) رواه الطبري في تفسيره (١٦/٥٩٦).

(٤) في ت، أ: «عن أبي هريرة قال».

(٥) في ت: «فتقول».

(٦) في ت، أ: «مثلت».

(٧) في ت: «كما».

(٨) في ت، أ: «دعني».

(٩) في ت، أ: «جاء».

(١٠) زيادة من ت، أ، والطبري.

(١١) تفسير الطبري (١٦/٥٩٦، ٥٩٧).

وعذابه[1].

وقال البزار: حدثنا سعيد بن بحر القراطيسي، حدثنا الوليد بن القاسم، حدثنا يزيد بن كَيْسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة ـ أحسبه رفعه ـ قال: «إن المؤمن ينزل به الموت، ويعاين ما يعاين، فيودّ[2] لو خرجت ـ يعني نفسُه ـ والله يحب لقاءه، وإن المؤمن يصعد بروحه إلى السماء، فتأتيه أرواح المؤمنين، فتستخبره[3] عن معارفهم من أهل الأرض، فإذا قال: تركت فلانا في الأرض[4]، أعجبهم ذلك. وإذا قال: إن فلانا قد مات، قالوا: ما جيء به إلينا. وإن المؤمن يجلس في قبره، فيسأل: من ربك؟ فيقول: ربي الله[5]. ويسأل: من نبيك؟ فيقول: محمد نبيي[6]. فيقال: ماذا دينك؟ قال: ديني الإسلام. فيفتح له باب في قبره، فيقول ـ أو: يقال ـ انظر إلى مجلسك. ثم يرى القبر فكأنما كانت رَقْدَة. وإذا كان عَدُو الله نزل به الموت وعاين ما عاين، فإنه لا يحب أن تخرج روحه أبداً، والله يبغض لقاءه، فإذا جلس في قبره ـ أو: أجلس ـ يقال له: من ربك؟ فيقول: لا أدري. فيقال: لا دَرَيت. فيفتح له باب من جهنم، ثم يضرب[7] ضربة يسمعها[8] كل دابة إلا الثقلين، ثم يقال له: نم كما ينام المنهوش». قلت لأبي هريرة: ما المنهوش؟ قال: الذي تنهشه الدواب والحيات، ثم يضيق عليه قبره.

ثم قال: لا نعلم رواه إلا الوليد بن القاسم[9].

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا حُجَين بن المثنى، حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشُون، عن محمد بن المنْكَدِر قال: كانت أسماء ـ يعني بنت الصديق ـ رضي الله عنها، تحدث عن النبي ﷺ قالت: قال: «إذا دخل الإنسان قبره، فإن كان مؤمنا أحَفّ به عملُه: الصلاةُ والصيام»، قال: «فيأتيه الملك من نحو الصلاة فترده، ومن نحو الصيام فيرده»، قال: «فيناديه: اجلس. فيجلس. فيقول له: ماذا تقول في هذا الرجل؟ يعني النبي ﷺ، قال: من؟ قال: محمد. قال أشهد أنه رسول الله، قال: يقول: وما يدريك؟ أدركته؟ قال: أشهد أنه رسول الله. قال: يقول: على ذلك عشتَ، وعليه متّ، وعليه تبعثُ. وإن[10] كان فاجراً أو كافراً، جاءه الملك ليس بينه وبينه شيء يَرُدّه، فأجلسه يقول: اجلس، ماذا تقول في هذا الرجل؟ قال: أيّ رجل؟ قال: محمد؟ قال: يقول: والله ما أدري، سمعت الناس يقولون شيئا فقلته. قال له الملك: على ذلك عشتَ، وعليه متّ، وعليه

---

(١) صحيح ابن حبان برقم (٧٨١) «موارد».

(٢) في ت: «فود». (٣) في ت: «فيستخبرونه». (٤) في أ: «في الدنيا».

(٥) في ت: «الله ربي». (٦) في ت، أ: «نبيي محمد». (٧) في ت، أ: «فيضربه».

(٨) في ت، أ: «يسمع».

(٩) مسند البزار برقم (٨٧٤) «كشف الأستار» وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٥٢): «في الصحيح طرف منه رواه البزار ورجاله ثقات خلا سعيد بن بحر القراطيسي فإني لم أعرفه».

(١٠) في ت: «قال: وإن».

تبعثُ. قال: وتسلَّط عليه دابة في قبره، معها سوط تَمْرَتُه[١] جَمرةٌ مثل غَرْب[٢] البعير، تضربه ما شاء الله، صماء لا تسمع صوتَه فترحَمه»[٣].

وقال العوفي، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، في هذه الآية قال: إن المؤمن إذا حضَره الموت شهدته الملائكة، فسلموا عليه وبشروه بالجنة، فإذا مات مَشَوا مع جنازته، ثم صلُّوا عليه مع الناس، فإذا دفن أجلس في قبره فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقال له: من رسولك؟ فيقول: محمد ﷺ. فيقال له: ما شهادتك؟ فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. فيوسَّع له في قبره مد بَصَره. وأما الكافر فتنزل عليه الملائكة، فيبسطون أيديهم ـ «والبسط»: هو الضرب ـ يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت. فإذا أدخل قبره أقعد، فقيل له: من ربك؟ فلم يَرْجع إليهم شيئا، وأنساه الله ذكر ذلك. وإذا قيل: من الرسول الذي بُعثَ إليكم؟ لم يهتد له، ولم يرجع إليه شيئاً، كذلك يضل الله الظالمين.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم الأودي، حدثنا شريح بن مسلمة حدثنا إبراهيم بن يوسف، عن أبيه، عن أبي إسحاق، عن عامر بن سعد البجلي، عن أبي قتادة الأنصاري في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ الآية، قال: إن المؤمن إذا مات أجلس في قبره، فيقال[٤] له: من ربك؟ فيقول: الله. فيقال له: من نبيك؟ فيقول: محمد بن عبد الله. فيقال له في ذلك مرات. ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظر إلى منزلك في النار لو زُغت[٥]. ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى منزلك [من الجنة إذا ثبت. وإذا مات الكافر أجلس في قبره، فيقال له: من ربك؟ من نبيك؟ فيقول: لا أدري، كنت أسمع الناس يقولون. فيقال له: لا دريت. ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى منزلك][٦] لو ثبت، ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظر إلى منزلك إذ زغت[٧]، فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن ابن طاووس، عن أبيه: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: لا إله إلا الله، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾: المسألة في القبر[٨].

وقال قتادة: أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ في القبر. وكذا روى عن غير واحد من السلف.

وقال أبو عبد الله الحكيم الترمذي في كتابه «نوادر الأصول»: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن

---

(١) في ت، أ: «ثمرته». (٢) في ت، أ: «عرف».

(٣) المسند (٦/ ٣٥٢).

(٤) في ت: «يقال». (٥) في ت: «لو زغت». (٦) زيادة من ت، أ.

(٧) في ت، أ: «إذ زغت».

(٨) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٩٦).

نافع، عن ابن أبي فُدَيْك، عن عبد الرحمن بن عبد الله[١]، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الرحمن ابن سَمُرَة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم، ونحن في مسجد المدينة، فقال: «إني رأيت البارحة عجباً، رأيت رجلا من أمتي [جاءه ملك الموت ليقبض روحه، فجاءه بِرُّه بوالديه[٢] فرد عنه. ورأيت رجلا من أمتي][٣] قد بسط عليه عذاب القبر، فجاءه وُضوءه فاستنقذه من ذلك. ورأيت رجلا من أمتي [قد][٤] احتوشته الشياطين، فجاءه ذكر الله فخلصه من بينهم. ورأيت رجلا من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب، فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم. ورأيت رجلا من أمتي يلهث عطشا، كلما ورد حوضا مُنِع منه، فجاءه صيامه فسقاه وأرواه. ورأيت رجلا من أمتي والنبيون قعود حلَقا حلَقا، وكلما دنا لحقة طردوه، فجاءه اغتساله من الجنابة، فأخذ بيده فأقعده إلى جنبي. ورأيت رجلا من أمتي [من][٥] بين يديه ظلمة، ومن خلفه ظلمة، وعن يمينه ظلمة، وعن شماله ظلمة، ومن فوقه ظلمة، ومن تحته ظلمة، فهو متحير فيها، فجاءته حجته وعمرته، فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه النور، ورأيت رجلا من أمتي يكلم المؤمنين فلا يكلمونه، فجاءته صلَة الرحم، فقالت: يا معشر المؤمنين، كلموه، فكلموه. ورأيت رجلا من أمتي يتقي وهَجَ النَّار أو شَرَرها بيده عن وجهه، فجاءته صدقته فصارت سترا على وجهه وظلاً على رأسه. ورأيت رجلا من أمتي قد أخذته الزبانية من كل مكان، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فاستنقذاه من أيديهم، وأدخلاه مع ملائكة الرحمة. ورأيت رجلا من أمتي جاثيا على ركبتيه، بينه وبين الله حجاب، فجاءه حسن خُلُقه، فأخذ بيده فأدخله على الله، عز وجل. ورأيت رجلا من أمتي قد هَوت صحيفته من قبل شماله، فجاءه خوفه من الله فأخذ صحيفته، فجعلها في يمينه. [ورأيت رجلا من أمتي قد خف ميزانه، فجاءته أفراطه فثقلوا ميزانه][٦] ورأيت رجلا من أمتي قائما على شفير جهنم، فجاءه وجَلَه من الله، فاستنقذه من ذلك ومضى. ورأيت رجلا من أمتي هوى في النار، فجاءته دموعه التي بكى من خشية الله في الدنيا فاستخرجته من النار، [ورأيت رجلا من أمتي قائما على الصراط يُرعَد كما ترعد السَّعَفَة، فجاء حسن ظنه بالله، فسكَّن رِعدَته، ومضى][٧]. ورأيت رجلا من أمتي على الصراط يزحف أحيانا ويحبو أحيانا، فجاءته صلاته عليَّ، فأخذت بيده فأقامته ومضى على الصراط. ورأيت رجلا من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة، فغلقت الأبواب دونه، فجاءته شهادة: أن لا إله إلا الله، ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة»[٨].

قال القرطبي بعد إيراده هذا الحديث من هذا الوجه: هذا حديث عظيم، ذكرَ فيه أعمالا خاصة تنجي من أهوال خاصة. أورده هكذا في كتابه «التذكرة»[٩].

---

(١) في التذكرة: «عبد الرحمن بن أبي عبد الله». (٢) في ت: «بوالدته». (٣ ـ ٧) زيادة من ت، أ، والتذكرة.

(٨) ذكره الزبيدي في الإتحاف وعزاه للحكيم في النوادر وضعفه، ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق برقم (٤٩) من طريق سعيد بن عبد الله، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الرحمن بن سمرة مرفوعاً بأخصر منه، وذكر أن ابن تيمية كان يعظم شأن هذا الحديث ويقول: «شواهد الصحة عليه».

(٩) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة (ص ٢٤٠ ـ ٢٤٢).

وقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلي في هذا حديثا غريبا مطولا فقال: حدثنا أبو عبد الله[١] أحمد بن إبراهيم النُّكْرِي، حدثنا محمد بن بكر البرساني أبو عثمان، حدثنا أبو عاصم الحبطي ـ وكان من خيار أهل البصرة، وكان من أصحاب حزم، وسلام بن أبي مطيع ـ حدثنا بكر بن خُنَيس، عن ضرار بن عمرو، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك، عن تميم الداري، عن النبي ﷺ قال: «يقول الله، عز وجل، لملك الموت: انطلق إلى وليي فائتني به، فإني قد ضربته بالسراء والضراء، فوجدته حيث أحب. ائتني به فَلأُرِيحَنَّه[٢]».

فينطلق إليه ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة، معهم أكفان وحُنُوط من الجنة، ومعهم ضبائر الرَّيحان، أصل الريحانة واحد وفي رأسها عشرون لونا، لكل لون منها ريح سوى ريح صاحبه، ومعهم الحرير الأبيض فيه المسك الأذفر. فيجلس[٣] ملك الموت عند رأسه، وتحف به الملائكة. ويضع كل مَلَك منهم يده على عضو من أعضائه ويُبسط ذلك الحرير الأبيض والمسك الأذفر تحت ذقنه، ويُفتَح له بابٌ إلى الجنة، فإن نفسه لتُعلَّلُ عند ذلك بطرف الجنة تارة، وبأزواجها[٤] [مرة][٥] ومرَّةً بكسْواتها ومرَّةً بثمارها، كما يُعلِّل الصبي أهله إذا بكى». قال: «وإن أزواجه ليبتهشن عند ذلك ابتهاشا».

قال: «وتنزو الروح». قال البُرْسَاني: يريد أن تخرج من العَجَل إلى ما تحب. قال: «ويقول مَلَك الموت: اخرجي يا أيتها الروح الطيبة، إلى سدر مخضود، وطلح منضود، وظل ممدود، وماء مسكوب». قال: «ولَمَلَك الموت أشدّ به لطفًا من الوالدة بولدها، يعرف أن ذلك الروح حبيب لربه، فهو يلتمس بلطفه تحببا لديه رضاء للرب عنه، فتُسَلُّ روحه كما تسل الشعرة من العجين». قال: «وقال الله، عز وجل: ﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين﴾» [النحل: ٣٢]» وقال: «﴿فأما إن كان من المقربين. فروحٌ وريحانٌ وجنةُ نعيم﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩]. قال: «روح من جهة الموت، وريحان يتلقى به، وجنة نعيم تقابله».

قال: «فإذا قبض ملك الموت روحه، قال الروح للجسد: جزاك الله عني خيرا، فقد كنت سريعا بي إلى طاعة الله، بطيئا بي عن معصية الله، فقد نجيت وأنجيت». قال: «ويقول الجسد للروح مثل ذلك».

قال: «وتبكي[٦] عليه بقاع الأرض التي كان يطيع الله فيها، وكل باب من السماء يصعد منه عمله، وينزل منه رزقه أربعين ليلة».

قال: «فإذا قبض ملك الموت روحه، أقامت الخمسمائة من الملائكة عند جسده، فلا يقلبه[٧] بنوآدم لشق إلا قلبته الملائكة قبلهم، وغسلته وكفنته بأكفان قبل أكفان بني آدم، وحنوط قبل حنوط

(١) في أ: «أبو عبد الرحمن». (٢) في ت، أ: «فلأريحه». (٣) في أ: «قال: فيجلس».
(٤) في ت، أ: «مرة بأزواجها». (٥) زيادة من ت، أ. (٦) في ت: «ويبكي».
(٧) في ت، أ: «فلا تقلبه».

بني آدم، ويقوم من بين باب بيته إلى باب قبره صفّان من الملائكة، يستقبلونه بالاستغفار، فيصيح عند ذلك إبليس صيحة تتصدع[١] منها عظام[٢] جسده». قال: «ويقول لجنوده: الويل لكم. كيف خلّص هذا العبد منكم، فيقولون إن هذا كان عبدا معصوما».

قال: «فإذا صعد ملك الموت بروحه، يستقبله جبريل في سبعين ألفاً من الملائكة، كلّ يأتيه ببشارة من ربه سوى بشارة صاحبه». قال: «فإذا انتهى ملك الموت بروحه إلى العرش، خرّ الروح ساجدا». قال: «يقول الله، عز وجل، لملك الموت: انطلق بروح عبدي فضعه في سدر مخضود، وطلح منضود، وظل ممدود، وماء مسكوب».

قال: «فإذا وضع في قبره، جاءته الصلاة فكانت عن يمينه، وجاءه الصيام فكان عن يساره، وجاءه القرآن فكان عند رأسه، وجاءه مشيه إلى الصلاة فكان عند رجليه، وجاءه الصبر فكان ناحية القبر». قال: «فيبعث الله، عز وجل، عُنُقاً من العذاب». قال: «فيأتيه عن يمينه» قال: «فتقول الصلاة: وراءك والله ما زال دائبا عمره كله وإنما استراح الآن حين وضع في قبره». قال: «فيأتيه عن يساره، فيقول الصيام مثل ذلك». قال: «ثم يأتيه من عند رأسه، فيقول القرآن والذكر مثل ذلك». قال: «ثم يأتيه من عند رجليه، فيقول مشيه إلى الصلاة مثل ذلك. فلا يأتيه العذاب من ناحية يلتمس هل يجد مساغاً إلا وجد ولي الله قد أخذ جنته». قال: «فينقمع العذاب عند ذلك فيخرج». قال: «ويقول الصبر لسائر الأعمال: أما إنه لم يمنعني أن أباشر أنا بنفسي إلا أني نظرت ما عندكم، فإن عجزتم كنت أنا صاحبه، فأما إذ أجزأتم عنه فأنا له ذخر عند الصراط والميزان».

قال: «ويبعث الله ملكين أبصارهما كالبرق الخاطف، وأصواتهما كالرعد القاصف، وأنيابهما كالصياصي، وأنفاسهما كاللهب، يطآن في أشعارهما، بين منكب كل واحد مسيرة كذا وكذا، وقد نزعت منهما الرأفة والرحمة، يقال لهما: منكر ونكير، في يد كل واحد منهما مطرقة، لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم يُقلّوها». قال: «فيقولان له: اجلس». قال: «فيجلس فيستوي جالسا». قال: «وتقع أكفانه في حَقْويه». قال: «فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟».

قال: قالوا: يا رسول الله، ومن يطيق الكلام عند ذلك، وأنت تصف من الملكين ما تصف؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ**﴾».

قال: «فيقول: ربي الله وحده لا شريك له، وديني الإسلام الذي دانت به الملائكة، ونبيي محمد خاتم النبيين». قال: «فيقولان: صدقت». قال: «فيدفعان القبر، فيوسعان من بين يديه أربعين ذراعا، وعن يمينه أربعين ذراعا، وعن شماله[٣] أربعين ذراعا، ومن خلفه أربعين ذراعا، ومن عند رأسه

---

(١) في ت، أ: «يتصدع». (٢) في أ: «بعض عظام».

(٣) في أ: «وعن يساره».

أربعين ذراعا، ومن عند رجليه أربعين ذراعا». قال: «فيوسعان له مائتي ذراع».

قال البرساني: فأحسبه: وأربعين ذراعا تحاط به[١].

قال: «ثم يقولان له: انظر فوقك، فإذا باب مفتوح إلى الجنة». قال: «فيقولان له: ولىُّ الله، هذا منزلك إذ أطعت الله». فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفس محمد بيده[٢]، إنه يصل إلى قلبه عند ذلك فرحة، ولا ترتد أبداً، ثم يقال له: انظر تحتك». قال: «فينظر تحته فإذا باب مفتوح إلى النار قال: «فيقولان: ولى الله نجوت آخر ما عليك». قال: فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك فرحة لا ترتد أبدا». قال: فقالت عائشة: يفتح له سبعة وسبعون باباً إلى الجنة، يأتيه ريحها وبردها، حتى يبعثه الله، عز وجل.

وبالإسناد المتقدم إلى النبى ﷺ قال: «ويقول الله تعالى لملك[٣] الموت: انطلق إلى عدوى فأتنى به، فإنى قد بسطت له رزقى، ويَسَّرت له نعمتى، فأبى إلا معصيتى، فأتنى به لأنتقم منه».

قال: «فينطلق إليه ملك الموت فى أكره صورة ما رآها أحد من الناس قَطّ، له اثنتا عشرة[٤] عينا، ومعه سَفّود من النار كثير الشوك، ومعه خمسمائة من الملائكة، معهم نحاس وجَمْر من جمر جهنم، ومعهم سياط من نار، لينها لين السياط وهى نار تأجج». قال: «فيضربه ملك الموت بذلك السفود ضربة يغيبُ كل أصل شوكة من ذلك السفّود فى أصل كلّ شعرة وعرق وظفر». قال: «ثم يلويه ليا شديدا». قال: «فينزع روحه من أظفار قدميه». قال: «فيلقيها» فى عقبيه[٥] ثم يسكر[٦] عند ذلك عدو الله[٧] سكرة، فيرفّه ملك الموت عنه». قال: «وتضرب[٨] الملائكة وجهه ودُبُره بتلك السياط». [قال: «فيشده ملك الموت شدة، فينزع روحه من عقبيه، فيلقيها فى ركبتيه، ثم يسكر عدو الله عند ذلك سكرة، فيرفه ملك الموت عنه». قال: «فتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط»][٩]. قال: «ثم ينتره[١٠] ملك الموت نَترة، فينزع روحه من ركبتيه فيلقيها فى حقويه». قال: «فيسكر عدو الله عند ذلك سكرة، فيرفه ملك الموت عنه». قال: «وتضرب الملائكة[١١] وجهه ودبره بتلك السياط». قال: «كذلك إلى صدره، ثم كذلك إلى حلقه». قال: «ثم تبسط الملائكة ذلك النحاس وجمر جهنم تحت ذقنه». قال: «ويقول ملك الموت: اخرجى أيتها الروح اللعينة الملعونة إلى سَمُوم وحميم، وظل من يحموم، لا بارد ولا كريم».

قال: «فإذا قبض ملك الموت روحه قال الروح للجسد: جزاك الله عنى شرا، فقد كنت سريعا بى

---

(١) فى أ: «محاط».
(٢) فى أ: «والذى نفسى بيده».
(٣) فى أ: «إلى ملك».
(٤) فى أ: «اثنى عشر».
(٥) فى هـ: «ركبتيه» والمثبت من ت، أ
(٦) فى أ: «قال: فيسكر».
(٧) فى ت: «قال فيسكر عدو الله عند ذلك».
(٨) فى ت: «ويضرب».
(٩) زيادة من ت، أ.
(١٠) فى ت، أ: «فينتره».
(١١) فى ت: «فيضرب»، وفى أ: «فتضرب».

إلى معصية الله، بطيئا بي عن طاعة الله، فقد هلكت وأهلكت» قال: «ويقول الجسد للروح مثل ذلك، وتلعنه بقاع الأرض التي كان يعصى الله عليها، وتنطلق جنود إبليس إليه فيبشرونه بأنهم قد أوردوا عبدا من ولد آدم النار».

قال: فإذا وضع في قبره ضُيِّق عليه قبره حتى تختلف[1] أضلاعه، حتى تدخل اليمنى في اليسرى، واليسرى في اليمنى» قال: «ويبعث الله إليه أفاعي دُهماً كأعناق الإبل يأخذن[2] بأرنبته وإبهامي قدميه فيقرضنه حتى يلتقين في وسطه».

قال: «ويبعث الله ملكين أبصارهما[3] كالبرق الخاطف، وأصواتهما كالرعد القاصف، وأنيابهما كالصياصي، وأنفاسهما كاللهب[4]، يطآن في أشعارهما، بين منكبي كل واحد منهما مسيرة كذا وكذا، قد نزعت منهما الرأفة والرحمة يقال لهما: منكر ونكير، في يد كل واحد منهما مطرقة، لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم يقلوها» قال: «فيقولان له: اجلس». قال: «فيستوي جالسا» قال: «وتقع أكفانه في حقويه» قال: «فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: لا أدري. فيقولان: لا دريت ولاتَلَيْتَ». [قال][5] «فيضربانه ضربة يتطاير شررها في قبره، ثم يعودان». قال: «فيقولان: انظر فوقك. فينظر، فإذا باب مفتوح من الجنة، فيقولان: هذا ـ عدوَّ الله[6] ـ منزلك لو أطعت الله».

قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتد أبدا».

قال: «ويقولان له: انظر تحتك فينظر تحته، فإذا باب مفتوح إلى النار، فيقولان: عدو الله، هذا منزلك إذ عصيت الله».

قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتد أبدا».

قال: وقالت عائشة: ويفتح له سبعة وسبعون بابا إلى النار، يأتيه [من][7] حرها وسمومها حتى يبعثه الله إليها[8].

هذا حديث غريب جداً، وسياق عجيب، ويزيد الرقاشي ـ راويه عن أنس ـ له غرائب ومنكرات، وهو ضعيف الرواية عند الأئمة، والله أعلم.

ولهذا قال أبو داود: حدثنا إبراهيم بن موسى الرازي، حدثنا هشام ـ هو ابن يوسف ـ عن عبد الله ابن بَحير، عن هانئ مولى عثمان، عن عثمان، رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم، واسألوا له بالتثبيت، فإنه الآن يسأل»، انفرد به أبو

(١) في ت: «يختلف». (٢) في أ: «يأخذونه». (٣) في أ: «أبصارهما وصف».
(٤) في ت: «كاللهب». (٥) زيادة من ت، أ. (٦) في ت، أ: «عدو الله هذا».
(٧) زيادة من أ.
(٨) أورده ابن حجر في المطالب العالية (٤/ ٣٨٢) وعزاه لأبي يعلى قال: «هذا حديث عجيب السياق، وهو شاهد لكثير مما ثبت في حديث البراء الطويل المشهور، ولكن إسناده غريب وفيه ضعف».

داود[١].

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ الآية [الأنعام: ٩٣] حديثا مطولا جداً، من طريق غريب، عن الضحاك، عن ابن عباس مرفوعا، وفيه غرائب أيضا[٢].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)﴾[٣].

قال البخاري: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾: ألم تعلم؟ كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا﴾[البقرة: ٢٤٣]، البوار: الهلاك، بار يبور بَوراً، و ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨، الفتح: ١٢]: هالكين.

حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عطاء سمع ابن عباس: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ قال: هم كفار أهل مكة[٤].

وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: هو جبلة بن الأيهم، والذين اتبعوه من العرب، فلحقوا بالروم. والمشهور الصحيح عن ابن عباس هو القول الأول، وإن كان المعنى يعم جميع الكفار؛ فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين، ونعمة للناس، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردّها وكفرها دخل النار.

وقد روى عن علي نحو قول ابن عباس الأول، قال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا شعبة، عن القاسم بن أبي بزة، عن أبي الطفيل: أن ابن الكواء سأل عليا عن ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ قال: كفار قريش يوم بدر.

حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا بسام ـ هو الصيرفي[٥] ـ عن أبي الطفيل قال: جاء رجل إلى علي فقال: يا أمير المؤمنين، من الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار

(١) سنن أبي داود برقم (٤٢٢١).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/٣٦٨) وقال: «أخرج ابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس فذكره».

(٣) تنبيه: من هذه الآية يبتدئ الاعتماد في تخريج الأحاديث والآثار في تفسير الطبري على الطبعة المصورة عن المطبعة الأميرية بعد أن كان الاعتماد على الطبعة التي حققها الفاضلان الشيخ أحمد شاكر والأستاذ محمود شاكر في ستة عشر مجلداً وطبعت في دار المعارف، والله أسأل أن يقيض لهذا الكتاب من يكمل تحقيقه فهو من أعظم كتب التفسير وأجلها. والله المستعان.

(٤) صحيح البخاري برقم (٤٧٠٠).

(٥) في ت: «الصرفي».

البوار؟ قال: منافقو قريش.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نفيل قال: قرأت على مَعْقِل، عن ابن أبي حسين [١] قال: قام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فقال: ألا أحد يسألني عن القرآن، فوالله لو أعلم اليوم أحداً أعلم مني به [٢] وإن كان من وراء البحار لأتيته. فقام عبد الله بن الكواء [٣] فقال: من الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار؟ فقال: مشركو قريش، أتتهم نعمة [٤] الله: الإيمان، فبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار.

وقال العدوي في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ الآية، ذكر مسلم المستوفي [٥] عن علي أنه قال: هما الأفجران من قريش: بنو أمية، وبنو المغيرة، فأما بنو المغيرة فأحلوا قومهم دار البوار يوم بدر، وأما بنو أمية فأحلوا قومهم دار البوار يوم أحد. وكان أبو جهل يوم بدر، وأبو سفيان يوم أحد. وأما دار البوار فهي جهنم.

وقال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا الحارث بن منصور، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن مرة قال: سمعت علياً قرأ هذه الآية: ﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ قال: هما الأفجران من قريش: بنو أمية وبنو المغيرة، فأما بنو المغيرة فأهلكوا يوم بدر، وأما بنو أمية فمتّعوا إلى حين.

ورواه أبو إسحاق، عن عمرو بن مرة، عن علي، نحوه، وروي من غير وجه عنه.

وقال سفيان الثوري، عن علي بن زيد، عن يوسف بن سعد، عن عمر بن الخطاب، في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ قال: هما الأفجران من قريش: بنو المغيرة وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فكُفيتموهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين.

وكذا رواه حمزة الزيات، عن عمرو بن مرة قال: قال ابن عباس لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، هذه الآية: ﴿ الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾، قال: هم الأفجران من قريش: أخوالي وأعمامك فأما أخوالي فاستأصلهم الله يوم بدر، وأما أعمامك فأملى الله لهم إلى حين.

وقال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة بن زيد [٦]: هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر وكذا رواه مالك في تفسيره عن نافع، عن ابن عمر.

وقوله: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ ﴾ أي: جعلوا له [٧]. شركاء عبدوهم معه، ودَعَوا الناس إلى ذلك.

ثم قال تعالى مَهدِّداً لهم [٨] ومتوعداً لهم على لسان نبيه ﷺ: ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾

---

(١) في ت، أ: «حنين».
(٢) في ت، أ: «به مني».
(٣) في ت: «الكراء».
(٤) في ت، أ: «نعم».
(٥) في أ: «المسوف».
(٦) في ت: «وقتادة وابن زيد».
(٧) في ت: «جعلوا لله».
(٨) في ت: «له».

أي: مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا، فمهما يكن من شيء ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أي: مرجعكم وموئلكم إليها، كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٧٠].

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١)﴾.

يقول تعالى آمراً العباد [(١)] بطاعته والقيام بحقه، والإحسان إلى خلقه، بأن يقيموا الصلاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات، والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب.

والمراد بإقامتها هو: المحافظة على وقتها وحدودها، وركوعها وخشوعها وسجودها.

وأمر تعالى بالإنفاق مما رزق في السر، أي: في الخفية، والعلانية وهي: الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ وهو يوم القيامة، وهو يوم ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ أي: لا يقبل من أحد فدية بأن تباع [(٢)] نفسه، كما قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحديد: ١٥].

وقوله: ﴿وَلَا خِلَالٌ﴾: قال ابن جرير: يقول: ليس هناك مُخَالَّة [(٣)] خليل، فيصفح [(٤)] عمن استوجب العقوبة، عن العقاب لمُخَالَّته، بل هنالك العدل والقسط، فالخلال مصدر، من قول القائل: «خاللت فلانا، فأنا أخاله مُخَالَّة وخلالا»، ومنه قول امرىء القيس:

صَرَفْتُ الهَوَى عَنْهُنَّ من خَشْيَةِ الرَّدَى ... وَلَسْتُ بِمَقْلِيِّ الخلال ولا قال[(٥)].

وقال قتادة: إن الله قد علم أن في الدنيا بيوعا وخلالا يتخالون بها في الدنيا، فينظر رجل من يخالل وعلام صاحب، فإن كان لله فليداوم، وإن كان لغير الله فسيقطع عنه.

قلت: والمراد من هذا أنه يخبر تعالى أنه لا ينفع أحدا بيع ولا فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهبا لو وجده، ولا ينفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذ لقي الله كافراً، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

---

(١) في ت، أ: «العباد». (٢) في ت: «يباع». (٣) في ت: «مخالطة».

(٤) في ت: «فصفح».

(٥) البيت في تفسير الطبري (١٣/ ١٤٩).

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾.

يعدد تعالى نعمه على خلقه، بأن خلق لهم السموات سقفا محفوظا[1]، والأرض فراشا، وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجا من نبات شتى، ما بين ثمار وزروع، مختلفة الألوان والأشكال، والطعوم والروائح والمنافع، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر، تجري عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر يحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر، لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هاهنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر، رزقا للعباد من شرب وسقي وغير ذلك من أنواع المنافع.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾ أي: يسيران لا يقران[2] ليلا ولا نهارا، ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠]، ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار عارضان[3]، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر، ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى «وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ»[4] ﴾ [لقمان: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر: ٥].

وقوله: ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾: يقول: هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم[5] وقالكم.

وقال بعض السلف: من كل ما سألتموه وما لم تسألوه.

وقرأ بعضهم: «وَآتَاكُم مِّن كُلٍّ مَا سَأَلْتُمُوهُ».

وقوله: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾: يخبر عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلا عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب، رحمه الله: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر[6] من أن يحصيها[7] العباد، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين.

---

(١) في أ: «مرفوعا». (٢) في أ: «لا يفترون». (٣) في ت، أ: «يتعارضان».
(٤) في هـ، ت، أ: «ألا وهو العزيز الغفار» والصواب ما أثبتناه (٥) في ت، أ: «حالكم».
(٦) في أ: «أكبر». (٧) في ت، أ: «تحصيها».

وفي صحيح البخاري: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم، لك الحمد غير مكفيّ ولا مودَع، ولا مستغنى عنه ربَّنا»[١].

وقال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث، حدثنا داود بن المحبَّر، حدثنا صالح المريّ عن جعفر بن زيد العَبْدي، عن أنس، عن النبي ﷺ أنه قال: «يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة[٢] دواوين، ديوان، فيه العمل الصالح، وديوان فيه ذنوبه، وديوان فيه النعم من الله تعالى عليه، فيقول الله لأصغر[٣] نعَمه ـ أحسبه. قال: في ديوان النعم: خذي ثمنك من عمله الصالح، فتستوعب عمله الصالح كله، ثم تَنَحَّى وتقول: وعزتك ما استوفيت. وتبقى الذنوب والنعم[٤] فإذا أراد الله أن يرحم قال: يا عبدي، قد ضاعفتُ لك حسناتك وتجاوزت عن سيئاتك ـ أحسبه قال: ووهبت لك نعَمي»[٥]. غريب، وسنده ضعيف.

وقد رُوي في الأثر: أن داود، عليه السلام، قال: يارب، كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك علي؟ فقال الله تعالى: الآن شكرتني يا داود، أي: حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر النعم.

وقال الشافعي، رحمه الله: الحمد لله الذي لا يؤدي شكر نعمة من نعمه، إلا بنعمة[٦] تُوجِب على مُؤدي ماضي نعَمه بأدائها، نعمة حادثةً توجب عليه شكره بها[٧].

وقال القائل في ذلك:

لو كـل جارحـة مـنى لهـا لُـغَـةٌ ... تُثني عليكَ بما أوليتَ مِنْ حَسَنِ

لكـانَ ما زادَ شُكـري إذ شكَرتُ بـه ... إليكَ أبلـغَ في الإحسانِ والمـنَنِ

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.

يذكر تعالى في هذا المقام محتجاً على مشركي العرب، بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسببه، آهلة تبرأ ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾. وقد استجاب الله له، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ

---

(١) صحيح البخاري برقم (٥٤٥٨) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

(٢) في أ: «ثلاث» وهو خطأ. (٣) في ت، أ: «لأصغرهم».

(٤) في ت، أ: «والنعم والعمل الصالح فيسترعب عمله الصالح كله».

(٥) مسند البزار برقم (٣٤٤٤) «كشف الأستار» وفيه داود بن المحبر وصالح المري وهما ضعيفان.

(٦) في هـ، ت، أ: «بنعمة حادثة» والمثبت من الرسالة.

(٧) الرسالة للشافعي (ص٧، ٨).

أوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي[1] بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، وقال في هذه القصة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾، فعرفه كأنه دعا به بعد بنائها؛ ولهذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة، فإنه دعا أيضا فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]، كما ذكرناه هنالك في سورة البقرة مستقصى مطولا.

وقال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾، ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته.

ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس وأنه بريء ممن عبدها، ورد أمرهم[2] إلى الله، إن شاء عذبهم[3]، وإن شاء غفر لهم[4]، كما قال عيسى، عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، وليس في هذا أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى، لا تجويز[5] وقوع ذلك.

قال عبد الله بن وهب: حدثنا عمرو بن الحارث، أن بكر بن سَوَادة حدثه، عن عبد الرحمن بن جبير[6] عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقول[7] عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ورفع يديه، [ثم][8] قال: «اللهم أمتي، اللهم أمتي، اللهم أمتي»، وبكى فقال الله: [يا جبريل][9] اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ وسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل، عليه السلام، فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ ما قال، [قال][10] فقال الله: اذهب إلى محمد، فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك[11].

﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)﴾.

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه، تأكيداً ورغبة إلى الله، عز وجل؛ ولهذا قال: ﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾.

وقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾: قال ابن جرير: هو متعلق بقوله: ﴿الْمُحَرَّمِ﴾ أي: إنما جعلته محرما ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده.

---

(١) في أ: «للتي» وهو خطأ. (٢) في أ: «أمره». (٣) في أ: «عذبه».
(٤) في أ: «له». (٥) في ت: «لا تجويز». (٦) في أ: «ابن جرير».
(٧) في ت، أ: «وقال». (٨، ٩) زيادة من ت، أ. (١٠) زيادة من ت.
(١١) رواه الطبري في تفسيره (١٣/ ١٥١).

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير: لو قال: «أفئدة الناس» لازدحم عليه فارس والروم واليهود [١] والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: ﴿مِّنَ النَّاسِ﴾ فاختص به المسلمون.

وقوله: ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: ليكون ذلك عونا لهم على طاعتك وكما أنه ﴿وَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ فاجعل لهم ثماراً يأكلونها. وقد استجاب الله ذلك، كما قال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص:٥٧]، وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته: أنه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة، وهي تجبى إليها ثمرات ما حولها، استجابة لخليله إبراهيم، عليه الصلاة والسلام.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)﴾.

قال ابن جرير: يقول تعالى مخبرا عن إبراهيم خليله أنه قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ أي: أنت تعلم قصدي في دعائي وما أردت بدعائي لأهل هذا البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها، ولايخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء.

ثم حمد ربه، عز وجل، على ما رزقه من الولد بعد الكبر، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾، أي: إنه ليستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لي فيما سألته [٢] من الولد.

ثم قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ أي: محافظا عليها مقيما لحدودها ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي: واجعلهم كذلك مقيمين [٣] الصلاة ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ أي: فيما سألتك فيه كله.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾: وقرأ بعضهم: «ولوالدي»، على الإفراد وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه [٤] لما تبين له عداوته [٥] لله، عز وجل، ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: كلهم ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أي: يوم تحاسب عبادك فتجزيهم [٦] بأعمالهم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، [والله أعلم][٧].

---

(١) في ت: «واليهود والروم».
(٢) في ت: «فيما سألت».
(٣) في ت: «مقيمي».
(٤) في ت: «ابنه».
(٥) في ت: «أنه عدو».
(٦) في ت: «فيجزيهم».
(٧) زيادة من أ.

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾.

يقول [تعالى شأنه][1]: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ ﴾ يامحمد ﴿ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي: لا تحسبه إذ[2] أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم، لا يعاقبهم على صنعهم[3]، بل هو يحصي ذلك عليهم ويعدّه عداً، أي: ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴾ أي: من شدة الأهوال يوم القيامة.

ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم ومجيئهم إلى قيام المحشر فقال: ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أي: مسرعين، كما قال تعالى: ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ [يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ][4] ﴾ [القمر: ٨]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه: ١٠٨ ـ ١١١]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج: ٤٣].

وقوله: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد وغير واحد: رافعي رؤوسهم.

﴿ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾أي: [بل] [5] أبصارهم طائرة شاخصة، يديمون النظر لا يطرفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة[6]، لما يحل بهم، عياذاً بالله العظيم من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ أي: وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة [الفزع و] [7] الوجل والخوف. ولهذا قال قتادة وجماعة: إن أمكنة أفئدتهم خالية لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف. وقال بعضهم: ﴿ هَوَاءٌ ﴾: خراب لاتعي [8] شيئا.

ولشدة ما أخبر الله تعالى [به][9] عنهم، قال لرسوله: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾.

﴿ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾.

---

(١) زيادة من أ.
(٢) في ت: «إذا».
(٣) في ت، أ: «صنيعهم».
(٤) زيادة من ت، أ، وفي هـ: «الآية».
(٥) زيادة من أ.
(٦) في ت: «والمخافة والفكرة».
(٧) زيادة من ت، أ.
(٨) في أ: «لاتعي».
(٩) زيادة من ت.

يقول تعالى مخبراً عن قيل الذين ظلموا أنفسهم، عند معاينة العذاب: ﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾، كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن[1] مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[المنافقون: ٩، ١٠]، وقال تعالى مخبراً عنهم في حال محشرهم: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧].

وقال تعالى رادا عليهم في قولهم هذا: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أي: أولم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحال: انه لا زوال لكم عما أنتم فيه، وانه لا معاد ولا جزاء، فذوقوا هذا بذاك.

قال مجاهد وغيره: ﴿ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أي: ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، كما أخبر عنهم تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨].

﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ اي: قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر، ولم يكن فيما أوقعنا بهم مزدجر لكم[2] ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: ٥].

وقد روى شعبة، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن [بن دابيل] [3] أن عليا، رضي الله عنه، قال في هذه الآية: ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ قال: أخذ ذاك الذي حاج إبراهيم في ربه نسرين صغيرين، فرباهما حتى استغلظا واستعلجا وشبا[4].

قال: فأوثق رِجْل كل واحد منهما بوتد إلى تابوت، وجوعهما، وقعد هو ورجل آخر في التابوت قال:ـ ورفع في التابوت عصا على رأسه اللحم ـ قال: فطارا [قال][5]: وجعل يقول لصاحبه: انظر، ما [6] ترى؟ قال: أرى كذا وكذا، حتى قال: أرى الدنيا كلها كأنها ذباب. قال: فقال: صوّب العصا،

---

(١) في أ: «وأكون».
(٢) في ت: «لكم مزدجر».
(٣) زيادة من ت، وفي أ: «بن دنيال».
(٤) في ت: «فشبا».
(٥) زيادة من ت، أ.
(٦) في ت: «ماذا».

فصوبها، فهبطا. قال: فهو قول الله، عز وجل: «وإن كاد مكرهم لتزول منه الجبال». قال أبو إسحاق: وكذلك هي في قراءة عبد الله: «وإن كاد مكرهم»[1].

قلت: وكذا رُوي عن أبي بن كعب، وعمر بن الخطاب، رضي الله عنهما، أنهما قرآ: «وإن كاد»، كما قرأ علي. وكذا رواه سفيان الثوري، وإسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن أذنان[2]، عن علي، فذكر نحوه.

وكذا رُوي عن عكرمة أن سياق هذه القصة للنمرود ملك كنعان: أنه رام أسباب السماء بهذه الحيلة والمكر، كما رام ذلك بعده فرعون ملك القبط في بناء الصرح، فعجزا وضعفا. وهما أقل وأحقر، وأصغر وأدحر.

وذكر مجاهد هذه القصة عن بختنصر، وأنه لما انقطع بصره عن الأرض وأهلها، نودي أيها الطاغية: أين تريد؟ فَفَرِق، ثم سمع الصوت فوقه فصوب الرماح، فصوّبت النسور. ففزعت الجبال من هَدّتها، وكادت الجبال أن أن تزول من حس[3] ذلك، فذلك قوله: ﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾.

ونقل ابن جُريج[4] عن مجاهد أنه قرأها: «لَتَزُولُ منه الجبال»، بفتح اللام الأولى، وضم[5] الثانية.

وروى العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾ يقول: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال. وكذا قال الحسن البصري، ووجهه ابن جرير بأن هذا الذي فعلوه بأنفسهم من كفرهم بالله وشركهم به، ما ضر ذلك شيئا من الجبال ولا غيرها، وإنما عاد وبال ذلك على أنفسهم.

قلت: ويشبه هذا إذاً قوله تعالى: ﴿ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا﴾ [الإسراء: ٣٧].

والقول الثاني في تفسيرها: ما رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾: يقول شركهم، كقوله: ﴿تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا﴾ [مريم: ٩٠، ٩١]، وهكذا قال الضحاك، وقتادة.

﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام (٤٧) يوم تبدل الأرض غير

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ١٦٠)، وصوب العصا: خفضها وأنزلها أ. هـ. مستفادا من حاشية الشعب.

(٢) في ت: «أرباب»، وفي أ: «أربان».

(٣) في ت: «من حين».

(٤) في أ: «ابن جرير».

(٥) في ت، أ: «ورفع».

**الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨)﴾.**

يقول تعالى مقرراً لوعده ومؤكداً: **﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾** أي: من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

ثم أخبر أنه ذو عزة لا يمتنع [١] عليه شيء أراده، ولا يغالب، وذو انتقام ممن [٢] كفر به وجحده **﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾** [الطور: ١١]؛ ولهذا قال: **﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾** أي: وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة، كما جاء في الصحيحين، من حديث أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقُرصة النَّقيّ، ليس فيها مَعْلَم لأحد»[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عَدِيّ، عن داود، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: **﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾**، قالت: قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط».

رواه مسلم منفرداً به دون البخاري، والترمذي، وابن ماجة، من حديث داود بن أبي هند، به[٤]. وقال الترمذي: حسن صحيح.

ورواه أحمد أيضا، عن عفان، عن وهيب[٥]، عن داود، عن الشعبي، عنها[٦]. ولم يذكر مسروقاً [٧].

وقال قتادة، عن حسان بن بلال المزني، عن عائشة، رضي الله عنها، أنها سألت رسول الله ﷺ عن قول الله: **﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾** قال: قالت[٨]: يا رسول الله، فأين الناس يومئذ؟ قال: «لقد سألتني[٩] عن شيء ما سألني عنه أحد من أمتي، ذاك أن الناس على جسر جهنم[١٠]»[١١].

وروى الإمام أحمد، من حديث حبيب بن أبي عمرة، عن مجاهد، عن ابن عباس، حدثتني عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ، عن قوله تعالى: **﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ**

---

(١) في ت: «تمتنع». (٢) في ت: «من».

(٣) صحيح البخاري برقم (٦٥٢١) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٠).

(٤) المسند (٦/ ٣٥) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩١) وسنن الترمذي برقم (٣١٢١) وابن ماجة برقم (٤٢٧٩).

(٥) في ت: «وهب». (٦) في ت: «عنهما».

(٧) المسند (٦/ ١٣٤).

(٨) في ت، أ: «قلت». (٩) في ت: «سألتني». (١٠) في ت: «على حشرهم».

(١١) رواه الطبري في تفسيره (١٣/ ١٦٦).

مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، فأين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «هم على متن جهنم»[١].

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن، حدثنا علي بن الجعد، أخبرني القاسم، سمعت الحسن قال: قالت عائشة: يا رسول الله، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾، فأين الناس يومئذ؟ قال: «إن هذا شيء ما سألني عنه أحد»، قال: «على الصراط يا عائشة».

ورواه أحمد، عن عفان[٢]، عن القاسم بن الفضل، عن الحسن، به[٣].

وقال الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه: حدثني الحسن بن علي الحُلْواني، حدثنا أبو تَوْبَة الربيع بن نافع، حدثنا معاوية بن سلام، عن زيد ـ يعني: أخاه ـ أنه سمع أبا سلاَّم، حدثني أبو أسماء الرَّحَبي؛ أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ حدثه قال: كنت قائما عند رسول الله ﷺ، فجاءه[٤] حَبْرٌ من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد. فدفعته دَفْعة كاد يُصرَع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول: يا رسول الله؟! فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سَمَّاه به أهله! فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمي محمدٌ الذي سماني به أهلي». فقال اليهودي: جئت أسألك. فقال رسول الله ﷺ: «أينفعك شيء إن حدثتك؟» فقال: أسمع بأذني. فنكت رسول الله ﷺ بعود معه، فقال: «سل». فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر»[٥]. قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: فقال: «[فقراء][٦] المهاجرين». قال اليهودي: فما تُحْفَتُهمُ حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد النون» قال: فما غذاؤهم في أثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها». قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسبيلا». قال: صدقت. قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان؟ قال: «ينفعك إن حدثتك؟» قال: أسمع بأذني. قال: جئت أسألك عن الولد. قال: «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فَعَلا منيُّ الرجل منيَّ المرأة أذكرا[٧] بإذن الله ـ تعالى ـ وإذا علا مني المرأة مني الرجل آنثا بإذن الله». قال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنبي. ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه، وما لي علم بشيء منه، حتى أتاني الله به»[٨].

[و][٩] قال أبو جعفر بن جرير الطبري: حدثني ابن عوف، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا ابن أبي

---

(١) المسند (٦/ ١١٧).

(٢) في ت، أ: «عثمان».

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ١٦٦) والمسند (٦/ ١٠١).

(٤) في ت: «فجاء».

(٥) في ت: «الحشر».

(٦) زيادة من ت، أ، ومسلم.

(٧) في أ: «ذكرا».

(٨) صحيح مسلم برقم: (٣١٥).

(٩) زيادة من ت.

مريم، حدثنا سعيد بن ثوبان الكلاعي، عن أبي أيوب الأنصاري، قال: أتى النبيَّ ﷺ حَبْر من اليهود فقال: أرأيت إذ يقول الله في كتابه: ﴿ يوم تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسَّمواتُ ﴾، فأين الخلْق عند ذلك؟ فقال: «أضياف الله، فلن يعجزهم ما لديه»[1].

ورواه ابن أبي حاتم، من حديث أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم، به.

وقال شعبة: أخبرنا أبو إسحاق، سمعت عمرو بن ميمون - وربما قال: قال عبد الله، وربما لم يقل - فقلت له: عن عبد الله؟ فقال: سمعت عمرو بن ميمون يقول: ﴿ يوم تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ ﴾ قال: أرض كالفضة البيضاء نقية، لم يسفك فيها دم، ولم يعمل عليها[2] خطيئة، ينفذهم البصر، ويُسمعهم الداعي، حفاة عراة كما خلقوا. قال: أراه قال: قيام حتى يُلجمَهم العرق[3].

وروى من وجه آخر عن شعبة وعن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن ابن مسعود، بنحوه. وكذا رواه عاصم، عن زرّ، عن ابن مسعود، به.

وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، لم يخبر به. أورد ذلك كله ابن جرير[4].

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبيد بن عقيل، حدثنا سهل بن حماد أبو عتّاب، حدثنا جرير بن أيوب، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله، عن النبي ﷺ في قول الله، عز وجل: ﴿ يومَ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ ﴾ قال: «أرض بيضاء لم يسقط عليها دم[5]، ولم يعمل عليها خطيئة». ثم قال: لا نعلم رفعه إلا جرير بن أيوب، وليس بالقوى[6].

ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا معاوية بن هشام، عن سنان[7]، عن جابر الجُعْفي، عن أبي جُبَيرة[8]، عن زيد قال: أرسل رسول الله ﷺ إلى اليهود فقال: «هل تدرون لم أرسلت إليهم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أرسلت إليهم أسألهم عن قول الله: ﴿ يومَ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ ﴾، إنها تكون يومئذ بيضاء مثل الفضة». فلما جاؤوا سألهم فقالوا: تكون بيضاء مثل النَّقِي[9].

وهكذا رُوِي عن علي، وابن عباس، وأنس بن مالك، ومجاهد بن جبير: أنها تبدل يوم القيامة بأرض من فضة.

وعن علي، رضي الله عنه، أنه قال: تصير الأرض فضة، والسموات ذهبا.

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٣/ ١٦٤).

(٢) في ب، أ: «فيها».

(٣، ٤) تفسير الطبري (١٣/ ١٦٤).

(٥) في ت: «دم».

(٦) مسند البزار برقم (٣٤٣١) «كشف الأستار» وجرير بن أيوب ضعفه الأئمة.

(٧) في ت، أ: «شيبان».

(٨) في أ: «عن ابن جبيرة».

(٩) تفسير الطبري (١٣/ ١٦٤).

وقال الربيع: عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: تصير السموات جنانا.

وقال أبو معشر، عن محمد بن كعب القرظي، أو عن محمد بن قيس في قوله: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾، قال: [تبدل][1] خبزة يأكل منها المؤمنون[2] من تحت أقدامهم[3].

وكذا روى وكيع، عن عمر بن بشير الهمداني، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾ قال: تبدل خبزة بيضاء، يأكل المؤمن من تحت قدميه.

وقال الأعمش، عن خيثمة قال: قال عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ: الأرض كلها يوم القيامة[4] نار، والجنة من ورائها ترى كواعبها وأكوابها، ويُلجِم الناس العرقُ، أو يبلغ منهم العرق، ولم يبلغوا الحساب.

وقال الأعمش أيضاً، عن المِنْهَال بن عمرو، عن قيس بن السكن[5] قال: قال عبد الله: الأرض كلها نار يوم القيامة، [و][6] الجنة من ورائها، ترى أكوابها وكواعبها، والذي نفس عبد الله بيده، إن الرجل ليفيض عرقا حتى ترسخ[7] في الأرض قدمه، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه، وما مسه الحساب. قالوا[8]: مم ذاك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: مما يرى الناس يلقون[9].

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن كعب في قوله: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾، قال: تصير السموات جنانا، ويصير مكان البحر ناراً، وتبدل الأرض غيرها.

وفي الحديث الذي رواه أبو داود: «لا يركب البحر إلا غاز أو حاج أو معتمر، فإن تحت البحر ناراً ـ أو: تحت النار بحراً»[10].

وفي حديث الصور المشهور المروي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «تبدل الأرض غير الأرض والسموات، فيبسطها ويمدها مد الأديم العكاظي، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ثم يزجر الله الخلق زجرة، فإذا هم في هذه المبدلة»[11].

وقوله: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ ﴾ أي: خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أي: الذي

---

(١) زيادة من أ. (٢) في ت، آ: «المؤمن». (٣) في أ: «قدميه».
(٤) في ت: «يوم القيامة كلها». (٥) في ت: «ابن سكن». (٦) زيادة من ت، أ.
(٧) في ت: «يرسخ»، وفي أ: «يرشح».
(٨) في ت: «فقالوا».
(٩) تفسير الطبري (١٣/ ١٦٤، ١٦٥).
(١٠) سنن أبي داود برقم (٢٤٨٩) ولفظه: «فإن تحت البحر ناراً، وتحت النار بحراً» رواه من طريق بشر أبي عبد الله، عن بشير بن مسلم، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً، وقد ضعف هذا الحديث جماعة من الأئمة. انظر أقوالهم في: السلسلة الضعيفة برقم (٤٧٨).
(١١) سبق تخريج الحديث عند تفسير سورة الأنعام.

قهر كل شيء وغلبه، ودانت له الرقاب، وخضعت له الألباب.

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾، وتبرز الخلائق لديّانها، ترى يا محمد يومئذ المجرمين، وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم، ﴿ مُّقَرَّنِينَ ﴾ أى: بعضهم إلى بعض، قد جمع بين النظراء أو الأشكال[1] منهم، كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ [الصافات: ٢٢]، وقال: ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [التكوير: ٧]، وقال: ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [الفرقان: ١٣]، وقال: ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ . وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ [ص: ٣٧، ٣٨].

والأصفاد: هي القيود، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، والأعمش، وعبد الرحمن بن زيد. وهو مشهور في اللغة، قال عمرو بن كلثوم.

فآبوا[2] بالنِّهاب وبالسَّبايا ... وأُبْنَا بالمُلوك[3] مُصَفَّدِينا[4]

وقوله: ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ أى: ثيابهم التى يلبسونها عليهم من قطران، وهو الذى تُهنأ به الإبل، أى: تطلى، قاله قتادة. وهو ألصق شيء بالنار.

ويقال فيه: «قَطِران»، بفتح القاف وكسر الطاء، وبفتح القاف وتسكين الطاء، وبكسر القاف وتسكين الطاء، ومنه قول أبى النجم.

كأنّ قِطْراناً إذا تَلاها ... تَرْمِى[5] به الرِّيح إلى مَجْراها[6]

وكان ابن عباس يقول: القَطران هو: النحاس المذاب، وربما قرأها: «سَرَابِيلهم من قَطِرٍ آنٍ» أى: من نحاس حار قد انتهى حره. وكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، والحسن، وقتادة.

وقوله: ﴿ وَتَغْشَىٰ[7] وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾، كقوله: ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا يحيى بن إسحاق، أنبأنا أبان بن يزيد، عن يحيى بن أبى

(١) فى ت: «النظر والأشكال».

(٢) فى ت: «فأتوا».

(٣) فى ت: «وابنا الملوك»، وفى أ: «وأبناء الملوك».

(٤) البيت فى تفسير الطبرى (١٣/ ١٦٧).

(٥) فى ت: «يرمى».

(٦) البيت فى تفسير الطبرى (١٣/ ١٦٧).

(٧) فى ت: «ويغشى».

كثير، عن زيد، عن أبي سلام، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من أمر الجاهلية لا يُتركن[١]: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة، والنائحة[٢] إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قَطِران، ودرع من جَرَب». انفرد بإخراجه مسلم[٣].

وفي حديث القاسم، عن أبي أمامة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «النائحة إذا لم تتب، توقف في طريق[٤] بين الجنة والنار، وسرابيلها من قطران، وتغشى وجهها النار»[٥].

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ﴾ أي: يوم[٦] القيامة، كما قال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: يحتمل أن يكون كقوله[٧] تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، ويحتمل أنه في حال محاسبته[٨] لعبده سريع النَّجاز؛ لأنه يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق[٩] بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وهذا معنى قول مجاهد: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: [إحصاء][١٠].

ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين، والله أعلم.

﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢)﴾.

يقول تعالى: هذا القرآن بلاغ للناس، كقوله: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] أي: هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجان، كما قال في أول السورة: ﴿الر. كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾.

﴿وَلِيُنْذَرُوا بِهِ﴾ أي: ليتعظوا[١١] به، ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو[١٢]، ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: ذوو العقول.

---

(١) في ت: «لا يدعهن»، وفي أ: «لا يتركهن».

(٢) في أ: «والنائحة».

(٣) المسند (٥/ ٣٤٢) وصحيح مسلم برقم (٩٣٤).

(٤) في ت: «الطريق».

(٥) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢٣٨) من طريق عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم ـ وكلهم ضعفاء ـ عن أبي أمامة به. وقد قال ابن حبان: «إذا جاء الحديث من طريق عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد، عن القاسم، فهو مما صنعته أيديهم».

(٦) في ت، أ: «أي يقسم يوم».

(٧) في ت: «قوله».

(٨) في ت: «محاسبته».

(٩) في ت: «الخلائق».

(١٠) زيادة من ت، أ.

(١١) في ت، أ: «ليتعظوا».

(١٢) في ت، أ: «إلا الله».

## تفسير سورة الحجر

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

**﴿ الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ (١) رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) ﴾.**

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور.

وقوله: **﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾**: إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنون لو كانوا مع المسلمين في الدار الدنيا[1].

ونقل[2] السدى في تفسيره بسنده المشهور عن ابن عباس، وابن مسعود، وغيرهما من الصحابة: أن الكفار[3] لما عُرِضوا على النار، تمنوا أن لو كانوا مسلمين.

وقيل: المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمنا.

وقيل: هذا إخبار عن يوم القيامة، كما في قوله تعالى: **﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾** [الأنعام: ٢٧].

وقال سفيان الثورى، عن سلمة بن كُهَيْل، عن أبي الزعراء، عن عبد الله في قوله: **﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾** قال: هذا في الجُهَنَّميين إذ رأوهم يخرجون من النار.

وقال ابن جرير: حدثنا المثنى، حدثنا مسلم، حدثنا القاسم، حدثنا ابن أبي فَرْوة العَبْدي؛ أن ابن عباس وأنس بن مالك كانا يَتأولان هذه الآية: **﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾**، يتأولانها: يوم يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين في النار. قال: فيقول لهم المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون في الدنيا. قال: فيغضب الله لهم بفضل رحمته، فيخرجهم، فذلك حين يقول: **﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾**.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثورى، عن حماد، عن إبراهيم، عن خصيف، عن مجاهد قالا: يقول أهل النار للموحدين: ما أغنى عنكم إيمانكم؟ فإذا[4] قالوا ذلك. قال: أخرجوا من كان في قلبه مثقال ذرة. قال: فعند ذلك قوله: **﴿ [رُّبَمَا] [5] يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾**[6].

وهكذا روى عن الضحاك، وقتادة، وأبي العالية، وغيرهم. وقد ورد في ذلك أحاديث مرفوعة، فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني:

---

(١) في ت: «في الدار الدنيا مع المسلمين».　(٢) في أ: «وقال».　(٣) في ت، أ: «أن كفار بدر».

(٤) في ت، أ: «قال: فإذا».　(٥) زيادة من ت، أ.

(٦) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٩٩).

حدثنا محمد بن العباس، هو الأخرم، حدثنا محمد بن منصور الطوسي، حدثنا صالح بن إسحاق الجهبذ[1] دلني عليه يحيى بن معين[2]، حدثنا مُعَرِّف[3] بن واصل، عن يعقوب بن أبي نباتة[4]، عن عبد الرحمن الأغر، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ناسا من أهل لا إله إلا الله يدخلون النار بذنوبهم، فيقول لهم أهل اللات والعزى: ما أغنى عنكم قولكم: لا إله إلا الله وأنتم معنا في النار؟. فيغضب الله لهم، فيخرجهم، فيلقيهم في نهر الحياة، فيبرؤون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه، فيدخلون الجنة، ويسمَّون فيها الجهنميين»[5]. فقال رجل: يا أنس، أنت سمعتَ هذا من رسول الله ﷺ؟ فقال أنس: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من كذب علي متعمداً، فليتبوأ مقعده من النار». نعم، أنا سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا.

ثم قال الطبراني: تفرد به الجهبذ[6][7].

**الحديث الثاني:** وقال الطبراني أيضاً: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبو الشعثاء[8] علي بن الحسن الواسطي، حدثنا خالد بن نافع الأشعري، عن سعيد بن أبي بردة، عن أبيه، عن أبي موسى، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتمع أهل النار في النار، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى. قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام! فقد صرتم[9] معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها. فسمع[10] الله ما قالوا، فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة فأخرجوا، فلما رأى ذلك من بقي من الكفار قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا». قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ﴿ الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ . رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾[11].

ورواه ابن أبي حاتم، من حديث خالد بن نافع، به، وزاد فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم)، عوض الاستعاذة.

**الحديث الثالث:** وقال الطبراني[12] أيضا: حدثنا موسى بن هارون، حدثنا إسحاق بن راهويه قال: قلت لأبي أسامة: أحدثكم أبو روق[13] ـ واسمه عطية بن الحارث ـ: حدثني صالح بن أبي طريف قال: سألت أبا سعيد الخدري فقلت له: هل سمعت رسول الله ﷺ يقول في هذه الآية: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾؟ قال: نعم، سمعته يقول: «يُخرج الله ناسا من المؤمنين من

---

(١) في ت: «الجهذ». (٢) في هـ: «رأى علية بن موسى» والمثبت من المعجم.

(٣) في ت، أ: «معروف». (٤) في ت، أ، هـ: «يعقوب بن نباتة» والصواب ما أثبتناه من المعجم والتهذيب.

(٥) في ت، أ: «الجهنميون». (٦) في ت: «الجهذ».

(٧) المعجم الأوسط برقم (٤٨٢١) «مجمع البحرين» وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٨٠): «فيه من لم أعرفهم».

(٨) في ت: «أبو السفا». (٩) في ت، أ: «حشرتم». (١٠) في أ: «فيسمع».

(١١) قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٤٥): «رواه الطبراني، وفيه خالد بن نافع الأشعري، قال أبو داود: متروك. وقال الذهبي: هذا تجاوز في الحد فلا يستحق الترك، فقد حدث عنه أحمد بن حنبل وغيره، وبقية رجاله ثقات» ورواه ابن أبي عاصم في السنة برقم (٨٤٣) والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٤٢) عن أبي الشعثاء به، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(١٢) في ت: «وقال الطبراني الحديث الثالث». (١٣) في ت: «أبو أروق».

النار بعد ما يأخذ نقمته منهم»، وقال: «لما أدخلهم الله النار مع المشركين قال لهم المشركون: تزعمون أنكم أولياء الله في الدنيا، فما بالكم معنا في النار؟ فإذا سمع الله ذلك منهم، أذن في الشفاعة لهم فتشفع[1] الملائكة والنبيون، ويشفع[2] المؤمنون، حتى يخرجوا بإذن الله، فإذا رأى المشركون ذلك، قالوا: يا ليتنا كنا مثلهم، فتدركنا الشفاعة، فنخرج معهم». قال: «فذلك قول الله: ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾، فيسمون في الجنة الجُهَنَّمِيِّين[3]، من أجل سواد في وجوههم، فيقولون: يا رب، أذهب عنا هذا الاسم، فيأمرهم فيغتسلون في نهر الجنة، فيذهب ذلك الاسم عنهم»، فأقر به أبو أسامة، وقال: نعم[4].

**الحديث الرابع**[5]: وقال[6] ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا العباس بن الوليد النَّرسي[7]، حدثنا مسكين أبو فاطمة، حدثني اليمان بن يزيد، عن محمد بن حِمْيَر[8]، عن محمد ابن علي، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «منهم من تأخذه النار إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه، على قدر ذنوبهم وأعمالهم، ومنهم من يمكث فيها شهرا ثم يخرج منها، ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج منها، وأطولهم فيها مكثاً بقدر الدنيا منذ يوم خلقت إلى أن تفنى، فإذا أراد الله أن يخرجوا منها قالت اليهود والنصارى ومن في النار من أهل[9] الأديان والأوثان، لمن في النار من أهل التوحيد: آمنتم بالله وكتبه ورسله، فنحن وأنتم اليوم في النار سواء، فيغضب الله لهم غضبا لم يغضبه لشيء فيما مضى، فيخرجهم إلى عين في الجنة، وهو قوله: ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾»[10].

وقوله: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا ﴾: تهديد لهم شديد، ووعيد أكيد، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، وقوله: ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾ [المرسلات: ٤٦]؛ ولهذا قال: ﴿ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ ﴾ أي: عن التوبة والإنابة، ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: عاقبة أمرهم.

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ (٤) مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥) ﴾.

يقول تعالى: إنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها، وإنه لا يؤخر أمة حان هلاكها[11] عن ميقاتها ولا يتقدمون عن مدتهم. وهذا تنبيه لأهل مكة، وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما

---

(١) في ت، أ: «فيشفع». (٢) في ت: «وشفع». (٣) في ت، أ: «الجهنمية».

(٤) ورواه ابن حبان في صحيحه برقم (٢٥٩٩) «موارد» من طريق عمر بن محمد بن أبان، عن أبي أسامة به نحوه.

(٥) في ت: «وقال الحديث الرابع». (٦) في ت: «وحدثنا». (٧) في ت: «الزيني»، وفي أ: «الزينبي».

(٨) في ت، أ: «جبير»، وفي هـ: «جبر». (٩) في ت، أ: «وأهل».

(١٠) ورواه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٤٥٧) من طريق البغوي عن عباس بن الوليد النرسي به، ورواه الخطيب في تاريخ بغداد (٦/ ١٥٦) وابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٤٥٦) من طريق إبراهيم بن محمد السامري، عن عبد بن الوليد الغبري، عن أبي فاطمة، عن اليمان بن يزيد به نحوه، وقال ابن الجوزي: «هذا حديث لا يصح وفيه جماعة مجاهيل».

(١١) في ت: «هلاكهم».

هم فيه من الشرك والعناد والإلحاد، الذي يستحقون به الهلاك.

**﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾.**

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم وعنادهم في قولهم: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر﴾ أي: الذي يدعي ذلك ﴿إنك لمجنون﴾ أي: في دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا. ﴿لوما﴾ أي: هلا ﴿تأتينا بالملائكة﴾ أي: يشهدون لك بصحة ما جئت به ﴿إن كنت من الصادقين﴾، كما قال فرعون: ﴿فلولا ألقي عليه أساورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾ [الزخرف: ٥٣]، ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا. يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا﴾ [الفرقان: ٢١، ٢٢].

وكذا[1] قال في هذه الآية: ﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين﴾.

وقال مجاهد في قوله: ﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق﴾: بالرسالة والعذاب.

ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل الذكر، وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل.

ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى: ﴿له لحافظون﴾ على النبي ﷺ، كقوله: ﴿والله يعصمك من الناس﴾ [المائدة: ٦٧] والمعنى الأول أولى، وهو ظاهر السياق، [والله أعلم][2].

**﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١) كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣) ﴾.**

يقول تعالى مسليا لرسوله في تكذيب من كذبه من كفار قريش: إنه أرسل من قبله في الأمم الماضية، وإنه ما أتى أمة رسول إلا كذبوه واستهزؤوا به.

ثم أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى.

قال أنس، والحسن البصري: ﴿كذلك نسلكه في قلوب المجرمين﴾: يعني: الشرك.

وقوله: ﴿وقد خلت سنة الأولين﴾ أي: قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار، وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة.

---

(١) في ت، أ: «وهكذا». (٢) زيادة من: أ.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾.

يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق: أنه لو فتح لهم باباً من السماء، فجعلوا يصعدون فيه، لما صدّقوا بذلك، بل قالوا: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾.

قال مجاهد وابن كثير، والضحاك: سدت أبصارنا.

وقال قتادة، عن ابن عباس: أخذت أبصارنا.

وقال العوفي عن ابن عباس: شُبّه علينا، وإنما سحرنا.

وقال الكلبي: عَميت أبصارنا.

وقال ابن زيد: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾، السكران[١] الذي لا يعقل.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها وما زيّنها به من الكواكب الثواقب، لمن تأملها، وكرر النظر[٢] فيها، يرى فيها من العجائب والآيات الباهرات، ما يحار نظره فيه. ولهذا قال مجاهد وقتادة: البروج هاهنا هي: الكواكب.

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]. ومنهم من قال: البروج هي: منازل الشمس والقمر.

وقال عطية العَوفي: البروج هاهنا: هي قصور الحرس[٣].

وجعل الشُهب حرساً لها من مَرَدة الشياطين، لئلا يسمعوا[٤] إلى الملأ الأعلى، فمن تمرد منهم [وتقدم][٥] لاستراق السمع، جاءه ﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ فأتلفه، فربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذي هو دونه، فيأخذها الآخر، ويأتي بها إلى وليه، كما جاء مصرحا به في الصحيح، كما قال البخاري في تفسير هذه الآية:

حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان[٦]، عن عمرو، عن عكرمة، عن أبي هريرة، يبلُغُ به النبي ﷺ، قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفْوان». قال علي، وقال غيره: صفوان ينفُذهم ذلك، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الذي قال: الحق، وهو العلي الكبير. فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع،

---

(١) في أ: «السُكر». (٢) في ت: «نظره». (٣) في ت: «الحرس فيها».

(٤) في أ: «لئلا يسّمّعوا». (٥) زيادة من ت، أ. (٦) في ت: «حدثنا ابن سفيان».

هكذا واحد فوق آخر ـ ووصف سفيان بيده فَفَرَّج بين أصابع يده اليمنى، نَصَبَها بعضها[١] فوق بعض ـ فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يَرْمي بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه [حتى][٢] يَرْمي بها إلى الذي يليه، [إلى الذي][٣] هو أسفل منه، حتى يلقوها إلى الأرض ـ وربما قال سفيان: حتى تنتهي إلى الأرض فتلقى[٤] على فم الساحر ـ أو: الكاهن ـ فيكذب معها مائة كذبة[٥]، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فوجدناه حقاً؟ للكلمة التي سمعت من السماء»[٦].

ثم ذكر، تعالى، خلقه الأرض، ومده إياها وتوسيعها وبسطها، وما جعل فيها من الجبال الرواسي، والأودية والأراضي والرمال، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة.

وقال ابن عباس: ﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ أي: معلوم. وكذا قال سعيد بن جبير، وعكرمة، وأبو مالك، ومجاهد، والحكم بن عُتَيبة[٧]، والحسن بن محمد، وأبو صالح، وقتادة.

ومنهم من يقول: مقدر بقدر.

وقال ابن زيد: من كل شيء يُوزَن[٨] ويقدر بقدر. وقال ابن زيد: ما تزنه [أهل][٩] الأسواق.

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾: يذكر، تعالى، أنه صرفهم في الأرض في صنوف [من][١٠] الأسباب والمعايش، وهي جمع معيشة.

وقوله: ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾: قال مجاهد: وهي الدواب والأنعام.

وقال ابن جرير: هم العبيد والإماء والدواب والأنعام.

والقصد أنه، تعالى، يمتن[١١] عليهم بما يَسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعايش، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها والأنعام التي يأكلونها، والعبيد والإماء التي يستخدمونها، ورزقهم على خالقهم لا عليهم فلهم هم المنفعة، والرزق على الله تعالى.

[وقوله][١٢]:

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥) ﴾.

يخبر، تعالى، أنه مالك كل شيء، وأن كل شيء سهل عليه، يسير لديه، وأن[١٣] عنده خزائن

---

(١) في أ: «بعضاً».
(٢، ٣) زيادة من ت، أ، والبخاري.
(٤) في ت، أ: «فيلقي».
(٥) في ت، أ: «كذبة فيصدق».
(٦) صحيح البخاري برقم (٤٧٠١).
(٧) في أ: «عيينة».
(٨) في أ: «موزون».
(٩) زيادة من ت، أ.
(١٠) زيادة من أ.
(١١) في ت: «يمتن تعالى».
(١٢) زيادة من أ.
(١٣) في ت، أ: «وأنه».

الأشياء من جميع الصنوف، ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾، كما يشاء وكما يريد، ولما لَهُ في ذلك من الحكمة البالغة، والرحمة بعباده، لا على [وجه][1] الوجوب، بل هو كتب على نفسه الرحمة.

قال يزيد بن أبي زياد، عن أبي جحيفة، عن عبد الله: ما من عام بأمطر من عام، ولكن الله يقسمه حيث شاء[2]، عاماً هاهنا، وعاماً هاهنا. ثم قرأ: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾. رواه ابن جرير[3].

وقال أيضاً: حدثنا القاسم، حدثنا الحسن[4]، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا إسماعيل بن سالم، عن الحكم بن عُتَيْبَة[5] في قوله: ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ قال: ما[6] عام بأكثر مطراً من عام ولا أقل، ولكنه يُمطر قوم ويحرم آخرون وربما[7] كان في البحر. قال: وبلغنا أنه ينزل مع المطر من الملائكة أكثر من عدد ولد إبليس وولد آدم، يُحصُون كلَّ قطرة حيث تقع وما تنبت[8][9].

وقال البزار: حدثنا داود ـ وهو ابن بكر[10] التُسْتُري ـ حدثنا حبَّان[11] بن أغلب بن تميم، حدثني أبي، عن هشام، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «خزائن الله الكلام، فإذا أراد شيئاً قال له: كن، فكان»[12].

ثم قال: لا يرويه إلا أغلب، ولم يكن بالقوي، وقد حدث عنه غير واحد من المتقدمين، ولم يروه عنه إلا ابنه.

وقوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ أي: تلقح السحاب فتَدُرّ ماء، وتلقح الشجر فتتفتح عن أوراقها وأكمامها.

هذه «الرياح» ذكرها بصيغة الجمع، ليكون منها الإنتاج، بخلاف الريح العقيم فإنه أفردها، ووصفها بالعقيم، وهو عدم الإنتاج؛ لأنه لا يكون إلا من[13] شيئين فصاعداً.

وقال الأعمش، عن المنْهال بن عمرو، عن قيس بن السكن، عن عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ قال: ترسل الريح، فتحمل الماء من السماء، ثم تَمْري السحاب، حتى تدر كما تَدِر اللَّقحَة.

وكذا قال ابن عباس، وإبراهيم النَّخَعي، وقتادة.

وقال الضحاك: يبعثها الله على السحاب، فتُلقحه، فيمتلئ[14] ماء.

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) في أ: «يشاء».

(٣) تفسير الطبري (١٤/ ١٤).

(٤) في ت: «الحسين». (٥) في أ: «عيينة». (٦) في أ: «من».

(٧) في هـ، ت، أ: «ما» والمثبت من الطبري. (٨) في ت: «ينبت».

(٩) تفسير الطبري (١٤/ ١٤).

(١٠) وفي مخطوطة مسند البزار: «داود، وهو ابن بكير».

(١١) في هـ، وفي مخطوطة مسند البزار: «حيان»، والمثبت من ت، أ.

(١٢) ورواه أبو الشيخ في العظمة برقم (١٥٥) من طريق محمد بن عبد العزيز، عن حبان عن أبيه به.

(١٣) في ت، أ: «بين». (١٤) في ت: «فتمتلئ».

وقال عُبَيْد بن عُمَير الليثي: يبعث الله المُبشرة فتَقمُّ الأرض قَمًّا ثم يبعث الله المثيرة[1] فتثير السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر، ثم تلا: ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح﴾.

وقد روى ابن جرير، من حديث عبْس[2] بن ميمون، عن أبي المُهَزِّم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «الريح الجنوب من الجنة، وهي [الريح اللواقح، وهي التي][3] ذكر الله في كتابه، وفيها منافع للناس»[4]. وهذا إسناد ضعيف.

وقال الإمام أبو بكر عبد الله بن الزبير الحُمَيدي في مسنده: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار، أخبرني يزيد بن جُعْدُبة الليثي: أنه سمع عبد الله بن مِخْرَاق، يحدث عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق في الجنة ريحاً بعد الريح بسبع سنين، وإن من دونها باباً مغلقاً، وإنما يأتيكم الريح من ذلك الباب، ولو فتح لأذرت ما بين السماء والأرض من شيء، وهي عند الله الأزْيَبُ، وهي فيكم الجَنُوب»[5].

وقوله: ﴿ فأسقيناكموه﴾ أي: أنزلناه لكم عَذْبًا يُمكنكم أن تشربوا منه، ولو نشاء لجعلناه أجاجاً. كما ينبه الله[6] على ذلك في الآية الأخرى في سورة «الواقعة»، وهو[7] قوله: ﴿ أفرأيتم الماء الذي تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون﴾ [الواقعة: ٦٨ـ٧٠]، وفي قوله: ﴿ هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ﴾ [النحل: ١٠].

وقوله: ﴿ وما أنتم له بخازنين﴾: قال سفيان الثوري: بمانعين.

ويحتمل أن المراد: وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم، ونجعله معينا وينابيع[8] في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذباً، وحفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك، ليبقى لهم في طول السنة، يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم.

وقوله: ﴿ وإنا لنحن نحيي ونميت﴾: إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته، وأنه هو الذي أحيا الخلق من العدم، ثم يميتهم ثم يبعثهم[9] كلهم ليوم الجمع.

وأخبر أنه، تعالى، يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون.

ثم قال مخبراً عن تمام علمه بهم، أولهم وآخرهم: ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا

---

(١) في ت: «المبشرة». (٢) في ت: «عنبس».

(٣) زيادة من ت، أ، والطبري.

(٤) تفسير الطبري (١٤/ ١٥).

(٥) مسند الحميدي (١/ ٧٦) وفي إسناده يزيد بن جعدبة كذبه مالك وغيره.

(٦) في ت، أ: «تعالى». (٧) في ت: «وهي».

(٨) في ت: «وينابع». (٩) في ت: «يبعث».

الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾: قال ابن عباس، رضي الله عنهما[1]: المستقدمون: كل من هلك من لدن آدم، عليه السلام، والمستأخرون: من هو حي ومن سيأتي إلى يوم القيامة.

وروي نحوه عن عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، ومحمد بن كعب، والشعبي، وغيرهم. وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله[2].

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن رجل[3]، عن مَرْوان بن الحكم أنه قال: كان أناس يستأخرون في الصفوف من أجل النساء فأنزل الله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾[4].

وقد ورد في هذا حديث غريب جداً، فقال ابن جرير:

حدثني[5] محمد بن موسى الحَرَشيّ، حدثنا نوح بن قيس، حدثنا عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: كانت تصلي خلف رسول الله ﷺ امرأة ـ قال ابن عباس: لا والله ما إنْ رأيت مثلها قط، وكان بعض المسلمين إذا صلوا استقدموا يعني: لئلا يراها ـ وبعض يستأخرون، فإذا سجدوا نظروا إليها من تحت أيديهم!! فأنزل الله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾.

وكذا رواه أحمد وابن أبي حاتم في تفسيره، والترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننهما[6]، وابن ماجة من طرق عن نوح بن قيس الحُدّاني[7]. وقد وثقه أحمد وأبو داود وغيرهما، وحكي عن ابن معين تضعيفه، وأخرج له مسلم وأهل السنن.

وهذا الحديث فيه نكارة شديدة، وقد رواه عبد الرزاق، عن جعفر بن سليمان، عن عمرو بن مالك وهو النكري[8] أنه سمع أبا الجوزاء يقول في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾، في الصفوف في الصلاة ﴿وَالْمُسْتَأْخِرِينَ﴾. فالظاهر أنه من كلام أبي الجوزاء فقط، ليس فيه لابن عباس ذكر[9]. وقد قال الترمذي: هذا أشبه من رواية نوح بن قيس[10]، والله أعلم.

وهكذا روى ابن جرير عن محمد بن أبي معشر، عن أبيه: أنه سمع عون بن عبد الله يُذاكر محمد بن كعب في قوله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾، وأنها في صفوف

---

(١) في ت: «عنه».

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ١٦، ١٧).

(٣) في هـ، ت، أ: «عن أبيه أخبرنا» والمثبت من الطبري.

(٤) تفسير الطبري (١٤/ ١٨).

(٥) في أ: «حدثنا». (٦) في أ: «سننهما».

(٧) تفسير الطبري (١٤/ ١٨) والمسند (١/ ٣٠٥) وسنن الترمذي برقم (٣١٢٢) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٢٧٣) وسنن ابن ماجة برقم (١٠٤٦).

(٨) في ت، أ: «البكري».

(٩) تفسير عبد الرزاق (١/ ٣٠١).

(١٠) سنن الترمذي برقم (٣١٢٢) وعبارته: «وروى جعفر بن سليمان هذا الحديث، عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء نحوه، ولم يذكر فيه عن ابن عباس، وهذا أشبه أن يكون أصح من حديث نوح».

الصلاة، فقال محمد بن كعب: ليس هكذا، ﴿ ولَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ ﴾: الميت والمقتول و﴿الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾: من يُخلق بَعْدُ، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾، فقال عون بن عبد الله: وفقك الله وجزاك خيراً[١].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) ﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: المراد بالصلصال هاهنا: التراب اليابس.

والظاهر أنه كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ . وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ [الرحمن: ١٤، ١٥].

وعن مجاهد أيضاً: الصلصال: المنتن.

وتفسير الآية بالآية أولى[٢].

وقوله: ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ أي: الصلصال من حمأ، وهو: الطين. والمسنون: الأملس، كما قال الشاعر[٣]:

ثُمَّ خاصرتها إلى القُبَّة الخضـ ـــراء تَمْشي في مَرْمَرٍ مَسْنُون

أي: أملس صقيل.

ولهذا روي عن ابن عباس: أنه قال: هو التراب الرطب. وعن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك أيضاً: أن الحمأ المسنون هو المنتن. وقيل: المراد بالمسنون هاهنا: المصبوب.

وقوله: ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ ﴾ أي: من قبل الإنسان ﴿ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾ قال ابن عباس: هي السموم التي تقتل.

وقال بعضهم: السموم بالليل والنهار. ومنهم من يقول: السموم بالليل، والحرور بالنهار.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: دخلت على عَمْرو الأصم أعوده، فقال: ألا أحدِّثك حديثا سمعته من عبد الله بن مسعود، يقول: هذه السموم جزء من سبعين جزءا من السموم التي خلق[٤] منها الجان، ثم قرأ: ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾[٥].

وعن ابن عباس: أن الجان خُلق من لهب النار، وفي رواية: من أحسن النار.

وعن عمرو بن دينار: من نار الشمس، وقد ورد في الصحيح: «خُلقت الملائكة من نور،

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ١٦).

(٢) في أ: «الأولى».

(٣) هو عبد الرحمن بن حسان، والبيت في اللسان، مادة (سنن).

(٤) في ت، أ: «خلق الله منها».

(٥) ورواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٢١) من طريق شعبة به نحوه.

وخُلقت الجان من مارج من نار، وخُلق بنو آدم مما وصف لكم»[١] ومقصود الآية: التنبيه على شرف آدم، عليه السلام، وطيب عنصره، وطهارة مَحْتِده[٢].

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) ﴾.

يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له، وتشريفه إياه بأمره الملائكة بالسجود له. ويذكر تخلف إبليس عدوّه عن السجود له من بين سائر الملائكة، حَسَداً وكفراً، وعناداً واستكباراً، وافتخاراً بالباطل، ولهذا قال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، وقوله[٣]: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٢].

وقد روى ابن جرير هاهنا أثراً غريباً عجيباً، من حديث شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما خلق الله الملائكة قال: إني خالق بشراً من طين، فإذا سويته[٤]فاسجدوا له. قالوا: لا نفعل. فأرسل عليهم ناراً فأحرقتهم، ثم خلق ملائكة فقال لهم مثل ذلك، [فقالوا: لا نفعل. فأرسل عليهم نارا فأحرقتهم. ثم خلق ملائكة أخرى فقال: إني خالق بشرا من طين، فإذا أنا خلقته فاسجدوا له فأبوا، فأرسل عليهم نارا فأحرقتهم. ثم خلق ملائكة فقال: إني خالق بشرا من طين، فإذا أنا خلقته فاسجدوا له][٥]. قالوا[٦]: سمعنا وأطعنا، إلا إبليس كان من الكافرين الأولين[٧].

وفي ثبوت هذا عنه بعد، والظاهر أنه إسرائيلي، والله أعلم.

﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) ﴾.

يقول آمراً لإبليس أمراً كونياً لا يخالف ولا يمانع، بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملأ الأعلى، وإنه ﴿رَجِيمٌ﴾ أي: مرجوم. وإنه قد أتبعه لعنة لا تزال متصلة به، لاحقة له، متواترة عليه إلى يوم القيامة.

وعن سعيد بن جبير أنه قال: لما لعن الله إبليس، تغيرت صورته عن صورة الملائكة، ورن رنة،

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٩٦) من حديث عائشة، رضي الله عنها.

(٢) في ت: «محتده». (٣) في ت، أ: «وقال في الآية الأخرى». (٤) في ت، أ: «خلقته».

(٥) زيادة من ت، أ، الطبري. (٦) في ت: «فقالوا».

(٧) تفسير الطبري (١٤/ ٢٢).

فكل رنة في الدنيا إلى يوم القيامة منها. رواه ابن أبي حاتم.

وإنه لما تحقق الغضب الذي لا مَرَدَّ له، سأل من تمام حسده لآدم وذريته النظرة إلى يوم القيامة، وهو يوم البعث وأنه أجيب إلى ذلك استدراجاً له وإمهالاً، فلما تحقق النظرة قبحه الله:

﴿ **قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤)** ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب: ﴿ **بِمَا أَغْوَيْتَنِي** ﴾: قال بعضهم: أقسم بإغواء الله له.

قلت: ويحتمل أنه بسبب ما أغويتني وأضللتني ﴿ **لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ** ﴾ أي: لذرية آدم، عليه السلام ﴿ **فِي الْأَرْضِ** ﴾ أي: أحبب إليهم المعاصي وأرغبهم فيها، وأؤزهم إليها، وأزعجهم إزعاجاً، ﴿ **وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ** ﴾ أي: كما أغويتني وقدَّرت علي ذلك، ﴿ **أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾، كما قال: ﴿ **أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾ [الإسراء: ٦٢].

قال الله تعالى له متهدداً ومتوعداً [1]: ﴿ **هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ** ﴾ أي: مرجعكم كلكم إليَّ، فأجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** ﴾ [الفجر: ١٤].

وقيل: طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى، وإليه تنتهي. قاله مجاهد، والحسن، وقتادة كما قال: ﴿ **وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ** ﴾ [النحل: ٩].

وقرأ قيس بن عُبَاد، ومحمد بن سيرين، وقتادة: «هَذَا صِرَاطٌ عَلِيٌّ مُسْتَقِيمٌ»، كقوله: ﴿ **وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ** ﴾ [الزخرف: ٤] أي: رفيع. والمشهور القراءة الأولى.

وقوله: ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** ﴾ أي: الذين قدرت لهم [2] الهداية، فلا سبيل لك عليهم، ولا وصول لك إليهم، ﴿ **إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ** ﴾ استثناء منقطع.

وقد أورد ابن جَرير هاهنا من حديث عبد الله بن المبارك، عن عبد الله بن موهب [3]، حدثنا يزيد ابن قُسَيْط قال: كانت الأنبياء يكون لهم مساجد خارجة من قراهم، فإذا أراد النبي أن يستنبئ ربه عن شيء، خرج إلى مسجده فصلى ما كتب الله له، ثم سأل ما بدا له، فبينا نبي في مسجده إذ جاء عدو الله ـ يعني: إبليس ـ حتى جلس بينه وبين القبلة، فقال النبي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. [فقال

---

(١) في ت، أ: «متوعداً ومهدداً».

(٢) في أ: «عليهم».

(٣) في أ: «وهب».

عدو الله: أرأيت الذى تَعَوّذ منه؟ فهو هو. فقال النبى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم][١] قال: فَرَدّدَ[٢] ذلك ثلاث مرات، فقال عدو الله: أخبرنى بأي شيء تنجو مني؟ فقال النبى: بل أخبرني بأي شيء تغلب ابن آدم؟ مرتين، فأخذ كل [واحد][٣] منهما على صاحبه، فقال النبى: إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾. قال عدو الله: قد سمعت هذا قبل أن تولد. قال النبى: ويقول: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وإني[٤] والله ما أحسست بك قط إلا استعذت بالله منك. قال عدو الله: صدقت، بهذا تنجو مني. فقال النبى: «أخبرنى بأي شيء تغلبُ ابن آدم؟» قال: آخذه عند الغضب والهوى[٥].

وقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: جهنم موعد جميع من اتبع إبليس، كما قال عن القرآن: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧].

ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أي: قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه، لا محيد لهم عنه ـ أجارنا الله منها ـ وكل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في دَرْكٍ بقدر فعله.

قال إسماعيل بن عُلَيّة وشعبة كلاهما، عن أبي هارون الغَنَوِيّ، عن حطان بن عبد الله أنه قال: سمعت على بن أبي طالب وهو يخطب قال: إن أبواب جهنم هكذا ـ قال أبو هارون: أطباقا بعضها فوق بعض[٦].

وقال إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن هُبَيرة بن يريم[٧]، عن علي، رضي الله عنه، قال: أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيمتلئ الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، حتى تُمْلأ كلها[٨].

وقال عِكْرِمة: ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾: سبعة أطباق.

وقال ابن جُرَيج: ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾: أولها جهنم، ثم لظَى، ثم الحُطَمة، ثم سعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية.

وروى[٩] الضحاك عن ابن عباس، نحوه. وكذا [روي][١٠] عن الأعمش بنحوه أيضا.

وقال قتادة: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾: وهي والله منازل بأعمالهم. رواهن ابن جرير.

وقال جويبر، عن الضحاك: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ قال: باب لليهود،

---

(١) زيادة من ت، أ، والطبرى.
(٢) في أ: «فرده».
(٣) زيادة من ت، والطبرى.
(٤) في أ: «وإنا».
(٥) تفسير الطبرى (١٤/ ٢٤).
(٦) رواه الطبرى في تفسيره (١٤/ ٢٤).
(٧) في ت: «مريم».
(٨) رواه الطبرى في تفسيره (١٤/ ٢٤).
(٩) في أ: «ورواه».

وباب للنصارى، وباب للصابئين، وباب للمجوس، وباب للذين أشركوا ـ وهم كفار العرب ـ وباب للمنافقين، وباب لأهل التوحيد، فأهل التوحيد يُرجَى لهم ولا يُرجى لأولئك أبداً.

وقال الترمذي: حدثنا عبد بن حُميد، حدثنا عثمان بن عمر، عن مالك بن مغْوَل، عن جُنَيد[1]، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «لجهنم سبعة أبواب: باب منها لمن سلَّ السيف على أمتي ـ أو قال: على أمة محمد».

ثم قال: لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغْوَل[2].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا، عباس بن الوليد الخلال، حدثنا زيد ـ يعني: ابن يحيى ـ حدثنا سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أبي نضرة، عن سَمُرة بن جُنْدَب، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ قال: «إن من أهل النار من تأخذه النار إلى كعبيه، وإن منهم من تأخذه النار إلى حُجزته، ومنهم من تأخذه النار إلى تراقيه، منازل بأعمالهم، فذلك قوله: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾»[3].

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ (٥٠)﴾.

لما ذكر تعالى حال أهل النار، عطف على ذكر أهل الجنة، وأنهم في جنات وعيون.

وقوله: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ﴾ أي: سالمين من الآفات، مسلماً عليكم، ﴿آمِنِينَ﴾ من كل خوف وفزع، ولا تخشوا من إخراج، ولا انقطاع، ولا فناء.

وقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾: روى القاسم، عن أبي أمامة قال: يدخل أهل الجنة الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من الشحناء والضغائن، حتى إذا توافوا وتقابلوا نَزَع الله ما في صدورهم في الدنيا من غل، ثم قرأ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾[4].

هكذا في هذه الرواية، والقاسم بن عبد الرحمن ـ في روايته[5] عن أبي أمامة ـ ضعيف.

وقد روى سُنَيد في تفسيره: حدثنا ابن فضالة، عن لقمان، عن أبي أمامة قال: لا يدخل مؤمن الجنة حتى ينزع الله ما في صدورهم من غل، حتى ينزع منه مثل السبع الضاري[6].

وهذا موافق لما في الصحيح، من رواية قتادة، حدثنا أبو المتوكل الناجي: أن أبا سعيد الخدري

---

(١) في هـ، ت، أ: «حميد» والمثبت من الترمذي.

(٢) سنن الترمذي برقم (٣١٢٣) وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول».

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٨٢) مطولاً، وأصل الحديث في صحيح مسلم برقم (٢٨٤٥) دون ذكر الآية إلى قوله: «تأخذه النار إلى حجزته».

(٤) رواه الطبري في تفسيره (١٤/ ٢٥) من طريق إسرائيل، عن بشر البصري، عن القاسم به.

(٥) في ت: «رواية».

(٦) رواه الطبري في تفسيره (١٤/ ٢٥).

حدثهم: أن رسول الله ﷺ قال: «يَخلُص المؤمنون من النار، فيُحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقتص لبعضهم من بعضهم، مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذّبوا ونُقّوا، أذن لهم في دخول الجنة»[1].

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا هشام، عن محمد ـ هو ابن سيرين ـ قال: استأذن الأشتر على عليٍّ، رضي الله عنه، وعنده ابن لطلحة، فحبسه ثم أذن له. فلما دخل قال: إني لأراك إنما احتبستني لهذا؟ قال: أجل. قال: إني لأراه لو كان عندك ابن لعثمان حبستني؟ قال: أجل إني[2]، لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ [إِخْوَانًا][3] عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾[4].

وحدثنا الحسن: حدثنا أبو معاوية الضرير، حدثنا أبو مالك الأشجعي، عن أبي حبيبة ـ مولى لطلحة ـ قال: دخل عمران بن طلحة على عليٍّ، رضي الله عنه، بعد ما فرغ من أصحاب الجمل، فرحب به وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ ـ قال: ورجلان جالسان على ناحية البساط، فقالا: الله أعدل من ذلك، تقتلهم بالأمس، وتكونون إخوانا! فقال علي، رضي الله عنه: قوما أبعد أرض وأسحقها! فمن هو إذا إن لم أكن أنا وطلحة. وذكر أبو معاوية الحديث بطوله[5].

وروى وكيع، عن أبان بن عبد الله البجلي، عن نُعَيْم بن أبي هند، عن رِبْعي بن حِراش، عن علي، نحوه، وقال فيه: فقام رجل من هَمْدان فقال: الله أعدل من ذلك يا أمير المؤمنين. قال: فصاح به علي صيحة، فظننت أن القصر تدهده لها. ثم قال: إذا لم نكن نحن فمن هو؟[6].

وقال سعيد بن مسروق، عن أبي طلحة ـ وذكره ـ فيه: فقال الحارث الأعور ذلك، فقام إليه علي، رضي الله عنه، فضربه بشيء كان في يده في رأسه، وقال: فمن هم[7] يا أعور إذا لم نكن نحن؟

وقال سفيان الثوري: عن منصور، عن إبراهيم قال: جاء ابن جرموز قاتل الزبير يستأذن على عليٍّ، رضي الله عنه فحجبه طويلا، ثم أذن له. فقال له: أما أهل البلاء فتجفوهم. فقال علي: بفيك التراب، إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير، ممن قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾.

---

(١) صحيح البخاري برقم (٦٥٣٥).

(٢) في ت: «أجل، قال: إني». (٣) زيادة من ت، 

(٤) تفسير الطبري (١٤/ ٣٦).

(٥) تفسير الطبري (١٤/ ٣٥).

(٦) رواه الطبري في تفسيره (١٤/ ٣٥) من طريق وكيع

(٧) في أ: «فمن هو».

وكذا روى الثوري، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي، بنحوه.

وقال سفيان بن عيينة، عن إسرائيل، عن أبي موسى، سمع الحسن البصري يقول: قال علي: فينا والله ـ أهل بدر ـ نزلت هذه الآية: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾.

وقال كثير النَّواء: دخلت على أبي جعفر محمد بن علي فقلت: وليي وليكم، وسلمي سلمكم، وعدوي عدوكم، وحربي حربكم. إني أسألك بالله: أتبرأ من أبي بكر وعمر؟ فقال: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦]، تولهما[1] يا كثير، فما أدركك فهو في رقبتي هذه، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ قال: أبو بكر، وعمر، وعلي، رضي الله عنهم أجمعين.

وقال الثوري، عن رجل، عن أبي صالح في قوله: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾، قال: هم عشرة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الله بن مسعود، رضي الله عنهم أجمعين.

وقوله: ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾: قال مجاهد: لا ينظر بعضهم في قفا بعض.

وفيه حديث مرفوع، قال ابن أبي حاتم:

حدثنا يحيى بن عبدك القزويني، حدثنا حسان بن حسان، حدثنا إبراهيم بن بشير[2]، حدثنا يحيى بن معين، عن إبراهيم القرشي، عن سعيد بن شرحبيل، عن زيد بن أبي أوفى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، فتلا هذه الآية: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾، في الله، ينظر بعضهم إلى بعض[3].

وقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ يعني: المشقة والأذى، كما جاء في الصحيحين: «إن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب»[4].

وقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾، كما جاء في الحديث: «يقال[5]: يا أهل الجنة، إن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبداً»، وقال الله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨].

وقوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ أي: أخبر يا محمد عبادي أني ذو رحمة وذو عقاب أليم.

وقد تقدم ذكر نظير هذه الآية الكريمة، وهي دالة على مقامي الرجاء والخوف، وذكر في سبب

---

(١) في ت: «برهما» وفي أ: «برها».

(٢) في هـ، ت، أ: «بشر» والمثبت عن الجرح والتعديل ١/١/ ١٠ مستفاداً من حاشية الشعب.

(٣) ورواه البخاري في التاريخ الكبير (٣/ ٣٨٦) في ترجمة زيد بن أبي أوفى ومن طريق حسان بن حسان به، وقال: «لا يتابع عليه».

(٤) صحيح البخاري برقم (٣٨٢٠) وصحيح مسلم برقم (٢٤٣٢) من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

(٥) في أ: «فقال».

نزولها ما رواه موسى بن عبيدة عن مصعب بن ثابت قال: مر رسول الله ﷺ على ناس من أصحابه يضحكون، فقال: «اذكروا الجنة، واذكروا النار». فنزلت: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾. رواه ابن أبي حاتم. وهو مرسل[1].

وقال ابن جرير، حدثني المثنى، حدثنا إسحاق، أخبرنا ابن المكي، أخبرنا ابن المبارك، أخبرنا مصعب بن ثابت، حدثنا عاصم بن عبيد الله، عن ابن أبي رباح، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: طلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة، فقال: «لا أراكم تضحكون؟» ثم أدبر، حتى إذا كان عند الحجر رجع إلينا القهقرى، فقال: «إني لما خرجت جاء جبريل، عليه السلام، فقال: يا محمد، إن الله يقول[2]: لم تقنط[3] عبادي؟ ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾»[4].

وقال سعيد، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام، ولو يعلم قدر عقابه لبخع نفسه»[5].

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦)﴾.

يقول[6] تعالى: وخبرهم يا محمد عن قصة ﴿ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ والضيف: يطلق على الواحد والجمع، كالزور والسَّفْر ـ وكيف ﴿دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي: خائفون.

وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه لهم[7] ضيافة، وهو العجل السمين الحنيذ.

﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ أي: لا تخف، ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨] وهو إسحاق، عليه السلام، كما تقدم في سورة هود.

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٨٦) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم. وموسى بن عبيدة الربذي ضعيف.

(٢) في أ: «يقول الله».

(٣) في ت: «تقنط».

(٤) تفسير الطبري (١٤/ ٢٧).

(٥) رواه الطبري في تفسيره (١٤/ ٢٧) وابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله برقم (٦٤) من طريق سعيد به مرسلا، وروي موصولا نحوه عن ابن عمر وأبي سعيد الخدري: أما حديث ابن عمر، فرواه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله برقم (٦٣) من طريق موسى بن عطية، عن ابن عمر مرفوعا: «لو تعلمون قدر رحمة الله عز وجل لا تكلتم وما عملتم من عمل، ولو علمتم قدر غضبه ما نفعكم شيء»، وحديث أبي سعيد، رواه البزار في مسنده ولفظه: «لو تعلمون قدر رحمة الله لا تكلتم ـ أحسبه قال. عليها». وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٨٤): «إسناده حسن».

(٦) في أ: «يخبر».

(٧) في ت، أ: «إليهم».

ثم قال[1] متعجباً من كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد: ﴿أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون﴾، فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة، ﴿قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين﴾ وقرأ بعضهم: «القنطين»[2] ـ فأجابهم بأنه ليس يقنط، ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر وأسنت امرأته، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.

﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون (٥٧) قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين (٥٨) إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين (٥٩) إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين (٦٠)﴾.

يقول تعالى إخبارا عن إبراهيم، عليه السلام، لما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى: إنه شرع يسألهم عما جاؤوا له، فقالوا: ﴿إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾، يعنون: قوم لوط. وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من المهلكين؛ ولهذا قالوا: ﴿إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين﴾ أي: الباقين المهلكين.

﴿فلما جاء آل لوط المرسلون (٦١) قال إنكم قوم منكرون (٦٢) قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون (٦٣) وأتيناك بالحق وإنا لصادقون (٦٤)﴾.

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه، فدخلوا عليه داره، قال: ﴿إنكم قوم منكرون. قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون﴾ يعنون: بعذابهم وهلاكهم ودمارهم الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم، وحلوله بساحتهم، ﴿وأتيناك بالحق﴾، كما قال تعالى: ﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق﴾ [الحجر: ٨].

وقوله: ﴿وإنا لصادقون﴾: تأكيد لخبرهم[3] إياه بما أخبروه به، من نجاته وإهلاك قومه، [والله أعلم][4].

﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون (٦٥) وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين (٦٦)﴾.

يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يسري بأهله بعد مضي جانب من الليل، وأن يكون لوط، عليه السلام، يمشي وراءهم، ليكون أحفظ لهم.

وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشي في الغزاة بما كان يكون[5] ساقة، يزجي الضعيف، ويحمل المنقطع[6].

وقوله: ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ أي: إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم، وذروهم فيما

---

(١) في ت، أ: «فقال».
(٢) في ت، أ: «القنطين».
(٣) في ت: «بخبرهم».
(٤) زيادة من أ.
(٥) في ت: «في الغزو إنما كان»، وفي أ: «في الغزو وإنما يكون».
(٦) رواه أبو داود في السنن برقم (٢٦٣٩) من حديث جابر ولفظه: «كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير، فيزجي الضعيف، ويردف، ويدعو لهم».

حل بهم من العذاب والنكال، ﴿ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾، كأنه كان معهم من يهديهم السبيل.

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ ﴾ أي: تقدمنا إليه في هذا ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ أي: وقت الصباح، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود: ٨١].

﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) ﴾.

يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه[١] وصباحة وجوههم، وأنهم جاؤوا مستبشرين بهم فرحين، ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ . وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ ﴾.

وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم بأنهم رسل الله كما في سياق[٢] سورة هود، وأما هاهنا فتقدم ذكرُ أنهم رسل الله، وعطف بذكر مجيء قومه ومحاجته لهم. ولكن الواو لا تقتضي الترتيب، ولا سيما إذا دل دليل[٣] على خلافه، فقالوا له مجيبين: ﴿ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ أي: أو ما نهيناك أن تضيف أحدا؟ فأرشدهم إلى نسائهم، وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة. وقد تقدم أيضا القول في ذلك، بما أغنى عن إعادته.

هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم، وما قد أحاط بهم من البلاء، وماذا يُصبحهم من العذاب المستقر؛ ولهذا قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾، أقسم تعالى بحياة نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريف عظيم، ومقام رفيع وجاه عريض.

قال عمرو بن مالك النُّكْري[٤]، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس، أنه قال: ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى[٥]: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [يقول: وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا إنهم لفي سكرتهم يعمهون][٦]، رواه ابن جرير.

وقال قتادة: ﴿ فِي سَكْرَتِهِمْ ﴾ أي: في ضلالتهم، ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ أي: يلعبون.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾: لعيشك، ﴿ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ قال: يتحيَّرون[٧].

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً

---

(١) في ت: «بضيفانه». (٢) في ت: «سياقة». (٣) في ت: «دليله».
(٤) في ت: «البكري». (٥) في أ: «عز وجل». (٦) زيادة من ت، أ.
(٧) في ت، أ: «يتمادون».

لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) ﴾.

يقول: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ﴾، وهي ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس، وهو طلوعها، وذلك مع رفع[١] بلادهم إلى عَنان السماء ثم قلبها، وجعل عاليها سافلها، وإرسال حجارة السجيل عليهم. وقد تقدم الكلام على السجيل في [سورة][٢] هود بما فيه كفاية.

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ أي: إن آثار هذه النقم ظاهرة[٣] على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته، كما قال مجاهد في قوله: ﴿ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ قال: المتفرسين.

وعن ابن عباس، والضحاك: للناظرين. وقال قتادة: للمعتبرين. وقال مالك عن بعض أهل المدينة: ﴿ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾: للمتأملين.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا محمد بن كثير العَبْدي، عن عمرو بن قيس، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله». ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾.

رواه الترمذي، وابن جرير، من حديث عمرو بن قيس الملائي[٤]، وقال الترمذي: لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثني أحمد بن محمد الطوسي، حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا الفرات ابن السائب، حدثنا ميمون بن مِهْران، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن؛ فإن المؤمن ينظر[٥] بنور الله»[٦].

وقال ابن جرير: حدثني أبو شرحبيل الحمصي، حدثنا سليمان بن سلمة، حدثنا المؤَمَّل بن سعيد ابن يوسف الرَّحبي، حدثنا أبو المعلى أسد بن وَدَاعة الطائي، حدثنا وهب بن مُنَبِّه، عن طاوس بن كَيْسان، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «احذروا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله وينطق بتوفيق الله»[٧].

وقال أيضاً: حدثنا عبد الأعلى بن واصل، حدثنا سعيد بن محمد الجرمي، حدثنا عبد الواحد بن واصل، حدثنا أبو بشر المزلق، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: قال النبي[٨] ﷺ: «إن لله عبداً

---

(١) في ت: «رفع».

(٢) زيادة من أ.

(٣) في أ: «الظاهرة».

(٤) سنن الترمذي برقم (٣١٢٧) وتفسير الطبري (١٤/ ٣١).

(٥) في ت، أ: «يبصر».

(٦) تفسير الطبري (١٤/ ٣٢) ورواه أبو نعيم في الحلية (٤/ ٩٤) من طريق فرات بن السائب به، وقال: «غريب من حديث ميمون لم نكتبه إلا من هذا الوجه». والفرات متروك.

(٧) تفسير الطبري (١٤/ ٣٢) ورواه أبو نعيم في الحلية (٤/ ٨١) من طريق سليمان بن سلمة به، وقال: «غريب من حديث وهيب، تفرد به مؤمل عن أسد». وسليمان بن سلمة وشيخه المؤمل ضعيفان.

(٨) في أ: «رسول الله».

يعرفون الناس بالتوسم»[1].

ورواه الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا سهل بن بحر، حدثنا سعيد بن محمد الجرمي، حدثنا أبو بشر ـ يقال له: ابن المزلق، قال: وكان ثقة ـ عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم»[2].

وقوله: ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ أي: وإن قرية سدوم التي أصابها ما أصابها من القلب الصوري والمعنوي، والقذف بالحجارة، حتى صارت بحيرة[3] منتنة خبيثة لبطريق مَهْيَع مسالكه[4]، مستمرة إلى اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

وقال مجاهد، والضحاك: ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ قال: مُعْلَم. وقال قتادة: بطريق واضح. وقال قتادة أيضاً: بصقع من الأرض واحد.

وقال السدي: بكتاب مبين، يعني كقوله: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ١٢]، ولكن ليس المعنى على ما قال هاهنا، والله أعلم.

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: إن الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار وإنجائنا لوطا وأهله، لدلالة واضحة جلية[5] للمؤمنين بالله ورسله.

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (٧٨) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩) ﴾.

أصحاب الأيكة: هم قوم شعيب.

قال الضحاك، وقتادة، وغيرهما: الأيكة: الشجر الملتف.

وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان. فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة، وقد كانوا قريباً من قوم لوط، بعدهم في الزمان، ومسامتين لهم في المكان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أي: طريق مبين.

قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: طريق ظاهر؛ ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في نذارته إياهم: ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٩].

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا

(١) تفسير الطبري (١٤/ ٣٢) ورواه القضاعي في مسند الشهاب برقم (١٠٠٥) والطبراني في المعجم الأوسط برقم (٥٠٠٤) «مجمع البحرين» من طريق أبي بشر المزلق به، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٦٨): «إسناده حسن». وقال الذهبي في ترجمة أبي بشر المزلق: «روى خبراً منكراً فذكره» وهذا أقرب.

(٢) مسند البزار برقم (٣٦٣٢) «كشف الأستار» وقال: «لا نعلم رواه عن ثابت، عن أنس إلا أبو بشر».

(٣) في ت: «بخرة»، وفي أ: «بخرة».

(٤) في ت، أ: «مسالكة».

(٥) في أ: «جليلة».

كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤) ﴾.

أصحاب الحجر هم: ثمود الذين كذبوا صالحا نبيهم، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين؛ ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين.

وذكر تعالى أنه آتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح، كالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء فكانت[1] تسرح في بلادهم، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم. فلما عتوا وعقروها قال لهم: ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [فصلت: ١٧].

وذكر تعالى: أنهم ﴿كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴾ أي: من غير خوف ولا احتياج إليها، بل أشرا وبطرا وعبثا، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر، الذي مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك فقنّع رأسه وأسرع دابته، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم»[2].

وقوله: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ أي: وقت الصباح من[3] اليوم الرابع، ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي: ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنّوا بمائها عن الناقة، حتى عقروها لئلا تضيق عليهم في المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال، ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨٦) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ أي: بالعدل؛ ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾[ص: ٢٧]، وقال: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

ثم أخبر نبيه بقيام الساعة، وإنها كائنة لا محالة، ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين، في أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم[4] به، كما قال تعالى: ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ[5] ﴾ [الزخرف: ٨٩].

وقال مجاهد وقتادة وغيرهما: كان هذا قبل القتال. وهو كما قالا، فإن هذه مكية، والقتال إنما

---

(١) في ت: «وكانت».

(٢) جاء من حديث ابن عمر، رضي الله عنهما، رواه البخاري في صحيحه برقم (٣٣٨٠) ومسلم في صحيحه برقم (٢٩٨) ولفظه: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم...» الحديث. ورواه البخاري في صحيحه برقم (٤٧٠٢) بلفظ: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم».

(٣) في أ: «في».  (٤) في ت، أ: «ما جاء».  (٥) في ت: «تعلمون».

شرع بعد الهجرة.

وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾: تقرير للمعاد، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة، فإنه الخلاق الذى لا يعجزه خلق ما يشاء، وهو العليم بما تمزق[١] من الأجساد، وتفرق[٢] فى سائر أقطار الأرض، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ . فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٨١ ـ ٨٣].

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾.

يقول تعالى لنبيه: كما آتيناك القرآن العظيم، فلا تنظرن إلى الدنيا وزينتها، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لنفتنهم فيه، فلا تغبطهم بما هم فيه، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزنا عليهم فى تكذيبهم لك، ومخالفتهم دينك. ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥] أى: ألن لهم جانبك[٣]، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقد اختلف فى السبع المثانى: ما هى؟

فقال ابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك وغير واحد: هى السبع الطُّوَل. يعنون: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، نص عليه ابن عباس، وسعيد بن جبير.

وقال سعيد: بيَّن[٤] فيهن الفرائض، والحدود، والقصص، والأحكام.

وقال ابن عباس: بيَّن[٥] الأمثال والخَبَر والعِبَر[٦].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر قال: قال سفيان: ﴿ الْمَثَانِي ﴾: المثنى[٧]: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال وبراءة[٨] سورة واحدة.

قال ابن عباس: ولم يُعْطهن أحد إلا النبى ﷺ، وأعطى موسى منهن ثنتين. رواه هُشَيم، عن الحجاج، عن الوليد بن العيزار[٩]، عن سعيد بن جُبير عنه.

[و][١٠] قال الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أوتى النبى ﷺ سبعاً من المثانى الطُّوَل، وأوتى موسى، عليه السلام، ستاً، فلما ألقى الألواح ارتفع[١١] اثنتان وبقيت أربع.

---

(١) فى ت، أ: «يمزق».
(٢) فى ت، أ: «ويفرق».
(٣) فى ت: «جنابك».
(٤، ٥) فى ت، أ: «بنى».
(٦) فى ت: «الخير والشر».
(٧) فى ت: «المبين».
(٨) فى ت: «وبراءة والأنفال».
(٩) فى ت: «العيزان».
(١٠) زيادة من ت، أ.
(١١) فى ت، أ: «رفعت».

وقال مجاهد: هي السبع الطُّوَل. ويقال: هي القرآن العظيم.

وقال خَصِيف، عن زياد بن أبي مريم في قوله تعالى: ﴿ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي ﴾ قال: أعطيتك سبعة أجزاء: آمر، وأنهى، وأبشر[١]، وأنذر، وأضرب الأمثال، وأعدِّد النعم، وأنبئك بنبأ[٢] القرآن. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

والقول الثاني: أنها الفاتحة، وهي سبع آيات. رُوِي ذلك عن عمر وعلي، وابن مسعود، وابن عباس. قال ابن عباس: والبسملة هي[٣] الآية السابعة، وقد خصكم الله بها. وبه قال إبراهيم النَّخعي، وعبد الله بن عبيد بن عُمَير، وابن أبي مليكة، وشَهْر بن حَوْشَب، والحسن البصري، ومجاهد.

وقال قتادة: ذكر لنا أنهن فاتحة الكتاب، وأنهن يثنين[٤] في كل قراءة. وفي رواية: في كل ركعة مكتوبة أو تطوع.

واختاره ابن جرير، واحتج بالأحاديث الواردة في ذلك، وقد قدمناها في فضائل سورة «الفاتحة» في أول التفسير، ولله الحمد.

وقد أورد البخاري، رحمه الله، هاهنا حديثين:

**أحدهما**: قال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غُنْدَر، حدثنا شعبة، عن خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد بن المعلى قال: مر بي النبي ﷺ وأنا أصلي، فدعاني فلم آته حتى صليت، ثم أتيته فقال: «ما[٥] منعك أن تأتيني[٦]؟». فقلت: كنت أصلي. فقال: «ألم يقل الله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟» فذهب النبي ﷺ ليخرج، فذكرته[٧] فقال: «﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢]، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»[٨].

[و][٩] الثاني: قال: حدثنا آدم، حدثنا ابن أبي ذئب، حدثنا المقبري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هي: السبع المثاني والقرآن العظيم»[١٠].

فهذا نص في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم، ولكن لا ينافي[١١] وصف غيرها من السبع الطُّوَل بذلك، لما فيها من هذه الصفة، كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً، كما قال تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ ﴾ [الزمر: ٢٣]، فهو مثاني من وجه، ومتشابه من وجه، وهو القرآن العظيم أيضاً، كما أنه، عليه السلام[١٢]، لما سُئل عن المسجد الذي أسس على التقوى، فأشار إلى مسجده، والآية نزلت في مسجد قُباء، فلا تنافي، فإن[١٣] ذكر الشيء لا ينفي[١٤]

---

(١) في أ: «وبشر».
(٢) في أ: «نبأ».
(٣) في أ: «عني».
(٤) في ت: «يثنين» وفي أ: «تثنى».
(٥) في أ: «ماذا».
(٦) في ت، أ: «تأتي».
(٧) في ت، أ: «فذكرت».
(٨) صحيح البخاري برقم (٤٧٠٣).
(٩) زيادة من أ.
(١٠) صحيح البخاري برقم (٤٧٠٤).
(١١) في ت: «لا تنافي».
(١٢) في أ: «ﷺ».
(١٣) في ت: «لأن».
(١٤) في ت: «ينافي».

ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة، والله أعلم.

وقوله: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ ﴾ أي: استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية.

ومن هاهنا ذهب ابن عيينة إلى تفسير الحديث الصحيح: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن»[1]، إلى أنه يُستغنى به عما عداه، وهو تفسير صحيح، ولكن ليس هو المقصود من الحديث، كما تقدم في أول التفسير.

وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن وكيع بن الجراح، حدثنا موسى بن عبيدة، عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيط، عن أبي رافع صاحب النبي ﷺ قال: أضاف النبيُّ ﷺ ضيف[2]، ولم يكن عند النبي ﷺ شيء[3] يصلحه، فأرسل إلى رجل من اليهود: يقول لك محمد رسول الله: أسلفني دقيقا إلى هلال رجب. قال: لا، إلا برهن. فأتيت النبي ﷺ [فأخبرته][4] فقال: «أما والله إني لأمين من في السماء وأمين من في الأرض، ولئن أسلفني أو باعني لأؤدين إليه». فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ إلى آخر الآية [طه: ١٣١]. كأنه[5] يعزيه عن الدنيا[6].

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ قال: نهى الرجل أن يتمنى مال صاحبه.

وقال مجاهد: ﴿ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ ﴾: هم الأغنياء.

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾.

يأمر تعالى نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، أن[7] يقول للناس: إنه ﴿ النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾، البين النِّذَارة، نذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تكذيبه كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسلها، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام.

وقوله: ﴿الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ أي: المتحالفين، أي: تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم، كما قال تعالى إخباراً عن قوم صالح أنهم: ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [النمل: ٤٩]، أي: نقتلهم ليلا، قال مجاهد: تقاسموا: تحالفوا.

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ [النحل: ٣٨]، ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، ﴿ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ [الأعراف: ٤٩]، فكأنهم كانوا لا يكذبون بشيء إلا أقسموا عليه، فسموا مقتسمين.

---

(١) وانظر فيما تقدم في فضائل القرآن، باب: من لم يتغن بالقرآن. (٢) في ت: «ضيفاء» وهو الصواب.

(٣) في ت، أ: «أمرا». (٤) زيادة من ت، أ. (٥) في ت: «كما».

(٦) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١/ ٣٣١) من طريق عبد الله بن نمير، عن موسى بن عبيدة به نحوه، وقال العراقي: «إسناده ضعيف» وذلك لأجل موسى بن عبيدة الربذي.

(٧) في ت، أ: «بأن».

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: المقتسمون أصحاب صالح، الذين تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله.

وفي الصحيحين، عن أبي موسى [الأشعري][١]، عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء! فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا، وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبَّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكَذَّب ما جئت به من الحق»[٢].

وقوله: ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ أي: جَزَّؤوا كتبهم المنزلة عليهم، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض.

قال البخاري: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هشيم، أنبأنا أبو بشر، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس: ﴿ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ قال: هم أهل الكتاب، جَزَّؤوه أجزاء، فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه[٣] [٤].

حدثنا عبيد الله بن موسى، عن الأعمش، عن أبي[٥] ظَبْيان، عن ابن عباس: ﴿ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ قال: آمنوا ببعض، وكفروا ببعض: اليهود والنصارى[٦].

قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد، وعِكْرِمة، وسعيد بن جبير، والحسن، والضحاك، مثل ذلك.

وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ قال: السحر[٧].

وقال عكرمة: العَضَهُ: السحر بلسان قريش، تقول[٨] للساحرة: إنها العاضِهة[٩].

وقال مجاهد: عَضَوه أعضاء، قالوا: سحر، وقالوا: كهانة، وقالوا: أساطير الأولين.

وقال عطاء: قال بعضهم: ساحر، وقال بعضهم: مجنون. وقال بعضهم كاهن. فذلك العضين[١٠]. وكذا روي عن الضحاك وغيره.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس: أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا شرف[١١] فيهم، وقد حضر الموسم فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر

---

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) صحيح البخاري برقم (٦٤٨٢، ٧٢٨٣) وصحيح مسلم برقم (٢٢٨٣).

(٣) صحيح البخاري برقم (٤٧٠٥).

(٤) في هـ بعد قوله «وكفروا ببعضه» ما يلي:

«حدثنا عبيد الله بن موسى، عن الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس: ﴿ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ قال: هم أهل الكتاب، جزؤوه أجزاء، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه» وليس في صحيح البخاري ولا في باقي النسخ، وهو خطأ.

(٥) في ت: «ابن».

(٦) صحيح البخاري برقم (٤٧٠٦).

(٧) في ت، أ: «سحر». (٨) في ت: «يقول». (٩) في ت: «الكاهنة».

(١٠) في ت: «الخضين». (١١) في ت، أ: «ذا سن».

صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضا. فقالوا: وأنت يا أبا عبد شمس، فقل[1] وأقم لنا رأيا نقول به. قال: بل أنتم قولوا[2] لأسمع. قالوا: نقول[3]: «كاهن». قال: ما هو بكاهن. قالوا: فنقول: «مجنون». قال: ما هو بمجنون! قالوا[4]: فنقول: «شاعر». قال: ما هو بشاعر! قالوا: فنقول: «ساحر». قال: ما هو بساحر! قالوا: فماذا نقول؟ قال: والله إن لقوله حلاوة، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل، وإن أقرب القول أن تقولوا: هو ساحر. فتفرقوا عنه بذلك، وأنزل الله فيهم: ﴿ **الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ** ﴾: أصنافا[5]، ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾، ذُوَيتك[6] النفر الذين قالوا: ذلك لرسول الله.

وقال عطية العَوفي، عن ابن عمر[7] في قوله: ﴿ **لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ قال: عن لا إله إلا الله.

وقال عبد الرزاق. أنبأنا الثوري، عن ليث ـ هو ابن أبي سليم ـ عن مجاهد: في قوله: ﴿ **لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ قال: عن [8] لا إله إلا الله[9].

وقد روى الترمذي، وأبو يعلى الموصلي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث شريك القاضي، عن ليث بن أبي سليم، عن بَشير[10] بن نَهيك، عن أنس، عن النبي ﷺ: ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ [قال][11]: عن لا إله إلا الله[12].

ورواه ابن إدريس، عن ليث، عن بشير[13]، عن أنس موقوفا[14].

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد، حدثنا أبو أحمد، حدثنا شريك، عن هلال، عن عبد الله بن عُكَيم قال: قال عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ: والذي لا إله غيره، ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة، كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، فيقول: ابن آدم، ماذا[15] غرك مني بي؟ ابن آدم، ماذا عملتَ فيما علمت؟ ابن آدم، ماذا أجبت المرسلين[16]؟

وقال أبو جعفر: عن الربيع، عن أبي العالية: قال: يسأل العباد كلهم عن خَلَّتين يوم القيامة، عما كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين.

---

(١) في ت: «فقيل». (٢) في ت، أ: «تقولوا». (٣) في ت: «تقول».
(٤) في أ: «قال». (٥) في ت: «أصنافا». (٦) في ت، أ: «أولئك».
(٧) في أ: «عن ابن عباس». (٨) في أ: «عن قول».
(٩) تفسير عبد الرزاق (١/٣٠٣).
(١٠) في ت، أ: «بشر». (١١) زيادة من ت، أ.
(١٢) سنن الترمذي برقم (٣١٢٦) ومسند أبي يعلى (٧/١١١) وهو عندهما من طريق ليث بن أبي سليم، عن بشر، عن أنس، وفي تفسير الطبري (١٤/٤٦) رواه من طريق شريك عن بشر عن أنس، وقال الترمذي: «هذا حديث غريب إنما نعرفه من حديث ليث بن أبي سليم، وقد روى عبد الله بن أدريس، عن ليث بن أبي سليم، عن بشر، عن أنس نحوه ولم يرفعه».
(١٣) في أ: «بشر».
(١٤) أشار إليه الترمذي كما تقدم،ورواه الطبري في تفسيره (١٤/٤٦) من طريق أبي كريب وأبي السائب، عن ابن إدريس به موقوفا.
(١٥) في ت: «ما».
(١٦) تفسير الطبري (١٤/٤٦).

وقال ابن عيينة: عن عملك، وعن مالك.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحَوَاري، حدثنا يونس الحذاء، عن أبي حمزة الشيباني، عن معاذ بن جبل قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا معاذ، إن المؤمن ليسأل[1] يوم القيامة عن جميع سعيه، حتى كحل عينيه، وعن[2] فتات الطينة بأصبعيه، فلا ألفينك يوم القيامة[3]، وأحد أسعد بما آتى[4] الله منك»[5].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾، ثم قال: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ [الرحمن: ٣٩] قال: لا يسألهم: هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩) ﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، بإبلاغ ما بعثه به وبإنفاذه[6] والصدع به، وهو مواجهة المشركين به، كما قال ابن عباس: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ أي: أمضه. وفي رواية: افعل ما تؤمر.

وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن في الصلاة.

وقال أبو عبيدة، عن[7] عبد الله بن مسعود: ما زال النبي ﷺ مستخفيا، حتى نزلت: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾، فخرج هو وأصحابه[8].

وقوله: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ أي: بلغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله. ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم: ٩]، ولا تخفهم؛ فإن الله كافيك إياهم، وحافظك منهم، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يحيى بن محمد بن السكن، حدثنا إسحاق بن إدريس، حدثنا عون بن كَهْمَس، عن يزيد بن درهم، قال: سمعت أنسا[9] يقول في هذه الآية: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ

---

(١) في أ: «يسأل». (٢) في أ: «وحتى».

(٣) في أ: «فلا ألفينك تأتي يوم القيامة». (٤) في ت، أ: «أتاك».

(٥) ورواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٣١) من طريق إسحاق بن أبي حسان، عن أحمد بن أبي الحواري به نحوه، وسيأتي مطولا عند تفسير الآية: ١٤ من سورة الفجر، وقد علق الحافظ ابن كثير: «حديث غريب جداً في إسناده نظر وفي صحته».

(٦) في أ: «وإنفاذه». (٧) في ت، أ: «إلى».

(٨) رواه الطبري في تفسيره (١٤/ ٤٧).

(٩) في ت، أ، هـ: «عن أنس قال: «سمعت أنسا» وهو تحريف وقد وقع مثله في كشف الأستار للهيثمي.

المُسْتَهْزِئِينَ . الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ قال: مر رسول الله ﷺ، فغمزه بعضهم، فجاء جبريل ـ أحسبه قال: فغمزهم فوقع في أجسادهم ـ كهيئة الطعنة حتى ماتوا(١).

وقال محمد بن إسحاق: كان عظماء المستهزئين ـ كما حدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير ـ خمسة نفر، كانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم، من بني أسد بن عبد العزى بن قُصي: الأسود بن المطلب أبو(٢) زمعة، كان رسول الله ﷺ ـ فيما بلغني ـ قد دعا عليه، لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه [به](٣)، فقال: اللهم، أعم بصره، وأثكله ولده. ومن بني زهرة: الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زُهرة. ومن بني مخزوم: الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عُمَر بن مخزوم. ومن بني سهم بن عمرو بن هُصيص بن كعب بن لؤي: العاص بن وائل بن هشام بن سُعَيد ابن سعد. ومن خزاعة: الحارث بن الطُّلاطلة بن عمرو بن الحارث بن عبد عمرو بن ملْكان ـ فلما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء، أنزل الله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

وقال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، أو غيره(٤) من العلماء، أن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت، فقام وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه، فمر به الأسود [ابن المطلب فرمى في وجهه بورقة خضراء، فعمي، ومر به الأسود](٥) بن عبد يغوث، فأشار إلى بطنه، فاستسقى(٦) بطنه، فمات منه حَبَنًا، ومر به الوليد بن المغيرة، فأشار إلى أثر جُرح بأسفل كعب رجله ـ كان أصابه قبل ذلك بسنتين وهو يجر إزاره، وذلك أنه مر برجل من خزاعة يريش نبلا له، فتعلق سهم من نبله بإزاره، فخدش رجله ذلك الخدش، وليس بشيء، فانتقض به فقتله. ومر به العاص بن وائل، فأشار إلى أخمص قدمه، فخرج على حمار له يريد الطائف، فربَض(٧) على شِبْرِقة فدخلت في أخمص رجله منها شوكة فقتلته. ومر به الحارث بن الطلاطلة، فأشار إلى رأسه، فامتخط قيحا، فقتله(٨).

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن رجل، عن ابن عباس قال: كان رأسُهم الوليد بن المغيرة، وهو الذي جمعهم.

وهكذا روى عن سعيد بن جبير وعكرمة، نحو سياق محمد بن إسحاق، عن يزيد، عن عروة، بطوله، إلا أن سعيداً يقول: الحارث بن غيطلة. وعكرمة يقول: الحارث بن قيس.

قال الزهري: وصدقا، هو الحارث بن قيس، وأمه غيطلة.

وكذا روى عن مجاهد، ومِقْسَم، وقتادة، وغير واحد، أنهم كانوا خمسة.

---

(١) مسند البزار برقم (٢٢٢٢) «كشف الأستار» ونقل عنه الهيثمي قوله: «تفرد به يزيد بن درهم، عن أنس ولا أعلم له عن أنس غيره»، وقال الهيثمي في المجمع (٧/٤٦): «فيه يزيد بن درهم، ضعفه ابن معين، ووثقه الفلاس».

(٢) في ت: «ابن».

(٣) زيادة من ت، أ.

(٤) في ت: «وغيره».

(٥) زيادة من ت، أ، وابن هشام والطبري.

(٦) في أ: «فاستقى».

(٧) في ت، أ: «فربض به».

(٨) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٤٠٩، ٤١٠) وتفسير الطبري (١٤/٤٨).

وقال الشعبي: كانوا سبعة.

والمشهور الأول.

وقوله: ﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾: تهديد شديد، ووعيد أكيد، لمن جعل مع الله معبوداً آخر.

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ أي: وإنا لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم لك انقباض وضيق صدر. فلا يهيدنك ذلك، ولا يثنيك عن إبلاغك رسالة الله، وتوكل على الله فإنه كافيك وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة؛ ولهذا قال: ﴿ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِي، حدثنا معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن كثير بن مُرَّة، عن نعيم بن هَمَّار[1]، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: يا ابن آدم، لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره».

رواه أبو داود[2]، من حديث مكحول، عن كثير بن مرة، بنحوه[3].

ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمر صلَّى.

وقوله: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾: قال البخاري: قال سالم: الموت[4].

وسالم هذا هو: سالم بن عبد الله بن عمر، كما قال ابن جرير:

حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، عن سفيان، حدثني طارق بن عبد الرحمن، عن سالم بن عبد الله: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ قال: الموت[5].

وهكذا قال مجاهد، والحسن، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيره[6].

والدليل على ذلك قوله تعالى إخباراً عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿ لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ. وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ. وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ. وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ. حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٣ ـ ٤٧].

وفي الصحيح[7] من حديث الزهري، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أم العلاء ـ امرأة من الأنصار ـ أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون ـ وقد مات ـ قلت: رحمة الله عليك[8] أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه؟»

---

(١) في ت، أ: «عمار».

(٢) في ت، أ: «أبو داود والنسائي».

(٣) المسند (٥/ ٢٨٦) وسنن أبي داود برقم (١٢٨٩).

(٤) صحيح البخاري (٨/ ٣٨٣) «فتح».

(٥) تفسير الطبري (١٤/ ٥١).

(٦) في ت: «وغيرهم».

(٧) في أ: «الصحيحين».

(٨) في ت، أ: «رحم الله قلبك».

فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله، فمن؟ فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين، وإني لأرجو له الخير»[١].

ويستدل من هذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ ـ على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً فيصلي بحسب حاله، كما ثبت في صحيح البخاري، عن عمران بن حصين، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «صَلِّ قائما، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جَنْب»[٢].

ويستدل بها[٣] على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم. وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء، عليهم السلام، كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد الناس وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة. وإنما المراد باليقين هاهنا الموت، كما قدمناه. ولله الحمد والمنة، والحمد لله على الهداية، وعليه الاستعانة والتوكل، وهو المسؤول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها [فإنه جواد كريم][٤].

[وحسبنا الله ونعم الوكيل][٥]

---

(١) صحيح البخاري برقم (٣٩٢٩).

(٢) صحيح البخاري برقم (١١١٧).

(٣) في أ: «بهذا».  (٤) زيادة من ت، أ.  (٥) زيادة من أ.

## [بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقي إلا بالله][1]
## تفسير سورة النحل

وهي مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١)﴾.

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقق[2] والوقوع لا محالة [كما قال تعالى][3]: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، وقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

وقوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي: قرب ما تباعد فلا تستعجلوه.

يحتمل أن يعود الضمير على الله، ويحتمل أن يعود على العذاب، وكلاهما متلازم، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٣، ٥٤].

وقد ذهب الضحاك في تفسير هذه الآية إلى قول عجيب، فقال في قوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: فرائضه وحدوده.

وقد رده ابن جرير فقال: لا نعلم أحداً استعجل الفرائض[4] والشرائع قبل وجودها[5]، بخلاف العذاب فإنهم استعجلوه قبل كونه، استبعاداً وتكذيباً.

قلت: كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨].

وقال ابن أبي حاتم: ذُكر عن يحيى بن آدم، عن أبي بكر بن عياش، عن محمد بن عبد الله ـ مولى المغيرة بن شعبة ـ عن كعب بن علقمة، عن عبد الرحمن بن حُجيرة، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ «تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب مثل الترس، فما تزال ترتفع في السماء، ثم ينادي مناد فيها: يا أيها الناس. فيقبل الناس بعضهم على بعض: هل سمعتم؟ فمنهم من يقول: نعم. ومنهم من يشك. ثم ينادي[6] الثانية: يا أيها الناس. فيقول الناس بعضهم لبعض: هل سمعتم؟ فيقولون: نعم. ثم ينادي الثالثة: يا أيها الناس، أتى أمر الله فلا تستعجلوه. قال رسول الله ﷺ: «فو الذي نفسي بيده، إن الرجلين لينشران الثوب فما يطويانه أبداً، وإن الرجل ليمدن حوضه فما يسقي فيه[7] شيئاً أبداً، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبداً ـ قال ـ ويشتغل[8] الناس»[9].

---

(١) زيادة من ف، أ. (٢) في أ: «التحقيق». (٣) زيادة من ت، ف، أ.

(٤) في ف، أ: «بالفرائض». (٥) في أ: «وجودهما». (٦) في ت، أ: «ينادي مناد».

(٧) في ف: «منه». (٨) في ت: «ويستعمل».

(٩) ورواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٣٩): حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا الحسن بن علي بن عفان، حدثنا يحيى بن =

ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره، وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علواً كبيراً، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة، قال: ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ ﴾ أي: الوحي كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهم الأنبياء، كما قال: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال: ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ. يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٥، ١٦].

وقوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوا﴾ أي: لينذروا ﴿ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا ﴾، [كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا ﴾][1] ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال في هذه [الآية][2]: ﴿فَاتَّقُونِ﴾ أي: فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعبد غيري.

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٤) ﴾.

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي وهو السموات، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث[3]، بل ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١].

ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره [من الأصنام التي لا تخلق شيئا وهم يخلقون فكيف ناسب أن يعبد معه غيره][4]، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فلهذا يستحق[5] أن يعبد وحده لا شريك له.

ثم نبه على خلق جنس الإنسان ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أي: ضعيفة مهينة، فلما استقل ودرّج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه، ويحارب رسله، وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضداً، كما قال تعالى:

---

= آدم به، وقال: «صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه».

ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ٣٢٥): حدثنا الحسين التستري، حدثنا أبو كريب، حدثنا يحيى بن آدم به، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٣٨٢): «رواه الطبراني بإسناد جيد رواته ثقات مشهورون».

(١) زيادة من ت، ف، أ. (٢) زيادة من ت، أ. (٣) في أ: «لا للعب».

(٤) زيادة من ت، ف. (٥) في: أ: «استحق».

﴿وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا. ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا﴾ [الفرقان: ٥٤، ٥٥]، وقال: ﴿أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين. وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم. قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾ [يس: ٧٧ ـ ٧٩].

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن بسر بن جحاش قال: بصق رسول الله في كفه، ثم قال: «يقول الله: ابن آدم، أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: أتصدق. وأنى أوان الصدقة؟»[1].

﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون (٥) ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون (٦) وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم (٧)﴾.

يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، كما فصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع، من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون، ويأكلون من أولادها، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة؛ ولهذا قال: ﴿ولكم فيها جمال حين تريحون﴾ وهو وقت رجوعها عشيا من المرعى[2]، فإنها تكون أمده[3] خواصر، وأعظمه ضروعا، وأعلاه أسنمة، ﴿وحين تسرحون﴾ أي: غدوة حين تبعثونها إلى المرعى.

﴿وتحمل أثقالكم﴾: وهي الأحمال المثقلة[4] التي تعجزون عن نقلها وحملها، ﴿إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس﴾ وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة، وما جرى مجرى ذلك، تستعملونها في أنواع الاستعمال، من ركوب وتحميل، كما قال تعالى: ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون. وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ [المؤمنون: ٢١، ٢٢]، وقال تعالى: ﴿الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون. ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون. ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون﴾ [غافر: ٧٩ ـ ٨١]؛ ولهذا قال هاهنا بعد تعداد هذه النعم: ﴿إن ربكم لرءوف رحيم﴾ أي: ربكم الذي قيض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم، كما قال: ﴿أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون. وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون﴾ [يس: ٧١، ٧٢]، وقال: ﴿وجعل لكم من

---

(١) المسند (٤/ ٢١٠) وسنن ابن ماجه برقم (٢٧٠٧) وقال البوصيري في الزوائد (٢/ ٣٦٥): «إسناد صحيح رجاله ثقات». ورواه أحمد في مسنده من حديث سمرة، وأصله في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة.

(٢) في ت: «المرعى». (٣) في ت، ف: «أعظمه». (٤) في ت، ف، أ: «الثقيلة».

الفُلْكِ والأنْعَامِ ما تَرْكَبُونَ. لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إذا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ. وإنَّا إلى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ ـ ١٤].

قال ابن عباس: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ أي: ثياب، والمنافع: ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن سِمَاك، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس: ﴿دِفْءٌ ومَنَافِعُ﴾: نسل كل دابة.

وقال مجاهد: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ قال: لباس ينسج، ومنافع تُرْكَبُ، ولحم ولبن.

وقال قتادة: ﴿دِفْءٌ ومَنَافِعُ﴾ يقول: لكم فيها لباس، ومنفعة، وبُلْغة.

وكذا قال غير واحد من المفسرين، بألفاظ متقاربة.

﴿والْخَيْلَ والْبِغَالَ والْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وزِينَةً ويَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ (٨)﴾.

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده، يمتن به عليهم، وهو: الخيل والبغال والحمير، التي جعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها، ولما فصلها من الأنعام وأفردها بالذكر استدل من استدل من العلماء ـ ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل ـ بذلك على ما ذهب إليه فيها، كالإمام أبي حنيفة، رحمه الله[1]، ومن وافقه من الفقهاء[2]؛ لأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير، وهي حرام، كما ثبتت به السنة النبوية، وذهب إليه أكثر العلماء.

وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، أنبأنا هشام الدَّسْتُوائي، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن مولى نافع بن علقمة، أن ابن عباس كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير، وكان يقول: قال الله: ﴿والأنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ومَنَافِعُ ومِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فهذه للأكل، ﴿والْخَيْلَ والْبِغَالَ والْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ فهذه للركوب[3].

وكذا روي من طريق سعيد بن جُبَير وغيره، عن ابن عباس، بمثله. وقال مثل ذلك الحكم بن عتيبة[4]، رضي الله عنه[5]، أيضاً، واستأنسوا بحديث رواه الإمام أحمد في مسنده:

حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا بَقِيَّة بن الوليد، حدثنا ثور بن يزيد، عن صالح بن يحيى بن المقدام بن معد يكرب، عن أبيه، عن جده، عن خالد بن الوليد، رضي الله عنه، قال: نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الخيل، والبغال، والحمير.

وأخرجه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، من حديث صالح بن يحيى بن المقدام ـ وفيه كلام ـ به[6].

ورواه أحمد أيضاً من وجه آخر بأبسط من هذا وأدل منه فقال:

---

(١) في ف، أ: «رحمة الله عليه». (٢) في ت: «العلماء».

(٣) تفسير الطبري (١٤/ ٥٧).

(٤) في ت، ف، أ: «عيينة». (٥) في ت: «رحمه الله».

(٦) المسند (٤/ ٨٩) وسنن أبي داود برقم (٣٧٩٠) وسنن النسائي (٧/ ٢٠٢) وسنن ابن ماجة برقم (٣١٩٨).

حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا محمد بن حرب، حدثنا سليمان بن سليم، عن صالح بن يحيى بن المقدام، عن جده المقدام بن معد يكرب قال: غزونا مع خالد بن الوليد الصائفة، فقَرِم[١] أصحابنا إلى اللحم، فسألوني رَمَكة، فدفعتها إليهم فَحبَلوها وقلت[٢]: مكانكم حتى آتي خالداً فأسأله. فأتيته فسألته، فقال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة خيبر، فأسرع الناس في حظائر يهود، فأمرني أن أنادي: «الصلاة جامعة، ولا يدخل الجنة إلا مسلم» ثم قال: «أيها الناس، إنكم قد أسرعتم في حظائر يهود، ألا لا تحل[٣] أموال المعاهدين إلا بحقها، وحرام عليكم لحوم الأتن[٤] الأهلية وخيلها وبغالها، وكل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير»[٥].

والرمكة: هي الحِجْرَة. وقوله: حبّلوها، أي: أوثقوها في الحبل ليذبحوها. والحظائر: البساتين القريبة من العمران.

وكأن هذا الصنيع وقع بعد إعطائهم العهد ومعاملتهم على الشطر، والله أعلم.

فلو صحّ هذا الحديث لكان نصاً في تحريم لحوم الخيل، ولكن لا يقاوِمُ ما ثبت في الصحيحين، عن جابر بن عبد الله قال: نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية، وأذن في لحوم الخيل[٦].

ورواه أحمد وأبو داود بإسنادين، كل منهما على شرط مسلم، عن جابر قال: ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير، فنهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير، ولم ينهنا عن الخيل[٧].

وفي صحيح مسلم، عن أسماء بنت أبي بكر، رضي الله عنهما، قالت: نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرسا فأكلناه ونحن بالمدينة[٨].

فهذه أدل وأقوى وأثبت، وإلى ذلك صار جمهورُ العلماء: مالك، والشافعي، وأحمد، وأصحابهم، وأكثر السلف والخلف، والله أعلم.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن جُرَيْج، عن ابن أبي مُلَيْكَة، عن ابن عباس قال: كانت الخيل وحشية، فذللها الله لإسماعيل بن إبراهيم، عليهما السلام.

وذكر وهب بن منبه في إسرائيلياته: أن الله خلق الخيل من ريح الجنوب، والله[٩] أعلم.

فقد دل النص على جواز ركوب هذه الدواب، ومنها البغال. وقد أهديت إلى رسول الله ﷺ بغلة، فكان يركبها، مع أنه قد نَهَى عن إنزاء الحمر على الخيل لئلا ينقطع النسل.

قال الإمام أحمد: حدثني محمد بن عبيد، حدثنا عمر من آل حذيفة، عن الشعبي، عن دَحْية الكلبي قال: قلت: يا رسول الله، ألا أحمل لك حماراً على فرس، فتنتج لك بغلا، فتركبها؟ قال: «إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون»[١٠].

---

(١) في ت: «فقرم». (٢) في أ: «فقلت». (٣) في ف: «لا يحل».

(٤) في ت، ف: «الحمر».

(٥) المسند (٤/ ٨٩).

(٦) صحيح البخاري برقم (٤٢١٩، ٥٥٢٤) وصحيح مسلم برقم (١٩٤١).

(٧) المسند (٣/ ٣٥٦) وسنن أبي داود برقم (٣٧٨٩).

(٨) صحيح مسلم برقم (١٩٤٢).

(٩) في ت: «فالله».

(١٠) المسند (٤/ ٣١١).

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) ﴾.

لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يُسَار عليه في السبل الحسية، نبه على الطرق المعنوية الدينية، وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية، كما قال تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

ولما ذكر في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها، التي يركبونها[1] ويبلغون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة ـ شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه، فبيَّن أن الحق منها ما هي موصلة إليه، فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾، كما قال: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال: ﴿ هَٰذَا[2] صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١].

قال مجاهد: في [قوله][3]: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ قال: طريق الحق على الله.

وقال السدي: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ قال: الإسلام.

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ يقول: وعلى الله البيان، أي: تبين[4] الهدى والضلال[5].

وكذا روى علي بن أبي طلحة، عنه. وكذا قال قتادة، والضحاك. وقولُ مجاهد هاهنا أقوى من حيث السياق؛ لأنه تعالى أخبر أن ثم طرقاً تسلك إليه، فليس يصل إليه منها إلا طريقُ الحق، وهي الطريق[6] التي شرعها ورضيها وما عداها مسدودة[7]، والأعمال فيها مردودة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ أي: حائد[8] مائل زائغ عن الحق.

قال ابن عباس وغيره: هي الطرق المختلفة، والآراء والأهواء المتفرقة، كاليهودية والنصرانية والمجوسية، وقرأ ابن مسعود: «ومنكم جائر».

ثم أخبر أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته، فقال: ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، كما قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) ﴾.

---

(١) في ت: «تركبونها». (٢) في ف: «وقال: قل هذا». (٣) زيادة من ت، ف، أ.

(٤) في ت، ف: «يبين». (٥) في ت، ف: «الضلالة». (٦) في ت: «الطرق».

(٧) في أ: «مسدودة». (٨) في ت: «جائر».

لما[1] ذكر سبحانه ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب، شرع في ذكر نعمته عليهم، في إنزال[2] المطر من السماء ـ وهو العلو ـ مما لهم فيه بُلغة ومتاع لهم ولأنعامهم، فقال: ﴿ لَكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ أي: جعله عذباً زلالاً، يسوغ لكم شرابه، ولم يجعله ملحاً أجاجاً.

﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: وأخرج لكم به شجراً ترعون فيه أنعامكم. كما قال ابن عباس، وعكرمة والضحاك، وقتادة وابن زيد، في قوله: ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: ترعون.

ومنه الإبل السائمة، والسوم: الرعي.

وروى ابن ماجه: أن رسول الله ﷺ نهى عن السوم قبل طلوع الشمس[3].

وقوله: ﴿ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد، على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل: ٦٠] ثم قال[4] تعالى:

**﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ(١٣) ﴾**

ينبه تعالى عباده على آياته العظام، ومننه الجسام، في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت والسيارات، في أرجاء السموات نوراً وضياء للمهتدين بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه، يسير بحركة مُقدرة، لا يزيد عليها ولا ينقص منها. والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسييره، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لدلالات على قدرته الباهرة وسلطانه العظيم، لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه.

وقوله: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾: لما نبه سبحانه على معالم السموات[5]، نبه على

---

(١) في ف: «كما». (٢) في ت: «إنزاله».

(٣) سنن ابن ماجة برقم (٢٢٠٦) ورواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٣٤) كلاهما من طريق الربيع بن حبيب، عن نوفل بن عبد الملك، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب قال: نهى رسول الله ﷺ عن السوم... فذكر الحديث، وقال البوصيري في الزوائد (٢/ ١٧٧): «هذا إسناد ضعيف لضعف ابن نوفل بن عبد الملك والربيع بن حبيب».

(٤) في أ: «وقال». (٥) في ت، ف، أ: «السماء».

ما خلق فى الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة، من الحيوانات والمعادن والنباتات[١] [والجمادات][٢] على اختلاف ألوانها وأشكالها، وما فيها من المنافع والخواص ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أى: آلاء الله ونعمه فيشكرونها.

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن تسخيره[٣] البحر المتلاطم الأمواج، ويمتن على عباده بتذليله لهم، وتيسيرهم للركوب فيه، وجعله السمك والحيتان فيه، وإحلاله[٤] لعباده لحمها حيها وميتها، فى الحل والإحرام[٥]، وما يخلقه فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجها من قرارها حلية يلبسونها، وتسخيره البحر لحمل[٦] السفن التى تمخره، أى: تشقه.

وقيل: تمخر الرياح. وكلاهما صحيح بجؤجئها وهو صدرها المسنَّم ـ الذى أرشد العباد إلى صنعتها، وهداهم إلى ذلك، إرثا عن أبيهم نوح، عليه السلام؛ فإنه أول من ركب السفن، وله كان تعليم صنعتها، ثم أخذها الناس عنه قرناً بعد قرن، وجيلا بعد جيل، يسيرون من قطر إلى قطر، وبلد إلى بلد، وإقليم إلى إقليم، تجلب ما هنا إلى هنالك، وما هنالك إلى هنا[٧]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى: نعمه وإحسانه.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده: وجدت فى كتابى عن محمد بن معاوية[٨] البغدادى: حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن [عمر، عن][٩] سُهَيل بن أبى صالح، عن أبيه، عن أبى هريرة [رفعه][١٠] قال: كلم الله هذا البحر الغربى، وكلم البحر الشرقى، فقال للبحر الغربى: إنى حامل فيك عباداً من عبادى، فكيف أنت صانع فيهم[١١]؟ قال: أغرقهم. قال: بأسك فى نواحيك. وأحملهم على يدى. وحرَّمه الحلية والصيد. وكلم هذا البحر الشرقى فقال: إنى حامل فيك عباداً من عبادى، فما أنت صانع بهم؟ فقال: أحملهم على يدى، وأكون لهم[١٢] كالوالدة لولدها. فأثابه الحلية والصيد[١٣].

---

(١) فى أ: «والنبات». (٢) زيادة من ف، أ. (٣) فى أ: «تسخير».

(٤) فى ت: «وإجلاله». (٥) فى أ: «والحرم». (٦) فى ت: «كحمل».

(٧) فى ف، أ: «تجلب ما هاهنا إلى هناك وما هناك إلى هاهنا».

(٨) فى ت: «معاوية بن محمد». (٩) زيادة من ف، أ، ومسند البزار.

(١٠) زيادة من مسند البزار. (١١) فى ت، ف، أ: «بهم». (١٢) فى ف: «بهم».

(١٣) مسند البزار برقم (١٦٦٩) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٢٨١): «رواه البزار وجادة، وفيه عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر العمرى وهو متروك». ورواه الخطيب البغدادي في تاريخه (١٠/ ٢٣٣، ٢٣٤) من هذا الطريق قال: «وتابعه أبو=

ثم قال البزار: لا نعلم من رواه عن سهيل غير عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر[1]، وهو منكر الحديث. وقد رواه سهيل عن النعمان بن أبي عياش[2]، عن عبد الله بن عمرو[3] موقوفاً[4].

ثم ذكر تعالى الأرض، وما جعل فيها من الرواسي الشامخات والجبال الراسيات، لتقر الأرض ولا تميد، أي: تضطرب بما عليها من الحيوان فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك؛ ولهذا قال: ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ [النازعات: ٣٢].

وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَر، عن قتادة، سمعت الحسن يقول: لما خُلقت الأرض كانت تميد، فقالوا: ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً فأصبحوا وقد خُلقت الجبال، ثم[5] تدر الملائكة مِمَّ خلقت الجبال[6].

وقال سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن قيس بن عُبَاد: أن الله تعالى لما خلق الأرض، جعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً، فأصبحت صبحاً وفيها رواسيها.

وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا حجاج بن مِنْهَال، حدثنا حماد، عن عطاء بن السائب، عن عبد الله بن حَبِيب، عن علي بن أبي طالب[7]، رضي الله عنه، قال: لما خلق الله الأرض قمصت وقالت: أي رَبِّ، تجعل عليَّ بني آدم يعملون عليَّ الخطايا ويجعلون عليَّ الخبث؟ قال: فأرسى الله فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون، فكان إقرارها كاللحم يترجرج[8][9].

وقوله: ﴿ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا ﴾ أي: وجعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى مكان آخر، رزقاً للعباد، ينبع في موضع وهو رزق لأهل موضع آخر، فيقطع البقاع والبراري والقفار، ويخترق[10] الجبال والآكام، فيصل إلى البلد الذي سُخِّر لأهله. وهي سائرة في الأرض يمنة ويسرة، وجنوباً وشمالاً، وشرقاً وغرباً، ما بين صغار وكبار، وأودية تجري حيناً وتنقطع[11] في وقت، وما بين نبع وجمع،

= عبيدالله أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، فرواه عن عمه عبد الله بن وهب، عن عبد العزيز بن محمد الدراوردي عن سهيل عن أبيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن كعب الأحبار، وخالفهما خالد بن عبد الله الواسطي، فرواه عن سهيل عن النعمان بن أبي عياش الزرقي عن عبد الله بن عمرو موقوفاً لم يجاوزه، ورفعه غير ثابت».

(١) في ف: «عمرو». (٢) في أ: «العبسي». (٣) في ت، أ، هـ: «عمر» وهو خطأ

(٤) رواه الخطيب البغدادي في تاريخه (١٠/ ٣٣٤) من طريق سعيد بن منصور، عن خالد بن عبد الله، عن سهيل بن أبي صالح به. وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ٢٠): «قلت: الموقوف على عبد الله بن عمرو بن العاص أشبه، فإنه قد كان وجد يوم اليرموك زاملتين مملوءتين كتباً من علوم أهل الكتاب، فكان يحدث منهما بأشياء كثيرة من الإسرائيليات منها المعروف والمشهور والمنكور والمردود، فأما المعروف فتفرد به عبد الرحمن بن عبد الله بن عمرو بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب أبو القاسم المدني قاضيها. قال فيه الإمام أحمد: ليس بشيء، وقد سمعت منه، ثم مزقت حديثه كان كذاباً وأحاديثه مناكير. وكذا ضعفه ابن معين وأبو زرعة وأبو حاتم والجوزجاني والبخاري وأبو داود والنسائي. وقال ابن عدي: عامة أحاديثه مناكير وأفظعها حديث البحر».

(٥) في ت، ف: «فلم».

(٦) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٠٦ ـ ٣).

(٧) في أ: «طلحة». (٨) في أ: «الرجرج».

(٩) تفسير الطبري (١٤/ ٦٢).

(١٠) في ت، ف: «ويحرق». (١١) في ت: «وتقطع».

وقوى السير وبطيئه، بحسب ما أراد وقدر، وسخر ويسر فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وكذلك جعل في الأرض سبلاً، أي: طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد، حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون[1] ما بينهما ممراً ومسلكاً، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ [الأنبياء: ٣١].

وقوله: ﴿وَعَلَامَاتٍ﴾ أي: دلائل من جبال كبار وآكام صغار، ونحو ذلك، يستدل بها المسافرون براً وبحراً إذا ضلوا الطريق [بالنهار][2].

وقوله: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: في ظلام الليل، قاله ابن عباس.

وعن مالك في قوله: ﴿وَعَلَامَاتٍ﴾: يقولون: النجوم، وهي الجبال.

ثم قال تعالى منبها على عظمته، وأنه لا تنبغي العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان، التي لا تخلق شيئاً بل هم يخلقون؛ ولهذا قال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم، فقال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: يتجاوز عنكم، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم، يغفر الكثير، ويجازي على[3] اليسير.

وقال ابن جرير: يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك، إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم أن يعذبكم، [أي][4]: بعد الإنابة والتوبة[5].

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١)﴾.

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها[6] من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ. وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦].

وقوله: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أي: هي جمادات لا أرواح فيها[7]، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: لا يدرون متى تكون الساعة، فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء؟ إنما يرتجى[8] ذلك من الذي يعلم كل شيء، وهو خالق كل شيء.

---

(١) في أ: «ليكون».
(٢) زيادة من ت، ف.
(٣) في ت: «ويتجاوز عن».
(٤) زيادة من ت، ف.
(٥) تفسير الطبري (١٤/ ٦٤).
(٦) في ت: «تدعونها».
(٧) في ت، ف، أ: «لها».
(٨) في ت، ف، أ: «يرجى».

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) ﴾.

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تُنكر[1] قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك: ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥].

وقوله: ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي: عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده، كما قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أي: حقاً ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أي: وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء، ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) ﴾.

يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين: ﴿ مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا ﴾ معرضين عن الجواب: ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي: لم ينزل شيئاً، إنما هذا الذي يتلى علينا أساطير الأولين، أي: مأخوذ من كتب المتقدمين، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥] أي: يفترون على الرسول، ويقولون [فيه][2] أقوالا مختلفة متضادة[3]، كلها باطلة[4]، كما قال تعالى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٩]، وذلك أن كل من خرج عن الحق فمهما قال أخطأ، وكانوا يقولون: ساحر، وشاعر، وكاهن، ومجنون. ثم استقر أمرهم إلى ما اختلقه لهم شيخهم الوحيد المسمى بالوليد بن المغيرة المخزومي، لما ﴿ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ. فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ [المدثر: ١٨ ـ ٢٤] أي: ينقل ويحكى، فتفرقوا عن قوله ورأيه، قبحهم الله.

قال الله تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي: إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك فيتحملوا[5] أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم، أي: يصير[6] عليهم خطيئة ضلالهم[7] في أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم، كما جاء في الحديث: «من دعا إلى هُدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثلُ آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً».

---

(١) في ت: «ينكر». (٢) زيادة من ت، ف، أ. (٣) في ت، ف: «متضادة مختلفة».
(٤) في ت، ف، أ: «باطل». (٥) في ت، ف، أ: «ليتحملوا».
(٦) في ف: «فتصير». (٧) في ف: «اعتقادهم».

وقال [الله] (١) تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وهكذا(٢) روى العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾: إنها كقوله: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وقال مجاهد: يحملون أثقالهم: ذنوبهم وذنوب من أطاعهم، ولا يخفف عمن أطاعهم من العذاب شيئاً.

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) ﴾.

قال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ قال: هو نمرود الذي(٣) بنى الصرح.

قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد نحوه.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن زيد بن أسلم: أولُ جبار كان في الأرض نمرود، فبعث الله عليه بَعُوضة، فدخلت في منخره، فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به من جمع يديه فضرب بهما رأسه، وكان جباراً أربعمائة سنة، فعذبه الله أربعمائة سنة كملكه، ثم أماته الله. وهو الذي كان بنى صرحاً إلى السماء، وهو الذي قال الله: ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ ﴾.

وقال آخرون: بل هو بختنصر. وذكروا من المكر الذي حكى الله هاهنا، كما قال في سورة إبراهيم: ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

وقال آخرون: هذا من باب المثل، لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا في عبادته غيره، كما قال نوح، عليه السلام: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ [نوح: ٢٢] أي: احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة، كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة: ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴾ [الآية](٤) [سبأ: ٣٣].

وقوله: ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ أي: اجتثه من أصله، وأبطل عملهم، وأصلها(٥) كما قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقوله: ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: ٢].

وقال هاهنا: ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا

---

(١) زيادة من ت. (٢) في ت، أ: «لهذا». (٣) في ت، ف، أ: «حين».
(٤) زيادة من ف. (٥) في ت، ف، أ: «وأصله».

يشعرون. ثم يوم القيامة يخزيهم﴾ أي: يظهر فضائحهم، وما كانت تُجنّه ضمائرهم، فيجعله علانية، كما قال تعالى: ﴿ يوم تبلى السرائر﴾ [الطارق: ٩] أي: تظهر وتشتهر[1]، كما في الصحيحين[2] عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته، فيقال: هذه غدرة فلان بن فلان»[3].

وهكذا هؤلاء، يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر، ويخزيهم الله على رؤوس الخلائق، ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مقرعا لهم وموبخا: ﴿ أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم ﴾: تحاربون وتعادون في سبيلهم، [أي][4]: أين هم عن نصركم وخلاصكم هاهنا؟﴿ هل ينصرونكم أو ينتصرون﴾ [الشعراء: ٩٣]، ﴿ فما له من قوة ولا ناصر﴾ [الطارق: ١٠]. فإذا توجهت عليهم الحجة، وقامت عليهم الدلالة، وحقت عليهم الكلمة، وأسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار[5]، ﴿قال الذين أوتوا العلم﴾ ـ وهم السادة في الدنيا والآخرة، والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة، فيقولون حينئذ: ﴿إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين﴾ أي: الفضيحة والعذاب اليوم [محيط][6] بمن كفر بالله، وأشرك به مالا يضره ولا ينفعه.

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) ﴾.

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمي أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم: ﴿ فألقوا السلم ﴾أي: أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين: ﴿ ما كنا نعمل من سوء ﴾، كما يقولون يوم المعاد: ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام: ٢٣]، ﴿ يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ﴾ [المجادلة: ١٨].

قال الله مكذبا لهم في قيلهم ذلك: ﴿ بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون. فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس[7] مثوى المتكبرين ﴾ أي: بئس المقيل والمقام والمكان من دار هوان، لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله.

وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم، ويأتي[8] أجسادهم في قبورها من حرها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت[9] أرواحهم في أجسادهم، وخلدت في نار جهنم، ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾ [فاطر: ٣٦]، كما قال الله تعالى: ﴿النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ [غافر: ٤٦].

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ

---

(١) في ت: «يظهر ويستر». (٢) في ت: «الصحيح».

(٣) صحيح البخاري برقم (٣١٨٨) وصحيح مسلم برقم (١٧٣٥).

(٤) زيادة من ت، ف، أ. (٥) في ت، ف، أ: «لا فرار». (٦) زيادة من ف.

(٧) في ت: «فبئس». (٨) في ت، أ: «ويطال». (٩) في ت: «سالت».

**الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)﴾.**

هذا خبر عن السعداء، بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء، فإن أولئك قيل لهم: ﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾، فقالوا معرضين عن الجواب: لم[1] ينزل شيئاً، إنما هذا [2] أساطير الأولين. وهؤلاء ﴿قَالُوا خَيْرًا﴾ أي: أنزل خيراً، أي: رحمة وبركة وحسناً لمن اتبعه وآمن به.

ثم أخبروا عما وعد الله [به][3] عباده فيما أنزله على رسله فقالوا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، أي: من أحسن عمله فى الدنيا أحسن الله إليه فى الدنيا والآخرة.

ثم أخبروا بأن دار الآخرة خير، أي: من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أتم من الجزاء فى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ[4] وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: ٨٠] وقال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨] وقال تعالى ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧]، وقال لرسوله ﷺ[5]: ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى﴾ [الضحى: ٤].

ثم وصفوا الدار الآخرة فقالوا[6]: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾: بدل من [قوله][7]: ﴿دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: لهم فى [الدار][8] الآخرة ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة[9] يدخلونها ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي: بين أشجارها وقصورها، ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ[10] الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]، وفى الحديث: «إن السحابة لتمر بالملأ من أهل الجنة وهم جلوس على شرابهم[11]، فلا يشتهى أحد منهم شيئاً إلا أمطرته عليهم، حتى إن منهم لمن يقول: أمطرنا كواعب أتراباً، فيكون ذلك[12]»[13].

﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: كذلك[14] يجزى الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله.

ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار، أنهم[15] طيبون، أي: مخلصون من الشرك والدنس

---

(١) فى أ: «أي: لم». (٢) فى أ: «هو». (٣) زيادة من ت، أ.

(٤) فى ت، ف، أ: «وقال الذين أوتوا العلم والإيمان» وهو خطأ.

(٥) فى ت، أ: «صلوات الله عليه وسلامه»، وفى ف: «صلوات الله عليه».

(٦) فى ت، ف، أ: «ثم وصف الدار الآخرة فقال». (٧) زيادة من أ.

(٨) زيادة من ف، أ. (٩) فى أ: «مقامة». (١٠) فى ت، أ: «تشتهى» وهو خطأ.

(١١) فى أ: «سرائرهم». (١٢) فى ف: «كذلك».

(١٣) رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره من حديث أبى أمامة رضى الله عنه، وسيأتى بإسناده عند تفسير الآية: ٣٣ من سورة النبأ.

(١٤) فى ف، أ: «هكذا». (١٥) فى ت، ف، أ: «وهم».

وكل سوء، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم[1] بالجنة، ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢].

وقد قدمنا الأحاديث الواردة في قبض روح المؤمن وروح الكافر عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤)﴾.

يقول تعالى متهدداً للمشركين على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا: هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم بقبض أرواحهم، قاله قتادة.

﴿أَوْ يَأْتِيَ[2] أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي: يوم القيامة وما يعاينونه[3] من الأهوال.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: هكذا تمادى في شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين حتى[4] ذاقوا بأس الله، وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾؛ لأنه تعالى أعذر إليهم، وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه، ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاؤوا به، فلهذا أصابتهم[5] عقوبة الله على ذلك، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أحاط بهم من العذاب الأليم ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: يسخرون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله؛ فلهذا يقال يوم القيامة: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٧)﴾.

---

(١) في أ: «ويبشرونهم». (٢) في أ: «أو يأتيهم» وهو خطأ. (٣) في أ: «وما يعاينوه».
(٤) في ت: «حين». (٥) في ت، ف: «أصابهم».

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الشرك واعتذارهم محتجين بالقدر، في قولهم: ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي: من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك، مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء[1] أنفسهم، ما لم ينزل الله به سلطانا.

ومضمون كلامهم: أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا، لأنكره علينا بالعقوبة ولما مكنا[2] منه. قال الله راداً عليهم شبهتهم: ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾؟ أي: ليس الأمر كما تزعمون أنه لم يعيره عليكم[3] ولم[4] ينكره، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه آكد النهي، وبعث في كل أمة رسولا، أي: في كل قرن من الناس وطائفة رسولا، وكلهم يدعو[5] إلى عبادة الله، وينهى[6] عن عبادة ما سواه: ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾، فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك، منذ حدث الشرك في بني آدم، في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب، وكلهم كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾، فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾، فمشيئته تعالى الشرعية منتفية[7]؛ لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله، وأما مشيئته الكونية، وهي[8] تمكينهم من ذلك قدرا، فلا حجة لهم فيها[9]؛ لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة.

ثم إنه تعالى قد أخبر أنه عير[10] عليهم، وأنكر[11] عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل؛ فلهذا قال: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي: اسألوا[12] عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ [محمد: ١٠]، ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [الملك: ١٨].

ثم أخبر تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم، إذا كان الله قد أراد إضلالهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ [المائدة: ٤١]، وقال نوح لقومه: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود: ٣٤]، وقال في هذه الآية

---

(١) في ف: «من قِبَل».
(٢) في ت: «ولما مكنتنا»، وفي ف: «ولا مكننا».
(٣) في ت، أ: «لم يعيره».
(٤) في أ: «ولا».
(٥) في ف: «يدعون».
(٦) في ف: «وينهون».
(٧) في ف: «منفية».
(٨) في ف: «فهي».
(٩) في ت، ف، أ: «فيه».
(١٠) في أ: «عيره».
(١١) في أ: «وأنكره».
(١٢) في أ: «فاسألوا».

الكريمة: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ[1] فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

فقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ أى: شأنه وأمره أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ فلهذا قال: ﴿لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ أى: من أضله فمن الذى يهديه من بعد الله؟ أى: لا أحد ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ أى: ينقذونهم[2] من عذابه ووثاقه، ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠)﴾.

يقول تعالى مخبرا عن المشركين: أنهم حلفوا فأقسموا ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أى: اجتهدوا فى الحلف وغلظوا الأيمان على أنه ﴿لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ أى: استبعدوا ذلك، فكذبوا[3] الرسل فى إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نقيضه. فقال تعالى مكذبا لهم ورادا عليهم: ﴿بَلَىٰ﴾ أى: بلى سيكون ذلك، ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ[4] حَقًّا﴾ أى: لابد منه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى: فلجهلهم[5] يخالفون الرسل ويقعون فى الكفر.

ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد، فقال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أى: للناس ﴿الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أى: من كل شىء، و﴿لِيَجْزِيَ[6] الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ أى: فى أيمانهم وأقسامهم: لا يبعث الله من يموت؛ ولهذا يدعون يوم القيامة إلى نار جهنم دعا، وتقول[7] لهم الزبانية: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ . أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ . اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٤ ـ ١٦].

ثم أخبر تعالى عن قدرته[8] على ما يشاء، وأنه لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء، وإنما أمره إذا[9] أراد شيئاً أن يقول له: «كن»، فيكون، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة، فيكون كما يشاء، كما قال[10]: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وقال: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا[11] لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] أى: أن يأمر به دفعة[12] واحدة فإذا هو كائن،

---

(١) فى ت: «ويدعهم» وهو خطأ.
(٢) فى ت، ف، أ: «ينقذهم».
(٣) فى ت، ف، أ: «وكذبوا».
(٤) فى أ: «عليهم» وهو خطأ.
(٥) فى أ: «فبجهلهم».
(٦) فى ت، ف، أ: «ويجزى» وهو خطأ.
(٧) فى ف، أ: «ويقول».
(٨) فى ت: «عن قدرة».
(٩) فى ف: «وأنه إذا».
(١٠) فى ف، أ: «وقال».
(١١) فى ت: «أمرنا» وهو خطأ.
(١٢) فى أ: «مرة».

كما قال الشاعر[١]:

إذا ما أراد الله أمراً فإنما ... يقول له: «كن»، قولة فيكون

أي: أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به، فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف، لأنه [هو][٢] الواحد القهار العظيم، الذي قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

وقال ابن أبي حاتم: ذكر[٣] الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج، عن ابن جُرَيْج، أخبرني عطاء: أنه سمع أبا هريرة يقول: قال الله تعالى: سبّني ابن آدم ولم يكن ينبغي له أن يسبني، وكذبني ولم يكن ينبغي له أن يكذبني، فأما تكذيبه إياي فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾، قال: وقلت: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وأما سبه إياي فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقلت: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص][٤].

هكذا[٥] ذكره موقوفا، وهو في الصحيحين مرفوعا، بلفظ آخر[٦].

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)﴾.

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان، رجاء ثواب الله وجزائه.

ويحتمل أن يكون سبب نزول هذه الآية الكريمة في مُهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة، ليتمكنوا من عبادة ربهم، ومن أشرافهم: عثمان ابن عفان، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وجعفر بن أبي طالب، ابن عمر الرسول[٧]، وأبو سلمة بن عبد الأسد[٨] في جماعة قريب من ثمانين، ما بين رجل وامرأة، صديق وصديقة، رضي الله عنهم وأرضاهم. وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال ابن عباس والشعبي، وقتادة: المدينة. وقيل: الرزق الطيب، قاله مجاهد.

ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوضهم الله خيراً منها[٩] في الدنيا، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله بما هو خير له منه[١٠]، وكذلك وقع فإنهم مكن الله لهم في البلاد

---

(١) مضى البيت عند تفسير الآية: ١١٧ من سورة البقرة.

(٢) زيادة من ت، ف، أ.

(٣) في ت: «ذكره».

(٤) ورواه الطبري في تفسيره (١٤/ ٧٣) من طريق حجاج به موقوفاً.

(٥) في ت: «هذا».

(٦) صحيح البخاري برقم (٤٩٧٤) ولفظه: «قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي، فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفواً أحد».

(٧) في ف، أ: «ابن عم رسول الله ﷺ».

(٨) في ف، أ: «عبد الأسود».

(٩) في ت، ف، أ: «منه».

(١٠) في ت، ف، أ: «منه في الدنيا».

وحكمهم على رقاب العباد، فصاروا أمراء حكاما، وكل منهم للمتقين إماما، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا، فقال: ﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ أي: مما أعطيناهم في الدنيا ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله؛ ولهذا قال هُشَيْم، عن العوام، عمن حدثه؛ أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه[1] يقول: خذ، بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما ادخر[2] لك في الآخرة أفضل، ثم قرأ[3] هذه الآية: ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[4].

ثم وصفهم تعالى فقال: ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي: صبروا على أقل[5] من آذاهم من قومهم، متوكلين على الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) ﴾.

قال الضحاك، عن ابن عباس: لما بعث الله محمداً ﷺ رسولا، أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا. فأنزل الله: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ [يونس: ٢]، وقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يعني: أهل الكتب الماضية: أبشر كانت الرسل التي أتتكم[6] أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم، وإن كانوا بشرا فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولا؟ [و][7]قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحِي[8] إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾، ليسوا من أهل السماء كما قلتم.

وهكذا روى عن مجاهد، عن ابن عباس، أن المراد بأهل الذكر: أهل الكتاب. وقاله مجاهد، والأعمش.

وقول عبد الرحمن بن زيد ـ الذكر: القرآن واستشهد بقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] ـ صحيح، [و][9] لكن ليس هو المراد هاهنا؛ لأن المخالف لا يرجع في إثباته بعد إنكاره إليه.

وكذا قول أبي جعفر الباقر: «نحن أهل الذكر» ـ ومراده أن هذه الأمة أهل الذكر ـ صحيح، فإن هذه الأمة أعلم من جميع الأمم السالفة، وعلماء أهل بيت الرسول، عليهم[10] السلام والرحمة، من

---

(١) في أ: «عطاءه». (٢) في ف: «وما دخره».

(٣) في أ: «يقرأ».

(٤) رواه الطبري في تفسيره (١٤/ ٧٤).

(٥) في ت، ف، أ: «أذى».

(٦) في هـ، ت، أ: «إليهم» والمثبت من الطبري. مستفاد من حاشية الشعب.

(٧) زيادة من ت، ف، أ. (٨) في ف، أ: «نوحي». (٩) زيادة من ف، أ.

(١٠) في ت: «عليه».

خير العلماء إذا كانوا على السنة المستقيمة، كعلى، وابن عباس، وبنى على: الحسن والحسين، ومحمد بن الحنفية، وعلى بن الحسين زين العابدين، وعلى بن عبد الله بن عباس، وأبى جعفر الباقر ـ وهو محمد بن على بن الحسين ـ وجعفر ابنه، وأمثالهم وأضرابهم وأشكالهم، ممن هو متمسك بحبل الله المتين وصراطه المستقيم، وعرف لكل ذى حق حقه، ونزل كل المنزل الذى أعطاه الله ورسوله واجتمع إليه قلوب عباده المؤمنين.

والغرض أن هذه الآية الكريمة أخبرت أن[1] الرسل الماضين[2] قبل محمد ﷺ كانوا بشراً كما هو بشر، كما قال تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً. وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ [الإسراء: ٩٣، ٩٤] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ . [ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ][3]﴾ [الأنبياء: ٨، ٩]، وقال: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

ثم أرشد الله تعالى من شك فى كون الرسل كانوا بشراً، إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء[4] الذين سلفوا: هل كان أنبياؤهم بشراً أو ملائكة؟

ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى: بالدلالات والحجج، ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وهى الكتب. قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم.

والزبر: جمع زبور، تقول العرب: زبرت الكتاب إذا كتبته، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ يعنى: القرآن، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ من ربهم، أى: لعلمك[5] بمعنى ما أنزل عليك، وحرصك عليه، واتباعك له، لعلمنا بأنك[6] أفضل الخلائق وسيد ولد آدم، فتفصل[7] لهم ما أجمل، وتبين لهم ما أشكل: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أى: ينظرون لأنفسهم فيهتدون، فيفوزون[8] بالنجاة فى الدارين.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٤٧)﴾.

---

(١) فى ت، ف: «بأن». (٢) فى أ: «الماضية». (٣) زيادة من ف، أ.

(٤) فى ف، أ: «بشراً أن يسألوا أهل الذكر من الأنبياء».

(٥) فى ت: «بعلمك». (٦) فى أ: «بأنه». (٧) فى أ: «تفصل».

(٨) فى ت، ف: «فيفوزوا».

يخبر تعالى عن حلمه [وإمهاله][١] وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها، مع قدرته على ﴿ أن يَخسف اللهُ بهمُ الأرضَ أوْ يأتيهم العذابُ من حيثُ لا يشعرون ﴾ أي: من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم، كما قال تعالى: ﴿ أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور. أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير ﴾ [الملك: ١٦، ١٧]، وقوله: ﴿ أو يأخذهم في تقلبهم﴾ أي: في تقلبهم في المعايش واشتغالهم بها، من أسفار [٢]ونحوها من الأشغال الملهية.

قال قتادة والسدي: ﴿ تقلبهم﴾ أي: أسفارهم.

وقال مجاهد، والضحاك: ﴿ في تقلبهم﴾ في الليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون. أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨].

وقوله: ﴿ فما هم بمعجزين﴾ أي: لا يُعجزون الله على أي حال كانوا عليه.

وقوله: ﴿ أو يأخذهم على تخوف﴾ أي: أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد حالة الأخذ؛ فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد؛ ولهذا قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ أو يأخذهم على تخوف﴾ يقول: إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك. وكذا روى عن مجاهد، والضحاك، وقتادة وغيرهم.

ثم قال تعالى: ﴿ فإن ربكم لرءوف رحيم ﴾ أي: حيث لم يعاجلكم بالعقوبة، كما ثبت في الصحيحين «[لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم»[٣]، وفي الصحيحين][٤]: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ [هود: ١٠٢][٥] وقال تعالى: ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير ﴾ [الحج: ٤٨].

**﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠) ﴾.**

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها: جمادها وحيواناتها، ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، فأخبر[٦] أن كل ما له ظل يتفيأ

---

(١) زيادة من أ. (٢) في أ: «بما في أسفارهم».

(٣) صحيح البخاري برقم (٦٠٩٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٤).

(٤) زيادة من ت، ف، أ.

(٥) صحيح البخاري برقم (٤٦٨٦) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه.

(٦) في ت: «والمخبر».

ذات اليمين وذات الشمال، أي: بكرة وعشيا، فإنه ساجد بظله لله تعالى.

قال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كلُّ شيء لله عز وجل. وكذا قال قتادة، والضحاك، وغيرهم.

وقوله: ﴿ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي: صاغرون.

وقال مجاهد أيضاً: سجود كل شيء فيه. وذكر الجبال قال: سجودها فيها.

وقال أبو غالب الشيباني: أمواج البحر صلاته.

وتزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم.

ثم قال: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾، كما قال: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، وقوله: ﴿ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: تسجد لله أي غير مستكبرين عن عبادته، ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ أي: يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله، ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ أي: مثابرين على طاعته[١] تعالى، وامتثال أوامره، وترك زواجره.

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) ﴾.

يُقرر تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له؛ فإنه مالك كل شيء وخالقه وربه.

﴿ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وعِكْرِمة[٢]، وميمون بن مِهْران، والسدي، وقتادة، وغير واحد: أي دائما.

وعن ابن عباس أيضاً: واجباً. وقال مجاهد: خالصا. أي: له العبادة وحده ممن في السموات والأرض، كقوله: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]. هذا على قول ابن عباس وعكرمة، فيكون من باب الخبر، وأما على قول مجاهد فإنه يكون من باب الطلب، أي: ارهبوا أن تشركوا به[٣] شيئا، وأخلصوا له الطلب[٤]، كما في قوله تعالى: ﴿ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٣].

ثم أخبر أنه مالك النفع والضر، وأن ما بالعبد من رزق، ونعمة[٥] وعافية ونصر فمن فضله

---

(١) في ف: «طاعة الله». (٢) في ت، ف: «وعكرمة ومجاهد». (٣) في أ: «بي».
(٤) في أ: «الطاعة». (٥) في ت، ف: «بالعباد من نعمة ورزق».

عليه[١]، وإحسانه إليه، ﴿ ثُمَّ إذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ أي: لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجؤون إليه، وتسألونه وتلحون في الرغبة مستغيثين به[٢]، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال هاهنا: ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ. لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾.

قيل: «اللام» هاهنا لام العاقبة. وقيل: لام التعليل، بمعنى: قيضنا لهم ذلك[٣] ليكفروا، أي: يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم، وأنه المسدي إليهم النعم، الكاشف عنهم النقم.

ثم توعدهم قائلا: ﴿ فَتَمَتَّعُوا ﴾ أي: اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلا، ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: عاقبة ذلك.

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠) ﴾.

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد، وجعلوا لها نصيبا مما رزقهم الله، فقالوا: ﴿ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ [بغير علم][٤] وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٣٦] أي: جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله وفضلوهم[٥] أيضاً على جانبه، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه، وائتفكوه، وليقابلنهم[٦] عليه وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم، فقال: ﴿ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾.

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا، وجعلوها بنات الله، وعبدوها معه، فأخطؤوا خطأ كبيراً في كل مقام من هذه المقامات الثلاث، فنسبوا إليه تعالى أن له ولدا، ولا ولد له! ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، كما قال: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ. تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢] وقال هاهنا: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ﴾ أي: عن قولهم وإفكهم، ﴿ أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ. وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ. مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [الصافات: ١٥١ـ ١٥٤].

---

(١) في أ: «عليهم».
(٢) في ت: «وتلجؤون في الرغبة إليه».
(٣) في أ: «قيضهم لذلك».
(٤) زيادة من ف.
(٥) في ف: «وفضلوها».
(٦) في أ: «وليقابلهم».

وقوله: ﴿ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي: يختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون لأنفسهم من البنات التي نسبوها إلى الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، فإنه ﴿ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ أي: كئيبا من الهم، ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾، ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن، ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ ﴾ أي: يكره أن يراه الناس ﴿ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾ أي: إن أبقاها أبقاها مهانة لا يورثها، ولا يعتني بها، ويفضل أولاده الذكور عليها، ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أي: يئدها: وهو: أن يدفنها فيه حية، كما كانوا يصنعون في الجاهلية، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله؟ ﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي: بئس ما قالوا، وبئس ما قسموا، وبئس ما نسبوا إليه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [الزخرف: ١٧]، وقال هاهنا: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ﴾ أي: النقص إنما ينسب إليهم، ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ﴾ أي: الكمال المطلق من كل وجه، وهو منسوب إليه، ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

**﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢) ﴾.**

يخبر تعالى عن حلمه[1] بخلقه مع ظلمهم، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة، أي: لأهلك جميع دواب الأرض تبعاً لإهلاك بني آدم، ولكن الرب، جل جلاله، يحلم ويستر، وينظر ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: لا يعاجلهم بالعقوبة؛ إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً.

قال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص أنه قال: كاد الجُعَل أن يعذب بذنب بني آدم، وقرأ: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا[2] مِن دَابَّةٍ﴾[3].

وكذا روى الأعمش، عن أبي إسحاق، عن أبي عبيدة قال: قال عبد الله: كاد الجُعَل أن يهلك في جحره بخطيئة بني آدم.

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن المثنى، حدثنا إسماعيل بن حكيم الخزاعي، حدثنا محمد بن جابر الحنفي[4]، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة قال: سمع أبو هريرة رجلا وهو يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه[5]. قال: فالتفت إليه فقال: بلى والله، حتى إن الحبارى لتموت في وكرها [هزالا][6] بظلم الظالم[7].

---

(١) في ت: «علمه».
(٢) في ف، أ: «على ظهرها» وهو خطأ.
(٣) رواه الطبري في تفسيره (١٤/ ٨٤).
(٤) في ت: «الجعفي».
(٥) في ف: «بنفسه».
(٦) زيادة من ت، ف، أ، و الطبري.
(٧) تفسير الطبري (١٤/ ٨٥) وقال ابن حجر: «في إسناده محمد بن جابر اليمامي، وهو متروك».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا على بن الحسين، أنبأنا الوليد بن عبد الملك بن عبيد الله[١] بن مسرح، حدثنا سليمان[٢] بن عطاء، عن مسلمة[٣] بن عبد الله، عن عمه أبي مَشْجَعة بن ربعى، عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال: ذكرنا عند رسول الله ﷺ، فقال: «إن الله لا يؤخر شيئا إذا جاء أجله، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة، يرزقها الله العبد فيدعون له من بعده، فيلحقه دعاؤهم فى قبره، فذلك زيادة العمر»[٤].

وقوله: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أى: من البنات ومن الشركاء الذين هم [من][٥] عبيده، وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له فى ماله.

وقوله: ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾: إنكار عليهم فى دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا، وإن كان ثمَّ معاد ففيه أيضا لهم الحسنى، وإخبار عن قيل من قال منهم، كقوله: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ. وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود: ٩، ١٠]، وكقوله[٦]: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقوله: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ[٧] بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا. [أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا][٨]﴾ [مريم: ٧٧، ٧٨] وقال إخبارا عن أحد الرجلين: أنه ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ[٩] مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا. وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦] - فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمنى الباطل، بأن يجازوا على ذلك حسنا وهذا مستحيل، كما ذكر ابن إسحاق: أنه وُجد حجر فى أساس الكعبة حين نقضوها ليجددوها مكتوب عليه حِكَم ومواعظ، فمن[١٠] ذلك: تعملون السيئات[١١] ويجزون الحسنات؟ أجل كما يجتنى[١٢] من الشوك العنب[١٣].

وقال مجاهد، وقتادة: ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ﴾ أى[١٤]: الغلمان.

وقال ابن جرير: ﴿ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ﴾ أى: يوم القيامة، كما قدمنا بيانه، وهو الصواب، ولله الحمد.

ولهذا قال الله تعالى رادا عليهم فى تمنيهم [ذلك][١٥]: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أى: حقا لابد منه ﴿ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾.

---

(١) فى ت: «الوليد بن عبد الله بن عبد الله».
(٢) فى ت: «سفيان». (٣) فى ت، ف، أ: «مسلمة».
(٤) ورواه ابن عدى فى الكامل (٣/ ٢٨٥) من طريق الوليد بن عبد الملك به نحوه، وفيه سليمان بن عطاء مجمع على ضعفه.
(٥) زيادة من ت. (٦) فى أ: «وقال». (٧) فى ت: «الذين كفروا» وهو خطأ.
(٨) زيادة من ف، أ. (٩) فى ت، ف، أ: «فقال». (١٠) فى ت: «فى».
(١١) فى ف: «السوء». (١٢) فى ف، أ: «يجنى».
(١٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٩٦).
(١٤) فى أ: «إلى». (١٥) زيادة من ت، ف، أ.

قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة وغيرهم: منسيون فيها مضيعون.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا[1] لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١].

وعن قتادة أيضا: ﴿مُفْرَطُونَ﴾ أي: معجلون إلى النار، من الفرط وهو السابق إلى الورد ولا منافاة لأنهم يعجل بهم يوم القيامة إلى النار، وينسون فيها، أي: يخلدون.

**﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) ﴾.**

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلا، فكُذِّبت الرسل، فلك يا محمد في إخوانك من المرسلين أسوة، فلا يهيدنَّك تكذيب قومك لك، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل، فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه، ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أي: هم تحت العقوبة والنكال، والشيطان وليهم، ولا يملك لهم خلاصا، ولا صريخ لهم، ولهم عذاب أليم.

ثم قال[2] تعالى لرسوله: إنه إنما أنزل[3] عليه الكتاب ليبين للناس الذي يختلفون فيه، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه، ﴿ وَهُدًى ﴾ أي: للقلوب، ﴿ وَرَحْمَةً﴾ أي: لمن تمسك به، ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

وكما جعل تعالى القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها، كذلك يحيي [الله][4] الأرض بعد موتها بما ينزله[5] عليها من السماء من ماء، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أي: يفهمون الكلام ومعناه.

**﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) ﴾.**

يقول تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿فِي الْأَنْعَامِ﴾ وهي: الإبل والبقر والغنم، ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ أي: لآية ودلالة على قدرة خالقها وحكمته ولطفه ورحمته، ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾، وأفرد هاهنا [الضمير][6] عوداً على معنى النعم، أو الضمير[7] عائد على الحيوان؛ فإن الأنعام حيوانات، أي: نسقيكم مما في بطن[8] هذا الحيوان.

---

(١) في ت، ف، أ: «ننساكم كما نسيتم» وهو خطأ.
(٢) في أ: «وقال».
(٣) في أ: «أنزل».
(٤) زيادة من ت.
(٥) في أ: «نزله».
(٦) زيادة من ت، ف، أ.
(٧) في ف، أ: «والضمير».
(٨) في ف، أ: «بطون».

وفي الآية الأخرى: ﴿ مِمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ [المؤمنون: ٢١]، ويجوز هذا وهذا، كما في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ. فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ [المدثر: ٥٤، ٥٥]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ. فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ ﴾ [النمل: ٣٥، ٣٦] أي: المال.

وقوله: ﴿ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا ﴾ أي: يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم في باطن الحيوان، فيسري كلٌّ إلى موطنه، إذا نضج الغذاء في معدته تصرف[1] منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع[2]، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه، ولا يتغير به.

وقوله: ﴿ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾ أي: لا يغص به أحد[3].

ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شرابا للناس سائغا[4]، ثنّى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة، من ثمرات النخيل والأعناب، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه؛ ولهذا امتن به عليهم فقال: ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾، دل على إباحته شرعا قبل تحريمه، ودل على التسوية بين السَّكَر المتخذ من العنب، والمتخذ من النخل كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء، وكذا حُكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل، كما جاءت السنة بتفصيل ذلك، وليس هذا موضع بسط ذلك، كما قال[5] ابن عباس في قوله: ﴿ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾، قال: السَّكَر: ما حرم من ثمرتيهما، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما. وفي رواية: السَّكَر حرامه، والرزق الحسن حلاله. يعني: ما يبس منهما من تمر وزبيب، وما عمل منهما من طلاء وهو الدِّبس[6] ـ وخل ونبيذ، حلال يشرب قبل أن يشتد، كما وردت السنة بذلك.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾: ناسب ذكر العقل هاهنا، فإنه أشرف ما في الإنسان؛ ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها، قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ. لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ. سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٤ ـ ٣٦].

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩) ﴾.

المراد بالوحي هاهنا: الإلهام والهداية والإرشاد إلى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتا تأوي إليها، ومن الشجر، ومما يعرشون. ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تسديسها ورصها، بحيث لا يكون بينها خلل.

---

(١) في ت، ف: «يصرف».　(٢) في أ: «الضروع».　(٣) في ت، ف، أ: «أحد به».
(٤) في ف: «وسائغا».　(٥) في ف: «قاله».
(٦) الطلاء: الشراب المطبوخ من عصير العنب، وأما الدبس: فهو عسل التمر وعصارته.

ثم أذن لها تعالى إذنا قدريا تسخيريا أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى لها مذللة، أي: سهلة عليها حيث شاءت في هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى موضعها وبيتها، لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل، فتبني الشمع من أجنحتها، وتقيء العسل من فيها[1]، وتبيض الفراخ من دبرها، ثم تصبح إلى مراعيها.

وقال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿ فاسلكي سبل ربك ذللا ﴾، أي: مطيعة. فجعلاه حالا من السالكة. قال ابن زيد: وهو كقول الله تعالى: ﴿ وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾ [يس: ٧٢] قال: ألا ترى أنهم ينقلون النحل[2] من بيوته من بلد إلى بلد وهو يصحبهم.

والقول الأول أظهر، وهو أنه حال من الطريق، أي: فاسلكيها مذلَّلةً لك، نص عليه مجاهد. وقال ابن جرير: كلا القولين صحيح[3].

وقد قال أبو يعلى الموصلي: حدثنا شيبان بن فرُّوخ، حدثنا مكِّين[4] بن عبد العزيز، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «عُمُرُ الذباب أربعون يوما، والذباب كله في النار إلا النحل»[5].

وقوله تعالى: ﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه﴾ أي: ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة، على اختلاف مراعيها ومأكلها منها[6].

وقوله: ﴿فيه شفاء للناس﴾ أي: في العسل شفاء للناس من أدواء تعرض لهم.

قال بعض من تكلم على الطب النبوي: لو قال فيه: «الشفاء للناس» لكان دواء لكل داء، ولكن قال ﴿فيه شفاء للناس﴾ أي: يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار، والشيء يداوى بضده.

وقال مجاهد بن جبر[7] في قوله: ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ يعني: القرآن.

وهذا قول صحيح في نفسه، ولكن ليس هو الظاهر هاهنا من سياق الآية؛ فإن الآية إنما ذكر فيها العسل، ولم يتابع مجاهد على قوله هاهنا، وإنما الذي قاله ذكروه في قوله تعالى: ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ الآية [الإسراء: ٨٢]. وقوله تعالى: ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ [يونس: ٥٧].

والدليل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿ فيه شفاء للناس﴾ هو العسل ـ الحديثُ الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحهما[8]، من رواية قتادة، عن أبي المتوكل علي بن داود الناجي، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي استَطْلَق بطنُه. فقال: «اسقه عسلا». فسقاه عسلا، ثم جاء فقال: يا رسول الله، سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا! قال: «اذهب فاسقه عسلا». فذهب فسقاه، ثم جاء فقال: يا رسول الله، ما زاده إلا استطلاقا! فقال رسول

---

(١) في ت: «فمها». (٢) في ت، ف، أ: «ينتقلون بالنحل».
(٣) في ت، ف: «صحيحه». (٤) في ت، ف: «مسكين».
(٥) مسند أبي يعلى (٧/ ٢٣٦) وحسنه البوصيري كما في حاشية المطالب العالية (٢/ ٢٩٦).
(٦) في أ: «منه». (٧) في أ: «جبير». (٨) في ف: «صحيحيهما».

الله ﷺ: «صدق الله، وكذب بطن أخيك! اذهب فاسقه عسلا». فذهب فسقاه فبرئ[١].

قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاه عسلا وهو حار تحللت، فأسرعت في الاندفاع، فزاد إسهاله، فاعتقد[٢] الأعرابي أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فازداد التحليل والدفع، ثم سقاه فكذلك، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه، وصلح مزاجه، واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام[٣].

وفي الصحيحين، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، رضي الله عنها؛ أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الحَلْواء والعسل. هذا[٤] لفظ البخاري[٥].

وفي صحيح البخاري: من حديث سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشفاء في ثلاثة: في شَرْطَةِ مِحْجَم، أو شربة عسل، أو كيَّةٍ بنار، وأنهى أمتي عن الكي»[٦].

وقال البخاري: حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد الرحمن بن الغَسِيل، عن عاصم بن عمر بن قتادة، سمعت جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كان في شيء من أدويتكم، أو يكونُ في شيء من أدويتكم خير: ففي شرطة مِحْجَم، أو شربة عسل، أو لذعة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوي».

ورواه مسلم من حديث عاصم بن عمر بن قتادة، عن جابر، به[٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، أنبأنا عبد الله، أنبأنا سعيد بن أبي أيوب، حدثنا عبد الله بن الوليد، عن أبي الخير، عن عقبة بن عامر الجُهَني قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث إن كان في شيء شفاء: فشَرْطة مِحْجَم، أو شربة عسل، أو كيَّة تصيب ألمًا، وأنا أكره الكي ولا أحبه»[٨].

ورواه الطبراني عن هارون بن مَلُول[٩] المصري، عن أبي عبد الرحمن المقرئ، [عن حيوة بن شريح][١٠] عن عبد الله بن الوليد، به. ولفظه: «إن كان في شيء شفاء: فشرطة محجم»... وذكره[١١] وهذا إسناد صحيح، ولم يخرجوه.

وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن زيد[١٢] بن ماجه القزويني في سننه: حدثنا علي بن سلمة ـ

---

(١) صحيح البخاري برقم (٥٧١٦) وصحيح مسلم برقم (٢٢١٧).

(٢) في ف: «واعتقد».

(٣) انظر: زاد المعاد لابن القيم (٤/٣٣ـ ٣٦) وفتح الباري لابن حجر (١٠/١٦٩، ١٧٠).

(٤) في ف: «وهذا».

(٥) صحيح البخاري برقم (٥٦٨٢) وصحيح مسلم برقم (١٤٧٤).

(٦) صحيح البخاري برقم (٥٦٨٠، ٥٦٨١).

(٧) صحيح البخاري برقم (٥٦٨٣) وصحيح مسلم برقم (٢٢٠٥).

(٨) المسند (٤/١٤٦).

(٩) في ص، ف: «ملوله» وفي أ: «ملوك» والمثبت من المعجم للطبراني.

(١٠) زيادة من المعجم الكبير للطبراني.

(١١) المعجم الكبير (١٧/ ١٨٨) والمعجم الأوسط برقم (٩٣٣٥) ومجمع البحرين برقم (٤١٦٥).

تنبيه: وقع في المعجم الأوسط عن أبي عبد الرحمن المقرئ، عن سعيد بن أبي أيوب، عن عبد الله بن الوليد به، وقال: «لم يروه عن عبد الله بن الوليد إلا سعيد» وقد رأيته في المعجم الكبير رواه عنه شريح، فلا أدري هل هو خطأ أو لا؟ والله أعلم.

(١٢) في ت، ف: «يزيد».

هو اللبقي ـ حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا سفيان عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن»[1].

وهذا إسناد جيد، تفرد بإخراجه ابن ماجه مرفوعاً، وقد رواه ابن جرير، عن سفيان بن وكيع، عن أبيه، عن سفيان ـ هو الثوري ـ به موقوفا[2]: وله[3] أشبه.

وروينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنه قال: إذا أراد أحدكم الشفاء فليكتب آية من كتاب الله في صَحْفَة، وليغسلها بماء السماء، وليأخذ من امرأته درهما عن طيب نفس منها، فليشتر به عسلا فليشربه بذلك، فإنه شفاء[4]. أي: من وجوه، قال الله: **﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾** [الإسراء: ٨٢] وقال: **﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾** [ق: ٩] وقال: **﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾** [النساء: ٤]، وقال في العسل: **﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾**.

وقال ابن ماجه أيضاً: حدثنا محمود بن خداش، حدثنا سعيد بن زكريا القرشي، حدثنا الزبير بن سعيد الهاشمي، عن عبد الحميد بن سالم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لَعِق العسل ثلاث غَدَوات في كل شهر، لم يصبه عظيم من البلاء»[5].

الزبير بن سعيد متروك.

وقال ابن ماجه أيضاً: حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف بن سَرْح الفريابي، حدثنا عمرو بن بكر[6] السَّكْسَكي، حدثنا إبراهيم بن أبي عَبْلَة. سمعت أبا أبي بن أم حَرَام ـ وكان قد صلى القبلتين ـ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عليكم بالسَّنَى والسَّنُّوت، فإن فيهما شفاء من كل داء إلا السام». قيل: يا رسول الله، وما السام؟ قال: «الموت».

قال عمرو: قال ابن أبي عبلة: «السَّنُّوت»: الشِّبِت. وقال آخرون: بل هو العسل الذي [يكون][7] في زقاق السمن، وهو قول الشاعر:

هُمُ السَّمْنُ بالسَّنُّوت لا أَلْسَ فيهم ... وَهُمْ يَمْنَعُونَ الجَارَ أَنْ يُقَرَّدَا

كذا رواه ابن ماجه[8]. وقوله: «لا أَلْسَ فيهم» أي: لا خلط. وقوله: «يمنعون الجار أن يقردا»، [أي: يضطهد ويظلم][9].

وقوله: **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾** أي: إن في إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة إلى السلوك في هذه المهامة والاجتناء من سائر الثمار، ثم جمعها للشمع والعسل، وهو من أطيب

---

(١) سنن ابن ماجه برقم (٣٤٥٢).

(٢) تفسير الطبري (١٤/ ٩٤) وقال الدارقطني في العلل: «الموقوف أصح».

(٣) في ت، ف: «وهو».

(٤) قال ابن حجر في الفتح (١٠/ ١٧٠): «أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير بسند حسن».

(٥) سنن ابن ماجه برقم (٣٤٥٠) وهو منقطع أيضاً، عبد الحميد بن سالم لم يسمعه من أبي هريرة.

(٦) في ف: «بكير». (٧) زيادة من ت، ف، أ، وسنن ابن ماجه.

(٨) سنن ابن ماجه برقم (٣٤٥٧) وقال البوصيري في الزوائد (٣/ ١٢٣): «إسناده ضعيف» ثم أعله بعمرو السكسكي.

(٩) زيادة من ت، ف، أ.

الأشياء، ﴿ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها، فيستدلون بذلك على أنه [الفاعل][١] القادر، الحكيم العليم، الكريم الرحيم.

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) ﴾.

يخبر تعالى عن تصرفه في عباده، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم، ثم بعد ذلك يتوفاهم، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهَرَم ـ وهو الضعف في الخلقة ـ كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

وقد روى عن علي، رضي الله عنه، في أرذل العمر [قال][٢]: خمس وسبعون سنة. وفي هذا السن يحصل له ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم؛ ولهذا قال: ﴿ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ[٣] عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أي: بعد ما كان عالماً أصبح لا يدري شيئاً من الفَنَد والخرف؛ ولهذا روى البخاري عند تفسير هذه الآية:

حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا هارون بن موسى أبو عبد الله الأعور، عن شُعَيب، عن أنس ابن مالك؛ أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «أعوذ بك من البخل والكسل، والهرم وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات».

ورواه مسلم، من حديث هارون الأعور، به[٤].

وقال زهير بن أبي سلمى في معلقته[٥] المشهورة:

سئمتُ تكاليفَ الحياة، ومَنْ يعش ... ثمانين عاما ـ لا أبَالك ـ يَسْأم
رأيتُ المَنايا خَبط عَشْواء من تصب ... تمته ومَنْ تُخطئ يُعَمَّرْ فيهرَمِ[٦]

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) ﴾.

يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه[٧] لله من الشركاء، وهم يعترفون[٨] أنها عبيد له، كما كانوا يقولون في تلبياتهم في حجهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك». فقال تعالى منكرا عليهم: إنكم[٩] لا ترضون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيده له في الإلهية والتعظيم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّن

---

(١) زيادة من ف، أ. (٢) زيادة من ت، ف، أ. (٣) في ت: «من بعد» وهو خطأ.

(٤) صحيح البخاري برقم (٤٧٠٧) وصحيح مسلم برقم (٢٧٠٦) وليس في الصحيح: «والهرم».

(٥) في ف: «قصيدته».

(٦) ديوان زهير بن أبي سلمى (ص٢٩).

(٧) في ت، ف: «يزعمون». (٨) في ت، ف، أ: «يعرفون». (٩) في ت، ف، أ: «أنتم».

أنفسكم هل لكم من ما[١] ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾ الآية [الروم: ٢٨].

قال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: يقول: لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني، فذلك قوله: ﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾.

وقال في الرواية الأخرى، عنه: فكيف ترضون لي مالا ترضون[٢] لأنفسكم.

وقال مجاهد في هذه الآية: هذا مثل للآلهة الباطلة[٣].

وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله، فهل منكم من أحد شارك[٤] مملوكه في زوجته وفي فراشه، فتعدلون بالله خلقه وعباده؟ فإن لم ترض لنفسك هذا، فالله[٥] أحق أن ينزّه منك.

وقوله: ﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾ أي: إنهم جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا، فجحدوا نعمته[٦]، وأشركوا معه غيره.

وعن الحسن البصري قال: كتب عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، هذه الرسالة إلى أبي موسى الأشعري: واقنع برزقك من الدنيا، فإن الرحمن فضّل بعض عباده على بعض في الرزق، بل[٧] يبتلي به كلاً، فيبتلي من بسط له، كيف شكره لله وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخوله؟ رواه ابن أبي حاتم.

﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمت الله هم يكفرون (٧٢)﴾.

يذكر تعالى نعمه[٨] على عبيده، بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم [وزيهم][٩]، ولو جعل الأزواج من نوع آخر لما حصل ائتلاف ومودة ورحمة. ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكوراً وإناثا، وجعل الإناث أزواجا للذكور.

ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة، وهم أولاد البنين. قاله ابن عباس، وعكرمة، والحسن، والضحاك، وابن زيد.

قال شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس: ﴿بنين وحفدة﴾: هم الولد وولد الولد.

وقال سُنَيد: حدثنا حجاج عن أبي بكر، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس، قال: بنوك حين يحفدونك ويرفدونك ويعينونك ويخدمونك، قال جميل:

حَفَدَ الولائد حَوْلَهُنَّ وأسلمت ... بأكُفِّهن أزِمَّةَ الأجْمَال[١٠]

---

(١) في ب: «فيما».
(٢) في ت: «ترضوه».
(٣) في ت، ف، أ: «الباطل».
(٤) في ف: «يشاركه».
(٥) في ف: «فإن الله».
(٦) في ف، أ: «بنعمة الله».
(٧) في ت، ف، أ: «يبلاه».
(٨) في ف، أ: «نعمته».
(٩) زيادة من ت، ف، أ.
(١٠) البيت في تفسير الطبري (١٤/ ٩٨) ونسبه لجميل.

وقال مجاهد: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾: ابنه وخادمه. وقال في رواية: الحفدة: الأنصار والأعوان والخدام.

وقال طاوس: الحفدة: الخدم[١]. وكذا قال قتادة، وأبو مالك، والحسن البصري.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَر، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة أنه قال: الحفدة: مَنْ خَدَمَكَ من ولدك وولد ولدك[٢].

قال الضحاك: إنما كانت العرب يخدمها بنوها.

وقال العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ يقول: بنو امرأة الرجل، ليسوا منه. ويقال: الحفدة: الرجل يعمل بين يدي الرجل، يقال: فلان يحفد لنا قال: ويزعم[٣] رجال أن الحفدة أَخْتَان الرجل.

وهذا [القول][٤] الأخير الذي ذكره ابن عباس قاله ابن مسعود، ومسروق، وأبو الضُّحى، وإبراهيم النَّخَعيّ، وسعيد بن جُبَيْر، ومجاهد، والقُرَظي. ورواه عكرمة، عن ابن عباس.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هم الأصهار.

قال ابن جرير: وهذه الأقوال كلها داخلة في معنى: «الحَفْد» وهو الخدمة، الذي منه قوله في القنوت: «وإليك نسعى ونحفد»، ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والأصهار والخدم[٥]، فالنعمة حاصلة بهذا كله؛ ولهذا[٦] قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾.

قلت: فمن جعل ﴿وَحَفَدَةً﴾ متعلقا بأزواجكم، فلابد أن يكون المراد الأولاد، وأولاد الأولاد، والأصهار؛ لأنهم أزواج البنات، وأولاد الزوجة، كما قال[٧] الشعبي والضحاك، فإنهم غالبا يكونون تحت كنف الرجل وفي حجره وفي خدمته. وقد يكون هذا هو المراد من قوله [عليه الصلاة و][٨] والسلام في حديث بَصرة بن أكثم: «والولد عبد لك» رواه أبو داود[٩].

وأما من جعل الحَفَدة هم الخدم فعنده أنه معطوف على قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: وجعل لكم الأزواج والأولاد[١٠].

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من المطاعم والمشارب.

ثم قال تعالى منكرا على من أشرك في عبادة المنعم غيره: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهم[١١]: الأصنام والأنداد، ﴿وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي: يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره.

وفي الحديث الصحيح: «إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ممتنا عليه: ألم أزوجك؟ ألم

---

(١) في ت: «الخدام».

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ٣٠٩).

(٣) في ف: «وزعم». (٤) زيادة من أ. (٥) في ت، ف: «والخدام».

(٦) في ف: «لهذا». (٧) في ت، ف: «قاله». (٨) زيادة من ف، أ.

(٩) سنن أبي داود برقم (٢١٣١).

(١٠) في أ: «وجعل لكم خداما». (١١) في ت: «وهو».

أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع[١]؟»[٢].

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) ﴾.

يقول تعالى إخبارا عن المشركين الذين عبدوا معه غيره، مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ﴿ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا ﴾ أى: لا يقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع ولا شجر، ولا يملكون ذلك، أى: ليس لهم[٣] ذلك ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ أى: لا تجعلوا[٤] له أنداداً وأشباها[٥] وأمثالاً، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أى: إنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا الله[٦]، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره.

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾.

قال العوفى، عن ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن: وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير.

والعبد[٧] المملوك الذى لا يقدر على شىء مثل الكافر والمرزوق الرزق الحسن، فهو ينفق منه سرا وجهرا، هو[٨] المؤمن.

وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: هو مثل مضروب للوثن والحق تعالى، فهل يستوى هذا وهذا؟!

ولما كان الفرق ما بينهما بينا واضحا ظاهراً لا يجهله إلا كل غبى، قال [الله][٩] تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. [ثم قال تعالى][١٠]:

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦) ﴾.

قال مجاهد: وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى، يعنى: أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق

---

(١) فى ت، ف: «وترتع».

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٩٦٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) فى ت، ف: «إليهم».

(٤) فى ت: «أى تجعلونه».

(٥) فى ف: «أشباحاً وأنداداً».

(٦) فى ف: «إلا هو».

(٧) فى ت، ف: «فالعبد».

(٨) فى ت: «فهو».

(٩) زيادة من ت، ف، أ.

(١٠) زيادة من أ.

بخير ولا بشيء[١]، ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مقال، ولا فعال، وهو مع هذا ﴿كَلٌّ﴾ أي: عيال وكلفة على مولاه، ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ أي: بعثه ﴿لا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ ولا ينجح مسعاه، ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾ من هذه صفاته، ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أي: بالقسط، فقاله حق وفعاله مستقيمة[٢]، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وبهذا قال السدي، وقتادة وعطاء الخراساني. واختار هذا القول ابن جرير.

وقال العوفي، عن ابن عباس: هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً، كما تقدم.

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن الصباح البزار، حدثنا يحيى بن إسحاق، السَّيْلَحِيني[٣]، حدثنا حماد، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم[٤]، عن إبراهيم، عن[٥] عِكْرِمة، عن يَعْلَى بن أمية، عن ابن عباس في قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾: نزلت في رجل من قريش وعبده. وفي قوله: ﴿[وَضَرَبَ اللَّهُ][٦] مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ [لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ][٧]﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، قال: هو عثمان بن عفان. قال: والأبكم الذي أينما يوجهه لا يأت بخير قال هو: مولى لعثمان بن عفان، كان عثمان ينفق عليه ويكفله[٨] ويكفيه المئونة، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف، فنزلت فيهما[٩].

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩)﴾.

يخبر تعالى عن كماله وقدرته على الأشياء، في علمه غيب السموات والأرض، واختصاصه بذلك، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه [الله][١٠] تعالى على ما يشاء ـ وفي قدرته التامة[١١] التي لا تخالف ولا تمانع، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن، فيكون، كما قال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] أي: فيكون ما يريد كطرف العين. وهكذا قال هاهنا: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، كما قال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

ثم ذكر تعالى منّته على عباده، في إخراجه[١٢] إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد

(١) في ت، آ: «ولا بشر». (٢) في ت: «مستقيم». (٣) في أ: «السلحيني».
(٤) في ت: «خيثم». (٥) في ف: «ابن». (٦، ٧) زيادة من ت، ف، أ.
(٨) في ت، ف: «ويكلفه».
(٩) تفسير الطبري (١٤/ ١٠١).
(١٠) زيادة من ت. (١١) في ف: «العامة». (١٢) في ت: «إخراجهم».

هذا يرزقهم[١] تعالى السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار اللاتي بها يحسون المرئيات، والأفئدة ـ وهي العقول ـ التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها. وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلا قليلا، كلما كبر زيد في سمعه وبصره وقوى عقله حتى يبلغ أشده.

وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان، ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه، كما جاء في صحيح البخاري، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول تعالى: من عادى لي وليا فقد بارزني بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بمثل[٢] أداء ما افترضت عليه. ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي[٣] يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن دعاني لأجيبنه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولابد له منه»[٤].

فمعنى الحديث: أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل، فلا يسمع إلا الله، ولا يبصر إلا الله، أي: ما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله عز وجل، مستعينا بالله في ذلك كله؛ ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح، بعد قوله: «ورجله التي يمشي بها»: «فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ. قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الملك: ٢٣، ٢٤].

ثم نبه تعالى عباده إلى[٥] النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض، كيف جعله يطير بجناحيه بين السماء والأرض، في جو السماء ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى، الذي جعل فيها قوىً تفعل ذلك، وسخر الهواء يحملها ويسر الطير لذلك، كما قال تعالى في سورة الملك: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ [الملك: ١٩]. وقال هاهنا: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ

---

(١) في ت: «يرزقهم الله». (٢) في ت، ف، أ: «بأفضل». (٣) في ت: «الذي».
(٤) صحيح البخاري برقم (٦٥٠٢).
(٥) في ف: «على».

تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣) ﴾.

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبيده، بما جعل لهم من البيوت التى هى سكن لهم، يأوون إليها، ويستترون بها، وينتفعون بها سائر[1] وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضاً ﴿ مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ أى: من الأدم، يستخفون حملها فى أسفارهم، ليضربوها[2] لهم فى إقامتهم فى السفر والحضر ولهذا قال: ﴿ تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا ﴾ أى: الغنم، ﴿ وَأَوْبَارِهَا ﴾ أى: الإبل، ﴿ وَأَشْعَارِهَا﴾ أى: المعز ـ والضمير عائد على الأنعام ـ ﴿أَثَاثًا﴾ أى: تتخذون منه أثاثا، وهو المال. وقيل: المتاع. وقيل: الثياب والصحيح أعم من هذا كله، فإنه يتخذ من[3] الأثاث البسط والثياب وغير ذلك، ويتخذ مالا وتجارة.

وقال ابن عباس: الأثاث: المتاع. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وعطية العوفى، وعطاء الخراسانى، والضحاك، وقتادة.

وقوله: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أى: إلى أجل مسمى ووقت[4] معلوم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً﴾: قال قتادة: يعنى: الشجر.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ أى: حصونا ومعاقل، كما ﴿جَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾، وهى الثياب من القطن والكتان والصوف، ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ كالدروع من الحديد المصفَّح والزَّرد وغير ذلك، ﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أى: هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم، وما تحتاجون إليه، ليكون ـ عوناً لكم على طاعته وعبادته، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

هكذا فسره الجمهور، وقرؤوه بكسر اللام من ﴿ تُسْلِمُونَ﴾ أى: من الإسلام.

وقال قتادة فى قوله: ﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ [لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ][5]﴾: هذه السورة تسمى سورة النِّعَم.

وقال عبد الله بن المبارك وعباد بن العوام، عن حَنْظَلَة السدوسى، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن ابن عباس أنه كان يقرؤها «تَسلَمون» بفتح اللام، يعنى من الجراح[6]. رواه أبو عبيد القاسم بن سلام، عن عباد، وأخرجه ابن جرير من الوجهين، وردَّ هذه القراءة[7].

وقال عطاء الخراسانى: إنما نزل القرآن على قدر معرفة العرب، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾، وما جعل [لكم][8] من السهل أعظم وأكثر[9]، ولكنهم كانوا أصحاب جبال[10]؟ ألا ترى إلى قوله: ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ

---

(١) فى ف: «سائر». (٢) فى ت: «لتضربونها». (٣) فى ت، ف: «منه».

(٤) فى ت، ف، أ: «أى إلى وقت». (٥) زيادة من ت، ف، أ.

(٦) فى ت، ف: «يعنى من الجراح بفتح اللام».

(٧) تفسير الطبرى (١٤/ ١٠٤).

(٨) زيادة من ف، أ. (٩) فى ت، ف: «وأكبر». (١٠) فى ف: «جبل».

حين﴾ وما جعل لكم من غير ذلك أعظم منه وأكثر[١]، ولكنهم كانوا أصحاب وبر وشعر، ألا ترى إلى قوله: ﴿وينزل من السماء من جبال فيها من برد﴾ [النور: ٤٣]، لعجبهم من ذلك، وما أنزل من الثلج أعظم وأكثر[٢]، ولكنهم كانوا لا يعرفونه؟ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾، وما بقي من البرد أعظم وأكثر[٣]، ولكنهم كانوا أصحاب حر.

وقوله: ﴿فإن تولوا﴾ أي: بعد هذا البيان وهذا الامتنان، فلا عليك منهم، ﴿فإنما عليك البلاغ المبين﴾، وقد أديته إليهم.

﴿يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها﴾ أي: يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك، وهو المتفضل به عليهم، ومع هذا ينكرون ذلك، ويعبدون معه غيره، ويسندون النصر والرزق[٤] إلى غيره، ﴿وأكثرهم الكافرون﴾ ـ كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن مجاهد؛ أن أعرابياً أتى رسول الله ﷺ فسأله، فقرأ عليه رسول الله ﷺ: ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكنا﴾، قال الأعرابي: نعم. قال: ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم﴾، قال الأعرابي: نعم. ثم قرأ عليه، كل ذلك يقول الأعرابي: نعم، حتى بلغ: ﴿كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون﴾، فولى الأعرابي، فأنزل الله: ﴿يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون﴾[٥].

**﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون (٨٤) وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون (٨٥) وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون (٨٦) وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون (٨٧) الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون (٨٨)﴾.**

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعث من كل أمة شهيدا، وهو نبيها، يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى، ﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا﴾ أي: في الاعتذار؛ لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه، كما قال: ﴿هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦]. ولهذا قال: ﴿ولا هم يستعتبون . وإذا رأى الذين ظلموا﴾ أي: أشركوا ﴿العذاب فلا يخفف عنهم﴾ أي: لا يفتر عنهم ساعة واحدة، ﴿ولا هم ينظرون﴾ أي: [و][٦] لا يؤخر عنهم، بل يأخذهم سريعا من الموقف بلا حساب، فإنه إذا جيء بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف

(١) في ت، ف، أ: «أكبر».
(٢) في ف: «وأكبر».
(٣) في ف: «وأكبر».
(٤) في ف: «الرزق والنصر».
(٥) أورده السيوطي في الدر المنثور (٥/ ١٥٥) وعزاه لابن أبي حاتم وهو مرسل.
(٦) زيادة من ت.

ملك، فيشرف عنق منها على الخلائق، وتزفر زفرة لا[1] يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، فتقول: إني وكلت بكل جبار عنيد، الذي جعل مع الله إلهاً آخر، وبكذا وكذا[2]، وتذكر[3] أصنافا من الناس، كما جاء في الحديث. ثم تنطوي[4] عليهم وتلقّطهم من الموقف كما يلتقط الطائر الحب قال الله تعالى: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا. وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا. لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ١٢ ـ ١٤]، وقال تعالى: ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ. بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٩، ٤٠].

ثم أخبر تعالى عن تبريء آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها، فقال: ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ ﴾ أي: الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، ﴿ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي: قالت لهم الآلهة: كذبتم، ما نحن أمرناكم[5] بعبادتنا. كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ. وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦] وقال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا. كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]. وقال الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ[6] الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٥] وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ[7] فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ [الكهف: ٥٢] والآيات في هذا كثيرة.

وقوله: ﴿ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ ﴾ ـ قال قتادة، وعكرمة: ذلوا واستسلموا يومئذ، أي: استسلموا لله جميعهم، فلا أحد إلا سامع مطيع، كما قال: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم: ٣٨] أي: ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ! وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال: ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ [طه: ١١١] أي: خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت.

﴿ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي: ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير.

ثم قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ أي: عذابا على كفرهم، وعذاباً على صدهم الناس عن اتباع الحق، كما قال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ [الأنعام: ٢٦] أي: ينهون الناس، عن اتباعه، ويبتعدون هم منه أيضاً ﴿ وَإِن

---

(١) في ت: «فلا». (٢) في ت، ف: «وبكذا». (٣) في ف: «ويذكر».

(٤) في ف: «ينطوي». (٥) في ف: «نحن ما أمرناكم».

(٦) في ت: «وقال الخليل ويوم»، وفي ف: «وقال الخليل عليه السلام ويوم».

(٧) في ت، ف، أ، هـ: «وقيل ادعوا شركاءكم» والصواب ما أثبتناه.

يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦]

وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم، كما قال [الله][١] تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقد قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سُرَيْج بن يونس، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن مُرَّة، عن مسروق، عن عبد الله في قول الله: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ قال: زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال[٢].

وحدثنا سريج بن يونس، حدثنا إبراهيم بن سليمان، حدثنا الأعمش، عن الحسن، عن ابن عباس أنه قال: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ قال: هي خمسة أنهار فوق[٣] العرش يعذبون ببعضها بالليل وببعضها بالنهار[٤].

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)﴾.

يقول تعالى مخاطبًا عبده ورسوله محمدًا ﷺ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ[٥] فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاءِ﴾ يعني: أمته.

أي: اذكر ذلك اليوم وهوله وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع. وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة «النساء» فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. فقال له رسول الله ﷺ: «حسبك». قال ابن مسعود، رضي الله عنه: فالتفت فإذا عيناه تذرفان[٦].

وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾: قال ابن مسعود: [و][٧]قد بين لنا في هذا القرآن كل علم، وكل شيء.

وقال مجاهد: كل حلال وحرام.

وقول ابن مسعود: أعم وأشمل؛ فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وحكم كل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون[٨] في أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم

---

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) مسند أبي يعلى (٥/ ٦٦) ورواه الطبري في تفسيره (١٤/ ١٠٧) من طريق أبي معاوية عن الأعمش به.

(٣) في ت، ف، أ: «تحت».

(٤) مسند أبي يعلى (٥/ ٦٦) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٩٠): «رجاله رجال الصحيح».

(٥) في ت: «يبعث».

(٦) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية: ٤١ من سورة النساء.

(٧) زيادة من ف.

(٨) في ف: «محتاجون إليه».

ومعادهم.

﴿ وهدى ﴾ أي: للقلوب، ﴿ ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾.

وقال الأوزاعي: ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ﴾ أي: بالسنة.

ووجه اقتران قوله: ﴿ ونزلنا عليك الكتاب ﴾ مع قوله: ﴿ وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ﴾ أن المراد ـ والله أعلم ـ: إن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله عليك، سائلك عن ذلك يوم القيامة، ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾ [الأعراف: ٦]، ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين. عما كانوا يعملون ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ﴾ [المائدة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ [القصص: ٨٥] أي: إن الذي أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه، ومعيدك يوم القيامة، وسائلك عن أداء ما فرض عليك. هذا أحد الأقوال، وهو متجه حسن.

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون (٩٠) ﴾.

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل، وهو القسط والموازنة، ويندب إلى الإحسان، كما قال تعالى: ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقال: ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال: ﴿ والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ﴾ [المائدة: ٤٥]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا، من[1] شرعية العدل والندب إلى الفضل.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ إن الله يأمر بالعدل ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله.

وقال سفيان بن عيينة: العدل في هذا الموضع: استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملا. والإحسان: أن تكون[2] سريرته أحسن من علانيته. والفحشاء والمنكر: أن تكون[3] علانيته أحسن من سريرته.

وقوله: ﴿ وإيتاء ذي القربى ﴾ أي: يأمر بصلة الأرحام، كما قال: ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ﴾ [الإسراء: ٢٦].

وقوله: ﴿ وينهى عن الفحشاء والمنكر ﴾: فالفواحش: المحرمات. والمنكرات: ما ظهر منها من فاعلها؛ ولهذا قال في الموضع الآخر: ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ [الأعراف: ٣٣]. وأما البغي فهو: العدوان على الناس. وقد جاء في الحديث: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله

---

(١) في ف: «في».
(٢، ٣) في ف: «يكون».

عقوبته في الدنيا، مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم»[١].

وقوله: ﴿ يَعِظُكُمْ ﴾ أي: يأمركم بما يأمركم به من الخير، وينهاكم عما[٢] ينهاكم عنه من الشر، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

قال الشعبي، عن شُتَيْر بن شَكَل: سمعت ابن مسعود يقول: إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ الآية. رواه ابن جرير[٣].

وقال سعيد عن قتادة: قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ الآية، ليس من خُلُق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنون إلا أمر الله به، وليس من خلق سيئ كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه. وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها.

قلت: ولهذا جاء في الحديث: «إن الله يحب معالي الأخلاق، ويكره سَفْسافها»[٤].

وقال الحافظ أبو نُعَيم في كتابه «كتاب معرفة الصحابة»: حدثنا أبو بكر محمد بن الفتح الحنبلي، حدثنا يحيى[٥] بن محمد مولى بني هاشم، حدثنا الحسن بن داود المُنْكَدري، حدثنا عمر بن علي المقدمي، عن علي بن عبد الملك بن عمير[٦] عن أبيه قال: بلغ أكثم بن صيفي مخرج النبي ﷺ، فأراد أن يأتيه، فأبى قومه أن يدعوه وقالوا: أنت كبيرنا، لم تكن لتخف إليه! قال: فليأته من يبلغه عني ويبلغني عنه. فانتدب رجلان فأتيا النبي[٧] ﷺ فقالا: نحن رسل أكثم بن صيفي، وهو يسألك: من أنت؟ وما أنت[٨]؟ فقال النبي ﷺ: «أما من أنا فأنا محمد بن عبد الله، وأما ما أنا فأنا عبد الله ورسوله». قال: ثم تلا عليهم هذه الآية: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾، قالوا: اردد علينا هذا القول فردده عليهم حتى حفظوه. فأتيا أكثم فقالا: أبى أن يرفع نسبه، فسألنا عن نسبه، فوجدناه زاكي النسب، واسطا في مضر، وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها، فلما سمعهن أكثم قال: إني قد أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن ملائمها، فكونوا في هذا الأمر رؤوسا، ولا تكونوا فيه أذنابا[٩].

---

(١) رواه أحمد في المسند (٥/ ٣٦) وأبو داود في السنن برقم (٤٩٠٢) والترمذي في السنن برقم (٢٥١١) وابن ماجه في السنن برقم (٤٢١١) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) في ف: «عن الذي».

(٣) تفسير الطبري (١٤/ ١٠٩).

(٤) رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق برقم (٣) وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٥٥) من طريق معمر، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد مرفوعا، وقال أبو نعيم: «غريب من حديث أبي حازم وسهل تفرد به عن أبي حازم معمر».

(٥) في ف: «حدثنا محمد بن يحيى».

(٦) في هـ، ت، أ: «علي بن عبد الله بن عمير» وهو خطأ، وانظر: معرفة الصحابة (٢/ ٤٢٠) والثقات لابن حبان (٧/ ٢٠٧) والإصابة (١/ ١١٨).

(٧) في أ: «رسول الله». (٨) في ف: «من أنت وصفاتك وما جئت به».

(٩) معرفة الصحابة (٢/ ٤٢٠) قال ابن حجر: «وهو مرسل» وأورده ابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ١٤٦) وأنكر كون أكثم بن صيفي من الصحابة وانظر: الإصابة (١/ ١١٩).

وقد ورد في نزول هذه الآية الكريمة حديث حَسن، رواه الإمام أحمد:

حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الحميد، حدثنا شهر، حدثني عبد الله بن عباس قال: بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته جالس، إذ مر به عثمان بن مظعون، فكشر[1] إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «ألا تجلس؟» فقال: بلى. قال: فجلس رسول الله ﷺ مستقبله، فبينما هو يحدثه إذ شَخَص رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فنظر ساعة إلى [السماء][2] فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يَمْنته في الأرض، فتحرَّف رسول الله ﷺ عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره فأخذ ينغض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له، وابن مظعون ينظر فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له، شخص بصر رسول الله ﷺ إلى السماء كما شخص أول مرة. فأتبعه بصره حتى توارى في السماء. فأقبل إلى عثمان بجلسته الأولى فقال: يا محمد، فيم كنت أجالسك؟ ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة! قال: «وما رأيتني فعلت؟» قال: رأيتك شخص بصرك إلى السماء ثم وضعته حيث وضعته على يمينك، فتحرفت إليه وتركتني، فأخذت تُنغض رأسك كأنك تستفقه شيئا يقال لك. قال: «وفطنت لذلك؟» فقال عثمان: نعم. قال رسول الله ﷺ: «أتاني رسول الله آنفا وأنت جالس». قال: رسولُ الله؟ قال: «نعم». قال: فما قال لك؟ قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ قال عثمان: فذلك حين استقر الإيمان في قلبي، وأحببت محمداً ﷺ[3].

إسناد جيد متصل حسن، قد[4] بيَّن فيه السماع المتصل. ورواه ابن أبي حاتم، من حديث عبد الحميد بن بَهرام مختصراً.

**حديث آخر**: عن عثمان بن أبي العاص الثقفي في ذلك، قال الإمام أحمد:

حدثنا أسود بن عامر، حدثنا هُرَيْم، عن لَيْث، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت عند رسول الله ﷺ جالسا، إذ شَخَصَ بَصره فقال: «أتاني جبريل، فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ [وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ][5]﴾»[6].

وهذا إسناد لا بأس به، ولعله عند شهر بن حوشب من الوجهين، والله أعلم.

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ

---

(١) في ف: «فكر».

(٢) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.

(٣) المسند (١/ ٣١٨).

(٤) في ف: «وقد».

(٥) زيادة من ف، أ، وفي هـ: «الآية».

(٦) المسند (٤/ ٢١٨).

أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) ﴾.

وهذا مما يأمر الله تعالى به[(١)]، وهو: الوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة على الأيمان المؤكدة؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾.

ولا تعارض بين هذا وبين قوله: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا [وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ][(٢)] ﴾ [البقرة: ٢٢٤] وبين قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ [المائدة: ٨٩] أي: لا تتركوها بلا تكفير، وبين قوله، عليه السلام[(٣)]، فيما ثبت عنه في الصحيحين[(٤)]: «إني والله إن شاء الله، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها، إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها». وفي رواية: «وكفرت عن يميني» لا تعارض بين هذا كله، ولا بين الآية المذكورة هاهنا وهي قوله: ﴿ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا [وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا][(٥)] ﴾؛ لأن هذه الأيمان، المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق، لا الأيمان التي هي واردة على حَثّ أو منع؛ ولهذا قال مجاهد في قوله: ﴿ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ يعني: الحلف، أي: حلف الجاهلية؛ ويؤيده ما رواه الإمام أحمد:

حدثنا عبد الله بن محمد ـ هو ابن أبي شيبة ـ حدثنا ابن نُمَيْر وأبو أسامة، عن زكريا ـ هو ابن أبي زائدة ـ عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه، عن جُبَيْر بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة».

وكذا رواه مسلم، عن ابن أبي شيبة، به[(٦)].

ومعناه: أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه.

وأما ما ورد في الصحيحين، عن عاصم الأحول، عن أنس، رضي الله عنه، أنه قال: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دارنا[(٧)] ـ فمعناه: أنه آخى بينهم، فكانوا يتوارثون به، حتى نسخ الله ذلك، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن عمارة الأسدي، حدثنا عبيد الله[(٨)] بن موسى، أخبرنا ابن أبي ليلى، عن مَزِيدة[(٩)] في قوله: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ﴾ قال: نزلت في بيعة النبي ﷺ، كان من أسلم بايع النبي ﷺ على الإسلام، فقال: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ﴾، هذه البيعة التي بايعتم

---

(١) في ت، ف، أ: «به تعالى».
(٢) زيادة من ف، أ.
(٣) في ف، أ: «ﷺ».
(٤) في ت: «الصحيح».
(٥) زيادة من ت، ف، أ.
(٦) المسند (٤/ ٨٣) وصحيح مسلم برقم (٢٥٣٠).
(٧) صحيح البخاري برقم (٢٢٩٤) وصحيح مسلم برقم (٢٥٢٩).
(٨) في ت: «عبد الله».
(٩) في ف: «بريدة».

على الإسلام، ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ البيعة، لا يحملنكم قلة محمد [وأصحابه][١] وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي تبايعتم على الإسلام.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا صخر ابن جُوَيرية، عن نافع قال: لما خلع الناس يزيد بن معاوية، جمع ابن عمر بنيه وأهله، ثم تشهد، ثم قال: أما بعد، فإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الغادر يُنصب له لواء يوم القيامة، فيقال[٢]: هذه غَدْرة فلان وإن من أعظم الغَدْرِ ـ إلا أن يكون الإشراك بالله ـ أن يبايع رجل رجلا على بيع الله ورسوله، ثم ينكث بيعته، فلا يخلعن أحد منكم يزيد ولا يسرفن أحد منكم في هذا الأمر، فيكون صَيْلم بيني وبينه»[٣].

المرفوع منه في الصحيحين[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا حجاج، عن عبد الرحمن بن عابس، عن أبيه، عن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شرط لأخيه شرطاً، لا يريد أن يفي له به، فهو كالمدلي جاره إلى غير مَنْعَة»[٥].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾: قال عبد الله بن كثير، والسدّي: هذه امرأة خرقاء، كانت بمكة، كلما غزلت شيئا نقضته بعد إبرامه.

وقال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده.

وهذا القول أرجح وأظهر، وسواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا.

وقوله: ﴿أَنكَاثًا﴾: يحتمل أن يكون اسم مصدر: نقضت غزلها أنكاثا، أي: أنقاضا. ويحتمل أن يكون بدلا عن خبر كان، أي: لا تكونوا أنكاثا، جمع نكث من ناكث؛ ولهذا قال بعده: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي: خديعة ومكرا، ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: يحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم غَدَرتُم. فنهى الله عن ذلك، لينبه بالأدنى على الأعلى؛ إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه، فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى.

وقد قدمنا ـ ولله الحمد ـ في سورة «الأنفال»[٦] قصة معاوية لما كان بينه وبين ملك الروم أمَدٌ، فسار معاوية إليهم في آخر الأجل، حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم، أغار عليهم وهم غارون لا يشعرون، فقال له عمرو بن عَبَسَة: الله أكبر يا معاوية، وفاء لا غدراً، سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) زيادة من ت، ف، أ.
(٢) في ت، ف: «يقال».
(٣) المسند (٢/ ٤٨).
(٤) صحيح البخاري برقم (٣١٨٨) وصحيح مسلم برقم (١٧٣٥).
(٥) المسند (٥/ ٤٠٤).
(٦) عند تفسير الآية: ٥٨.

يقول: «من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عُقدة حتى ينقضي أمدها». فرجع معاوية بالجيش، رضي الله عنه وأرضاه.

قال ابن عباس: ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ أي: أكثر.

وقال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء، فيجدون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز. فنهوا عن ذلك. وقال الضحاك، وقتادة، وابن زيد نحوه.

وقوله: ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ﴾: قال سعيد بن جُبَير: يعني بالكثرة. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن جرير: أي: بأمره إياكم بالوفاء والعهد.

﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾، فيجازي كل عامل بعمله، من خير وشر.

**﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾.**

يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾[1]، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩] أي: لوفق بينكم. ولما جعل اختلافا ولا تباغض ولا شحناء. ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]. وهكذا قال هاهنا: ﴿ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾، ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم، فيجازيكم عليها على الفتيل والنقير والقطمير.

ثم حذر تعالى عباده عن[2] اتخاذ الأيمان دخَلا، أي: خديعة ومكرا، لئلا تَزِل قدم بعد ثبوتها: مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها وزل عن طريق الهدى، بسبب الأيمان الحانثة[3] المشتملة على الصد عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالدين، فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿ وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ أي: لا تعتاضوا عن الأيمان بالله عَرَض الحياة الدنيا وزينتها، فإنها قليلة، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له، أي: جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به[4] وطلبه، وحفظ عهده[5] رجاء موعوده؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّ

---

(١) في ت: «أمة واحدة أيها الناس».
(٢) في ت، ف: «من».
(٣) في ت: «الخادثة».
(٤) في ف: «خير لمن آمن به ورجاه».
(٥) في ف، أ: «عهد الله».

كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾ أي: يفرغ وينقضي، فإنه إلى أجل معدود محصور مقدَّر مُتَناه، ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ أي: وثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع ولا نفاد له فإنه دائم لا يحول ولا يزول، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: قسم من الرب عز وجل[1] مُتَلقى باللام، أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم، أي: ويتجاوز عن سيئها.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)﴾.

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحا ـ وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه[2]، من ذكر أو أنثى من بني آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله ـ بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا وأن يجزيه[3] بأحسن ما عمله في الدار الآخرة.

والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت. وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب.

وعن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنه فسرها بالقناعة. وكذا قال ابن عباس، وعِكْرِمة، ووهب بن منبه.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أنها[4]: السعادة.

وقال الحسن، ومجاهد، وقتادة: لا يطيب لأحد الحياة إلا في الجنة.

وقال الضحاك: هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا، وقال الضحاك أيضا: هي[5] العمل بالطاعة والانشراح بها.

والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد:

حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثني شرحبيل بن شريك، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبد الله بن عَمْرو أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم ورُزق كفافا، وقنَّعه الله بما آتاه».

ورواه مسلم، من حديث عبد الله بن يزيد المقرئ، به[6].

وروى الترمذي والنسائي، من حديث أبي هانئ، عن أبي علي الجَنْبي[7] عن فضالة بن عُبَيد؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قد أفلح من هُدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافا، وقنع[8] به». وقال

(١) في ف: «جل شأنه». (٢) في ت: «رسوله». (٣) في ت: «يجزي».
(٤) في ت، ف: «هي». (٥) في ت، س: «هو».
(٦) المسند (٢/ ١٦٨) وصحيح مسلم برقم (١٠٥٤).
(٧) في ت، ف، أ: «الجيشي». (٨) في ت: «وسمع».

الترمذي: هذا حديث صحيح[١].

وقال الإمام أحمد، حدثنا يزيد، حدثنا هَمَّام، عن يحيى، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها في الدنيا [ويثاب عليها في الآخرة وأما الكافر فيعطيه حسناته في الدنيا][٢] حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً». انفرد بإخراجه مسلم[٣].

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)﴾.

هذا أمر من الله لعباده[٤] على لسان نبيه ﷺ: إذا أرادوا قراءة القرآن، أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم. وهو أمرُ ندبٍ ليس بواجب، حكى الإجماع على ذلك[٥] الإمام أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة. وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الاستعاذة مبسوطة في أول التفسير، ولله الحمد والمنة.

والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة، لئلا يلبس[٦] على القارئ قراءته ويخلط عليه، ويمنعه من التدبر والتفكر، ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة[٧]، وحكي عن حمزة، وأبي حاتم السجستاني: أنها تكون بعد التلاوة، واحتجا بهذه الآية. ونقل النووي في شرح المهذب مثل ذلك عن أبي هريرة أيضاً، ومحمد بن سيرين، وإبراهيم النَّخَعي. والصحيح الأول، لما تقدم من الأحاديث الدالة على تَقَدمها على التلاوة، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾: قال الثوري: ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه.

وقال آخرون: معناه لا حجة له عليهم. وقال آخرون: كقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٣].

﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾: قال مجاهد: يطيعونه.

وقال آخرون: اتخذوه ولياً من دون الله.

---

(١) سنن الترمذي برقم (٢٣٤٩).

(٢) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.

(٣) المسند (٣/ ١٢٣) وصحيح مسلم برقم (٢٨١٨).

(٤) في ت، ف: «عباده».

(٥) في ت، ف. «وحكى على ذلك الإجماع».

(٦) في ف: «التلبس».

(٧) في ف: «القراءة».

﴿ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أي: أشركوه في عبادة الله تعالى. ويحتمل أن تكون الباء سببية، أي: صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى.

وقال آخرون: معناه: أنه شركهم في الأموال والأولاد.

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) ﴾.

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم، وأنه لا يتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا للرسول: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ أي: كذاب. وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

وقال مجاهد: ﴿ بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ﴾ أي: رفعناها وأثبتنا غيرها.

وقال قتادة: هو كقوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

فقال تعالى مجيبا لهم: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ أي: جبريل، ﴿ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصدق والعدل، ﴿ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فيصدقوا بما نزل أولا وثانيا وتخبت له قلوبهم، ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وجعله هاديا [مهديا][1] وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسله.

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت: إن محمداً إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم، غلام لبعض بطون قريش، وكان بياعا يبيع عند الصفا، فربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذاك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لابد منه؛ فلهذا قال الله تعالى راداً عليهم في افترائهم ذلك: ﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ يعني: القرآن، أي: فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن، في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة، التي هي أكمل من[2] معاني كل كتاب نزل على نبي أرسل، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟! لا يقول هذا من له أدنى مُسْكة[3] من العقل.

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: كان رسول الله ﷺ ـ فيما بلغني ـ كثيراً ما يجلس

---

(١) زيادة من ت. (٢) في ت: «هي من أكمل». (٣) في ت: «مسلة».

عند المروة [إلى مَبِيعة غلام نصراني يقال له جبر، عبد لبعض بني الحضرمي، [فكانوا يقولون: والله ما يُعلم محمداً كثيرا مما يأتي به إلا جبر النصراني، غلام بني الحضرمي][1] فأنزل الله: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾[2].

وكذا قال عبد الله بن كثير: وعن عِكْرِمة وقتادة: كان اسمه يعيش.

وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن محمد الطوسي، حدثنا أبو عامر، حدثنا إبراهيم بن طَهْمَان، عن مسلم بن عبد الله الملائي، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعلم قَيْناً بمكة، وكان اسمه بلعام، وكان أعجمي اللسان، وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده، قالوا: إنما يعلمه بلعام، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾[3].

وقال الضحاك بن مزاحم: هو سلمان الفارسي، وهذا القول ضعيف؛ لأن هذه الآية مكية، وسلمان إنما أسلم بالمدينة وقال عبيد الله[4] بن مسلم: كان لنا غلامان روميان يقرآن كتابا لهما بلسانهما، فكان النبي ﷺ يمر بهما[5]، فيقوم فيسمع منهما فقال المشركون: يتعلم منهما، فأنزل الله هذه الآية.

وقال الزهري، عن سعيد بن المسيب: الذي قال ذلك من المشركين رجل كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فارتد بعد ذلك عن الإسلام، وافترى هذه المقالة، قبحه الله!.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥) ﴾

يخبر تعالى انه لا يهدي[6] من أعرض عن ذكره وتغافل عما أنزله على رسوله، ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسله في الدنيا، ولهم عذاب أليم موجع في الآخرة.

ثم أخبر تعالى أن رسوله ليس بمفتر ولا كذّاب؛لأنه ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ ﴾ على الله وعلى رسوله شرارُ الخلق، ﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس. والرسول محمد ﷺ، كان[7] أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علما وعملا وإيمانا وإيقانا، معروفاً بالصدق في قومه، لا يشك في ذلك أحد منهم بحيث لا يُدْعى بينهم إلا بالأمين محمد؛ ولهذا لما

(١) زيادة من ت، ف، أ، وابن هشام.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٩٣).

(٣) تفسير الطبري (١٤/ ١١٩).

(٤) في ت، ف: «عبد الله».

(٥) في أ: «عليهما».

(٦) في أ: «لا يهتدي».

(٧) في ت: «كان من».

سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها من صفة رسول الله ﷺ، كان فيما قال له: أو كنتم[1] تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. فقال: هرقل فما كان ليَدَع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله عز وجل.

**﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩)﴾.**

أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به: أنه قد غضب عليه، لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذابا عظيما في الدار الآخرة؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا[2] على ما أقدموا عليه من الردة لأجل[3] الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم ويثبتهم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم فلا[4] يعقلون بها شيئا ينفعهم وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئا، فهم غافلون عما يراد بهم.

﴿لا جرم﴾ أي: لابد ولا عَجَب أن هذه صفته، ﴿أنهم في الآخرة هم الخاسرون﴾ أي: الذين خسروا أنفسهم وأهاليهم[5] يوم القيامة.

وأما قوله: ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾: فهو استثناء ممن[6] كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرها لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله.

وقد روى العَوفيّ عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في عمَّار بن ياسر، حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مكرَهًا[7]، وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية، وهكذا قال الشعبي، وأبو مالك، وقتادة.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن مَعْمَر، عن عبد الكريم الجَزَريّ، عن أبي عبيدة [بن][8] محمد بن عمار[9] بن ياسر قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئنا بالإيمان قال النبي ﷺ: «إن عادوا فعد»[10].

ورواه البيهقي بأبسط من ذلك، وفيه أنه سب النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير، وأنه قال: يا رسول

---

(١) في ف: «أكنتم».
(٢) في ت: «فما قدموا».
(٣) في ت: «الردة لا لأجل».
(٤) في أ: «فهم لا».
(٥) في ت: «وأهليهم».
(٦) في ت: «فمن».
(٧) في ف، أ: «مستكرها».
(٨) زيادة من ت، ف، أ، والطبري.
(٩) في ت: «علي».
(١٠) تفسير الطبري (١٤/ ١٢٢).

الله، ما تُركتُ حتى سَبَبتك وذكرت آلهتهم بخير! قال: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئنا بالإيمان. فقال: «إن عادوا فعد». وفي ذلك أنزل الله: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[١].

ولهذا اتفق العلماء على أنه يجوز أن يُوَالي المكرَه على الكفر، إبقاءً لمهجته، ويجوز له أن يستقتل، كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدّة الحر، ويأمرونه أن يشرك بالله فيأبى عليهم وهو يقول: أحَد، أحَد. ويقول: والله لو أعلم كلمة هي[٢] أغيظ لكم منها لقلتها، رضي الله عنه وأرضاه. وكذلك حبيب بن زيد[٣] الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم. فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع. فلم يزل يقطعه إرْباً إرْباً وهو ثابت على ذلك[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب، عن عِكْرِمة، أن عليا، رضي الله عنه، حَرّق ناسا ارتدوا عن الإسلام، فبلغ ذلك ابن عباس فقال: لم أكن لأحرقهم بالنار، إن رسول الله ﷺ قال: «لا تعذبوا بعذاب الله». وكنت قاتلهم بقول رسول الله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه» فبلغ ذلك عليا فقال: ويح أم ابن[٥] عباس. رواه البخاري[٦].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا مَعْمَر، عن أيوب، عن حُمَيْد بن هلال العَدَوِيّ، عن أبي بردة قال: قدم على أبي موسى معاذُ بن جبل باليمن، فإذا رجل عنده، قال: ما هذا؟ قال[٧]: رجل كان يهوديا فأسلم، ثم تهود، ونحن نريده على الإسلام منذ ـ قال: أحسب ـ شهرين فقال: والله لا أقعد[٨] حتى تضربوا عنقه. فضربت عنقه. فقال: قضى الله ورسوله أن من رجع عن دينه فاقتلوه ـ أو قال: من بدل دينه فاقتلوه[٩].

وهذه القصة في الصحيحين بلفظ آخر[١٠].

والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه، ولو أفضى إلى قتله، كما قال[١١] الحافظ ابن عساكر، في ترجمة عبد الله بن حُذَافة السهمي أحد الصحابة: أنه أسرته الروم، فجاؤوا به إلى[١٢] ملكهم، فقال له: تنصر وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي. فقال له: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب، على أن أرجع عن دين محمد طرفة عين، ما فعلت! فقال: إذا أقتلك. قال: أنت وذاك! فأمر به فصلب، وأمر الرماة فرموه قريبا من يديه ورجليه، وهو يعرض عليه دين

---

(١) سنن البيهقي الكبرى (٨/ ٢٠٩).

(٢) زيادة من ت، ف، أ.

(٣) في ف: «يزيد».

(٤) انظر: الاستيعاب لابن عبد البر (١/ ٣٢٧) وأسد الغابة لابن الأثير (١/ ٤٤٣).

(٥) في ت، ف: «ابن أم».

(٦) المسند (١/ ٢١٧) وصحيح البخاري برقم (٦٩٢٢).

(٧) في ت: «فقال».

(٨) في ف: «قعدتك».

(٩) المسند (٥/ ٢٣١).

(١٠) صحيح البخاري برقم (٦٩٢٣) وصحيح مسلم برقم (١٧٣٣).

(١١) في ف، أ: «كما ذكره».

(١٢) في ف: «عنده».

النصرانية، فيأبى[١]، ثم أمر به فأنزل، ثم أمر بقِدْرٍ. وفي رواية: ببقرة من نحاس، فأحميت، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر، فإذا هو عظام تلوح. وعرض عليه فأبى، فأمر به أن يلقى فيها، فرفع في البَكَرَة ليلقى فيها، فبكى فطمع فيه ودعاه فقال له: إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة، تُلقى في هذه القدر الساعة في الله، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله. وفي بعض الروايات: أنه سجنه ومنع عنه الطعام والشراب أياماً، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير، فلم يقربه، ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟ فقال: أما إنه قد حَلَّ لي، ولكن لم أكن لأشمتك فيَّ. فقال له الملك: فَقَبِّلْ رأسي وأنا أطلقك. فقال: وتطلق معي جميع أسارى المسلمين؟ قال: نعم. فقبل رأسه، فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده، فلما رجع قال عمر بن الخطاب: حَقٌّ على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدأ. فقام فقبل رأسه[٢].

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١) ﴾.

هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة، مهانين في قومهم قد واتوهم على الفتنة، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة، فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه، وانتظموا في سلك المؤمنين، وجاهدوا معهم الكافرين، وصبروا، فأخبر الله تعالى أنه ﴿ مِنْ بَعْدِهَا ﴾ أي: تلك الفعلة، وهي الإجابة إلى الفتنة لغفور لهم، رحيم بهم يوم معادهم.

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ ﴾ أي: تحاجّ ﴿ عَنْ نَفْسِهَا ﴾ ليس أحد يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة، ﴿ وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ﴾ أي: من خير وشر، ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أي: لا ينقص من ثواب الخير ولا يزداد على ثواب الشر[٣]، ولا يظلمون نقيراً.

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣) ﴾.

هذا مثل أريد به أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يُتخطَّف الناس من حولها، ومن دخلها آمن لا يخاف، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ

---

(١) في ف: «فأبى».

(٢) تاريخ دمشق (٩/ ١١٦ «المخطوط»).

(٣) في ت: «المسيء».

حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧] وهكذا[1] قال ها هنا: ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ أى: هنيئها سهلاً، ﴿ مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ أى: جحدت آلاء الله عليها وأعظم ذلك بعثة محمد ﷺ إليهم، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ. جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ[2] الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]. ولهذا بدَّلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما، فقال: ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ أى: ألبسها وأذاقها[3] الجوع بعد أن كان يُجبى إليهم ثمرات كل شىء، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان، وذلك لما استعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافه، فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف، فأصابتهم سنة[4] أذهبت كل شىء لهم، فأكلوا العِلْهِز ـ وهو: وبر البعير، يجعل بدمه إذا نحروه.

وقوله: ﴿ وَالْخَوْفِ﴾، وذلك بأنهم[5] بُدِّلُوا بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه، حين هاجروا إلى المدينة، من سطوة سراياه وجُيُوشه، وجعلوا كل ما لهم فى سَفَال ودمار، حتى فتحها الله عليهم[6]، وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول الذى بعثه الله فيهم منهم، وامتن به عليهم فى قوله: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَّسُولاً [يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ][7]﴾ [الطلاق: ١٠، ١١] الآية وقوله[8]: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ إلى قوله[9]: ﴿ وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢].

وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم، فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرغد، بَدَّل[10] الله المؤمنين من بعد خوفهم أمنا، ورزقهم بعد العَيْلَة، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم، وسادتهم وقادتهم[11] وأئمتهم.

وهذا[12] الذى قلناه من أن هذا المثل مضروب لمكة، قاله العوفى، عن ابن عباس. وإليه ذهب مجاهد، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وحكاه مالك عن الزهرى، رحمهم الله.

وقال ابن جرير: حدثنى ابن عبد الرحيم البَرْقى، حدثنا ابن أبى مريم، حدثنا نافع بن زيد، حدثنا عبد الرحمن بن شُرَيح، أن عبد الكريم بن الحارث الحضرمى حدثه، أنه سمع مِشْرَح بن هاعان يقول: سمعت سليم بن عتر[13] يقول: صدرنا من الحج مع حفصة زوج النبى ﷺ، وعثمان، رضى

---

(١) فى ف: «ولكن».
(٢) فى ت: «فبئس» وهو خطأ.
(٣) فى ت: «فأذاقها».
(٤) فى ت، ف، أ: «سنة جائحة».
(٥) فى ت، ف: «أنهم».
(٦) فى ت، ف: «على رسول الله ﷺ».
(٧) زيادة من ت، ف، أ.
(٨) فى ت: «وقال».
(٩) فى ت، ف، أ: «ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون. فاذكرونى أذكركم واشكروا لى».
(١٠) فى ف: «فبدل».
(١١) فى ت، ف: «وقادتهم وسادتهم».
(١٢) فى أ: «وهكذا».
(١٣) فى ت: «عمير».

الله عنه، محصور بالمدينة، فكانت تسأل عنه: ما فعل؟ حتى رأت راكبين، فأرسلت إليهما تسألهما، فقالا: قتل. فقالت حفصة: والذي نفسي بيده، إنها القرية التي قال الله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾. قال أبو شريح: وأخبرني عبيد الله بن المغيرة، عمن حدثه: أنه كان يقول: إنها المدينة[1].

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٥) وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧)﴾.

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب، وبشكره على ذلك، فإنه المنعم المتفضل به ابتداء، الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له.

ثم ذكر ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم، من الميتة والدم، ولحم الخنزير.

﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي: ذبح على غير اسم الله، ومع هذا ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أي: احتاج في غير بغي ولا عدوان، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية في سورة «البقرة»[2] بما فيه كفاية عن إعادته، ولله الحمد [والمنة][3].

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين، الذين حللوا وحرموا بمجرد ما وضعوه واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وغير ذلك مما كان شرعا لهم ابتدعوه في جاهليتهم، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾. ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس [له][4] فيها مستند شرعي، أو حلل شيئا مما حرم الله، أو حرم شيئا مما أباح الله، بمجرد رأيه وتشهيه.

و«ما» في قوله: ﴿لِمَا﴾ مصدرية، أي: ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم.

ثم توعد على ذلك فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا ولا في الآخرة. أما في الدنيا فمتاع[5] قليل، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ١٢٥).

(٢) عند تفسير الآية: ١٣٧.

(٣) زيادة من أ.  (٤) زيادة من ت، ف، أ.  (٥) في ت، ف: «متاع».

نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾ [لقمان: ٢٤] وقال: ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون. متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

﴿وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (١١٨) ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم (١١٩)﴾.

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة[1] والدم ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، وأنه[2] أرخص فيه عند الضرورة ـ وفي ذلك توسعة لهذه الأمة، التي يريد الله بها اليسر ولا يريد بها العسر ـ ذكر سبحانه وتعالى ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الآصار والأغلال والحرج والتضييق، فقال: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل﴾ يعني: في «سورة الأنعام» في قوله: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما [أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون][3]﴾ [الأنعام: ١٤٦]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وما ظلمناهم﴾ أي: فيما ضيقنا عليهم، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي: فاستحقوا ذلك، كما قال: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا﴾ [النساء: ١٦٠].

ثم أخبر تعالى تكرما وامتنانا في حق العصاة المؤمنين: أن من تاب منهم إليه تاب عليه، فقال: ﴿ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة﴾. قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل.

﴿ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا﴾ أي: أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصي، وأقبلوا على فعل الطاعات، ﴿إن ربك من بعدها﴾ أي: تلك الفعلة والزلة ﴿لغفور رحيم﴾.

﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين (١٢٠) شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم (١٢١) وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين (١٢٢) ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين (١٢٣)﴾.

يمدح [تبارك و][4] تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم، إمام الحنفاء ووالد الأنبياء، ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية فقال: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا﴾، فأما «الأمة»، فهو

---

(١) في ت: «الميتة».　　(٢) في ف: «وإنما».

(٣) زيادة من ت، ف، أ، وفي هـ: «إلى قوله: وإنا لصادقون».

(٤) زيادة من ف، أ.

الإمام الذي يقتدى به. والقانت: هو الخاشع المطيع. والحنيف: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد؛ ولهذا قال: ﴿ولَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

قال سفيان الثوري، عن سلمة بن كُهَيْل، عن مسلم البَطِين، عن أبي العبيدين: أنه سأل عبد الله ابن مسعود عن الأمة القانت، فقال: الأمة: معلم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله.

وعن مالك قال: قال ابن عمر: الأمة الذي يعلم الناس دينهم.

وقال الأعمش، [عن الحكم][1] عن يحيى بن الجزار، عن أبي العُبَيْدين؛ أنه جاء إلى عبد الله فقال: مَنْ نسأل إذا لم نسألك؟ فكأن ابن مسعود رقَّ له، فقال: أخبرني عن الأمة[2]، فقال: الذي يعلم الناس الخير.

وقال الشعبي: حدثني فروة بن نوفل الأشجعي قال: قال ابن مسعود: إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً، فقلت في نفسي: غلط أبو عبد الرحمن، إنما قال الله: ﴿إِنَّ إِبْراهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾، فقال: أتدري ما الأمة وما القانت؟ قلت: الله [ورسوله][3] أعلم. قال: الأمة الذي يعلم [الناس][4] الخير. والقانت: المطيع لله ورسوله. وكذلك كان معاذ معلم الخير، وكان مطيعاً لله ورسوله.

وقد روي من غير وجه، عن ابن مسعود؛ حرره ابن جرير[5].

وقال مجاهد: ﴿أُمَّةً﴾ أي: أمة وحده، والقانت: المطيع. وقال مجاهد أيضاً: كان إبراهيم أمة، أي: مؤمناً وحده، والناس كلهم إذ ذاك كفار.

وقال قتادة: كان إمام هُدى. والقانت: المطيع لله.

وقوله: ﴿شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ﴾ أي: قائماً بشكر[6] نعم الله عليه، كما قال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]، أي: قام بجميع ما أمره الله تعالى به.

وقوله: ﴿اجْتَبَاهُ﴾ أي: اختاره واصطفاه، كما قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

ثم قال: ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضي.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة، ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: لسان صدق.

---

(١) زيادة من ت، ف، أ، والطبري. (٢) في ف، أ: «الأمة».

(٣) زيادة من أ. (٤) زيادة من ف، أ.

(٥) تفسير الطبري (١٤/ ١٢٨، ١٢٩).

(٦) في ت: «بشكره».

وقوله: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أى: ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه، أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء: ﴿ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾، كما قال: فى «الأنعام»: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١]، ثم قال تعالى منكرا على اليهود.

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤) ﴾.

لا شك أن الله شرّع فى كل ملة يوما من الأسبوع، يجتمع الناس فيه للعبادة، فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة؛ لأنه اليوم السادس الذى أكمل الله فيه الخليقة، واجتمعت [الناس][1] فيه وتمت النعمة على عباده. ويقال: إنه تعالى شرع ذلك لبنى إسرائيل على لسان موسى، فعدلوا عنه واختاروا السبت؛ لأنه اليوم الذى لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات الذى[2] كمل خلقها يوم الجمعة، فألزمهم[3] تعالى به فى شريعة التوراة، ووصاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه، مع أمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه. وأخذه[4] مواثيقهم وعهودهم على ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾.

قال مجاهد: اتبعوه وتركوا الجمعة.

ثم إنهم لم يزالوا متمسكين به، حتى بعث الله عيسى ابن مريم، فيقال: إنه حوّلهم إلى يوم الأحد. ويقال إنه: لم [يترك[5] شريعة التوراة إلا ما نسخ من بعض أحكامها وإنه لم][6] يزل محافظًا على السبت حتى رفع، وإن النصارى بعده فى زمان قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد، مخالفة لليهود، وتحولوا إلى الصلاة شرقا عن الصخرة، والله[7] أعلم.

وقد ثبت فى الصحيحين، من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن همام، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذى فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غدا، والنصارى بعد غد». لفظ البخارى[8].

وعن أبى هريرة، وحذيفة، رضى الله عنهما، قالا: قال رسول الله ﷺ: «أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم

---

(١) زيادة من ت، ف. (٢) فى أ: «التى». (٣) فى أ: «وألزمهم».
(٤) فى أ: «وأخذ». (٥) فى أ: «يزل على». (٦) زيادة من ت، ف، أ.
(٧) فى ت: «فالله».
(٨) صحيح البخارى برقم (٦٦٢٤) وصحيح مسلم برقم (٨٥٥).

الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة، والمقضى بينهم قبل الخلائق». رواه مسلم [والله أعلم][١][٢].

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله محمداً ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله ﴿بالحكمة﴾.

قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليه[٣] من الكتاب والسنة ﴿والموعظة الحسنة﴾ أي: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ذكرهم[٤] بها، ليحذروا بأس الله تعالى.

وقوله: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، كما قال: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم﴾ [العنكبوت: ٤٦] فأمره تعالى بلين الجانب، كما أمر موسى وهارون، عليهما السلام، حين بعثهما إلى فرعون فقال: ﴿فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى﴾ [طه: ٤٤].

وقوله: ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ أي: قد علم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه، فادعهم إلى الله، ولا تذهب نفسك على من ضل منهم[٥] حسرات، فإنه ليس عليك هداهم إنما أنت نذير، عليك البلاغ، وعلينا الحساب. ﴿إنك[٦] لا تهدي من أحببت﴾ [القصص: ٥٦]، و﴿ليس عليك هداهم﴾ [البقرة: ٢٧٢].

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨)﴾.

يأمر تعالى بالعدل في الاقتصاص والمماثلة في استيفاء الحق، كما قال عبد الرزاق، عن الثوري، عن خالد، عن ابن سيرين: أنه قال في قوله تعالى: ﴿فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾: إن أخذ منك رجل شيئاً، فخذ منه مثله.

وكذا قال مجاهد، وإبراهيم، والحسن البصري، وغيرهم. واختاره ابن جرير.

وقال ابن زيد: كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين، فأسلم رجال ذوو منعة، فقالوا: يا رسول

---

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) صحيح مسلم برقم (٨٥٦).

(٣) في ف، أ: «عليك».

(٤) في ت، ف: «يذكرهم».

(٥) في ت: «عليهم».

(٦) في ف: «وإنك» وهو خطأ.

الله، لو أذن الله لنا لانتصرنا من هؤلاء الكلاب! فنزلت هذه الآية، ثم نسخ ذلك بالجهاد.

وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أصحابه، عن عطاء بن يَسَار قال: نزلت سورة «النحل» كلها بمكة، وهي مكية إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أحد، حيث قتل حمزة، رضي الله عنه، ومثِّل به، فقال رسول الله ﷺ: «لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بثلاثين رجلا منهم» فلما سمع المسلمون ذلك قالوا: والله لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بهم مثله لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط. فأنزل الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ إلى آخر السورة[١].

وهذا مرسل، وفيه [رجل][٢] مبهم لم يسم، وقد روى هذا من وجه[٣] آخر متصل، فقال الحافظ أبو بكر البزار:

حدثنا الحسن بن يحيى، حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا صالح المري[٤]، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان، عن أبي هريرة، رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة بن عبد المطلب، رضي الله عنه، حين استشهد، فنظر إلى منظر لم ينظر أوجع للقلب منه. أو قال: لقلبه [منه][٥]، فنظر[٦] إليه وقد مُثِّل به فقال: «رحمة الله عليك، إن كنت ـ لما علمتُ ـ لوصولا للرحم، فعولا للخيرات، والله لولا حزن من بعدك عليك، لسرني أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع ـ أو كلمة نحوها ـ أما والله على ذلك، لأمثلن بسبعين كمثلتك[٧]». فنزل جبريل، عليه السلام، على محمد ﷺ بهذه السورة[٨]، وقرأ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ إلى آخر الآية، فكفر رسول الله ﷺ ـ يعني: عن يمينه ـ وأمسك عن ذلك[٩].

وهذا إسناد فيه ضعف؛ لأن صالحا ـ هو ابن بشير المري ـ ضعيف عند الأئمة، وقال البخاري: هو منكر الحديث.

وقال الشعبي وابن جُرَيْج: نزلت في قول المسلمين يوم أحد فيمن مثل بهم: لنمثلن بهم. فأنزل الله فيهم ذلك.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه: حدثنا هديَّة[١٠] بن عبد الوهاب المروزي، حدثنا الفضل بن موسى، حدثنا عيسى بن عبيد، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد، قتل من الأنصار ستون رجلا، ومن المهاجرين ستة، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لَنُرْبِيَنَّ عليهم. فلما كان يوم الفتح قال رجل: لا

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٤/ ١٣٢).

(٢) زيادة من ف، أ.    (٣) في أ: «من غير وجه».    (٤) في ت: «حدثت صالح حدثنا المري».

(٥) زيادة من ت.    (٦) في ت: «ونظر»    (٧) في ف، أ: «كمثلك».

(٨) في ت: «الآية».

(٩) مسند البزار برقم (١٧٩٥) «كشف الأستار».

(١٠) في ت، ف، أ: «هدبة».

تعرف[١] قريش بعد اليوم. فنادى مناد: إن رسول الله ﷺ آمن الأسود والأبيض إلا فلانا وفلانا ـ ناسا سماهم ـ فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ [فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ][٢] ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «نصبر ولا نعاقب»[٣].

وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن، فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل، كما في قوله: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، ثم قال: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠]. وقال: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾، ثم قال: ﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾، ثم قال: ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾: تأكيد للأمر بالصبر، وإخبار بأن ذلك إنما ينال بمشيئة الله وإعانته، وحوله وقوته.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: على من خالفك، لا تحزن عليهم؛ فإن الله قدر ذلك، ﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ ﴾ أي: غم ﴿ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي: مما يجهدون [أنفسهم][٤] في عداوتك وإيصال الشر إليك، فإن الله كافيك وناصرك، ومؤيدك، ومظهرك ومظفرك بهم.

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ أي: معهم بتأييده ونصره ومعونته وهذه معية خاصة، كقوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢]، وقوله لموسى وهارون: ﴿ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقول النبي ﷺ للصديق وهما في الغار: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد: ٤]، وكقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]، وكما قال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا [إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ][٥] ﴾ [يونس: ٦١].

ومعنى ﴿ الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾ أي: تركوا المحرمات، ﴿ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ أي: فعلوا الطاعات، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلؤهم، وينصرهم ويؤيدهم، ويظفرهم على أعدائهم ومخالفيهم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا

---

(١) في ت، ف، أ: «يعرف».

(٢) زيادة من ت، ف، أ، وفي هـ: «الآية».

(٣) زوائد المسند (٥/ ١٣٥).

(٤) زيادة من ت، ف، أ.

(٥) زيادة من ت، ف، أ، وفي هـ: «الآية».

مِسْعر، عن ابن عون، عن محمد بن حاطب قال: كان عثمان، رضي الله عنه، من الذين آمنوا، والذين اتقوا، والذين هم محسنون.

[آخر تفسير سورة النحل ولله الحمد أجمعه والمنة، وبه المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل][1]

---

(١) ما بين المعقوفين من ﴿ﻫ﴾.

## فهرس السور